



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



الرمضان
عليكم يا صابرين

WWW. **Ghaemiyeh** .com
WWW. **Ghaemiyeh** .org
WWW. **Ghaemiyeh** .net
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

۶۶

۶۶

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا
رَحْمَةُ اللَّهِ الرَّحِيمِ

۶۶

۶۶



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سید المرسلین صلی اللہ علیہ و آلہ : دراسہ موضوعیہ لِحیاء الرسول الاکرم...

کاتب:

آیت اللہ العظمی جعفر سبحانی

نشرت فی الطباعة:

موسسه امام صادق (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمپیوتریة

الفهرس

٥	الفهرس
٢١	سید المرسلین صلی اللہ علیہ و آلہ : دراسہ موضوعیہ لِحیاء الرسول الاکرم... المجلد ١
٢١	اشارہ
٢٢	اشارہ
٢٤	ہوئیہ کتاب
٢٩	السیرہ المحمّدیہ مدرسہ الأجيال
٣٣	مقدمہ المحاضر
٣٣	اشارہ
٣٤	عندما يلتقى العالم الحاضر بالعالم الغابر
٣٧	حیاء العظماء والخالدين
٣٧	الرسول الأکرم صلی اللہ علیہ و آلہ و سلم و حیاء حافلہ بالأحداث
٤١	مزایا هذا کتاب
٤٣	١ سید المرسلین فی ضوء القرآن الکریم
٥٨	٢ شبه الجزیرہ العربیہ أو مَهْد الحضارة الإسلامیة
٥٨	اشارہ
٦٠	مکة المعظمہ
٦١	تاریخ مکة
٦١	المَدینَةُ المنوَّرَةُ
٦٦	٣ الغزب قیل الإسلام
٦٦	اشارہ
٦٨	أخلاق العرب و تقالیذهم العامه
٧٠	هل كان للعرب حضارة قبل الإسلام؟
٧٣	ملاحج المجتمع الجاهلی العربی من منظار القرآن الکریم
٧٣	اشارہ

- ٧٥ ١. الشِرْكُ في العِبَادَةِ
- ٧٥ ٢. إنْكَارُ المعَادِ
- ٧٦ ٣. هَيْمَنَةُ الخِرَافَاتِ -
- ٧٨ ٤. الفَسَادُ الأخْلَاقِي -
- ٧٩ ٥. وَأُدُّ البَنَاتِ وإِقْبَارَهُنَّ
- ٨٠ ٦. تصوّراتُهُم الخِرَافِيَّةِ حَوْلَ المَلَائِكَةِ
- ٨٠ ٧. كَيْفِيَّةُ الانْتِفَاعِ مِنَ الأنْعَامِ
- ٨١ ٨. الاسْتِقْسَامُ بِالْأَزْلَامِ
- ٨١ ٩. النِّسْيَاءُ
- ٨٢ ١٠. الرِّبَا -
- ٨٣ تصوّرٌ مِنَ الوُضْعِ الجَاهِلِيِّ
- ٨٥ العَقِيدَةُ والِدِينُ فِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ -
- ٨٩ عَقِيدَةُ العَرَبِ حَوْلَ حَالِهِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ المَوْتِ
- ٩١ الأدَابُ مَرآةُ أخْلَاقِ الشُّعُوبِ ونَفْسِيَّاتِهَا
- ٩٢ مَكَانَةُ المَرْأَةِ عِنْدَ العَرَبِ الجَاهِلِيِّ
- ٩٥ المَرْأَةُ ومَكَانَتُهَا الاجْتِمَاعِيَّةِ عِنْدَ العَرَبِ
- ٩٨ مَقَارِنُهُ بِسِيطِهِ
- ٩٩ العَرَبُ وَالرُّوحُ القِتَالِيَّةِ
- ١٠١ الأخْلَاقُ العَامَّةُ فِي المَجْتَمَعِ الجَاهِلِيِّ العَرَبِيِّ
- ١٠٣ النِّزْوَعُ إِلَى الخِرَافَةِ والأسَاطِيرِ فِي المَجْتَمَعِ الجَاهِلِيِّ -
- ١٠٦ الخِرَافَاتُ فِي عَقَائِدِ العَرَبِ فِي الجَاهِلِيَّةِ
- ١٠٧ نَمَازِجُ مِنَ الخِرَافَاتِ فِي المَجْتَمَعِ الجَاهِلِيِّ -
- ١٠٧ اِشَارُهُ
- ١٠٨ ١. الاسْتِسْقَاءُ بِإشْعَالِ النِّيرانِ -
- ١٠٨ ٢. ضَرْبُ الثَّورِ إِذَا عَافَتِ البَقْرُ المَاءَ
- ١٠٩ ٣. كَتَى صَحِيحُ الإِبْلِ لِجَبْرًا السَّقِيمِ

- ٤ - حبس ناقة عند القبر إذا مات كريم ١١٠
٥. غقر الإبل على القُبور ١١٠
٦. التعشير ١١١
٧. تصفيق الضالّ في الصحراء ليهتدى ١١١
٨. الرتم ١١٢
٩. وطئ المرأة القليل الشريف لبقاء ولدها ١١٢
١٠. طرّح البسّ نحو الشّمس إذا سَقَطَتْ ١١٣
١١. تعليق شيء نجس على الرجل وقايه من الجنون ١١٣
١٢. الاستشفاء بدم الرئيس ١١٤
١٣. شقّ البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل ١١٤
١٤. معالجة المرضى بالأُمور العجيبه ١١٤
١٥. خرافاتٌ حول الغائب منهم ١١٦
١٦. عقائدهم العجيبه في الجنّ وتأثيره ١١٧
١٧. تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والأشياء ١١٧
- مكافحة الإسلام لهذه الخرافات ١١٨
- أوضاع العرب الإجتماعيه قبيل ظهور الإسلام ١٢١
- دُول الحيره وغان ١٢٥
- الدين في أرض الحجاز ١٢٨
- العلم والثقافه في الحجاز ١٣٠
- الإمام عليّ عليه السلام يصف العهد الجاهليّ ١٣٠
- فاطمه الزهراء عليها السلام تصف الوضع الجاهليّ ١٣٥
- جعفر بن أبي طالب يصف العهد الجاهليّ ١٣٦
- ٤ إمبراطوريتا الروم وإيران إبان عهد الرساله ١٣٨
- اشاره ١٣٨
- أوضاع الروم إبان عهد الرساله ١٣٨
- ظاهره الجدل العقيم في المجتمع الرومي ١٤٠

- أوضاع إيران إبان عهد الرسالة ١٤٣
- البذخ والتّرف في البلاط الساساني ١٤٤
- الوضع الاجتماعي في إيران ١٤٥
- حَقُّ التعلّم خاصّ بالطبقات العليا!! ١٤٧
- صفحة سوداء من جرائم خسروبرويز ١٥١
- حكم التاريخ في الملوك الساسانيين: ١٥٢
- الفوضى في الحكومه الساسانيه ١٥٣
- الفوضى الدينيه في إيران الساسانيين ١٥٥
- الحروب الإيرانيه الروميه ١٥٩
- ٥ أسلاف رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم ١٦٢
١. بطل التوحيد: إبراهيم الخليل عليه السلام ١٦٢
- اشاره ١٦٢
- مولد إبراهيم عليه السلام ١٦٣
- إبراهيم ومكافحته للوثنيه ١٦٧
- حوار إبراهيم الخليل عليه السلام مع عبده الكواكب ١٦٨
- طريقه الأنبياء في الحوار والجدال ١٧٣
- هل كان أزر والد إبراهيم؟ ١٧٥
- القرآن ينفي أبوه «أزر» لإبراهيم عليه السلام ١٧٦
- إبراهيم محطّم الأصنام ١٧٨
- العبر القيمه في هذه القصة ١٨٢
- هجره الخليل عليه السلام ١٨٦
- كيف ظهرت عين زمزم؟ ١٨٨
- تجديد اللقاء ١٩٠
٢. قُضِيَ بِنُ كلاب ١٩٢
٣. عبدمناف ١٩٤
٤. هاشم ١٩٤

- ١٩٤ اشاره
- ١٩٧ أمّيه بن عبدشمس يحسد هاشماً
- ١٩٨ هاشم يتزوج
- ١٩٩ ٥. عبد المطلب
- ١٩٩ اشاره
- ٢٠١ خفر زمزم
- ٢٠٤ التفانى فى سبيل الوفاء بالعهد والنذر
- ٢٠٦ حادثه عام الفيل
- ٢٠٧ ماهى أسباب هذه الحادثه؟
- ٢١١ عبدالمطلب يذهب إلى معسكر أبرهه
- ٢١٢ إنتظار قريش
- ٢١٤ كلمه حول المعجزه
- ٢١٨ نقاطاً تقتضى التأمل فى التفسير المذكور
- ٢٢٠ نقطتان هامتان
- ٢٢١ بحث علمى حول المعجزه
- ٢٢١ اشاره
- ٢٢٢ ١ - ماهى المعجزه وما هو تعريفها؟
- ٢٢٤ ٢. هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمه؟
- ٢٢٧ ٣. هل المعجزه تصدر عن علل ماديه غير معروفه فقط؟
- ٢٢٩ ٤. كيف تدل المعجزه على صحه ادعاء النبوه؟
- ٢٣٠ ٥. بماذا نتميز المعاجز عن غيرها من الخوارق؟
- ٢٣٧ ماذا بَعَدَ هزيمه الأحياش؟
- ٢٣٨ أوهام قريش تتفاقم!!
- ٢٤٠ عبد الله والد النبى:
- ٢٤٢ دور الأيادى المشبوهه فى تاريخ الإسلام
- ٢٤٣ قِصَه فاطمه الخنعميه

- ٢٤٥ علام الإختلاق فى هذه القصة!
- ٢٤٧ طهاره النبى من دنس الآباء وعهر الأمهات
- ٢٤٨ وفاة عبد الله فى «يُثرب».
- ٢٥٠ ٦ مولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
- ٢٥٠ اشاره
- ٢٥٠ فترة الطفوله فى حياه العظماء
- ٢٥٥ فى آتى يوم ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟
- ٢٥٥ أى القولين هو الصحيح؟
- ٢٥٦ فترة الحمل
- ٢٥٩ مؤاخذات وإشكالات على هذا البيان:
- ٢٦٠ الإحتفال بذكرى المولد النبوى
- ٢٦٣ مراسم تسميه النبى صلى الله عليه وآله وسلم
- ٢٦٤ خطأ المُستشرقين
- ٢٦٥ «أحمد» كان من أسماء النبى المشهوره
- ٢٦٩ فترة الرضاع فى حياه النبى صلى الله عليه وآله وسلم
- ٢٧١ نظره الإسلام فى تأثير الرضاع
- ٢٧٣ ٧ فترة الطفوله فى حياه النبى صلى الله عليه وآله وسلم
- ٢٧٣ اشاره
- ٢٧٧ خمسهُ أعوام فى الضخراء
- ٢٧٩ ٨ العوده إلى أحضان العائله
- ٢٧٩ اشاره
- ٢٨١ سفرهُ إلى يثرب
- ٢٨٣ وفاة عبدالمطلب
- ٢٨٤ كفالهُ أبى طالب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم
- ٢٨٥ سفرهُ إلى الشام
- ٢٨٧ أكذوبهُ المُستشرقين

- نُظِرَهُ إِجْمَالِيَهُ إِلَى التَّوْرَةِ الْحَاضِرَةِ ٢٩١
- ٢٩٩ ٩ فِتْرَةُ الشَّبَابِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
- ٢٩٩ إشاره
- ٣٠٠ رَسُولُ اللَّهِ وَقَدْرَتُهُ الرُّوحِيَّةُ
- ٣٠٠ خُرُوبُ الْفِجَارِ
- ٣٠٤ جِلْفُ الْقُضُولِ:
- ٣٠٨ ١٠ مِنْ فِتْرَةِ الشَّبَابِ إِلَى مَزَاوِلِهِ التِّجَارَةِ
- ٣٠٨ إشاره
- ٣١٠ سَبَبُ آخِرِ لِرْعَى الْغَنَمِ
- ٣١١ سَبَبُ ثَالِثٍ
- ٣١١ إِقْتِرَاحُ أَبِي طَالِبٍ
- ٣١٢ هَلْ غَمِلَ النَّبِيُّ أَجِيرًا لَخَدِيجَةٍ؟
- ٣١٣ رَحْلَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ التِّجَارِيَّةَ إِلَى الشَّامِ
- ٣١٥ خَدِيجَةُ زَوْجَةُ الرَّسُولِ الْأُولَى
- ٣١٨ خَدِيجَةُ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
- ٣٢٧ اِفْتِخَارُ أَهْلِ الْبَيْتِ بِخَدِيجَةٍ عَلَيْهَا السَّلَامُ
- ٣٢٨ الْعِلَلُ الظَّاهِرِيَّةُ وَالْحَقِيقِيَّةُ وَرَاءَ زَوْجِ خَدِيجَةٍ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
- ٣٣٠ كَيْفَ تَمَّتْ خِطْبَةُ خَدِيجَةٍ؟
- ٣٣٢ عَمْرُ خَدِيجَةٍ عِنْدَ زَوْجِهَا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
- ٣٣٥ ١١ مِنْ الزَّوْجِ إِلَى الْبَعْثَةِ
- ٣٣٥ إشاره
- ٣٣٦ فِتْرَةُ الشَّبَابِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
- ٣٣٧ مَشَاعِرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي فِتْرَةِ الشَّبَابِ
- ٣٣٨ أَوْلَادُ خَدِيجَةٍ
- ٣٣٩ حَدْسٌ لَا أَسَاسَ لَهُ مِنَ الْوَاقِعِ!!
- ٣٤٠ دَعَى رَسُولُ اللَّهِ: زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ

- ٣٤١ بداية الخلاف بين الوثنيين
- ٣٤٢ أعمده الوثنية نهتر
- ٣٤٤ نموذج آخر عن ضعف قريش
- ٣٤٧ أمين قريش يكفل علياً
- ٣٤٨ إيمان النبي وآبائه وكفلائه قبل الإسلام
- ٣٤٨ إيمان جدّه عبدالمطلب
- ٣٥٢ إيمان كفيله وعمه أبي طالب
- ٣٥٣ إيمان والدى النبي الأكرم
- ٣٥٥ إيمان النبي بالله وتوحيده قبل البعثة
- ٣٦٠ شبهات المستشرقين على عدم إيمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة
- ٣٦٠ اشاره
- ٣٦١ الآية الأولى: الهدايه بعد الضلاله
- ٣٦٤ الآية الثانية: الأمر بهجر الرجز
- ٣٦٦ الآية الثالثة: عدم علمه بالكتاب والإيمان
- ٣٦٦ اشاره
- ٣٧٠ تفسير الآية بآيه أخرى
- ٣٧٣ الآية الرابعة: عدم رجائه إلقاء الكتاب اليه
- ٣٧٥ الآية الخامسة: لو لم يشأ ما تلوته
- ٣٧٨ ١٢ بدء الوحي
- ٣٧٨ اشاره
- ٣٨١ دور الأنبياء في إصلاح المجتمع:
- ٣٨٢ مثلاً واضح في المقام
- ٣٨٥ أمين قريش في غار حراء
- ٣٨٧ بدء الوحي
- ٣٨٨ ظاهره القضايا الغيبية في رأى الماديين
- ٣٩٠ الروح المجردة

- ٣٩١ ظاهره الوحي عند الماديين
- ٣٩٢ أبرز النظريات الماديه لظاهره الوحي
- ٤٠١ ظاهره الوحي في منظار العقل والدين
- ٤٠٢ قنوات المعرفة الثلاث
- ٤٠٤ أنواع الوحي وأصنافه
- ٤٠٥ أساطير مختلفه
- ٤٠٦ بقيه حادثه نزول الوحي
- ٤٠٧ خديجه تذهب إلى ورقه بن نوفل
- ٤٠٩ بطلان هذه المزاعم
- ٤١٢ ١٣ متى نزل الوحي أولاً؟
- ٤١٢ اشاره
- ٤١٣ ما أجاب به علماء الشيعة
- ٤١٧ الأنبياء والبياره برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم
- ٤٢٠ محمّد خاتم الأنبياء
- ٤٢٢ ١٤ ما سبقني أحد
- ٤٢٢ أوّل من آمن بالنبىّ من الرجال والنساء
- ٤٢٢ من النساء: «خديجه»
- ٤٢٣ أقدم الرجال إسلاماً: «عليّ» عليه السلام
- ٤٢٨ النصوص النبويه:
- ٤٣٠ كلمات أمير المؤمنين عليه السلام
- ٤٣٤ كلمه الإمام السبط الحسن عليه السلام:
- ٤٣٤ رأى الصحابه والتابعين في أوّل من أسلم
- ٤٥١ مناظره بين المأمون وإسحاق:
- ٤٥٢ قضيه «تقطاع الوحي»
- ٤٥٤ أسطوره وليس تاريخاً!
- ٤٥٥ اختلاف المؤرخين في مسأله «تقطاع الوحي»

- الإختلاف فى مده انقطاع الوحى ----- ٤٥٩
- ١٥ الدَّعْوَةُ السِّرِّيَّةُ ودَعْوَةُ الأَقْرَبِينَ ----- ٤٦١
- اشاره ----- ٤٦١
- دَعْوَةُ الأَقْرَبِينَ ----- ٤٦٣
- كَيْفِيَّةُ دَعْوَةِ الأَقْرَبِينَ ----- ٤٦٧
- خِيَانَةُ تَارِيخِيَّةٍ وَ جِنَايَةُ أَدْبِيَّةٍ!! ----- ٤٦٩
- النَّبَوَّةُ وَالْإِمَامَةُ تَوْأَمَانِ .. ----- ٤٧١
- ١٦ الدَّعْوَةُ الْعَامَّةُ ----- ٤٧٣
- اشاره ----- ٤٧٣
- الثَّبَاتُ وَالْإِسْتِقَامَةُ عَلَى طَرِيقِ الْهَدَفِ ----- ٤٧٤
- تَبَاتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٌ وَ ضَبْرُهُ .. ----- ٤٧٥
- قَرِيشٌ تَمْشَى إِلَى أَبِي طَالِبٍ لَلْمَرْهَةِ الثَّلَاثَةَ .. ----- ٤٧٨
- قَرِيشٌ تَحَاوَلُ تَطْمِيعَ رَسُولِ اللَّهِ! .. ----- ٤٧٨
- نَمَازِجٌ مِنْ إِيْذَاءِ قُرَيْشٍ وَتَعْذِيبِهَا لِلْمُسْلِمِينَ ----- ٤٨٠
- أَبُو جَهْلٍ يَكْمُنُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ .. ----- ٤٨٥
- أَبُو لَهَبٍ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ----- ٤٨٦
- صَبْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ وَاسْتِقَامَتُهُ .. ----- ٤٨٧
- إِيْذَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَتَعْذِيبُهُمْ! ----- ٤٨٧
- اشاره ----- ٤٨٧
١. بلال الحبشى: ----- ٤٨٨
٢. آلُ يَاسِرٍ رَمَزَ الصُّمُودَ وَالْمَقَاوِمَةَ! ----- ٤٨٩
٣. عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ .. ----- ٤٩١
٤. أَبُو ذَرٍّ: أَوْلُ الْمَجَاهِرِينَ بِالْإِسْلَامِ ----- ٤٩٢
- قَبِيلُهُ غِفَارٌ تَعْتَنُقُ الْإِسْلَامَ ----- ٤٩٤
- أَعْدَاءُ النَّبِيِّ الأَلْدَاءِ ----- ٤٩٦
- عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَعْتَنُقُ الْإِسْلَامَ .. ----- ٤٩٧

- ١٧ رأى قريش فى القرآن - ٥٠٢
- اشاره ٥٠٢
- رأى الوليد فى القرآن: ٥٠٢
- رأى عتبه بن ربيعه فى القرآن - ٥٠٤
- تحججات قريش العجيبه: ٥٠٦
- الدوافع وراء معاداه قريش وعنادهم: ٥١٣
- اشاره ٥١٣
١. حَسَدُهُمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ٥١٣
٢. معارضه الدعوه الإسلاميه لشهواتهم: ٥١٥
٣. الخَوْفُ مِنْ عُقُوبَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ: ٥١٥
٤. الخَوْفُ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَةِ الْمُشْرِكَةِ: ٥١٦
- طائفه من اعتراضات المشركين: ٥١٧
- القرآن والنزول التدريجى: ٥١٧
- الأسرار المنطقيه للنزول التدريجى للقرآن: ٥٢٠
- أسرار أخرى لِنزول القرآن تدريجاً: ٥٢٣
- ١٨ إلى الحبشه ٥٢٦
- الهجره الأولى ٥٢٦
- الهجره الثانيه إلى الحبشه: ٥٣٠
- قريش توفد رجالاً لاسترداد المسلمين: ٥٣١
- العوده من الحبشه: ٥٣٧
- وفد مسيحي لتقصى الحقائق يدخل مكه: ٥٣٩
- وفد قريش إلى يهود يثرب للتحقيق: ٥٤٠
- ١٩ الأسلحة الفاشله والأساليب الباطله ٥٤٢
- اشاره ٥٤٢
١. الاتهامات الباطله: ٥٤٢
- اشاره ٥٤٢

- الإصرار في نسبه الجنون إليه صلى الله عليه وآله وسلم: ٥٤٧
- القرآن يرد على جميع الاتهامات: ٥٤٩
٢. فكرة معارضة القرآن: ٥٥٢
٣. تحججات صبيانيته وجاهليته: ٥٥٤
٤. مقترحات عجيبيه ومطالب غريبه: ٥٥٦
- اشاره ٥٥٦
- صبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستقامته وثباته: ٥٥٧
- معاجز النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تنحصر في القرآن الكريم: ٥٥٨
- اشاره ٥٥٨
١. شق القمر ٥٥٨
٢. الإسراء والمعراج ٥٥٩
٣. مباله أهل الباطل ٥٥٩
٤. الإخبار بالمغيبات ٥٥٩
- حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هدايه قريش: ٥٦٠
٥. تحريم المشركين استماع القرآن ٥٦٢
- اشاره ٥٦٢
- واضعوا القرار ينقضون قرارهم!! ٥٦٣
٦. منع الأشخاص من الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٥٦٤
- اشاره ٥٦٤
- الأول: الأعشى بن قيس: ٥٦٤
- الثاني: الطفيل بن عمرو الدوسي: ٥٦٦
- ٢٠ أسطوره الغرائيق ٥٦٨
- اشاره ٥٦٨
- ماهى أسطوره الغرائيق؟! ٥٦٩
- محاسبه بسيطه لهذه الأسطوره ٥٧٠
- رأى العقل فى هذه القصة: ٥٧١

- ٥٧٣ تكذيب القَصِّه من طريق آخر
- ٥٧٤ ذليلٌ لَعَوَى على تفنيد هذه الأسطوره
- ٥٧٦ شبهات للمستشرقين والرد عليها
- ٥٧٦ اشاره
- ٥٧٧ ١. ما هو المقصود من تمتى الأنبياء والزسل؟
- ٥٧٧ ٢. ما هو المقصود من تدخّل الشيطان؟
- ٥٧٩ ٣. ما هو المقصود من محو آثار التدخّل؟
- ٥٨١ ٢١ الحصار الاقتصادي والاجتماعي
- ٥٨١ اشاره
- ٥٨٢ قریش تحاصر النبيّ والمسلمين اقتصادياً واجتماعياً
- ٥٨٥ وضع بنى هاشم المأساوى فى الشعب
- ٥٩٣ ٢٢ أبو طالب رجل الإيمان والتضحيات
- ٥٩٣ اشاره
- ٥٩٦ نماذج من مشاعر أبى طالب ومودّته للنبيّ صلى الله عليه و آله و سلم
- ٥٩٩ التغيير فى برنامج السفر
- ٦٠٠ أبو طالب والدِفاع عن حوزة العقيدة والإيمان
- ٦٠٢ تصوّر باطل
- ٦٠٣ الدافع الحقيقى لأبى طالب
- ٦٠٤ لمحات من تضحيات أبى طالب
- ٦٠٦ تكفير أبى طالب قضيتّه ذات بواعث سياسيتّه:
- ٦٠٧ الأدلّه على إيمان أبى طالب
- ٦٠٧ اشاره
- ٦٠٨ الطريق الأول: آثار أبى طالب العلميتّه والأدبيّه
- ٦١٠ الطريق الثانى: دفاع أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و حمايته له
- ٦١٠ اشاره
- ٦١١ وصيه أبى طالب عند وفاته

- الطريق الثالث: رأى أقربائه وأصدقائه ٦١٢
- رأى علماء الشيعة فى أبى طالب ٦١٤
- نظره إلى حديث «الضحاح» ٦١٤
- اشاره ٦١٤
١. ضعف أسناد هذه الروايه ٦١٥
٢. نصّ حديث الضحاح يخالف الكتاب والسنة ٦١٦
- ٢٣ المعراج ٦١٩
- المعراج فى نظر القرآن والسنة والتاريخ ٦١٩
- هل للمعراج جذور قرآنيه؟ ٦٢٢
- أحاديث المعراج: ٦٢٤
- متى وقعت هذه الحادثه؟ ٦٢٥
- هل كان المعراج جسمانياً؟ ٦٢٨
- ما هو المراد من المعراج الروحاني؟ ٦٢٩
- نعمه شاده: ٦٣٢
- المعراج وقوانين العلم الحديث: ٦٣٣
- ما هو الهدف من المعراج؟ ٦٣٨
- ٢٤ سفره صلى الله عليه و آله و سلم إلى الطائف ٦٤٠
- اشاره ٦٤٠
- النتيجه صلى الله عليه و آله و سلم يعود إلى مكّه: ٦٤٤
- نقطه هامه: ٦٤٦
- الدعوه فى أسواق العرب: ٦٤٧
- دعوه رؤساء القبائل فى مواسم الحج: ٦٤٨
- ٢٥ بيعه العقبه ٦٥٠
- اشاره ٦٥٠
- وقعه بُعات: ٦٥٢
- تفصيل الحادث: ٦٥٣

- ٦٥٤ بيعه العقبه الأولى:
- ٦٥٥ بيعه العقبه الثانيه:
- ٦٥٨ أوضاع المسلمين بعد بيعه العقبه:
- ٦٦١ ردود فعل قريش تجاه بيعه العقبه:
- ٦٦٣ تأثير الإسلام ونفوذه المعنوى:
- ٦٦٦ مخاوف قريش المتزايدة:
- ٦٦٩ حوادث السنه الأولى من الهجره
- ٦٦٩ ٢٦ فضه الهجره
- ٦٦٩ اشاره
- ٦٧١ الإمدادات الغيبية والعنايات الإلهية:
- ٦٧٣ ملك الوحي يخبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بخطه قريش لاغتياله
- ٦٧٦ إقتحام الأعداء لبيت الوحي:
- ٦٧٨ النبي في غار ثور:
- ٦٧٨ قريش تفتش عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم:
- ٦٧٩ الإمام على عليه السلام والتفانى فى سبيل الحق:
- ٦٨٣ كلام من ابن تيميه:
- ٦٨٥ الجواب التفصيلى:
- ٦٨٧ الخطيب وقضيه المبيت:
- ٦٨٨ بقيه قصه هجره النبي:
- ٦٩١ الخروج من الغار:
- ٦٩١ صفحه التاريخ الأولى:
- ٦٩٢ لماذا أصبح العام الهجرى مبدأ للتاريخ؟
- ٦٩٣ الهجره النبويه مبدأ لتاريخ المسلمين كافة:
- ٦٩٦ من الذى جعل الهجره مبدأ للتاريخ؟
- ٦٩٦ نماذج من رسائل النبي صلى الله عليه و آله و سلم والصحابه المؤرخه:
- ٧٠١ التذكير بنقطتين:

٧٠٣	مؤامره الطاغوت:
٧٠٣	الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم يبدأ رحلته إلى يثرب
٧٠٦	النزول في قرية قباء:
٧٠٨	المدينة تهبُّ لقدم النبي صلى الله عليه و آله و سلم:
٧١٠	النبي صلى الله عليه و آله و سلم يدخل المدينة:
٧١٢	أصل النفاق ومنشؤه:
٧١٥	فهرس المحتويات
٧٤٤	تعريف مركز

سید المرسلین صلی اللہ علیہ و آلہ : دراسه موضوعیه لحياء الرسول الاكرم... المجلد ۱

اشاره

سرشناسه: سبحانی تبریزی، جعفر، ۱۳۰۸ -

Sobhani Tabrizi, Jafar

عنوان و نام پدیدآور: سید المرسلین صلی اللہ علیہ و آلہ: دراسه موضوعیه لحياء الرسول الاكرم... / جعفر السبحانی؛ بقلم جعفر الہادی.

مشخصات نشر: قم: موسسه الامام صادق (ع)، ۱۴۴۱ق. = ۱۳۹۹.

مشخصات ظاہری: ۲ج.

شابک: دوره: ۹۷۸-۹۶۴-۳۵۷۶۴۶-۲؛ ج. ۹۷۸-۱-۹۶۴-۳۵۷۶۴۷-۹؛ ج. ۹۷۸-۲-۹۶۴-۳۵۷۶۴۸-۶

وضعیت فهرست نویسی: فیبا

یادداشت: عربی.

موضوع: محمد (ص)، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ق.

موضوع: ۶۳۲. Muhammad, Prophet, d.

موضوع: غزوات

موضوع: Ghazavat

موضوع: سنت نبوی

موضوع: *Wonts of the Prophet

موضوع: اسلام -- تاریخ -- از آغاز تا ۱۱ق

موضوع: ۶۳۲ -- History -- Islam

شناسه افزوده: هادی، جعفر، ۱۳۲۵ - ۱۳۹۹.

شناسه افزوده: Hadi, Ja'far

رده بندی کنگره: BP۲۲/۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۳

شماره کتابشناسی ملی: ۶۱۸۱۶۰۶

وضعیت رکورد: فیا

ص: ۱

اشاره

سید المرسلین صلی اللہ علیہ و آلہ: دراسہ موضوعیہ لِحیاء الرسول الاکرم...

جعفر السبحانی؛ بقلم جعفر الہادی

ص: ۲

هويّه الكتاب

سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم

دراسه موضوعيه لحياه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وما رافقها من أحداث تاريخيه ودينيه وسياسيه وعسكريه واجتماعيه

محاضرات

العلّامه المحقّق

الشيخ جعفر السبحاني

بقلم

جعفر الهادي

الجزء الأوّل

نشر

مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

ص: ٣

سبحانی تبریزی، جعفر ۱۳۰۸ -

سید المرسلین صلی الله علیه و آله و سلم / تألیف جعفر السبحانی؛ تعریب جعفر الهادی. - قم: مؤسسه الإمام الصادق علیه السلام، ۱۳۹۹.

ج. ۱. (ISBN ۹۷۸-۹۶۴-۳۵۷-۶۴۷-۹) VOL

(ISBN ۹۷۸-۹۶۴-۳۵۷-۶۴۶-۲) ۲VOL.SET

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیما.

کتابنامه به صورت زیر نویس.

۱. محمد صلی الله علیه و آله و سلم، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ ق -- سرگذشت نامه. الف. هادی، جعفر، ۱۳۲۵ - مترجم. ب. مؤسسه امام صادق علیه السلام. ج. عنوان.

۹ س ۲ / ۲۲/۹ / ۹۳/۲۹۷ BP

۱۳۹۹

اسم الكتاب:.... سید المرسلین صلی الله علیه و آله و سلم / ج ۱

المؤلف:.... العلامة المحقق الشيخ جعفر السبحانی

بقلم:.... الأستاذ الشيخ جعفر الهادی

الموضوع:.... السیره النبویه

الطبعة:.... الأولى

تاریخ الطبع:.... ۱۳۹۹ ه. ش / ۱۴۴۱ ه ق / ۲۰۲۰ م

المطبعة:.... مؤسسه الإمام الصادق علیه السلام

الناشر:.... مؤسسه الإمام الصادق علیه السلام

القطع:.... وزیری

عدد النسخ:.... ۱۰۰۰

التنفيذ والإخراج الفني: ... مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

تسلسل النشر: ١٠٧٢ تسلسل الطبعة الأولى: ٥٠٧

حقوق الطبع محفوظة للمؤسسه، فلا يجوز شرعاً استنساخ أو نشر إصدارات

المؤسسه إلا بعد التنسيق مع المؤسسه واستحصال الموافقه الرسميه

توزيع: مكتبه التوحيد

ايران - قم؛ ساحه الشهداء

٠٩١٢١٥١٩٢٧١؛ ٣٧٧٤٥٤٥٧ ?

www.shia.ir

www.tohid.ir

<http://www.imamsadiq.org>

ص: ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ص: ٥

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (١).

النبي الأكرم «محمّد» صلى الله عليه وآله وسلم أُسوةٌ للمسلمين... أُسوةٌ يقتدون بها في جميع مناحي حياتهم: الفرديه والاجتماعيه، والسياسيه... أُسوه إلى الأبد... في كلّ زمان و مكان، في كلّ عصر و مصر، لجميع المسلمين من كلّ لون ولغه.

ولكن كيف يتأثري المسلمون - في مختلف الأجيال والأدوار - برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكيف يقتدون بسيرته المثلى، ويهتدون بهديه العظيم؟

إنّ هذا لا يتسنى إلّا إذا كانت حياه رسول الإسلام بجميع خصوصياتها، وتفصيلها، وفي جميع مجالاتها ونواحيها، مدوّنه مسجّله، بل ومحلّله تحليلاً دقيقاً وعميقاً.

من هنا فإنّ الضروره تقضى بوجود تاريخ مدوّن، مشفوع بالتحليل الدقيق، والدراسه الموضوعيه لشخصيه وسيره سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم في كافه مجالاتها الشخصيه والرساليه والسياسيه والعسكريه.

حقاً إنّ في حياه رسول الإسلام العظيم «محمّد بن عبد الله» صلى الله عليه وآله وسلم - كما هو واضح لمن تتبّع وتصفّح - أموراً دقيقه، ولكن بالغه العظمه في مداليلها ومعانيها، بالغه الأهميه في معطياتها ودروسها.

فرسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم الأنبياء، ورسالته وشريعته خاتمه الرسالات

ص: ٧

والشرائع ونهضته هي النهضة الكبرى التي مهّدت لها الأنبياء السابقون، وقد فتحت هذه النهضة الإلهية صفحة جديدة في حياة البشرية، وغيّرت مسار التاريخ الإنساني تغييراً جذرياً، وأسست حضاره كبرى لا تزال أواجهها - رغم مرور أربعة عشر قرناً - حيّه نابضه، فاعله، تهزُّ الضمائر، وتتفاعلُ مع العقول.

ولهذا فإنَّ السيره المحمّديه مشحونهٌ بالمناهج والدروس، زاخره بالبصائر والعبر، بقدر ما هي مليئه بالدقائق والحقائق، واللطائف والأسرار.

حقّاً إنّ حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحاجة إلى تعمقٍ جديدٍ كلّما تجدد الزمن، وكلّما تقدّمت العلوم والمعارف، وتطوّرت الحياه، وانفتحت أمام البشرية آفاق جديدةٌ في شتى الأصعدة والمجالات.

ولا شكّ أنّ هذه المهمّه ليست عملاً بسيطاً ومهمّه سهله، وخاصّه مع ما عليه الكثير من المصادر التاريخيه الأولى من تصحيف أو تحريف أو تشويه للحقائق، أو تغيير للأحداث.

فإنّ هذه المهمّه تحتاج - في ما تحتاج إليه - إلى ثلاثة شروط أساسيه:

١. عقليه متفتّحه، متدبّره، نافذه، متأنيه.

٢. جهود كبيره، وتتبع واسع، وتمييز للصحيح عن السقيم، والدخيل عن الأصيل.

٣. معرفه بجوانب تتّصل بالسيره المحمّديه اتّصلاً وثيقاً كالمعرفه بمكانه سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم.

فمع توفر هذه الشروط يمكن الحصول على صورته نقيه، ومفيده للسيره المحمّديه المباركه، صورته تتفق مع روح القرآن، وتلتقى مع الواقع، وتصلح للاقتداء، والاهتداء، وإقتفاء الأثر.

ص: ٨

ولقد توفّرت هذه الشروط - ولله الحمد - في أستاذنا العلامة المحقق سماحه آية الله الشيخ جعفر السبحاني، حفظه الله.

فهو المعروف بسلسلته القرآنية «مفاهيم القرآن» التي تكشف عن إحاطه كبيره بكتاب الله العزيز، وإمام قليل النظر بمفاهيمه. كما عرف بأعماله الفكرية، الناضجة المتنوعة الكاشفة عن عقله متفتّحه واعيّه ومعاصره.

ولهذا كان خيرَ مَنْ قام في عصرنا الحاضر بدراسه السيره المحمّديه الطاهره العبقه، فكان هذا العمل التاريخي المبارك الذي توفّرت فيه المستلزمات الثلاثه الآنفه الذكر: العقليه المتفتّحه، والمعرفه الواسعه بالقرآن الكريم وخاصّه في ما يتّصل بالرّسول الأكرم، إلى جانب التّبع الواسع والاستقصاء الكبير لمواقع العبره والإسوه في حياه خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

ولا أجدني - في هذا التقديم العابر - بحاجة إلى ذكر نقاط القوه الكثيره في هذه الدراسه المستوعبه لشخصيه وحياه رسول الإسلام، بل أرى أن يحاول القارئ الكريم بنفسه الاطلاع على ذلك حتّى لا يفوته شيء ممّا لا يفوت، وسيقف بنفسه أيضاً على جسامه ما بذل في هذه الدراسه من جهد، وروعه ما ضُمّت من تحليل، وأهميه ما احتوته من حقائق.

وفي الختام أسأل الله العليّ القدير أن يتقبّل منّا جميعاً هذا الجهد، ويجعله ذخرًا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إنّه خير معين.

جعفر الهادي

٣٠ شعبان ١٤٠٩ هـ

قم المقدّسه

ص: ٩

التاريخ في أعظم ملاحمه

يُحاول الإنسان دائماً أن ينظر إلى كلّ قضيه من القضايا من نافذه الحسّ، وأن يدرسها من خلال الرؤيه الحسيه الماديّه، لأنّ أوثَق المعلومات لديه هي تلك التي تتألف من هذه «المعلومات الحسيه» ولهذا فإنّ المسائل التي تحظى بأدله حسيه أكثر، تكسب في العاده قسطاً أكبر من ثقّه الإنسان وتصديقه.

وعلى هذا الأساس عمّد العالم اليوم إلى تأسيس آلاف المختبرات الضخمه للتحقيق في شتى القضايا العلميه، ويعكف العلماء في هذه المختبرات على دراسته وتحليل الأمور المتنوّعه بأسلوب خاص وطريقه معينه.

ولكن هل يمكن - يا ترى - أن تدخل المسائل والقضايا الاجتماعيه في نطاق التجربه المختبريه، وتخضع للمجهر والميكروسكوب، ليتمكن الحكم في هذه المجالات من خلال ذلك؟!

فمثلاً؛ هل يمكن أن نعرف عن طريق التجارب المختبريه ما يؤدي إليه الاختلاف والتشردم في المجتمع الواحد، وما يصيب شعباً من الشعوب أو أمّه من الأمم من هذا الطريق؟

أم هل يمكن تقييم ما تنتهي إليه جهود المستعمرين، أو ما يؤول إليه الظلم والحيف، من خلال تجربه حسيه؟

أم هل يمكن الوقوف على نتائج «الاختلاف الطبقي»، «والتمييز العنصري» في المجتمع عن طريق التجربه المختبريه؟

في الإجابة عن كلّ هذه الأسئلة يجب أن نقول: كلّاً مع الأسف.

وذلك لأنه لا- توجِّد للقضايا الاجتماعيه - رغم أهميتها القصوى - مثل هذه المختبرات، وحتى لو أمكن توفير مثل هذه المختبرات المناسبه لتحليل وتقييم ودراسه القضايا الاجتماعيه، فإن إنشاءها وإيجادها يكلف نفقات باهضه، وتستدعي جهوداً عظيمة.

ولكنَّ الأمر الذي في مقدوره أن يقلل من حجم هذا النقص إلى حدِّ كبير هو أننا نملك اليوم شيئاً يُسمَّى ب: «تاريخ الماضين» والذي يشرح لنا ما كان عليه البشرُ - أفراداً وجماعات - طوال آلاف السنين من الحياه على هذه الأرض، كما ويعكس مختلف الذكريات والخواطر عنهم، من إنتصارات وهزائم، ونجاحات وانتكاسات، ويوقفنا بالتالى على كلِّ ما وقع فى حياه الأمم والشعوب من حوادث مرّه أو حلوه.

إنَّ التاريخ يذكر لنا: كيف وُجِدَت الحضارات المشرقه والمدنيات العظمى فى العالم، وكيف سلكت - بعد مدّه - طريق السقوط والانقراض، حتى أنّها قد مُحيت عن صفحه الوجود بالمرّه، وأصبحت خبراً بعد أثر، وبالتالى ما هى العوامل التي كانت وراء سياده الشعوب ثم اندحارها.

إنَّ حياه الماضين وتاريخهم يحتفظ لنا فى صفحاته بقسط كبير ومهمّ جداً من هذه الحوادث، ولهذا صحَّ أن يقال: «التاريخ مختبر الحياه العظيم»، فبمعونه التاريخ يمكن تقييم مختلف القضايا الاجتماعيه، ودراستها واستخلاص النتائج والعبر المفيده منها.

عندما يلتقى العالم الحاضر بالعالم الغابر

وإنَّ من حُسن الحظ أننا لم نكن أوّل من حطَّ قدمه على هذا الكوكب، فهذه الأرضُ بسهولها وشعابها العريضه، وتلك السماء بنجومها وكواكبها الزاهره شهدتا ملايين الملايين من البشر الذين سكنوا الأرض من قبلنا، وشهدتا أفراحهم

وأتراحهم، همومهم وغمومهم، وحروبهم، ومصالحاتهم، وكل ما رافق واكتنف حياتهم من حبّ وبغض وظلمات وأنوار، وارتقاء وهبوط، إلى غير ذلك من شؤون وشجون الحياه البشريه التي يزخر بها تاريخ الشعوب والأقوام والأمم.

صحيح أنهم قد اختلفوا مع الكثير من أسرار حياتهم، وغابوا جميعاً - أشخاصاً وأسراراً - في بحر من النسيان وانسدل عليهم الستار، إلّا أنّ قسطاً مُلفتاً للنظر وجمله يُعتد بها من تلك الأمور إمّا أنّها قد دُوّنت بأيدي أصحابها، أو لا تزال طبقات الأرض وبطون التلال تحتفظ بها في ثناياها وطياتها، كما ولا تزال ذات الأطلال الصامته - في ظاهرها - تشكل أضخم متحف، وأغنى معرض، وأكبر مختبر، يعيد لنا شريط التاريخ ويحكى وقائعه وأحداثه، ويشرح رموزه وأسراره.

إنّ مُطالعه تلكم الصفحات من تاريخ الأمم الغابره في الكتب، أو في الأطلال العظيمه، أو في ما يعثر عليه المنقبون في بطون التلال، وثنايا الأرض تعلمنا أموراً كثيره، وتضيف إلى عُمرنا عُمرًا جديدًا وزمنًا إضافيًا، لا يُستهان به وذلك بما تقدّم لنا من الخبره والعبره، والهدى والبصيره.

أليست حصيله العمر ما هي إلّا ما استفاده المرء من تجارب؟ ألا يجعل التاريخ خلاصه أفضل التجارب تحت تصرّفنا؟

ولقد أشار الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في وصيه لولده إلى هذه الحقيقه حيث قال:

«أَيُّ بَنِي، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرُتُ عُمَرُتُ مَنْ كَدَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَجْبَارِهِمْ، وَسَيَّرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى

إِلَىٰ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمَّرْتُ مَعَ أَوْلِيهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ» (١).

ولكنَّ المؤسّف أن كُتِبَ التاريخ الموجوده الآن تعانى من نقص كبير من حيث الإشاره إلى العبر والدروس الاجتماعيه المفيده، لأنّ هذه المصنّفات لم تدوّن لأجل هذا الغرض، ولهذا أُغفلَ فيها - فى الأغلب - كلّ ما هو مؤثّر فى كشف الحقائق التاريخيه، وإبراز العلل الكامنه وراء الحوادث المتنوّعه والوقائع المختلفه، وبالتالى فقد تجاهلت تلك الكتب والدراسات ما هو المفتاح الطبيعى لحلّ الرّموز الكبرى فى مسيره التاريخ البشرى، واعتنت - بدلاً عن ذلك - بالقضايا التفاهه.

لقد تصدّى كثيرٌ من المؤرّخين لتدوين وتسجيل القضايا التاريخيه، تاره بهدف التسليه وأخرى بدافع إبراز الفضل لأقوامهم أو طوائفهم، وإظهار تفوّقها على الأقوام والطوائف الأخرى، وثالثه بدافع الحب والبغض، أو التعصّب لهذا أو ذاك ولهذا عجزت هذه المؤلّفات والكتب عن حلّ أيّه مشكله، وتبديد أيّه حيره، بل هى تزيد المرء ضلالاً إلى ضلال، وحيره إلى حيره!

ولكن رغم كلّ هذا يستطيع أولو النباهه والبصيره، وأصحاب الفهم والتحقيق أن يتوصّلوا - من خلال مطالعه هذه المؤلّفات التاريخيه على ما فيها من عيوب ونقائص، ومع ما فيها من أساطير عن الشعوب المختلفه - إلى ما يساعدهم على كشف الكثير من أسرار وخلفيات القضايا والأمر المتعلّقه بالشعوب الماضيه، تماماً كما يفعل الطبيب الحاذق، أو القاضى البارع الذى يمكنهما من خلال الوقوف على القرائن الجزئيه المتفرّقه، التوصل إلى اكتشاف نوع «المرض» أو حاله «المتهم» الحقيقيه، وما يعانى منه فى واقعه النفسى.

ص: ١٤

١- . نهج البلاغه: قسم الكتب برقم ٣١.

إنَّ أعظم صفحات التاريخ قيمه هي تلك التي تعكس لنا حياه العظماء وسيره الرجال الخالدين، وتبحث عنها بصدق وأمانه وموضوعيه.

فإنَّ لحياتهم أمواجاً خاصه، كما أنَّها زاخره بأنواع الحوادث.

لقد كانوا عظماء حقاً، وكذلك كان كل ما يرتبط بهم، ومن ذلك تاريخهم، إنَّه شيء عظيم يستحق التأمل والتدبر، فهو يتَّسم بلمعان يلفت الأنظار، ويخلب الألباب وإنَّه غني بالعظات والعبر، زاخرٌ بالبصائر والدروس إلى درجه لا توصف.

إنَّهم معجزه الخليقه بلا-ريب، وإنَّ حياتهم لهي - في الحقيقه - ملحمه التاريخ الكبرى، وساحه البطولات الخالده، ومسرح الحماسات العظمى، الحيه النابضه على مرَّ العصور، والأيام.

لقد كان أولئك العظماء يعيشون في الأغلب على خطِّ الثورات والتغييرات الاجتماعيه الأوَّل، وبعبارة أصحَّ: كانت الثورات والتحوُّلات الاجتماعيه تجد مصداقيتها في حياتهم وتتجسّد في مواقفهم، ولهذا كانوا يشكِّلون - في واقع الأمر - حلقة الاتصال بين الحضارات المختلفه المتناقضه، وكانت حياتهم الحافله بالأحداث شاهده للألوان المختلفه والمشاهد المثيره المتنوعه.

الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وحياه حافله بالأحداث

لم تتَّسم حياه أحد من الرجال التاريخيين والعظماء الخالدين - من حيث وفره الأحداث، وكثره المواقف الخالده، وشموليه الوقائع - كما اتَّسمت به حياه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ولا اتَّصفت شخصيه بمثل ما اتَّصف به ذلك النبي العظيم.

فلم يستطع أحدٌ سواه أن يؤثّر في بيئته، ثم في جميع العالم، وينفذ إلى

أعماق الأعماق بمثل السرعة والسعه التي حصلت له صلى الله عليه وآله.

ولم يوجد أئى واحد منهم قط من مجتمعه المنحط المتخلف، حضاره بتلك العظمه والشموخ، كما فعله رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، وتلك حقيقه يقرّ بها كل مؤرّخى الشرق والغرب.

إنّ مطالعه عميقه لسيره وحياه هذا الإنسان العظيم، قادره على أن تعلّمنا الكثير الكثير، وأن توقفنا على مشاهد متنوّعه فى غايه النفع ومنتهى الفائدة.

منها: الأيام الأولى من بناء الكعبه المعظمه، واستيطان أسلاف النبىّ الكريم «مكّه»، وهجوم عسكر الفيل الفاشل لهدم بيت الله المعظم، والأحداث والملايسات المرافقه لمولد النبىّ صلى الله عليه وآله.

ومنها: المشاهد المحزنه والأليمه، كوفاه «عبدالله» و «آمنه» والدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى مطلع حياته الشريفه بتلك الكيفيه المؤلمه.

ومنها: المشاهد العظيمه والمهيبه والحافله بالأسرار مثل الأيام الأولى من نزول الوحي، وما جرى فى جبل «حراء»، وما تبعه من مواقف الاستقامه والمقاومه التي أبداها واتّخذها رسول الله وأصحابه المعدودون طيله ثلاثه عشر عاماً، فى سبيل نشر الدين الإسلامى فى مكّه، ومكافحه الوثنيه والجاهليه.

وكذا مشاهد مثيره وساخنه وحماسيه مثل وقائع السنه الأولى من الهجره المباركه وما عقبته من حوادث ومواقف.

وقد ألفت حول حياه رسول الإسلام - أعظم قاده البشريه على الإطلاق - كتبّ ورسائل ودراسات كثيره، بحيث لو أُتيح لنا أن نجتمعها فى مكان واحد لشكّلت مكتبه عظيمه وضخمه.

ويمكن القول - بشكل قاطع - بأنّه ليس ثمه من عظيم استقطب اهتمام

التاريخ والمؤرخين والمفكرين العالميين الكبار، كما ليس ثمه شخصيته من شخصيات العالم كتب حولها المؤلفون والباحثون هذا القدر الهائل من المؤلفات والمصنّفات، والرسائل والكتب، كما حصل لرسول الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

إلّا أنّ أكثر هذه الكتب والمؤلفات تعانى من أحد إشكالين: إمّا أنّ الكتاب جاء على نسق التسجيل المجرد للحوادث، أو النصوص التاريخيه، من دون أن يتصدى فيه مؤلفه لتحليلها، ودراسه خلفياتها ونتائجها، وإصدار الحكم اللازم فيها، بل إنّ البعض قد تجنّب عن بيان علل الوقائع الإسلاميه وأسبابها، وثمارها ومعطياتها كذلك.

أو أنّ المؤلف - فى بعضها الآخر - عمّد إلى طائفه من الآراء الحدسيه، والاجتهادات الباطله، العاريه عن الدليل وأثبتها فى مؤلفه على أنّها الحكم الحقّ، وخلط هذه الأحكام مع بيان الحوادث، ومن ثم أخرج كتابه ذاك إلى الجمهور المتعطّش إلى تاريخ الإسلام، على أنّه التاريخ المحقّق، المُمخّص.

إنّ الإشكال اللّذى يردّ على الطائفه الأولى هو: أنّ الهدف من التاريخ ليس هو مجرد تسجيل الحوادث التاريخيه وضبطها وتدوينها، إنّما هو كتابه صفحات التاريخ، وقضاياه وأحداثه من المصادر الصحيحه الموثوق بها، وإبراز عللها وأسبابها، وثمارها ونتائجها، والتاريخ بهذا الشكل أعظم كنز تركه الأقدمون لنا، ومثل هذا النوع من الدراسه التاريخيه لم تُدوّن - أو أنه قلّمَا دُوّن - حول أعظم قاده البشر، محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد تجنّب أكثر كتّاب السيره النبويه عن إظهار الرأى فى الحوادث، أو القيام بأى تحليل للوقائع، بحجّه الحفاظ على أصول الحوادث ونصوصها.

فى حين أنّ هذا العُذر، وهذه الحججه غير كافيه لتبرير هذا الموقف، لأنّه كان فى مقدور أولئك المؤرخين - للحفاظ على ما ذكروه - أن يؤلفوا نوعين من الكتب،

نوعاً يختص بسرد الوقائع والنصوص التاريخيه على ما هي عليه من دون إبداء رأى، أو تحليل ودراسه، ونوعاً آخر يعنى بذكر الحوادث والقضايا التاريخيه مع تحليلها ودراستها بصوره موضوعيه صحيحه، أو أن يتم كلا الأمرين فى كتاب واحد بأن تفرز الحوادث التاريخيه عن التحليل والرأى.

على كل حال قلّمنا نجد بين قدماء الكُتّاب المسلمين من تصدّى لسيره النبويه المحمّديه الطاهره بهذه الصوره، وقلّمنا يوجد هناك كتابٌ يتناولُ حياه خاتم الأنبياء وسيد المرسلين بالتحليل المذكور.

بل لابدّ من القول بأنّ السيره النبويه الطاهره ليست هي وحدها التي حُرمت من مثل هذا النمط من التأليف والكتابه، بل شمل هذا الحرمان أكثر الحوادث التاريخيه التي وقعت على مرّ العصور الإسلاميه فهي أُدرجت فى الكتب من دون دراسه موضوعيه وتقييم دقيق.

نعم إنّ أول من فتح هذا الطريق بوجه عامّه المؤلفين والكتّاب هو:

العلّامه المغربى «ابن خلدون»^(١) فقد أسّس فى مقدّمته المعروفه باسم (مقدمه ابن خلدون) منهج التاريخ التحليلى بنحو من الأنحاء.

وأما الطائفه الثانيه من تلك الكتب فهي وإن أُلّفت على نمط التاريخ التحليلى واتّسمت بصفه التحقيق والدراسه ولكن حيث إنّ بعضهم لم يتجشّم عناء التتبع والاستقصاء، أو أنه اعتمد فى تحليله للحوادث على المصادر غير المتقنه وغير الصحيحه، فقد تورّط فى أخطاء فظيحه محيّره، وأكثر مؤلفات المستشرقين - التي لم تكتب فى الأغلب بهدف التوصل إلى الحقيقه - من هذا النمط، ومن هذه القماشه.

ص: ١٨

١- . هو القاضى عبدالرحمن بن محمّد الحضرمى المالكى المتوفى عام ٨٠٨هـ، ومقدمته وتاريخه - على ما فيهما من أخطاء فظيحه فى التحليل - معدودان من الكتب الجيده المفيده، وهما مبتكران فى موضوعهما.

ولقد دأبنا في هذه الدرّاسه - بعد ملاحظه هذه الإشكالات - على أن نقدّم إلى القراء - جهد الإمكان - كتاباً يخلو عن عيوب ونقائص كلتا الطائفتين.

مزايا هذا الكتاب

قد لا يكون من الضروري بيان مزايا هذا الكتاب، واستعراض امتيازاته في مقدّمته، فذلك أمرٌ ينبغي أن يقف عليه القارئ الكريم بنفسه ضمن مطالعته لهذه الدرّاسه، إلّا أنّه إلفاتاً لنظر القارئ نشير إلى مزيتين هامّتين هما:

الأولى: أنّنا عمدنا - في هذا الكتاب - إلى تناول وبيان الحوادث والوقائع المهمّة التي تنطوي على قدر أكبر من الفائدة، والعبره، وأعرضنا صفحاً عن ذكر الأحداث الجزئيه، والوقائع الصغيره مثل الكثير من السرايا.

ثم إنّنا أخذنا الحوادث التاريخيه هذه من المصادر الأصليه، والأوليّه، التي دُوّنت في القرون الإسلاميه المشرقه الأولى، فقد استخلصنا الحادّثه من مجموعته تلك المصادر، ثم أشرنا إلى مصدر أو مصدرين من المصادر التي ذكرت الحادّثه بصوره أكثر تفصيلاً ودقّه.

وربّما يظن بعضُ القراء الكرام أنّنا اكتفينا في نقل الحوادث والوقائع بمراجعته مصدر أو مصدرين ممّا ذكرناه في هامش الصفحه، في حين أنّ الواقع هو غير هذا، فنحن قد راجعنا حتّى في نقل الحوادث مهمّياً صغرت، أكثر المصادر الأصليه المعروفه، وبعد التحقّق والتثبت منها، لخصّناها وذكرناها في هذا الكتاب.

ولو أنّنا أشرنا - في جميع الحوادث والوقائع - إلى جميع المصادر التي مررنا بها لاستأثر جدول المصادر بقسم كبير من صفحات هذا الكتاب، وهو أمرٌ من شأنه أن يبعث على الملل عند القراء، فلكى لا يحس القراء بأيّ تعب أو ملل من جانب،

ولأجل أن نحافظ على وثائقيه الكتاب وأصاله أبحاثه وإتقانها من طرف آخر، اكتفينا بذكر القدر اللازم من المصادر وتجنبنا تحشدها بتلك الصورة الممّله.

وأما المزيه الثانيه: فإتنا أشرنا - ضمن فصول الكتاب - إلى الاعتراضات والإشكالات، بل وأحياناً إلى مواطن الإساءه التي قام بها المستشرقون المغرضون وأجبننا على جميع الانتقادات والاعتراضات غير المبرّره وغير الصحيحه بأجوبه مقنعه وقاطعه وصحيحه، وجردناهم من الأسلحه التي شهروها في وجه الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - كما يقول المثل - وتلك حقيقه يقف عليها القارئ الكريم بنحو أجلى في محلها.

وعلى هذا الأساس عمّدنا إلى ذكر رأى المؤلفين الشيعه (في المسائل المختلف فيها بين المؤرخين الشيعه والمؤرخين السنّه) مع ذكر المصادر والشواهد التاريخيه الواضحه والمبرهنه عليه، وأزحنا كل ما يدور حول ذلك الرأى من شبهه أو إشكال، ويستهدف إنكار صحته وحقانيته.

ويشتمل كتابنا هذا على ٦٦ فصلاً في جزأين.

إننا إذ نقدّم هذه الدراره التحليليه لشخصيه وحياه خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إلى القراء الكرام، نأمل أن يهتم بها عامّه المسلمين وخاصّه المثقفين والشباب منهم بوجه خاصّ، ويتناولوا هذه السيره العطره بالمطالعه المتأنيه والتأمل والتدبر، ونأمل أن يستطيع شبابنا المؤمن المتحمّس من أن يرسم خريطه حياته وحياه مجتمعه، على ضوء ما يستلهمه ويستوحيه من سيره وحياه رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الحقبه البالغه الخطوره. والله وليّ التوفيق. جعفر السبحاني

٢٦ / جمادى الآخره / ١٣٩٢ هـ

ص: ٢٠

١ سيّد المرسلين في ضوء القرآن الكريم

لقد سلّط القرآن الكريم الضوء على رسول الإسلام محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم في آيات كثيرة تناولت بيان أسمائه ونشأته وصفاته وخصاله، وبشارات الأنبياء السابقين به، وعصمته وأميته، ورسالته، وخاتمته، وجهوده العظيمة التي بذلها في سبيل إبلاغ مهمته، والخطابات الخاصّة الإلهية الموجهة إليه، وما يجب على المؤمنين تجاهه في حياته وبعد وفاته، وما يجب عليهم تجاه أهل بيته وعترته.

ولكى تكون هذه الرؤية القرآنية الشاملة الدقيقة هي القاعدة الأساسيه في دراسه الشخصيه والسيره المحمديه العظيمة، آثرنا إدراج طائفه من هذه الآيات في مقدّمه هذا الكتاب.

١. قوله تعالى: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ». (١).

٢. قال تعالى: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ». (٢).

٣. قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ». (٣).

٤. قال تعالى: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى

ص: ٢١

١- آل عمران: ١٤٤.

٢- الفتح: ٢٩.

٣- الصف: ٦.

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى. (١).

٥. قال تعالى: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ». (٢).

٦. قال تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ». (٣).

٧. قال تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ كَانُوا حَرِّمُوا عَلَىٰ آلِهِمُ الْمُكْرَمَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ». (٤).

٨. قال تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ». (٥).

٩. قال تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ». (٦).

١٠. قال تعالى: «فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ». (٧).

١١. قال تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

ص: ٢٢

١- الضحى: ٣-٨.

٢- الانشراح: ١-٤.

٣- آل عمران: ٨١.

٤- الأعراف: ١٥٧.

٥- البقره: ١٤٦.

٦- الأنعام: ٢٠.

٧- الأعراف: ١٥٨.

وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ. (١)

١٢. قال تعالى: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا». (٢)

١٣. قال تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ». (٣)

١٤. قال تعالى: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». (٤)

١٥. قال تعالى: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرِهِ الْمُتَنَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى». (٥)

١٦. قال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ». (٦)

١٧. قال تعالى: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ

ص: ٢٣

١- .الجمعه: ٢-٤.

٢- .النساء: ١١٣.

٣- .العنكبوت: ٤٨.

٤- .العلق: ١-٥.

٥- .النجم: ٢-١٧.

٦- .الحاقة: ٤٤-٤٧.

١٨. قال تعالى: «وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ» (٢).

١٩. قال تعالى: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ» (٣).

٢٠. قال تعالى: «وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ» (٤).

٢١. قال تعالى: «سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى» (٥).

٢٢. قال تعالى: «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (٦).

٢٣. قال تعالى: «وَاللَّهُ يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ» (٧).

٢٤. قال تعالى: «وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» (٨).

٢٥. قال تعالى: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» (٩).

٢٦. قال تعالى: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا» (١٠).

٢٧. قال تعالى: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» (١١).

٢٨. قال تعالى: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا» (١٢).

ص: ٢٤

١- .يس: ٦٩.

٢- .الصفات: ٣٦-٣٧.

٣- .الحاقة: ٤٠-٤١.

٤- .التكوير: ٢٤.

٥- .الأعلى: ٦.

٦- .البقرة: ١٣٧.

٧- .المائدة: ٦٧.

٨- .التوبة: ٧٤.

٩- .الحجر: ٩٥.

١٠- .الإسراء: ٧٣-٧٤.

١١- .الزمر: ٣٦.

١٢- .الطور: ٤٨.

٢٩. قال تعالى: «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» (١).

٣٠. قال تعالى: «أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ» (٢).

٣١. قال تعالى: «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» (٣).

٣٢. قال تعالى: «وَآنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (٤).

٣٣. قال تعالى: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» (٥).

٣٤. قال تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» (٦).

٣٥. قال تعالى: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٧).

٣٦. قال تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» (٨).

٣٧. قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» (٩).

٣٨. قال تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ» (١٠).

٣٩. قال تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» (١١).

٤٠. قال تعالى: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (١٢).

ص: ٢٥

١- . آل عمران: ١٠٨.

٢- . العنكبوت: ٤٥.

٣- . الأحزاب: ٢.

٤- . الشعراء: ٢١٤.

٥- . الحجر: ٩٤.

٦- . الحج: ٤٩.

٧- . المؤمنون: ٧٣.

٨- . الفرقان: ١.

٩- . الفرقان: ٥٦.

١٠- . الأنفال: ٣٣.

١١- . التويه: ١٢٨.

١٢- . التويه: ١٢٨.

٤١. قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (١).

٤٢. قال تعالى: «إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ» (٢).

٤٣. قال تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ» (٣).

٤٤. قال تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَن أَصْحَابِ الْجَحِيمِ» (٤).

٤٥. قال تعالى: «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» (٥).

٤٦. قال تعالى: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٦).

٤٧. قال تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» (٧).

٤٨. قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا» (٨).

٤٩. قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا» (٩).

ص: ٢٦

١- . الأنبياء: ١٠٧.

٢- . الحج: ٦٧.

٣- . الشعراء: ١٩٣-١٩٤.

٤- . البقرة: ١١٩.

٥- . البقرة: ١٥١.

٦- . آل عمران: ١٦٤.

٧- . الفتح: ٢٨-٢٩.

٨- . الأحزاب: ٤٦.

٩- . سبأ: ٢٨.

٥٠. قال تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمَكُمْ بِوَاحِدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْءٍ وَفِرَادَىٰ تُثَمُّونَ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». (١)

٥١. قال تعالى: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ». (٢)

٥٢. قال تعالى: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا». (٣)

٥٣. قال تعالى: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا». (٤)

٥٤. قال تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ». (٥)

٥٥. قال تعالى: «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا». (٦)

٥٦. قال تعالى: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ». (٧)

٥٧. قال تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ». (٨)

٥٨. قال تعالى: «وَ لَا يَخْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». (٩)

٥٩. قال تعالى: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَظِيمٌ»

ص: ٢٧

١- . سبأ: ٤٦.

٢- . الذاريات: ٥٠.

٣- . النساء: ٧٨.

٤- . النساء: ١١٣.

٥- . النساء: ١٦٣.

٦- . النساء: ١٦٦.

٧- . الأحزاب: ٤٠.

٨- . الأعراف: ١٥٨.

٩- . يونس: ٦٥.

٦٠. قال تعالى: «وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» (٢).

٦١. قال تعالى: «وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» (٣).

٦٢. قال تعالى: «لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» (٤).

٦٣. قال تعالى: «وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْتَ كَيْفَ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» (٥).

٦٤. قال تعالى: «وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» (٦).

٦٥. قال تعالى: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا» (٧).

٦٦. قال تعالى: «فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ» (٨).

٦٧. قال تعالى: «وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ ثَمُودٌ * وَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ * وَ أَصْحَابُ مِثْرَةَ وَ كَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتَ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» (٩).

ص: ٢٨

١- هود: ١٢.

٢- هود: ١٢٠.

٣- الرعد: ٣٢.

٤- الحجر: ٨٨.

٥- الحجر: ٩٧-٩٩.

٦- النحل: ١٢٧-١٢٨.

٧- الكهف: ٦.

٨- طه: ١٣٠.

٩- الحج: ٤٢-٤٤.

٦٨. قال تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا» (١).

٦٩. قال تعالى: «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (٢).

٧٠. قال تعالى: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ» (٣).

٧١. قال تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ» (٤).

٧٢. قال تعالى: «وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ» (٥).

٧٣. قال تعالى: «وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَتَدَّ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (٦).

٧٤. قال تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (٧).

٧٥. قال تعالى: «فَلَا تَدْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» (٨).

٧٦. قال تعالى: «وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَتَدَّ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ» (٩).

٧٧. قال تعالى: «فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ» (١٠).

٧٨. قال تعالى: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ

ص: ٢٩

١- الفرقان: ٣١.

٢- الشعراء: ٣.

٣- النحل: ١٢٧.

٤- الروم: ٦٠.

٥- لقمان: ٢٣.

٦- فاطر: ٤.

٧- الأسراء: ١.

٨- فاطر: ٨.

٩- فاطر: ٢٥.

١٠- يس: ٧٦.

٧٩. قال تعالى: «وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ». (٢).

٨٠. قال تعالى: «وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ». (٣).

٨١. قال تعالى: «إِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ». (٤).

٨٢. قال تعالى: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ». (٥).

٨٣. قال تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». (٦).

٨٤. قال تعالى: «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ». (٧).

٨٥. قال تعالى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا». (٨).

٨٦. قال تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ

ص: ٣٠

١- . الصافات: ١٧١-١٧٢.

٢- . الصافات: ١٧٣-١٧٥.

٣- . الصافات: ١٧٨-١٧٩.

٤- . ص: ١٧.

٥- . الزمر: ٣٦.

٦- . المؤمن: ٥٥.

٧- . الأنعام: ٥٢.

٨- . الكهف: ٢٨.

أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. (١)

٨٧. قال تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُوجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا». (٢)

٨٨. قال تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». (٣)

٨٩. قال تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ

ص: ٣١

١- .النور: ٦٢-٦٣.

٢- .الأحزاب: ٥٣.

٣- .الحجرات: ١-٥.

لَعْنَتُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَ زَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ» (١).

٩٠. قال تعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (٢).

٩١. قال تعالى: «وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» (٣).

٩٢. قال تعالى: «وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (٤).

٩٣. قال تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (٥).

٩٤. قال تعالى: «فَبِمَا رَحَمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (٦).

٩٥. قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» (٧).

٩٦. قال تعالى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٨).

٩٧. قال تعالى: «فَلا- وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (٩).

٩٨. قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا

ص: ٣٢

١- . الحجرات: ٧.

٢- . القلم: ٤.

٣- . الحجر: ٨٨.

٤- . الشعراء: ٢١٥.

٥- . التوبة: ١٢٩.

٦- . آل عمران: ١٥٩.

٧- . الأحزاب: ٢١.

٨- . آل عمران: ٣١.

٩- . النساء: ٦٥.

عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (١).

٩٩. قال تعالى: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَثَرُ» (٢).

١٠٠. قال تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا» (٣). (٤)

ص: ٣٣

١- . الأحزاب: ٥٦.

٢- . الكوثر: ١-٣.

٣- . الأحزاب: ٣٣.

٤- . ولقد بحث سماحه الأستاذ العلامة المحقق الشيخ جعفر السبحاني دام ظلّه صاحب هذه المحاضرات، حول جميع هذه الآيات ونظائرها في دراسته معمّقه وشامله في الجزء السابع من موسوعته «مفاهيم القرآن»، فراجع.

تقع شبه الجزيرة العربية في الجنوب الغربي من قاره آسيا، وتبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع، أي ضعف مساحة إيران، وستة أضعاف فرنسا، وعشره أضعاف إيطاليا، وثمانين ضعف سويسرا.

ويحد شبه الجزيرة - التي هي أشبه ما يكون بمستطيل غير متوازي الأضلاع - من الشمال فلسطين وصحراء الشام، ومن الشرق الحيره ودجله والفرات والخليج الفارسي، ومن الجنوب المحيط الهندي والبحر العربي، ومن الغرب البحر الأحمر.

وعلى هذا يحاصر هذه الجزيرة من الغرب والجنوب البحر، ومن الشمال والشرق الصحراء، والخليج.

وقد جرت العاده بتقسيم هذه المنطقه من القديم إلى ثلاثة أقسام:

١. القسم الشمالي والغربي ويُسمى بالحجاز.

٢. القسم المركزي والشرقي ويُسمى بصحراء العرب.

٣. القسم الجنوبي ويُسمى باليمن.

وتشكل داخل شبه الجزيرة هذا صحارى كبيره، ومناطق شاسعه رمليه حاره، وغير قابله للسكنى تقريباً، ومن جمله هذه الصحارى صحراء «باديه السماوه» التي تُسمى اليوم بصحراء «النفوذ»، وصحراء أخرى واسعه الأطراف تمتد إلى الخليج الفارسي يُطلق عليها اليوم اسم «الربع الخالي» وقد كان يُسمى قسم من هذه

الصحارى سابقاً بالأحقاد، ويُسمى القسم الآخر بالدهناء.

فعلية فالصحارى تُشكّل ثلث مساحة شبه الجزيرة العربية، هى أراضى خالية من الماء والعشب وغير قابله للسكنى، اللهم إلا بعض المياه المتجمّعه بسبب تساقط الأمطار، فيجتمع حولها بعض القبائل العربية بعض الوقت، ويرعون فيها إبلهم وأنعامهم ردحاً قليلاً من الزمن.

وأما حاله المناخ فى شبه الجزيرة العربية، فالهواء فى الصحارى والأراضى المركزيه (الوسطى) حارٌّ وجافٌ جداً، وفى السواحل مرطوبٌ، وفى بعض النقاط معتدلٌ، وبسبب رداءه الطقس فعدد السكان بالنسبه للمساحه قليل جداً.

وتوجد فى هذه الجزيرة سلسله جبال تمتد من الجنوب إلى الشمال، ويقارب ارتفاع أعلى قممها ٢٤٧٠ متراً.

وقد كانت معادن الذهب والفضه والأحجار الكريمة تشكل مصادر الثروه فى شبه الجزيرة العربية منذ القدم، وكان سكانها يعتنون - من بين الأنعام والحيوانات - بتربيته الإبل والفرس أكثر من غيرهما، ومن بين الطيور بالحمام والنعامه أكثر من الطيور الأخرى.

بيد أن أكبر مصدر للثروه فى الجزيرة العربية اليوم يأتى عن طريق استخراج النفط.

وتعتبر مدينه «الظهران» - التى يُسميها الأوربيون بالدهران - المركز النفطى الرئيسى فى هذه الجزيرة، وتقع هذه المدينه فى منطقه الأحساء التى تقع فى المنطقه الشرقيه من الجزيرة العربية على حدود الخليج الفارسى.

ولكى يتعرّف القارئ الكريم على الأوضاع فى شبه الجزيرة العربية بنحو أكثر تفصيلاً فإننا نعمد إلى شرح الأقسام الثلاثه المذكوره:

١. «الحجاز» وهي المنطقه الّتي تشكل القسم الشمالى والغربى من الجزيره العربيه وتمتد أراضيها على ساحل البحر الأحمر ابتداء من فلسطين وحتى حدود اليمن.

والحجاز منطقته جبلية، وذات صحار قاحله، وأراض حجريه، وصخريه، يكثر فيها الحصى.

ولقد كانت هذه المنطقه - فى التاريخ - أكثر شهره من غيرها، ومن المعلوم أنّ هذه الشهره جاءت بسبب جملة من العوامل المعنويه والدينيه، فهى الآن تضمّ بين جوانحها بيت الله الحرام «الكعبه المعظمه»، قبله ملايين المسلمين، ومهوى أفئدتهم.

وقد كانت البقعهُ الّتي تقوم عليها «الكعبه المعظمه» تحظى منذ سنوات مديده قبل بزوغ الإسلام باحترام العرب وغيرهم، ولهذا حرّموا القتال حول الكعبه تعظيماً لها، حتى إذا جاء الإسلام أقرّ للكعبه ولما حولها، مثل ذلك الاحترام، والتعظيم أيضاً.

ومن أهمّ مَيدَن الحجاز: «مكّه» و «المدينه» و «الطائف»، وكان للحجاز منذ القديم ميناءان هما: ميناء «جدّه» الّذى يستخدمه أهل مكّه، وميناء «ينبع» الّذى يستخدمه أهل المدينه، فى سدّ الكثير من إحتياجاتهم، ويقع هذان الميناءان على ساحل «البحر الأحمر».

مَكَّةُ الْمُعْظَمَةُ

وهى من أشهر مُدُن العالم وأكثر المُدُن الحجازيه سُكَّاناً، وترتفع عن سطح البحر بما يقارب ٣٠٠ متر.

وإذ تقع مدينه «مكّه» بين سلسلتين من الجبال لذلك فإنّها لا تُرى من بعيد.

تاريخ مكّه

يبدأ تاريخ «مكّه المكرمه» من زمن النّبى إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد أسكن هذا النّبى ولده «إسماعيل» مع أمّه «هاجر» فى أرض مكّه، فنشأ اسماعيل هناك، وتزوّج من إحدى القبائل الّتى سكنت على مقربه من تلك المنطقه، الّتى تعرف ب: قبيله جرهم.

ثم إنّ إبراهيم عليه السلام بنى وبأمر من الله تعالى البيت الحرام «الكعبه».

وتقول بعض الروايات الصحيحه: إنّ الكعبه بُنيت على يد النّبى نوح عليه السلام وإنّ إبراهيم عليه السلام جدّد بناءها.

وهكذا نشأت وبعد هذا تأسست مدينه مكّه.

وتتكوّن نواحي «مكّه» من أراض سبخه شديده الملوحه غير قابله للزراعه أصلاً، حتّى أنّ بعض المستشرقين يذهب إلى أنّه لا يوجد أيه منطقه فى العالم فى رداءه أوضاعها الجغرافيه والمحيطيه والطبيعيه، مثل هذه المنطقه.

المدينه المنوره

وهى مدينه تقع فى شمال مكّه وتبعد عنها ب: ٩٠ فرسخاً تقريباً (الفرسخ يساوى ٥,٥ كيلومتراً تقريباً) وتحيط بها بساتين ومزارع ونخيل وافر، وأرضها صالحه للزراعه.

وكانت المدينه المنوره تُسمّى قبل الإسلام ب «يثرب»، وبعد أن هاجر إليها رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم سُمّيت بمدينه الرسول، ثم اطلقت عليها لفظه «المدينه» مجرّده، تخفيفاً.

ويحدّثنا التاريخ أنّ العمالقه كانوا أوّل من سكن هذه الديار، ثم خلف العمالقه طائفه اليهود، والأوس والخزرج الذين سُمّي المسلمون منهم بالأنصار فيما بعد.

هذا وقد سلمت الحجاز - على عكس سائر المناطق - من طمع الطامعين وغزو الغزاه والفتاحين، ولم نشاهد فيها أى شىء من آثار حضاره الامبراطوريتين العظيمتين آنذاك قبل الإسلام: الروم والفرس، وذلك لأنها كانت تتألّف من أراض قاحله مجدبه غير قابله للسكنى والعيش فلم تحظ باهتمام أحد من أولئك الفاتحين حتّى يفكّر فى تسيير العساكر، وتجييش الجيوش لفتحها ليعود بعد تحمّل الكثير من المشاكل التى تستلزمها عمليه الاستيلاء على أراضى تلك المنطقه، خالى الوفاض صفر اليدين. وللقوف على هذه الحقيقه اقرأ القصة التاليه التى نقلها «ديودرس».

عندما دخل ديميتريوس القائد اليونانى الكبير «بطرا» (وهى مدينه قديمه من مدن الحجاز) بهدف فتح جزيره العرب خاطبه سكّان تلك المدينه قائلين:

لماذا تحاربنا أيها الملك ديميتريوس ونحن من سِيكان الصحارى التى لا تُسدُّ فيها خلّه، ترانا نقطن فى هذه البقاع القاحله فراراً من العبوديه. إقبل هديتنا، وارجع إلى حيث كنت، سنكون من أوفى الأصدقاء لك، ولكنك إذا رغبت فى حصرنا حرّمت كلّ هناه، ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبديل طرق حياتنا التى تعودناها منذ نعومه أظفارنا، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنت أنّك لن تجد واحداً ممّن أسرت يستطيع أن يألف حياه غير التى ألفناها.

هنالك رأى ديميتريوس أن يقبل هديتهم وأن يرضى بالمآب. (١)

ص: ٣٨

١- . حضاره العرب تأليف غوستاف لوبون: ٩١-٩٢ ترجمه عادل زعيتير.

٢ - المنطقه الوسطى والشرقيه، التي تُسمّى ب «صحراء العرب»، ومنطقه «نجد» التي هي جزء من هذه المنطقه، وهي أرض مرتفعه يقوم فيها بضع قُرى صغيره معدوده.

ولقد أصبحت الرياضُ - التي اتخذها السعوديون عاصمه لهم بعد سيطرتهم على البلاد - من المراكز المهمه في هذه الناحيه من الجزيره.

٣ - المنطقه الجنوبيه الغربيه من الجزيره العربيه، والتي تسمى ب «اليمن» وتمتد طولاً من الشمال إلى الجنوب حوالي (٧٥٠) كيلومتراً ومن الغرب إلى الشرق حوالي (٤٠٠) كيلومتراً.

وتقدر مساحه هذا البلد بستين ألف ميل مربع تقريباً، ولكنها كانت - قبل ذلك - أوسع من هذا القدر، وقد كان قسم منها (وهو عدن) خلال النصف الأول من القرن الأخير تحت الانتداب البريطاني، ومن هنا ينتهي شمالاً إلى نجد، وجنوباً إلى عدن، وغرباً إلى البحر الأحمر وشرقاً إلى صحراء الربع الخالي.

ومن مُدن اليمن المعروفه مدينه «صنعاء» التاريخيه العريقه، ومن موانئها المشهوره ميناء «الحديده» الواقع على البحر الأحمر.

واليمن من أكثر مناطق الجزيره العربيه خصوبه وبركه، ولها تاريخ مشرقٌ وعريقٌ في المدينه والحضاره، فقد كانت اليمن مقراً لملوك تُبَّع، الذين حكموا اليمن سنيماً طويلاً، وكانت اليمن قبل الإسلام مركزاً تجارياً مهمّاً، وهي في الحقيقه ملتقى طرق الحجاز، اشتهرت في العصور القديمه بمناجم الذهب، والفضه، والحديد، والنحاس، وكانت تصدر إلى خارج البلاد.

ولا تزال آثار الحضاره اليمنيه القديمه باقيه إلى الآن.

ولقد قام أهل اليمن الازكياء ببناء الدور والعمارات العاليه والجميله بهمهمهم

العاليه فى عصور كان البشر يفقد فيها الوسائل الثقيله، والأجهزه المعقده.

كان ملوك اليمن يحكمون البلاد دون أى منازع، إلّا أنهم رغم ذلك لم يكونوا يمتنعون عن تنفيذ ما رسمه حكماء اليمن ورجالهم من أنظمه وقوانين للحكم وإداره البلاد آنذاك.

ولقد سبقوا الآخرين فى الزراعه والفلاحه، ووضعوا لإحياء الأراضى وزراعتها، نظاماً دقيقاً للرئى طبقوا بنوده بدقه، ولهذا كانت بلادهم تعدّ - آنذاك - من البلدان الراقية المتقدّمه من هذه الناحيه.

فها هو «غوستاف لوبون» المؤرّخ الفرنسى المعروف يكتب حول اليمن قائلاً: وهى أغنى جزيره العرب وأخصبها وأكثرها سكاناً، وهى أهم جزء من البقاع التى كان يسميها القدماء! بلاد العرب السعيده. (١)

ويكتب الإدريسيّ المؤرّخ المعروف الذى كان يعيش فى القرن الثانى عشر حول «صنعا» قائلاً: كانت صنعا مقر ملوك اليمن، وعاصمه جزيره العرب، وإنّه كان لملوكها قصر متين شهير، وأنّها كانت تشتمل على بيوت مصنوعه من الحجاره المنحوته (٢).

هذه الآثار العجيبه التى عثر عليها المستشرقون وعلماء الآثار فى تنقيباتهم الأخيره تثبت حضاره عجيبه لليمن فى عصورها القديمه وذلك فى مختلف نواحيها مثل «مأرب» و «صنعا» و «بلقيس».

ففى مدينه مأرب (وهى مدينه سبأ المعروفه) قصور نصره ذات أبواب عسجديه، وآينه من ذهب وفضه وسرر من المعادن الثمينه. وقال أرتيميدور: إنّ

ص: ٤٠

١- . حضاره العرب: ٥٥.

٢- . نزّه المشتاق فى اختراق الآفاق على ما فى حضاره العرب: ٥٥.

قصورها ذات سقوف مزخرفه بالذهب والعاج والحجاره الثمينه، وذات أثار فاخر وآنيه منقوشه. (١)

ومن آثار «مأرب» التاريخيه السدّ المعروف باسم ذلك البلد والذي لا تزال أطلاله باقيه، وهو السدّ الذي تهدّم بسبب السيل الذي سماه القرآن الكريم بسيل العرم.

وقد جاء ذكر سبأ في قوله تعالى:

«لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْجِدِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَهُ طَيِّبَهُ وَرَبُّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِنِى أَكْلِ خَمِطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَ أَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»

(٢). (٣)

ص: ٤١

١- حضاره العرب: ٩٤.

٢- سبأ: ١٥-١٩.

٣- للوقوف على المزيد من المعلومات عن اليمن قديماً وحديثاً، راجع الكتب المؤلّفه حول جغرافيه العالم الإسلامى.

لمعرفه أوضاع العرب قبل الإسلام يمكن الرجوع إلى المصادر التاليه:

١. التوراه، رغم ما فيها من تحريف.
 ٢. كتابات اليونانيين والروميين فى القرون الوسطى.
 ٣. الكتابات التاريخيه التى كتبها علماء الإسلام ومؤلفوه.
 ٤. الآثار القديمه التى عثر عليها المستشرقون فى تنقيباتهم والتى استطاعت من أن تكشف النقاب عن طائفه لا يُستهان بها من الحقائق فى هذا الصعيد.
- إلا أنه مع وجود كل هذه المصادر والمراجع لا تزال هناك نقاط كثيرة عن تاريخ العرب فى القرون البعيده تعاني من الغموض.
- ولكن حيث إن دراسه أوضاع العرب قبل الإسلام هى من باب المقدمه فى هذا الكتاب، والهدف الأساسى إنما هو دراسه السيره النبويه الطاهره، من هنا نكتفى فى هذا الفصل باستعراض النقاط الخاصه والواضحه من حياه العرب قبيل الإسلام على أننا يمكننا أن نقف على وصف دقيق لحاله العرب خاصه قبيل بزوغ الإسلام من خلال مصدرين إسلاميين أساسيين هما:

١. القرآن الكريم.

٢. ماورد عن الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه.

فقد وردت فى هذين المصدرين تصريحاتٌ ونصوصٌ صريحه تكشف

عمّياً كان عليه العرب في الجاهلية من سوء الأحوال والأوضاع والأخلاق في جميع الأصعدة والأبعاد، وسنشير إلى أبرز هذه النصوص ونقف عندها بعض الشيء، ولكننا نستعرض قبل ذلك شيئاً من تاريخ العرب في القرون البعيدة فنقول:

إنّ من المسلّم به أنّ شبه الجزيرة العربية كانت منذ أقدم العصور موطناً لقبائل كثيرة انقرض بعضها بمرور الأيام، وفي ثنايا الأحداث، بيد أنّ هناك ثلاث قبائل قد تشعّبت عنها أفخاذ وفروع تحظى بشهره أكثر من بين من سكنوا هذه المنطقه.

وهذه القبائل الأُم هي:

١. العرب البائدة: وإنما سُمّيت بالبائدة لأنها أُبديت بالعذاب الإلهي السماوي أو الأرضي بسبب عصيانها وتمردّها، وهلكت شيئاً فشيئاً، ولم يبق على وجه الأرض من نسلهم أحداً!

ولعلّهم كانوا هم المعنيون بقوم «عاد» و «ثمود» الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم مراراً.

٢. القحطانيون: وهم أبناء يعزب بن قحطان الذين كانوا يقطنون في «اليمن» وسائر المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ويُسمّون بالعرب الأصلاء، وهم اليمنيون اليوم، ومنهم قبائل الأوس والخزرج وهما قبيلتان كبيرتان كانتا تقطنان المدينة المنوره إبان ظهور الإسلام.

وقد كان للقحطانيين حكومات كثيرة، كما كانت لهم جهودٌ كبرى في تعمير أرض اليمن وإحيائها، وقد تركوا من ورائهم حضارات ومدنٍ لا يستهان بها.

وتوجد الآن كتابات تُقرأ بصوره علميه توضّح إلى حدّ كبير تاريخ

القحطائين وكل ما يقال عن مدتيه العرب وحضارتهم قبل الإسلام تعود في الحقيقة إلى هذه الطائفة وخاصة من سكن منهم أرض اليمن.

٣. العدنانيون: وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وسوف يأتي ذكر جذور هذه الطبقة في الأبحاث القادمة. وخلصه ذلك: أن إبراهيم الخليل عليه السلام أمر أن يسكن ولده الرضيع إسماعيل مع زوجته «هاجر» أم إسماعيل في أرض مكّة، فخرج بهما إبراهيم عليه السلام من «فلسطين» وهبط بهما في ذلك الوادي العميق الخالي من الماء والعشب «مكّة» ثم إن يد العناية الإلهية امتدّت إلى تلك العائلة المهاجرة، وجادت عليها بعين «زمزم» الذي جلب الرواء والحياه إلى تلك المنطقه القاحله الضامئه. ثم تزوّج إسماعيل من قبيله «جرهم» التي خيّم بالقرب من مكّة، وأصاب من هذا الزواج عدداً كبيراً من الأبناء، والأحفاد، وأحفاد الأحفاد كان من جملتهم «عدنان» الذي ينتهي نسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليه.

ثم تشعبت ذريه إسماعيل إلى بطون وأفخاذ، وعشائر وقبائل عديده، كان من بينها قبيله قريش التي حظيت بشهره أكبر، ومنها عشيره بنى هاشم التي انحدر منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ستعرف ذلك بالتفصيل، عمّا قريب.

أخلاق العرب وتقاليدهم العامه

والمراد منها هو الأخلاق والآداب الاجتماعيه التي كانت سائده في ذلك المجتمع، وقد سادت بعض هذه الأخلاق والعادات والتقاليد في المجتمع العربي عامه.

ويمكن تلخيص ما كان العرب يتمتعون به من أخلاق وصفات حسنه عامه في ما يلي:

لقد كان العرب زمن الجاهليه وبخاصه ولد «عدنان» أسخياء بالطبع، يكرمون الضيف، وقلما يخونون الأمانه، لا يغتفرون نقض العهود، ولا يتهاونون مع من يتنكر للمواثيق، يضحون فى سبيل المعتقد، ويتحلون بالصراحه الكامله، وربما وجد فيهم من تمتع بذكاء لامع، وذاكره خارقه يحفظ بها الأشعار والقصائد الطوال، والخطب المفصله.

هذا إلى جانب براعتهم فى فن الشعر والخطابه بحيث لم يسبقهم فى ذلك غيرهم، وإلى جانب أنهم كانوا مضرب المثل فى الشجاعه والجرأه، والمهاره فى الفروسيه والرمى.

وكانوا يرون الفرار والإدبار فى الحرب عاراً لازماً، وصفه ذميمه يلام صاحبها بسببها أشد اللوم.

ولكن فى مقابل ذلك كله كانوا يعانون من مفاسد أخلاقيه تطغى على كل كمال عندهم، وتنسى كل فضيله.

ولولا تلك الكؤه المباركه التى فتحت عليهم من عالم الغيب، لطويت صفحه حياتهم الإنسانيه على القطع واليقين.

أى لو لم تيزغ شمس الإسلام فى أواسط القرن السادس الميلادى، ولم تسطع أشعتها الباعثه على الحياه، على عقولهم وقلوبهم لما رأيت اليوم من العرب العدنانيين أى أثر، ولتكررت مقوله العرب البائده مره أخرى!

لقد حوّل فقدان القياده الرشيد، وغياب الثقافه الصحيحه حياه العرب، من جانب، وانتشار الفساد والفحشاء من جانب آخر إلى حياه حيوانيه مزريره حتى أن صفحات التاريخ تروى لنا أخباراً وقصصاً مفصله عن حروب دام بعضها خمسين عاماً، وبعضها الآخر منه عام قد نشبت بين القبائل العربيه لأسباب بسيطه ودوافع تافهه جداً.

لقد أدى عدم سياده النظام والقانون على الحياه العربيه، وعدم وجود حكومه قويه مسيطره على الأوضاع، توقف البغاه والتمردين عند حدودهم، إلى أن يعيش العرب - آنذاك - فى صوره القبائل الرّحل، ويرحلوا فى كلّ سنه إلى منطقه معينه من الصحراء التماساً للعشب والماء لأنفسهم ولأنعامهم، فإذا عثروا على ماء وعُشب أو شىء من آثار الحياه نزلوا عنده، وأنزلوا رحالهم بجواره، فإذا سمعوا عن وجود مكان أفضل استأنفوا رحلتهم الصحراويه التماساً لحياه أكثر بركه، وعطاء، وأوفر خصباً وأمناً. هذه الحيره وهذا الضياع وعدم الاستقرار كان ناتجاً من أمرين:

الأول: سوء الأوضاع الجغرافيه ورداءه الأحوال الطبيعيه للجزيره العربيه، وخاصه من حيث الماء والمناخ والمراعى.

والثانى: الحروب والمصادمات الدمويه الكثيره، واضطراب الأحوال الاجتماعيه، التى كانت تلجئ جماعات كثيره إلى التنقل الدائم والرحيل عن الأوطان ومغادرتها، وعدم الاستقرار فى منطقه واحده.

هل كان للعرب حضارة قبل الإسلام؟

يستنتج مؤلف كتاب «حضاره العرب» من دراسته لأوضاع العرب فى الجاهليه أنهم كانوا أصحاب حضاره عريقه سبقت الإسلام بقرون.

فالقصور الضخمه التى أقاموها فى مختلف نقاط ومناطق الجزيره العربيه، والعلاقات التجاربه التى كانت لهم مع أرقى شعوب الأرض، شواهد قويه على تمدنهم وحضارتهم الغابره، لأنّ قوماً أنشأوا المدن العظيمه - قبل الرومان بقرون كثيره - وكانت علاقاتهم بأرقى وأكبر شعوب الأرض وثيقه، لا يمكن عدّهم همجاً، وشعباً بلا حضاره.

ثم إنه يستدل - في موضع آخر من كتابه - على حضاره العرب الغابره بأدابهم ووحده وكمال لغتهم إذ يقول:

«ولو كان التاريخ صامتاً إزاء حضاره لقطعنا - مع ذلك - بوجودها قبل ظهور «محمّد» بزمان طويل، ويكفي لتمثلها أن نذكر أنه كان للعرب آداب ناضجه ولغه راقية.

والحق أن الآداب واللغه من الأمور التي لا تأتي عفواً، وهي تتخذ دليلاً على ماض طويل، وينشأ عن اتصال أمه بأرقى الأمم اقتباسها لما عند هذه الأمم الراقية من التمدن إذا كانت أهلاً لذلك».

وقد خصّص المؤلف المذكور صفحات عديده في كتابه لإثبات حضاره عريقه وعظيمه للعرب قبل الإسلام معتمداً في ذلك على ثلاثه أمور:

١. وجود لغه راقية.

٢. وجود علاقات مع الأمم الراقية.

٣. وجود قصور وأبنيه ضخمة، وفخمه في اليمن كما يصفها المؤرخان المسيحيان المعروفان «هيردوتس» و «ارتيميدور» اللذان كانا يعيشان قبل المسيح بقرون، وقدامى المؤرخين المسلمين كالمسعودي (١).

لا كلام في أنه كانت هناك في بعض مناطق الجزيره العربية بعض حضارات، ولكن الأدله التي استند اليها المؤلف المذكور لا يمكن أن تكون شاهداً ودليلاً على وجود الحضاره في جميع نقاط الجزيره العربية أبداً.

صحيح أن تكامل اللغه يسير جنباً إلى جنب مع غيره من مظاهر المدنيه، ولكن لا يمكن أن نعتبر اللغه العربية لغه مستقله وغير مرتبطه باللغات الأخرى، أي

ص: ٤٧

١- . لاحظ: حضاره العرب: ٧٨-١٠٠.

العبرانية والسريانية والآشورية والكلدانية، لأنَّ جميع هذه اللغات - حسب ما يؤيِّده ويؤكِّده المتخصِّصون في علم اللغات - كانت ذات يوم متَّحدة الأصل، وقد تشعَّبت من لغة واحدة، وفي هذه الحالة يحتمل أن تكون اللغة العربية قد حقَّقت تكاملها عبر اللغة العبرانية أو الآشورية، وبعد تكاملها أصبحت لغة مستقلة، أى أنَّ الآخرين أسهموا في تكميلها.

كما أنه لا شك أنَّ وجود علاقات تجاربه مع الأمم والشعوب الراقية هو الآخر دليل على الحضاره والمدنيه، إلَّا أنه هل كانت جميع مناطق الجزيره العربية تملك مثل هذه العلاقات، أم إنَّ أكثرها كانت محرومه من ذلك؟ هذا من جهه.

ومن جهه أخرى فإنَّ وجود علاقات بين حكومتين في الحجاز وهما:

«الحيره وغيَّان» وبين حكومتى «الفرس» و «الروم» لا يدلُّ أبداً على وجود حضاره في المنطقتين الحجازيتين، إذ أن جميع هذه الحكومات كانت متَّصفه بالعماله، فإنَّ الكثير من البلاد الافريقيه هى اليوم من مستعمرات الدول الأوربيه ومع ذلك لا توجد فيها أيه مؤشرات ولا أيه مظاهر من الحضاره الغربيه الواقعيه. طبعاً لا يمكن إنكار حضاره «سبأ ومأرب اليمن» العجيبه لأنَّه مضافاً إلى ما جاء حول هذه الحضاره فى التوراه، وما نُقِلَ عن «هيردوتس» وغيره، كتب المؤرِّخ المعروف «المسعودى» عن مأرب يقول: إنَّ أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها، وأكثرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مُروجاً، مع بُنيان حسن، وشجر مصفوف، ومسالك للماء متكاثفه، وأنهار وأزهار متفرَّقه، وكانت مسيره أكثر من شهر للراكب المجدِّ على هذه الحاله، وفى العرض مثل ذلك، وأنَّ الراكب والمازَّ كان يسير فى تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهى إلى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه لاستتار الأرض بالعماره الشجرية واستيلائها عليها وإحاطتها

بها، وكان أهلها فى أطيّب عيش وأرفهه، وأهناً حال وأرغد قرى، وفى نهايه الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء، وتدقق الماء وقوه الشوكه، واجتماع الكلمه، ونهايه المملكه... فذلّت لهم البلاد، وأذعن لطاعتهم العباد فصاروا تاج الأرض. (١)

وخلاصه القول: إنّ هذه الدلائل لا تدلّ على وجود حضاره فى كلّ مناطق الجزيره العربيه وخاصّه منطقه الحجاز التى لم تذق طعم الحضاره أبداً، حتّى أنّ «غوستاف لوبون» نفسه يعترف بهذه الحقيقه إذ يقول: إنّ جزيره العرب نجّت من غزو الأجنبي خلا ما أصاب حدودها الشماليه، وإنّ عظماء الفاتحين من مصريين وأغارقه ورومان وفرس وغيرهم ممّن انتهبوا العالم لم ينالوا شيئاً من جزيره العرب التى أوصدت دونهم أبوابها. (٢)

وعلى فرض صحّه كلّ ما قيل عن وجود حضاره شامله فى جميع مناطق الجزيره العربيه فإنّه يجب القول بأنّ القدر المسلّم فى هذا المجال هو أنّه لم يبق أى أثر من هذه الحضارات فى منطقه الحجاز، إبان طلوع الإسلام، وبزوغ شمسّه، وهى حقيقه يصرّح بها القرآن الكريم إذ يقول تعالى: «وَ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا». (٣)

وينبغى هنا أن نقف عند القرآن الكريم قليلاً - كما وعدنا بذلك - فإنّه خير مرآه تعكس أحوال العرب وأوضاعهم بدقّه متناهيه وبشموليه ماوراءها شموليّه.

ملاح المجتمع الجاهلى العربى من منظار القرآن الكريم

اشاره

إنّ القرآن يكشف إجمالاً عن أنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم بُعث إلى قوم لم يبعث إليهم

ص: ٤٩

١- . مروج الذهب: ٢/١٦١ و ١٦٢.

٢- . حضاره العرب: ٩٣.

٣- . آل عمران: ١٠٣.

أحد قبله إذ يقول: «وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ». (١).

ويقول في آية أخرى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ». (٢) ومن المعلوم أنّ المقصود في هاتين الآيتين ونظائرها هم قريش والقبائل القريبة منها.

على أنّ أشمل وصف قرآني لأوضاع المجتمع العربي الجاهلي وأحواله هو قول الله تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ». (٣)

فإنّ هذه الآيه تصوّر حياه العرب تصويراً مربعاً، إذ تصوّرهم أولاً وكأنّهم قد سقطوا في قعر بئر الجاهليه، والضلال، والشقاء، فلا ينقذهم شيء من قعر التردّي والسقوط إلّا التمسك بحبل الله، حبل الإيمان والقرآن.

وتصوّرهم ثانياً وكأنّهم على سفير جهنم يوشك أن يسقطوا فيه ويهوا في نيرانه، وليست تلك النار إلّا نيران العداوات والحروب التي لو لم يقض عليها الإسلام بتعاليمه لأحرقت حياه العرب جميعاً.

هذه هي صورة سريعة عمّا كان عليه العرب في الجاهليه من جهل وتردّي.

وأما تفصيل ذلك فيمكن الوقوف عليه بمراجعته الآيات الأخرى التي تعرضت لذكر عادات العرب وأخلاقهم، وأفعالهم، وتقاليدهم، بصورة مفصّله، وها نحن نشير هنا إلى تلك العادات والأخلاق الفاسده على ضوء تلك الآيات على

ص: ٥٠

١- القصص: ٤٦.

٢- السجده: ٣.

٣- آل عمران: ١٠٣.

نحو الاختصار تاركين التوسع في ذلك إلى مجال آخر.

لقد اتّصف المجتمع العربيّ الجاهليّ قبل الإسلام وشاعت فيه أخلاق وعادات من أبرزها مايلي:

١. الشُرْكُ فِي الْعِبَادَةِ

صحيح أنّ العرب في الجاهلية كانت - كما يكشف القرآن ذلك لنا - موحدّة في جملة من الأمور والمجالات كالخالقيه والذات، (١) إلّا أنّهم كانوا - في الأكثر - مشركين في العبادة، بل قد ذهّبوا في هذا السبيل الباطل إلى أخطأ المستويات في اتّخاذ المعبودات والوثنيه.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ» (٢).

وقوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ» (٣).

وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى ما كان يعبّده الجاهليّون من أوثان وأصنام ومبلغ ما وصلوا إليه من انحطاط، واسفاف وانحراف في هذا المجال.

٢. إنكار المعاد

كان المشركون والجاهليّون يرفضون الاعتراف بالمعاد الّذي يعنى عوده الإنسان إلى الحياه في عالم آخر للحساب والجزاء، ويصفون من يخبر عن ذلك

ص: ٥١

١- . نعم يُستفاد من آيه واحده أنّه كان هناك اتجاه نادر بين العرب في الجاهلية ينسب الظواهر الطبيعيه إلى الطبيعه والدهر يقول الله تعالى: وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (الجاثيه: ٢٤).

٢- . الأنعام: ١٠٠.

٣- . النجم: ١٩ و ٢٠.

يقول تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْسِكُمْ إِذَا مَنَّكُمْ إِذَا مَنَّكُمْ كُلٌّ مَمَزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفَتُرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ». (١).

٣. هَيْمَنَةُ الْخِرَافَاتِ

لقد كانت حياة العرب الجاهلية مليئة بالخرافات التي كان منها تحريمهم الأكل من أنواع أربعة ذكرها القرآن مندداً بهذه البدعة إذ قال: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَا كِنََّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» (٢).

البحيرة على وزن فعيله بمعنى المفعول من البحر وهو الشق، وبحرت أذن الناقة أبحرها بحراً: إذا شققها شقاً واسعاً. وهي الناقة إذا كانت نتجت خمسة أبطن، وكان آخرها ذكراً - وقيل أنثى - بحروا أذنها وامتنعوا من ركوبها ونحرها، ولا تُطرد عن ماء، ولا تُمنع من مرعى، وإذا لقيها المعبي لم يركبها. (٣).

والسائبة: على وزن فاعله من ساب الماء إذا جرى على وجه الأرض. وهي المخلاه وهي المسيبه. وكانوا في الجاهلية إذا نذر إنسان نذراً لقدوم من سفر أو براء من مرض أو ما أشبه ذلك قال: ناقتي سائبه فكانت كالبحيرة في التخليه. (٤) وقيل هي التي تسبب للأصنام أى تعتق لها. وقيل: إن السائبه هي الناقة إذا تابعت بين عشر

ص: ٥٢

١- . سبأ: ٧ و ٨.

٢- . المائدة: ١٠٣.

٣- . مجمع البيان: ٣/٤٣٠-٤٣١.

٤- . التبيان: ٤/٣٨.

إناث ليس فيهن ذكر، سييت فلم يركبوها ولم يجزّوا وبرها ولم يشرب لبنها إلّا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنّها، ثم يخلى سبيلها مع أمها وهي البحيره. (١)

الوصيله: على وزن فعيله وهي في الغنم كانت الشاه إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبخوا الذكر لآلهتهم. وقيل: كانت الشاه إذا ولدت سبعة أبطن فإن كان السابع جدياً ذبحوه لآلهتهم ولحمه للرجال دون النساء، وإن كان عنقاً استحيوها وكانت من عرض الغنم، وإن ولدت في البطن السابع جدياً وعنقاً قالوا: إن الأخت وصلت أخاها فحرّمته علينا، فحرما جميعاً، فكانت المنفعه واللبن للرجال دون النساء.

وقيل: الوصيله: الشاه إذا أتامت عشر إناث في خمسه أبطن ليس فيها ذكر، جعلت وصيله فقالوا: قد وصلت، فكان ما ولدته بعد ذلك للذكور دون الإناث. (٢)

والحام: هو الذكر من الإبل كانت العرب إذا أنتجت من صلب الفحل عشره أبطن قالوا: قد حمى ظهره، فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء، ولا من مرعى. ٣.

والظاهر أنّ هذا المذهب تجاه هذه الأنواع من الأنعام كان بدافع الاحترام والشكر لما وهب أصحابها من النعم والبركات، غير أنّ هذا العمل - كان في حقيقته - نوعاً من الإيذاء والإضرار بهذه الحيوانات، لأنهم كانوا يُهمّلونها ويحرمونها من العناية اللازمه فكانت تشقى بقيه حياتها، وتقاسى من الحرمان، مضافاً إلى ما كان يصيبها من التلف والضياع، وما يلحق ثروتهم والنعم التي وهبها الله لهم من هذا الطريق من الضرر والخساره.

ص: ٥٣

١- . مجمع البيان: ٣/٤٣٠ و ٤٣٢.

٢- (٣ و ٢) . مجمع البيان: ٣/٤٣٢.

والأسوأ من كل ذلك أنهم - كما يُستفاد من ذيل الآية - كانوا ينسبون هذه المبتدعات المنكرات وهذا المنع والحظر إلى الله سبحانه وتعالى، إذ يقول سبحانه: «وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» وقد أعلم الله في مطلع الآية أنه لم يحرم من هذه الأشياء شيئاً، وأنهم ليكذبون على الله بادّعائهم أنّ هذه الأشياء من فعل الله أو أمره.

وقد أشار القرآن إلى هذه الخرافات التي كانت تُكبل عقول الناس في ذلك المجتمع إذ يقول: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ». (١)

٤. الفساد الأخلاقي

كان المجتمع الجاهلي العربي يعاني من فساد ذريع في الأخلاق، وقد أشار القرآن الكريم إلى اثنين من أبرز وسائل الفساد ومظاهره هما: القمار (الذي كانوا يسمّونه بالميسر، وإنّما اشتق من اليسر لأنه أخذ مال الرجل يُيسر وسهولة من غير كد ولا تعب) والخمر.

وقد بلغ شغفهم بالخمر أنّهم أعرضوا عن قبول الإسلام واعتناقه لأنه يحرم تناول الخمر وشربه، كما نقرأ ذلك في قصه الأعشى عمّا قريب.

يقول القرآن في هذا الصعيد: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا». (٢)

وقد استطاع القرآن الكريم عبر مراحل أربع أن يستأصل هذه العادة البغيضة التي كانت قد تجذرت بشكل عجيب في نفوس أولئك القوم، حتّى أصبحت السمّه البارزه لحياتهم وأصبح التغنى بالخمره، ووصفها الطابع الغالب لآدابهم،

ص: ٥٤

١- . الأعراف: ١٥٧، وراجع المحبّر: ٣٣٠-٣٤٠.

٢- . البقره: ٢١٩.

واللون البارز الذي يصبغ قصائدهم وأشعارهم.

على أنّ الفساد الأخلاقي في المجتمع الجاهلي العربي قبل الإسلام لم يكن ليقصر على معاقرة الخمر، ومزاولة الميسر؛ بل تعدى إلى ألوان أخرى ذكرها القرآن الكريم في ثلاثه عشر موضعاً، حيث عدّ منها الزنا، واللواط، والقذف، وإكراه الفتيات على البغاء، وما شاكل ذلك. (١)

٥. وَأَدُّ الْبَنَاتِ وَإِقْبَارُهُنَّ

يشير القرآن الكريم أيضاً إلى عادة جاهليه سيئه أخرى كانت رائجه بين قبائل العرب الجاهليه قاطبه وهي دفن البنت حيه.

فقد شجب القرآن الكريم هذه العاده البغيضه وهذا العمل اللا إنساني ونهى عنه بشده في أربعة مواضع، إذ قال تعالى: «وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» (٢). وقال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً» (٣).

وقد أتى جدُّ «الفرزدق» «صعصعه بن ناجيه بن عقال» رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعدّ من أعماله الصالحه في الجاهليه أنّه فدى ميتين وثمانين مؤوده في الجاهليه، وأنقذهنّ من الموت المحتّم باشرائهنّ من آبائهنّ بأمواله.

وقد افتخر «الفرزدق» بإحياء جدّه للمؤودات في كثير من شعره إذ قال:

ومنا الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يؤاد (٤)

ص: ٥٥

١- راجع للوقوف على ذلك: سورة النساء: ١٥ و ١٦. وسوره النور: ٢ و ٣ وغيرها. وراجع المحبّر: ٣٣٠-٣٤٠.

٢- التكوير: ٨ و ٩.

٣- الإسراء: ٣١.

٤- بلوغ الأرب في معرفه أحوال العرب: ٣/٤٥-٤٦.

٦. تصوراتهم الخرافية حول الملائكة

ومِمَّا أشار إليه القرآن الكريم تصورات عرب الجاهلية حول الملائكة، فقد كانوا يعتقدون أن الملائكة من الإناث وأنهن بنات الله، إذ يقول تعالى:

«فَأَسْأَلْتَهُمْ أَلِربِّكَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبُنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» (١).

٧. كيفية الانتفاع من الأنعام

إذا كانت العرب الجاهلية تمتنع من تناول لحوم الأنعام الأربعة المذكورة آنفاً وتجتنب عن استعمال ألبانها وشعورها وأصوافها إلَّا أنها كانت فى المقابل تتناول الدم، والميته والخنزير، وتأكل من الحيوانات والأنعام التى تقتلها بصورة قاسية، وبالتعذيب والأذى، وربما كانت تعتبر ذلك نوعاً من العبادة، ويُعرف ذلك من الآيه التاليه التى نزلت تنهى بشده عن أكل هذه اللحوم، وتحرم تناولها، إذ يقول سبحانه:

«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمُوقُودَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ مَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقٌ» (٢).

فقد حرم الله فى هذه الآيه أكل:

١. الميته.

٢. الدم.

٣. لحم الخنزير.

ص: ٥٦

١- . الصافات: ١٤٩-١٥٤.

٢- . المائدة: ٣.

٤. ما ذكر اسم غير الله عليه.

٥. التي تموت خنقاً، وهي المنخنقة.

٦. التي تضرب حتى تموت، وهي الموقوذه.

٧. التي تقع من مكان عال فتموت وهي المترديه.

٨. التي تموت نطحاً من حيوان آخر وهي النطيحة.

٩. ما افترسه سبع إلا إذا ذكى قبل موته.

١٠. وما ذبح أمام الأصنام.

٨. الاستقسام بالأزلام

فقد كان تقسيم لحم الذبيحة يتم عن طريق الأزلام، والأزلام جمع (زلم) بوزن (شرف) وهي عيدان وسهام تستخدم في ما يشبه القرعة لتقسيم لحم الذبيحة.

فقد كان يشتري عشره أنفار بغيراً ثم يذبحونه، ثم يكتبون على سبعة منها اسماً مختلفه من الواحد إلى السبعة ولا يكتبون على ثلاثه منها شيئاً، ويجعلونها في كيس ثم يستخرجونها واحده بعد أخرى، كل واحد باسم أحدهم فيأخذ كل واحد منهم من الذبيحة ما خرج له من السهم، وهكذا يقتسمون الذبيحة بينهم (١)، فنهاهم الله عن ذلك بقوله: «وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ» لأنه ضرب من القمار الذي ينطوي على مفساد الميسر والقمار.

٩. النسيء

كان العرب الجاهليون يعتقدون حرمة الأشهر الحرم (وهي أربعة: المحرم،

ص: ٥٧

١- . راجع للوقوف على تفصيل هذه الطريقة بلوغ الأرب: ٣/٦٢-٦٣، والمحبر: ٣٣٢ و ٣٣٥.

ورج و ذوالقعدة، وذوالحجه) فكانوا يتحرّجون فيها من القتال، وجرت عادة العرب على هذا من زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

إِلَّا أَنْ سَدَنَهُ الْكَعْبَةَ أَوْ رُؤُوسَ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْصِدُونَ أحياناً، ولقاء مبالغ يأخذونها، أو جرياً مع أهوائهم، إلى تأخير الأشهر الحرام، وهو الأمر الذى عبّر عنه القرآن الكريم بالنسيء ثم نهى عنه وعده كفراً إذ قال: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (١).

وقد ذكرت كُتُبُ التاريخ والسير كيفية النسيء وتأخير الأشهر الحرام، الذى كان يتم بصور مختلفة منها: أن جماعة ما لو كانت ترغب فى استمرار الغارة والقتال ولم تطق تأخير الحرب مدة الأشهر الحرام كانت تطلب من سدنه الكعبة، لقاء ما تقدّمه لهم من هدايا وأموال، تجويز الغارة والقتال فى شهر مُحَرَّم، وتحرم القتال فى شهر صفر بدله لىتم عدد الأشهر الحرام (وهى أربعة). وهذا هو معنى قوله تعالى:

«لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» وكانوا إذا أحلُّوا القتال والغارة فى المحرم من سنة حرّموه فى المحرم من السنة التالية، وهذا هو معنى قوله تعالى: «يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً» .

١٠. الربا

ومما يشير إليه القرآن الكريم من المفسدات الشائعه، والأعمال المنكره فى المجتمع العربى الجاهلى قبل الإسلام: «الربا» الذى كان يشكل العمود الفقرى فى اقتصاد ذلك المجتمع.

وقد حارب القرآن الكريم هذه العاده المقيته، وهذا الفساد الاقتصادى حرباً

ص: ٥٨

شعواء، إذ قال تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِن تُبْتِغُوا فَلَكم رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَ لَا تُظْلَمُونَ» (١).

والعجيب أنهم كانوا يُبَرِّرونَ هذا العمل اللا إنساني بقولهم «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» (٢) فإذا كان البيع حلالاً وهو أخذ وعطاء فليكن الربا كذلك حلالاً، فإنه أخذ وعطاء أيضاً، مع أن «الربا» من أبشع صور الاستغلال، وقد ردَّ سبحانه على هذه المقالة بقوله تعالى: «وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا» (٣) ففي البيع والشراء يتساوى الطرفان في تحمّل الضرر المحتمل، بينما لا يتضرّر المرابى في النظام الربوى أبداً وإِنَّمَا يلحق الضرر بمعطى الربا دائماً، ولهذا تنمو المؤسسات الربويه، ويعظم رصيدها، و ثروتها يوماً بعد يوم فيما يزداد الطرف الآخر بؤساً وفقراً، ولا يحصل من جهوده المضنيه إلا على ما يسدُّ جوعته، ويقوم أوده، لا أكثر، كلُّ ذلك نتيجة لهذا الأسلوب الاقتصادي غير العادل.

صور من الوضع الجاهلي

ما قدّمناه كان أبرز المفاصد الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أشار إليها القرآن الكريم، وأما التاريخ فملء بالصور والقصص التي تحكى عن تردّي حالة العرب الجاهلية وسقوطها الفظيع في قعر الفساد في جميع المناحي والجهات.

واليك في ما يلي نماذج وصوراً معدودة تكفي للوقوف على الحالة العامّة في ذلك المجتمع نقبستها لك من أصحّ المصادر وأوثقها:

ص: ٥٩

١- . البقره: ٢٧٨ و ٢٧٩.

٢- . البقره: ٢٧٥.

٣- . البقره: ٢٧٥.

وها نحن نقدم قصه «أسعد بن زراره» التي تسلط الضوء على ما كان عليه الوضع الجاهلي في أكثر مناطق الحجاز، فقد قال الطبرسي في «إعلام الوري بأعلام الهدى»: قدم «أسعد بن زراره» و «ذكوان بن عبد قيس» وهما من الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهرًا طويلًا، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم «يوم بُعث» وكانت للأوس على الخزرج؛ فخرج أسعد بن زراره وذكوان إلى مكّة في عمره رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زراره صديقًا لعتبه بن ربيعه، فنزل عليه فقال له: إنّه كان بيننا وبين قومنا حربٌ وقد جئناك نطلب الحلف عليهم، فقال له عتبه: بعدت دارنا من داركم ولنا شغل لا نتفرغ لشيء. قال سعد: وما شغلكم وأنتم في حرملكم وأمنكم؟ قال له عتبه: خرج فينا رجلٌ يدعى أنّه رسول الله، سفّه أحلامنا، وسب آلهتنا وأفسد شُبّاننا، وفزق جماعتنا، فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد الله بن عبدالمطلب من أوسطنا شرفًا، وأعظمنا بيتًا. وكان أسعد وذكوان، وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم - النضير وقريظة وقينقاع - أنّ هذا أوان نبيّ يخرج بمكّه يكون مهاجره بالمدينه لنقتلنكم به يا معشر العرب، فلما سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود، قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجر، وإنّهم لا يخرجون من شعبهم إلّافي الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلمه فإنّه ساحر يسحر بكلامه، وكان هذا في وقت محاصره بنى هاشم في الشعب، فقال له «أسعد»: فكيف أصنع وأنا معتمر لا بد لي أن أطوف بالبيت؟ قال: ضع في أذنيك القطن، فدخل «أسعد» المسجد وقد حشا أذنيه بالقطن، فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بنى هاشم، فنظر إليه نظره فجازه، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه:

ما أجد أجهل مني؟ أيكون مثل هذا الحديث بمكّه فلا أتعرفه حتّى أرجع إلى قومي

فأخبرهم، ثم أخذ القطن من أذنيه ورمى به وقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنعم صباحاً، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه إليه وقال: قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا، تحيه أهل الجنة: السلام عليكم، قال له أسعد: إن عهدك بهذا لقريب، إلى ما تدعوا محمداً؟ قال: إلى شهادته ألاً إله إلا الله، وإني رسول الله، و أذعوكم إلى: «ألا تُشركوا به شيئاً وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَنْزُقُكُمْ وَ إِيَاهُمْ وَ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَ بَعْدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (١).

فلما سمع «أسعد» هذا قال له: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله، يا رسول الله بأبي أنت وأمي.... (٢).

إن الامعان في مفاد هاتين الآيتين يغنيان عن دراسته شامله وواسعه لأوضاع العرب الجاهلية؛ لأن هاتين الآيتين تكشفان عن الأمراض الأخلاقية التي كانت تكتنف حياة العرب الجاهلية. ولهذا تلا رسول الله الآيات التي تشير إلى هذه الأدوية والأمراض ليلفت نظر «أسعد» إلى أهداف رسالته الكبرى.

العقيدة والدين في الجزيرة العربية

عند ما رفع «إبراهيم الخليل» عليه السلام لواء التوحيد في البيئه الحجازية، وأعاد بناء الكعبة المعظمة ورفع قواعدها بمعونه ابنه «إسماعيل»، تبعه في ذلك طائفه من الناس ممن أنار الله به قلوبهم، إلا أنه من غير المعلوم إلى أي مدى استطاع ذلك

ص: ٦١

١- الأنعام: ١٥١-١٥٢.

٢- بحار الأنوار: ١٩/٨-٩؛ إعلام الوري: ١/١٣٧-١٣٨.

النبي العظيم أن يعمم دين التوحيد ويبسط لواءه على الجميع، ويؤلف صفوفاً متراصه، وجبهه عريضه قويه من الموحدين، غير أن من المعلوم أنه أصبحت تلك المنطقه مسرحاً للوثنيه وعباده الأشياء المختلفه مع الأيام فقد كانت الطبقة المثقفه من العرب تعبد الكواكب والقمر، فهذا هو المؤرخ العربي الشهير الكلبي الذي توفي عام ٢٠٦ هجريه يكتب في هذا الصدد قائلاً كان «بنومليح» من خزاعه يعبدون الجن، وكانت «حمير» تعبد الشمس، و«كنانه» تعبد القمر، و«تميم» الدبران، و«لخم» و«جذام» المشترى، و«طى» سهيلاً، و«قيس» الشعري، و«أسد» عطارداً.

أمّا الدهماء والذين كانوا يشكلون أغلبيه سكان الجزيره فقد كانوا يعبدون - مضافاً إلى الصنم الخاص بالقبيله أو العائله - ثلاثئه وستين صنماً، وكانوا ينسبون أحداث كل يوم من أيام السنه إلى واحدٍ منها.

وقد دخلت عباده الأصنام والأوثان في مكه بعد «إبراهيم الخليل» عليه السلام على يد «عمر بن لحي»، ولكنها لم تكن في بدايه أمرها بتلك الصوره التي وصلت إليها في ما بعد فقد كانوا يعتبرونها في بدايه الأمر شفعاء إلى الله ووسطاء بينه وبينهم، ولكنهم تجاوزوا هذا الحد في ما بعد حتى صاروا يعتقدون شيئاً فشيئاً بأنها ذوات قدره ذاتيه مستقله، وأنها بالتالي آلهه وأرباباً.

وكانت الأصنام المنصوبه حول الكعبه تحظى باحترام جميع الطوائف العربيه، ولكن الأصنام الخاصه بالقبائل كانت موضع احترام جماعه خاصه فقط، ولأجل أن تبقى حرمه هذه الأصنام والأوثان الخاصه محفوظه لا يمسها أحد بسوء كانوا ينشئون لها أماكن وبيوت خاصه، وكانت سدانه هذه البيوت والمعابد تنتقل من جيل إلى آخر بالوراثه.

أمّا الأصنام العائليه فقد كانت العوائل تقنيتها للعباده كل يوم وليله، فإذا أراد

أحدهم السفر كان آخر ما يصنعه في منزله هو أن يتمسح به أيضاً.

وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها، واتخذهُ رَبًّا وجَعَلَ ثلاثه أثافيّ لقدّره، وإذا ارتحل تركه.

وكان من شَغَفِ أَهْلِ مَكَّةَ وَحُبِّهِمُ لِلْكَعْبَةِ وَالْحَرَمِ أَنَّهُ كَانَ لَا يَسَافِرُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا حَمَلَ مَعَهُ حِجْرًا مِنْ حِجَارِهِ الْحَرَمِ تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ، وَحِبًّا لَهُ فَحَيْثَمَا حَلُّوا نَصَبُوهُ وَطَافُوا بِهِ كَطَوَافِهِمْ بِالْكَعْبَةِ صَبَابَةً بِهَا، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ هِيَ «الْأَنْصَابُ» الَّتِي فَسِّرَتْ بِالْأَحْجَارِ الْعَادِيَةِ غَيْرِ الْمَنْحُوتَةِ وَتَقَابِلِهَا الْأَوْثَانُ، وَهِيَ الْأَحْجَارُ الْمَنْحُوتَةُ عَلَى هَيْئَةٍ خَاصَّةٍ، وَأَمَّا «الْأَصْنَامُ» فَهِيَ الْمَعْمُولَةُ مِنْ خَشَبٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ عَلَى صُورِهِ إِنْسَانٍ.

لَقَدْ بَلَغَ خُضُوعُ الْعَرَبِ أَمَامَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ حَدًّا عَجِيبًا جَدًّا، فَقَدْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ كَسْبَ رِضَاهَا بِتَقْدِيمِ الْقَرَابِينِ إِلَيْهَا، وَكَانُوا بَعْدَ نَحْرِ الْهَدَايَا يَلْطَخُونَ وَجُوهَ الْأَصْنَامِ وَرُؤُوسَهَا بِدَمَاءِ تِلْكَ الْهَدَايَا، وَكَانُوا يَسْتَشِيرُونَهَا فِي مَهَامِ أُمُورِهِمْ، وَجَلَائِلِ شُؤْنِهِمْ، فَإِذَا أَرَادُوا الْوُقُوفَ عَلَى مُسْتَقْبَلِ الْأَمْرِ الَّذِي تَصَدَّوْا لَهُ وَمَعْرِفَةِ عَاقِبَتِهِ أَخَيْرٌ هُوَ أَمْ شَرٌّ اسْتَقْسَمَ لَهُمْ أَمِينُ الْقَدَاحِ بِقَدْحِي (الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ) وَهِيَ قِطْعٌ كُتِبَ عَلَيْهِ بِعَضِّهَا (إِفْعَلٌ) وَعَلَى بَعْضِهَا الْآخِرُ (لَا تَفْعَلْ) فَيَمْدُ أَمِينُ الْقَدَاحِ يَدَهُ وَيَجِيلُ الْقَدَاحَ وَيَخْرُجُ وَاحِدًا فَإِنْ طَلَعَ الْأَمْرُ فَعَلَ أَوْ النَّاهِي تَرَكَ.

وَخِلَاصُهُ الْقَوْلُ: إِنَّ الْوَثِيئَةَ كَانَتْ هِيَ الْعَقِيدَةُ الرَّائِجَةُ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ تَفَشَّتْ فِيهِمْ فِي مَظَاهِرٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَمَتَعَدِّدَةٍ، وَكَانَتْ الْكَعْبَةُ الْمَعْظَمَةُ - فِي الْحَقِيقَةِ - مَحَطًّا لِأَصْنَامِ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَآلِهَتِهِمُ الْمَنْحُوتَةِ، فَقَدْ كَانَ لِكُلِّ قَبِيلَةٍ فِي هَذَا الْبَيْتِ صَنَمٌ، وَبَلَغَ عَدَدُ الْأَصْنَامِ الْمَوْضُوعَةِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ (٣٦٠) صَنَمًا فِي مُخْتَلَفِ الْأَشْكَالِ وَالْهَيْئَاتِ وَالصُّورِ، بَلْ كَانَ النَّصَارَى أَيْضًا قَدْ نَقَشُوا عَلَى جُدُرَانِ الْبَيْتِ وَأَعَمَدَتِهِ صُورًا لِمَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَقَصَّةِ إِبْرَاهِيمَ.

وكان من جملة تلك الأصنام: «اللات» و «العزى» و «مناه» التي كانت تعتبرها قريش بنات الله وتختص عبادتها بقريش.

وكانت «اللات» تعتبر أم الآلهة، وكان موضعها بالقرب من «الطائف» وكانت من الحجر الأبيض، وأمّا «مناه» فكانت في عقيدتهم إلهة المصير وربّه الموت والأجل وكان موضعها بين «مكة» و «المدينه».

ولقد اصطحب «أبوسفيان» معه يوم «أحد»: «اللات» و «العزى».

ويروى أنه مرض ذات يوم «أبو أحيحة» وهو رجل من بنى أمية، مرضه المذى مات فيه، فدخل عليه أبولهب يعود، فوجده يبكى، فقال: ما يبكيك يا با أحيحة؟ أمن الموت تبكى ولا بد منه؟ قال: لا ولكنى أخاف أن لا تُعيد العزى بعدى! قال أبولهب: والله ما عبّدت حياتك (لأجلك) ولا تُترك عبادتها بعدك لموتك!! فقال أبو أحيحة: الآن علمت أن لي خليفه (١).

ولم تكن هذه هي كلّ الأصنام التي كانت تعظمها وتعبدها العرب بل كانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها «هبل»، كما أنه لم يكن لكل قبيلة صنم خاص فحسب، بل كانت كلّ عائلة تعبد صنماً خاصاً بها مضافاً إلى صنم القبيلة، وكانت المعبودات تتراوح بين الكواكب، والشمس، والقمر، والحجر، والخشب، والتراب، والتمر، والتماثيل المنحوتة المختلفه في الشكل، والهيكل، والاسم، المنصوبه في الكعبة أو في سائر المعابد. لقد كانت الأصنام جميعها أو أغلبها معظّمه عند العرب، يتقربون عندها بالذبائح ويقربون لها القرابين، وجرت عادة بعض القبائل آنذاك أن تختار من بين أفرادها كلّ سنه شخصاً في مراسيم خاصه ثم تذبحه عند أقدام أصنامها، وتقبر جسده على مقربة من المذبح.

ص: ٦٤

١- . الأصنام للكلبى: ٢٣.

هذا العرض المختصر يكشف لنا كيف أنّ أرض الجزيره العرييه برمتها كانت قد أصبحت مسرحاً للأصنام ومستودعاً ضخماً للأوثان، وكيف تحوّلت هذه البقعه من العالم بيوتها وأزقتها وصحاريها وحتّى بيت الله المحرم كانت قد تحولت إلى مخزن للنُّصَب المؤلَّهه، والتماثيل المعبوده، ويتجلّى هذا الأمر من قول شاعرهم الذى أسلم وراح يستنكر ما كان عليه من عباده الأصنام المتعدّده الخارجه عن الإحصاء والعدّ، إذ قال:

أرباً واحداً أم ألف ربّ أدينُ إذا تقسّمت الأمورُ

عزّت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعلُ الجِلْدُ الصُّبور

فلا عزيّ أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى عمرو أزورُ

ولا غنماً أزورُ وكان ربّاً لنا فى الدهر إذ حلمى يسيّرُ

ولكن أعبُد الرحمان ربّى ليغفِرَ ذنبيّ الربُّ الغفورُ(١)

وقد حدثت بسبب الاختلاف والتعدّديه فى عباده الأصنام والأوثان المؤلَّهه السخيفه الباطله، تناقضاتٌ، وصراعاتٌ، وحروب ومناحرات، قد جرّت بالتالى ويلات ومآس وخسائر مادّيه ومعنويه كبرى على تلك الجماعه المتوحشه، الضالّه.

عقيده العرب حول حاله الإنسان بعد الموت

وعن مصير الإنسان وحالته ما بعد الموت هذه المشكله الفلسفيه العويصه كانت رؤيه العرب ونظرتهم تتلخّص فى ما يلى:

ص: ٦٥

١- . بلوغ الأرب فى معرفه أحوال العرب: ٣/٢٤٩.

عند ما يموت الإنسان تخرج روحه من جسده على هيئة طائر شبيه باليوم يسمى عندهم ب «الهائم والصدى» ثم يبقى هذا الطائر قريباً من جسد الميت ينوح نوحاً مقرحاً وموحشاً، وعند ما يوارى الميت يبقى هذا الطائر مقيماً عند قبره إلى الأبد!

وربما وقف على جدار منزل الميت أحياناً لتسقط أخبار عائلته والأطلاع على أحوالهم!!

قال شاعرهم فى ذلك:

سُطِّطَ المَوْتُ والمنونُ عليهم فَلهم فى صدى المقابر هَامٌ

وإذا كان المرء قد مات بموته غير طبيعته كما لو قُتِلَ - مثلاً - فإنَّ ذلك الحيوان ينادى باستمرار: «اسقونى... اسقونى» أى إسقونى بسفك دم القاتل وإراقته؛ ولا يسكن عن هذا النواح والنداء الخاص إلا بعد الانتقام والتأر من قاتله.

قال أحدهم فى ذلك:

فياربَّ إنَّ أهلكَ ولم تُروِ هامتى بليلى أُمْتُ لا قَبْرَ أعطَشَ من قَبْرِى (١)

من هنا بالضبط تتجلى الحقيقة للقارئ ويعلم جيداً كيف أنّ تاريخ العرب ما قبل الإسلام وتاريخهم ما بعد الإسلام ما هو إلّا تاريخان على طرفى نقيض:

فذلك تاريخ جاهليه، ووثنيه وإجرام، وهذا تاريخ علم ووحديته وإنسانيه وإيمان، وشتان ما بين وأد البنات، وبين رعايه الأيتام، وبين السلب والنهب والإغاره، وبين المواساه والإيثار، وبين عباده الأوثان والأصنام الصمماء العمياء، والتقرب إلى الله الواحد القادر.

ص: ٦٦

١- . بلوغ الأرب: ٣١١/٢-٣١٢.

إنَّ الحركة الفكرية والثقافية، وما يتركه أيُّ شعب من الشعوب من قصص وحكايات أفضل وسيله للتعرف على خلفياته النفسية والأخلاقية، ذلك لأنَّ الآداب بما فيها الشعرُ والقصةُ، والخطبةُ والحكايةُ، والمثلُ والكنايةُ مرآةٌ صادقةٌ تعكس المستوى الفكري لآيِّه جماعه، وتعتبرُ خير مقياس لتمدُّنها، وحضاراتها، وأفكارها ونفسياتها، تماماً كما تحكي اللوحاتُ الفنية عن حياه عائله، أو منظر طبيعي جميل، أو اجتماعاتٍ صاحبه، أو مشاهدٍ قتاليه.

إنَّ القصائد والأمثال العربيه التي كانت رائجه آنذاك تستطيع - قبل كلِّ شيء - أن تكشف عن الوجه الحقيقي لتاريخهم ونمط حياتهم وسلوكهم، ولهذا السبب لا يجوز لأى مؤرِّخ واقعي يسعى إلى الحصول على صورته كامله عن تاريخ شعب من الشعوب أن يتجاهل التركة الفكرية والأدبية والثقافية لذلك الشعب، سواء أكان شعراً أم نثراً، أمثالاً أم حكماً، قصصاً أم أساطير.

ومن حسن الحظ أنَّ مؤرِّخي الإسلام أثبتوا وسجلوا بإتقان ما أُثِرَ من العرب ممَّا يرتبط بآدابهم فى العصر الجاهلى بقدر ما أُتيح لهم ذلك.

وقد كان أبو تمام «حبيب بن أويس» (المتوفى عام ٢٣١ هجرية) والذي يُعتبر من كبار أدباء الشيعة، وله قصائد رائعه فى مدح آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ممَّن اعتنى عناية بالغه بهذه الناحية، حيث جَمع فى كتابٍ واحدٍ طائفه كبيره جدًّا من الشعر الجاهلى مفصَّله فى عشره أبواب هى:

١. الحماسه.

٢. المراثى.

٣. الأدب.

ص: ٦٧

٤. النسب.

٥. الهجاء. ٦. الإضافات.

٧. الصفات.

٨. السير.

٩. المُلح.

١٠. مذمّة النساء.

وقد تناولَ هذا الديوان التاريخيَّ القيمَ عددٌ كبيرٌ من أدباء المسلمين وعلمائهم بشرح أبياته، وتفسير غوامضها، وبيان أغراضها، ومقاصدها.

كما ترجم أصلُ الديوان إلى لغات أجنبية عديدة جاء ذكر طائفته منها في كتاب «معجم المطبوعات»^(١).

مكانه المرأة عند العرب الجاهلية

إنَّ البابَ العاشرَ من هذا الديوان خير وسيلة لمعرفة ما كانت عليه المرأة في العصر الجاهلي من الحرمان، وأقوى دليلٍ على أنَّها كانت تعيشُ - في ظلِّ ذلك العهد - في أسوأ الحالات وأشدِّ الظروف وأتعسها.

هذا مضافاً إلى أنَّ الآيات القرآنية التي تنزَّلت وهي تشجُّبُ بعنف معاملة الجاهلين للعنصر النسائي، وقسوتهم على الأنثى، هي الأخرى أفضل شاهد على مدى الإنحطاط الأخلاقي والتدهور السلوكي الذي انحدروا إليه في هذا المجال.

ص: ٦٨

١- . معجم المطبوعات: ٢٩٧، وقد اشتهر هذا الديوان ببابه الأول: «الحماسه» فسمى ديوان الحماسه.

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَصِفُ عَادَهُ وَأَدَّ الْبَنَاتِ بِقَوْلِهِ: «وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ» (١) أَي لِيَسْأَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ الْبَنَاتِ اللَّاتِي وَوُئِدْنَ وَهَرْنَ أَحْيَاءَ.

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ الْمَوْحِيهِ إِنَّمَا يَتَحَدَّثُ - فِي الْحَقِيقَةِ - عَنِ عَادِهِ وَأَدَّ الْبَنَاتِ بِمَرَارِهِ، وَيَشْجِبُهَا بِشَدِّهِ حَتَّى أَنَّهُ يَعْتَبِرُهَا جَرِيمَةً نَكَرَاءَ لَا تَمُرُ - فِي الْآخِرَةِ - بِدُونَ حِسَابٍ شَدِيدٍ، وَسُؤَالٍ خَاصٍّ.

حَقًّا إِنَّهُ لِأَمْرٌ يَكْشِفُ عَنِ مَدَى الْقَسْوَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا قُلُوبُ تِلْكَ الْجَمَاعَةِ.

إِنَّهَا قَسْوَةٌ تَغْشَى كُلَّ عَوَاطِفِ الْمَرْءِ فَلَا يَعُودُ يَسْمَعُ مَعَهَا نِدَاءَ الضَّمِيرِ، وَلَا يَحْسُ مَعَهَا بُوخْزَ الْوَجْدَانِ، إِنَّهُ لَا يَعُودُ يَسْمَعُ مَعَهَا حَتَّى صَرَخَ بِنْتِ الْجَمِيلَةِ الْبَرِيئَةِ، وَاسْتِغَاثَاتِهَا الْمُؤَلِّمَةِ وَهِيَ تَرَى بِأَمِّ عَيْنَيْهَا حَفِيرَتَهَا، وَتَحْسُ بِيَدِي وَالِدِهَا الْقَاسِي، وَهُوَ يَدْفَعُهَا إِلَى تِلْكَ الْحَفْرَةِ وَيَدْفِنُهَا حَيْهَ!

إِنَّهَا قَسْوَةٌ تَكْشِفُ عَنِ أَسْوَأِ وَأَحْطِّ دَرَجَاتِ الْإِنْحِطَاطِ الْخَلْقِيِّ، وَالتَّقَهُّقْرِ الْإِنْسَانِيِّ.

وَبَنُو تَمِيمٍ هِيَ أَوَّلُ قَبِيلَةٍ أَقْدَمَتْ عَلَى هَذِهِ الْجَرِيمَةِ النَّكَرَاءِ، وَكَانَ السَّبَبُ أَنَّ «بَنِي تَمِيمٍ» امْتَنَعُوا عَنِ دَفْعِ ضَرْبِهِ الْأَتَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ إِلَى الْمَلِكِ، فَجَرَّدَ إِلَيْهِمُ النِّعْمَانُ بْنُ الْمَنْذَرِ حَاكِمَ الْعِرَاقِ آنَذَاكَ جَيْشًا كَبِيرًا لِيَضْرِبَ هَذَا التَّمَرْدَ، وَانْتَصَرَ عَلَى «بَنِي تَمِيمٍ» فِي الْمَالِ وَغَنَمَ مِنْهُمْ الْغَنَائِمَ وَسَبَى مِنْهُمْ الْفَتَيَاتِ وَالنِّسَاءَ، فَوَفَدَتْ وَفُودَ «بَنِي تَمِيمٍ» عَلَى النِّعْمَانِ بْنِ الْمَنْذَرِ وَكَلَّمُوهُ فِي الذَّرَارِيِّ وَالنِّسَاءِ، فَحَكَمَ النِّعْمَانُ بِأَنْ يَجْعَلَ الْخِيَارَ فِي ذَلِكَ إِلَى النِّسَاءِ، فَأَيُّ امْرَأَةٍ اخْتَارَتْ زَوْجَهَا رَدَّتْ عَلَيْهِ، فَاخْتَلَفْنَ فِي الْخِيَارِ، فَاخْتَارَ بَعْضُهُنَّ الْعُودَةَ إِلَى الْأَهْلِ وَالْآبَاءِ، وَاخْتَارَتْ بِنْتُ لَقَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ

ص: ٦٩

١- . التكويرة: ٨.

سايها على زوجها مما أثار هذا الموقف والاختيار غيظ والدها العجوز «قيس بن عاصم» فنذر من ذلك الحين أن يدس كل بنتٍ تولد له. وهكذا سنّ لقومه الوأد، وأخذت بقيه القبائل بهذه العاده البغيضة الوحشية إرضاءً لغيرتهم وظلّوا يمارسونها أعواماً متتاليه. (١)

وإليك واحده من القصص المأساويه فى هذا المجال:

قيل لما وفد «قيس بن عاصم» على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سأله بعض الأنصار عما يتحدّث به فى الموءودات، فأخبر أنه ما ولدت له بنت إلا وأدها، قال: كنت أخاف العار وما رحمتُ منهنّ إلاّ بئيه كانت ولدتها أمّها وأنا فى سفر، فدفعتها إلى أخواتها، وقدمت أنا من سفرى فسألتها عن الحمل، فأخبرت أنها ولدت ولداً ميتاً، وكتمتُ حالها، حتّى مضت على ذلك سنون، وكبرت الصبيّه، وينعت، فزارت أمّها ذات يوم، فدخلتُ فرأيتها وقد ظفرت شعرها وجعلت فى قرونها جداداً ونظمت عليها ودعاً، وألبستها قلابه من جزع، فقلت لها: من هذه الصبيّه؟ وقد أعجبنى جمالها فبكت أمّها، وقالت: هذه ابنتك، فأمسكتُ عنها حتّى غفلت أمّها ثم أخرجتها يوماً فحفرتُ لها حفرة وجعلتها فيها وهى تقول: يا أبت ما تصنع؟ أخبرنى بحقّك!! وجعلتُ أقلبُ عليها التراب، وهى تقول: أنت مغط علىّ بهذا التراب، أنت تاركى وحدى، ومنصرفٌ عنى، وجعلتُ أقذفُ عليها حتّى وارتيتها، وانقطع صوتها، فتلك حسرتها فى قلبى، فدمعتُ عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «إن هذه لقسوه، ومن لا يرحم لا يرحم». (٢)

وقد ذكر ابن الأثير فى كتابه «أسد الغابه» فى ماده: قيس: أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سأل قيساً عن عدد البنات اللاتى وأدهنّ فى الجاهليه؟ فأجاب قيس

ص: ٧٠

١- . بلوغ الأرب فى معرفه أحوال العرب: ٣/٤٢-٤٣.

٢- . حياه محمّد: تأليف محمّد على الحاج سالمين: ٢٤ و ٢٥.

بأنه وأد اثنتي عشرة بنتاً له. (١)

وروى عن ابن عباس أنه قال: كانت الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وإذا ولدت ولداً حبسته. (٢)

المرأة ومكانتها الاجتماعيّة عند العرب

كانت المرأة عندهم تباع وتُشتري كالمتاع، وكانت محرومة من جميع الحقوق الاجتماعيّة والفردية، حتّى حقّ الإرث.

وقد كان المثقفون من العرب يعيّدون النساء من الحيوانات، ولهذا كانوا يعتبرونهن جزءاً من أثاث البيت ويعاملونهن معاملة الرياش والفراش حتّى سار فيهم المثل المعروف: «وإنما أمّهات الناس أوعيه».

كما أنّهم غالباً ما كانوا يقتلون بناتهم في اليوم الأول من ميلادهن خشية الفقر تاره، ودفعاً للعار والشنآن تاره أخرى.

وقد كان هذا القتل يتمّ إما بذبحهن أو إلقاءهن من شاهق، أو إغراقهن في الماء أو الدفن وهن أحياء كما سبق.

وقد تعرّض القرآن الكريم - الذي يعدّ من وجهه نظر المستشرقين الكتاب والمصدر التاريخي العلمي الوحيد الذي لم تنله يدُ التحريف - تعرّض لذكر قصه من هذا النوع ضمن آيات من سورة النحل حيث قال: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ

ص: ٧١

١- . راجع: أسد الغابه: ٤/٢٢٠، وجاء في بلوغ الأرب في معرفه أحوال العرب: ٣/٤٣ أنه وأد بضع عشره بنتاً.

٢- . بلوغ الأرب: ٣/٤٣.

هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» (١).

هذا والمؤسف أكثر هو ما كان عليه وضع الزواج في الجاهلية، حيث لم يكن يستند إلى أى قانون، ولم يخضع لأيواحد من النظم المعقولة، بل كان وضعاً عديم النظير في ذلك الزمان، فلم يكن لعدد الزوجات - مثلاً - حدّ معلوم، أو قاعده ثابتة.

كما أنّه كلما أرادوا التخلّص من مهر الزوجه عمدوا إلى إيذائها بقسوه، حتّى تتخلّى هي بنفسها عن حقّها، وكان اقترافها لأى عمل مناف للعفه هو الآخر سبباً لسقوط حقّها فى المهر بالمرّه.

ولطالما استغلّ بعض الأشخاص هذا القانون الجائر للتخلّص من مهور زوجاتهم فاتّهموهن بالخيانة الزوجيه!!

ومن قبيح ما كانوا يفعلون أن يتزوّج الرجل بزوجه أبيه بعد تطليقها، أو وفاته وربّما تناوب الأبناء على امرأه أبيهم واحداً بعد واحد، فقد روى محمد بن حبيب فى المحبّر: وكان الرجل (من العرب الجاهليه) إذا مات قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأه أبيه، فورث نكاحها. فإن لم يكن له حاجه فيها تزوّجها بعض إخوته بمهر جديد. (٢).

وقد أبطل الإسلام هذه العاده الفاسده حيث قال الله تعالى: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا» (٣).

ص: ٧٢

١- . النحل: ٥٨ و ٥٩.

٢- . المحبّر: ٣٢٥-٣٢٦.

٣- . النساء: ٢٢، و كانوا يُسمّون من يتزوج زوجه أبيه الضيزن، وكان هذا الزواج يسمّى فى الجاهليه «نكاح المقت» ويُسّمى الولد منه: مقتى. (راجع: بلوغ الأرب: ٢/٥٣؛ ومجمع البيان للطبرسى: ٣/٢٦).

وقد ذكرت كتب التاريخ والسيرة طائفة ممن فعلوا هذا نعرض عن ذكر أسمائهم.

كما ذكرت تلك الكتب أنواعاً أخرى من المناكح الفاسده الشيعه التي أبطلها الإسلام. (١)

ثم إن المطلقة لم يكن لها الحق - في زمن الجاهليه - في أن تتزوج برجل آخر بعد انقضاء عدتها إلا إذا أذن لها الزوج الأول الذي كان غالباً ما يأخذ مهرها في الزواج الثاني في قبال الإذن.

وربما منع أولياؤها من أن تتزوج بزوجه الأول الذي طلقها، ثم خطبها بعد انقضاء العده إذا رضيت به ورغبت فيه، أو أن تتزوج بمن أرادت وأحببت - بعد انقضاء العده - أصلاً، حميه جاهليه.

وكان الرجل يرث امرأه ذى قرابته إذا مات عنها، تماماً كما يرث ما خلف من أمته المنزل، زاعماً بأنه أحق بها من غيره، فيعضلها (يمنعها من الزواج) أو تزود إليه صداقها. وفي روايه: إن كانت جميله تزوجه، وإن كانت دميمه حبسها حتى تموت فيرتها، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، وأبطل تلك العادات إذ قال تعالى: «وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». (٢)

وقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ». (٣)

وقال تعالى: «وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

ص: ٧٣

١- لاحظ: المحبر: ٣٣٧-٣٤٠.

٢- البقره: ٢٣٢.

٣- النساء: ١٩.

سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» (١).

وخلاصه القول؛ إنَّ المرأة كانت في العهد الجاهليّ بشرّ حال، ويكفي لتلخيص ما قلناه أنّه لما خطب أحدهم إلى رجل إبنته، وذكر له المهر والصدّاق قال: إنّي وإن سيق إلى المهر ألف وعبيدان (أي عبيد ومماليك) وذود (وهو من الإبل من الثلاث إلى العشر) عشر، أحبُّ أضحاري إلى القبر، وقال شاعرهم، في ذلك.

لِكُلِّ أَبِي بِنْتِ يُرَاعِي شُؤْنَهَا ثَلَاثَةُ أَصْهَارٍ إِذَا حَمَدَ الصَّهْرُ

فَبَعَلَ يِرَاعِيهَا وَخَدَرَ يَكْنُهَا وَقَبْرٌ يُوَارِيهَا، وَأَفْضَلُهَا الْقَبْرُ (٢)

كما أنّ العرب كانت مصفقه ومتفقه على توريث البنين دون البنات. (٣)

مقارنه بسيطه

ولو لاحظت أيها القارئ الحقوق التي قررها الإسلام في مجال (المرأة) لأذنت - حقاً - بأن هذه الأحكام والمقررات وهذه الخطوات المؤثره التي خطاها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل إصلاح حقوق المرأة، وتحسين أوضاعها، هي بذاتها شاهد حق، ودليل صدق على حقايتها، وصدق ارتباطه بعالم الوحي. فأية رعايه ولطف بالمرأة وحقوقها وأى اهتمام بشأنها وكرامتها أعلى وأكثر من أن يوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم - مضافاً إلى ما جاء في آيات وأحاديث كثيره تؤكد على حقوق المرأة وتوصي أتباع هذا الدين بالرحمه بهن واحترامهن - في خطبته الشهيره في (حجّه الوداع) بالمرأة، ويؤكد على ذلك أشد تأكيد إذ يقول صلى الله عليه وآله وسلم:

ص: ٧٤

١- . البقره: ٢٣١.

٢- . بلوغ الإرب: ٢/٩.

٣- . المحبّر: ٢٣٦.

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا... فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النَّسَاءِ وَأَسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا، فَإِنَّهِنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ (أى أسيرات)... أَطْعَمُوهُنَّ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَاكْسُوهُنَّ مِمَّا تَلْبَسُونَ».(١)

العربُ والرُّوح القتاليه

من الناحية النفسية يمكن القول بأنَّ عرب الجاهلية كانوا النموذج الكامل للإنسان الحريص، الموصوف بالطمع الشديد، القوى التعلق بالماديات.

لقد كانوا ينظرون الى كلِّ شىء من زاوية منافعهم ومردوداته الماديّة، كما أنّهم كانوا دائماً يرون لأنفسهم فضيله وميزه على الآخرين.

كانوا يحبون الحريه حباً شديداً، ولذلك كانوا يكرهون كلِّ شىء يقيد حريتهم.

يقول ابن خلدون عنهم: «إنّهم (أى العرب الجاهلية) بطبيعته التوحُّش اللذى فيهم أهلُ انتهاب وغيث، ينتهبون ما قدروا عليه... وكان ذلك عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقه الحكم، وعدم الانقياد للسياسه وهذه الطبيعه منافية للعمران ومناقضه له».

ويضيف قائلاً: «فطبيعتهم انتهاب ما فى أيدي الناس، وأنّ رزقهم فى ضلال رماحهم وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حدٌ ينتهون إليه، بل كلّما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه».(٢).

لقد كانت الإغاره والنهب والقتال من العادات المستحكمة عند القوم، ومن

ص: ٧٥

١- . وردت هذه العبارات فى مصادر مختلفه مع شىء طفيف من الاختلاف، راجع: تحف العقول: ٣٢-٣٣؛ عوالى اللآلى: ١/٢٥٥

برقم ١٦؛ سنن النسائى: ٥/٣٦٤ برقم ٩١٥٢.

٢- . مقدّمه ابن خلدون: ١٤٩.

الطبائع الثانويه فى نفوسهم، وقد بلغ ولعمهم وشغفهم بكل ذلك ونزوعهم الشديد إليه أن أحدهم - كما يقال - سأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن سمع منه وصف الجنة وما فيها من نعيم: وهل فيها قتال؟

ولما سمع الجواب بالنفى قال: إذن لا خير فيها!!

أجل لقد سجّل التاريخ للعرب ما يقرب من (١٧٠٠) وقعه وحرباً، إمتد أمد بعضها إلى مائه سنه أو أكثر، يعنى أن أجيالاً كثيره كانت تتوارث الحرب، وتستمر فى قتال الخصم، وربّ حرب داميه طويله الأمد إندلعت بسبب قضيه تافهه. (١)

لقد كان العربى فى العهد الجاهلى يعتقد بأنّ الدم لا يغسله إلا الدم، وقضيه «الشنفرى» التى هى أشبه بالأساطير لغرابتها يمكن أن تعكس مدى «العصبيه الجاهليه» التى كانت سائده آنذاك.

فالشنفرى يُهان على يد رجل من «بنى سلامان» فيعزم على الانتقام منه، وذلك بأن يقتل مائه من تلك القبيله، وبعد التربص الطويل يغتال تسعاً وتسعين، ويبقى مشرّداً حتى تغتاله جماعه من اللصوص عند بئر فتفعل جمجمته - بعد مقتله - فعلتها، اذّ تتسبّب بعد مرور سنين فى قتل رجل من قبيله «بنى سلامان» وبذلك يكتمل العدد الذى حلف على قتلهم من تلك القبيله، وذلك عندما يمر رجل من «بنى سلامان» على تلك المنطقه فيهب طوفان شديد يلقى بجمجمه

ص: ٧٦

١- . العرب قبل الإسلام: ٣١٩ و ٣٢٠. هذا وتعتبر حرب داحس والغبراء، من أيام العرب التاريخيه قبل الإسلام، وقد نشأت بسبب سباق بين فرسين هما داحس والغبراء (وهما فرسين لقيس بن زهير من بنى عبس) وفرسين آخرين (لحذيفه الغدر) انتهى إلى التنازع فى السباق وازداد التنافر بين المتسابقين وانجرّ إلى طعن أحدهما الآخر، وأن تتهياً على إثر ذلك مقدمات حرب طويله بين قبيلتى الرجلين وحلفائهما استمرت من عام ٥٦٨ م إلى عام ٦٠٨ م وهلاك الكثير من القبيلتين. (راجع الكامل فى التاريخ لابن الأثير: ١/٥٦٦).

«الشنفرى» على ذلك الرجل فتصيبه فى رجليه بشده، فيموتُ بما لحقه من ألم وجراحه. (١)

ولقد بلغ أنس العرب الجاهليه بالقتال وسفك الدماء أن جعلوا القتل والسفك للدماء من مفاخر الرجال!!

ويبدو ذلك جلياً لمن يقرأ قصائدهم الملحميه التى تفوح منها رائحه الدم، ويخيم عليها شبح الموت، تلك القصائد التى يمدح فيها الشاعر نفسه أو قبيلته بما أراقوه من دماء!! وما أزهقوه من أرواح وما سبوه من نساء!! وأيتموه من أطفال!!

ونجد فى البيت الشعرى التالى مدى انزعاج الشاعر العربى الجاهلى لما أصاب قبيلته من نكسه وذل وهزيمه فى ميدان القتال، إذ يقول:

فَلَيْتَ لِي بِهِمُ قَوْمًا إِذَا رَكَبُوا سُنُورَ الْإِغَارَةِ رُكْبَانًا وَفُرْسَانًا

ويصف القرآن الكريم هذه الحاله بقوله: «وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا». (٢)

الأخلاق العامه فى المجتمع الجاهلى العربى

ومهما يكن من أمر فإن عوامل مختلفه كالجهل وضيق ذات اليد، وجشوبه العيش، وعدم وجود قانون صحيح يحكم الحياه الاجتماعيه، وحاله البداوه الموجه للتوحش، والكسل والبطاله وغير ذلك من الرذائل الاخلاقيه كانت قد حولت جو الجزيره العربيه إلى جو فاسد قاتم، حتى أن أموراً يندى لها الجبين قد أخذت طريقها إلى حياه تلك الجماعه وراحت تتخذ شيئاً فشيئاً صفه العادات المتعارفه!!

ص: ٧٧

١- . تاريخ العرب: ١/١١١، وراجع أيضاً بلوغ الأرب فى معرفه أحوال العرب: ١٤٥/٢-١٤٦.

٢- . آل عمران: ١٠٣.

لقد كانت الغارات وعمليات النهب، والقمار، والربا، والأسر، والسبي من الأعمال والممارسات الرائجة في حياة العرب الجاهلية، وكان شرب الخمر ومعاقرتها بلا حدود هو الآخر من الأعمال القبيحة الشائعة لديهم، ولقد ترسخت هذه العادة القبيحة في حياتهم إلى درجة أنها صارت جزءاً من طبيعتهم، وحتى أن شعراءهم خصّصوا مساحات كبيرة في قصائدهم لامتداح الخمره ووصفها، وكانت الحانات مفتوحة تستقبل الزبائن طول الوقت، وقد نصبت عليها رايات.

فها هو شاعرهم يقول:

إِذَا مَتُّ فَادِفِنِّي إِلَى جَنْبِ كَرْمِهِ تُرَوِّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرْوَقُهَا

وَلَا تَدْفِنِّي فِي الْفَلَاهِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَامْتُ أَنْ لَا أَذُوقُهَا(١)

لقد بلغت معاقرة الخمر من الرواج في الحياة العربية الجاهلية بحيث أصبحت لفظه «التجاره» تعادل في عرفهم بيع الخمر، والاتجار بها.

ولقد كانت الأخلاق تفسر عند العرب الجاهلية بنحو آخر عجيب، فإنهم مثلاً كانوا يمدحون الشجاعه والمروءه والغيره، ولكنهم كانوا يقصدون من «الشجاعه» القدره على الإغاره وسفك الدماء، وكثره عدد القتلى في الحروب!!

كما أن الغيره كانت تعنى عندهم وأد البنات، حتى أن هذا العمل الوحشي كان يعدّ عندهم من أعلى مظاهر الغيره، وكانوا يرون الوفاء والوحده في نصره الحليف حقاً أو باطلاً وهكذا فإن أكثر القصص التي نُقلت عن شجاعتهم وشجاعتهم بالحرية كانت الشجاعه والشغف بالحرية فيها تتلخص وتتجسد في الإغاره والانتقام.

أنهم كانوا يعيشون - في حياتهم - المرأه والخمره والحرب ليس غير.

ص: ٧٨

ولقد بيّن القرآن الكريم أهداف البعثة المحمّديه المقدّسه بعبارات موجزه، وممّا يلفت النظر - أكثر من أى شىء - ما ذكره تعالى في الكتاب العزيز حول أهم هذه الأهداف والغايات العليا إذ قال: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» (١).

فلا بدّ أن نعرفَ ماذا كانت تلك الأغلال والسلاسل التي كانت عربُ الجاهليه ترزحُ تحتها حتى قبيل بزوغ فجر الإسلام؟

لا ريب أنّها لم تكن من جنس الأغلال والسلاسل الحديديه، ولم يكن المقصودُ منها ذلك أبداً، فماذا كانت إذنً يا ترى؟

أجل إنّ المقصودَ من هذه الأغلال هي الأوهام والخرافات التي كانت تقيّد العقل العربي عن الحركة، وتعيقه عن النمو والتقدم، ولا شكّ أن مثل هذه السلاسل والأغلال التي تقيّد الفكر البشري وتمنعه من التحليق والتسامي، أثقل بكثير من الأغلال والقيود الحديديه وأضرّ على الإنسان منها بدرجات ومراتب، لأنّ الأغلال الحديديه توضع عن الأيدي والأرجل بعد مضى زمان، ويتحرّر الإنسان منها، بعد حين، ليدخل معترك الحياه بعقله سليمه مبرّأه من الأوهام والخرافات، وقد زالت عنه ما تركته تلك الحدائد من جروح وآلام.

أمّا السلاسل والأغلال الفكرية (ونعني بها الأوهام والأباطيل والخرافات) التي قد تهيمن على عقل الإنسان وتكبّل شعوره فإنّها طالما رافقت الإنسان إلى لحظه وفاته، وأعاقته عن المسير والانطلاق، دون أن يستطيع التحرّر منها، والتخلّص من آثارها، وتبعاتها، اللهم إلّا إذا استعان على ذلك بالتفكير السليم، والهدايه الصحيحه.

ص: ٧٩

فبالتفكير السليم وفي ضوء العقل البعيد عن أى وهم وخيال يمكنه التخلّص من تلك الأغلال والقيود الثقيله، وأما بدون ذلك فإن أى سعى للإنسان فى هذا السبيل سيوئ بالفشل.

إن من أكبر مفاخر نبى الإسلام أنه كافح الخرافات، وأعلن حرباً شعواء على الأساطير، ودعا إلى تطهير العقل من أدران الأوهام والتخيّلات، وقال: لقد جئت للأخذ بساعد العقل البشرى، وأشدّ عضده، وأحارب الخرافه مهتماً كان مصدرها، وكيفما كان لونها وأياً كانت غايتها، حتى لو خدّمت أهدافى، وساعدت على تحقيق مقاصدى المقدّسه.

إن ساسه العالم الذين لا يهتمهم إلا إرساء قواعد حكمهم وسلطانهم على الشعوب، لا يتورعون عن التوسّل بأيه وسيله، والاستفاده من أيه واقعه فى سبيل تحقيق مآربهم حتى أنهم لا يتأخرون عن التذرّع بترويج الخرافات والأساطير القديمه بين الشعوب للوصول إلى سدّه الحكم، أو البقاء فيها ما أمكنهم ذلك. ولو اتفق أن كانوا رجالاً موضوعيين ومنطقيين فإنهم فى هذه الحاله دافعوا عن تلك الخرافات والأوهام والأساطير التى لا تنسجم مع أى مقياس عقلى بحجه الحفاظ على التراث القومى، أو احترام رأى أكثرية الشعب، أو ما شابه ذلك من الحجج المرفوضه.

ولكنّ رسول الإسلام لم يكتف بإبطال المعتقدات الخرافيه التى كانت تلحق الضرر به، وبمجمّعه، بل كان يكافح ويحارب بجميع قواه كلّ أسطوره أو خرافه شعبيه أو فكره فاسده باطله، تخدم غرضه، وتساعد على تحقيق التقدّم فى دعوته ويسعى إلى أن يجعل الناس يعيشون الحقيقه لا أن يعبدوا الخرافات، ويكونوا ضحايا الأساطير والأوهام، واليك واحداً من هذه المواقف العظيمة على سبيل المثال لا الحصر.

لما مات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابنه الوحيد، حزن عليه النبي حزناً شديداً، فكانت تنحدر الدموع منه على غير اختيار، واتفق أن انكسفت الشمس في ذلك اليوم أيضاً، فذهب المولعون بالخرافة في ذلك المجتمع (العربي) على عادتهم إلى ربط تلك الظاهرة بموت إبراهيم واعتبار ذلك دليلاً على عظمه المصاب به فقالوا: انكسفت الشمس لموت ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيتها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره، مطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا انكسفا، أو أحدهما صلوا».

ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف. (١) وهي ما تسمى بصلاة الآيات.

إن فكره انكساف الشمس لموت ابن صاحب الرساله وإن كان من شأنها أن تقوى من موقع النبي في قلوب الناس، وتخدم بالتالي غرضه، وتساعد على انتشار دعوته، وتقدمها، إلا أنه صلى الله عليه وآله وسلم رفض أن يحصل على المزيد من النفوذ في قلوب الناس بواسطة هذا الطريق.

على أن محاربه النبي صلى الله عليه وآله وسلم للخرافات والأساطير التي كانت نموذجاً بارزاً من محاربه الوثنيه، وتأليه المخلوقات وعبادتها، لم تكن من سيرته في عهد الرساله بل كان ذلك دأبه في جميع أدوار حياته، حتى يوم كان صبياً يدرج، فإنه كان يحارب الأوهام والخرافات، ويعارضها في ذلك السن أيضاً.

تقول حليمه السعديه مرضعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم:.... فلما تم له (أي لمحمد) ثلاث سنين قال لي يوماً: «يا أمّاه مالي لا أرى أخوي بالنهار»؟

ص: ٨١

قلت له: يا بُنَيَّ إنَّهما يَرعِيان غَنِيَمات، قال: «فَمالِي لا أُخْرِج مَعَهُما؟» قلت له:

تَحِبُّ ذلكَ؟ قال: نَعَمْ.

فلَمَّا أَصَبِح دَهَنَتَه وَكَحَلَتَه وَعَلَّقَت في عَنقَه خَيْطاً فيهِ جِزَع يَمانيه (وهي من التَّمائم الباطله كانت تَعَلَّق على الشَّخْص في أيام الجاهليه لدفع الآفات عنه)، فَنَزَعَهَا، ثُمَّ قال لي: «مَهَلًا يا أُمّاه فَإِنَّ مَعِيَ مَنْ يَحْفَظُنِي». (١)

الخرافات في عقائد العرب في الجاهليه

كانت عقائدُ جميع الأمم والشعوب العالميه يوم بزوغ شمس الإسلام ممزوجه بألوان من الخرافات والأساطير.

فبالأساطير اليونانيه والساسانيه كانت تخيّم على أفكار الشعوب التي كانت تعدّ في ذلك اليوم من أرقى الشعوب والمجتمعات.

على أنه لا تزال خرافات كثيره تسود وإلى الآن في المجتمعات الشرقيه المتقدمه، ولم تستطع الحضاره الراهنه أن تزيلها من حياه الناس ومعتقداتهم.

إنّ تنامي الخرافه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمستوى العلمى والثقافى في كلّ مجتمع، فبقدر ما يكون المجتمع متخلفاً من الناحيه الثقافيه والعلميه تزداد نسبه وجود الخرافه ومقدار نفوذها في عقول الناس ونفوسهم.

لقد سجّل التاريخ عن سِيكّان شبه الجزيره العرييه طائفه هائله وكبيره من الأوهام والخرافات، وقد جمع السيّد محمود الألوسى أكثرها في كتابه «بلوغ الأرب في معرفه أحوال العرب»، مُرفقاً كل ذلك بما حصل عليه من الشواهد الشعريه وغيرها.

ومن يتصفّح هذا الكتاب يقف على ركام هائل من الخرافات التي كانت تملأ

ص: ٨٢

العقل العربي الجاهل آنذاك وتعشعش في نفوسهم، وقد كانت هذه السلسله الرهيبه من الأوهام هي السبب في تخلف هذا الشعب عن بقيه الشعوب والأمم الأخرى.

ولقد كانت هذه الخرافات من أكبر السدود في طريق تقدم الدعوه الإسلاميه، ولهذا أجتهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بكل طاقاته في محو وإزالة آثار الجاهليه التي لم تكن سوى تلك الأوهام والأساطير والخرافات.

فعندما وجّه «معاذ بن جبل» إلى اليمن أوصاه بقوله:

«وَأَمِثْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَا سَنَّهَ الْإِسْلَامُ، وَأَظْهِرْ أَمْرَ الْإِسْلَامِ كُلَّهُ صَغِيرَهُ وَكَبِيرَهُ».(١)

لقد وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمام جماهير كبيره من العرب الذين كانت عقولهم ترزخ تحت الأفكار والمعتقدات الخرافيه ردحاً طويلاً. من الزمن يعلن عن نهايه عهد الأفكار والأوهام الجاهليه إذ قال: «أَلَا إِنَّ كُلَّ دَمٍ وَمَالٍ وَمَأْثَرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».(٢)

نماذج من الخرافات في المجتمع الجاهلي

اشاره

وللوقوف على مَدى أهميه التعاليم الإسلاميه وقيمتها نلفت نظر القارئ الكريم إلى نماذج من هذه الخرافات، ومن أراد التوسّع فليراجع «بلوغ الأرب في معرفه أحوال العرب».(٣)

ص: ٨٣

١- . تحف العقول: ٢٥.

٢- . كنز العمال: ٥/١٣٠ برقم ١٢٣٥٧؛ السيره النبويه لابن كثير: ٤/٤٠١، دار المعرفه، بيروت.

٣- . لاحظ: بلوغ الأرب في معرفه أحوال العرب: ٢/٢٨٦-٣٦٩.

١. الاستسقاء بإشعال النيران

كانت العرب إذا أجدبت، وأمسكت السماء عنهم، وأرادوا أن يستمطروا، عمَدوا إلى السلع والعشر (وهما أشجار سريعة الاشتعال) فحزموهما، وعقدوهما في أذنان البقر، وأضرموا فيها النيران وأصعدوها في جبل وعر، واتبعوها يدعون الله تعالى، ويستسقونه، وإنما يضرمون النيران في أذنان البقر تفاقلاً للبرق بالنار...

وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات الأخرى، وكانت هذه الثيران والأبقار إذا صاحت من وجع الاحتراق ظنَّت العرب بأن ذلك هو الرعد!!!

وقد قال شاعرهم في ذلك:

يا (كحل) قد أثقلت أذنانَ البقرِ بسَلعٍ يُعقدُ فيها وعُشر

فهل تجودين ببرقٍ أو مَطَرٍ؟

٢. ضرب الثور إذا عافت البقر الماء

كانوا إذا أوردوا البقر فتمتنع من شرب الماء، ضربوا الثور ليقتحم الماء، بعده ويقولون: إن الجن تصدُّ البقر عن الماء، وأن الشيطان يركبُ قرني الثور، ولا يدع البقر تشرب الماء، ولذلك كانوا يضربون وجه الثور.

وقد قال في هذا شاعرهم:

كذاك الثورُ يضربُ بالهراوى إذا ما عافت البقرُ الظمَاءُ

وقال آخر:

فإني إذا كالثورٍ يضرب جثبهُ إذا لم يعف شرباً وعافت صواجه (١)

ص: ٨٤

وقال ثالث:

فلا تجعلوها كالبقير وفحلها يُكسّر ضرباً وهو للورد طائِع

وما ذنبه إن لم ترد بقراته وَقَدْ فاجأتها عند ذاك الشرائع

٣. كَيَّ صَحِيحِ الْإِبِلِ لِيَبْرَأَ السَّقِيمِ

إذا كان يصيب الإبل مرض أو قرح في مشافرها وأطرافها عمدوا إلى بعير صحيح من تلك الإبل فكوّوا مشفره وعضده وفخذه يرون أنّ ذلك إن فعلوه ذهب العُرُّ والقرح والمرض عن إبلهم السقيم، ولا يعرف سبب ذلك.

وقد احتمل البعض أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك وقاياه للصحاح من الإصابه بالعُرِّ الذي أصاب غيرها، أو أنه نوع من المعالجه العلميه، ولكن لماذا ترى كانوا يعمدون إلى بعير واحد من بين كلّ تلك الإبل، فلا بدّ من القول بأنّ هذا الفعل كان ضرباً من الأعمال الخرافيه التي كانت سائده في ذلك المجتمع الجاهلي قبل الإسلام.

وقد قال شاعرهم عن ذلك:

وَكَفَّتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكَتُهُ كَذِي الْعُرِّ يَكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِع

وقال آخر:

كَمَنْ يَكْوِي الصَّحِيحَ يَرُومُ بُرْءاً بِهِ مِنْ كُلِّ جَرَبَاءِ الْإِهَابِ

وقال ثالث:

فَالزَّمْتَنِي ذَنْباً وَغَيْرِي جَزَّه حَنَانِيلُ لَا تَكُو الصَّحِيحَ بِأَجْرِبَا

ص: ٨٥

٤ - حبس ناقة عند القبر إذا مات كريم

إذا مات منهم كريم عقلوا ناقته أو بيعه عند القبر الذي دُفِنَ فيه ذلك الكريم، فعكسوا عنقها، وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها في حفيره لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها وربما شيلحت وملئ جلدُها ثماماً، وكانوا يزعمون أن من مات ولم يُبَلَّ عليه (أى لم تعقل ناقة عند قبره هكذا) حشّر ماشياً، ومن كانت له بليه (أى ناقة عقلت هكذا) حشّر راكباً على بليته.

وقد قال أحدهم فى هذا الصدد:

إذا مِتَّ فادفنى بحراء ما بها سوى الأصرخين أو يفوز راكبُ

فإن أنت لم تُعقرْ على مطيتى فلا قام فى مال لك الدهر حالبُ

وقال آخر وهو يوصى ولده بأن يفعلوا له ذلك:

أبني لا تنس البليته إنها لأبيك يوم نُشوره مركوبُ

٥. عقر الإبل على القبور

كانوا إذا مات أحدهم ضربوا قوائم بعير بالسيف عند قبره، وقيل إنهم كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت المضيف على ما كان يعقره من الإبل فى حياته وينحره للأضياف.

وقد أبطلت الشريعة المقدسه هذه العاده الباطله فى ما أبطلته فقد جاء فى الحديث «لا عقر فى الإسلام».

وقد قال أحدهم حول العقر هذا:

قل للقوافل والغزاه إذا غزوا والباكرين وللمجدد الرائح

إن الشجاعه والسماحه ضمنا قبراً بمرور على الطريق الواضح

فإذا مررت بقبيره فاعقِرْ به كَوْمَ الجِلاَدِ وكلَّ طِرْفِ سَابِحِ
وأنضحْ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بدمائِهَا فَلَقَدْ يَكُونُ أَخَا دَمٍ وَذَبَائِحِ

٦. التعشير

ومن خرافاتهم أنّ الرجلَ منهم كان إذا أرادَ دخولَ قريه فخافَ وباءها أوجنّها، وقف على بابها قبل أن يدخلها فنهقَ نهيقَ الحمار، ثم علّق عليه كعبَ أرنب كأنّ ذلكَ عودَه له، ورقيه من الوباء والجن، ويسمّون هذا النهيقَ التعشير.

قال شاعرهم:

ولا يُنْفَعُ التعشيرُ أن حُمَّ واقعٌ ولا زعزُعٌ يُغْنِي ولا كَعْبُ أرنبٍ

وقال الآخر:

لعمري إن عَشْرَتُ من خيفه الرّدى نِهَاقَ حَمِيرِ أُنْتِي لجزوعُ

٧. تصفيق الضالّ في الصحراء ليهدى

كان الرجلُ منهم إذا ضلَّ في فلاة قلبَ قميصه وشفق بيديه، كأنّه يومئ بهما إلى انسان مهتدى.

قال أعرابي في ذلك:

قلبتُ ثيابي والظنونُ تجولُ بي وترمي برجلي نحو كلِّ سبيل

فلأياً بلائى ما عرفت حليلتى وأبصرتُ قصداً لم يُصَبْ بدليل

ص: ٨٧

٨. الرتم

وذلك أن الرجل منهم كان إذا سافر عمَد إلى خيط فعقده في غصن شجره أوفى ساقها فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط فإنَّ وجده بحاله علم أن زوجته لم تخنه، وإن لم يجده أو وجدَه محلولاً قال: قد خانتني. وذلك العقد يسمى «الرتم».

قال شاعرهم في ذلك:

خانته لما رأْتُ شَيْباً بمفرقه وغَرَّه حِلْفُها والعَقْدُ للرتم

وقال الآخر:

لا تحسبن رتائماً عقَدَتْها تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال ثالث:

يعلل عمرو بالرتائم قلبه وفي الحيّ ظبّي قد أحلت محارقه

فما نَفَعَتْ تِلْكَ الوصايا ولا جَنَّتْ عَلَيْهِ سوى ما لا يحبُّ رتائمه

٩. وطى المرأة القتيل الشريف لبقاء ولدها

فقد كانت العرب تقول: إنَّ المرأة المقلاه - وهي التي لا يعيش لها ولدٌ - إذا وطئت القتيل الشريف عاش ولدها.

قال أحدهم:

تظلل مقاتل النساء يطأنه يُقْلَنَ ألا يلقى على المرء مثر

ص: ٨٨

١٠. طَرَحُ السِّنِّ نَحْوَ الشَّمْسِ إِذَا سَقَطَتْ

ومن تخيلات العرب وخرافاتهم أنّ الغلام منهم إذا سَقَطَتْ له سنٌ أخذها بين السبابه والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال: يا شمس أبدليني بسنّ أحسن منها، وليجر في ظلمها آياتك، أو تقول: أياؤك، وهما جميعاً شعاع الشمس.

قال أحدهم وهو يصف ثغر معشوقته:

سفته اياه الشمس إلثاته أسفّ ولم تكرم عليه باثمد

أى كأنّ شعاع الشمس أعارته ضوءها.

هذا وقد أشار شاعرهم إلى هذا الخيال (أوقل الخرافه المذكوره) إذ قال:

شادنٌ يحلو إذا ما ابتسمت عن أفاح كأفاح الرمل غر

بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الأثر

١١. تعليق شيء نجس على الرجل وقايه من الجنون

ومن تخيلات العرب أنّهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون، وتعرض الأرواح الخبيثه له نجسوه بتعليق الأقدار، كخرقه الحيض وعظام الموتى قالوا:

وأنفع من ذلك أن تعلق عليه طامث عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك. وأنشدوا في ذلك:

فلو أن عندي جارتين وراقياً وعلق أنجاساً على المعلق

وقالت امرأه وقد نجست ولدها فلم ينفعه ذلك ومات:

نجسته لا ينفع التنجيس والموت لا تفوته النفوس

١٢. الاستشفاء بدم الرئيس

فقد كانت العرب تعتقد أنّ دم الرئيس أو الكبير يشفى من عضه الكلب الكلب.

قال الشاعر:

بناه مكارم وأساه جرح دماؤهم من الكلب الشفاء

وقال آخر:

أحلامكم لسقام الجهل شافيه كما دماؤكم تشفى من الكلب

١٣. شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل

ومن أوهامهم وتخيلاتهم أنّهم كانوا يزعمون أنّ الرجل إذا أحب امرأه وأحبته فشقّ برقعها وشقّت رداءه صلح حُبهما ودام، فإن لم يفعل ذلك فسَد حُبهما، قال فى ذلك أحدهم:

وكم شققنا من رداء محبٍ و من برقعٍ عن طفله غير عانس

إذا شق بُردُ شق بالبرد برقع دوايك حتى كلنا غير لابسٍ

نروم بهذا الفعل بقیاً على الهوى وإلف الهوى يُغوى بهذى الوسوس

١٤. معالجة المرضى بالأموال العجيبه

ومن مذاهبهم الخرافيه فى معالجه المرضى إذا بثر شفه الصبى حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت الحى: الحلاً الحلاً، الطعام الطعام، فتلقى له النساء كسّر الخبز، واقطاع التمر واللحم فى المنخل ثم يلقى ذلك للكلاب فتأكله، فيبرأ من المرض، فإن أكل صبى من الصبيان من ذلك الذى ألقاه للكلاب تمره أو

لقمه أو لحمه، بثر شفته.

فقد روى عن إمرأه أنها أنشدت:

ألا حلاً في شفه مشقوفه فقد قضى منخلنا حقوقه

ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت عله الواحد منهم، وظنوا أن به مساً من الجن لأنه قتل حيه، أو يربوعاً، أو قنفذاً، عملوا جمالاً من طين وجعلوا عليها جوالق وملاؤها حنطه وشعيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهه المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين فاذا رأوا أنها بحالها، قالوا: لم تقبل الديه فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميره قالوا: قد قبلت الديه، واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا الدف.

قال بعضهم:

قالوا وقد طال عنائي والسقم إحمل إلى الجن جمالات وضم

فقد فعلت والسقام لم يرم فبالذى يملك برئى اعتصم

وقال آخر:

فيا ليت أن الجن جازوا حمالتى وزحزح عنى ما عنانى من السقم

أعلل قلبى بالذى يزعمونه فيا ليتنى عوفيت فى ذلك الزعم

ومن مذاهبهم فى هذا المجال أن الرجل منهم كان إذا ظهرت فيه القوباء (وهو مرض جلدى) عالجهما بالريق.

قال أحدهم:

يا عجباً لهذه الفليقه هل تُدهبِن القُوباءَ الريقه

ص: ٩١

كانوا إذا غَمَّ عليهم أمرُ الغائب ولم يعرفوا له خيراً جاءوا إلى بئر عاديه (أى مظلمه بعيده القعر) أو جاءوا إلى حصن قديم ونادوا فيه: يا فلان أو يا أبا فلان (ثلاث مرّات)، ويزعمون أنه إن كان مَيِّتاً لم يسمَعوا صوتاً، وإن كان حياً سمَعُوا صوتاً ربّما توهموه وهماً، أو سمعوه من الصدى فَبَنُوا عليه عقيدَتهم، قال بعضهم فى ذلك:

دَعَوْتُ أبا المِغْوارِ فى الحَفْرِ دَعْوَهُ فما آضَ صوتى بالذى كنت داعياً(١)

أظنُّ أبا المِغْوارِ فى قصر مظلم تجرُّ عليه الذارياتُ السّوافيا

وقال آخر:

وكم ناديتُه والليلُ ساجٍ بِعاديِّ البِئارِ فما أجابا

ومن ذلك أنّ الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال: (أرى من أحبّه) فإن كان غائباً توقّع قدومه، وإن كان بعيداً توقّع قربه، وقال أحدهم:

إذا اختلجتُ عيني أقولُ لعلّها فتاه بنى عمرو بها العينُ تلمعُ

وقال آخر:

إذا اختلجتُ عيني تيقّنتُ إننى أراكَ وإن كانَ المزارُ بعيدا

وكانوا إذا لا- يُجِبُونَ لمسافر أن يعودَ إليهم أوقدوا ناراً خَلْفَهُ ويقولون فى دعائهم «أبعِدْهُ اللهُ وأسحِقْهُ وأوقدْ ناراً إثرَهُ» قال بعضهم:

صحتُ وأوقدتُ لِلجَهِلِ ناراً وَرَدَ عليك الصبا ما استعارا

ص: ٩٢

١٦. عقائدهم العجيبه فى الجن وتأثيره

كانت العرب فى الجاهليه تعتقد فى الجن وتأثير هذا الكائن فى شتى مجالات حياتهم اعتقادات عجيبه وفى غايه الغرابه.

فتاره تستعيد بالجن، وقد استعاد رجل منهم و معه ولد فأكله الأسد فقال:

قد استعدنا بعظيم الوادى من شر ما فيه من الأعدى

فلم يجرنا من هزبر عادى

وعن الاستعاذه بالجن قال الله سبحانه فى القرآن: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا». (١)

ومن ذلك إعتقادهم بهتاف الجن، ولهم فى هذا المجال أساطير خرافيه مذكوره فى محلها.

ومن هذا القبيل إعتقادهم بالغول، فقد كانت تزعم العرب فى الجاهليه أن الغيلان فى الفلوات (وهى من جنس الشياطين) تترأى للناس، وتغول تغولاً أى تتلون تلوناً فتصلهم عن الطريق، وتهلكهم، ومن هذا القبيل أيضاً إعتقادهم بالسعالى!!

وقد قال أحدهم فى ذلك:

وساحره عينى لو أن عينها رأت ما ألقىه من الهول جنت

أبيت وسعلاه وغول بقفره إذا الليل وارى الجن فيه أرت

١٧. تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والأشياء

ومن مذاهبهم الخرافيه تشاؤمهم بأشياء كثيره وحالات عديده:

ص: ٩٣

فمن ذلك؛ تشاؤمهم بالعطاس.

وتشاؤمهم بالغراب حتى قالوا: فلان أشأم من غراب البين، ولهم في هذا المجال أبياتٌ شعريه كثيره منها قول أحدهم:

لَيْتَ الْغَرَابُ غَدَاهُ يَنْعَبُ دَائِبًا كَانَ الْغَرَابُ مَقَطَّعَ الْأَوْدَاجِ

وكذا تشاؤمهم وتطيرهم بالثور المكسور القرن والثعلب. إلى غير ذلك من التخييلات والأوهام والخرافات والأساطير، والإعتقادات العجيبه، والتصوّرات الغريبه التي تزخر بها كتب التاريخ المخصّيه لبيان أحوال العرب قَبْلَ الإسلام وحتى إبان قيام الحضاره الإسلاميه.

مكافحه الإسلام لهذه الخرافات

ولقد كافح الإسلام جميع هذه الخرافات بطرق مختلفه، وأساليب متنوّعه.

أمّا بالنسبه إلى ما كانوا يفعلونه بالحيوانات، فمضافاً إلى أنّ شىء من هذه الأعمال لا ينسجم مع العقل والمنطق والعلم؛ لأنّ المطر والغيث لا ينزل من السماء بإشعال النيران، وضرب الثيران لا يؤثر في البقر، كما لا ينفع كئى البعير الصحيح فى شفاء الإبل السقيمه، وتعتبر هذه الأعمال نوعاً من تعذيب الحيوانات، وقد نهى الإسلام بشده عن تعذيب الحيوانات وإيذائها، بأيّ شكل كان.

فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتُّ خِصَالٍ:

١. يَبْدَأُ بَعْلَفَهَا إِذَا نَزَلَ.

٢. وَيُعْرَضُ عَلَيْهَا الْمَاءُ إِذَا مَرَّ بِهِ.

٣. وَلَا يَضْرِبُ وَجْهَهَا فَإِنَّهَا تَسْبُحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا.

٤. وَلَا يَقِفُ عَلَى ظَهْرِهَا إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٥. وَلَا يَحْمِلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا.

٦. ولا يكلفها من المشى إلّما تطيقُ.

وقد رويت فى ذلك روايات عن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم (١).

ومن هنا ندرِك أنّ التعاليم فى مجال الرفق بالحيوان، وحمائته، على النقيض من العادات الجاهليه السائده فى البيئه العربيه آنذاك.

وأما بالنسبه إلى التمام والأشياء الأخرى التى كانت تعلّقها العربُ على أعناق وصدور رجالها، وأولادها، من الأحجار والخَز، وَ عظام الموتى، ومعالجه المرضى والمصابين وغيرهم بها أحياناً، فقد حاربها الإسلام، بعد أن أبطلها كما أبطل الأفاعيل التى سبق أن ذكرناها قبل هذا.

فلما جاءت جماعات من الأعراب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسألوه عن الرقى والقلائد التى كانوا يتداوون بها أو يسترقونها بدلاً عن التداوى بالعقاقير والأدويه قائلين يا رسول الله: أنتداوى؟

قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تداووا فإنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ داءَ إلَّا وَضَعَ لَهُ دَواءً». (٢).

بل نجد النبى صلى الله عليه وآله وسلم يأمر سعد بن أبى وقاص عندما أُصيب بمرض فى فؤاده أن يعالج نفسه عند طبيب إذ قال له لَمَّا عادَه وعرف بحاله: «إنك رجلٌ مَفوِّدٌ، إنَّ الحارثَ بنَ كِلده أخوا ثقيفٍ فإنَّه رَجُلٌ يَتطبَّبُ». (٣).

هذا مضافاً إلى أنه وردت أحاديث كثيره تصرّح ببطلان التمام السحريه التى لا تنفع ولا تضرّ أبداً، وها نحنُ نشير فى ما يلي إلى نموذجين من هذه الأحاديث:

ص: ٩٥

١- . من لا- يحضره الفقيه: ٢/٢٨٦ برقم ٢٤٦٥. وراجع للوقوف على أحاديث حقوق الحيوان كتابنا: الشؤون الاقتصادية: ١٣٠-١٥٩.

٢- . سنن أبى داود: ٢/٢١٩ برقم ٣٨٥٥، كتاب الطب، باب فى الرجل يتداوى.

٣- . كنز العمال: ١٠/٨٥ برقم ٢٨٤٦٨.

١. تقول أم قيس: دخلتُ بابين لى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أعلقت عليه من العُدْرَه (وهى قلابه سحريه جاهليه) فقال: «علام تدغزن أولادكَن بهذا العِلاق، عليكَن بهذا العُود الهِنْدِي» وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقصد عصاره هذا العود. (١)

٢. روى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «إنَّ كثيراً مِنَ التَّمَائِمِ شَرُوكٌ». (٢)

هذا مضافاً إلى أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأوصيائه الكرام - بارشادهم الناس إلى ما ينبغي أن يتداووا به من العقاقير والأدويه وما أعطوه من تعاليم قيمه كثيره فى هذا المجال ممّا جمعه المحدثون الكبار تحت عنوان: «طبّ النبيّ» و «طبّ الرضا» و... - قد وجّهوا ضربه قوّيه أخرى إلى تلك الأوهام والتخيّلات، والخرافات والأساطير الّتى كان يعاني منها المجتمع العربيّ الجاهلى قبل الإسلام. (٣) وأمّا الغول، والطيره، والتشاؤم، والهائم، والنوء، فقد حاربها النبيّ بصراحه إذ قال: صلى الله عليه وآله وسلم «لا هائم، ولا نوء، ولا طيره، ولا غول». (٤)

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «العِيافَةُ والطِيرَةُ والطَّرْقُ مِنَ الجَبْتِ». (٥)

ص: ٩٦

١- . صحيح البخارى: ٧/١٧، كتاب الطب، باب اللدود.

٢- . وسائل الشيعة: ج ٤، الباب ٤١ من أبواب قراءه القرآن، الحديث ٤.

٣- . وقد فتح المحدثون من الفريقين أبواباً خاصه لأحاديث الطبّ النبويّ فى كتب الحديث أيضاً.

٤- . التاج الجامع للأصول: ٣/١٩٦ و ١٩٧، الفصل الرابع باب نفى مزاعم الجاهليه، قال مؤلّف التاج: الهائم طائر أو البوم إذ سقط فى مكان تشاءم أهله، أو دابّه تخرج من رأس القتيل أو من دمه، فلا تزال تصيح حتى يؤخذ بثاره، والنوء نجم يأتى بالمطر وآخر يأتى بالريح (حسب عقيدته الجاهليه)!!

٥- . مسند أحمد: ٣/٤٧٧؛ التاج الجامع للأصول: ٣/٢٠١. قال مؤلّف التاج: العيافه زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها كالتفاؤل بالعقاب على العقاب، وبالغراب على الغربه، وبالهدهد على الهيدى، وكذا بأفعالها، وكيفيه طيرانها فكانت العرب تزجر الطير وتشيره، فما أخذ منها ذات

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً أنه قال: «إن الرقى والتائم والتوله شرك» (١).

وعن معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت يا رسول الله: أموراً كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكهّان، قال: فلا تأتوا الكهّان، قال: قلت: كنا نتطير؟ قال: «ذاك شيء يجدّه أحدكم في نفسه فلا يصدّنكم» (٢).

إن وجود النهى الشديد والمكّرر في الأحاديث الكثيره عن الطيره والتشاؤم، والزجر والعيافه والتائم والتوله والهائم والنوء والغول، والكهانه، وإيذاء الحيوانات وكيهن، وتعذيبهن، وماشابه ذلك يدل بوضوح وقوه على مدى رسوخ هذه العادات الباطله في الحياه العربيه الجاهليه، يكشف عن مبلغ اعتقادهم بها، ونزوعهم إليها، وهو بالتالي يكشف عن مغزى قوله تعالى: «وَيَصْعَعُ عَنْهُمْ إِضْرُهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» (٣) فأية سلاسل وأغلال أثقل وأسوأ عاقبه وأشدّ وطناً، من هذه الأغلال... أغلال الخرافه والوهم، وسلاسل التخيلات والأساطير!!

أوضاع العرب الإجتماعيه قبيل ظهور الإسلام

إن أول خطوه خطاها البشر باتجاه النمط الإجتماعي كانت عندما أُقْبِل على تأسيس وإقامه الحياه القبليه، فالقبيله تتكوّن من إجتماع عدّه عوائل وأسر مترابطه فيما بينها بوشائج القربى والنسب تحت زعامه شيخ القبيله، وبهذا يتحقّق أبسط نمط من أنماط الحياه الإجتماعيه.

ص: ٩٧

- ١- سنن ابن ماجه: ٢/١١٦٧ برقم ٣٥٣٠؛ التاج الجامع للأصول: ٣/٢٠٣. قال مؤلّف الجامع: «التوله»: نوع من السحر يحبّب الرجل إلى زوجته، وهو من عمل المشركين (أى فى الجاهليه).
- ٢- صحيح مسلم: ٧/٣٥، باب تحريم الكهانه وإتيان الكهّان.
- ٣- الأعراف: ١٥٧.

وقد كانت الحياة العربية - آنذاك - من هذا القبيل، فكلُّ مجموعه من العوائل المترابطه نسبياً تتجمع في شكل قبيله، وتشكل بذلك مجتمعاً صغيراً يخضع فيه الجميع لأوامر رئيس القبيله وزعيمها، ولقد كان الجامع بين أفراد القبيله هو الرابطه القوميه، والشيوخه النسيه، وكانت هذه القبائل تختلف في عاداتها ورسومها، وتقاليدها وأعرافها، اختلافاً كبيراً، وإذ كانت كل قبيله تعتبر القبائل الأخرى غريبه عنها لذلك كانت لا تقيم للآخرين وزناً ولا قيمه، ولا تعترف لهم بأى حق أو حرمه.

ولهذا كانت ترى الإغاره على الآخرين وقتلهم، ونهب أموالهم، وسلب ممتلكاتهم وسبى نساءهم من حقوقها القانونيه المشروعه، اللهم إلا أن يكون بين القبيله، والقبيله الأخرى حلف أو معاهده.

هذا من جانب.

ومن جانب آخر كانت القبيله التى تتعرض للإغاره من جانب قبيله أخرى ترى من حقها أن تردّ الصاع صاعين، فتقتل كل أفراد القبيله المغيره، لأنّ الدّم - فى نظرهم - لا يغسله إلا الدّم!!!

ولقد تبدلت أخلاقه العرب هذه بعد انصوائهم تحت لواء الإسلام الحنيف، بل تحوّلوا من نمط الحكومه القبليه المتخلفه والنظام العشائرى الضيق هذا، إلى حكومه عالميه، واستطاع رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤلّف من القبائل العربيه المتفرقه أمّه واحده.

ولا شك أنّ تأليف أمّه واحده من قبائل وجماعات اعتادت طوال سنين مديده من التاريخ على التناحر والتنازع، والتخاصم والتقاتل، والتهاجم والإغاره فيما بينها، واستمرأت سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وذلك فى مدّه قصيره، عملٌ عظيم جدّاً، ومعجزه اجتماعيه لا نظير لها، لأنّ مثل هذا التحول العظيم إذا أُريدَ له أن

يتمّ عبر التحوّلات والتطوّرات العاديّه لاحتاج إلى تربيّه طويله الأمد، ووسائل لا تحصى كثره.

يقول «توماس كارليل» في هذا الصدد: لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحيا به منها أمّه خامله لا يُسمع لها صوتٌ ولا يُحسُّ فيها حركة، حتّى صار الخمولُ شهراً، والغموض نباحه، والضعف رفعه، والضعف قوّه، والشراره حريقاً، وشمل نورّه الأنحاء، وعمّ ضوءه الأرجاء، وما هو إلا قرنٌ بعد إعلان هذا الدين حتّى أصبح للعرب (المسلمين) قدمٌ في الهند وأخرى في الأندلس. (١)

وإلى هذه الحقيقه يشير أيضاً مؤلّف تاريخ اللغات الساميه الشهير «رينان» قائلاً: «لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذي صار به العربُ أمّه فاتحه مُبدعه ولم يكن لجزيره العرب شأنٌ في القرون الأولى من الميلاد، حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ». (٢)

أجل إنّ هذه القبائل العربيه الجاهليه المختلفه المتناحره لم تكن تعيش أيّه حضاره، ولم تمتلك أيّه تعاليم وقوانين، وأنظمه وآداب قبل مجيء الإسلام، لقد كانت محرومه من جميع المقومات الإجتماعيه التي توجبّ التقدّم والرقى، ولهذا لم يكن من المتوقع أبداً أن تصل إلى تلك الذرى الرفيعه من المجد والعظمه، ولا أن تنتقل من نمط الحياه القبليه الضيقه إلى عالم الإنسانيه الواسع، وأفق الحضاره الرحيب بمثل هذه السّرعه التي وَصَلت إليه والزمن القصير الذي انتقلت فيه.

ص: ٩٩

١- . المخططات الاستعماريه لمكافحه الإسلام للصوف: ٣٨؛ الإسلام والعلم الحديث: ٣٣. وراجع الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٢/٦٢٤.

٢- . حضاره العرب: ٨٧.

إنَّ مَثَلِ الشعوب والأمم البشرية مثل المباني والعمارات تماماً.

فكما أنَّ البناء القويَّ الراسخ يحتاج إلى موادَّ إنشائية قويَّة معدَّه بإتقان ومحضَّره بإحكام حتَّى يستطيع البناء المصنوع من هذه الموادَّ، والمؤسَّس بعنايه وهندسه متقَّنه من الوقوف في وجه الأعاصير، والأمطار الغزيره كذلك يحتاج كيانٌ كلُّ أمَّه رشيده من الأمم إلى أُسس وقواعد محكمه (وهي الأصول والآداب الكامله، والأخلاق الإنسانيه العاليه) لتستطيع البقاء والتقدُّم.

ولهذا السبب لا بدَّ من التأمل في أمرٍ وسرَّ هذه الظاهره العجيبه ولا بد أن نتساءل:

كيف تحقَّق ذلك التطوُّر العظيم، وذلك التحوُّل العميق للعرب الجاهليه، ومن أين نشأ؟؟؟

كيف أمكن أن تتحوَّل جماعه متشتته، متعاديه، متناحره، متباغضه، فيما بينها، بعيده عن النظم الإجتماعيه، بمثل هذه السرعه إلى أمَّه متآلفه متآخيه متعاونه متسالمة متحابه، وتشكَّل دوله قويه وكياناً سياسياً شامخاً أوجب أن تخضع لها دول العالم وشعوبه، وتطيعها، وتحترم مبادئها وأخلاقها وآدابها آنذاك.

حقاً لو كان في مقدور العرب أن يحرزوا ذلك التقدُّم الهائل بفعل عامل ذاتي فلماذا لم تستطع عربُ اليمن الذين كانوا يمتلكون شيئاً كبيراً من الثقافه والحضاره، والذين عاشوا الأنظمه الملكيه سنياً عديده، بل وربَّت في أحضانها ملوكاً وقاده كباراً، أن تصل إلى مثل هذه النهضه العظيمه الشامله، وتقيم مثل هذه الحضاره العريضه الخالده.

لماذا لم تستطع العربُ الغساسنه الذين كانوا يجاورون بلادَ الشام المتحضَّره، ويعيشون تحت ظلِّ حضاره «الروم» أن يصلوا إلى هذه الدرجه من الرشد؟

لماذا لم تستطع عربُ الحيرَة الذين كانوا - وإلى الأمس القريب - يعيشون في ظلّ الإمبراطوريه الفارسيه أن ينالوا مثل هذا الرقى والتقدّم؟ وحتى لو وصلوا إلى هذه الدرجه من التقدّم وحققوا هذه القفزه فإنّه لم يكن أمراً يثير العجب لأنهم كانوا يعيشون في أحضان مدنّيات كبرى، ويتغذون منها، ولكن الذي يثير الدهشه، والعجب هو أن يستطيع عرب الحجاز من تحقيق هذه النهضه الباهره، ويروثوا الحضاره الإسلاميه العظمى وهم الذين كانوا يفتقرون إلى أبسط مقوّمات الحضاره الذاتيه، ولم يكن لهم عهدٌ بأيّ تاريخ حضاريّ مشرق، بل كانوا كما عرفت يرزحون تحت أغلال الوهم والتخيّل، ويسيرون في ظلمات الخرافات والأساطير.

دُول الحيره وغانان

على العموم كانت المناطق ذات المناخ الجيد من الجزيره العربيه حتى آخر قرن قبل الإسلام تحت سيطره ثلاث دول كبرى هي: «إيران»، «الروم»، و«الحبشه».

فالشرق والشمال الشرقي من هذه المنطقه كانت تحت حمايه «إيران».

والشمال الغربي كان تابعاً للروم.

والمناطق المركزيه والجنوب كانت تحت نفوذ «الحبشه».

وعلى إثر مجاوره هذه المناطق للدول المتحصّره المذكوره، وما كان بينها من نزاع وتنافس دائمين، ظهرت في المناطق الحدوديه للجزيره العربيه دول شبه متحصّره، وشبه مستقلّه كان كلّ واحده منها تابعه في حضاراتها لدوله تتمدّنه عظمى تجاورها.

وقد كانت دول «غانان»، و «الحيره» و«كنده» من هذه الدول شبه المستقلّه

ص: ١٠١

وشبه المتمدّنه، وكانت كلّ واحده منها تابعه لإحدى الدول العظمى آنذاك: «إيران»، «الروم»، «الحبشه».

الحيره: يتبيّن من الآثار والأخبار أنّه هاجرت - فى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد - بعض الطوائف العرييه، وذلك فى نهايات الحكم الأشكنانى، إلى الأراضى المجاوره للفرات، وسيطروا على قسم من أراضى العراق، وقد أوجدت هذه الجماعه المهاجره القرى والقلاع هناك، شيئاً فشيئاً، وأحدثت المدن التى من أهمّها: «الحيره» التى كانت تقع على حافه صحراء بالقرب من مدينه الكوفه الحاليه. وقد كانت هذه المدينه - وكما يظهر من اسمها - فى بدايه أمرها قلعه (لأنّ الحيره تعنى فى اللغه السريانيه: الدير وما يشبهه) يسكنها العرب ثم تطوّرت شيئاً فشيئاً إلى مدينه.

وقد ساعد مناخها الجميل، والمياه الوفيره التى تأتى إليها من الفرات، وجوده الأحوال الطبيعيه الأخرى إلى أن تجتذب إليها أصحاب الصحراء، وسكان البوادي، والقفار، كما استطاعت هذه المدينه وبفضل مجاورتها للحضاره الفارسيه أن تكتسب من ثقافتها ومدينتها ما أفاض عليها لونهاً من الحضاره والمدنيه، وقد بُنيت بالقرب من «الحيره» قصورٌ مثل «الخورنق» الذى أضاف إلى هذه المدينه جمالاً وبهاء خاصين، وقد تعرّف العرب الساكنون فى هذه المنطقه على الخط والكتابه، ويمكن أن تكون الكتابه والقراءه قد سرتا منها إلى بقيه مناطق الحجاز ومُدُنّها.^(١)

ولقد كان ملوك «الحيره» وأمرؤها من اللخميّين العرب يؤيّدون من قِبَل الدوله الإيرانيه بقوّه، وسبب هذا التأييد، والحمايه الإيرانيه لأمرء الحيره وملوكها

ص: ١٠٢

كان يكمن في أنّ ملوك إيران - آنذاك - كانوا يُريدون أن تكون الحيره سداً، وحاجزاً بينهم وبين عرب البادية، يدفعون بهم خطر الغزاه من أهل الصحارى على الحدود الإيرانية.

ولقد سجّل التاريخ أسماء هؤلاء الأمراء؛ وقد نظم «حمزه الأصفهاني» فهرستاً بأسمائهم، وجدولاً بأعمارهم ومُدد حكوماتهم، ومن كان يعاصرهم من ملوك بني ساسان الإيرانيين. (١)

ومهما يكن الأمر فإنّ دوله اللخميّين العرب كانت من أكبر الحكومات العربيّه شبه المتحصّره في منطقه الحيره، وكان آخر ملوك هذه السلسله هو «النعمان بن المنذر» صاحب القصة التاريخيه الّتي تتضمّن خلعه من الحكم، وقلته بواسطه الملك الإيراني: «خسرو برويز». (٢)

غسان: في أوائل القرن الخامس أو أوائل القرن السادس الميلادي هبط جماعه من المهاجرين اليمنيين في الشمال الغربي - أقصى نقاط الجزيره العربيّه - وفي جوار الإمبراطوريّه الروميّه، وأسّسوا دوله الغساسنه، وقد كانت هذه الدوله تحت حمايه الروم، وكان ملوكها يُنصبّون من جانب إمبراطوريات «قسطنطينيه» مباشره، تماماً كما كان ملوك «الحيره» يُنصبّون من جانب ملوك إيران.

ولقد كانت دوله الغساسنه متحصّره نوعاً ما، وحيث إنّ مراكز حكمها كانت قريبه من ناحيه إلى «دمشق» ومجاوره ل: «بُصرى» مركز القسم الرومي من الجزيره العربيّه من ناحيه أُخرى، لذلك تأثرت بحضاره الروم تأثراً كبيراً وبالغاً.

ولقد كان الغساسنه متحالفيين مع الروم بسبب ما كان بينهم وبين ملوك الحيره اللخميّين العرب والإيرانيين من الاختلاف والنزاع، ولقد حكم في دوله الغساسنه

ص: ١٠٣

١- . لاحظ: سنيّ ملوك الأرض: ٧٣-٧٦.

٢- . لاحظ: الأخبار الطوال: ١٠٩.

تسعه أو عشره من الأمراء والملوك تبعاً.

الدين في أرض الحجاز

لقد كان الدينُ الرَّائجُ في الحجاز هو الوثنيه، وعباده الأصنام.

نعم كانت هناك أقليّات دينيه يهوديه تقطن في يثرب (المدينه فيما بعد) وخيبر، كما أنه كان هناك من يتبع المسيحيه وهم سكّان نجران، البلد الحدودي لليمن والحجاز.

وكان الدين الرَّائجُ في المناطق الشماليه من الحجاز (أى الشام حالياً) هو المسيحيه بسبب مجاوره هذه المناطق للروم وخضوعها للسياده الروميه.

ولو أننا استثنينا من الحجاز هذه المناطق الحسيّاسه الثلاث لما وجدنا في بقيه مناطق الحجاز إلّما الوثنيه في أشكال مختلفه، واعتقادات متنوعه، اللهم إلّابضع أفراد كان عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد ممّن يُسمّون بالأحناف كانوا على دين التوحيد، وكان عددهم بالنسبه إلى الأكثريه الساحقه من العرب الوثنيين قليلاً جداً.

فمنذ زمن النبيّ «إبراهيم» الخليل وابنه «إسماعيل» عليهما السلام دخل التوحيد، ودخلت بعض التعاليم الأخلاقيه والدينيه إلى أرض الحجاز، وكان الحج وأداء مناسكه إحتراماً للكعبه الشريفه هو أحد هذه التعاليم والسنن التي دخلت مع «الخليل» إلى هذه المنطقه، ثم إن رجلاً من قبيله «خزاعه» يسمى «عمرو بن لحي» الّذى كانت زعامه مكّه قد عهدت إليه، أدخل عباده الأوثان في مكّه في ما بعد، وذلك عندما سافر هذا الخزاعي إلى بلاد الشام فوجد قوماً من العمالقه يعكفون على تماثيل جميله النقش والمنظر يعبدونها، ويؤلّونها، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟؟ قالوا له: هذه أصنامٌ نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها

ص: ١٠٤

فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له: «هبل» فقدم به مكّه فنصبه ودعا الناس إلى عبادته، وتعظيمه. (١)

وهكذا دخلت الوثنيه إلى «مكّه» المكّرمه، وأصبحت عباده الأوثان والأصنام عباده رائجه في تلك الديار.

وأشهر أصنام العرب هي:

١. هبل وكانت أعظم أصنام العرب التي في جوف الكعبه.

٢. اساف.

٣. نائله وكانت هي واساف على موضع زمزم ينحرون عندهما.

٤. اللات وكانت لثقيف بالطائف.

٥. العزى وكانت بنخله الشاميه، وكانت لقريش وبنى كنانه.

٦. مناه وكانت للأوس والخزرج ومن ذهب مذهبهم من أهل يثرب.

٧. عميانس وكان بأرض خولان يقسمون له من أنعامهم وحروثهم.

٨. سعد.

٩. ذوالخلصه وكانت لدوس وختعم وبيجيله.

١٠. مناف. (٢)

ولقد كانت هذه هي أشهر أصنام العرب علاوه على الأصنام الأخرى غير المعروفه التي كانت تختص بطائفه دون أخرى، أو بعائله دون عائله.

ص: ١٠٥

١- السيره النبويه لابن هشام: ١/٥٠-٥١. والعمالقه هم طائفه من العرب عاشوا وسادوا ثم بادوا قبل الإسلام.

٢- راجع الأصنام للكلبى، والمحبر: ٣١٥-٣١٩.

كان أهل الحجاز يوصون بالأميين، والأمي هو من لم يتعلم القراءة والكتابة، فهو كمن ولدته أمه، أو هو باق في عدم العلم بالقراءة والكتابة على حاله التي ولدته عليها أمه. ولأجل أن نعرف مدى ما كان عليه العلم والثقافة عند العرب من قيمه يكفي أن نعلم بأن عدد الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين قريش إلى ما قبل ظهور الإسلام لم يكن يتجاوز (١٧) شخصاً في مكة و (١١) نفرًا فقط من بين الأوس والخزرج في المدينة. (١)

إذا لاحظنا هذا التخلف والانحطاط في مجال العلم والثقافة في البيئه العربيه الجاهليه يتضح لنا مدى تأثير الإسلام، وأدركنا عظمه التعاليم الإسلاميه في جميع الحقول الإعتقاديه والإقتصاديه والأخلاقيه والثقافيه، ولا بدّ في تقييم الحضارات أن نطالع وندرس الحلقة السابقه، ثم نقيم الحلقة التاليه في ضوء ذلك، وفي هذه الصوره نقف على عظمه تلك الحضاره الحقيقيه. (٢)

الإمام علي عليه السلام يصف العهد الجاهلي

وقد وصف الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام تلك الحاله في خطبه، وحيث إنه

ص: ١٠٦

١- . راجع: فتوح البلدان: ٤٥٧-٤٥٩.

٢- . للوقوف على معلومات أوسع وأكثر حول عقائد مختلف طوائف المجتمع العربي الجاهلي، وثقافتها وتقاليدها راجع الكتابين التاليين: ألف: «بلوغ الأرب في معرفه أحوال العرب» تأليف السيد محمود آلوسي المتوفى عام ١٢٧٠ هجري قمرى. باء: «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» تأليف الأستاذ جواد علي، وهذا الكتاب أُخرج في (١٠) مجلدات، وقد بُحث فيها كل ما يرتبط بحياه العرب في العهد الجاهلي.

عاصر ذروه ذلك الوضع المأساوى ووصفه وصفاً دقيقاً، لذلك ينبغي أن نقف عند كلامه قليلاً ليتبين لنا جيداً ما كان عليه العربُ إبان عهد رساله الإسلاميه المباركه:

قال عليه السلام فى الخطبه (الثانيه) من «نهج البلاغه»:

«... وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعِلْمِ الْمَأْثُورِ، وَالكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَهُ لِلشُّبُهَاتِ وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ وَتَحْذِيراً بِالْآيَاتِ، وَتَخْوِيفاً بِالْمَثَلَاتِ (١)، وَالنَّاسِ فِي فِتْنِ أَنْجَذَم (٢) فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعَزَعَتْ سَوَارِي (٣) الْيَقِينِ وَأَخْتَلَفَ النَّجْرُ (٤)، وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ، وَضَاقَ الْمَخْرَجُ، وَعَمِيَ الْمَضِيءُ، فَالْهُدَى خَامِلٌ، وَالْعَمَى شَامِلٌ، عُصَبَى الرَّحْمَنِ وَنُصْرَةَ الشَّيْطَانِ وَخُذِلَ الْإِيمَانُ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَدَرَسَتْ (٥) سُبُلُهُ وَعَفَّتْ شُرُكُهُ (٦)، أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ (٧) بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ، وَقَامَ لِتَوَاؤُهُ فِي فِتْنِ دَاسْتِهِمْ بِأَخْفَافِهَا (٨) وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا (٩) وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا (١٠) فَهَمَّ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَقْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ نُومُهُمْ سُهْوٌ وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ بَارِضٌ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ وَجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ (١١).

ص: ١٠٧

- ١- . المثالات: العقوبات.
- ٢- . انجذم: انقطع.
- ٣- . السواري: الدعائم.
- ٤- . النجر: الأصل.
- ٥- . درست: انطمست.
- ٦- . الشرك: الطرق.
- ٧- . المنهل: مورد النهر.
- ٨- . الخف: هو للبعير كالقدم للإنسان.
- ٩- . الظلف: للبقر والشاه كالخف للبعير والقدم للإنسان.
- ١٠- . السنايك: طرف الحافر.
- ١١- . نهج البلاغه: ٤٦-٤٧، تحقيق صبحي الصالح.

وقال في الخطبه (التاسعه والثمانين) أيضاً:

«أَرْسَلَهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَلَى حِينِ فِتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَطَوَّلَ هَجْعَهُ مِنَ الْأُمَمِ وَاعْتَرَامَ (١) مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَارَ مِنَ الْأُمُورِ وَتَلَطُّ (٢) مِنَ الْحُرُوبِ، وَالذُّنْيَا كَاسْتَفَهُ النَّورَ ظَاهِرَهُ الْعُزُورَ، عَلَى حِينِ أَصْفَرَارِ مِنَ وَرَقِهَا، وَإِيَّاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا وَاغْوَرَارِ (٣) مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهَّمَةٌ (٤) لِأَهْلِهَا عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ وَطَعَامُهَا الْجَيْفَةُ (٥)، وَشَعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدَثَارُهَا السَّيْفُ» (٦).

وَقَالَ فِي الْخُطْبَةِ (السادسه والعشرين): «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ (٧) بَيْنَ حِجَارِهِ حُشْنٍ (٨) وَحَيَّاتٍ صُمِّمٍ (٩) تَشْرِبُونَ الْكَدِيرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ (١٠) وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنُصُوبَةٌ، وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ (١١)» (١٢).

ص: ١٠٨

- ١- . اعترم الفرس: إذا مرّ جامحاً.
- ٢- . تَلَطُّ: تَلَهَّبُ.
- ٣- . اغورار الماء: ذهابه.
- ٤- . تَجَهَّمَةٌ: استقبله بوجه كريبه.
- ٥- . إشارة إلى أكل العرب للميته من شدة الاضطرار.
- ٦- . نهج البلاغه: ١٢١-١٢٢.
- ٧- . منيخون: مقيمون.
- ٨- . الحُشْنُ: جمع خشناء من الخشونه.
- ٩- . الصُّمِّمُ: التي لا تسمع لعدم انزجارها بالأصوات.
- ١٠- . الجَشِبُ: الطعام الغليظ.
- ١١- . معصوبه: مشدوده.
- ١٢- . نهج البلاغه: ٦٨.

وقال عليه السلام فى الخطبه (الثالثه والثلاثين): «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعَى نُبُوَّهُ، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ (١)، وَبَلَّغَهُمْ مَنَاجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ (٢)، وَاطْمَأَنَّتْ صِفَاتُهُمْ» (٣).

وقال فى الخطبه (الخامسه والتسعين) أيضاً:

«... بَعَثَهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرِهِ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنِهِ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ وَاسْتَخَفَّتْهُمْ (٤) الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ، حِيَارَى فِي زُلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي النَّصِيحَةِ بِحِهِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» (٥).

وقال عليه السلام: فى الخطبه (السادسه والتسعين) أيضاً:

«... مُسِيئَتَقَرُّهُ خَيْرٌ مُسِيئَتَقَرُّ، وَمَمْبُتُهُ أَشْرَفُ مَمْبُتٍ فِي مَعَادِنِ الْكِرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ (٦) السَّلَامَةِ، قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْنَدَةُ الْأَبْرَارِ، وَتُتِيَتْ إِلَيْهِ أَرْزَمَةُ الْأَبْصَارِ، دَفَنَ اللَّهُ بِهِ الضَّعَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ النَّوَائِرَ (٧) أَلْفَ بِهِ إِخْوَانًا، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَانًا، أَعَزَّ بِهِ الدَّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ، كَلَامُهُ بَيَانٌ وَصَمْتُهُ لِسَانٌ» (٨).

وقال عليه السلام فى الخطبه (١٥١) أيضاً:

ص: ١٠٩

- ١- . بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ: أنزلهم منزلتهم.
- ٢- . القناه: العود كناية عن القوه.
- ٣- . نهج البلاغه: ٧٧.
- ٤- . استخفتهم: طيشتهم.
- ٥- . نهج البلاغه: ١٤٠.
- ٦- . الممهّد: ما يبسط فيه الفراش.
- ٧- . الثائر: العدو.
- ٨- . نهج البلاغه: ١٤١.

«... أضاءت به [صلى الله عليه وآله وسلم] البلاد بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْجِهَالَةِ الْغَالِبَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ، وَالنَّاسُ يَشِيَّتَحْلُونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَدِلُّونَ الْحَكِيمَ، يَحْيُونَ عَلَى فِتْرِهِ (١)، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرِهِ» (٢).

وقال عليه السلام فى الخطبه (١٩٨):

«.. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سَيُجَاهِنُهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعَ وَاقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطْلَاعَ (٣)، وَأُظْلِمَتْ بِهَجَّتِهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ، وَخَسَنَ مِنْهَا مِهَادٌ (٤)، وَأَزَفَ (٥) مِنْهَا قِيَادٌ، فِى انْقِطَاعٍ مِنْ مَدَّتِهَا وَأَقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا (٦)، وَتَصَرَّمَ (٧) مِنْ أَهْلِهَا وَأَنْفِصَامٍ (٨) مِنْ حَلْقَتِهَا، وَأَنْتَشَرَ (٩) مِنْ سَبَبِهَا وَعَفَاءٌ (١٠) مِنْ أَعْلَامِهَا، وَتَكَشَّفَ مِنْ عَوْرَاتِهَا وَاقْصَرَ مِنْ طُولِهَا» (١١). وقال عليه السلام فى الخطبه (٢١٣):

«أَرْسَلَهُ بِالضُّيَاءِ وَقَدَّمَهُ فِى الْبَاطِنِ طِفَاءً، فَرَتَّقَ (١٢) بِهِ الْمَفَاتِقَ (١٣)، وَسَاوَرَ (١٤) بِهِ الْمَغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَيَّهَلَ بِهِ الْحُزُونََ (١٥)، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ عَنْ

ص: ١١٠

- ١- . على فتره: على خلوة من الشرائع.
- ٢- . نهج البلاغه: ٢١٠.
- ٣- . الاطلاع: الايتان.
- ٤- . خشونه المهاد: كناية عن شدة آلام الدنيا.
- ٥- . ازف: قرب.
- ٦- . الشرط: العلامة.
- ٧- . التصرّم: التقطع.
- ٨- . الانفصام: الانقطاع.
- ٩- . انتشار الأسباب: تبددها حتى لا تضبط.
- ١٠- . عفاء الأعلام: اندراسها.
- ١١- . نهج البلاغه: ٣١٤-٣١٥.
- ١٢- . رتق: سدّ به الفتق.
- ١٣- . المفاتق: مواضع الفتق.
- ١٤- . ساور: ثاوب.
- ١٥- . الحزونه: غلظ فى الأرض.

يمين وَ شِمَالِ» (١).

وقال فى الخطبه (١٩١):

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ابْتَعَثَهُ وَ النَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي عَمْرِهِ (٢)، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرِهِ قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَةُ الْحَيْنِ (٣)، وَاسْتَعْلَقَتْ عَلَى أَفْتَدِيهِمْ أَفْقَالُ الرَّيْنِ» (٤). (٥)

فاطمه الزهراء عليها السلام نصف الوضع الجاهلى

وقد وصفت السيدة فاطمه الزهراء بنتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العهدَ الجاهلى بمثلِ ذلك إذ قالت فى خطبتها أمام أبى بكر والمسلمين:

«فَبَلَّغَ (أى رسولُ الله) الرِّسَالَةَ صَادِعًا بِالنَّذَارِهِ، (٦) مَائِلًا عَنِ مَدْرَجَةِ الْمُشْرِكِينَ ضَارِبًا تَبَجُّهُمُ، (٧) آخِذًا بِأَكْظَامِهِمْ دَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ يَجْفُ الْأَصْنَامَ وَيَنْكُثُ الْهَامَ (٨) حَتَّى انْهَزَمَ الْجَمْعُ وَوَلُّوا الدُّبُرَ حَتَّى تَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ وَأَسْفَرَ الْحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ (٩) وَنَطَقَ زَعِيمُ الدِّينِ وَخَرَسَتْ شَقَاشِقُ (١٠) الشَّيَاطِينِ وَطَاحَ وَشَيْطُ (١١) النَّفَاقِ وَانْحَلَّتْ عَقْدُ الْكُفْرِ

ص: ١١١

- ١- . نهج البلاغه: ٣٣٠.
- ٢- . العَمْرُه: الماء الكثير.
- ٣- . الحين: الهلاك.
- ٤- . الرين: التغطية.
- ٥- . نهج البلاغه: ٢٨٣.
- ٦- . النذار: الإنذار.
- ٧- . الثبج: الكاهل.
- ٨- . الهامه: الرأس.
- ٩- . المحض: الخالص.
- ١٠- . الشقشقه: شىء يشبه الرئنه يخرج من فم البعير إذا هاج.
- ١١- . الوشيط: الأتباع والخدم.

وَالشَّقَاقِ، وَفُهُتُمْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبَيْضِ الْخِمَاصِ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ مُذَقَّةَ (١) الشَّارِبِ، وَنَهْرَهُ (٢) الطَّامِعِ وَقَبْسَهُ الْعِجْلَانَ (٣)، وَمَيُوطَى الْأَقْدَامِ تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ (٤). وَتَقْتَاتُونَ الْقَدَّ (٥)، أَذِلَّهُ خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ، فَأَنْقَذَكُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُحَمَّدٍ بَعْدَ أَنْ مَيَّئَ بِهِمْ (٦) الرِّجَالِ وَذُؤْبَانَ الْعَرَبِ، وَمَرَدَهُ أَهْلَ الْكِتَابِ (٧)، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ، أَوْ نَجَّمَ (٨) قَوْلَ الشَّيْطَانِ أَوْ فَعَرَتْ (٩) فَاغْرَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قَدَفَ أَخَاهُ فِي لَهَوَاتِهَا (١٠) فَلَا يَنْكَفِي (١١) حَتَّى يَطَّأَ جَنَاحَهَا بِأَخْمَصِهِ» (١٢).

جعفر بن أبي طالب يصف العهد الجاهلي

ويشهد بذلك أيضاً ما قاله جعفر بن أبي طالب رحمه الله عند النجاشي ملك الحبشه عندما أراد مبعوثا قريش استعادتهما إلى مكه:

أيها الملك، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي

ص: ١١٢

١- . المذقه: شربه من اللبن الممزوج بالماء.

٢- . النهزه: الفرصه.

٣- . قبسه العجلان: الشعلة من النار التي يأخذها الرجل العاجل.

٤- . الطرق: الماء الذي خوضته الابل وبولت فيه.

٥- . القد: قطعه جلد غير مدبوغ.

٦- . البهمة: الشجاع الذي لا يهتدى من أن يؤتى.

٧- . المارد: العاتي.

٨- . نجم: طلع.

٩- . فَعَرَتْ: فتحت.

١٠- . اللهاه: اللحمه المشرفه على الحلق في أقصى الفم.

١١- . ينكفي: يرجع.

١٢- . الاحتجاج للطبرسي: ١/١٣٦. وراجع شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ١٦/٢٥٠؛ بلاغات النساء لابن طيفور: ١٢-١٣.

الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوي من الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقته وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصله الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت: فعدد عليه أمور الإسلام - (١) فصدقناه وآمنا به وأتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وافتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. (٢)

ص: ١١٣

١- . يعنى: أم سلمه، راويه الحديث.

٢- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٢٣-٢٢٤.

إشاره

للقوف على أهميه النهضه الإسلاميه المباركه الّتي تحققت على يدي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بعد إرساله من جانب الله تعالى وقيمتها، تكتسبُ دراسه بيئتين اجتماعيتين أهميه قصوى، وتأتيك البيئتان هما:

١. بيئته نزول القرآن الكريم، أي البيئه الّتي ظهر فيها الإسلام، وترعرع ونما.

٢. البيئه العالميه (خارج الجزيره العربيه)، ويعرف ذلك بدراسه عقائد الناس وأفكارهم في أكثر مناطق العالم - يومذاك - مدنيه وحضاره، ومطالعه آدابهم وأخلاقهم وتقاليدهم، وأعرافهم، ومدنيّاتهم الّتي كانت تعتبر أفضل الأفكار والمدنيّات، وأرقى الحضارات، والأوضاع آنذاك.

ولقد كانت بيئتا: الإمبراطوريه الرومانيه، والإمبراطوريه الإيرانيه ألمع نقطه في ذلك اليوم، كما يدلنا التاريخ على ذلك. ولا بدّ استكمالاً لهذا البحث من دراسه الأوضاع في هاتين الإمبراطوريتين، في مناطقها، ومن نواحيها المختلفه، لنقف من هذا الطريق على قيمه الحضاره الّتي أتى بها الإسلام، ونعرف ذلك بوجه أفضل.

أوضاع الروم إبان عهد الرسالة

إنّ أوضاع الروم لم تكن بأقل سوءاً من أوضاع منافستها «إيران» فالحروب

الداخليه من جانب والمعارك الخارجيه المستمره مع «إيران» وصراعها الدائم المستمر مع الأخيره على منطقه «أرمينيه» وغيرها، كل ذلك كان يهيئ الناس فى تلك البلاد للقبول بشوره جديده تضع حدًا لآسئهم ومحنهم.

ولقد كان للاختلافات والمنازعات الطائفية والمذهبيه النصيب الأكبر والأوفر فى توسيع رقعه هذه الاختلافات، والمنازعات.

فالحرب لم تتوقف أبداً بين الوثنيين والمسيحيين ولم تنطفئ شرارتها يوماً أبداً.

فكان إذا غلب رجال الكنيسه على دست الحكم وأخذوا بمقاليده مارسوا أشد أنواع الضغط والاضطهاد بحق خصومهم ومنافسيهم الأمر الذى كان يساعد على إيجاد أقلية ناقمه من جهه، كما ويمكن اعتبار ذلك عاملاً مساعداً من جهه أخرى على تهيئه الشعب الرومانى لاحتضان الدعوه الإسلاميه، وتقبلها.

لقد كان حرمان طوائف كثيره ومختلفه ناشئاً من ممارسات رجال الكنيسه القاسيه ومواقفهم المترتمه.

هذا مضافاً إلى أن اختلاف القساوسه والرهبان النصارى فيما بينهم من جهه، وتعدد المذاهب من جهه أخرى كان يعمل على التقليل من هيبه الإمبراطوريه الرومانيه وجرّها إلى الضعف والوهن المتزايد يوماً بعد يوم.

هذا بغض النظر عن أن البيض والصفير من سكان الشمال والمشرق كانوا يفكرون فى السيطرة على المناطق الغنيه من أوربا، وربما ألحق أحدهما بالآخر خسائر فادحه وباهضه فى الصراعات والصادامات التى كانت تقع بينهما. وكان هذا هو نفسه السبب فى أن تنقسم الامبراطوريه الرومانيه إلى معسكرين: المعسكر (أو القسم) الشرقى، والمعسكر (أو القسم) الغربى.

ويعتقد المؤرخون أنّ أوضاع الروم السياسيّه، والاجتماعيه والاقتصاديّه في القرن السادس كانت مضطربه، ومتدهوره جدّاً، حتّى أنّهم لا- يرون في غلبه الروم وتفوّقها على إيران شاهداً على قدرتها العسكريّه، بل يرون أنّ هزيمه إيران كانت بسبب الفوضى التي كان سائده آنذاك في جهاز الحكم الإيراني. إنّ هاتين الدولتين اللتين كانتا تتربّعان على عرش السيادة والسياسه العالميه في مطلع ظهور الإسلام كانتا تعيشان حاله سيئه من الفوضى، والهرج والمرج، ومن البديهيّ أنّ مثل هذه الأوضاع كان من شأنها أن توجد حاله من التهيؤ الكبير والظماً الشديد إلى دين صحيح يضع حدّاً ونهايه لتلك الحاله، ويعيد تنظيم حياتهم.

ظاهره الجدل العقيم في المجتمع الرومي

المتعارف أن يعمد جماعة من البطالين والفسقه إلى طرح سلسله من القضايا التافهه والمسائل الخاويه، والنقاش حولها بهدف التوصل إلى أغراض فاسده، فيستهلكون بذلك أوقات الناس، ويهدرون أعمارهم على منحر الجدل العقيم.

وهي حاله لها مصاديق كثيره وشواهد عديده في كثير من بلاد المشرق، ولسنا بصدد التوسع فيها فعلاً.

وقد كانت «الروم» تعاني يومئذ من مثل هذه الحاله أكثر من أيّ مكان آخر.

فقد كان ملوك الروم ورجال الحكم والسياسه تبعاً لمذاهب دينيه كنسيه يعتقدون بأنّ المسيح ذو طبيعتين ومشيتين، ولكن طائفه أخرى من النصارى وهم «اليقوييه» كانوا يقولون بأنّه: ذو طبيعه ومشيتيه واحده.

وقد وجهت هذه المسأله الباطله نفسها، والجدل الواهي حولها ضربه

شديده إلى وحده الروم ومن ثم استقلالها، وأحدثت في صفوفها إنشقاقاً عميقاً حيث كانت السلطات الحاكمة تضطر إلى الدفاع عن معتقداتها، ولذلك كانت تضطهد معارضيها، وتلاحقهم وهذا الاضطهاد والضغط الروحي سبب في لجوء البعض إلى الدوله الإيرانيه، كما كان هؤلاء هم الذين تركوا المقاومه عند مواجهه الجيش الإسلامي، وألقوا السلاح، واستقبلوا جنود الإسلام بالأحضان.

كانت الروم تمرُّ آنذاك بظروف أشبه ما تكون بظروف القرون الأوربيه الوسطى التي ينقل عنها «فلاماريون» الفلكي الشهير القضايا التاليه التي تدلُّ على المستوى الفكري والثقافي لأوربا في القرون الوسطى:

لقد كان كتاب «المجموعه اللاهوتيه» المظهر الكامل للفلسفه المدرسيه في القرون الوسطى، وقد بقي هذا الكتاب يُدرّس في أوربا خلال أربعمئه سنه ككتاب رسمي ومعترف به.

وقد كان من الأبحاث المطروحه في هذا الكتاب البحث حول عدد الملائكه التي يمكنها أن تستقر على رأس إِبْرَه؟! أو عدد الفراسخ بين العين اليسرى والعين اليمنى للأب الخالد؟! إلى غير ذلك من القضايا التافهه!!

إنَّ الإمبراطوريه الروميه السيئه الحظ فيما كانت تعاني من الحروب الخارجيه الكثيره، كانت تعاني كذلك من النزاعات والاختلافات الداخليه - التي كانت - على الأغلب - تتصف بالصبغه المذهبيه والطائفيه - وكانت تدفع بالبلاد إلى حافه الهاويه، وتزيدها قرباً إليها يوماً بعد آخر.

ولمّا رأى اليهود (وهي الزمره الشريره المتآمره على الشعوب دائماً) تصاعد الاضطهاد والضغط الذي يمارسه الإمبراطور المسيحي الرومي، خطّطت لإسقاط ذلك النظام، فاحتلت مدينه أنطاكيه ذات مرّه، ومثّلت بأسقف أنطاكيه الأكبر فصلموا

أذنه، وجدعوا أنفه، فانتقمت حكومه الروم لهذه الجنايه بعد مدّه، وقتلت اليهود في أنطاكيه في مذبحه كبيره.

وقد تكثرت هذه الجرائم الفظيحه وهذه المذابح، والمذابح الانتقاميه المضادّه بين اليهود والنصارى عدّه مرّات، وربّما سرت موجه الروح الانتقاميه أحياناً إلى خارج البلاد، فمثلاً اشترى اليهود من إيران ذات مرّه ثمانين ألف مسيحي ثم حزّوا رؤوسهم انتقاماً وتشفيّاً.

من هذا يستطيع القارئ الكريم أن يقف على الصوره القاتمّه للوضع السيئ والمرتديّ الذي كان عليه العالم إبان بزوغ شمس الإسلام، ويدعن - مع المدعنين - بأنّ التعاليم الإسلاميه الرفيعه التي أنقذت العالم من ذلك الوضع المأساوي لم تكن أبداً وليده الفكر البشريّ، وأنّ نسيم الوحده، المنعش، ونغمه السلام التي يهدف إليه الإسلام ويسعى إلى تحقيقه وإقراره في الحياه البشريه ليس لها من مصدر إلّا الغيب، إذ كيف يمكن القول بأنّ الإسلام الذي يعترف حتّى للحيوانات بحقّ العيش والحياه نابع من تلك البيئه المغرقه في القسوّه والوحشيه، وناشئ من ذلك المحيط المفحم بروح الانتقام والتشفيّ.

لقد أبطل الإسلام جميع تلك المجادلات العقيمه والمناقشات التافهه حول مشيئه عيسى وشخصيته، وقال في نعته ووصفه:

«مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ». (١)

إنّ هذه الآيه أنهت الكثير من أبحاث رجال الكنيسه الباطله الخاويه حول «الروح» و «المسيح» ودمه، وشخصيته، وحقيقته، كما أنّ الإسلام بفضل التعاليم

ص: ١١٨

الرفيعه، وإحياء السجيا والملكات الفاضله أنقذ البشريه من المنازعات، الفارغه، والمذابح الفظيحه.

أوضاع إيران إبان عهد الرسالة

إنّ ما دفعنا إلى دراسته أوضاع الإمبراطوريه الروميه هو نفسه يحتم علينا أيضا دراسته أوضاع إيران يومذاك.

لقد صادف ظهور الإسلام وبعثه الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم (٦١١ ميلاديه) عهد السلطان الإيراني خسرو برويز (٥٩٠-٦٢٨ م)، ففي عهد «خسرو برويز» هذا هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكّه إلى المدينه المنوره (الجمعه ١٦ تموز ٦٢٢ م)، وصارت هذه الوقعه مبدأ للتاريخ الإسلامى.

فى هذه الأيام كانت الدولتان العظيمتان (الروم الشريقيه وإيران الساسانيه) تسيطران على معظم مناطق العالم المتحضّر، ولم تنزل هاتان الدولتان فى نزاع مستمرّ وصراع دائم على مناطق النفوذ حتّى بعد ظهور الإسلام.

فقد بدأت حروب إيران والروم الطويله من عهد السلطان الإيراني أنوشيروان (٥٣١-٥٨٩ م) واستمرّت إلى عهد الملك «خسرو برويز» واستغرقت أربعاً وعشرين عاماً من الزمان.^(١)

وقد سبّب تحمّل «إيران» و«الروم» للخصائر الكبرى، فى الأرواح والأموال خلال هذه المعارك الطويله فى إضعاف تينك الدولتين، وتعطيل وشلّ قواهما بحيث لم يبق منهما إلّا شبح دولتين لا أكثر.

ولكى نقف على الوضع العام فى إيران آنذاك من جهاته المختلفه، وأبعاده

ص: ١١٩

١- . لاحظ: تاريخ علوم وأدبيات در إيران: ٣ و ٤؛ وإيران در زمان ساسانيان: ٢٦٧ (باللغه الفارسيه).

المتنوّعه وبصوره أفضل، يجب أن نلقى نظره فاحصه على وضع الحكومات التي توالى على سدّه القيادة الإيرانيه بعد حكم «انوشيروان» وحتىّ بدايه دخول المسلمين.

البذخ والتّرف في البلاط الساساني

كانت حياه الملوك الساسانيين تتسم عموماً بالبذخ والتّرف، والتشريفات الطويله العريضه، وكان البلاط الساساني الفخم جداً يخلب ببريقه، بريق العيون، ويسحر الأفئده والعقول.

وكان للإيرانيين في عهد الساسانيين لواء يُعرف ب «درفش كاوياني» أي العلم الكاوياني نسبه إلى كاوه وهو بطل قومي إيراني أسطوري، وقد كانوا يحملونه معهم في الحروب، أو ينصبونه فوق قصورهم أثناء إحتفالات الساسانيين الكبرى، وقد كان هذا اللواء موشحاً ومزيناً بأغلى أنواع المجوهرات بلغت قيمتها التقديرية - حسب قول بعض الكتاب: «١/٢٠٠/٠٠٠» درهم (أو ما يعادل ٣٠/٠٠٠ پوند).

وقد بلغت مجموعه المجوهرات والأشياء الثمينه والتصاوير والرسوم المحيّرّه للعقول التي كانت تكتضُّ بها قصور الساسانيين من حيث الأهميه والقيمه حدّاً سحرت العيون وخلبت الألباب.

ولو أنّنا أردنا أن نقف على عجائب ما في تلك القصور، وما كانت تحتوى عليه من غرائب الأشياء لكفانا أن نلقى نظره واحده إلى السجاده البيضاء والكبيره التي كانت مفروشه في إحدى صالات بعض تلك القصور، وهي السجاده التي كانت تُدعى بالفارسيه ب «بهارستان كسرى» وهو بساط كانوا يُعدّونه للشقاء إذا ذهب الرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب وتعاطى الخمر فرشوه، وشربوا عليه

فكانهم في رياض وكان هذا البساط ستيناً في ستين أرضه بذهب ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر وورقه بحرير»(١)!!

وقيل أيضاً: إنّ هذا البساط كان منه وخمسين ذراعاً في سبعين ذراعاً، وكان منسوجاً من خيوط الذهب والمجوهرات الغاليه جداً!!

وقد كان «خسرو برويز» أكثر الملوك الساسانيين ميلاً إلى الترف، والبذخ، واتخاذ الزينه، وقد بلغت عدده نساءه وجواريه ثلاثه آلاف امرأه واثناعشر كما نقل حمزه الأصفهاني في كتابه «سني ملوك الأرض». (٢)

وجاء في تاريخ الطبري: كان «كسرى برويز» هذا قد جمع من الأموال ما لم يجمعه أحد من الملوك،... وكان أرغب الناس في الجوهر والأواني. (٣)

الوضع الاجتماعي في إيران

لم يكن الوضع الاجتماعي في عهد الساسانيين بأفضل من الوضع السياسي آنذاك أبداً، فقد بلغ الاختلاف الطبقي الذي كان سائداً في إيران منذ زمن بعيد أشده وأقوى درجاته، وأسوأ حالاته.

فطبقه النبلاء والكهنة كانت تتميز على بقية الطبقات تميزاً كاملاً فهم يختصون بجميع المناصب الاجتماعية الحساسه والعليا، بينما حُرم الكسبه والمزارعون وبقية أبناء الشعب من كافة الحقوق الاجتماعيه، ولم يكن لهم من

ص: ١٢١

١- . لاحظ: تاريخ الطبري: ٣/١٣٠. وجاء فيه: كانت القطف ستين ذراعاً في ستين ذراعاً، بساطاً واحداً مقدار جريب فيه طرق كالصور، وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافته كالأرض المرزوعه والأرض المبقله بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونواره بالذهب والفضه!!

٢- . لاحظ: سني ملوك الأرض والأنبياء: ٤٢٠.

٣- . تاريخ الطبري: ١/٦١٦.

واجب ودور فى النظام إلدفع الضرائب الثقيله والمشاركه فى الحروب.

يكتب أحد الكتاب الإيرانيين وهو الأستاذ سعيد نفيسى فى هذا الصعيد قائلاً:

إنّ ما كان يثير روح النفاق بين الإيرانيين أكثر هو سياسه التمايز الطبقي القاسى جداً الذى كان الساسانيون يتبعونها فى التعامل مع الشعب، وكان لها جذورٌ فى العهود والحضارات السابقه، ولكنها بلغت ذورتها فى العهد الساسانى بالذات!! ففى الدرجه الأولى كان للعائلات السبع من النبلاء، ثم للطبقات الخمس، إمتيازاتٌ خاصه حُرّم منها عامه أبناء الشعب.

فالملكيه كانت محصوره - تقريباً - فى تلك العائلات السبع مع العلم أنّ الشعب فى العهد الساسانى كان يقاربُ عدد نفوسه منه وأربعين مليوناً فى حين لا- يبلغ عددُ كلّ واحد من تلك العائلات الممتازه والمتميزه فى شؤونها منه ألف شخص، فىكون مجموعها سبعمئه ألف. (١)

وإذا افترضنا أنّ حراس الحدود وأمرأهم والمُلاك الذين كانوا يتمتعون هم الآخرون بشىء من حق الملكيه كان يبلغ عددهم أيضاً سبعمئه ألف أيضاً فىكون حق التملك والمالكيه حينئذٍ خاصاً بمليون ونصف من مجموع منه وأربعين مليوناً، فقد كانت تلك الزمره القليله هى التى تملك، وأمّا الآخرون وهم الأكثرية الساحقه فقد كانوا محرومين من هذا الحقّ الطبيعى الموهوب لهم من جانب الله أساساً وأصلاً.

لقد كان الكسبه والفلاحون المحرومون من جميع الحقوق، والإمتيازات إلّا

ص: ١٢٢

١- . تاريخ اجتماعى إيران: ٢٤-٢/٦ (باللغه الفارسيه).

أنهم يتحملون نفقات حياه البذخ والرفاهيه التي كان يرفل بها النبلاء والأشراف والطبقات العليا، لا يأملون خيراً وراء استمرار هذه الأوضاع، ودوامها، ولهذا كثيراً ما كان المزارعون والفلاحون والطبقات الدنيا من الشعب يغادرون أعمالهم، ومزارعهم ويلجأون إلى الأديرة فراراً من الضرائب الباهضة والآتاوات القاصمه للظهور، المبدده للثروات.(1)

يقول مؤلف كتاب «إيران في عهد الملوك الساسانيين».

إن حروب إيران - الروم الطويله بدأت من عهد حكمه الملك الإيراني أنوشيروان (531-589 م). (2)

وخلاصه القول: إنه كان في الإمبراطوريه الساسانيه أقلية صغيره - تقلّ نسبتها عن 1/5٪ (واحد ونصف بالمئه) من مجموع الشعب - تملك كلّ شيء بينما كان أكثر من (98,5٪) من الشعب الإيراني محرومين من حق الحياه تماماً كالعيبد.

حَقُّ التعلّم خاصّ بالطبقات العليا!!

في العهد الساساني كان أبناء الأغنياء والبيوتات الرفيعه هم وحدهم الذين يتمتعون بحقّ التعليم، بينما كان عامّة جماهير الشعب، والطبقات الوسطى والدنيا محرومين من تحصيل العلوم واكتسابها.

وقد كانت هذه المنقصة باديه وواضحه في عصور إيران القديمه جداً بحيث ذكرها الشعراء الكبار في ملاحمهم ودواوينهم الملكيه المعروفه بالرغم من أنّ الهدف من تلك الملاحم والدواوين كان هو الحماسه، والتفاخر بالبطولات

ص: ١٢٣

١- . لاحظ: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي: ٧٠ و ٧١.

٢- . إيران في عهد الملوك الساسانيين: ٤٢٤.

وتجيش العواطف، بعد مدح الملوك والأمراء.

فها هو «الفردوسى»^(١) الشاعر الملحمى الفارسى المعروف، بل أشهر شعراء إيران قد ذكر فى شاهنامته (وهى الملحمه الشعريه التى يذكر فيها أمجاد ملوك الفرس فى قرابه ستين ألف بيت) قصه فى هذا الصدد تعتبر أفضل شاهد على ما قلناه. وقد وقعت هذه القصه فى زمن «أنوشىروان»، أى فى الوقت الذى كانت الإمبراطوريه الساسانيه تمرّ فيه بعهدا الذهبى.

وهذه القصه تشهد بأن أكثرية الشعب فى عهد هذا الملك أيضاً كانت محرومه من حقّ التعلم، وممنوعه عن اكتساب الثقافه.

يقول الفردوسى: لقد أبدى حدّاء استعداده لتحمل نفقات الجيش الإيرانى - فى حربته مع الروم - بدفع ما يحتاجون إليه من ذهب وفضه.

ومع أنّ السلطه فى عهد «أنوشىروان» كانت بحاجه ماسه إلى مساعدات ماليه كبيره إذ كان يتعين عليها أن تجهّز ما يقرب من ثلاثمئه ألف مقاتل قد أُصيبوا بالمجاعه وقله العتاد، بحيث أدى ذلك إلى وقوع بعض الاعتراضات، وإلى ظهور الفوضى فى الجنود، ممّا أدى بدوره إلى قلق الملك الإيرانى «أنوشىروان».

والتخوّف من مضاعفات هذه الحاله، وآثاره السيئه فى قتاله للروم، ولذلك بادر إلى استدعاء وزيره المحنك «بزرجمهر» للتشاور معه فى المخلص من ذلك الوضع المحرج، ثم أمره بالتوجه إلى منطقه «مازندران» وجمع الأموال اللازمه من سكانها.

ولكن «بزرجمهر» حذر الملك من معبّه هذا العمل، وأضاف بأنّ هذا من

ص: ١٢٤

١- . راجع للتعرف على شخصيه هذا الشاعر: الموسوعه العربيه الميسره: ١٢٨٦.

شأنه أن يضاعف من الخطر ثم اقترح جمع الأموال اللازمه عن طريق القروض الشعبيه فاستحسن «انوشيروان» اقتراحه وأمره باتخاذ الترتيبات اللازمه على التو، فيرسل الوزير مندوبين له إلى المدن الإيرانيه ليكلّم التجار وأصحاب الثروه فى الأمر.

فيبدى الحداء المذكور استعداده لتحمل كل نفقات الجيش لوحده إلا أنه اشترط لذلك بأن يسمحوا لولده الوحيد الراغب فى تحصيل العلم جداً أن يتعلم.

فاستحقر الوزير شرطه ووعده بالإنجاز، والسماح لولده بالتعلم وتحصيل العلم، ثم عرض الأمر على الملك انوشيروان وهو يأمل فى أن يتجاوب الملك مع رغبه الحداء وطلبه الصغير إذا ما قيس بما سيعطيه من أموال طائله فى تلك الأوضاع الحرجه.

ولكن الملك استشاط غضباً لهذا الطلب، ونهر الوزير قائلاً: دع هذا، ما أسوأ ما تطلبه، إن هذا لا يمكن أن يكون، لأن ابن الحداء بخروجه من وضعه الطبقي يهدم التقليد الطبقي المتبع، فينفرط بذلك عقد الدوله، ويكون ضرر هذا المال علينا أكثر من نفعه، وشره أكثر من خيره.

ثم إن الفردوسى يعمد إلى شرح المنطق الميكافيلى حكايه عن لسان انوشيروان إذ يقول ناظماً ذلك فى أبيات (1) إليك ترجمتها:

وإذا أصبح ابن الحداء عالماً كاتباً عارفاً فعندما يجلس ولدنا على مسند

ص: ١٢٥

١- . وإليك هذه الأبيات باللغه الفارسيه: چو بازارگان بچه گردد دبیر هنرمند و با دانش و یاد گیر چو فرزند ما برنشد به تخت دبیری بیایدش پیروز بخت هنر باید از مرد موزه فروش سپارد بدو چشم بینا و گوش بدست خردمند مرد نژاد نماند جز از حسرت و سرد باد

الحكم والسلطنه واحتاج إلى كاتب، فإنه سيضطر إلى الاستعانه بابن ذلك الحداء - الكاتب - (وهو من عامه الشعب ومن أبناء الطبقة الدنيا، وفي حين جرت عادتنا إلى الآن على أن نستعين بأبناء الأشراف والنبلاء لا أبناء الطبقة الدنيا!!!)

وإذا حصل ابن الحداء وبائع الأحذيه على العلم والمعرفه أعاره العلم والمعرفه حينئذ عيوناً بصيره، وآذاناً سميحه فيرى حينئذ ما يجب أن لا يراه، ويسمع ما يجب أن لا يسمعه، وحينئذ لا يبقى لأبناء الملوكة إلا الحسره والتأسف. (١)

وهكذا يعيد الملك دراهم الحداء المسكين إليه رافضاً طلبه ويعود الحداء خائباً وهو يتوسل بما يتوسل به المستضعفون والمحرومون المظلومون وهو الدعاء والضراعه إلى الله في الليل، وفي هذا قال الفردوسي: عاد مبعوث الملك بدراهم الحداء إليه فأصيب الحداء لذلك بغم شديد، ثم لما جن الليل تضرع الحداء إلى الله وشكا إليه الملك طالباً عدلته. (٢)

والعجيب هو أن يصف البعض هذا السلطان بالعدل وهو الذي لم يعالج أسوأ مشكله في المجتمع الإيراني أيام حكمه وسلطانه وهي المشكله الثقافيه، بل تسبب في أن يصاب الشعب الإيراني بالمزيد من المشاكل الاجتماعيه وغيرها.

فقد وأد ودفن في القبور ما يقرب من ثمانين ألف انسان وهم أحياء (أو مئه ألف كما قيل) في حادثه واحده، وهي فتنه مزدك، حتى أنه ظن أنه قد قضى على جذور تلك الفتنه وهو لا يعلم أنها لم تستأصل؛ لأن مثل هذه الأساليب القمعيه إنما تقضى فقط على المسبب دون السبب وتكافح المجرم لا الجرم.

ص: ١٢٤

١- راجع شاهنامه (باللغه الفارسيه) وتاريخ اجتماعي إيران: ٦١٨.

٢- فرستاده برگشت و شد بادرم دل كفشگر زان درم پر زغم شب آمد، غمی شد ز گفتار شاه خروش جرس خواست از بارگاه

لقد كان السبب الحقيقي وراء تلك الفتنة هو الظلم الاجتماعي، والاختلاف الطبقي، واحتكار الثروات، والمناصب على أيدي طبقه خاصه وحرمان الأكثرية الساحقه من الشعب، وغير ذلك من المفاسد وكان عليه لو أراد الإصلاح أن يعالج هذه الأمور ليأتي على المشكله من أساسها، ولكنه بدل ذلك كان يريد - بالقهر والقمع وفي ظل الحراب والسياط - أن يظهر الناس أنفسهم بمظهر الراضين عن السلطه، الموافقين على تصرفاتها، وأحوالها وأوضاعها السيئه!!!

ومن هنا نعرف بطلان الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال فيه:

(وُلِدْتُ فِي زَمَنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ) ويقصد به انوشيروان.(١)

صفحة سوداء من جرائم خسروبرويز

ومن جرائم الملك خسروبرويز ومظالمه المنكره ما فعله بوزيره الشهير «بزرجمهر» الذي خدم البلاط الشاهنشاهي الإيراني ثلاثة عشر عاماً، وكان ذلك موجباً لشهرته في البلاد وحسن سمعته بين الناس.

فقد عمّد هذا الملك إلى سجن الوزير المذكور، والنكايه به، وقد كتب إلى الوزير المسجون رساله يقول فيها: إِنَّ حَظَّكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ أَنَّهُ عَرَّضَكَ لِلْقَتْلِ!!

فأجابه «بزرجمهر» بقوله: «فقد انتفعتُ بعلمي مادام قد حالفتني الحظُّ، وحيث عاكسني الآن، فإنني اصبر وأنتفع بصبري، فإذا فاتني فعلٌ خيرٌ كثيرٌ فإنني سعيدٌ لأنني لم أرتكب كذلك شراً كثيراً، وإذا ما سلبتني منصب الوزارة فإنني في

ص: ١٢٧

١- . راجع في هذا المجال: شعب الإيمان للبيهقي: ٤/٣٠٥؛ تذكره الموضوعات للفتني: ٨٨؛ الأسرار المرفوعه في الأخبار الموضوعه للملا على القارى: ٣٦٢؛ كشف الخفاء للعجلوني: ٢/٣٤٠.

الوقت نفسه قد استرحت كذلك من غم الحيف بالناس، فلا أبالي بما أنا فيه».

ولما بلغت هذه الرسالة إلى الملك «برويز» استشاط غضباً، وأمر بقطع شفتى الوزير، وجُدع أنفه، وعندما عرف الوزيرُ بهذا الأمر الظالم قال: أجل أن شفتى تستحقان أكثر من هذا. فسأله خسرو برويز: ولماذا؟ فقال: لأنهما صفتاك عند العامّة والخاصّه بما لا تستحق من الأوصاف، وأعطتاك ما ليس فيك من الخصال، فأمالتا إليك القلوب، ورغبتا فيك النفوس، والأفئده، وأشاعتا عنك أمجاداً لم تستحقّها، يا أسوأ الملووك وأظلم الحكّام، تقتلنى الآن بسوء الظن بعد أن كنت على يقين من وفائى، وصدقى، وإخلاصى، وسلامتى، فمن بعد هذا يأمل فى عدلك، ومن بعد هذا يثق بقولك؟!!

فازداد «خسرو برويز» لسماع هذه الكلمات الساخنة غضباً على غضب، وأمر من فوره بقتل الوزير، فضرب عنقه فى التوّ. (١).

وتلك هى معاملته ذلك الملك الموصوف زوراً بالعدل مع أقرب مقرّبيه، وأكثر معاونيه إخلاصاً، ووفاء له فكيف كانت يا ترى معاملته مع سائر أفراد الرعيه وبقية أفراد الشعب؟!!

حكم التاريخ فى الملووك الساسانيين:

لقد اتخذ الحكّام الساسانيون فى عهودهم وحكوماتهم سياسه ظالمه وقاسيه، وقد أخضعوا الناس لسلطانهم بالسيف والعنف.

كانوا يفرضون على الناس ضرائب ثقيله وأتاوات باهضه قاصمه للظهور،

ص: ١٢٨

١- . يذكر الفردوسى الشاعر الملحّمى هذه القصه فى شاهنامته المعروفه عند ذكر وقائع انوشيروان أثناء حربته مع الروم (لاحظ: الشاهنامه: ٢٥٧/٦-٢٦٠).

ولهذا السبب كان عامه الشعب الإيراني غير راضين على حكمهم وسيرتهم، ولكنهم خوفاً على نفوسهم، ما كانوا يتمكنون من الإعلان من استيائهم هذا، بل لم يكن لأرباب الفكر والرأى والعارفين بالأمر شأن ولا قيمه فى البلاط الشاهنشاهى.

لقد بلغ الاستبداد لدى الحكام الساسانيين حدّاً لم يستطع معه أحدٌ من إظهار رأيه، ولم يجرأ أحدٌ على إبداء آيه ملاحظه فى شأن من الشؤون.

لقد بلغت القوه بخسروبرويز حدّاً عجيباً وصفه الثعالبى بقوله:

قيل لخسرو برويز (كسرى) دعونا فلاناً الوالى فتباطأ عن الامتثال، فأمر الملك من فوره قائلاً إن كان يصعب عليه مجيئه ببيدنه كله، فإننا يكفينا شىء منه، فليؤتى برأسه فحسب. (١)

الفوضى فى الحكومه الساسانيه

ومما يجب أن لا- نغفل عن ذكره هو ما تعرّضت له الحكومه الساسانيه فى أواخر عهدها من الفوضى الإداريه، وتفاقم الهرج والمرج فى جهازها الحكومى.

فقد دبّ الصراع والنزاع ونشب التنافس الحاد بين الأمراء، والأعيان وقاده الجيش فى ذلك العهد وذهب كلُّ فريق يختار أميراً من أبناء العائله المالكه، ويقوم بتصفيه الطائفه الأخرى التى اختارت أميراً آخر.

وعندما فكّر العرب المسلمون فى فتح إيران كانت العائله الساسانيه المالكه قد بلغت ذروه الضعف والإنقسام.

ومما يدل على ذلك تعاقب ما يقرب من (١٤) ملكاً على مسند الحكم

ص: ١٢٩

والسلطان خلال مدّه أربعه أعوام من مقتل الملك «خسرو برويز» وجلوس «شبيرويه» مجلسه وحتّى آخر ملكٍ من ملوك بني ساسان.

وهذا يعنى أنّ حكومه إيران انتقلت خلال مدّه لا تتجاوز أربعه أعوام من يد إلى يد أخرى (١٤ مره)!! ومن الواضح ما يلحق بأيّه دوله ومملكه تتعرض ل (١٤) انقلاب يُقتل فيه ملك، ويحل محله ملك آخر فى مثل هذه المدّه القصيره.

فقد كان كل حاكم يتسلّم زمام الحكم ويستولى على عرش السلطان يعمد إلى قتل واغتيال كل من كان يطمع فى العرش، ولا يتورّع فى سبيل إرساء قواعد حكمه من ارتكاب كل ما يراه ضرورياً، فكان الأب يقتل ابنه، والابن يقتل أباه، وربّما يقتل الأخ إخوته، والزوجه زوجها وهكذا...

فقد قتل «شبيرويه» أباه (١) للحصول على مقعد الحكم والسلطان، كما أباد أربعين شخصاً من أبناء الملك «خسرو برويز» أى إخوته!! (٢)

وكان «شهر براز» يقتل كل من لا يثق به، وقد أدّى هذا إلى أن يقضى على كل أبناء سلالته من الأمراء الساسانيين ممّن كان قد تسنّم عرش السلطان والملوكيه قبله، رجلاً كان ذلك أم امراه، صغيراً كان أم كبيراً، لكى لا يبقى فى الوجود من يطمع فى السلطان أو يدّعيه!!

وصفوه القول: إنّ الفوضى السياسيه بلغت فى أواخر العهد الساسانى حدّاً بحيث كانوا يجلسون فيه الأطفال والصبيان والنساء على أريكه الحكم، ثم يثرون عليهم ويقتلونهم بعد أيام أو أشهر ويحلون محلّهم أشخاصاً آخرين!!

وعلى هذا فإن الدوله الساسانيه رغم قوّتها الظاهريه كانت آخذة فى

ص: ١٣٠

١- . تاريخ الطبرى: ٢/٢٩٧.

٢- . تاريخ اجتماعى إيران: ١٩-٢/١٥ (بالفارسيه).

الفوضى الدينيه فى إيران الساسانيين

لقد كان أهم عامل للفوضى التى كانت تعانى منها الأوضاع فى العهد الساسانى هو الاختلاف فى المعتقدات الدينيه التى كانت سائده آنذاك.

فحيث إن «أردشير بن بابك» مؤسس السلسله الساسانيه كان ابن مؤيد (وهو رجل دين زردشتى) وقيماً على بيت نار، وقد تمكن من السلطان بفضل الموابده، فإنه اجتهد فى الترويج لدين آباءه فى إيران.

وفى عهد الساسانيين كان الدين الرسمى والشائع فى أوساط الشعب الإيراني هو الدين الزرادشتى، ولما كانت السلالة الساسانيه قد توصلت إلى الحكم بواسطة الموابده - كما أسلفنا - لذلك كان الموابده والقيّمون على بيوت النار (ونعنى بهم رجال الدين الزرادشتى) يحظون بمكانه كبرى لدى البلاط الساسانى إلى درجه أنهم أصبحوا يشكلون فى أواخر العهد الساسانى أقوى طبقه، وأشدّ الأجنحه نفوذاً فى المجتمع الإيراني آنذاك.

ولقد كان الحكام الساسانيون دائماً ممنّ رشحهم للحكم الموابده ورجال الدين الزردشتى المجوسى، ولذلك كان الحكام يأترون بأوامرهم، ولو أنّ أحداً منهم خالف الموابده عارضوه أشدّ المعارضه، وسحبوا عنه تأييدهم ودغمهم، ولهذا اجتهد الملوك الساسانيون فى كسب رضا الموابده، والعنايه بهم أكثر من غيرهم من الطبقات، وقد تسببت عنايه أولئك الملوك بالموابده وحمايتهم لهم فى تزايد عددهم، يوماً بعد يوم.

وقد كان الساسانيون يستغلون رجال الدين المجوس أكبر استغلال لشيتت قواعد حكمهم، وتقويه مواقعهم فى السلطان، ولذلك أقاموا فى مختلف مناطق

البلاد الإيرانية العريضة بيوت النار (وهي معابد المجوس) جاعلين في كل واحد من هذه المعابد ثلثه كبيره من الموابده كسدنه.

فقد كتب المؤرخون يقولون: إن «خسرو برويز» شيد بيتاً للنار عظيماً ووكل به (١٢ ألف) هيربد (وهو منصب خاص ورتبه خاصه في نظام القياده الدينيه المجوسيه) ليشدوا فيه الأناشيد الدينيه، ويؤدوا الطقوس والشعائر المجوسيه!!^(١) وعلى هذا الأساس كان الدين المجوسى دين البلاط، وكان رجاله في خدمه الملوكت.

هذا وقد اجتهد الموابده - بكل ما فى وسعهم - فى إبقاء الطبقات الكادحه والمحرومه من أبناء الشعب الإيراني فى حاله من الركود والجمود وحاله عدم الإحساس بالآلام والرضا بالأمر الواقع.

ولقد تسببت الصلاحيات الواسعه والحريات المطلقه المخوله إلى الموابده فى ابتعاد الناس عن الدين المجوسى والنفور منه، فجماهير الشعب كانت تبحث لنفسها عن غير ما يتدين به الأشراف من عقيدته ودين.

يقول مؤلف كتاب «تاريخ اجتماعى إيران»: وقد سعى الشعب الإيراني - فى المآل - إلى أن يتخلص من ضغوط الأشراف والموابده واضطهادهم، ولهذا ظهر بيت الزردشتيين فى قبال الدين الرسمى «المزديه الزردشتيه» الذى كان دين البلاط كما عرفنا، وكان يدعى: بهدين (أى: الدين الأفضل) مذهبان آخران.^(٢)

أجل وبسبب ضغوط الأشراف وتشددات الموابده فى العهد الساسانى

ص: ١٣٢

١- . تاريخ تمدن ساسانى: ١/١ (بالفارسيه).

٢- . لاحظ: تاريخ اجتماعى إيران: ٢/٢٠.

ظهرت في إيران مذاهب مختلفه الواحد تلو الآخر، وقد حاول «مزدك» ومن قبله «مانى» أن يوجدا بأنفسهما تحوُّلاً في الأوضاع الدينيه وفي العقائد والمؤسسات، إلّا أنّهما منيا بالفشل في هذا السبيل (١).

فحوالى سنه (٤٩٧ ميلاديه) قام «مزدك»، وألغى المالكيه الانحصاريه (الخاصه)، ونسخ عاده تعدد الزوجات، ونظام الحریم وكان ذلك في مقدّمه برامجه الإصلاحيه، وقد لقيت أفكاره هذه تأييداً قوياً من قبل الطبقات المحرومه المسحوقه التي فجرت بقياده «مزدك» ثوره كبرى، وانقلاباً هائلاً في المجتمع الإيراني.

ولقد كانت هذه الثورات والانتفاضات الشعبيه لأجل أن يتوصّل الناس إلى حقوقهم المشروعه، الممنوحه لهم من قبل الله خالقهم وبارئهم.

ولقد قوبل مذهب «مزدك» باعتراض شديد من قبل الموابده، وأمراء الجيش، وجرّ إلى فتنه كبيره، وإلى تردى الأوضاع في إيران آنذاك.

كما أنّ المذهب الزردشتى قد فقد - في أواخر العهد الساسانى - حقيقته بصوره كامله، ووصل الأمر بعباده النار وتقديسها إلى درجه أنّهم كانوا يحرمون الدقّ على حديده محماه اكتسبت لون النار ولهبها بمجاورتها لها.

وبكلمه واحده؛ لقد كانت أكثر المعتقدات الزردشتيه المجوسيه تتألف من الخرافات والأساطير، وقد أعطت حقائق هذا الدين - في هذا العهد - مكانها لحفنه من الشعائر الجوفاء، والطقوس الفارغه، التي أضاف إليها الموابده سلسله من التشريفات الطويله العريضه تثبيتاً لمواقعهم، ودعماً لمكانتهم في المجتمع الإيراني يومئذ.

ص: ١٣٣

١- . المذهب المانوى هو المذهب الزردشتى الخليط بالمسيحيه، فقد اخترع مانى من مسلك قومى وآخر أجنبى مذهباً جديداً ثالثاً.

لقد بلغت سيطره الخرافات والأساطير البعيده عن العقل والمنطق على هذه العقيدة، ورسوخها في هذا الدين حدّاً أقلق حتّى رجال الدين الزردشتي أنفسهم أيضاً، وقد كان بين الموابده أنفسهم من أدرك منذ البدايه تفاهه الطقوس والشعائر الزردشتيه الجوفاء فتخلّى عنها.

هذا من جانب ومن جانب آخر كان قد انفتح على الشعب الإيراني منذ أيام الملك «أنوشيروان» فما بعد، طريق التفكير، والتأمل، والتحقيق، ومما قد قوى هذا الأمر ما حصل من اتصالات بين العقائد الزردشتيه والمعتقدات المسيحيه وغيرها من العقائد والأديان وما تحقّق من تلاقح بينها نتيجة تسلل الثقافه اليونانيه والهنديه، وغيرها إلى الوسط الإيراني، وتسبّب كلّ ذلك في يقظه الشعب الإيراني، ولذلك أصبح يعاني من هذه الخرافات والأساطير التي كانت الديانه الزردشتيه تعج بها أكثر من أي وقت مضى.

وعلى أيّ حال فإن الفساد الّمدى ظهر في أوساط رجال الدين الزردشت، وتطرّق الخرافات والأساطير الواهيه الكثيره إلى المعتقدات الزردشتيه تسبّب في حصول مزيد من التشتت والاختلاف والتشردم في آراء الشعب الإيراني وعقيدته.

ومع ظهور هذا الاختلاف وعلى أثر إنتشار المذاهب المتنوّعه ظهرت روح الشكّ والترّدّد لدى الطبقة المفكّره والمثقفه، وسرت منهم إلى بقيه الأصناف والفئات ممّا أدى ذلك إلى أن تفقد جماهير الشعب ثقّتهم وإيمانهم القطعي، واعتقادهم الكامل السابق بتلك المعتقدات.

وهكذا استشرى الهرج والمرج وعمّت الفوضى واللا دينيه كلّ مناطق إيران والمجتمع الإيراني، وقد رسم «برزويه» الطيب الشهير في العهد الساساني ذلك الحال فصوّر نموذجاً كاملاً عن الاختلاف الاعتقادي والتشردم الفكري، وبالتالي اضطراب الأوضاع الإيرانيه في العهد الساساني، في مقدمه «كليله ودمنه».

لقد أنقذ «بزرجمهر» - الوزير الإيراني الشهير الذي كان يحتل مكان الصدارة في حكومه «أنوشيروان» وكان موصوفاً بالتدبير والكفاءة العاليه - إيران من الأخطار التي أهدقت بها في أكثر الأحيان، ولكن علاقته بالسلطان (أنوشيروان) كانت تتأثر أحياناً بسعايه الساعين ووشايه الوشاه الذين كانوا يوغرون صدر الملك ضده فيستصدرون منه قراراً بحبسه وسجنه.

وقد أوغر هؤلاء السعاه والواشون أنفسهم صدر «أنوشيروان» ضد امبراطور الروم، وألوه عليه، وشجعوه على توسيع رقعه نفوذه، وتوسيع حدود بلاده، وإضعاف سيطره منافسه الخطير، متجاهلاً وثيقه «الصلح الخالد» التي عقدها مع الروم واتفق فيها الجانبان على عدم التعرض بعضهم لبعض.

وأدى هذا التحريض بأنوشيروان إلى مهاجمه الروم، واشتعلت على إثرها نيران الحرب، واستطاع جنود إيران أن يفتحوا سوريه (وقد كانت مستعمره روميه) في مدّه قصيره تقريباً، وحرقت أنطاكيه ونهب آسيا الصغرى.

وبعد عشرين عاماً من القتال وسفك الدماء، والكز والفر بين الروم وإيران وبعد أن فقد الجانبان قدراتهم وطاقاتهم في تلك المعارك الطاحنه، وبعد الخسائر العظيمه التي تحمّلها الطرفان، اضطراً إلى عقد وثيقه الصلح مره ثانيه، وحددوا حدود بلادهما، ومناطق نفوذهما كما كانت عليه في السابق شريطه أن تدفع دوله الروم كل عام ما يعادل (عشرين ألف) دينار إلى دوله إيران.

ومن الواضح الذي لا يخفى ولا يحتاج إلى البيان أنّ حروباً طويله الأمد تدور رحاها بعيداً عن مركز الدوله من شأنها أن تأتي بالنتائج السيئه والتبعات الثقيله على اقتصاد الشعب المحارب، وصناعته وتوجه إلى هذه الجوانب ضربات قويه،

لا تزول آثارها إلّا بعد زمان طويل خاصّه مع ملاحظه الوسائل والأدوات فى تلك العصور. ومهما يكن فإنّ هذه الحروب، وهذه الحملات المكلفه هتأت المقدمات الموجبه لسقوط الحكومه الإيرانيه الحتمى.

فإنّ آثار هذه المعارك لم تزل بعد إلّا وقد نشبت حربٌ أخرى دامت سبعة أعوام فإنّ «تى باريوس» امبراطور الروم بعد أن تسنّم عرش السلطان هدد بحملاته الكبيره استقلال الدوله الإيرانيه بدافع الانتقام.

وفى الأثناء - وقبل أن يتضح موقف الطرفين وموقعهما فى تلك المعارك من الهزيمه أو الانتصار - مات «أنوشيروان» وخلفه فى إدره البلاد ابنه «خسروبرويز».

وقد حمل هذا الأخير على الروم أيضاً، وذلك عام (٦١٤ م) بحجج معينه، وفتح فى أوّل حمله من حملاته: بلاد الشام وفلسطين وأفريقيه ونهب أورشليم، وأحرق كنيسه القيامه ومزار السيد المسيح عليه السلام وهدم المدن، ودمرها.

وقد انتهت هذه الحرب بعد مقتل تسعين ألف من النصارى لصالح الإيرانيين.

فى مثل هذه المرحله التى كان فيها العالم المتحضّر آنذاك يحترق فى نيران الحروب والظلم، بُعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بالرساله الإسلاميه، وبلغ نداؤه المحيى للنفوس والعقول سمع البشرىه، وقام يدعو الناس إلى الصلح والسلم، وإلى النظم والأمن.

ولقد أذى انهزام الروميين المتدينين، المؤمنين بالله على أيدى المجوس الكفار، عبده النار، إلى أن يتفائل أهل مكّه الوثنيون بهذا الحدث، ويحدّثوا (ويمنّوا) أنفسهم بالانتصار على المسلمين المؤمنين بالله عمّا قريب، وانطلقوا يردّدون هذه

الأمنية أمام المسلمين وهم يحاولون بها إضعاف معنوياتهم، وزعزعه إيمانهم، الأمر الذي أقلق المسلمين.

ولم يتخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم موقفاً تجاه هذه الظاهرة انتظاراً لما سينزل به عليه الوحي إلى أن نزلت آيات في هذا المجال هي الآيات الأولى من سورة الروم التي تقول: «الم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعِيدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرُحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعِيدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (١).

وقد تحققت نبوءة القرآن هذه حول الروم في عام (٦٢٧ ميلاديه) حيث استولى «هرقل» على «نينوى» في حمله واحده.

وعلى أيه حال كانت الدولتان المتنافستان تطويان الدقائق والساعات الأخيرة من حياتهما فيما تستعدان من ناحيه أخرى لتجميع القوى، والتهيؤ لشن حملات جديدته، وخوض حروب ومعارك أخرى ولكن حيث إن الإرادته الإلهيه كانت قد تعلقت بأن يسطع على تلك المنطقتين نور التوحيد وتنتعش نفوس الروميين والفرس الذابله الميته بنسائم الإسلام الحيه، وأشعته الهاديته، لذلك لم يلبث أن قُتل «خسرو برويز» على يدي ابنه «شيرويه» الذي لم يدم سلطانه بعد اغتياله لأبيه أكثر من ثمانيه أشهر، ثم سادت إيران بعد «شيرويه» فوضى شامله خلال أربعه أشهر، حيث تناوب على مسند الحكم حكام وأمرء عديدون أربعه منهم من النساء، إلى أن أنهى الجيش الاسلامي بحملاته الناجحه هذه الأوضاع، ووضع نهايه لهذا الصراع السياسى الحاد الذي استمر خمسين عاماً والذي ساعد بدوره على تقدم الفتوحات الإسلاميه.

ص: ١٣٧

١- . الروم: ١-٦.

إشارة

إنَّ الهدف من استعراض حياة النبي العظيم إبراهيم الخليل عليه السلام هو التعريف بأجداد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأسلافه، لانتهاه نسبه الشريف إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وحيث إنَّ لهاتين الشخصيتين العظيمتين وبعض أسلاف النبي العظيم نصيبٌ هامٌّ في تاريخ العرب والإسلام، لهذا ينبغي الحديث عن أحوالهم بصورة مختصرة، خاصَّة أنَّ حوادث التاريخ الإسلامي ترتبط ارتباطاً كاملاً - كحلقات سلسله واحده - بالحوادث السابقة، أو المقارنه لبزوغ الإسلام.

فعلى سبيل المثال تُعتبر كفالته «عبدالمطلب» لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحمايته له، وجهود «أبي طالب» ودفاعه الطويل عن النبي، وعظمه الهاشميين وسموِّ مقامهم وأخلاقهم، وجذور معاداة الأمويين لهم، الأسس والقواعد الموضوعية لحوادث التاريخ الإسلامي، ولهذا كان لابدَّ من تخصيص فصل كامل في التاريخ الإسلامي لهذه الأبحاث.

إنَّ في حياة حامل رايه التوحيد النبي «إبراهيم الخليل» عليه السلام نقاطاً مشرقه وبارزه جدًّا.

فجهاده العظيم في سبيل إرساء قواعد التوحيد واقتلاع جذور الوثنيه ممَّا لا ينسى.

وهكذا حوار اللطيف والزاهر بالمعاني مع عبده النجوم والكواكب في

عصره والذي ذكره القرآن الكريم ليعرفنا على أفضل وأسمى درس توحيدى لطلاب الحقيقة وبغاه الحق.

مولد إبراهيم عليه السلام

لقد وُلد بطلُ التوحيد في بيئته مظلمة كانت تسربلها ظلمات الوثنية، وعبادة البشر... في بيئته كان الإنسان فيها يخضع لأصنام نحتها بيديه، كما يخضع لكواكب ونجوم.

لقد وُلد حامل لواء التوحيد «إبراهيم الخليل» عليه السلام في «بابل» التي يعدّها المؤرّخون إحدى عجائب الدنيا السبع، ويذكرون حولها قصصاً وأموراً كثيرة تنبئ عن عظمتها وأهمّية حضارتها، فيقول «هيردوتس» المؤرّخ المعروف - مثلاً -: لقد كانت بابل بنيه بشكل مربع طول كل ضلعه الأربعة (١٢٠ فرسخاً) ومحيطه (٤٨٠ فرسخاً)(١).

إنّ هذا الكلام مهما كان مبالغاً فيه إلّا أنّه على كلّ حال يكشف عن حقيقة لا تقبل الإنكار، إذا ما ضُمنَّ إلى ما كتبه الآخرون عن تلك المدينة التاريخيه.

غير أنّنا لا نرى من تلك المدينة اليوم ومن مناظرها الجميله، وقصورها الرائعه، إلّا تلالاً من التراب في منطقته بين «دجله» و «الفرات»، فالموت يخيم على كلّ تلك المنطقه، اللهم إلّا عندما يكسر علماء الآثار بتقنياتهم جدار الصمت أحياناً، بحثاً عن آثار تلك المدينة، ويستخرجون بقاياها الموقوف على معالم من حضاره أصحابها وسكانها.

لقد فتح رائد التوحيد ومُرسى أركانها «إبراهيم الخليل» عليه السلام عينيه في دوله «نمرود بن كنعان».

ص: ١٣٩

١- . قاموس الكتاب المقدّس، مادّه بابل.

وكان نمرود هذا رغم أنه يعبدُ الصنم يدعى الألوهيَّة ويأمر الناس بعبادته.

وقد يبدو هذا الأمر عجباً جداً فكيف يمكن أن يكون الشخص عابد صنم ومع ذلك يدعى الألوهيه في الوقت نفسه، إلّا أنَّ القرآن الكريم يذكر لنا نظير هذه المسألة في شأن «فرعون مصر»، وذلك عندما هزَّ النبيُّ موسى بن عمران عليه السلام قواعد العرش الفرعوني بمنطقه القويِّ، وحثَّه الصاعقه، فاعترض أنصار فرعون وملؤه على هذا الأمر، وخاطبوا فرعون بلهجه معترضة قائلين: «أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يُدْرِكَ الْآلِهَاتُكُمْ». (١) ومن الواضح جداً أنَّ «فرعون» كان يدعى الألوهيه فهو المذى كان يقول: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» (٢)، وهو القائل: «مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» (٣) ولكنَّه كان في الوقت نفسه عابد صنم ووثنياً.

بيدَ أنَّ هذه الازدواجيه ليست بالأمر الغريب عند الوثنيين، ولا- يمنع مانع في منطقتهم من أن يكون الشخص نفسه وثنياً يعبد الصنم، ومع ذلك يدعى أنه إله ويدعو الناس إلى عبادته فيكون إلهاً معبوداً، يعبد إلهاً أعلى منه، لأنَّ المقصود من المعبود والإله ليس هو خالق الكون بل هو من يتفوق على الآخرين بنحو من أنحاء التفوق ويمتلك زمام حياتهم بشكل من الإشكال.

هذا والتاريخ يحدِّثنا أنَّ العوائل في بلاد الروم كانت تعبد كبارها، ومع ذلك كان أولئك الكبار المعبودين أنفسهم يتخذون لأنفسهم معبوداً أو معبودات أخرى.

إنَّ أكبر وسيلة توَسَّل بها «نمرود» في هذا السبيل هو استقطاب جماعه من

ص: ١٤٠

١- . الأعراف: ١٢٧.

٢- . النازعات: ٢٤.

٣- . القصص: ٣٨.

الكهنة والمنجمين الذين كانوا يُعدّون الطبقة العالمه والمثقفه فى ذلك العصر.

فقد كان خضوع هذه الطبقة يمهّد لاستعمار الطبقة الدنيا والجاهله من الناس.

هذا مضافاً إلى أنه كان يُناصر «نمرود» بعض من ينتسب إلى «الخليل» عليه السلام بوشيجته القربى مثل «آزر» الذى كان يصنع التماثيل، وكان عارفاً بأحوال النجوم والفلك أيضاً، وكان هذا هو الآخر أحد العراقيين التى كانت تمنع الخليل من إنجاز مهمته، لأنه مضافاً إلى مخالفته الرأى العام له، كان يواجه مخالفه أقاربه أيضاً.

لقد كان نمرود غارقاً فى عالم خيالى عندما دق المنجمون فجأه أول ناقوس للخطر وقالوا له: سوف تنهار حكومتك، ويتهاوى عرشك وسلطانك على يد رجل يولد فى تلك البيئه، الأمر الذى أيقظ أفكاره النائمه، فتساءل من فوره، وهل وُلد هذا الرجل؟ فقيل له: لا، إنه لم يولد بعد. فأمر من فوره بعزل الرجال عن النساء (وذلك فى الليله التى انعقدت فيها نطفه إبراهيم الخليل عليه السلام عدو نمرود، وهادم ملكه، ومزيل سلطانه وهى الليله التى حدّدها وتكهن بها المنجمون والكهنة من أنصار نمرود) ومع ذلك كان جلاوزه «نمرود» يقتلون كلّ وليد ذكر، وكان على القوابل أن يسجّلن أسماء المواليد فى مكتبه الخاص.

ولقد اتفق أن انعقدت نطفه «الخليل» فى نفس الليله التى منع فيها أى لقاء جنسى بين الرجال، وأزواجهم.

لقد حملت أم إبراهيم به كما حملت أم موسى به، وأمضت فتره حملها فى خفاء وتستر، ثم لجأت بعد وضع وليدها العزيز إلى غار بجبل على مقربه من المدينه حفاظاً عليه، وراحت تتفقده بين حين وآخر من الليل والنهار، قدر المستطاع.

وقد أرضى هذا الأسلوبُ الظالمُ «نمروداً» وأراح باله بمرور الزمن، إذ أيقن بأنه قد قضى به على عدو عرشه، وهادم سلطانه، وتخلص منه.

لقد قضى «إبراهيم» عليه السلام ثلاثة عشر عاماً في ذلك الغار الذي كان يتصل بالعالم الخارجي عبر باب ضيق، ثم أخرجته أمّه من ذلك الغار بعد ثلاثة عشر عاماً، ودخل «إبراهيم» في المجتمع، فاستغرب المجتمع النمرودي وجوده وأنكره. (1)

لقد خرج «إبراهيم» من الغار، مؤمناً بالله بفطرته، وقوى توحيده الفطري، بمشاهدته الأرض والسما، والنظر في سطوع الكواكب والنجوم والتأمل في ما يجري في عالم النبات من نمو وحركة، إلى غير ذلك مما يجري في عالم الطبيعة العجيب.

لقد واجه إبراهيم عليه السلام بعد خروجه من الغار جماعه من الناس بهرتهم أحوال الكواكب وعظمه أمرها، ففقدوا عقولهم تجاه هذه الظاهره، كما رأى جماعه أخرى أخطت فكرياً من سابقتها يعبدون أصناماً منحوتة، بل واجه ما هو أسوأ بكثير من أعضاء الطوائف والجماعات الضالّة إذ رأى رجلاً يستغل جهل الناس وغباءهم ويدّعي الإلهيه ويفرض عليهم عبادته والخضوع له!!

لقد كان إبراهيم عليه السلام يرى أنّ عليه أن يهيئ نفسه لخوض المعركة في هذه الجهات الثلاث المختلفه، وقد نقل القرآن الكريم قصه نضال النبي «إبراهيم» عليه السلام في هذه الأصعدة والجهات الثلاث، وسننقل لك في ما يأتي وباختصار ما ذكره القرآن في هذا المجال.

ص: ١٤٢

كانت ظلمات الوثنيه قد حَيِّمت على منطقه بابل (موضع ولاده الخليل) برمتها.

فالآلهه المدَّعاه، والمعبودات (السماويه والأرضيه) الباطله قد سحرت عقول مختلف فئات الشعب، فبعضها فى نظرهم هى أرباب القدره والسلطه، وبعضها الآخر وسيله الزلفى والتقرب إلى الله، إلى غير ذلك من التصوّرات السخيفه فى هذا الصعيد.

وحيث إنّ طريقه الأنبياء فى هدايه البشريه وإرشادهم هى الاستدلال بالبراهين، والاحتجاج بالمنطق، لأنهم إنّما يتعاملون مع قلوب الناس وعقولهم، ويتبنون إيجاد حكومه تقوم على أساس الإيمان واليقين، ومثل هذه الحكومه لا يمكن إقامتها بالسيف أو بالنار والحديد. لهذا يبدأون حركتهم بالتوعيه الفكرية.

إنّ علينا أن نفرّق بين الحكومات الّتى أراد الأنبياء تأسيسها، وحكومه الفراعنه والنمارده.

إنّ هدف الطائفه الثانيه هو: الرئاسه والزعامه، والحفاظ عليها بكلّ وسيله ممكنه فى حياتهم، وإن تلاشت وتهاوت من بعدهم.

ولكنّ الأنبياء والرسل يريدون حكومه تبقى قائمه فى جميع الحالات ومائله فى جميع الأوقات، فى الخلوه والجلوه، فى وقت الضعف، وفى وقت القوّه، فى حياتهم وبعد مماتهم... إنّهم يريدون أن يحكموا على القلوب لا على الأبدان، وهذا الهدف لا يتحقّق أبداً عن طريق القوّه واستخدام العنف والقهر!! إنّما يتحقّق عن طريق الحجّج والبرهان.

لقد بدأ النّبى «إبراهيم» عمله بمكافحه ما كان عليه أقرباؤه الذين كان فى

طليعتهم وعلى رأسهم «آزر» وهو الوثني وعباده الأصنام، ولكنّه لم ينته من هذه المعركة ولم يحرز إنتصاراً كاملاً في هذه الجبهه بعد، إلّاواجه عليه السلام جبهه أُخرى، وكانت هذه الجماعه أعلى مستوى من أفراد الجماعه السابقه في الفهم والثقافه. لأنّ هذه الجماعه - على خلاف أقرباء إبراهيم - قد نبذت عباده الأوثان والأصنام(1)، والمعبودات الأرضيه الحقيه، وتوجهت بعبادتها وتقديسها إلى الكواكب والنجوم والأجرام السماويه. ولقد بيّن «الخليل» عليه السلام في حوارهِ العقائدي مع عُيَاد الأجرام السماويه، ومكافحته لمعتقداتهم الفاسده، سلسله من الحقائق الفلسفيه والعلميه التي لم يصل إليها الفكر البشري يومذاك، وذلك بيان بسيط مدعوم بأدله لا تزال إلى اليوم موضع إعجاب كبار العلماء، ورؤاد الفلسفه والكلام.

والأهم من ذلك - في هذا المجال - أنّ القرآن الكريم نقل أدله «إبراهيم الخليل» عليه السلام باهتمام خاص وعنايه بالغه، ولهذا ينبغي لنا أن نتوقّف عندها قليلاً، وهذا ما سنفعله في هذه الصفحات.

حوار إبراهيم الخليل عليه السلام مع عبده الكواكب

ذات ليله وقف إبراهيم عليه السلام عند ابتداء مغيب الشمس يتطلّع في السماء - وهو ينوي هدايه الناس - وبقى ينظر إلى النجوم والكواكب من أوّل الغروب من تلك الليله إلى الغروب من الليله التاليه، وخلال هذه الساعات الأربع والعشرين حاور وجادل ثلاث فرق، من عبده النجوم وأبطل عقيدته كلّ فرقهِ منها بأدله محكمه، وبراهين متقنه قويّه.

ص: ١٤٤

١- . ترتبط آيه ٧٤ من سوره الأنعام بحواره عليه السلام مع الوثنيين، بينما ترتبط الآيات اللاحقه لها بعبده الأجرام السماويه.

فعندما أقبل الليلُ وخيم الظلام على كلِّ مكانٍ وهو يخفى كلَّ مظاهر الوجود ومعالمه في عالم الطبيعه، ظهر كوكبُ «الزُّهره» من جانب الأفق وهو يتلألأ.

فقال إبراهيم لعُباد هذا الكوكب - وهو يتظاهر بموافقتهم جلباً لقلوبهم، ومقدمه للدخول معهم في حوار -: «هذا رَبِّي» .

وعندما أفل ذلك الكوكب وغاب عن الأنظار قال: «لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ» .

وبمثل هذا المنطق الجميل أبطل عقيدته عبده الزهره، وأظهر خواءها وفسادها.

ثم إنَّه عليه السلام نظر إلى القمر المنير الذي يسحر القلوب بنوره وضوئه، فقال - متظاهراً بموافقته عبده القمر -: «هذا رَبِّي» ثم ردَّ بأسلوب منطقي محكم تلك العقيدته أيضاً، عندما امتدَّت يد القدره المطلقه ولمت أشعه القمر من عالم الطبيعه، وعندما اتخذ إبراهيم عليه السلام هيئه الباحث عن الحقيقه ومن دون أن يصدِّم تلك الفرق المشركه ويجرح مشاعرها، إذ قال: «لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَمَآ كُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ» (١) لأنَّ القمر قد أفل أيضاً كما أفل سابقه فهو كغيره أسير نظام علوي لا يتخلف، وما كان كذلك لا يمكن أن يُعَدَّ رباً يُعبد، ويتوجَّه إليه بالتقديس والتضريح.

ولمَّا ولى الليل وأدبر، واكتسحت الشمس الوضاء بأشعتها حجب الظلام، وبَّت خيوطها الذهبية على الوهاد والسهول، والتفت عبده الشمس إلى معبودهم، تظاهر إبراهيم بالإقرار بربوبيتها أتباعاً لقواعد الجدل والمناظره ولكن أفول الشمس وغروبها أثبت هو الآخر بطلان عبادتها أيضاً بعد أن أثبت خضوعها للنظام الكوني العام، فتبرأ «الخليل» عليه السلام من عبادتها بصراحه.

ص: ١٤٥

١- . الأنعام: ٧٧.

وعندئذ أعرض عليه السلام عن تلك الطوائف الثلاث وقال: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (١).

لقد كان المخاطبون في كلام إبراهيم عليه السلام هم الذين يعتقدون بأن تدبير الكائنات الأرضية، ومنها الإنسان قد أُنيطت إلى الأجرام السماوية وفوّضت إليها!!

وهذا الكلام يفيد أنّ الخليل عليه السلام لم يقصد المطالب الثلاثة التاليه:

١. إثبات الصانع (الخالق).

٢. توحيد الذات وأنه واحد غير متعدد.

٣. التوحيد في الخالقيه، وأنه لا خالق سواه.

بل كان تركيزه عليه السلام على التوحيد في «الربوبية» و«التدبير» وإداره الكون، وأنه لا مدبّر ولا مربى للموجودات الأرضية إلّا الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فإنه عليه السلام فور إبطاله لربوبية الأجرام السماوية قال: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...» وهو يعنى أنّ خالق السماوات والأرض هو نفسه مدبّرها وربّها، وأنه لم يفوّض أى شىء من تدبير الكون - لا كلّها ولا بعضه - إلى الأجرام السماوية، فتكون النتيجة: أنّ الخالق والمدبّر واحد، لا أنّ الخالق هو الله والمدبّر شىء آخر.

ولقد وقع المفسّرون، والباحثون في معارف القرآن في خطأ، والتباس عند التعرّض لمنطق «إبراهيم» عليه السلام وشرح حوارهِ هذا، حيث تصوّروا أنّ الخليل عليه السلام قصد نفى «ألوهية» هذه الأجرام يعنى الألوهية التي يعتقد بها جميع شعوب الأرض ويكون هذا الكون الصاحب آية وجوده.

بينما تصوّر فريق آخر أنّ «إبراهيم» كان يقصد نفى «الخالقيه» عن هذه

ص: ١٤٦

١- . الأنعام: ٧٩.

الأجرام السماويه، لأنّه من الممكن أن يخلق إله العالم كائناً كامل الوجود والصفات ثم يفوض إليه مقام الخالقيه، في حين أنّ هذين التفسيرين غير صحيحين، بل كان هدف الخليل عليه السلام - بعد التسليم بوجود إله واجب الوجود، وتوحيده، ووحدانيه الخالق - البحث في قسم آخر من التوحيد، ألا- وهو التوحيد «الربوبي»، وبالتالي إثبات أنّ خالق الكون هو نفسه مدبر ذلك الكون أيضاً، وعبارته «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ...» أفضل شاهد على هذا النوع من التفسير.

من هنا كان التركيز الأكبر في بحث إبراهيم على مسأله «الربّ» و «الربوبيه» في صعيد الأجرام كالقمر والزهرة والشمس. (1)

هذا واستكمالاً للبحث الحاضر لابدّ من توضيح برهان النبي «إبراهيم» عليه السلام.

لقد استدلل «إبراهيم» في جميع المراحل الثلاث بأفول هذه الأجرام على أنّها لا تليق بتدبير الظواهر الأرضيه وبخاصّه الإنسان.

وهنا ينطرح سؤال: لماذا يُعتبر أفول هذه الأجرام شاهداً على عدم مدبريتها؟

إنّ هذا الموضوع يمكن بيانه بصور مختلفه، كلّ واحده منها تناسب طائفه معينه من الناس.

إنّ تفسير منطلق «الخليل» عليه السلام وأسلوبه في إبطال مدبريه الأجرام السماويه وربوبيتها بأشكال وصور مختلفه أفضل شاهد على أنّ للقرآن الكريم أبعاداً مختلفه، وأنّ كل بُعدٍ منها يناسب طائفه من الناس.

ص: ١٤٧

١- . لقد بينا مراتب التوحيد من وجهه نظر القرآن الكريم في موسوعتنا مفاهيم القرآن، الجزء الأول: «معالم التوحيد في القرآن الكريم» وأثبتنا هناك أنّ التوحيد في الذات غير التوحيد في الخالقيه، وأنّ هذين النوعين من التوحيد غير التوحيد في الربوبيه، وهي غير المراتب الأخرى للتوحيد، فراجع الكتاب المذكور تقف على هذه الحقيقه.

وإليك في ما يلي التفاسير المختلفه لهذا الاستدلال:

أ. إنّ الهدف من اتّخاذ الرّب هو أن يستطيع الكائن الضعيف في ظلّ قدره ذلك الرب من الوصول إلى مرحله الكمال، ولا بدّ أن يكون لمثل هذا الربّ ارتباطاً قريباً مع الموجودات المراد تربيتها بحيث يكون واقفاً على أحوالها، غير منفصل عنها، ولا غريب عليها.

ولكن كيف يستطيع الكائن الذي يغيب ساعات كثيره عن الفرد المحتاج إليه في التربيه ويُحرم ذلك الفرد من فيضه وبركته، أن يكون ربّاً للموجودات الأرضيه ومدبراً لها؟!

من هنا يكون أقول النجم، وغروبه، الذي هو علامه غربته وانقطاعه عن الموجودات الأرضيه خير شاهد على أنّ للموجودات الأرضيه ربّاً آخر، منزهاً عن تلك النقيصه، بعيداً عن ذلك العيب.

ب. إنّ طلوع الأجرام السماويه وغروبها وحركتها المنظمه دليل على أنّها جميعاً خاضعه لمشيئه فوقها، وأنّها في قبضه القوانين الحاكمه عليها، والخضوع لقوانين منظمه هو بذاته دليل على ضعف تلك الموجودات، ومثل هذه الموجودات الضعيفه لا يمكن أن تكون حاكمه على الكون، أو شيء من الظواهر الطبيعيه، وأمّا استفاده الموجودات الأرضيه من نور تلك الأجرام وضوئها فلا يدلّ أبداً على ربوبيه تلك الأجرام، بل هو دليل على أنّ تلك الأجرام تؤدّي وظيفه تجاه الموجودات الأرضيه بأمر من موجود أعلى.

وبعباره أخرى: إنّ هذا الأمر دليل على التناسق الكوني، وارتباط الكائنات بعضها ببعض.

ج. ما هو الهدف من حركه هذه الموجودات؟ هل الهدف هو أن تسير من النقص إلى الكمال أو بالعكس؟

وحيث إنّ الصورة الثانية غير معقوله، وعلى فرض تصوّرها لا- معنى لأنّ يسير المرّبي والمدبّر للكون من مرحله الكمال إلى النقص والفناء، يبقى الفرض الأوّل وهو بنفسه دليل على وجود ربّ آخر يوصل هذه الموجودات القويّه في ظاهرها من مرحله إلى مرحله، هو - في الحقيقة - الربّ الذي يبلغ بهذه الموجودات وما دونها إلى الكمال.

طريقه الأنبياء في الحوار والجدال

لقد أسلفنا في ما سبق أنّ «إبراهيم» - بعد خروجه من الغار - واجه صنفين منحرفين عن جادّه التوحيد، هما:

١. الوثنيون.

٢. عبّده الأجرام السماويه.

ولقد سمعنا حوار «إبراهيم» عليه السلام وجداله مع الفريق الثاني، وعلينا الآن أن نعرف كيف حاور الوثنيين وعبده الأصنام؟

إنّ تاريخ الأنبياء والرسول يكشف لنا عن أنّهم كانوا يبدأون دعوتهم من إنذار الأقربين ثمّ يوسّعون دائره الدعوه لتشمل عامّه الناس كما فعل رسول الإسلام في بدء دعوته حيث بدأ بإنذار عشيرته الأقربين لمّا أمره الله تعالى بذلك، إذ قال:

«وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (١). وبذلك أسس دعوته على إصلاح أقربائه وعشيرته.

ولقد سلك «الخليل» عليه السلام نفس هذا المسلك أيضاً، إذ بدأ عمله الإصلاحى بإصلاح أقربائه.

ص: ١٤٩

١- الشعراء: ٢١٤.

ولقد كان لآزر بين قومه مكانه اجتماعيه عليا فهو - مضافاً إلى معلوماته فى الصنائه وغيرها - كان منجماً ماهراً، وذا كلمه مسموعه ورأى مقبول فى بلاط «نمرود» فى كل ما يخبر به من أخبار النجوم، وكل ما يستخرجه وما يستنبطه من الأمور الفلكيه ويذكره من تكهنات.

لقد أدرك «إبراهيم» أنه بجلبه لآزار (عمه) يستطيع أن يسيطر على أوساط الوثنيين، ويجردهم من ركيزه هامه من كبريات ركائزهم، ولهذا بادر إلى منع عمه آزر - وبأفضل الأساليب - عن عباده الأوثان، بيد أن بعض الأسباب أوجبت أن لا يقبل «آزر» بنصائح «إبراهيم» عليه السلام، والمهم لنا فى هذا المجال هو أن نتعرف على كيفيه دعوه الخليل وعلى أسلوب حوارهم مع «آزر».

إن الإمعان فى الآيات التى تنقل حوار «إبراهيم» عليه السلام مع «آزر» توضح لنا أدب الأنبياء، وأسلوبهم الرائع فى الدعوه والإرشاد، ولتقف عند حوار إبراهيم ودعوته، ليتضح لنا ذلك.

يقول القرآن الكريم عن ذلك: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا» .

فأجابه «آزر» قائلاً: «أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنِ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا» .

ولكن «إبراهيم» بسعه صدره وعظمه روحه تجاهل رد «آزر» العنيف ذلك وأجابه قائلاً: «سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي» .(١)

ص: ١٥٠

١- . مريم: ٤٢-٤٧.

وأى جواب أفضل من هذا البيان، وأى لغة ألين من هذه اللغة وأحب إلى القلب، وأكثر رحمه ولطفاً؟!

هل كان آزر والد إبراهيم؟

إن الظاهر من الآيات المذكورة وكذا الآية (١١٥) من سورة «التوبة» والآية (١٤) من سورة الممتحنة هو: أن «آزر» كان والد إبراهيم عليه السلام.

وقد كان إبراهيم يسميه أباً في حين كان «آزر» وثنياً، فكيف يصح ذلك وقد اتفقت كلمة علماء الشيعة عامه على كون والد النبي الكريم «محمد» صلى الله عليه وآله وسلم وجميع الأنبياء مؤمنين بالله سبحانه موحدين إياه تعالى.

ولقد قال الشيخ المفيد رضوان الله عليه في كتابه القيم «أوائل المقالات»:

واتفقت الإمامية على أن آباء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لدن آدم إلى عبدالله بن عبدالمطلب مؤمنون بالله عز وجل موحدون له. واحتجوا في ذلك بالقرآن والأخبار. وأجمعوا على أن عمه أبا طالب رحمه الله مات مؤمناً، وأن آمنه بنت وهب كانت على التوحيد، وأنها تحشر في جملة المؤمنين. (١)

وفي هذه الصورة ما هو الموقف من ظواهر الآيات المذكورة التي تفيد أبوه «آزر» لإبراهيم، وما هو الحل الصحيح لهذه المشكلة؟؟

يذهب أكثر المفسرين إلى أن لفظه «الأب» وإن كانت تستعمل عادة في لغة العرب في «الوالد»، إلا أن مورد استعمالها لا ينحصر في ذلك.

بل ربما استعملت - في لغة العرب وكذا في مصطلح القرآن الكريم - في:

(العم) أيضاً. كما وقع ذلك في الآية التالية التي استعملت فيها لفظه الأب بمعنى العم إذ يقول سبحانه:

ص: ١٥١

١- . أوائل المقالات: ٤٥، باب القول في آباء رسول الله صلى الله عليه وآله وأمه وعمه أبي طالب.

«إِذْ قَالَ لِيُنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»
(١).

فإنّ ممّا لا ريب فيه أنّ «إسماعيل» كان عمّاً ليعقوب لا والداً له، فيعقوب هو ابن إسحاق، وإسحاق هو أخو إسماعيل. ومع ذلك سمّى أولادُ يعقوب «إسماعيل» الذي كان (عمّهم) أباً.

ومع وجود هذين الاستعمالين (استعمال الأب في الوالد تاره، وفي العمّ تاره أخرى) يصبح احتمال كون المراد بالأب في الآيات المرتبطة بهدايه «آزر» هو العمّ، أمراً وارداً، وبخاصّه إذا ضَمَمْنَا إلى ذلك قرينه قويّه في المقام وهي: إجماع العلماء العذّي نقله المفيد رحمه الله على طهاره آباء الأنبياء وأجدادهم من رجس الشرك والوثنيه.

ولعلّ السبب في تسميه النبيّ «إبراهيم» عمّه بالأب هو أنّه كان الكافل لإبراهيم ردحاً من الزمن، ومن هنا كان «إبراهيم» ينظر إليه بنظر الأب، وينزله منزله الوالد.

القرآن ينفى أبوه «آزر» لإبراهيم عليه السلام

ولكى نعرف رأى القرآن الكريم في مسأله العلاقه بين «آزر» و «إبراهيم» عليه السلام نلقت نظر القارئ الكريم إلى توضيح آيتين:

١. لقد أشرقت منطقه الحجاز بنور الإيمان والإسلام بفضل جهود النبيّ «محمّد» صلى الله عليه وآله وسلم وتضحياته الكبرى، وآمن أكثر الناس به عن رغبه ورضا، وعلموا بأنّ عاقبه الشرك، وعباده الأوثان والأصنام هو الجحيم والعذاب الأليم.

إلّا أنّهم رغم ابتهاجهم وسرورهم بما وُفقوا له من إيمان وهدايه، كانت

ص: ١٥٢

ذكريات آبائهم وأمهاتهم الذين مضوا على الشرك والوثنيه تزعج خواطرهم وتثير شفقتهم، وأسفهم.

وكان سماع الآيات التي تشرح أحوال المشركين في يوم القيامة يحزنهم ويؤلمهم، وبغية إزاله هذا الألم الروحي المجهد طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يستغفر لأبائهم وأمهاتهم كما فعل «إبراهيم» في شأن «آزر» فنزلت الآية في مقام الرد على طلبهم ذاك، إذ قال سبحانه:

«مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاءَ فُلْمَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ». (١)

إنَّ ثمة قرائن كثيرة تدلُّ على أنَّ محادثه النبي «إبراهيم» وحواره مع «آزر» ووعدته بطلب المغفرة له من الله سبحانه قد انتهى إلى قطع العلاقات، والتبري منه في عهد فتوّه «إبراهيم»، وشبابه، أي عندما كان «إبراهيم» لا يزال في مسقط رأسه «بابل» ولم يتوجه بعد إلى فلسطين ومصر وأرض الحجاز.

إنَّنا نستنتج من هذه الآية أنَّ «إبراهيم» قطع علاقته مع «آزر» - في أيام شبابه - بعدما أصرَّ «آزر» على كفره، ووثنيته، ولم يعد يذكره إلى آخر حياته.

٢. لقد دعا «إبراهيم» عليه السلام في أخريات حياته - أي في عهد شيخوخته - وبعد أن فرغ من تنفيذ مهمته الكبرى (تعمير الكعبة) وإسكان ذريته في أرض مكّه القاحله، دعا وبكل إخلاص وصدق لجماعه، منهم والداه، وطلب من الله إجابته دعائه، إذ قال في حين الدعاء:

«رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ». (٢)

ص: ١٥٣

١- . التوبه: ١١٣ و ١١٤.

٢- . إبراهيم: ٤١.

إن هذه الآيه تفيد بصراحه أن الدعاء المذكور كان بعد الفراغ من بناء الكعبه المعظمه، وتشيدها، يوم كان إبراهيم يمر بفترة الشيخوخه، فإذا كان مقصوده من الوالد فى الدعاء المذكور هو «آزر» وإنه المراد له المغفره الإلهيه كان معنى ذلك أن «إبراهيم» كان لم يزل على صله ب «آزر» حتى أنه كان يستغفر له فى حين أن الآيه التى نزلت ردأ على طلب المشركين أوضحت بأن «إبراهيم» كان قد قطع علاقته ب «آزر» فى أيام شبابه، وتبرأ منه، ولا ينسجم الاستغفار مع قطع العلاقات. إن ضم هاتين الآيتين بعضهما إلى بعض يكشف عن أن الذى تبرأ منه «إبراهيم» فى أيام شبابه، وقطع علاقته معه، واتخذة عدواً، هو غير الشخص الذى بقى يذكره، ويستغفر له إلى أخريات حياته. (١)

إبراهيم محطم الأصنام

لقد حل موسم العيد، وخرج أهل بابل المغفلين الجهله إلى الصحراء للاستجمام، ولقضاء فتره العيد، وإجراء مراسيمه، وقد أخلوا المدينه.

ولقد كانت سوابق «إبراهيم»، وتحامله على الأصنام، واستهزاؤه بها قد أوجدت قلقاً وشكاً لدى أهل بابل، ولهذا طلبوا منه - وهم الذين يساورهم القلق من موقفه تجاه أصنامهم - الخروج معهم إلى الصحراء، والمشاركه فى تلك المراسيم، ولكن اقتراحهم هذا بل إصرارهم واجه رفض إبراهيم الذى رد على طلبهم بحججه المرض إذ قال: «إِنِّي سَيِّئٌ» وهكذا لم يشترك فى عيدهم، وخروجهم وبقى فى المدينه.

حقاً لقد كان ذلك اليوم يوم ابتهاج وفرح للموحد والمُشرك، وأما للمشركين فقد كان عيداً قديماً عريقاً يخرجون للاحتفال به، وإقامه مراسيمه وتجديد ما

ص: ١٥٤

١- . لاحظ: مجمع البيان: ٦/٨٦؛ والميزان فى تفسير القرآن: ٧/١٧٠.

كان عليه الآباء والأسلاف إلى الصحراء حيث السفوح الخضراء والمزارع الجميله.

وكان عيداً لإبراهيم بطل التوحيد كذلك، عيداً لم يسبق له مثيل، عيداً طال انتظاره، وأفرح حضوره وحلوله، فهذا هو إبراهيم يجد المدينة فارغه من الأغيار، والفرصة مناسبة للانقضاض على مظاهر الشرك والوثنيه، وحدث هذا فعلاً.

فعندما خرج آخر فريق من أهل بابل من المدينة، إغتتم «إبراهيم» تلك الفرصة ودخل وهو ممتلئ إيماناً وبقيناً بالله في معبدهم حيث الأصنام والأوثان المنحوتة الخاويه، وأمامها الأطمعهُ الكثيره التي أحضرها الوثنيون هناك بقصد التبرك بها، وقد لفتت هذه الأطمعه نظر «الخليل» عليه السلام، فأخذ بيده منها كسرهِ خبز، وقدمها مستهزئاً إلى تلك الأصنام قائلاً: لماذا لا تأكلون من هذه الأطمعه؟

ومن المعلوم أنّ معبودات المشركين الجوفاء هذه لم تكن قادره على فعل أى شىءٍ أو حركهٍ مطلقاً، فكيف بالأكل؟!!

لقد كانت تخيم على جوّ ذلك المعبد الكبير سحابه من الصمت القاتل ولكنها سرعان ما تبددت إثر أصوات المعول الذى أخذ «إبراهيم» يهوى به على رؤوس وأيدي تلك التماثيل الجامده الواقفه بلا حراك.

لقد حطّم «الخليل» عليه السلام جميع الأصنام وتركها ركاماً من الأعواد المهشمه، والأحجار والحديد المتحطّم، وإذا بتلك الأصنام المنصوبه فى أطراف ذلك الهيكل قد تحوّلت إلى تله فى وسط المعبد.

غير أنّ «إبراهيم» ترك الصنم الأ-كبر من دون أن يمسه بسوء، ووضع المعول على عاتقه، وهو يريد بذلك أن يظهر للقوم بأنّ مُحطّم تلك الأصنام هو ذلك الصنم الكبير، إلّا أنّ هدفه الحقيقى من وراء ذلك كان أمراً آخرأ سنبينه فى ما بعد.

لقد كان «إبراهيم» عليه السلام يعلم بأنّ المشركين بعد عودتهم من الصحراء، ومن مراسم عيدهم سيزورون المعبد، وسوف يبحثون عن علّة هذه الحادثة، وأنّهم بالتالى سوف يرون أنّ وراء هذه الحادثة واقعاً آخر، إذ ليس من المعقول أن يكون صاحب تلك الضربات القاضيه هو هذا الصنم الكبير الذى لا يقدر أساساً على فعل شيء على الإطلاق.

وفى هذه الحاله سوف يستطيع «إبراهيم» عليه السلام أن يستفيد من هذه الفرصه فى عمله التبليغى ويستغل اعتراضهم بأنّ هذا الصنم الكبير لا يقدر على شيء أبداً، لتوجيه السؤال التالى إليهم: إذن كيف تعبدونه؟!!

فمنذ أن أخذت الشمس تدنو إلى المغيب ويقترب موعده غروبها، وتتقلص أشعتها وتنكمش من الرّواى والسهول، أخذ الناس يؤوبون إلى المدينه أفواجاً أفواجاً.

وعندما آن موعده العباده، وتوجّهوا إلى حيث أصنامهم، واجهوا منظراً فظيلاً وأمرأ عجيباً لم يكونوا ليتوقّعونه!!

لقد كان المشهد يحكى عن ذلّه الآلهه وحقارتها، وهو أمرٌ لفت نظر الجميع شيباً وشباناً، كباراً وصغاراً.

ولقد كانت تلك اللحظه لحظه ثقيله الوطأه على الجميع بلا استثناء.

فقد خيّم سكوتٌ قاتلٌ مصحوب بحق ومضض على فضاء ذلك المعبد المنكود الحظ.

إلا أنّ أحدهم خرق ذلك الصمت الرهيب وقال: من الذى ارتكب هذه الجريمه، ومن فعل هذا بالهتنا؟!

ولقد كانت آراء «إبراهيم» ومواقفه السلبيه السابقه ضد الأصنام وتحامله

الصريح عليها تبعثهم على اليقين بأن «إبراهيم» وليس سواه هو الذى صنع ما صنع بآلهتهم وأصنامهم.

ولأجل ذلك تشكّلت فوراً محكمه يرأسها «نمرود» نفسه، فدعا نمرود أم إبراهيم فقال لها: ما حملك على أن كنتى أمر هذا الغلام حتى فعل بآلهتنا ما فعل؟

ولقد أجبت أم إبراهيم على هذا السؤال بقولها: أيها الملك (فعلت هذا) نظراً منى لرعيّتك، قال (نمرود): وكيف ذلك؟ قالت: رأيتك تقتل أولاد رعيّتك فكان يذهب النسل، فقلت: إن كان هذا الذى يطلبه دفعته إليه ليقته ويكف عن قتل أولاد الناس، وإن لم يكن ذلك فبقى لنا ولدنا، وقد ظفرت به فشأنك، فكف عن أولاد الناس، فصوّب رأيها.

ثم جاء دور مساءله إبراهيم عليه السلام فسأله قائلاً: «أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ» (١)، فقال إبراهيم: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» (٢).

وقد كان «إبراهيم» عليه السلام يهدف من هذه الإجابة المصحوبه بالسخرية والازدراء هدفاً آخر، وهو أنّ «إبراهيم» عليه السلام كان على يقين بأنهم سيقولون فى معرض الإجابة عن كلامه هذا: إنك تعلم يا إبراهيم أنّ هذه الأصنام لا تقدر على النطق، وفى هذه الصورة يستطيع «إبراهيم» أن يلفت نظر السلطات التى تحاكمه إلى نقطه أساسيه.

وقد حدث فعلاً ما كان يتوقّعه «إبراهيم» عليه السلام لما قالوا له وقد نكسوا على رؤوسهم: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ» فقال إبراهيم ردّاً على كلامهم هذا الذى كان يعكس حقاره تلك الأصنام والأوثان وتفاهه شأنها: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا

ص: ١٥٧

١- . الأنبياء: ٦٢.

٢- . الأنبياء: ٦٣.

يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ. (١)

إِلَّا أَنَّ تِلْكَ الزَّمْرَةَ الْمَعَانِدَةَ الَّتِي رَانَ عَلَى قُلُوبِهَا الْجَهْلُ وَالتَّقْلِيدُ الْأَعْمَى لَمْ يَجِدُوا جَوَابًا لِأِبْرَاهِيمَ الَّذِي أَفْحَمَهُمْ بِمَنْطِقِهِ الرَّصِينِ
إِلَّا أَنْ يَحْكُمُوا بِإِعْدَامِهِ حَرْقًا، فَأَوْقَدُوا نَارًا كَبِيرَةً وَأَلْقَوْا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا إِلَّا أَنَّ الْعَنَاءَ الْإِلَهِيَّ شَمَلَتْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَحَفِظَتْهُ مِنْ أَدَى تِلْكَ النَّارِ، وَحَوَّلَتْ ذَلِكَ الْجَحِيمَ الَّذِي أَوْجَدَهُ الْبَشَرَ، إِلَى جُنَيْنِهِ خَضِرَاءَ نَضْرَهُ، إِذْ قَالَ: «يَا نَارُ كُونِي
بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ». (٢)

العبر القيمة في هذه القصة

مع أنَّ اليهود يعتبرون أنفسهم في مقدِّمة الموحِّدين، لم ترد هذه القصة في توراتهم الحاضرة رغم كونها معروفة بينهم، بل تفرد
القرآن الكريم من بين الكتب السماوية بذكرها لأهميتها.

ص: ١٥٨

١- . الأنبياء: ٦٦-٦٧.

٢- . وقد ذكرت تفاصيل هذه القصة في الآيات ٥١ إلى ٧٠ من سورة الأنبياء وها نحن ندرج كل هذه الآيات هنا: وَلَقَدْ آتَيْنَا
إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَحَيْدَنَا أَبَاءَنَا لَهَا
عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جَذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا
لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأَتُوا بِهِ
عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ
* فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ. وللقوف على تفاصيل
وخصوصيات ولاده إبراهيم عليه السَّلام وتحطيمه للأصنام راجع: الكامل لابن الأثير: ١/٩٤-١٠٠؛ وبحار الأنوار: ١٢/١٤-٥٥.

من هنا فإننا نذكر بعض النقاط المفيدة، والدروس المهمّة في هذه القصة التي يهدف القرآن من ذكرها وذكر أمثالها من قصص الأنبياء والرسل.

١. إن هذه القصة خير شاهد على شجاعه «إبراهيم الخليل» عليه السلام وبطولته الفائقة.

فعزم إبراهيم على تحطيم الأصنام، ومحق وهدم كل مظاهر الشرك والوثنية المقيته لم يكن أمراً خافياً على النمروديين؛ لأنه عليه السلام كان قد أظهر شجبه لها، وأعلن عن استنكاره لعبادتها وتقديسها من خلال كلماته القادحة فيها، واستهزائه بها، فقد كان عليه السلام يقول لهم بكل صراحة بأنه سيتخذ من تلك الأصنام موقفاً ما إذا لم يتركوا عبادتها وتقديسها، فقد قال لهم يوم أرادوا أن يخرجوا إلى الصحراء لمراسيم العيد:

«وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» (١).

ولقد كان موقف الخليل عليه السلام ينم عن شجاعه كبرى فقد قال الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد:

«ومنها (أى ومما تحلى به النبي إبراهيم) الشجاعه وقد كشفت (قضية) الأصنام عنه...، ومقاومه الرجل الواحد ألوفاً من أعداء الله عزوجل تمام الشجاعه» (٢).

٢ - إن ضربات «إبراهيم» القاضيه وإن كانت في ظاهرها حرباً مسلحة، وعنيفه ضد الأصنام، إلّا أنّ حقيقه هذه النهضه - كما يُستفاد من ردود «إبراهيم» على أسئلة الذين حاكموه، واستجوبوه - كانت ذات صبغه تبليغيه دعائيه.

فإن «إبراهيم» لم يجد وسيله لإيقاظ عقول قومه الغافيه، وتنبيه فطرتهم الغافله، إلّا بتحطيم جميع الأصنام، وترك كبيرها وقد علق القدم على عاتقه ليدفع

ص: ١٥٩

١- . الأنبياء: ٥٧.

٢- . بحار الأنوار: ١٢/٦٧.

بقومه إلى التفكير في القضية من أساسها، وحيث إنَّ العمل لم يكن أكثر من مسرحيه، إذ لا يمكن أن يصدّق أحدهم بأنَّ تلك الضربات القاضيه كانت من صنع ذلك الصنم الكبير وفعله، حينئذٍ يستطيع إبراهيم أن يستثمر فعله هذا في دعوته، ويقول إنَّ هذا الصنم الكبير لا يقدر - وباعترافكم - على فعل أيّ شيء مهمّا كان صغيراً وحقيقاً فكيف تعبدونه إذن؟!!

ولقد استفاد «إبراهيم» من هذه العمليه فعلاً، وتوصّل إلى النتيجة التي كان يتوخّاها، فقد ثابوا إلى نفوسهم بعد أن سمعوا كلمات «إبراهيم» عليه السلام، واستيقظت ضمائرهم وعقولهم ووصفوا أنفسهم بالظلم بعد أن تبين لهم الحقّ وبطل ما كانوا يعبدون، إذ قال تعالى: «فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» (١) وهذا بنفسه يفيد بأنَّ سلاح الأنبياء القاطع في بدء عملهم الرسالي كان هو: سلاح المنطق والاستدلال ليس إلماً، غايه الأمر أنّه كان يتعامل في كلّ دوره بما يناسبها من الوسائل، وإلّا فما قيمه تحطيم عدد من الأصنام الخشبيه بالقياس إلى مخاطره النبيّ «إبراهيم الخليل» بنفسه وحياته، وبالقياس إلى الأخطار التي كانت تتوجّه إليه نتيجة هذا العمل الصارخ.

إذن فلا بدّ أن يكون وراء هذه العمليه الخطيره هدفٌ كبيرٌ وخدمه عظمى تستحق المخاطره بالنفس، ويستحق المرء امتداح العقل له إذا عرّض حياته للخطر في سبيلها.

٣. لقد كان إبراهيم يعلم بأنَّ هذا العمل سيؤدّي بحياته، وسيكون فيه حتفه، فكانت القاعده تقتضى أن يسيطر عليه قلقٌ واضطرابٌ شديداً، فيتوارى عن أعين الناس، أو يترك المزاح، والسخرية بالأصنام على الأقل، ولكنّه كان على العكس من ذلك رابط الجأش، مطمئن النفس، ثابت القدم، فهو عندما دخل في المعبد الذي

ص: ١٦٠

كانت فيه الأصنامُ تقدّم بقطعه من الخبز إلى الأصنام ودعاها ساخرًا بها، إلى الأكل، وثم ترك الأصنام بعد اليأس منها تلاً من الخشب المهشم، واعتبر هذا الأمر مسأله عاديه لا تستأهل الوجّل والخوف، وكأنّه لم يفعل ما يستتبع الموت المحقّق ويستوجب الإعدام المحتّم.

فهو عندما يأخذ مكانه أمام هيئه القضاة يقول معرّضاً بالأصنام: فعله كبير الأصنام فاسألوه، ولا شك أنّ هذا التعريض والسخرية بالأصنام إنّما هو موقف من لا- يوجس خيفه، ولا- يشعر بوجيل من عمله، بل هو فعل من قد هيا نفسه لكل الأخطار المحتمله، واستعدّ لكل النتائج مهما كانت خطيره.

بل الأعجب من هذا كلّه دراسه وضع «إبراهيم» نفسه حينما كان في المنجنيق وقد تيّقن أنّه سيكون وسط ألسنه اللهب بعد هنيهة، وتلتهمه النار المستعره تلك النار التي جمع أهل «بابل» لها الحطب الكثير تقرباً إلى آلهتهم، وكانوا يعتبرون ذلك العمل واجباً مقدّساً... تلك النار التي كان لهيبها من القوه بحيث ما كانت الطيور تستطيع من التحليق على مقربه منها.

في هذه اللحظه الخطيره الحساسه جاءه جبرئيل وأعلن عن استعداداه لإنقاذه وتخليصه من تلك المهلكه الرهيبه قائلاً له: هل لك إلى من حاجه؟

فقال «إبراهيم»: أمّا إليك فلا، وأمّا إلى ربّ العالمين فنعم. (١)

إنّ هذا الجواب يجسّد إيمان «إبراهيم» العظيم، وروحه الكبرى.

لقد كان «نمرود» الّذى جلس يراقب تلك النار من عدّه فراسخ، ينتظر بفارغ الصبر لحظه الانتقام، وكان يحب أن يرى كيف تلتهم ألسنه النار «إبراهيم». فما أربّه تلك اللحظات!

لقد وضع إبراهيم عليه السلام في المنجنيق، وبهزّه واجده ألقى في وسط النار غير أنّ

ص: ١٤١

١- . لاحظ: عيون أخبار الرضا: ٢/٦٠؛ وأمالى الصدوق: ٥٤٢؛ وبحار الأنوار: ١٢/٣٥.

مشيئه الله، وإرادته النافذه تدخلت فوراً لتخلص خليل الله ونبيه العظيم، فحوّلت تلك النار المحرقه التي أوقدتها يد البشر إلى روضه خضراء أدهشت الجميع حتى أنّ نمرود عندما أشرف على النار ورأى ذلك، التفت إلى «آزر» وقال - من دون إرادته :- «يا آزر ما أكرم إبراهيم على ربه».(١) إنّ انقلاب تلك النار الهائله إلى روضه خضراء لإبراهيم قد تمّ بأمر الله المسبب للأسباب والمعطل لها متى شاء، المعطى لها آثارها، والسالب عنها ذلك، متى أراد.

أجل إنّ الله الّذى منح الحرارة للنار والإضاءة للقمر، والإشعاع للشمس لقادر على سلب هذه الآثار وانتزاعها من تلك الاشياء وتجريدها، ولهذا صحّ وصفه بمسبب الاسباب، ومعطلها.

غير أنّ جميع هذه الحوادث الخارقه والآيات الباهره لم تستطع أن توفر لإبراهيم الحريه الكامله فى الدعوه والتبليغ، فقد قرّرت السلطه الحاكمه وبعد مشاورات ومداومات إبعاد «إبراهيم» ونفيه، وقد فتح هذا الأمرُ صفحه جديده فى حياه ذلك النبيّ العظيم، وتهيأت بذلك أسباب رحلته إلى بلاد الشام وفلسطين ومصر وأرض الحجاز.

هجره الخليل عليه السلام

لقد حكمت محكمه «بابل» على «إبراهيم» بالنفى والإبعاد من وطنه، ولهذا اضطرّ عليه السلام أن يغادر مسقط رأسه، ويتوجّه صوب فلسطين ومصر، وهناك واجه استقبال العمالقه الذين كانوا يحكمون تلك البقاع وترحيبهم الحار به، ونعم بهداياهم الّتى كان من جملتها جاريه تدعى «هاجر».

ص: ١٤٢

١- . لاحظ: تفسير البرهان: ٣/٨٢٤ برقم ٧١٤١.

وكانت زوجته «ساره» لم تُرزق بولد إلى ذلك الحين، فحرّكت هذه الحادثة عواطفها ومشاعرها تجاه زوجها الكريم إبراهيم، ولذلك حثته على الزواج من تلك الجارية علّه يُرزق منها بولد، تقرّ به عينه وتزدهر به حياته.

فكان ذلك، وولدت «هاجر» لإبراهيم ولداً ذكراً سُمّي بإسماعيل، ثم بعد مضي مده من الزمان حبلت ساره هي أيضاً وولدت - بفضل الله ولطفه - ولداً سُمّي بإسحاق. (١)

وبعد مدّة من الزمان أمر الله تعالى «إبراهيم» بأن يذهب بإسماعيل وأمه «هاجر» إلى جنوب الشام «أى أرض مكّه» ويُسكنهما هناك في واد غير معروف إلى ذلك الحين... واد لم يسكنه أحدٌ بل كانت تنزل فيه القوافل التجارية الذاهبه من الشام إلى اليمن، والعائده منها إلى الشام، بعض الوقت ثم ترحل سريعاً، وأمّا في بقيه أوقات السنه فكانت كغيرها من أراضى الحجاز صحراء شديده الحراره، خاليه من السكان.

لقد كانت الإقامة في مثل تلك الصحراء الموحشه عمليه لا- تطاق بالنسبه لامرأه عاشت في ديار العمالقه وألفت حياتهم وحضارتهم، وترفهم وبذخهم.

فالحراره اللاهبه والرياح الحارقه في تلك الصحراء كانت تجسّد شبح الموت الرهيب أمام أبصار المقيمين.

وإبراهيم نفسه قد انتابته كذلك حاله من التفكير والدهشه لهذا الأمر، ولهذا فإنّه فيما كان عازماً على ترك زوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» في ذلك الواد قال لزوجته «هاجر» وعيناه تدمعان: «إِنَّ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أَضَعُكُمْ فِي هَذَا الْمَكَانِ هُوَ الَّذِي يَكْفِيكُمْ».

ثم قال في ضراعه خاصه: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ

ص: ١٦٣

١- . لاحظ: بحار الأنوار: ١٢/١١٨ ح ٥٨.

مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» (١).

وعندما انحدر من ذلك الجانب من الجبل التفت إليهما وقال داعياً:

«رَبَّنَا إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ دُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (٢). إن هذه السفرة والهجرة وإن كانت في ظاهرها أمراً صعباً، وعمله لا تطاق، إلا أن نتائجها الكبرى - التي ظهرت فيما بعد - أوضحت وبيّنت أهميه هذا العمل، لأنّ بناء الكعبة، وتأسيس تلك القاعده العظمى لأهل التوحيد، ورفع رايه التوحيد في تلك الربوع، وخلق نواه نهضه، دينه عميقه، انبثقت على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشعت من تلك الديار إلى أنحاء العالم، كل ذلك كان من ثمار تلك الهجره.

كيف ظهرت عين زمزم؟

لقد غادر «إبراهيم» عليه السلام أرض مكّه تاركاً زوجته وولده «إسماعيل» بعيون دامعه، وقلب يملأه الرضا بقضاء الله والأمل بلطفه وعنايته.

فلم تمض مدّه إلّا ونفذ ما ترك عندهما من طعام وشراب، وجفّ اللبن في ثدي «هاجر»، وتدهورت أحوال الرضيع «إسماعيل»، وكانت دموع الأم الحزينه تنحدر على حجرها، وهي تشاهد حال وليدها الذي قد أخذ العطش والجوع منه مأخذاً.

فانطلقت من مكانها فجأه تبحث عن الماء حتّى وصلت إلى جبل «الصفا»

ص: ١٦٤

١- البقره: ١٢٦.

٢- إبراهيم: ٣٧.

فرأت من بعيد منظر ماء عند جبل «مروه»، فأسرعت إليه مهروله، غير أن الذي رأته وظنته ماء لم يكن إلا السراب الخادع، فزادها ذلك جزعاً وحرناً على وليدها ممّا جعلها تكرر الذهاب والإياب إلى الصفا والمروه أملاً في أن تجد الماء ولكن بعد هذا السعى المتكرّر، والذهاب والإياب المتعدّد بين الصفا والمروه عادت إلى وليدها قانطه يائسه.

كانت أنفاس الرضيع الظامئ ودقات قلبه الصغير قد تباطأت بل وأشرفت على النهايه، ولم يعد ذلك الرضيع الظامئ قادراً على البكاء ولا حتى على الأنين.

ولكن في مثل هذه اللحظه الحرجه الصعبه استجاب الله دعاء خليه وحببيه «إبراهيم»، إذ لاحظت هاجر الماء الزلال وهو ينبع من تحت أقدام «إسماعيل».

فسرت تلك الأم المضطربه - التي كانت تلاحظ وليدها وهو يقضى اللحظات الأخيره من حياته، وكانت على يقين بأنه سرعان ما يموت عطشاً، وجهداً - سروراً عظيماً بمنظر الماء، وبرق في عينيها بريق الحياه، بعد أن اظلمت الدنيا في عينيها قبل دقائق، فشربت من ذلك الماء العذب، وسقت منه رضيعها الظامئ، وتقشعت بلطف الله وعنايته وبما بعثه من نسيم الرحمه الربانيه كلّ غيوم اليأس، وسحب القنوط التي تلبدت وخيمت على حياتها.

ولقد أذى ظهور هذه العين التي تدعى بززم إلى أن تتجمّع الطيور في تلك المنطقه و تحلق فوق تلك البقعه التي لم يُعهد أن حلقت عليها الطيور، وارتادتها الحمائم، وهذا هو ما دفع بجرهم وهي قبيله كانت تقطن في منطقته بعيدة عن هذه البقعه إلى أن تنبه إلى ظهور ماء فيها لَمّا رأت تساقط الطيور وتحليقها، فأرسلت واردين ليتقصيا لها الخبر ويعرفا حقيقه الأمر، وبعد بحث طويل وكثير، انتهىا إلى

حيث حلت الرحمه الإلهيه، وعندما اقتربا إلى «هاجر» وشاهدا بأُمّ عينيها «امراه» و «طفلاً» عند عين من الماء الزلال الذى لم يعهداه من قبل عادا من فورهما من حيث أتيا، وأخبرا كبار القبيله بما شاهداه، فأخذت الجماعه تلو الجماعه من تلك القبيله الكبيره تفد إلى البقعه المباركه، وتخيم عند تلك العين لتطرد عن «هاجر» وولدها مراره الغربه، ووحشه الوحده، وقد أدى نمو ذلك الوليد المبارك ورشده فى رحاب تلك القبيله إلى أن يتزوج إسماعيل من تلك القبيله، ويصاهرهم، وبذلك يحظى بحمايتهم له، وينعم بدفاعهم ورعايتهم ومحبتهم له. ولهذا ينتمى أبناء «إسماعيل» إلى هذه القبيله من جهه الأم.

تجديد اللقاء

كان إبراهيم عليه السلام بعد أن ترك زوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» فى أرض «مكه» بأمر الله، يتردد على ولده بين فينه وأخرى.

وفى إحدى سفراته ولعلها السفره الأولى دخل «مكه» فلم يجد ولده «إسماعيل» فى بيته، وكان ولده الذى أصبح رجلاً قوياً، قد تزوج بامراه من جرهم.

فسأل «إبراهيم» زوجته قائلاً: أين زوجك؟ فقالت: خرج يتصيد، فقال لها:

هل عندك ضيافه؟ قالت: ليس عندى شىء وما عندى أحد، فقال لها إبراهيم: «إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له: فليغير عتبه بابه».

وذهب إبراهيم عليه السلام منزعجاً من معامله زوجه ابنه «إسماعيل» له وقد قال لها ما قال.

ولما جاء إسماعيل عليه السلام وجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت:

جاءنى شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفّ بشأنه، قال: فماذا قال لك؟ قالت: قال لى أقرئى زوجك السلام وقولى له: فليغير عتبه بابه!!

فطلّقها وتزوج أخرى، لأنّ مثل هذه المرأة لا تصلح أن تكون زوجته وشريكه حياه. (١)

وقد يتساءل أحد: لماذا لم يمكث إبراهيم عليه السلام هناك قليلاً ليرى ولده إسماعيل بعد عودته من الصيد، وقد قطع تلك المسافه الطويله، وكيف سمح لنفسه بأن يعود بعد تلك الرحله الشاقّه من دون أن يحظى برؤيه ابنه العزيز؟!

يجيب أرباب التاريخ على ذلك بأنّ إبراهيم إنّما استعجل في العوده من حيث أتى لوعده أعطاه لزوجته ساره بأن يعود إليها سريعاً، ففعل ذلك حتّى لا يخلف. وهذا من أخلاق الأنبياء.

ثمّ إن «إبراهيم» سافر مره أخرى إلى أرض مكّه بأمر الله، وليبني الكعبه الّتي تهدّمت في طوفان «نوح»، ليوجّه قلوب المؤمنين الموحدين إلى تلك النقطه.

إنّ القرآن الكريم يشهد بأنّ أرض «مكّه» قد تحوّلت إلى مدينه بعد بناء الكعبه قبيل وفاه إبراهيم عليه السلام، لأنّ إبراهيم دعا بُعيد فراغه من بناء الكعبه قائلاً:

«رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» (٢) على حين دعا عند نزوله مع زوجته، وابنه إسماعيل في تلك الأرض قائلاً:

«رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا». (٣)

وهذا يكشف عن أنّ مكّه تحولت إلى مدينه عامره في حياه الخليل عليه السلام، بعد أن كانت صحراء قاحله، وواد غير ذى زرع.

ولقد كان من المُستحسن استكمالاً لهذا البحث أن نشرح هنا كيفيه بناء

ص: ١٦٧

١- لاحظ: بحار الأنوار: ١٢/١١٢ ح ٣٨ نقلًا عن قصص الأنبياء.

٢- إبراهيم: ٣٥.

٣- البقره: ١٢٦.

الكعبة المعظمة، ونستعرض التاريخ الإجمالى لذلك، بيد أننا لكى لا نقصر عن الهدف المرسوم لهذا الكتاب أعرضنا عن ذلك وعمدنا إلى ذكر بعض التفاصيل عن أبرز وأشهر أجداد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى التاريخ.

٢. قِصَّةُ بَنِ كِلَابٍ

إِنَّ أَسْلَافَ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هُمْ عَلَى التَّوَالِي: عَبْدُ اللَّهِ، عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، هَاشِمٌ، عَبْدُ مَنَافٍ، قُصَيٌّ، كِلَابٌ، مِرَّةٌ، كَعْبٌ، لُؤَيٌّ، غَالِبٌ، فَهْرٌ، مَالِكٌ، النَّضْرُ، كِنَانَةٌ، خَزِيمَةٌ، مَدْرِكَةُ، إِيَّاسٌ، مُضَرٌّ، نَزَارٌ، مَعَدٌّ، عَدْنَانٌ. (١)

من المسلم أن نسب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى عدنان هو ما ذكر، فلا خلاف فيه، إنما وقع الخلاف فى عدد، وأسماء من هم بعد عدنان إلى إسماعيل عليه السلام، ولذلك لم يجر التجاوز عنه لحديث رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: «إِذَا بَلَغَ نَسَبِي إِلَى عَدْنَانَ فَأَمْسِكُوا» (٢) هذا مضافاً إلى أن النبى نفسه كان إذا عدّ أجداده فبلغ إلى عدنان أمسك، ونهى عن ذكر من بعده إلى إسماعيل، وقد روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

كَذِبَ النَّسَابُونَ.

ولهذا فإننا نكتفى بذكر من اتفق عليه، ونعمد إلى الحديث عن حياه كل واحد منهم.

ولقد كان كل من ذكرنا أسماءهم هنا معروفين، ومشهورين فى تاريخ العرب، بيد أن حياه طائفه منهم ترتبط بتاريخ الإسلام، ولهذا فإننا نقف عند حياه «قصي» ومن لحقه إلى والد النبى «عبدالله» ونعرض عن ذكر حياه غيرهم من

ص: ١٦٨

١- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ٢/٥-٣٣.

٢- . بحار الأنوار: ١٥/١٠٥ ح ٤٩ عن مناقب ابن شهر آشوب: ١/١٣٤؛ وكشف الغمّه: ١/١٥.

أجداده وأسلافه صلى الله عليه وآله وسلم ممّن لا علاقة له بهذه الدرّاسه. (١)

أمّا «قَصِيّ» وهو الجدّ الرابع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأُمّه «فاطمه» التي تزوّجت برجل من بنى كلاب ورزقت منه بولدين هما: «زهره» و«قصي» إلماً أنّ زوج فاطمه قد توفّي، وهذا الأخير لم يزل في المهّد، فتزوّجت بزواج آخر يدعى ربيعه، وسافرت معه إلى الشام، وبقي «قصي» يحظى برعايه أبويه من ربيعه حتّى وقع خلاف بين قصي وقوم ربيعه، واشتدّ ذلك الخلاف حتّى انتهى إلى طرده من قبيلتهم، ممّا أحزن ذلك أمّه، واضطرت إلى إرجاعه إلى «مكّه».

وهكذا أتت به يد القدر إلى «مكّه»، وسببت قابلياته الكامنه التي برزت في تلك المدينة في تفوّقه على أهل مكّه وبخاصّيه قريش.

وسرعان ما احتلّ قصي هذه المقامات العاليه، وشغل المناصب الرفيعه، مثل حكومه «مكّه» وزعامه قريش، وسدانه الكعبه المعظمه، وصار رئيس تلك الديار دون منازع.

ولقد ترك (قصي) من بعده آثاراً كثيره وعديده منها تشجيع الناس على بناء المساكن والبيوت حول الكعبه المعظمه، وتأسيس مكان للشورى ليجتمع فيه رؤساء القبائل العربيه من أجل التداول في الأمور وحلّ المشاكل يدعى بدار الندوه.

وقد توفّي «قصي» في القرن الخامس الميلادي وخلف من بعده ولدين هما:

«عبد الدار» و«عبد مناف».

ص: ١٦٩

١- . لقد بحث ابن الأثير في الكامل حول حياتهم فراجع: ٢٣-٢/٥.

٣. عبدمناف

وهو الجدُّ الثالث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واسمه «المغيره» ولقبه «قمر البطحاء»، وكان أصغر من أخيه «عبدالدار» إلّا أنّه كان يحظى بمكانه خاصّه عند الناس دون أخيه، وكان شعاره التقوى، ودعوه الناس إلى حسن السيره وصله الرحم، بيد أنّه مع ما كان له من المكانه القويّه لم ينافس أخاه «عبدالدار» في المناصب العاليه الّتي كان يشغلها. فقد كانت الزعامه لأخيه عبدالدار حسب وصيّيه أبيهما «قصيّ».

ولكن بعد وفاه هذين الأخوين وقع الخصام والتنازع بين أبنائهما على المناصب، وانتهى ذلك الصراع الطويل إلى اقتسام المناصب والمقامات، وتقرر أن يتولى أبناء عبدالدار سدانه الكعبه وزعامه دار الندوه، ويتولى أبناء عبد مناف سقايه الحجيج وضيافتهم ووفادتهم.

وقد بقى هذا التقسيم المتفق عليه سارى المفعول إلى زمن ظهور الإسلام. (١)

٤. هاشم

إشاره

وهو الجدُّ الثانى لنبي الإسلام واسمه «عمرو» ولقبه «العلاء» وهو الذى وُلِدَ مع «عبد شمس» توأمين، وأخواه الآخراَن هما: «المطلب» و «نوفل».

ص: ١٧٠

١- لم تكن هناك مناصب للكعبه يوم أُسِّست ورُفِعَ قواعدها بل حدث كلّ ذلك تدريجاً بحكم المقتضيات والتطورات، وكانت هذه المناصب الّتي استمرت إلى زمن ظهور الإسلام عباره عن: ١. سدانه الكعبه. ٢. سقايه الحجيج. ٣. رفاتتهم وضيافتهم. ٤. زعامه المكيين وقياده جيشهم. ولم يكن هذا الأخير منصباً ذا صبغه دينيه.

هذا وثمه خلاف بين أرباب السير وكتاب التاريخ في أنّ هاشماً وعبد شمس كانا توأمين، وأنّ هاشماً ولد وإصيح واحده من أصابع قدمه ملصقه بجبهه «عبد شمس» وقد نزعت بسيلان دم، فتشاءم الناس لذلك. (١)

يقول الحلبي في سيرته: فكانوا يقولون: سيكون بينهما دم فكان بين ولديهما، أي بين بنى العباس (وهم من أولاد هاشم) وبين بنى أميه (وهم من أولاد عبد شمس). (٢)

وكان كاتب السيره قد تجاهل الحوادث المحزنه والمؤسفه التي وقعت بين بنى أميه وأبناء علي عليه السلام، في حين أنّ تلك الحوادث الداميه التي تسببها بنو أميه وأهرقت فيها دماء ذريه رسول الله وعترته الطاهره، أقوى شاهد على تلك العداوه بين هاتين الطائفتين، ولكننا لا ندرى لماذا تجاهل ذكرها مؤلف السيره الحلبيه ولم يشر إليها مطلقاً!

ثم إنّ من خصوصيات أبناء «عبد مناف» حسبما يُستفاد من الأدب الجاهلي، وما جاء فيه من أشعار، أنّهم توفوا في مناطق مختلفه.

فهاشم - مثلاً - توفى في «غزه» وعبد شمس مات في «مكه»، ونوفل في أرض العراق، والمطلب في أرض اليمن. (٣)

وكان من سجايا هاشم وأخلاقه الفاضله أنّه كان كلّما هلّ هلال شهر ذي الحجه قام صبيحته، وأسند ظهره إلى الكعبه المشرفه، وخطب قائلاً:

«يا معشر قريش إنكم ساده العرب، وأحسنها وجوهاً، وأعظمها أحلاماً (أي عقولاً) وأوسط العرب (أي أشرفها) أنساباً، وأقرب العرب بالعرب أرحاماً.

ص: ١٧١

١- . لاحظ: تاريخ الطبري: ٢/١٣؛ السيره الحلبيه: ١/٧.

٢- . السيره الحلبيه: ١/٧.

٣- . السيره الحلبيه: ١/٨.

يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله تعالى أكرمكم الله تعالى بولايته، وخصيكم بجواره، دون بنى إسماعيل، وإنه يأتيكم زوار الله يعظّمون بيته فهم أضيافه وأحقّ من أكرم أضياف الله أنتم، فأكرموا ضيفه وزوّاره، فإنهم يأتون شعثاً غبراً من كلّ بلد على ضوامر كالقداح، فأكرموا ضيفه وزوّار بيته، فوربّ هذه البنيه لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه، وأنا مخرج من طيب مالى وحلاله ما لم يُقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يُدخل فيه حرام، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم بحرمه هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامه زوّار بيت الله وتقويتهم إلّا طيباً لم يؤخذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غضباً» (١). ولقد كانت زعامه «هاشم» وقيادته نافعه للمكيين من جميع النواحي، وكان لها تأثير كبير في تحسين أوضاعهم.

ولقد سبب كرمه وما قام به من إطعام واسع في سنوات الجذب القاسيه في تخفيف شدّه الوطأه عن أهل مكّه، وبالتالي أدى إلى عدم إحساسهم بالقطط، وآثار الجذب.

كما أنّ من خطواته البارزه وأعماله النافعه جداً لتحسين الحاله التجاريه للمكيين هو ما عقده مع أمير «غسان» من المعاهده، الأمر الذى دفع بأخيه «عبد شمس» إلى أن يعاهد أمير الحبشه، وبأخويه الآخرين «المطلب» و «نوفل» إلى أن يعاهدا أمير اليمن وملك إيران بأن تكون القوافل التجاريه بموجب تلك المعاهدات للجانيين فى أمان من العدوان والتعرض.

وقد أزاله هذه المعاهدات الكثير من المشاكل، وكانت وراء ازدهار التجاره فى «مكّه المكرمه» حتى عهد بزوغ شمس الإسلام.

ص: ١٧٢

ثم إنَّ من أعمال «هاشم» وخطواته النافعه تأسيسه لرحلتي قريش اللتين يتحدّث عنهما القرآن الكريم إذ يقول: «رحله الشتاء والضيف» وهما رحله إلى الشام، وكانت في الصيف، ورحله إلى اليمن، وكانت في الشتاء، وقد استمرت هذه السيره حتى ما بعد ظهور الإسلام أيضاً.

أُمِّيَّة بن عبدشمس يحسد هاشماً

ولقد حسد «أُمِّيَّة بن عبدشمس» ابن أخى هاشم عمّه «هاشماً» على ما حظى به من المكانه والعظمه، والنفوذ إلى قلوب الناس وجذبها نحوه بسبب خدماته وأياديه، وما كان يقوم به من بذل وإنفاق، وحاول جاهداً أن يقلّده ويتشبه بهاشم في سلوكه ولكنه رغم كلِّ ما قام به من جهود ومحاولات لم يستطع أن يتشبه به ويتخذ سيرته، وكما لم يستطع بإيقاعه والظعن به، من أن يُقلل من شأنه، بل زاده رفعه وعظمه.

لقد كان لهيب الحسد في قلب «أُمِّيَّة» يزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم، حتى دفع به إلى أن يدعو عمّه «هاشماً» للذهاب إلى كاهن من كهنة العرب للمنافره عنده فتكون الرئاسة والزعامه لمن يمدحه ذلك الكاهن، وكانت عظمه «هاشم» وسموّ مقامه تمنع من منافره ابن أخيه (أُمِّيَّة) إلّا أنّه رضى بالمنافره هذه تحت إصرار (أُمِّيَّة) بشرطين:

١. أن يعطى المغلوبُ خمسين من التياق سود الحدق تنحر بمكه.

٢. جلاء المغلوب عن مكّه عشر سنين.

ومن حسن الحظّ أنّ ذلك الكاهن نطق بمدح «هاشم» بمجرد أن وقعت عيناه عليه فقال: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر... لقد سبق هاشمُ أُمِّيَّة إلى المآثر» إلى آخر كلامه. فقضى لهاشم بالغلبه وأخذ هاشم الإبل فنحرها

وأطعمها، وغاب أميه عن مكه والعيش بالشام عشر سنين. (١)

وقد استمرت آثار هذا الحسد التاريخي إلى ١٣٠ عاماً بعد ظهور الإسلام، وتسببت في جرائم وفجائع كبرى عديمه النظر في التاريخ.

ثم إنَّ القصه السابقه مضافاً إلى أنها تبين مبدأ العداوه بين الأمويين والهاشميين، تبين أيضاً علل نفوذ الأمويين في البيئه الشاميه، ويتبين أن علاقات الأمويين العريقه بأهل هذه المنطقه هي التي مهّدت لقيام الحكومه الأمويه في تلك الديار.

هاشم يتزوج

كانت «سلمى» بنت «عمرو الخزرجي» امرأه شريفه في قومها، قد فارقت زوجها بطلاق، وكانت لا ترضى بالزواج من أحد، ولدى عوده «هاشم» من بعض أسفاره نزل في يثرب أياماً فخطبها إلى والدها، فرغبت سلمى فيه لشرفه في قريش، ولنبله وكرمه، ورضيت بالزواج منه بشرطين: أحدهما أن لا تلد ولدها إلّا في أهلها، وحسب هذا الإتفاق بقيت «سلمى» مع زوجها «هاشم» في مكه بعض الوقت حتّى إذا ظهر عليها آثار الحمل رجعت إلى: «يثرب» وهناك وضعت ولداً أسموه «شيبه». وقد اشتهر في ما بعد ب «عبدالمطلب».

وكتب المؤرخون في عله تسميته بهذا الاسم بأن هاشماً لما أحسّ بقرب انصرام حياته قال لأخيه «المطلب»: يا أخي أدرك عبدك شيبه. ولذلك سُمّي شيبه بن هاشم: «عبدالمطلب».

وقيل: إنَّ أحد المكّيين مرّ على غلمان يلعبون في زقاق من أزقه يثرب، وينتصلون بالسهم، ولما سبق أحدهم الآخرين في الرمي قال مفتخراً: «أنا ابنُ سيّد

ص: ١٧٤

١- . الكامل لابن الأثير: ٢/١٧؛ والسيره الحلبيه: ١/٧.

البطحاء» فسأله الرجل عن نسبه وأبيه فقال: أنا شبيه بن هاشم بن عبدمناف، فلما قدم الرجل مكّه أخبر «المطلب» أخى «هاشم» بما سمعه وراه، فاشتاق «المطلب» إلى ابن أخيه فذهب إلى المدينه، ولما وقعت عيناه على ابن أخيه «شبيه» عرف شبه أخيه هاشم، وتوسّم فيه ملامحه، ففاضت عيناه بالدموع، وتبادلا قُبَلات الشوق، والمحَبّه، وأراد أن يأخذه معه إلى «مكّه» وكانت أمّه تمنع من ذلك، ولكن ممانعتها كانت تزيد من عزم العمّ على أخذه إلى «مكّه» وأخيراً تحققت أمنيّه العم فقد استطاع «المطلب» أن يحصل على إذن أمّه، فأردفه خلفه وتوجّه حذب «مكّه» تدفعه رغبه طافحه إلى إيصاله إلى والده هاشم.

وفعلت شمسُ الحجاز وأشعتها الحارقة فعلتها في هذه الرحله فقد غيّرت لون وجه شبيهه وأبلت ثيابه، ولهذا ظنّ أهل «مكّه» عند دخوله مع عمه «مكّه» أنّه غلام اقتناه «المطلب» فكان يقول بعضهم لبعض: هذا عبدالمطلب، وكان المطلب ينفى هذا الأمر، ويقول: إنّما هو ابن أخى هاشم وما هو بعبدى، ولكن ذلك الظن هو الآخر فعل فعلته، وعُرف «شبيه» بعبد المطلب. (١)

وربما يقال: إنّ سبب شهرته بهذا الاسم هو أنّه تربى وترعرع في حجر عمّه «المطلب» وكانت العربُ تُسمّى من يتزرع في حجر أحد وينشأ تحت رعايته عبداً لذلك الشخص تقديراً لجهوده وتثميناً لرعايته.

٥. عبد المطلب

إشارة

عبدالمطلب بن هاشم وهو الجدّ الأوّل للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كان رئيس قريش وزعيمها المعروف، وكانت له مواقف بارزه، وأعمال عظيمه في حياته، وحيث إنّ ما وقع من الحوادث في أيام حكمه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الإسلام ولهذا يتعين علينا دراسته بعض تلكم الحوادث والوقائع.

ص: ١٧٥

١- لاحظ: تاريخ الطبرى: ٢/٨ و ٩، السيره الحلييه: ١٠/١-١١.

لا- شك أن المرء مهما تمتع بنفسيه قويه فإنه سيتأثر - في المآل - ببيئته وعاداتها، وتقاليدها، التي تصنع فكره، بصبغه خاصه، وتطبع عقلية بطابع معين.

يبد أن هناك بين الرجال من يقاوم تأثير العوامل البيئيه بمنتهى الشهامه والشجاعه، ويصون نفسه من التلوث بشيء من أدرانها وأقذارها.

وبطل حديثنا هنا هو أحد النماذج الصادقه لأولئك الرجال العظماء؛ لأن في حياته صفحات مشرقه عظيمه، وسطوراً لامعه تنبئ عن نفسيته القويه، وشخصيته الشامخه.

فإنّ الّذى يعيش ثمانين عاماً في وسط اجتماعي تسود فيه الوثنيه، ومعاقره الخمر، والربا، وقتل الأنفس البريئه، والفحشاء حتّى أنّ هذه الأمور كانت من العادات والتقاليد الشائعه، ولكنّه مع ذلك لم يعاقر الخمر طوال حياته، وكان ينهى عن القتل والخمر والفحشاء، ويمنع عن الزواج بالمحارم، والطواف بالبيت المعظّم عرياناً، وكان ملتزماً بالوفاء بالعهد، وأداء النذر بلغ الأمر ما بلغ، لهو - حقاً - نموذج صادق من الرجال الذين يندر وجودهم، ويقل نظيرهم في المجتمعات.

أجل إنّ شخصيه أودعت يد المشيئه الربانيه بين حناياها نور النسبى الأ-كرم أعظم قائد عالمي، يجب أن يكون إنساناً طاهر السلوك، نقى الجيب، منزهاً عن أى نوع من أنواع الانحطاط، والفساد.

هذا ويستفاد من بعض قصصه وكلماته القصار أنّه كان أحد الرجال المعدودين الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر في تلك البيئه المظلمه، وكان يردّد دائماً: «لن يخرج من الدنيا ظلوم حتّى ينتقم منه، وتصيبه عقوبه... والله إنّ وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسنُ بإحسانه، ويعاقبُ فيها المسىء بإساءته»^(١) أى أنّ الظلوم شأنه في الدنيا أن تصيبه عقوبه، فإذا خرج ولم تصبه العقوبه فهي معدّه له في الآخره.

ص: ١٧٦

ولقد كان «حرب بن أمية» من أقربائه، وكان من أعيان قريش ووجهها أيضاً، وكان يجاور يهودياً فاتفق أن وقع بينه وبين حرب نزاع في بعض أسواق تهامه، تبودلت بينهما فيه كلمات جارحه، وانتهى ذلك إلى مقتل اليهودى بتحريك من «حرب»، ولما علم «عبدالمطلب» بذلك قطع علاقته بحرب، وسعى في استحصال ديه اليهودى المقتول من «حرب» ودفعها إلى أولياء القتل، وهذه القصة تكشف عن حبّ عبدالمطلب للمستضعفين والمظلومين وحبّه للحقّ والعدل.

حَفْرُ زَمْرَم

منذ أن ظهرت عين زمزم نزلت عندها قبيلة جرهم التي كانت بيدها رئاسه مكّه طوال سنين مديدة، وكانت تستفيد من مياه تلك العين، ولكن مع ازدهار أمر التجاره في «مكّه»، وإقبال الناس على الشهوات والمفاسد آل الأمر إلى جفاف تلك العين، ونضوب مائها بالمرّه (١).

ويقال: إن قبيلة «جرهم» لما واجهت تهديداً من جانب قبيلة خزاعه واضطرت إلى مغادره تلك الديار، وأيقن زعيمها «مضاض بن عمرو» بأنّه سرعان ما يفقد زعامته، ويزول حكمه وسلطانه بفعل هجوم العدو، أمر بأن يُلقى الغزالان الذهبيان، والسيوف الغاليه الثمن التي كانت قد أُهديت إلى الكعبه، في قعر بئر زمزم، ثم يملأ البئر بالتراب ويعفى أثره إعفاء كاملاً حتّى لا يهتدى خصومه إلى مكانه أبداً، حتّى إذا عادت إليه زعامته وعاد إلى مكّه استخرج ذلك الكنز الدفين،

ص: ١٧٧

١- لا ريب أنّ تفشى الذنوب والمعاصي بين الناس من عوامل نزول البلايا والكوارث، ولا يبعد أن تكون الأعمال المخزيه من موجبات الجذب والقحط والمجاعات، وهذه الحقيقه مضافاً إلى انطباقها على القواعد الفلسفيه ممّا صرح به القرآن الكريم والسنة الشريفة، قال سبحانه: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

واستفاد منه. ثم نشب القتال بين «جرهم» و «خزاعه» واضطرت «جرهم» وكثير من أبناء إسماعيل إلى مغادره «مكة المكرمة»، والتوجه إلى أرض اليمن، ولم يرجع أحدٌ منهم إلى «مكة» أبداً. ووقعت زعامه مكة منذ هذا التاريخ بيد «خزاعه» حتى بزغ نجم قريش في سماء مكة بوصول قصي بن كلاب (الجد الرابع لنبي الإسلام) إلى سده الزعامه والرئاسه، ثم بعد مدّه انتهى أمر الزعامه إلى «عبدالمطلب» فعزم على أن يحفر بئر «زمزم» من جديد، ولكنّه لم يعرف بموقع البئر معرفه كامله حتى إذا عثر عليه بعد بحث طويل قرّر أن يهيئ هو و ولده «حارث» مقدّمات ذلك.

وحيث إنّه يوجد في المجتمع دائماً من يتحجج ويجادل - بسبب سلبته - ليمنع من أي عمل إيجابى مفيد، انبرى منافسو «عبدالمطلب» إلى الاعتراض على قراره هذا وبالتالي التفرّد بإعاده حفر بئر زمزم، لكي لا يذهب بفخر هذا العمل العظيم، وقالوا له: إنّها بئر أبينا إسماعيل، وإنّ لنا فيها حقاً فأشركنا معك، ولكن «عبدالمطلب» رفض هذا الطلب لبعض الأسباب، فقد كان «عبدالمطلب» يريد أن يتفرّد بحفر زمزم، ويستل ماءها ليسقى منها جميع الحجيج دون مانع ولا منازع، ويحول بذلك دون المتاجر به، ولم يكن ليتسنى له ذلك إلّا إذا قام بحفر زمزم بوحده دون مشاركة من قريش.

وقد آل هذا الأمر إلى النزاع الشديد فتقرّر أن يتحاكموا إلى كاهن من كهنة العرب وعقلائهم والقبول بما يقضى به، فتوجه «عبدالمطلب» ومنافسوه إلى ذلك الكاهن وقطعوا الصحارى القاحله بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق أصابهم جهدٌ وعطش شديدان، ولما تيقنوا بالهلاك، وقرب الوفاه أخذوا يفكّرون في كيفية الدفن إذا هلكوا وماتوا، فاقترح «عبدالمطلب» أن يبادر كل واحد إلى حفر حفرة حتى إذا أدركه الموت دفنه الآخرون فيها، فإذا استمرّ بهم العطش

وهلكوا يكون الجميع (ماعدا من بقى منهم على قيد الحياه) قد أقبروا، ولم تغد أبدانهم طعمه للوحوش والطيور، فأيد الجميع هذا الإقتراح، واحتفر كل واحد منهم حفيره لنفسه، وجلسوا ينتظرون الموت بوجوه واجمه، وعيون ذابله، وفجأه صاح عبدالمطلب: «والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت، لانضرب في الأرض ونبغى لأنفسنا، لعجز» وحثهم على البحث عن الماء في تلك الصحراء بصورة جماعيه عسى أن يجدوا ما ينقذهم من الموت، فركب عبدالمطلب وركب مرافقوه، وأخذوا يبحثون عن الماء يائسين غير مصدقين، ولم يمض وقت حتى ظهرت لهم عين ماء عذبه أنقذتهم من الموت المحتم، وعادوا من حيث جاءوا وهم يقولون لعبدالمطلب: «قد والله قضى لك علينا يا عبدالمطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاسه لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً» وتنازلوا له لينفرد بحفر زمزم ويكون إليه أمره دون منازع، ولا شريك. (١)

فعمد «عبدالمطلب» وولده الوحيد الحارث إلى حفر البئر، ونشأ من ذلك تل هائل من التراب حول البئر، وفجأه عثر «عبدالمطلب» على الغزالين المصاغين من الذهب، والسيوف المرصعه المهدهاه إلى الكعبه، فشبّ نزاع آخر بين «قريش» وبين «عبدالمطلب» على هذه الأشياء، واعتبرت «قريش» نفسها شريكه في هذا الكنز، وتقرّر أن يلجأوا إلى القرعه لحل هذه المشكله، فخرجت القرعه باسم «عبدالمطلب»، وصار جميع ذلك الكنز إليه دون «قريش»، ولكن عبدالمطلب خصّ بتلك الأشياء الكعبه فصنع من السيوف باباً للكعبه، وعلق الغزالين الذهبيين فيها.

ص: ١٧٩

رغم أنّ العرب الجاهليين كانوا غارقين فى الفساد الأخلاقى فإنّهم كانوا يتحلّون ببعض الصفات الحسنه، والخصال المحبّبه. وللمثال كان نقض العهود من أقبح الأفعال فى نظرهم، فإذا عقدوا عهداً مع القبائل العربيه أو ثقوها بالآيمان المغلظه المؤكّده، والترموا بها إلى النهايه، وربّما نذروا النذور الثقيله واجتهدوا فى أدائها مهمّاً كلّ ذلك من مشقّه وثمر.

ولقد أحسّ «عبدالمطلب» عند حفر بئر زمزم بالضعف فى قريش لقلّه أولاده، ولهذا نذر إذا رزقه الله تعالى عشره بنين أن يقدّم أحدهم قرباناً للكعبه، ولم يُطلّع أحداً على نذره هذا.

ولم يمض زمان إلاّ وبلغ عدّد أبنائه عشره، وبذلك حان أوان وفائه بنذره الذى نذر، وهو أن يذبح أحدهم قرباناً للكعبه.

ولا شكّ أنّ تصور مسأله كهذه فضلاً عن تنفيذها كان أمراً فى غايه الصعوبه على عبدالمطلب، ولكنّه كان فى نفس الوقت يخشى أن يعجز عن تحقيق هذا الأمر فيكون من الناقضين للعهد، التاركين لأداء النذر، ومن هنا قرّر أن يشاور أبناءه فى هذا الأمر، وبعد أن يكسب رضاهم وموافقتهم يختار أحدهم للذبح بالقرعه. (١)

وتمّت عمليه القرعه، فأصابت «عبدالله» والد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأخذ عبدالمطلب بيد ابنه، وتوجّه من فوره إلى حيث يذبحه فيه.

ولما علمت قريش رجالها ونساؤها بقصّه النذر المذكور وما آلت إليه عمليه

ص: ١٨٠

١- هذه القصيه ذكرها كثير من المؤرّخين وكتاب السيره، وهذه القصّه إنّما هى جديره بالاهتمام من جهه أنّها تجسّد مدى إيمان «عبدالمطلب» وقوّه عزمه، وصلابه إرادته، وتبيّن جيّداً كم كان مصراً على الوفاء بعهوده والتزاماته.

القرعه حزنَ الناس والشباب خاصه لذلك حزنا شديداً وبكوا وضجوا، وقال أحدهم: ليتنى ذبحت مكان هذا الشاب.

فاقترحت قريش على عبدالمطلب بأن يفدى «عبدالله»، وأظهروا استعدادهم لدفع الفديه إذا جاز ذلك، فتخبر «عبدالمطلب» تجاه تلك المشاعر الساخنه، والاعتراضات القويه، وراح يفكر في عدم الوفاء بنذره، ويفكر في نفس الوقت في الحصول على مخلص معقول من هذه المشكله، فقال له أحدهم: لا تفعل وانطلق إلى أحد كهنة العرب عسى أن يجد لك حلاً.

فوافق «عبدالمطلب» وأكابر قريش على هذا الاقتراح، وتوجهوا بأجمعهم نحو «يثرب» قاصدين ذلك الكاهن، ولما قدموا عليه سألوه في ذلك فاستمهلهم يوماً واحداً، ولما كان اليوم الثاني دخلوا عليه فقال لهم: كم ديه المرء عندكم؟ قالوا:

عشر من الإبل.

فقال: إرجعوا إلى بلادكم، وقربوا عشراً من الإبل واضربوا عليها وعلى صاحبكم «أى عبدالله» القداح، فإن خرجت القرعه على صاحبكم فزيدوا عشراً، حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم وكانت عنه فداء.

فهذا اقتراح الكاهن لهيب المشاعر الملتهبه لدى الناس، لأن نحر مئات الإبل كان أسهل عليهم من أن يشاهدوا شاباً مثل «عبدالله» يتشخط في دمه.

ولهذا فإنهم فور عودتهم إلى «مكه» بادروا إلى إجراء القرعه في مجمع كبير من الناس وزادوا عشراً عشراً حتى إذا بلغ عدد الإبل منه خرجت القداح على الإبل، ونجا «عبدالله» من الذبح، فأحدث ذلك فرحه كبيره لدى الناس، بيد أن «عبدالمطلب» طلب أن تُعاد عمليه القرعه قائلاً: «لا والله حتى أضرب ثلاثاً»، وأتما أراد ذلك ليستيقن أن ربه قد رضى عنه، ولكن في كل مره كانت القداح تخرج على

الإبل المئه فنحرت الإبل ثم تركت لا يمنع عنها انسانً ولا سبع. (١)

حادثة عام الفيل

عندما يحدثُ أمرٌ عظيمٌ في أمّة من الأمم وخاصّه إذا كان ذا جذور دينيه أو ذا مدلولات قوميه أو سياسيه فإنّه سرعان ما يتحوّل - بفعل إعجاب الناس عامّه به - إلى مبدأ للتاريخ.

فقيام النبيّ موسى يعْتَبَرُ مبدأً للتاريخ عند اليهود، ومولد السيّد المسيح يعْتَبَرُ مبدأً للتاريخ عند النصارى، والهجره النبويه الشريفه تعتبر مبدأً للتاريخ عند المسلمين.

وهذا يعنى أنّ كل أمّة من الأمم تقيس حوادثها من حيث الزمان بذلك الحدث الذي تعتبره بدايه تاريخها.

وأحياناً تتخذُ الأمم والشعوب بعض الحوادث مبدأً للتاريخ مع أنّها تملك مبدأً سياسياً للتاريخ، كما نلاحظ ذلك في بلاد الغرب وشعوبه، فقد اتّخذت الثورة الفرنسيه، وثورته اكتوبر الشيوعيه مبدأً للتاريخ في فرنسا، والاتحاد السوفياتي، بحيث أصبح يقاس بهما كلّ ما وقع من الحوادث بعدهما. ولكن الشعوب غير المتحضّره التي لم تمتلك مثل تلك الثورات والحركات السياسيه والدينيه كان من الطبيعي أن تتخذ الحوادث الخارقه للعادة مبدأً لتاريخها بدلاً من الثورات والتحوّلات الاجتماعيه، وهذا ما حدث عند العرب قبل الإسلام.

ص: ١٨٢

١- . لاحظ: الكامل في التاريخ: ٢/٥-٧؛ بحار الأنوار: ١٦/٧٤، وقد نُقِلَ عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «أنا ابن الذبيحين» يقصدُ بالأول جدّه إسماعيل عليه السلام والثاني أباه «عبدالله» الذي كاد أن ينحر ولكنّه نجا من الذبح كما نجا جدّه إسماعيل عليه السلام.

فإنهم - بسبب حرمانهم من حضاره صحيحه - اتخذوا من بعض الوقائع المفجعه والمّرّه، كالحرب والزلازل، والمجاعه والقحط أو الحوادث غير الطبيعیه، الخارقه العاده مبدأ لتاريخهم.

ولهذا نجد بدايات متعدده للتاريخ عند العرب، آخرها: حادثه عام الفيل وهجوم «أبرهه» على «مكّه» بهدف هدم الكعبه المشرفه، التي صارت فيما بعد مبدأ للتاريخ، تؤرّخ بالنسبه إليه بقيه الحوادث والوقائع اللاحقه.

ونظراً لأهميته هذا الحدث التاريخي العظيم الذي وقع عام ٥٧٠ م، وأتفقت فيه ولاده النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فإننا نتناول هذه القصّه بالعرض والتحليل:

ماهى أسباب هذه الحادته؟

لقد ذكرت قصّه أصحاب الفيل فى القرآن بصوره مختصّيره، وسوف ننقل - هنا - الآيات التي نزلت حول هذه القصّه بعد حوادثها.

يكتب المؤرّخون عن علّه هذه الحادته أنّ ملك اليمن «تبان أسعد» والد ذى نواس بعد أن أرسى قواعد حكمه مرّ فى إحدى رحلاته على يثرب (المدينه)، وقد كانت ل «يثرب» فى ذلك الوقت مكانه دينيه مرموقه، فقد قطنها جماعه من اليهود، وبنوا فيها عدداً من المعابد والهيكل، فأكرم اليهودُ مقدم ملك اليمن، ودعوه إلى دينهم ليستطيعوا فى ظل حكمه حمايه أنفسهم من أذى المسيحيين الروميين، والمشركين العرب.

ولقد تركت دعوتهم وما رافقها من أساليب مؤثره أثرها فى نفس ذلك الأمير واختار اليهوديه، واجتهد فى بثّها ونشرها. (١)

ص: ١٨٣

١- . راجع السيره النبويه لابن هشام: ١/١٢.

ثم ملك من بعده ابنه «ذو نواس» الذي جدّ في بثّ اليهوديه والتحق به جماعه خوفاً.

بيد أنّ أهل نجران الذين كانوا قد دانوا بالمسيحيه قبل ذلك امتنعوا من تغيير دينهم وترك المسيحيه واعتناق اليهوديه، وقاوموا «ذى نواس» مقاومه شديده، فشقّ ذلك على ملك اليمن، وأغضبه فتوجّه أحد قاداته إلى نجران على رأس جيش كبير لتأديب المتمردين من أهلها، فعسكر هذا الجيش على مشارف نجران، واحتفر قائده خندقاً كبيراً، وأوقد فيه ناراً عظيمه، وهُدّد المتمردين بالإحراق بالنار.

ولكن أهل نجران الذين أحبوا المسيحيه واعتنقوها برغبه كبيره أظهروا شجاعه كبرى، واستقبلوا الموت حرقاً، وغدوا طعمه للنيران.

يقول المؤرّخ الإسلامى «ابن الأثير الجزرى» بعد ذكر هذه القصة: لما قتل «ذونواس» من قتل من أهل اليمن فى الأخدود لأجل العود عن النصرانيه أفلت منهم رجلٌ يقال له: دوس ذو ثعلبان حتّى أعجز القوم فقدم على «قيصر» فاستنصره على «ذى نواس» وجنوده وأخبره بما فعل بهم، فقال له قيصر: بعدت بلادك عنّا، ولكن سأكتبُ إلى النجاشى ملك الحبشه وهو على هذا الدين وقريب منكم، فكتب قيصر إلى ملك الحبشه يأمره بنصره، فأرسل معه ملك الحبشه سبعين ألفاً، وأمر عليهم رجلاً- يقال له «أرياط» وفى جنوده «أبرهه الأشرم» فساروا فى البحر حتّى نزلوا بساحل اليمن، وجمع «ذو نواس» جنوده فاجتمعوا وكتب إلى زعماء قومه من أهل اليمن يدعوهم إلى الاجتماع لمقاتله عدوّهم، فلم يجيؤه، فانهارت حكومته أمام حمله جيش الحبشه، وسيطر الأحباش على أرض اليمن، وجُعِلَ «أبرهه» أميراً عليها من قِبَل «النجاشى» بعد مقتل «أرياط»

وهذه القصه هي التي تعرف في القرآن الكريم بقصه «أصحاب الأُخُدود» وقد جاء ذكرها في سورة البروج إذ يقول الله تعالى: «قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخُدُودِ * النَّارَ ذَاتَ الْوُقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ». (٢)

وقد ذكر المفسرون هذه القصه في شأن نزول هذه الآيات بصوره مختلفه.(٣)

ثم إن «أبرهه» الذي أسكره الانتصار والغلبه على منافسه، وتمادى في الشهوات بنى في صنعاء كنيسه عظيمه تقرباً إلى ملك الحبشه، وإرضاء له ثم كتب كتاباً إلى «النجاشي» ملك الحبشه يقول فيه: «إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسه لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمُتته حتى أصرف إليها حج العرب».

وقد أدى معرفه العرب بما جاء في هذا الكتاب إلى ردّه فعل شديده لديهم، إلى درجه أنّ امرأه من قبيله «بنى أقم» تسلّت ذات ليله إلى تلك الكنيسه وأحدثت فيها، فأثار هذا العمل الذي كان يدلّ على مدى ازدراء العرب بكنيسه «أبرهه» واحتقارهم لها، غضب «أبرهه»، هذا من جانب ومن جانب آخر كان «أبرهه» كلياً زاد في تزيين تلك الكنيسه زاد ذلك من حقد العرب، وحنقهم عليه، واحتقارهم لكنيسته، فتسبّب كلّ ذلك في أن يحلف أبرهه على السير إلى الكعبه وهدمها، فسير لذلك جيشاً عظيماً، وقدم أمامه الفيله المقاتله، وخرج متوجهاً صوب مكّه وهو

ص: ١٨٥

١- . لاحظ: الكامل في التاريخ: ١/٤٣١-٤٣٣؛ والسيره النبويه: ١/٢٤-٢٧.

٢- . البروج: ٩-٤.

٣- . راجع مجمع البيان: ١٠/٣١٢.

يعتزم هدم الكعبة بيت الله الحرام!!

فلَمَّا عرف زعماء العرب بغايته، وأدركوا خطوره ذلك العمل وأيقنوا بأن استقلال العرب وسيادتهم تتعرض لخطر السقوط، لم يمنعهم ما عهدوه من قوّه «أبرهه» وانتصاراته، بل خرج بعضهم إلى حربه فقاتلوه بكلّ شجاعه وبساله مدفوعين بدافع الغيره والحفاظ على الشرف المهْدَد بالخطر.

فقد خرج «ذو نفر» وهو من أشراف أهل اليمن وملوكهم، ودعا قومَه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب «أبرهه» ولكن سرعان ما تغلب «أبرهه» عليه بجيشه الكبير، ثم خرج له بعد ذلك «نفيل بن حبيب» وبقي يقاتله مدّه طويله فهزمه «أبرهه» وأخذ له أسيراً، فطلب «نفيل» العفو منه، فاشترط عليه أن يدله على طريق مكّه ليعفو عنه، فدله نفيل حتّى الطائف، وأوكل الدلاله على بقيه الطريق إلى شخص آخر يُدعى «أبو رغال» فدله أبو رغال على الطريق حتّى أرض «المغمّس» وهي منطقه قريبه من «مكّه» فنزل «أبرهه» وجيشه بالمغمّس، فأرسل أبرهه رجلاً من الحبشه - على عادته - إلى ضواحي «مكّه» فاستولى على أموال قريش من الإبل والغنم فساق إليه في جملة ذلك مائتي بعير لعبد المطلب، ثم أمر رجلاً آخر يدعى «حُناطه» ليدخل «مكّه» ويبلغ أهلها عنه ما جاء من أجله، وهو هدم البيت المحرّم الكعبة المعظمه، وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له: إنّ الملك يقول لك: «إني لم آت لحربكم، إنّما جئتُ لهدم هذا البيت، فإن تعرّضوا دونه بحرب فلا حاجه لي في دمائكم»، فإن هو لم يرد حربي فأنتى به.

فدخل «حُناطه» مكّه ولمّا سأل عن سيد قريش و شريفها، وقد كانت قبائل قريش المختلفه قد تجمعت في أطراف البلد جماعات جماعات تتذاكر في أمر «أبرهه» وما يجب اتخاذه من موقف تجاهه.

فَدَلَّوْهُ عَلٰى بَيْتِ «عَبْدِ الْمَطْلَبِ»، وَلَمَّا دَخَلَ عَلٰى «عَبْدِ الْمَطْلَبِ» أَبْلَغَهُ مَقَالَهُ «أَبْرَهَةَ» فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ: «وَاللَّهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ يَمْنَعُهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يَخْلِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَوَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعَ عَنْهُ؟»

فَسَرَّ «حِنَاطُهُ» رَسُولَ أَبْرَهَةَ بِمَنْطِقِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَمَقَالَتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَحْكِي عَنْ قُوَّةِ إِيمَانِهِ، وَعَنْ رُوحِهِ الْمَسَالِمَةِ فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَصْحَبَهُ إِلَى «أَبْرَهَةَ»، قَائِلًا:

فَانطَلِقْ مَعِيَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بِكَ.

عَبْدُ الْمَطْلَبِ يَذْهَبُ إِلَى مَعْسَكِرِ أَبْرَهَةَ

فَتَوَجَّهَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ هُوَ وَجَمَاعَتُهُ مِنْ وَلَدِهِ إِلَى مَعْسَكِرِ أَبْرَهَةَ، فَأُعْجِبَ «أَبْرَهَةَ» بِوَقَارِ رَئِيسِ قَرِيشٍ وَهَيْبَتِهِ إِعْجَابًا شَدِيدًا، وَبَهَرَ بِهِ حَتَّى أَنَّهُ نَزَلَ لَهُ مِنْ تَخْتِهِ إِجْلَالًا وَأَخَذَ بِيَدِهِ، وَأَجْلَسَهُ إِلَى جَنْبِهِ، فَسَأَلَهُ عَنْ طَرِيقِ مُتَرَجِمِهِ مُتَأَدِّبًا: مَا الْعَدَى أَتَى بِهِ وَمَاذَا يَرِيدُ؟ فَأَجَابَهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ قَائِلًا: حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ الْمَلِكُ عَلَيَّ مِثِّي بِعِيرِ أَصَابِهَا لِي.

فَقَالَ «أَبْرَهَةَ» لِتَرْجَمَانِهِ: قُلْ لَهُ: قَدْ كُنْتُ أَعْجَبْتُكَ حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهَدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتَكَلَّمُنِي فِي مِثِّي بِعِيرِ أَصَابِهَا لَكَ، وَتَتْرَكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئْتُ لِهَدْمِهِ، لَا تَكَلَّمُنِي فِيهِ؟!

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَأَنْ لِّلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ، فَقَالَ «أَبْرَهَةَ» مَغْتَرًّا بِنَفْسِهِ: مَا كَانَ لِيَمْتَنَعَ مِنِّي.

ثُمَّ أَمَرَ أَنْ تَرُدَّ الْإِبِلَ إِلَى أَصْحَابِهَا.

ولقد انتظرت قريش عوده «عبدالمطلب» من معسكر «أبرهه» بفارغ الصبر لتعرفَ نتيجة ما دار بينه وبين أبرهه، وعندما عاد «عبدالمطلب» أخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج معه من مكّه، والتحرز في رؤوس الجبال من معرّه الجيش فخرجوا إلى الشعاب، والجبال، ثم لمّا كان الليل نزل عبدالمطلب مع جماعه من قريش إلى الكعبه وأخذ بحلقه بابها يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه و جنده وقال «عبدالمطلب» مناجياً الله سبحانه: «اللَّهُمَّ أَنْتَ أُنَيْسُ الْمُسْتَوْحِشِينَ وَلَا وَحْشَهُ مَعَكَ فَالْبَيْتَ بَيْتَكَ، وَالْحَرَمُ حَرَمَكَ، وَالِدَارُ دَارُكَ، وَنَحْنُ جَيْرَانُكَ تَمْنَعُ عَنْهُ مَا تَشَاءُ، وَرَبُّ الدَّارِ أَوْلَىٰ بِالدَّارِ» ثم قال:

لاهمّ إن (١) العبد يمنع رح له فامنع جلالك (٢)

لا يغلبن صليبيهم ومحالهم عدواً محالك (٣)

وقال أيضاً:

يا ربّ لا أرجو لهم سواك يا ربّ فامنع منهمو حماكا

إن عدو البيت من عاداكا إمنعهم أن يخربوا قراكا

ثم إنه ترك حلقه الباب، ولجأ ومن معه من قريش إلى الجبل لينظروا ما سيجرى.

وفي الصباح وعندما كان «أبرهه» و جنده يستعدون للتوجه إلى «مكّه»، وإذا بأسراب من الطيور تظهر من جهة البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجرين في رجليه، فأظلم سماء الجيش بتحليق تلك الطيور فوق

ص: ١٨٨

١- . لاهم أصلها: اللهم والعرب تحذف الالف واللام وتكتفى بما بقى.

٢- . الحلال جمع حله وهى جماعه البيوت.

٣- . المحال: القوه والشده.

رؤوس الجند، وتركت تلك الأحجار الصغيره الحقيه فى ظاهرها أثرها العجيب، فقد رجمت تلك الطيور جنود «أبرهه» بتلك الأحجار بأمر الله، فكانت لا تصيب منهم أحداً إلّا تحطم رأسه، وتمزق لحم بدنه، وهوى صريعاً، وهلك من توه، فأصابت واحده من تلك الأحجار رأس «أبرهه» نفسه فارتعدت فرائصه وأيقن بغضب الله وسخطه عليه، فنظر إلى جنوده وهم أشلاء مبثوثون هنا وهناك على الأرض كورق الشجر فى فصل الخريف، فصاح بمن لم يزل على قيد الحياه من جنده يأمرهم بأن يتهيأوا للعوده إلى اليمن، من حيث أتوا، فأخذ بقيه الجند طريق اليمن هارين، غير أن هذه البقيه قد هلكت شيئاً فشيئاً فى أثناء الطريق حتى أن أبرهه نفسه لم يصل إلى صنعاء إلّا بعد أن تفرق لحم بدنه، وسقطت أعضاؤه وجوارحه ومات بصورة عجيبه.

وقد دوى صوت هذه الواقعه العجيبه والرهيبه فى العالم آنذاك، وقد ذكرها القرآن الكريم فى سوره الفيل إذ يقول تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كِنْدَهُمْ فِي ضَلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ» .

وما ذكرناه هنا - فى هذه الصفحات - ليس هو فى الحقيقه إلّا خلاصه ما ورد فى كتب التاريخ الإسلامى، وصرح به القرآن الكريم. (١)

واستكمالاً لهذا البحث نعمد هنا إلى دراسه نظريه المفسر المصرى الكبير الشيخ «محمد عبده» والكاتب المعروف الدكتور «هيكل» وزير الثقافه المصرى السابق فى هذا المجال.

ص: ١٨٩

١- . لاحظ: السيره النبويه: ١/٢٨-٣٧؛ تاريخ الطبرى: ١/٥٥١-٥٥٦؛ والكامل فى التاريخ: ١/٤٤٢-٤٤٧؛ وبحار الأنوار: ٥/١٣٠-١٤٦.

لقد أوجدَ التقدّم العلميّ الأخير في مختلف مجالات العلوم الطبيعيه والفضائيه، وما استلزم ذلك من تهافت طائفه كثيره من الفرضيات، ضجّه عجيبه في الغرب، فمع أنّ جميع تلك التطورات كانت مجردَ تطورات علميه تجري في مجال المسائل الطبيعيه أو الفلكيه، ولم يكن لها أيّه صلّه بالمعتقدات الدينيه، فإنّ هذا التحول والتطوّر وتلك الكشوف أوجدت شكّاً عجبياً لدى بعض الناس انسحب على جميع المعارف والمعتقدات الدينيه الموروثة على وجه الإطلاق! والسرّ في ذلك هو أنّ العلماء رأوا بأنّ الفرضيات القديمه، التي بقيت تسيطر على الأوساط العلميه لمدّه طويله من الزمان، قد أصبحت اليوم عرضةً للبطلان والسقوط تحت مطارق التجربه وبواسطه الاختبارات العلميه، والتحقيقات المختبريه، فلم يَعيد - بعد هذا - مجالٌ للقول بفرضيه الأفلاك التسعه التي طَلع بها «بطلميوس»، ولا- بفرضيه مركزيه الأرض، ولا غيرها من عشرات الفرضيات، فقالوا في أنفسهم: ولماذا لا تكون بقيه المعلومات والمعارف الدينيه من هذا القبيل!؟

وقد تفاقم هذا النوع من الشكّ في قلوب جماعه من العلماء بالنسبه إلى جميع المعتقدات والمعارف الدينيه ونما بشكل قويّ في فتره قصيره، وعمّ الأوساط العلميه كأى مرض!!

هذا مضافاً إلى أنّ محاكم التفتيش وتشدّد الكنيسه وأربابها كان لها النصيب الأكبر في ظهور هذه الحاله بل في نموّها، وأطرادها، لأنّ الكنيسه كانت تقضى على العلماء الذين نجحوا في اكتشاف القوانين العلميه تحت التعذيب والاضطهاد القاسى بحجّه أنّها تخالف الكتاب المقدّس، وتعارض مقرّرات الكنيسه!!

ومما لا يخفى أنّ مثل هذه الضغوط، وهذا الاضطهاد والتعجرف ما كان ليمرّ

من دون حدوث ردّه فعل، وقد كان من المتوقع منذ البدايه أنّ العلماء فى الغرب لو أتاحت لهم الفرصه لانتقموا من الدين، بسبب سوء تصرّف أرباب الكنيسه، وسوء معاملتهم لهم خاصّه، وللناس عامّه.

وقد حدث هذا فعلاً فكلّما تقدم العلمُ خطوهً، وأطلع العلماء على العلاقات السائده بين الكائنات الطبيعيه، واكتشفوا المزيد من الحقائق الكونيه، والعلل الطبيعيه لكثير من الحوادث والظواهر المادّيه، وكذا علل الأمراض، قلّ اعتناؤهم بالقضايا الميتافيزيقيه، وما يدور حول المبدأ والمعاد والأفعال الخارقه للعاده كمعاجز الأنبياء، وازداد عدد المنكرين لها والشاكّين فيها، والمتردّدين فى قبولها يوماً بعد يوم!!

لقد تسبّب الغرورُ العلمىُّ العذى أُصيب به العلماء فى الغرب فى أن ينظر بعض أولئك العلماء إلى جميع القضايا الدينيه بعين الازدراء والتحقير، وأن يمتنعوا حتّى عن التحدّث فى المعاجز التى يخبر بها التوراه والإنجيل، ويعتبروا عصا موسى عليه السلام ويده البيضاء، ونفخه المسيح عليه السلام التى كانت تشفى المرضى وتحىي الموتى من الأساطير، وراحوا يتساءلون - فى عجب واستنكار - وهل يمكن أن تتحوّل قطعهُ من الخشب اليابس إلى أفعى، أو ثعبان؟ أو هل يمكن أن تعود الحياه إلى ميتٍ بكلمات من الدعاء؟

لقد تصوّر العلماء الذين أسكرتهم فتوحاتهم العلميه، أنّهم ملكوا مفاتيح جميع العلوم، ووقفوا على جميع العلاقات بين الكائنات الطبيعيه والظواهر الكونيه، ومن هنا تصوّروا أنّه لا توجد أيّهُ علاقهُ بين قطعهُ الخشب والثعبان، أو بين جملة من الدعاء والتفاتهِ من بشر وعوده الروح إلى الموتى، ولهذا أخذوا ينظرون إلى هذه الأمور بعين الشكّ والترديد، وربّما بعين الإنكار والرفض المطلق!!

وقد سرى هذا النوع من التفكير إلى أوساط بعض العلماء المصريين الذين تأثروا بهذا الإتجاه أكثر من غيرهم، مع بعض التعديل فى ذلك الموقف، وشيء من الاختلاف فى النظره المذكوره، ولهذا أتبعوا تلك السيره فى تحليل الوقائع والحوادث التاريخيه والعلميه من هذا النوع، والسير في تأثر بعض علماء مصر بهذه النظره قبل وأكثر من غيرهم، هو احتكاك هذه الجماعه بالأفكار الوارده من الغرب قبل غيرهم، ومن هذه المنطقه سرت بعض النظريات والآراء الغربيه إلى البلاد الإسلاميه الأخرى.

لقد اختار هؤلاء طريقاً خاصاً قصيدوا به الحفاظ على حرمه الكتاب العزيز، والأحاديث القطعيه ومكانتها من جهه، وكسب نظر العلماء الماديين الطبيعيين إلى أنفسهم من جهه أخرى، أو أرادوا أن لا يختاروا ما لا يمكن التوفيق بينه وبين القوانين العلميه الطبيعيه وتطبيقه عليها.

لقد وجد هؤلاء من جهه أن القرآن الكريم يخبر عن سلسله من المعجزات والخوارق التي لا يمكن تفسيرها بالعلوم العاديه المتعارفه، لأن العلم لا يستطيع أن يدرك العلاقه بين العصا الخشبيه اليابسه والثعبان، ومن جهه أخرى كان القبول بالنظريات التي لا يمكن إثباتها بالحس والتجربه أمراً فى غاية الصعوبه لهم.

ولهذا السبب، وفى خضم الصراع بين هذين العاملين: العلم والعقيده، اختار هؤلاء الكتاب والعلماء نهجاً يستطيعون به وضع نهايه لهذا الصراع، والتنازع، فيحافظون على ظواهر القرآن والأحاديث من جانب، ويتجنبون القول بما يخالف منطق العلم من جانب آخر، ويتلخص هذا النهج فى تفسير جميع المعاجز وجميع خوارق العاده التي جرت على أيدي الأنبياء بالموازين العلميه الحاضره الرائجه فى هذا العصر بصوره تبدو وكأنها أمور طبيعيه، وبهذا يكونون قد حافظوا على مكانه القرآن الكريم والأحاديث القطعيه المسلمه، ولم يتفوهوا بما يخالف العلم الحديث

ويتعارض مع معطياته.

ونحن هنا نذكر من باب النموذج والمثال: التفسير الّذى ذكره العلامه المصرى المعروف «محمّد عبده» لقصه أصحاب الفيل وماجرى لهم:

فهو يقول عند تفسيره لسوره الفيل:

«فيجوز لك أن تعتقد أنّ هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الّذى يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجاره من الطين المسموم اليابس الّذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح الّتى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وأنّ كثيراً من هذه الطيور الضعيفه يعُدّ من أعظم جنود الله فى إهلاكه من البشر، وأنّ هذا الحيوان الصغير، الّذى يسمونه الآن بالميكروب، لا يخرج عنها».(١)

وقال أحد الكتّاب مؤيداً هذا الاتجاه بقوله: «إنّ الطير المستعمل فى الكتاب العزيز يراد منه مطلق ما يطير، ويشمل الذباب والبعوض أيضاً».(٢)

ولابدّ قبل دراسه هذه الأقوال أن نستعرض مرّه أخرى الآيات النازله فى أصحاب «الفيل».

يقول الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَزْمِيهِمْ بِحِجَارِهِ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ».

إنّ ظاهر هذه الآيات يفيد أنّ جيش أبرهه أُصيب بالغضب والسخط الإلهى،

ص: ١٩٣

١- راجع: تفسير فى ظلال القرآن: ٨/٦٦٧ (فى تفسير السوره).

٢- نفس المصدر.

وَأَنَّ هَلَاكَهُ وَفَنَاءَهُ كَانَ بِهَذِهِ الْأَحْجَارِ الَّتِي حَمَلَتْهَا تِلْكَ الطَّيُورُ، وَأَلْقَتْ بِهَا عَلَى رُؤُوسِ الْجُنْدِ وَأَبْدَانِهِمْ.

إِنَّ الْإِمْعَانَ فِي مَفَادِ هَذِهِ الْآيَاتِ يُعْطَى أَنْ مَوْتَهُمْ كَانَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْأَسْلِحَةِ غَيْرِ الطَّبِيعِيِّ (الصَّغِيرَةِ الْحَقِيرَةِ فِي ظَاهِرِهَا، الْقَوِيَّةِ الْهَدَامَةِ بِفِعْلِهَا وَأَثَرِهَا).

وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ أَى تَفْسِيرٍ يَخَالَفُ ظَاهِرَ هَذِهِ الْآيَاتِ لَا يُمْكِنُ الذَّهَابُ إِلَيْهِ وَحَمَلُ الْآيَاتِ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُمْ عَلَى صِحَّتِهِ دَلِيلٌ قَطْعِيٌّ.

نقاط تقتضى التأمل فى التفسير المذكور

١. أَنَّ التفسير المذكور لا يستطيع كذلك أن يجعل كل تفاصيل هذه الحادثة أمراً طبيعياً، بل هناك جوانب فى تلك الواقعة التاريخية العجيبه لابد من تفسيرها بالعوامل والأسباب الغيبية، لأنه مع فرض أن هلاك الجند وتلاشى أجسادهم تم بواسطة ميكروب: «الحصبة» و «الجدري»، ولكن من العذى أرشد تلك الطيور إلى تلك الأحجار الصغيرة الملوثة بميكروب الحصبة والجدري، فتوجهت بصوره مجتمعه إلى تلك الأحجار الخاصه بدل التوجه إلى الحَبِّ والطعام، ثم كيف بعد حمل تلك الأحجار بمناقيرها وأرجلها حلقَتْ فوق معسكر «أبرهه» ورجمت جنده كما لو أنها جيش منظم موجه؟؟

هل يمكن اعتبار كل ذلك أمراً عادياً، وحدثاً طبيعياً؟

ترى لو أننا فسّرنا طرفاً من هذه الحادثة العظيمة والعجيبه بالعوامل الغيبية، وبإرادته الله النافذه فهل تبقى مع ذلك أيه حاجه إلى أن نفسر جانباً من هذه الحادثة بتفسير طبيعى مألوف، ونركز وراء التوجيهات الباردة، لنجعلها أمراً مقبولاً.

٢. إِنَّ الْكَائِنَاتِ الدَّقِيقَةَ، أَوْ مَا يُسَمَّى الْآنَ بـ «الميكروب» لا شك أنها عدوه لمطلق الإنسان، وليس بصديقه لهذا أو ذاك، ومع ذلك كيف توجهت إلى جنود

«أبرهه» وقتلتهم دون غيرهم، وكيف نسيت المكين بالمرّه؟!)

إنّ التاريخ المدوّن يثبت لنا أنّ جميع الضحايا في هذه الواقعة العظيمه كانوا من جند «أبرهه» ولم يلحق فيها: أى أذى - إطلاقاً - بقريش، وغيرهم من سُيكان الجزيرة العربيه، فى حين أنّ الحصبه والجدرى من الأمراض المعديه، التى تنقلها العوامل الطبيعيه كالرياح وغيرها من منطقه إلى أخرى، ورُبما تُهلك أهل قطر بأجمعهم.

فهل مع هذا يمكن أن نعدّ هذه الحادّته حدثاً طبيعياً عادياً؟!)

٣. أنّ اختلاف هذا الفريق فى تحديد نوعيه الميكروب، يضىف على هذا الادّعاء مزيداً من الإبهام، ويجعله أقرب إلى البطلان.

فتاره يقولون: إنّه ميكروب الوباء، وتارةً أخرى يقولون: إنّه داء الحصبه والجدرى، فى حين أنّنا لم نجد مستنداً صحيحاً لهذا الخلاف، ومبرراً وجيهاً لهذا الاختلاف، اللهمّ إلّاما احتمله «عكرمه» من بين المفسّرين، وعكرمه هو نفسه موضع نقاش بين العلماء، وإلّاما ذهب «ابن الأثير» من بين المؤرّخين وأرباب السّير إلى ذكر هذا الرأى فى صورته الاحتمال الضعيف، قائلاً: وقال كثير من أهل السّير أنّ الحصبه والجدرى أوّل ما رؤيا فى العرب بعد الفيل، وكذلك قالوا: إنّ العشر والحرملة والشيخ لم تعرف بأرض العرب إلّا بعد الفيل. ثم عاد فردّ هذا القول فوراً بقوله: وهذا ممّا لا ينبغى أن يعرج عليه فإنّ هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل مذ خلق الله العالم. (١)

والأعجب من الجميع ما أعطاه مؤلّف كتاب «حياه محمّد» الدكتور هيكل وزير المعارف المصرى السابق من تفسير، عند ذكر قصه الفيل.

ص: ١٩٥

١- . الكامل فى التاريخ: ١/٢٦٣، ذكر أمر الفيل، تحقيق الشيخ عبدالوهاب النّجار، طبع مصر - ١٣٤٨ هـ.

فهو بعد ذكر تلك القصة سرد آيات سورة الفيل، ومع أنه أتى بقول الله تعالى «وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ» قال عن هلاك جنود أبرهه: «ولعلّ جراثيم الوباء جاءت مع الرياح من ناحيه البحر، وأصابت العدو أبرهه نفسه»^(١) فإذا كان العدى جاء بهذا الميكروب هو الرياح، فلماذا حلقت طيورُ الأبايل على رؤوس جيش أبرهه، وألقت بالأحجار الصغيره على رؤوسهم دون غيرهم، وأى أثر كان لهذه الأحجار فى هلاك أولئك الجنود وموتهم؟

فالحق هو: أن لا يُتبع هذا النمط من التفكير، وأن لا نسعى لتفسير معجزات الأنبياء الكبرى بمثل هذه التأويلات والتفسيرات، بل إن طريق المعجزات والإعجاز أساساً يختلف عن طريق العلوم الطبيعیه التي تتحدّد دائرتها بمعرفه العلاقات العاديه بين الظواهر الطبيعیه، ولهذا يجب علينا أن لا نعمد - إرضاء لهوى جماعه ممّن لا يمتلكون أيّه معلومات دينيه، وليست لديهم أيّه معرفه بهذا النوع من القضايا - إلى التنازل عن أسسنا الدينيه المسلّمه، فى حين لا توجد أيّه حاجه ملزمه إلى مثل ذلك التنازل والاعتذار!

نقطتان هامتان

وهنا لابد من أن نذكر بنقطتين:

الأولى: يجب أن لا يظنّ أحدٌ - خطأ - أننا بما قلناه هنا نريد تصحيح كلّ ما تلوّكه ألسنُ الناس، وتنسبه إلى الأنبياء العظام، أو إلى عباد الله الكرام، من دون أن يكون له أى سند صحيح أو وجه معقول، بل وربما اتّسم بطابع الخرافه فى بعض الأحيان والموارد.

بل مقصودنا هو: أن نثبت - وطبقاً للمصادر الصحيحه والقطعيه المتوفّره - أنّ

ص: ١٩٦

١- . حياه محمّد لمحمّد حسين هيكل: ١٠٢ و ١٠٣.

الأنبياء كانوا يقومون - لإثبات ارتباطهم بما وراء هذه الطبيعة - بأعمال خارقه للعادة، خارجه عن الناموس الطبيعيّ المألوف، تعجز العلوم الطبيعيه الرائجه عن إدراك عللها، وأسبابها.

فهدفنا هو الدفاع عن هذه الطائفة من المعاجز.

الثانيه: إننا لا نقول مطلقاً: أنّ وجود المعجزه هو تخصيص لقانون العليّه العامّ، بل إنّنا في الوقت الّذى نحترّم فيه هذا القانون المسلم، نعتقد بأنّ لجميع حوادث هذا العالم عللاً خاصّه وأسباباً معيّنه، وإنّه من المستحيل أن يوجد شيء بعد عدمه من دون علّه، يبيد أنّنا نقول: إنّ لهذه الطائفة من الظواهر والوقائع (أى المعاجز) عللاً غير طبيعيه، وإنّ هذه العلل ميسّره ومتاحه لأنبياء الله ورسله والرجال الإلهيين خاصّه، وليس فى مقدور أحد - لم يستطع لا عن طريق الحس ولا عن طريق التجربه أن يكتشف هذه العلل - أن يتنكر لها، وينكرها، بل أنّ جميع الأعمال الخارقه الّتى يقوم بها أنبياء الله ناشئه عن علل لا يمكن تفسيرها بالعلل الطبيعيه المألوفه، ولو أنّها خضعت للتفسير والتوجيه لخرجت عن كونها معجزه، ولم يصدّق فى حقّها عنوان الإعجاز.

ولكى نقف على حقيقه هذا الأمر، ونعرف مدى بطلان المذهب المذكور (مذهب تفسير الخوارق والمعاجز بالتفسير المادى والمألوف المحض) ينبغى أن نتبسّط قليلاً فى شرح مسأله الإعجاز ونبحث فى مدى علاقتها بقانون العليّه العام.

بحث علمي حول المعجزه

إشارة

:

إنّ الحديث العلمى عن المعجزه لابد أن يتركز على عدّه نقاط أساسيه هى:

١. ماهى المعجزه وما هو تعريفها؟

٢. هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمه؟

ص: ١٩٧

٣. هل المعجزه تصدر عن علل مادّيه غير عاديه فقط؟

٤. كيف تدل المعجزه على صدق ادعاء النبوه؟

٥. كيف وبماذا نميز المعجزه عن الخوارق الأخرى؟ إن الاجابه عن هذه الأسئلة كفيله بتوضيح حقيقه المعجزه، وبيان مدى بطلان الإتجاه المذكور، نعى: تفسير المعاجز بالتفسير المادى الطبيعي.

على أننا - نظراً لضيق المجال - سنختصر الجواب عن هذه الأسئلة، وعلى من أراد التوسع أن يرجع إلى كتب الكلام والعقيده.

١ - ماهى المعجزه وما هو تعريفها؟

لقد عرّف علماء العقيدته المعجزه بتعاريف مختلفه أتقنها وأكملها هو: أنّ المعجزه أمرٌ خارقٌ للعاده، مقرونٌ بالدّعوى، والتحدّى، مع عدم المعارضه، ومطابقه الدعوى. (١)

ويعنى الشرط الأول (أى كون المعجزه أمراً خارقاً للعاده) أنّ كلّ ظاهره من الظواهر الطبيعيه الحادته مرتبطه بعلة حتماً، فلا يمكن صدورها من دون علة، وهذا الكون مشحون بالعلل التى يكتشفها البشر شيئاً فشيئاً وتدرجاً عبر وسائله العاديه أو العلميه، ولكن المعجزه مع كونها ظاهره واقعيه ولهذا فهى كغيرها مرتبطه بعلة، بيد أنّها تختلف عن غيرها من الظواهر فى أنّ من غير الممكن كشف علةا من الطريق العاديه أو بواسطه التجارب والتحقيقات العلميه، ولا يمكن تفسيرها وتبريرها بالعلل العاديه أو بما يكتشفه العلم من العلل لمثل هذه الحوادث، والمقصود من خرق العاده هو أنّ تقع المعجزه على خلاف ما عهدناه وتعودنا عليه

ص: ١٩٨

١- راجع للوقوف على هذا التعريف: كشف المراد فى شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلّى شرحاً، والمحقق نصيرالدين الطوسى متناً: ١٥٧، وأيضاً شرح تجريد الاعتقاد للعلامة القوشجى: ٤٦٥.

فى الظواهر الأخرى وعللها، مثل إشفاء المرضى من دون علاج ودواء كما هو المعهود، وإخراج الماء من صخره صمّاء من دون حفر أو تنقيب كما هو المألوف، وتحويل العصا إلى أفعى من دون تبييض وتفريخ وتوالد وتناسل، بل بمسح من يد، أو بعبارة من لسان، أو بضرب من عصا!!

من هنا نكتشف أنّ كلّ ظاهره يقف الناس العادّيون بالطرق العاديه أو العلماء خاصّه بالطرق العلميه على عللها وأسبابها لا تكون معجزه لأنّه فى هذه الصوره لم يقع أى شىء على خلاف العاده، والمألوف ليدل على مزيه فى الأنبياء.

فإنّ مثل هذه الظاهره التى يكون لها علّه عاديه يعرفها جميعُ الناس، أو سببُ علمى خاصّ يعرفه علماء ومتخصّصيّ صو ذلك العلم يمكن أن يقوم بإيجاد أمثاله جميعُ الناس، فلا تكون حينئذٍ معجزه.

ولا يعنى هذا - وكما أسلفنا - أنّ المعجزه لا تنتهى إلى أيّه علّه، أصلاً، بل هى تستند إلى علّه غير متعارفه وغير عاديه، ولمزيد التوضيح سنبحث فى هذا المجال عند الإجابة عن السؤال الثالث.

ويُخصّص من الشرط الثانى (أى كون الإعجاز مقروناً بالدعوى) أن يدعى صاحبُ المعجزه النبوه والسفاره من جانب الله تعالى، ويأتى بالمعجزه دليلاً على صحّه دعواه هذه، إذ فى غير هذه الصوره لا يكون الأمرُ الخارق للعاده معجزه بل يُطلق عليه فى الاصطلاح الدينى لفظ «الكرامه» كما كان لمريم بنت عمران التى كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً فإذا سألها: من أين لها ذلك؟

قالت: هو من عند الله(١).

ويعنى الشرطُ الثالث أن يكون الإعجاز مقروناً بدعوه الناس إلى الإتيان

ص: ١٩٩

١- . راجع سوره آل عمران: ٣٧.

بمثله، وعجز الناس عن هذه المعارضه، وعدم قدرتهم على الإتيان بمثله مطلقاً، إذ في هذه الصورة يتضح أنّ النبي يعتمد على قوه إلهيه غير متناهيه، قوه خارجه عن حوزة الإنسان العادى وإمكاناته.

وأما الشرط الرابع فيعنى أنّ الأمر الخارق للعادة إنّما يكون عملاً إعجازياً، ويستحق وصف المعجزه الدالّه على ارتباط الآتى بها بالمقام الإلهي، إذا وافق الأمر الواقع ما يدعى أنّه قادر على الإتيان به.

فلو قال: سأجعلُ هذا البئر الجاف الفارغ من الماء، يفيض بالماء بإشاره إعجازيه، ثم يقع ما قاله، كان هذا الأمر معجزه حقاً، وأما إذا حصل عكس ما قال، لم يكن ذلك إعجازاً، بل كان تكذيباً لمدّعيها.

هذا هو خلاصه ما يمكن أن يُقال حول تعريف المعجزه والإعجاز وهو يساعد على فهم طبيعه العمل الإعجازي.

٢. هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلّمه؟

وبهذا يتضح جواب السؤال المطروح في هذا المجال وهو أن يقال: إنّ قانون العليه (أى: ارتباط كلّ معلول حادث بعلة) ممّا ارتكز عليه الذهن البشرى وقبله العلم والفلسفه، ولذلك فإننا نلاحظ: كلّما وقف الإنسان على ظاهره - مهما كانت - بحث عن علّتها فوراً، فإذا رأى حيه، مثلاً عرف بأنّ علّتها الطبيعیه هي أن تبيض حيه، ثم خروج حيه من البيض بعد سلسله من التفاعلات، فكيف يمكن القبول بالمعاجز مع أنّها لا تنشأ عن مثل هذه العلل ولا تمرّ بمثل هذه المقدمات والمراحل والتفاعلات الطبيعیه، مثل انقلاب العصا إلى ثعبان، أو نبوع الماء من الصخر من دون حفر أو تنقيب.

أليس هذا هدم، أو تخصيصٌ لذلك القانون العقليّ المسلّم العام؟

فإنَّ الجواب على هذا السؤال هو أنَّ مثل هذا السؤال لا- يطرحه إلمالَّذين يحصرُون العلل والعلاقات بين الأشياء في العلل والعلاقات الماديّة الطبيعيه.

ولكن الحق هو أنَّ أيّ ظاهره ماديّه يمكن أن يكون لها نوعان من العلل:

١. العله العاديه التي تخضع للتجربه.

٢. العله غير العاديه التي لا يعرفها الناس ولم تكن متعارفه ولا تخضع للتجربه العلميه.

وهذا يعنى أنه لا توجد أيه ظاهره في هذا العالم بدون عله.

وتوضيحُ هذا أنَّ أصل وجود الحَيه ونبوع الماء من الصخره وتكلم الطفل - مثلاً - أمرٌ ممكنٌ، ولا يُعدّ من المحالات، لأنّها لو كانت من المحالات لما تحقّق وجودها أبداً.

نعم أنّها بحاجه إلى عله لكي تتحقّق، والعله - سواء في المعاجز أو غيرها - يمكن أن تكون إحدى الأمور التاليه:

أ. العله الطبيعيه العاديه وهى ما أَلفناها وأعتدنا عليها، مثل ظهور شجره من نواه بعد سلسله من التفاعلات.

ب. العله الطبيعيه غير العاديه وغير المعروفه وهذا يعنى أنه قد يكون لظاهره معينه نوعان من العلل، وطريقان للتحقّق والوجود أحدهما معروف ومعلوم، والآخر مجهول غير معلوم، والأنبياء بحكم اتّصالهم بالعلم والقدره الإلهيه، يمكن أن يقفوا على هذا النوع من العلل - عن طريق الوحي - ويوجدوا الظاهره.

ج. تأثير النفوس والأرواح

إنّ بعض الظواهر يمكن أن تكون ناشئه من تأثير أرواح الأنبياء ونفوسهم القويه، كما نلاحظ ذلك في مجال المتراضين الهنود الذين يبلغون درجه

يستطيعون معها أن يقوموا بما يعجز عنه الأفراد العاديون، وذلك بفضل الرياضات النفسية التي يخضعون لها. وهو ما يُسمّى باليوغا أحياناً، وقد كتبت حوله كتب ودراسات (١).

وقد أشار إلى هذا جملة من علماء الإسلام وفلاسفته منهم الفيلسوف الإسلامي الشهير صدر الدين الشيرازي حيث يقول: لا عجب أن يكون لبعض النفوس قوّة إلهية تكون بقوّتها كأنّها نفس العالم فيطيعها العنصر طاعه بدنّها لها، فكّلما ازدادت النفس تجرّداً وتشبّها بالمبادئ القسوى، ازدادت قوّة وتأثيراً في ما دونها.

وإذا صار مجرّداً التصوّر والتوهم سبباً لحدوث هذه التغيّرات في هيولى البدن لأجل علاقه طبيعته، وتعلّق جبلّي لها إليه، لكان ينبغي أن تؤثر في بدن الغير وفي هيولى العالم مثل هذا التأثير، لأجل مزيد قوّه شوقيه، واهتزاز علوى للنفس ومحبه إلهيه لها، فيؤثر نفسه في إصلاحها، وإهلاك ما يضرّها ويفسدها. (٢)

د. العلل المجرّده عن المادة

يمكن أن تكون للظواهر عللٌ مجرّده عن المادة كالملائكة، ذلك بأن تقوم الملائكة بأمر من الله سبحانه بتدمير قريه، أو تقوم بمعجزه بعد طلب النبيّ منها ذلك.

والملائكة مظاهرُ قدره الإلهيه في الكون، وهى التى تدبّر أمور الكون بأمر

ص: ٢٠٢

١- راجع كتاب الطاقه الإنسانيه لأحمد حسين.

٢- راجع: المبدأ والمعاد: ٣٥٥ و ٣٥٦ لصدر المتألّهين المشهور بصدر الدين الشيرازي، وشرح المنظومه للحكيم السيزوارى: ٣٢٧ قال السيزوارى ناظماً: يطيعه العنصر طاعه الجسد للنفس فالكل كجسمه يُعدّ

اللّٰه تعالى كما يقول القرآن الكريم: «فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا» (١)، وهى بالتالى جنود اللّٰه فى السماوات والأرض «وَلِلّٰهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ» (٢).

فلا بدّ من إرجاع الظواهر الطبيعىه الواقعه إلى أحد هذه العوامل الأربعة، ولا- يمكن أبداً حصر العله فى العله الطبيعىه العاديه المعروفه كما تصوّر منكره الإعجاز، بل يمكن أن تكون كلّ واحده من هذه العلل سبباً لحدوث الظاهره الطبيعىه، فإذا لم نشاهد عله ظاهره من الظواهر لم يجر لنا أن نُبادر - فوراً - إلى تصوّر أنّها ناشئه من غير عله.

ويجب إرجاع معاجز الأنبياء إلى إحدى الطرق الأخيره، والقول بأنّ الأنبياء استخدموا - فى إيقاع الخوارق والمعاجز - إمّا العلل الماديه غير المعروفه للعرّف، والعلم، وأما نفوسهم القويّه الّتى حصلت لهم بفعل الجهاد الرّوحيّ العظيم والرياضات النفسيه الشديده فهى عله تلك الأفعال الخارقه للعاده.

كما ويمكن أن تكون جميع تلك الأفعال العجيبه ناشئه عن جملة من العلل والعوامل الغيبيه المدبّره للكون بأمر اللّٰه ومشيتته.

إذن فلا تتحقّق المعجزه بدون عله كما يتصوّر، ولا يهدم الإعجاز القوانين العقليه المسلّمه.

٣. هل المعجزه تصدر عن علل ماديه غير معروفه فقط؟

قد يتصوّر البعض أنّ المعاجز تصدر عن علل مجرّده عن الماده فقط، نافين أن تكون لها أيّه علل ماديه معروفه أو غير معروفه، فى حين لا يصحّ هذا السلب

ص: ٢٠٣

١- . النازعات: ٥.

٢- . الفتح: ٤.

الكلى، إذ ما أكثر الخوارق التي تنشأ عن أمور عادية وعبر سلسله من التفاعلات الطبيعيه.

فعندما يرقد مرتاض هندي ليمرّ عليه تراكتور من دون أن تحدث في جسمه أية جراحات أو إصابات، فإنّ هناك أموراً مادّيه كثيره دخلت في هذا الأمر الخارق، مثل: وقوع هذا الحدث في إطار الزمان الخاص، والمكان الخاص، ومثل جسم المرتاض، وما كنه الحراثة.

فإنّ جميع هذه الأشياء الماديه أثرت في ظهور هذا العمل الخارق.

وهكذا عندما تنقلب عصا الكليم عليه السلام إلى حيّه على نحو الإعجاز، فإنّ العصا شيء مادّي، وهكذا الحال في غيره من الموارد.

ولهذا لا يمكن أن نتجاهل تأثير العوامل والأُمور المادّيه في ظهور الأمور غير العاديه، وننكر دخالتها بمثل هذا الإنكار.

وهذه هي أكثر النظريات اعتدالاً في هذا المجال.

وفي مقابل ذلك التفريط (1) أفرط آخرون إذ قالوا: إنّ جميع المعاجز والخوارق ناشئه من علل مادّيه غير معروفه.

وحثّى ما يقوم به المرتاضون يعود إلى هذه العوامل الطبيعيه التي لا يعرفها ولا يقف عليها حتّى النوابع من الناس فضلاً عن العاديين، لأنّ العوامل الطبيعيه على نوعين: المعروفه وغير المعروفه، والناس يستفيدون في حياتهم اليوميه - في الأغلب - من القسم الأوّل، بينما يستخدم الأنبياء والمرتاضون تلك العوامل الطبيعيه غير المعروفه التي وقفوا عليها وأدر كوها دون غيرهم.

ص: ٢٠٤

١- . أي حصر علل الخوارق والمعاجز في العوامل المجرّده ونفى تأثير العلل المادّيه على نحو الإطلاق.

والسبب في وصفنا هذه النظرية بالإفراط والتطرف هو عدم وجود دليل لإثباتها، بل يمكن أن يقال أن مثل هذا الموقف ناشئ عن الانهزامية تجاه العالم المادى، أو أنه لإرضاء الماديين، والنافين لما يدخل في إطار العالم المادى، فإن الماديين يرفضون أى عالم آخر غير الطبيعه وآثارها وعلاقاتها وخواصها، وحيث إن إرجاع المعجزات إلى العلل المجردة عن المادّه يخالف منطق الماديين، ويضاد اتجاههم وتصوّرهم، لهذا عمد أصحاب هذه النظرية (نظريه إرجاع المعاجز والخوارق إلى علل طبيعیه غير معروفه وغير عادیه) إلى مثل هذا التفسير إقناعاً للماديين، وإرضاء لهم فقالوا: إن جميع الخوارق والمعاجز ناشئه من علل طبيعیه وماديه على الإطلاق، غايه ما في الأمر أنّها علل غير معروفه، شأنها شأن كثير من العوامل الطبيعیه المجهوله.

ونحن بدورنا نترك هذه النظرية في دائره الإجمال وبقعه الإمكان، لعدم الدليل لا على صحتها ولا على خطئها.

٤. كيف تدل المعجزه على صحه ادعاء النبوه؟

إن صفحات التاريخ مليئه بذكر من ادعوا النبوه خداعاً وكذباً، واستغلالاً للناس، منتهزين سداجه الأغلبه الساحقه من جانب، وانجذابهم الفطرى إلى قضايا التوحيد والإيمان من جانب آخر.

فكيف وبماذا يُميّز النبىّ الصادق عن مدعى النبوه؟؟

إن المعجزه هي إحدى الطرق التي تدل على صحه ادعاء النبوه.

وإنما تدل المعجزه على صدق ادعاء النبوه، وارتباط النبىّ بالمقام الربوبى لأن الله الحكيم لا يمكن أن يزود الكاذب في دعوى النبوه بالمعجزه، لأن في

تزويد الكاذب تغيراً للناس الذين يعتبرون العمل الخارق دليلاً على ارتباط الآتى به بالمقام الربوبى.

وإلى هذا أشار الإمام جعفر الصادق عليه السلام فى جواب أبى بصير حين سأله عن عله إعطاء الله المعجزه لأنبيائه ورسله: وقال: «لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْق مَنْ أَتَى بِهِ، وَالْمَعْجِزَةَ عِلَامَةً لِلَّهِ لَا يُعْطِيهَا إِلَّا الْأَنْبِيَاءَ وَرَسُولَهُ، وَحُجَجَهُ، لِيَعْرِفَ بِهِ صِدْقَ الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ» (١).

٥. بماذا نُمَيِّزُ المعاجز عن غيرها من الخوارق؟

لا- شَكَّ فى أَنَّ السَّحْرَةَ والمرتاضين يقومون بأفعال خارقة للعادة مثيره للعجب والدهشه حتى أَنَّ البسطاء ربّما يذهب بهم الاندهاش إلى حدِّ الاعتقاد بأنَّ القائمين بهذه الخوارق مزوّدون بقوى غامضه غيبية لا يتوصّل إليها البشر.

فكيف يمكن إذن أن نُمَيِّزَ بينَ المعاجز وتلك الخوارق والعجائب؟

إنَّ التمييز بين هذه وتلك يمكن أن يتم إذا لاحظنا العلامات الفارقة بين المعجزه وغير المعجزه من الأعمال الخارقة للعادة، كأعمال السحره والمرتاضين (أصحاب اليوغا) ونظائرهم.

وهذه الفوارق هى عبارته عن الأمور التاليه:

١. أَنَّ القوّه الغامضه الحاصله لدى المرتاضين والسحره ناشئه بصوره مباشره من التعلّم عند أساتذه تلك العلوم، وذلك طيله سنين عديده من الزمان.

بينما لا يرتبط الإعجاز بالتعلّم والتلمذ أبداً، والتاريخ خير شاهد على هذا الكلام.

ص: ٢٠٦

١- . علل الشرائع: ١/١٢٢ ح ١، باب (١٠٠) عله المعجزه.

٢. أن أفعال السحره والمرتاضين العجيبه قابله للمعارضه والمقابله بأمثالها، وربّما بما هو أقوى منها، على عكس الإعجاز، فالمعجزات غير قابله لأن تعارض وتقابل بمثلها أبداً.

٣. المرتاضون والسحره لا يتحدّون أحداً بأفعالهم، ولا يطلبون معارضه أحد لهم وإلا لافتضحوا وكتبوا.

بينما يتحدّى الأنبياء والرسل بمعجزهم جميع الناس ويدعونهم لمعارضتهم والإتيان بمثل معجزهم لوقدروا، واستطاعوا.

وهذا هو القرآن الكريم ينادى بأعلى صوته على مر العصور: «قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَا كُنَّا نَعْبُدُهُمْ لِئَعُصِبَ ظَهْرُكَ». (١)

وذلك لأن أفعال السحره الخارقه مهما كانت فإنها تستند إلى الطاقه البشريه المحدوده، ولا تتجاوزها بينما يعتمد الأنبياء والرسل العنصر الغيبى، والإراداه الإلهيه.

٤. أن أفعال السحره والمرتاضين الخارقه للعادة أمور محدوده ومقتصره على ما تعلموه وتمرّنوا عليه، بينما لا تكون معاجز الأنبياء والرسل مقتصره على أمور خاصه، فهم لا يعجزون عن الإتيان بكل ما يطلبه الناس منهم، طبعاً حسب شرائط خاصه مذكوره فى محلّها فى أبحاث الإعجاز. (٢)

ص: ٢٠٧

١- الإسراء: ٨٨.

٢- مثل أن لا- يكون ما يطلبه الناس محالاً عقلياً كرؤية الله، وأن لا يكون ما سيأتى لهم به دليلاً على ارتباطه بالمقام الربوبى، كما لو طلبوا منه أن تكون له جنّه من نخيل وأعصاب وبيت من ذهب، لأنّ هذه الأمور لا تكون دليلاً على النبوه إذ نلاحظ أنّ كثيراً من الناس يملكون هذه وليسوا مع ذلك بأنبياء.

فتلك معاجز موسى عليه السلام المتعدده الابتدائيه، والمقترحه، ومعاجز المسيح عليه السلام المتنوعه خير مثال على هذا الأمر.

٥. أنّ أصحاب المعاجز يقصدون من معاجزهم دائماً دعوه الناس إلى أهداف إنسانيه عاليه وغايات إلهيه ساميه وبالتالي هدايه المجتمع البشرى إلى المبدأ والمعاد، والأخلاق الفاضله فيما لا يهدفُ المرتاضون والسحره إلّاتحقيق مآرب دنيويه حقيره، ونيل مكاسب مادّيه رخيصه.

هذا مضافاً إلى أنّ الأنبياء والرسل أنفسهم يختلفون عن السحره والمرتاضين في نفسيّتهم العاليه، وأخلاقهم الفاضله وتاريخهم المشرق، وصفاتهم النبيله على العكس من السحره والمرتاضين.

هذه هي أهمّ العلامات الفارقه بين المعاجز التي تدلّ على نبوّه الأنبياء والخوارق التي يقوم بها المرتاضون والسحره.

وبعد أن تبيّن كلّ هذا اتّضح أنّ الخوارق الإلهيه التي هي من مقوله المعاجز أيضاً تختلف عن الأمور العاديه في أنّ عللها لا تنحصر في العلل المادّيه غير المعروفه فضلاً عن الأمور الماديه المعروفه، بل ربّما تكون مستنده إلى العلل المجرّده، فليس من الصحيح أن نسعى لتفسير الخوارق الإلهيه مثل: «قصه الفيل» التي أهلك الله تعالى فيها جيش «أبرهه» العظيم بأحجار صغيره من سجل رمتها طيور أباييل بالعلل الماديه المعروفه كما فعل من أشرنا إلى أسمائهم في مطلع هذا البحث. (١)

ص: ٢٠٨

١- . أي الأستاذ الشيخ محمّد عبده والأستاذ محمّد حسين هيكل.

ولهذا عَدِلَ «سيد قطب» عن رأيه الذي كان قد أبداه في ما سبق في أمثال هذه الأمور، وقال: إنَّ الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره، وفي التصوّر الإسلامي وتكوينه... أن ينفُض الإنسان من ذهنه كلَّ تصوّر سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقرّرات تصوّريه أو عقليه أو شعوريه سابقه، وأن يبنى مقرّراته كلّها حسبما يَصوّر القرآن والحديث حقائق هذا الوجود، ومن ثمّ لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا- ينفى شيئاً يشته القرآن ولا يُؤوِّله، ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله، وما عدا المثبت والمنفى في القرآن، فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته.

نقول هذا بطبيعته الحال للمؤمنين بالقرآن... وهم مع ذلك يؤوّلون نصوصه هذه لتوائم مقرّرات سابقه في عقولهم، وتصوّرات سابقه في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود. (1)

وأما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، ويعتسفون نفى هذه التصوّرات لمجرّد أنّ العلم لم يصل إلى شيء منها فهم مضحكون حقاً! فالعلم لا يعلم أسرار الموجودات الظاهره بين يديه والتي يستخدمها في تجاربه، وهذا لا ينفى وجودها طبعاً! فضلاً عن أنّ العلماء الحقيقيين أخذت كثره منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون، لأنّهم بالتجربه وجدوا أنفسهم - عن طريق العلم ذاته - أمام مجاهيل فيما بين أيديهم ممّا كانوا يحسبون أنّهم فرغوا من الإحاطه بعلمه فتواضعوا تواضعاً علمياً نبيلاً ليست عليه سمه الادّعاء، ولا طابع التطاول على المجهول كما يتطاول مُدّعو العلم، ومدّعو التفكير العلمي، ممّن

ص: ٢٠٩

١- . وهنا قال سيّد قطب في هامش هذا الكلام ما نصه: وما أبرئ نفسي أننى فيما سبق من مؤلّفاتى وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد انسقتُ إلى شيء من هذا... وأرجو أن أتداركه في الطبعة التاليه إذا وفق الله.

ثم يقول في موضع آخر من تفسيره ناقداً موقف الأستاذ عبده من قصة الفيل التي هي إحدى الخوارق حيث حفظ الله تعالى بيته المعظم على نحو خارق للعاده:

ويرى الذين يميلون إلى تضيق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤيه السنن الكونيه المألوفه تعمل عملها، أنّ تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبه أقرب وأولى، وأنّ الطير قد تكون هي: الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات، فالطير هو كلّ ما يطير.

ثم ينقل كلام الأستاذ «عبده» الذي ذكرناه بنصّه مع قوله: هذا ما يصحّ الاعتماد عليه في تفسير السوره، وما عدا ذلك فهو ممّا لا يصحّ قبوله إلّابتأويل إن صحّت روايته، وممّا تعظم به قدره أن يؤخذ من استعز بالفيل - وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسمًا - ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر، لا ريب عند العاقل أنّ هذا أكبر وأعجب وأبهر.

ثم يقول: ونحن لا نرى أنّ هذه الصورة التي افترضها الأستاذ الإمام - صورته الجدري أو الحصبه من طين ملوث بالجراثيم... - أدلّ على قدره، ولا - أولى بتفسير الحادث، فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع، ومن حيث الدلاله على قدره الله، وتدييره، ويستوى عندنا أن تكون السنّه المألوفه للناس، المعهوده المكشوفه لعلمهم، هي التي جرت، فأهلكت قومًا أراد الله إهلاكهم، أو أن تكون سنّه الله قد جرت بغير المألوف للبشر، وغير المعهود المكشوف لعلمهم فحققت قدره ذاك.

ص: ٢١٠

ثم يقول: فقد كان الله سبحانه يريد بهذا البيت (١) أمراً، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابه للناس وأمناً وليكون نقطه تجمّع للعقيدته الجديده تزحف منه حرّه طليقه فى أرض حرّه طليقه لا- يهيمن عليها أحدٌ من خارجها ولا تسيطر عليها حكومه قاهره تحاصر الدعوه فى محضنها، ويجعل هذا الحادث عبره ظاهره مكشوفه لجميع الأنظار فى جميع الأجيال، حتى ليتمن بها على قريش بعد البعثه فى هذه السوره، ويضربها مثلاً لرعايه الله لحرماته وغيرته عليها.

فمما يتناسق مع جو هذه الملابس كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا- معهود بكل مقوماته وبكل أجزاءه، ولا داعى للمحاوله فى تغليب صوره المألوف من الأمر فى حادث هو فى ذاته وبملاساته مفردٌ فذ.

وبخاصه أنّ المألوف فى الجدرى والحصبه لا يتفق مع ما روى من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده، فإنّ الجدرى أو الحصبه لا يسقط الجسم عضواً عضواً، وأنمله أنمله، ولا يشق الصدر عن القلب!! (٢)

ثم إنّ «سيد قطب» يشير إلى علة تفسير هذه الحادته الخارقه للعادة بالتفسير المادى العادى الطبيعى، والمدرسه العقليه التى كان الأستاذ «عبده» على رأسها، وضغط الفتنة بالعلم التى تركت آثارها فى تلك المدرسه، ونحن نكتفى بهذا القدر بالمناسبه، وإشعاراً بما يمكن أن يجنيه مثل هذا الاتجاه على مقولات الدين ومفاهيمه ومقرراته عن الأحداث الكونيه والتاريخيه والإنسانيه والغيبيه. (٣)

هذا و يجدر بنا أن ننقل هنا ما قاله صاحب تفسير «مجمع البيان» فى هذا

ص: ٢١١

١- . أى الكعبه المشرفه.

٢- . فى ظلال القرآن: ٨/٦٧٠.

٣- . لاحظ: فى ظلال القرآن: ٨/٦٦٨-٦٧١ (فى تفسير سوره الفيل).

الصدد فى شأن حادثه الفيل استكمالاً لهذا البحث وتأكيذاً لمعجزه هذا الحدث.

قال صاحب المجمع: وكان هذا من أعظم المعجزات القاهرات، والآيات الباهرات فى ذلك الزمان، أظهره الله تعالى ليدل على وجوب معرفته، وفيه إرهاب لنبؤ نبينا صلى الله عليه وآله وسلم لأئنه ولد فى ذلك العام،... وفيه حجة لائحه قاصمه لظهور الفلاسفه والملحدين المنكرين للآيات الخارقة للعادات، فإنه لا يمكن نسبه شىء ممّا ذكره الله تعالى من أمر اصحاب الفيل إلى طبع وغيره، كما نسبوا الصيحه والريح العقيم والخسف وغيرهما ممّا أهلك الله تعالى به الأمم الخاليه إلى ذلك، إذ لا يمكنهم أن يروا فى أسرار الطبيعه إرسال جماعات من الطير معها أحجارٌ معدّه مهياً لهلاك أقوام معينين، قاصدات إرأهم دون من سواهم، فترميهم بها حتى تهلكهم، وتدمر عليهم، حتى لا يتعدى ذلك إلى غيرهم، ولا يشك من له مسكه عن عقل ولب أنّ هذا لا يكون إلا من فعل الله تعالى، مسبب الأسباب ومذل الصعاب، وليس لأحد أن ينكر هذا؛ لأنّ نبينا صلى الله عليه وآله وسلم لما قرأ هذه السوره على أهل مكّه لم ينكروا ذلك، بل أقروا به وصدّقوه مع شدّه حرصهم على تكذيبه، واعتنائهم بالردّ عليه، وكانوا قريبي العهد بأصحاب الفيل، فلو لم يكن لذلك عندهم حقيقه وأصل لأنكروه، وجحدوه، وكيف وأنهم قد أرخوا بذلك كما أرخوا ببناء الكعبه، وموت قصي بن كعب وغير ذلك.

وقد أكثر الشعراء ذكر الفيل ونظّموه ونقلته الرواه عنهم فمن ذلك ما قاله (أميّه) بن أبى الصلت:

إنّ آيات ربنا بيناتٍ ما يُمارى فيهنّ إلا الكفورُ

حبس الفيل بالمعمّس حتى ظلّ يحبو كأنه معقورُ

وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم:

ص: ٢١٢

أنتَ الجليل ربنا لم تُدْنِسْ أنتَ حبستَ الفيل بالمغمس

من بعد ما همّ بشيء مَبلسٍ حبستَه في هيئه المكر كس (١)

وقال ابن قيس الرقيات في قصيده:

وَاسْتَهَلَّتْ عَلَيْهِمُ الطَّيْرُ بِالْجَنْدَلِ حَتَّى كَأَنَّهُ مَرْجُومٌ (٢)

ماذا بعد هزيمة الأحباش؟

لقد استوجب مقتل أبرهه وتحطيم جيشه وهلاكهم، وبالتالي هزيمة أعداء الكعبة المشرفة، وأعداء قريش، أن يتعاضم شأن المكيين، وشأن الكعبة الشريفة في نظر العرب، فلا يجرأ أحدٌ - بعد ذلك - في أن يحدث نفسه بغزو مكّة، والإغارة على قريش، أو أن يفكر في التناول على الكعبة المعظمة صرح التوحيد الشامخ، فقد أخذ الناس يقولون في أنفسهم: إنَّ الله أهلك أعداء بيته المعظم بمثل ذلك الإهلاك إحتراماً لبيته وتعظيماً لشأن قريش، ولما كان يتصوّر أحدٌ أنّ ما وقع كان لأجل المحافظة على الكعبة فقط، أي من دون أن يكون لمكانه قريش ومنزلتهم وشأنهم دخل في ذلك، ويشهد بذلك أنّ قريشاً تعرّضت مراراً لحملات متكرّرة من غزاه ذلك العصر دون أن يُصابوا بمثل ما أُصيب به جنّد «أبرهه» الذي قصد الكعبة بالذات ويواجهوا ما واجهه، من الردع والكبت.

إنّ هذا الفتح والظفر الذي نالته قريش من دون تعب ونصب، ومن دون إراقه أيه دماء من أبنائها، أحدثت في نفوس القرشيين حالات جديدة خاصّة، فقد زادت من غرورهم وحميتهم، وعنجهيتهم، واعتزازهم بعنصرهم، فأخذوا يفكّرون في تحديد شؤون الآخرين، والتقليل من وزنهم، اعتقاداً منهم بأنهم الطبقة الممتازة من

ص: ٢١٣

١- المنكس.

٢- تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/٤٤٨ في تفسير سورة الفيل.

العرب دون سواهم. كما أنّها دفعتهم إلى أن يتصوّروا أنّهم وحدهم موضع عناية الأصنام (الثلاثاء والثلاثين) فهم وحدهم الذين تحبّبهم تلك الأصنام، وتحمّيتهم وتدافع عنهم!! ولأجل هذا تمادوا في لهوهم، ولعبهم، وتوسّعوا في ممارسته اللذّة والترّف حتّى أنّهم أظهروا ولعاً شديداً بالخمير، فكانوا يحتسونها في كلّ مناسبة، وربّما مدّوا موائد الخمر في فناء الكعبة، وأقاموا مجالس سمرهم وأنسهم إلى جانب أصنامهم الخشبيّة، والحجريّة، الّتي كان لكلّ قبيلة من العرب بينها صنمٌ أو أكثر، ويقضون فيها أسعدَ لحظات حياتهم - حسب تصوّرتهم - وهم يتناقلون فيها كل ما سمعوه من أخبار وقصص حول «مناذره» الحيره و«غساسنه» الشام وقبائل اليمن، وهم يتصوّرون أنّ هذه الحياه الجميله هي من بركة تلك الأصنام والأوثان، فهي الّتي جعلت عامّة العرب تخضع لقريش، وجعلت قريشاً أفضل من جميع العرب!!

أوهام قريش تنفّاقم!!

إنّ أخطر ما يمرُّ به إنسانٌ في حياته هو أن يصفو عيشه من المشاكل، رداً من الزمن ويحسّ لنفسه بنوع من الحصانه الوهميه، فعندها تجده يخصّ الحياه بنفسه ويستأثر بكلّ شيء في الوجود، ولا يرى لغيره من أبناء نوعه وجنسه من البشر أيّ حق في الحياه، ولا أيّ شأن وقيمه تذكر، وذلك هو ما يصطلح عليه بالاستكبار والاستعلاء، والإحساس بالتفوّق، والغطرسة.

وهذا هو بعينه ما حصل لقريش بعد اندحار جيش «أبرهه» وهلاكه، وهلاك جنده بذلك الشكل العجيب الرهيب.

فقد عزمت قريش منذ ذلك اليوم - وبهدف إثبات تفوّقها وعظمتها للآخرين -، على أن تلغى أي احترام لأهل الحلّ لأنّهم كانوا يقولون: إنّ جميع

العرب محتاجون إلى معبدنا، وقد رأى العرب عامه كيف اعتنت بنا آلهة الكعبة، خاصه، وكيف حمتنا من الأعداء!!

ومن هنا بدأت قريش تضيّق على كلّ من يدخل مكّه من أهل الحل للعمرة أو الحج، وتتعامل معهم بخشونه بالغه، وديكتاتوريه شديده، ففرضت على كلّ من يريد دخول مكّه للحج أو العمرة أن لا يصطحب معه طعاماً من خارج الحرم، ولا يأكل منه، بل عليه أن يقتنى من طعام أهل الحرم، ويأكل منه، وأن يلبس عند الطواف بالبيت من ثياب أهل مكّه التقليديه القوميه، أو يطوف عرباناً بالكعبه إن لم يكن في مقدوره شراءها واقتناؤها، ومن كان يرفض الخضوع لهذا الأمر، من رؤساء القبائل وزعمائها، كان عليه أن يتزع ثيابه - بعد انتهائه من الطواف - ويلقيها جانباً، ولا يحق لأحد أن يمسه أبداً لا صاحبها ولا غيره. (١)

أمّا النساء فكان يجب عليهن إذا أردن الطواف أن يُطفنّ عراه، وأن يضعن خرقة على رؤوسهن فقالت امرأه من العرب، وهى كذلك تطوف بالبيت:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله (٢)

ثم إنّه لم يكن يحق لأييهودى أو مسيحي - بعد هزيمه «أبرهه» الذى كان هو أيضاً مسيحياً - أن يدخل مكّه إلّا أن يكون أجيراً لمكّي، وحتىّ فى هذه الصوره كان يجب عليه أن لا يتحدّث فى شىء من أمر دينه ومن أمر كتابه.

لقد بلغت النخوة والعصبيه بقريش حدّاً جعلتهم يتركون بعض مناسك الحج التى كان يجب الإتيان بها خارج الحرم!!

ص: ٢١٥

١- . وكانت تسمى عندهم «اللقى»، أى الملقى على الأرض، وقيل: أصل اللقى أنّهم كانوا إذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا: لا تطوف فى ثياب عصينا الله فيها فيلقونها عنهم، ويسمّون ذلك الثوب لقى، فإذا قضاوا مناسكهم لم يأخذوها وتركوها بحالها ملقاه. لاحظ: بحار الأنوار: ١٩/٦٧.

٢- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ١/٤٥٢؛ السيره النبويه لابن هشام: ١/١٣١.

لقد أنفوا منذ ذلك اليوم أن يأتوا بمناسك عرفه كما يفعل بقيه الناس فتركوا الوقوف بعرفه، والإفاضة منها مع أن آباءهم (من ولد إسماعيل) كانوا يُقرّون أنها من المشاعر والحج، (١) وكانت هيبه قريش وعظمتها الظاهرية رهناً - برمتها - بوجود الكعبه بين ظهرانيها، وبوظائف الحج ومناسكه هذه، إذ كان يجب على الناس في كل عام أن يأتوا إلى هذا الوادي الخالي عن الزرع وهذه الصحراء اليابسه لأداء المناسك، إذ لو لم يكن في هذه النقطة من الأرض أي مطاف أو مشعر لما رغب أحد حتى في العبور بها فضلاً عن المكث فيها عدّه أيام وليال. لقد كان ظهور مثل هذا الفساد الأخلاقي وهذا الموقف المتعصّب من الآخرين أمراً لا بدّ منه بحسب المحاسبات الاجتماعيه.

فالبيئه المكيه لا بدّ أن تغرق في الفساد والانحراف حتى يتهيأ العالم لانقلاب أساسيّ ونهضه جذريه.

إنّ كلّ ذلك الانفلات الأخلاقي والترف والانحراف كان يهيئ الأرضيه ويعدّها لظهور مصلح عالمي، أكثر فاكثراً.

ولهذا لم يكن غريباً أن يغضب «أبوسفيان» فرعون مكه وطاغيتها على «ورقه بن نوفل» حكيم العرب الّذي تنصّر في أخريات حياته وأطلع على ما في الإنجيل، كلّما تحدّث عن الله والأنبياء ويقول له: «لا حاجه إلى مثل هذا الإله وهذا النبيّ، تكفينا عنايه أصنامنا»!!

عَبْدُ اللَّهِ وَالِدُ النَّبِيِّ:

يوم فدى «عبدالمطلب» ولده «عبدالله» بمائه من الإبل، نحرها، وأطعم الناس في سبيل الله، لم يكن يمض من عمر «عبدالله» أكثر من أربعة عشر ربيعاً،

ص: ٢١٦

١- . لاحظ: الكامل في التاريخ: ١/٤٥٢.

وقد تَسَبَّطَ هذه الواقعةُ في أن يكتسب «عبدالله» شهره خاصه بين عشيرته مضافاً إلى شهرته الكبرى بين قريش، وأن يحظى بمكانه كبيره عند أبيه: «عبدالمطلب» بنحو خاص، لأن ما يُكَلِّفُ الإنسانَ غالباً، ويتحملُ في سبيله عناءً أكثرَ لابدأ أن يحظى لديه بمكانه أكبر، ويحبّه محبّه تفوق المتعارف.

ومن هنا كان «عبدالله» يتمتع باحترام يفوق الوصف بين أبناء عشيرته وأفراد عائلته وأقربائه.

ثم إن «عبدالله» يوم كان يتوجه برفقه والده إلى المذبح كان يعاني من مشاعر وأحاسيس متناقضه ومتضاده، فهو من جانب كان يُكِنُّ لوالده احتراماً كبيراً وحباً شديداً، ولهذا لم يكن يجدُ بدءاً من طاعته، والانصياع لمطلبه، بينما كان من جانب آخر يعاني من قلق، واضطراب شديدين على حياته التي كان يرى كيف تعبت بها يدُ القدر، وتكادُ تقضى عليها كما يقضى الخريفُ على أوراق الشجر.

كما أن «عبدالمطلب» نفسه كان هو الآخر تتجاذبه قوتان متضادتان: قوة الإيمان والعقيدة من جانب، وقوة العاطفه والمحبّه الأبويه من جانب آخر، وقد أوجدت هذه الواقعة في نفسى هاتين الشخصيتين آثاراً مرّه يصعبُ زوالها، بيد أن تلك المشكله حيث عولجت بالطريقه التي ذكرناها ونجا «عبدالله» من الموت المحقق، ففكر «عبدالمطلب» فوراً في أن يغسل عن قلب «عبدالله» تلك المراره القاسيه بزواج «عبدالله» بآمنه، وبذلك يقوى من عرى حياته التي بلغت درجه الانصرام، بأقوى السُّبُل، وأمتن الوسائل.

ومن هنا توجه «عبدالمطلب» إلى بيت «وهب بن عبدمناف» - فور رجوعه من المذبح آخذاً بيد ولده عبدالله - وعقد لولده على «آمنه بنت وهب» التي كانت تُعرَفُ بالعِفّه، والطُهر، والنجابه، والكمال.

كما أنه عقد لنفسه - في ذات المجلس - على «دلاله» ابنه عم آمنه، ووزق منها «حمزه» عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمشابه له في السن. (١)

غير أن الأستاذ المؤرخ «عبد الوهاب النجار» المدرّس بقسم التخصّص في الأزهر الذي صحح «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، وعلّق عليه بملاحظات وهوامش مفيدة، شكك في صحه هذه الروايه، واستغربها، وقال: لا أظن أنه يصحّ شيء في هذه الروايه، إذ المعقول أن يترث «عبدالمطلب» بعد ذلك المجهود المضنيّ حتّى يريح نفسه ثم يذهب ليخطب لابنه. (٢)

ولكننا نعتقد بأنّ المؤرخ المذكور لو نظّر إلى المسأله من غير هذه الزاويه لسهّل عليه التصديق بهذه الروايه.

ثم إن «عبدالمطلب» عيّن موعداً للزفاف، وعند حلول ذلك الموعد تمّت مراسم الزفاف في بيت «آمنه» طبقاً لما كان متعارفاً عليه في قريش، ولبث «عبدالله» مع «آمنه» رداً من الزمن حتّى سافر إلى الشام للتجاره، وعند عودته توفّي أثناء الطريق، كما ستعرف.

دور الأيادي المشبوهه في تاريخ الإسلام

لا شك أنّ التاريخ سجّل في صفحاته كلّ ما يتعلّق بالشعوب والأقوام من نقاط مضيئه أو مظلمه، كقصص للعبره والعظه. ولكنّ الحب والبغض تاره، والتساهل والبدعه تاره أخرى، وحبّ إظهار المقدره وإبراز القوه الأدبيه تاره ثالثه، وغير ذلك من العوامل والأسباب عملت عملها فتدخّلت - في جميع الأدوار والعصور - في صياغه التاريخ، وخلطت الغث

ص: ٢١٨

١- . تاريخ الطبري: ٢/٧، والمذكور في هذا المصدر «هاله».

٢- . الكامل في التاريخ: ٢/٤، قسم الهامش.

بالسمين والحقيقه بالخرافه، وتلك هى مشكله كبرى تقع فى طريق المؤرّخ الذى يريد عرض حوادث التاريخ فى أمانه وإستقامه، ولذلك يجب عليه أن يميّز الحقّ عن الباطل، والصدق عن الكذب من خلال الأخذ بالموازين العلميه، والممارسه الكامله للتاريخ. ولقد كان للعوامل المذكوره تأثير أيضاً فى تدوين التاريخ الإسلامى، فالأيدى المريبه المشبوهه عملت على تحريف الحقائق فى هذا المجال، بل وربّما عمد بعض الأصدقاء - بهدف تعظيم شأن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى نسبة بعض الأمور التى يظهر عليها آثار الاختلاق والوضع، إليه صلى الله عليه وآله وسلم، وهو منها بُراء.

فقد جاء فى التاريخ أنّ نور النبؤه كان يسطع فى جبين «عبدالله» والد النبى صلى الله عليه وآله وسلم دائماً(١)، كما نقرأ أنّ «عبدالمطلب» كان يأخذ بيد ولده «عبدالله» فى سنين الجذب والقحط، ويصعد الجبل ويستسقى متوسلاً إلى الله بالنور الذى كان بينا فى جبين «عبدالله»، فهذا هو ما كتبه وسجّله كثيرٌ من علماء الشيعة والسنة فى مؤلفاتهم، ونحن لا نملك أى دليل على عدم صحّته.(٢)

ولكن هذا النور صار أساساً لبعض الأساطير التى لا يمكن أن نقبل بها مطلقاً، وهذا ما نلاحظه فى القصة التالیه!!

قِصَّةُ فَاطِمَةَ الْخَنْعَمِيَّةِ

«فاطمه» هذه هى أختُ «ورقه بن نوفل» الذى كان من حكماء العرب وكُتّهانهم، وكان له معرفه كبيره بالإنجيل. وقد سجّل التاريخ حديثه مع خديجه فى بدء بعثه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وسوف نشير إليه فى محلّه من هذا الكتاب.

وكانت «فاطمه» أختُ «ورقه» قد سمعت من أخيها عن نبؤه رجل من أحفاد

ص: ٢١٩

١- . لاحظ: السيره الحلبيه: ١/٦٣.

٢- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ٢/٧-٨؛ بحار الأنوار: ١٥/١١٤.

«إسماعيل»، ولهذا ظلت تنتظر، وتبحث.

وذات يوم وعندما كان «عبدالمطلب» متوجّهاً إلى بيت آمنه بنت وهب بعد قفوله ومنصرفه من المذبح وهو آخذ بيد «عبدالله»، شاهدت «فاطمه الخنعميه» - التي كانت تقف على مقربة من منزلها - النور الساطع من جبين «عبدالله»، والذي كانت تنتظره مدّة طويلة وتبحث عنه بشوق، فقالت: أين تذهب يا عبدالله؟ لك مثل الإبل التي نُحِرَت عنك، وقع على الآن.

فقال: إنّ معي أبي ولا أستطيع خلفه ولا فراقه!!

ثم تزوّج «عبدالله» بآمنه في نفس ذلك اليوم، وقضى معها ليلة واحدة.

ثم في الغد من ذلك اليوم أتى المرأه «الخنعميه» التي عرضت نفسها عليه، وأبدى استعداداه لتنفيذ رغبتها، ولكن «الخنعميه» قالت له: ليس لي بك اليوم حاجه، فلقد فارقك النور الذي كان معك أمس!!

وقيل: إنه لما عرضت تلك المرأه «الخنعميه» على «عبدالله» ما عرضت، أجابها «عبدالله» بالبداهه بيتين من الشعر هما:

أَمَّا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهُ وَالْحِلُّ لِحُلِّ فَاسْتَبِيْنَهُ

فكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَبْغِيْنَهُ يَحْمِي الْكَرِيْمُ عَرْضَهُ وَدِيْنَهُ

ولكن لم تمر ثلاثة من زواجه بآمنه، وإقامته عندها حتّى دعتة نفسه إلى أن يأتي الخنعميه، وعرض نفسه عليها قائلاً: هل لك فيما كنت أردت؟ فقالت: لقد رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون لي فأبى الله إلّا أن يجعله حيث أراد، فما صنعت بعدى؟

قال: زوّجني أبي آمنه بنت وهب!! (١).

علام الإختلاق في هذه القصة!

لقد غفل مختلق هذه القصة عن أمور كثيرة عند صياغته لها، ولم يستطع إخفاء آثار الإختلاق عنها.

فلو كان يكتفى بالقول - مثلاً - بأن «فاطمه» صادفت «عبدالله» ذات يوم في زقاق من الأزقه، أو سوق من الأسواق، وشاهدت نور النبي ساطعاً من طلعتة ففكرت في الزواج منه، رغبه في ذلك النور، لكان من الممكن التصديق بهذه القصة، بيد أن نصّ القصة جاء بصوره لا يمكن القبول بها للأسباب التاليه:

١. أن هذه القصة تفيد أن المرأة «الخثعميه» عندما عرضت نفسها على «عبدالله»، كانت يد «عبدالله» في يد والده «عبدالمطلب»، فكيف يمكن أن تعرض تلك الفتاه نفسها عليه وتبين مطلوبها له، ويدور بينهما ما دار، ولا يشعر بهما عبدالمطلب؟!

ثم ألم تستح من عظيم قريش «عبدالمطلب» الذي لم يثنه عن طاعه الله تعالى شيء حتى قتل ولده وذبحه.

ولو قلنا: إن مطلبها كان حلالاً مشروعاً، فإن ذلك لا ينسجم مع البيتين من الشعر اللذين ردّ بهما «عبدالله» طلبها.

٢. والأصعب من ذلك قصه عبدالله نفسه. فإنّ ولداً مثل «عبدالله» يحترم والده إلى درجه الاستعداد لأن يُذبح وفاءً لنذر والده، كيف يمكن أن يتفوّه في حضره والده بما نُقل عنه؟!

ص: ٢٢١

١- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١/١٠١-١٠٣؛ تاريخ الطبرى: ٥/٢-٧؛ والكامل فى التاريخ: ٧/٢-٨.

ترى أيمن لشاب نجا لتوّه من السيف والذبح، ولا يزال يعاني من آثار الصدمه الروحيه أن يستجيب لرغبات امرأه، أو يبدى استعداده ورضاه القلبيّ لذلك لولا وجود والده معه؟! ترى هل كانت تلك المرأه جاهله بالظروف، لا تقدّر الأحوال، ولا تعرف الوقت المناسب لطرح مطلبها، أو أنّ مختلق هذه القصه غفل عن نقاط الضعف البارزه هذه!!؟

ثم إنّ ممّا يفضح هذه القصه ويظهر بطلانها ما جاء في الصوره الثانيه لها، فإنّ عبد الله - كما لاحظنا - جابه طلب تلك المرأه ببيتين من الشعر وقال ما حاصله بأنّ الموت أسهل عليه من ارتكاب هذا الفعل الحرام الذي يأتي على دين الرجل وشرفه، فكيف يجوز لمثل هذا الشاب الطاهر الغيور أن يقع فريسه لتلك الأهواء، والرغبات الرخيصه الفاسده، والحال أنّه لم ينقض من زواجه أكثر من ثلاث ليال، وتدفعه غريزته الجنسيه إلى أن يبادر إلى بيت المرأه الخثعميه.

إنّ ما جابه به «عبد الله» دعوه تلك المرأه، وما جاء في ذينك البيتين من الشعر اللّذين يطفحان بالغيره، والإباء، لخير دليل على طهاره «عبد الله» وعفته، وتقواه، وترفعه عن الآثام والأدران، وابتعاده عن الأنجاس والأدناس.

وقد علّق الأستاذ العلامه «النجار» على هذه الأسطوره بقوله: «ليس من المعقول أن يذهب عبد الله يبغي الزنا في الساعه التي تزوج فيها، ودخل فيها على امرأته».

ولكنّ الأستاذ «النجار» أخطأ في تشكيكه في النور النبويّ الساطع في جبين «عبد الله» حيث قال معقّباً على كلامه السابق: «ولكنّها مسأله النور في وجهه يريدون إثباتها ورسول الله غنى عن هذا كلّه». (١)

ص: ٢٢٢

١- . هامش الكامل في التاريخ: ٢/٤.

فإن ذلك مما رواه جميع المؤرخين بلا استثناء، فلا داعى ولا وجه للتشكيك فيه!

طهاره النبى من دنس الآباء وعهر الأمهات

:

وينبغى هنا - وبالمناسبه - أن نشير إلى مسأله مهمه فى تاريخ النبى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ألا وهى طهاره النسب النبوى من دنس الآباء ودناءتهم وعهر الأمهات وفسادهن، فلا يكون فى أجداده وجداته سفاح، وزنا.

وهذا ممّا اتفق عليه المسلمون، بعد أن دلّ عليه العقل، إذ لو لم يكن النبى منزهاً عن دناءه الآباء وعهر الأمهات، لتنفرت عنه الطباع ولم يرغب أحدٌ فى متابعتة، والانقياد لأوامره ونواهيته.

ولقد صرح رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فى أحاديث رواها السنّه والشيعة.

فقد جاء عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«نقلت من الأصلاب الطاهره إلى الأرحام الطاهره نكاحاً لا سفاحاً».(١)

وجاء أيضاً أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسينيه إلى الأرحام الطاهره».(٢)

وقال الإمام أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام:

«وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وسيّد عباده كلما نسخ الله الخلق فرقتين جعله فى خيرهما لم يسهم فيه عاهراً، ولا ضرب فيه فاجر».(٣)

وروى عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام فى هذا الصدد عند تفسير قول الله

ص: ٢٢٣

١- . كنز الفوائد: ٧٠.

٢- . السيره الحلبيه: ١/٧٠.

٣- . نهج البلاغه: ٢/١٩٤، الخطبه ٢١٤، طبعه عبده.

تعالى: «وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» (١) أَنَّهُمَا قَالَا:

«فِي أَصْلَابِ النَّبِيِّينَ، نَبِيٌّ بَعْدَ نَبِيٍّ، حَتَّى أُخْرِجَهُ مِنْ صَلْبِ أَبِيهِ عَنْ نِكَاحٍ غَيْرِ سَفَاحٍ مِنْ لَدُنِ آدَمَ». (٢) وَقَدْ صَرَّحَ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِهَذَا الْأَمْرِ، وَاشْتَرَطُوهُ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ الْمُحَقِّقُ نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيُّ فِي «تَجْرِيدِ الْإِعْتِقَادِ»: وَيَجِبُ فِي النَّبِيِّ الْعِصْمَةُ... وَعَدَمُ السُّهُوِّ، وَكُلُّ مَا يَنْفَرُّ عَنْهُ مِنْ دِنَاءِ الْأَبَاءِ وَعَهْرِ الْأُمَّهَاتِ... (٣)

وَقَدْ وَافَقَهُ عَلَى هَذَا الْعُلَمَاءُ الْقَوْشَجِيُّ الْأَشْعَرِيُّ فِي شَرْحِ التَّجْرِيدِ. (٤)

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ الْمُتَكَلِّمُ الْمُقَدَّادُ السِّيُورِيُّ فِي «اللُّوَامِعِ الْإِلَهِيَّةِ»: وَيَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ مَوْلُوداً مِنَ الزَّانَا وَلَا فِي آبَائِهِ دَنِيٍّ وَلَا عَاهِرٍ. (٥)

وَفَاءُ عَبْدِ اللَّهِ فِي «يُتْرَبُ»:

لَقَدْ بَدَأَ «عَبْدُ اللَّهِ» بِالزَّوْجِ فَصَلاً جَدِيداً فِي حَيَاتِهِ، وَأَضَاءَ رُبُوعَهَا بِوُجُودِ شَرِيكِهِ لِلْحَيَاةِ فِي غَايَةِ الْعِفَّةِ وَالْكَمَالِ هِيَ زَوْجَتُهُ الطَّاهِرَةُ «آمَنَةٌ»، وَبَعْدَ مَدَّةٍ مِنْ هَذَا الزَّوْجِ الْمُبَارَكِ تَوَجَّهَ فِي رِحْلَةِ تِجَارِيَّةٍ - وَبِصَحْبِهِ قَافِلُهُ - إِلَى الشَّامِ بِهَدَفِ التَّجَارَةِ.

دَقَّتْ أَجْرَاسُ الرَّحِيلِ، وَتَحَرَّكَتِ الْقَافِلَةُ التِّجَارِيَّةُ وَفِيهَا عَبْدُ اللَّهِ، وَبَدَأَتْ رِحْلَتُهَا مِنْ «مَكَّةَ» صُوبَ الشَّامِ، وَهِيَ مُشْدُودَةٌ بِمِثَالِ الْقُلُوبِ وَالْأَفئِدَةِ.

وَكَانَتْ «آمَنَةٌ» تَمُرُّ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِفِتْرَةِ الْحَمْلِ، فَقَدْ حَمَلَتْ مِنْ زَوْجِهَا

ص: ٢٢٤

١- . الشعراء: ٢١٩.

٢- . تفسير مجمع البيان: ٧/٣٥٨، عند تفسير الآية.

٣- . كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٤٧٢، تحقيق الشيخ حسن زاده الآملی.

٤- . راجع: شرح القوشجی لتجريد الاعتقاد: ٣٥٩.

٥- . اللوامع الإلهية: ٣١١.

وبعد مُضَى بضعة أشهر طلعت على مشارف مكّه بوادر القافلة التجاريه وهى عائده من رحلتها، وخرج جمع كبير من أهل مكّه لاستقبال ذويهم المسافرين العائدين. ها هو والد «عبدالله» ينتظر - فى المنتظرين - ابنه «عبدالله»، كما أنّ عيون عروسه ولده «آمنه» هى الأخرى تدور هنا وهناك تتصفّح الوجوه وتبحث عن زوجها «عبدالله» فى شوق لا يوصف.

ولكن ومع الأسف لا يجدان أثراً من «عبدالله» بين رجال القافله!!

وبعد التحقيق يتبين أنّ «عبدالله» قد تمرّض أثناء عودته فى يثرب، فتوقّف هناك بين أحواله لكى يستريح قليلاً فإذا تماثل للشفاء عاد إلى أهله فى «مكّه».

وكان من الطبيعى أن يغتمّ هذان المنتظران «عبدالمطلب، وآمنه» لهذا النبأ، وتعلو وجهيهما آثار الحزن، والقلق وتنحدر من عيونهما دموع الأسى والأسف.

فأمّر «عبدالمطلب» أكبر ولده: «الحارث» إلى أن يتوجّه إلى «يثرب»، ويصطحب معه «عبدالله» إلى مكّه.

ولكنّه عندما دخل يثرب عرف بأنّ أخاه: «عبدالله» قد توفّى بعد مفارقه القافله له بشهر واحد، فعاد الحارث إلى مكّه، فأخبر والده «عبدالمطلب»، وكذا زوجته العزيزة «آمنه» بذلك، ولم يخلف «عبدالله» من المال سوى خمسه من الابل، وقطيع من الغنم، وجاريه تدعى «أمّ أيمن» صارت فيما بعد مربيه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. (١)

كانت سُيُحُبُ الجاهليه الداكنه تُغَطِّي سماء الجزيره العربيه، وتمحي الاعمالُ القبيحه والممارساتُ الظالمه، والحروبُ الداميه، والنهبُ والسلبُ، ووأذُ البنات، وقتلُ الاولاد، كُلُّ فضيله أخلاقيه في البيئه العربيه، وكان المجتمع العربي قد أصبح في منحدر عجيب من الشقاء، ليس بينهم وبين الموت إلأغشاء رقيق ومسافه قصيره!!

في هذا الوقت بالذات طلعت عليهم شمس السعاده والحياء فأضاءت محيط الجزيره الغارق في الظلام الدامس، وذلك عندما أشرقت بيئه الحجاز بمولد النبي المبارك «محمّد» صلى الله عليه و آله و سلم وبهذا تهيأت المقدمات اللازمه لنهضه شعب متخلف طال رزوحه تحت ظلام الجهل، والتخلف، وطالت معاناته لمراره الشقاء. فإنّه لم يمض زمن طويل إلأوملاً نور هذا الوليد المبارك أرجاء العالم وأسّس حضاره إنسانيه عظمى في كلّ المعموره.

فتره الطفوله في حياه العُظماء

إنّ جميع الفصول في حياه العُظماء جديره بالتأمل، وقيمه بالمطالعه، فربّما تبلغ العظمه في شخصيه أحدهم من السعه، والسمو بحيث تشمل جميع فصول حياهه بدء من الطفوله، بل وفتره الرضاع فتكون حياهه وشخصيته برمتها سلسله متواصله من حلقات العظمه.

إنّ جميع الأدوار، والفترات في حياه العُظماء، والنوابغ وقاده المجتمعات

البشريه، ورؤاد الحضارات الإنسانيه وبُناتها تنطوي في الأغلب على نقاط مثيره وحساسه وعلى مواطن توجب الإعجاب.

إن صفحات تاريخهم وحياتهم منذ اللحظة التي تنعقد فيها نطفهم في أرحام الأمهات، وحتى آخر لحظه من أعمارهم مليئه بالأسرار، زاخره بالعجائب.

فنحن كثيراً ما نقرأ عن حياه أولئك العظماء في أدوار طفولتهم أنها كانت تقارن سلسله من الأمور العجيبه، والمعجزه.

ولو سهل علينا التصديق بهذا الأمر في شأن الرجال العاديين من عظماء العالم، لكان تصديقنا بأمثالها في شأن الأنبياء والرسل أسهل من ذلك بكثير، وكثير.

إن القرآن الكريم ذكر فتره الطفوله في حياه النبي موسى عليه السلام في صورته محفوظه بكثير من الأسرار، فهو يقول ما خلاصته: إن مئات من الاطفال قُتلوا وذبحوا بأمر من فرعون ذلك العصر منعاً من ولاده موسى ونشوته.

ولكن إرادته الله شاءت أن يُولد الكليم، وظلت هذه المشيئه تحفظه من كيد الكائدين، ولهذا لم يعجز أعداؤه عن القضاء عليه أو إلحاق الأذى به فحسب، بل تربى في بيت فرعون أعدى أعدائه.

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: «وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصَنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي» .

ثم يقول: «إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ» .(١)

ثم إن القرآن الكريم يذكر قصه ولاده المسيح، ويصور طفولته

ص: ٢٢٧

ونشأته بشكل أعجب إذ يقول:

«وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا *
قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَعْثًا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ
فَأَنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا
تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَلِيًّا * فَكَلَىٰ وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ
مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا *
يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي
عَبِيدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَ
لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. (١)

فإذا كان أتباع القرآن والتوراه والإنجيل يشهدون بصحة هذه المطالب حول ولاده هذين النبيين العظيمين من أولى العزم موسى وعيسى عليهما السلام، ويقرون بصدقها، فلا يصح في هذه الصورة أن نستغرب وقوع أمثالها في شأن رسول الإسلام، ونتعجب من الحوادث العجيبه التي سبقت أو رافقت ميلاده المبارك، ونعتبرها

ص: ٢٢٨

أموراً سطحية لا تدلّ على شيء.

فنحن نقرأ في الكتب التاريخيه وفي كتب الحديث عن وقوع حوادث عجيبيه يوم ولاده النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مثل: ارتجاس(1) أيوان كسرى، وسقوط أربع عشره شرفه منه، وانخماذ نار فارس التي كانت تُعبد، وانجفاف بحيره ساوه، وتساقط الأصنام المنصوبه في الكعبه على وجوهها، وخروج نور معه صلى الله عليه وآله وسلم أضاء مساحه واسعه من الجزيره، والرؤيا المخيفه التي رآها أنوشيروان ومؤبدوه، وولاده النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مختوناً مقطوع السيره، وهو يقول: «اللّهُ أكبر، والحمد لله كثيراً، سُبْحان الله بكرة وأصيلاً».

وقد وردت جميع هذه الأمور في المصادر التاريخيه الأولى، والجوامع الحديثيه المعتميره.(2)

ومع ملاحظه ما ورد في حق موسى وعيسى عليهما السلام ونقلنا بعضه هنا، لا يبقى أيّ مجال للشكّ في صحّه هذه الحوادث.

نعم ينبغي أن نسأل هنا: ماذا كانت تهدف هذه الحوادث غير العاديه؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال يجب أن نقول:

إنّ هذه الحوادث الخارقه والعجيبه كانت تهدف إلى أمرين:

الأول: أن تدفع بالجبابره، والوثنيين وعبده الأصنام إلى التفكير فيما هم فيه فيسألوا أنفسهم: لماذا انطفأت نيرانهم التي طالما بقيت مشتعله تحرسها أعيان السدنه والكهنه؟

ص: ٢٢٩

١- ارتجاس البناء أي رجف واضطرب وتحرك حركه يسمع لها صوت. تاج العروس: ٨/٣٠٤، ماده «رجس».

٢- لاحظ: تاريخ يعقوبى: ٢/٥؛ بحار الأنوار: ١٥/٢٤٨-٣٣١؛ تاريخ الطبرى: ١/٥٨٠؛ البدايه والنهايه: ٢/٣٢٧؛ إمتاع الأسماع للمقرئى: ٤/٦٠ وغيرها.

لماذا سببت هزة خفيفة في ارتجاس إيوان كسرى العظيم المحكم البنيان، ولم يحدث لبيت عجوز في نفس ذلك البلد شيء؟

لماذا تهاوت الأصنام المنصوبه في الكعبه وحولها، وانكبت على وجوها بينما بقيت غيرها من الأشياء على حالها لم يصبها شيء أبداً؟

لو كانوا يفكرون في تلك الحوادث لعرفوا أن تلك الحوادث كانت تبشر بعصر جديد... عصر انتهاء فتره الوثنيه وزوال مظاهر السلطه الشيطانيه واندحارها؟

الثاني: إن هذه الحوادث جاءت لتبرهن على شأن الوليد العظيم، وأنه ليس وليداً عادياً، فهو كغيره من الأنبياء العظام الذين رافقت مواليدهم أمثال تلك الحوادث العجيبه، والوقائع الغريبه، كما يُخبر بذلك القرآن الكريم عن حياه الأنبياء - كما عرفت - وتحدثت بها تواريخ الشعوب والأمم المسيحيه واليهوديه.

وأساساً لا يلزم أن تكون تلك الحوادث سبباً للعبه ووسيله للإتعاض يوم وقوعها، بل يكفي أن تقع حادثه في إحدى السنين، ثم يعتبر بها الناس بعد أعوام عديده، وقد كانت حوادث الميلاد النبوي من هذه المقوله، لأن الهدف منها كان هو إيجاد هزه في ضمائر أولئك الناس الذين كانوا قد غرقوا في أحوال الوثنيه، والظلم، والانحراف الأخلاقي حتى قمه رؤوسهم، وعشعشت الجهاله والغفله في أعماقهم حتى النخاع.

إن الذين عاشوا في عصر الرساله، أو من أتى من بعدهم عندما يسمعون نداء رجل نهض - بكل قواه - ضد الوثنيه، والظلم، ثم يطالعون سوابقه، ويلاحظون إلى جانب ذلك ما وقع ليله ميلاده من الحوادث العظيمه التي تتلاءم مع دعوته، فإنهم ولا شك سيعتبرون تقارن هذين النوعين من الحوادث دليلاً على صحه دعواه، وصدق مقاله، فيصدقونه، وينضون تحت لوائه.

إن وقوع أمثال هذه الحوادث الخوارق عند ميلاد الأنبياء مثل «إبراهيم» و

«موسى» و «المسيح» و «محمد» (صلى الله عليه وعليهم أجمعين) لا- يقل أهميه عن وقوعها فى عصر رسالتهم ونبوتهم، فهى جميعاً تنبع من اللطف الإلهى، وتحقق لهدايه البشريه، وجذبها إلى دعوه سفرائه ورسله.

فى أى يوم وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم؟

لقد اتفق عامه كُتّاب السيره على أنّ ولاده النبىّ الكريم كانت فى عام الفيل سنه ٥٧٠ ميلاديه.

لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم رحل إلى ربه عام (٦٣٢) ميلاديه عن (٦٢) أو (٦٣) عاماً، وعلى هذا الأساس تكون ولادته المباركه قد وقعت فى سنه (٥٧٠) ميلاديه تقريباً.

كما أنّ أكثر المحدثين والمؤرخين يتفقون على أنه صلى الله عليه وآله وسلم وُلِدَ فى شهر ربيع الأول.

إنّما وقع الخلاف فى يوم ميلاده، والمشهور بين محدثى الشيعة أنّه كان يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد طلوع الفجر.

والمشهور بين أهل السنّه أنّه صلى الله عليه وآله وسلم وُلِدَ فى يوم الاثنين الثانى عشر من ذلك الشهر. (١)

أى القولين هو الصحيح؟

إنّ من المؤسف جداً أن يعانى التقويم الدقيق لميلاد رسول الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله وسلم ووفاته، بل مواليد ووفيات أكثر قادتنا وأئمتنا مثل هذا الارتباك، وأن لا تكون أوقاتها وتواريخها محدّده معلومه على وجه التحقيق واليقين!.

ص: ٢٣١

١- . وقد ذكر المقرئى فى «الإمتاع»: ٣، جميع الأقوال المذكوره فى يوم ميلاد النبىّ وشهره وعامه، فراجع.

ولقد تسبب هذا الارتباك في أن لا تستند أكثر احتفالاتنا ومآتمنا إلى تاريخ قطعي، في حين نجد أن علماء الإسلام كانوا يهتمون - عادة - بتسجيل الوقائع التي حدثت على مدار القرون الإسلامية في نظم خاص وعنايه كبيره، ولكننا لا ندرى ما الذي منع من تسجيل مواليد هذه الشخصيات العظيمه ووفياتهم على نحو دقيق، وصوره قطعيه؟!

على أن مثل هذه المشكله يمكن حلها بدرجة كبيره بالرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام، فإن أي مؤرخ لو أراد أن يكتب عن حياه شخصيه من الشخصيات وأراد أن يلم بكل تفاصيلها ودقائقها لم يسمح لنفسه بأن يفعل ذلك من دون أن يراجع أبناء أو أقرباء تلك الشخصيه التي يزعم ترجمتها والكتابه عنها.

ولقد مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلف من بعده ذريه وقربى وهم الذين يطلق عليهم أهل البيت.

وأهل بيته يقولون: لو كان صحيحاً وحقاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبونا وجدنا، وقد نشأنا في بيته وترعرعنا في حجره فإننا نقول إنه قد ولد يوم كذا وتوفي يوم كذا، فهل يبقى بعد ذلك مجال لأن نتجاهل قولهم ورأيهم، ونختار ما يقوله الآخرون من الأبعدين، وقديماً قالوا: أهل البيت أدرى بما في البيت؟^(١)

فتره الحمل

المعروف أن النور النبوي الشريف استقر في رحم آمنه الطاهر في أيام التشريق - وهي اليوم الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من شهر ذى

ص: ٢٣٢

١- . ومن هنا لابد من الاعتراف بأن ما ينقله ويكتبه الإماميه من تفاصيل تتعلق بحياه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي أقرب من غيرها إلى الحقيقه لأنها مأخوذه عن أقربائه وأبنائه عليهم السلام.

الحججه (١) - ولكن هذا الأمر لا ينسجم مع الرأى المشهور بين عامه المؤرخين من كون ولاده النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في شهر ربيع الأول، إذ في هذه الصورة يجب أن نعتبر مده حمل «آمنه» به صلى الله عليه وآله وسلم إما ثلاثه أشهر وإما سنه وثلاثه أشهر، وكلا الأمرين خارجان عن الموازين العاديه فى الحمل، كما أنه لم يعدّه أحد من خصائص النبى صلى الله عليه وآله وسلم. (٢)

ولقد عالج المحقق الكبير الشهيد الثانى (٩١١-٩٦٦ هـ) هذا الإشكال بالنحو التالى إذ قال:

إنّ إيام التشريق لم تكن ثابتة عند العرب زمن الجاهليه بل كانت تتغير أو تتأخر حسب اختيار العرب الجاهلى من ذلك. وهذا هو المعبر عنه فى القرآن الكريم بالنسب فى قوله تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» (٣). (٤)

وتوضيح هذا هو أنّ أبناء «إسماعيل» كانوا تبعاً لأسلافهم يؤدّون مناسك الحج فى شهر ذى الحجّه، ولكنهم رأوا - فى ما بعد - أن يحجّوا فى كلّ شهر عامين يعنى أن يحجّوا فى ذى الحجّه عامين، وفى المحرم عامين، وفى صفر عامين وهكذا.

وهذا يعنى أنّ الحج يعود كلّ أربعه وعشرين سنه فى موضعه الطبيعى (أى شهر ذى الحجّه).

وقد جرى العربُ المشركون على هذه الطريقه حتّى صادفت أيام الحج شهر

ص: ٢٣٣

١- . لاحظ: الكافى: ١/٤٣٩ أبواب التاريخ، باب مولد النبى صلى الله عليه وآله ووفاته.

٢- . قد ذكر الطريحي فقط فى «مجمع البحرين» فى ماده «شرق» قولاً بهذا لم يُسم قائله.

٣- . التوبه: ٣٧.

٤- . الروضه البهيه فى شرح اللمعه دمشقيه: ٥/٤٣٣.

ذى الحجة في السنة العاشرة من الهجرة النبوية فحج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تلك السنة حجة الوداع، فنهى في خطبه له عن هذه الفعلة (التي تُسمى بالنسيء بمعنى تأخير الحج عن موضعه وموعده) فقال: «ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُمٌ: ثلاث متواليات:

ذوالقعدة، وذوالحجة، والمحرّم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».(1)

وقد أراد صلى الله عليه وآله وسلم بذلك أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها، وعاد الحج إلى ذي الحجة وبطل النسيء.

ونزل في هذه المناسبة قول الله تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا».(2)

من هنا تنتقل أيام التشريق كلّ سنتين من مواضعها، على ما عرفت، وحينئذ لا منافاه بين القول بأن نور النبي انتقل إلى رحم أمّه «آمنه بنت وهب» في أيام التشريق، وبين ما أجمع عليه عامه المؤرخين من أنه وُلد في شهر ربيع الأول. وإنما تكون المنافاه بين هذين الأمرين إذا كان المراد من أيام التشريق هو اليوم الحادى عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من شهر ذي الحجة خاصه، ولكن قلنا: إن أيام التشريق كانت تنتقل من شهر إلى آخر باستمرار، فيلزم أن يكون عام حمل أمّه به، وعام ولادته أيام الحج الواقعة في شهر جمادى الأولى، وحيث إنه صلى الله عليه وآله وسلم وُلد في شهر ربيع الأول فتكون مدّه حمل «آمنه» به عشره أشهر تقريباً.(3)

ص: ٢٣٤

١- . مجمع البيان: ٥/٥٤.

٢- . التوبه: ٣٧.

٣- . لاحظ: الروضه البهيه في شرح اللمعه الدمشقيه: ٤٣٣/٥-٤٣٥.

مُؤَاخَذَاتُ وَإشْكَالَاتُ عَلَى هَذَا الْبَيَانِ:

إنَّ النتيجةَ التي توَصَّلَ إليها المرحومُ «الشَّهيدُ الثَّانِي» ليستَ صحيحةً، كما أنَّ المعنى الَّذِي ذَكَرَهُ للنَّسِيءِ لم يقل به من بين المفسِّرين إلَّا مجاهدًا، وأمَّا الآخرون فقد فسَّروه بنحو آخر فلا يكون التفسير الَّذِي مرَّ قَويًّا، وذلك:

أولاً: لأنَّ «مكَّه» كانت مركزاً لجميع الاجتماعات كما كانت معبداً للعرب جميعاً، ولا يخفى أنَّ تغيير الحجِّ في كلِّ سنتين مرَّةً واحدةً من شأنه أن يسبب الالتباسَ لدى الناس ويوقعهم في الخطأ والاشتباه، وبالتالي يتعرَّض ذلك الاجتماع العظيم، وتلك العبادة الجماعية إلى خطر الزوال.

ولهذا يُستبعد أن ترضى قريش والمكيون بأن يخضع ما هو وسيلة لعزَّتهم وافتخارهم للتغيير والتبدل الَّذِي من عواقبه أن يتعرَّض وقته وموعده للنسيان، فيذهب ذلك الاجتماع، ويزول من الأساس.

ثانياً: إذا أخذنا ما قاله «الشَّهيدُ الثَّانِي» لمحاسبه دقيقه فإنَّ كلامه يستلزم أن تكون أيام التشريق والحج في السنة التاسعة من الهجره واقعه في شهر ذى القعدة لا جمادى الأولى في حين أنَّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام كُلفَ في هذه السنة بالذات بأن يقرأ سورة البراءة على المشركين في أيام الحجِّ، والمفسِّرون والمحدِّثون متفقون على أنَّه عليه السلام تلاها عليهم في العاشر من شهر ذى الحجِّ ثم أمهلهم أربعة أشهر ابتداءً من شهر ذى الحجِّ لا ذى القعدة. (1)

ثالثاً: أنَّ النسيءَ يعني أنَّ العرب حيث لم يكن لديهم مصدر صحيح للرزق بل كانوا يعيشون في الأغلب، على النهب والغارة لهذا كان من الصعب عليهم ترك

ص: ٢٣٥

١- . ولقد قام العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ١٥/٢٥٣ بهذه المحاسبه، وإنَّ لم يشر إلى الإشكال الَّذِي أوردناه، فليراجع.

الحرب، فى الأشهر الحرم الثلاث (وهى ذوالقعدة وذوالحجه، والمحرّم) لهذا ربّما طلبوا من سدنه الكعبه بأن يسمحوا لهم بالقتال فى شهر المحرم، ثم يتركون الحرب فى شهر صفر، وهذا هو معنى النسيء فلم يكن نسيء وتأخير للشهر الحرام فى غير شهر محرّم، وفى الآيه نفسها إشارة إلى هذا المطلب: «يُحِلُّونَهُ عَاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عَاماً» (١). والذى نراه فى حلّ هذه المشكله هو: أنّ العرب كانوا يحجّون فى وقتين:

أحدهما شهر ذى الحجه، والثانى شهر رجب، وقد كانوا يؤدّون كلّ مناسك الحج فى هذين الوقتين على السواء، فىمكن أن يكون المقصود من حمل «آمنه» برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى أيام التشريق هو شهر رجب، فإذا اعتبرنا يوم ولادته هو السابع عشر من شهر ربيع الأول كانت مدّه حمل «آمنه» به ثمانية أشهر وأياماً.

الإحتفال بذكرى المولد النبوى

ينبغى أن يحتفل المسلمون جميعاً بمولد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم و يقيموا المهرجانات الكبرى فى هذه المناسبه الشريفه التى كانت مبدأ الخير والبركه، ومنشأ السعاده والكرامه للبشرية جمعاء، وأيه مناسبه أخرى بالإحتفال والاحتفاء من هذه المناسبه؟

على أنّ إقامة مثل هذه الاحتفالات هو نوع من تكريم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو أمرٌ مطلوب ومحبوب فى الشريعة المقدسه.

فقد قال الله تعالى: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٢).

ص: ٢٣٦

١- . التوبه: ٣٧.

٢- . الأعراف: ١٥٧.

وعزّر بمعنى فحّم وعظّم وأعان ونصر كما في اللغة (١)، وهو لا يختص بزمان دون زمان، فعلى المسلمين في كل وقت وزمان أن يعظّموا شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويكرّمونه، سواء في حياته أو بعد مماته، لما له من فضل عظيم على الناس، ولما له من منزله عند الله تعالى.

كيف لا والاحتفال بميلاده لا يعني سوى ذكر أخلاقه العظيمة، وسجاياه النبيلة، والإشادة بشرفه وفضله وهي أمور مدحه القرآن الكريم بها إذ قال سبحانه:

«وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» (٢)، وقال تعالى أيضاً: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» (٣) وغير ذلك من الآيات المادحة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فإنّ الاحتفال بميلاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يتحقّق بذكر صفاته وأخلاقه والإشادة به خير مصداق لرفع ذكره، الذي فعله الله بنحو ما.

ولو كان رفع ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمراً غير جائز ولا- صحيح، بل فعلاً- قبيحاً لما فعله الله، فيكفي في حسنه وصحّته بل ومشروعيته ومطلوبيته أنّ الله تعالى فعله بالنسبة لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

وهل يكون الاحتفال بمولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإظهار السرور والشكر لله تعالى بمقدم نبيه المبارك عباده للنبيّ كما يزعم البعض إذ يقول:

«الذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم» (٤).

والحال أنّ العبادة في مفهومها الاصطلاحي الموجب للشرك والكفر ليس إلّا

ص: ٢٣٧

١- راجع: لسان العرب: ٤/٥٦٢، مادة «عزّر».

٢- القلم: ٤.

٣- الشرح: ٤.

٤- القائل هو محمد حامد الفقى رئيس جماعه أنصار السنّه المحمديه فى هوامشه على كتاب فتح المجيد: ١٥٤، ثم نقل عن كتاب قرّه العيون ما يشابه هذا المضمون.

الخشوع لمن يُعْتَقَدُ بِإِلَهِيَّتِهِ وَتَعْظِيمِهِ بِهَذِهِ التَّيَّةِ، (١) وَأَيْنَ هَذَا مِنْ ذِكْرِ فَضَائِلِ النَّبِيِّ فِي يَوْمِ مَوْلِدِهِ وَالِابْتِهَاجِ بِمَقْدَمِهِ وَالشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَى وِلَادَتِهِ.

ثُمَّ إِنَّ تَعْظِيمَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَنْطَلِقُ مِنْ كَوْنِهِ عَبْدًا مُطِيعًا لِلَّهِ تَعَالَى، أَدَّى رِسَالَتَهُ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ، وَجَسَدًا بِسُلُوكِهِ وَسِيرَتِهِ كُلِّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ أَصْدَقَ تَجْسِيدٍ فَالِاحْتِفَالُ بِمَوْلِدِهِ الْكَرِيمِ إِحْتِفَالٌ بِالْقِيَمِ السَّامِيَةِ، وَشُكْرٌ لِلَّهِ عَلَى مَنِّهِ، وَإِظْهَارٌ لِلْحُبِّ الْكَامِنِ فِي النُّفُوسِ لَيْسَ إِلَّا.

وَالزَّعْمُ بِأَنَّهُ مُحَرَّمٌ لِكَوْنِهِ بَدْعُهُ، أَوْ لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو عَنْ اشْتِمَالِهِ عَلَى مَنَكِرَاتٍ وَمَحَرَّمَاتٍ كَالرَّقْصِ وَالغِنَاءِ فَهُوَ مَرْفُوضٌ، مَرْدُودٌ لِأَنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا هُوَ حَوْلَ أَصْلِ الْإِحْتِفَالِ مَجْرَدًا عَنِ الْمَحَرَّمَاتِ وَالْمَنَكِرَاتِ. إِنَّ الْإِحْتِفَاءَ وَالِاحْتِفَالِ بِمَوْلِدِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ تَكْرِيمٌ لِمَنْ كَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَمْرٌ بِتَكْرِيمِهِ، وَحَثٌّ عَلَى احْتِرَامِهِ وَحُبِّهِ، وَمُؤَدَّةٌ، وَإِنَّهُ بِالتَّعَالَى أَدَاءَ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى تِلْكَ الْمَوْهَبَةِ الْعَظِيمَةِ، وَتِلْكَ الْعَطِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ حَيْثُ مَنْ سَبَّحَانَهُ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ عَامَّةً وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ خَاصَّةً بِأَنْ شَرَّفَ الْأَرْضَ بِمَوْلِدِ عَظِيمٍ نَعَّمَتِ الْأَرْضُ بِبِرْكَهٍ شَخْصِيَّتِهِ وَخَلْقِهِ، وَأَشْرَقَتْ بِنُورِ رِسَالَتِهِ وَدَعْوَتِهِ، فَأَيُّ نِعْمَةٍ تُرَى أَوْلَى بِالشُّكْرِ مِنْ هَذِهِ، وَأَيُّ شُكْرٍ أَجْمَلٍ وَأَفْضَلَ مِنَ الْإِحْتِفَاءِ بِمَوْلِدِ هَذَا النَّبِيِّ الْعَظِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَذِكْرِ فَضَائِلِهِ، وَمُنَاقَبِهِ، لِلتَّعَرُّفِ عَلَيْهَا، وَالِاقْتِنَاءِ بِهَا، وَتَشْدِيدِ الْحُبِّ لَهَا بِسَبَبِهَا، وَالِابْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ فِي يَوْمِ مِيلَادِهِ، وَطَلْبِ التَّوْفِيقِ الْإِلَهِيِّ لِمَتَابَعَتِهِ، وَالسَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِ، وَالِدِفَاعِ عَنِ رِسَالَتِهِ، وَالذَّبِّ دُونَ دِينِهِ، بَعْدَ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَوْهَبَتِهِ هَذِهِ؟؟

هَذَا وَلَقَدْ دَرَجَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْعُصُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُولَى عَلَى الْإِحْتِفَالِ بِذِكْرِ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ وَأَنْشَدُوا الْقِصَائِدَ الرَّائِعَةَ فِي مَدْحِهِ، وَذِكْرِ خِصَالِهِ وَمَكَارِمِهِ

ص: ٢٣٨

١- . راجع مفاهيم القرآن (في معالم التوحيد): ١/٤٠٤-٤٤٠.

أخلاقه، وأظهروا السرور بمولده والشكر لله تعالى بلطفه، وتفضله به صلى الله عليه وآله وسلم على البشرية.

قال الإمام الديار بكرى فى تاريخ الخميس فى هذا الصدء:

لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام ويعملون الولائم، ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور، ويزيدون فى المبرّات ويعتنون بقراءه مولده الكريم، ويظهر عليهم من بر كاته كل فضل عميم. (١)

مراسم تسميه النبى صلى الله عليه وآله وسلم

حلّ اليوم السابع من الميلاد المبارك، فعقّ عبدالمطلب عن النبى بكبش شكراً لله تعالى ودعا جماعه ليشاركوا فى الاحتفال العذى حضره عامه قريش لتسميه النبى، وسماه «محمداً»، وعندما سأله عما حملة على أن يُسمى هذا الوليد المبارك «محمداً» وهو اسم لم يعرفه العرب إلانادراً أجاب قائلاً: أردت أن يحمده الله فى السماء وتحمده الناس فى الأرض. (٢)

وإلى ذلك يشير حسان بن ثابت بقوله:

فَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجَلَّهَ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَ هَذَا مُحَمَّدٌ (٣)

ومن المسلم أن هذا الإختيار لم يكن ليتم من دون دخاله للإلهام الالهى، لأن اسم «محمداً» وإن كان موجوداً عند العرب إلأنه قلّ من كان قد تسمى بهذا الاسم، فحسب ما استقصاه بعض المؤرخين لم يتسم به إلى ذلك اليوم من العرب إلأسته عشر شخصاً كما يقول شاعرهم:

ص: ٢٣٩

١- تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس: ١/٢٢٣، نقلاً عن المواهب اللدنيه: ١/٢٧، للقسطلانى.

٢- لاحظ: السيره الحلبيه: ١/١٢٨.

٣- بحار الأنوار: ١٢٠/١٦؛ السيره الحلبيه: ١/١٢٨.

إِنَّ الَّذِينَ سَمُوا بِاسْمِ مُحَمَّدٍ مِنْ قَبْلِ خَيْرِ الْخَلْقِ ضِعْفِ ثَمَانٍ (١)

ولا يخفى أن تُدره المصاديق لأى لفظ من الالفاظ أو اسم من الأسماء من شأنها أن تقلل فرص الاشتباه فيه، وحيث إن الكتب السماويه كانت قد أُخبرَتْ عن اسم النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم وصفاته، وعلائمه الرُّوحية والجسمية، لذلك يجب أن تكون علائمه صلى الله عليه وآله وسلم واضحة جداً جداً حتى لا يتطرق إليها التباس أو اشتباه، وقد كان من علائمه صلى الله عليه وآله وسلم اسمه الشريف، فيجب أن تكون مصاديقها قليلة جداً حتى يزيل ذلك أى عروض للشك والترديد فى تشخيص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم خاصه إذا ضمت إليه بقية أوصافه وعلائمه، وخصوصياته.

خَطَأُ الْمُسْتَشْرِقِينَ

لقد ذكر القرآن الكريم اسمين أو عدّه أسماء للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

ففى سورة آل عمران ومحمد والأحزاب والفتح فى الآيات ١٤٤ و ٢ و ٤٠ و ٢٩ سمّاه «محمّداً». (٢)

وفى سورة الصف الآية ٦ (٣) دعاه «أحمد».

والعلّة فى تسميته بهذين الاسمين أن أمّه «آمنه» سمّته «أحمداً» قبل أن

ص: ٢٤٠

- ١- . السيره الحلبيه: ١/١٣٤ ثم يذكر صاحب السيره أولئك الأشخاص فى بيتين آخرين.
- ٢- . قال تعالى: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ. وقال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ. وقال سبحانه: مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ. وقال عزوجل: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.
- ٣- . إذ قال سبحانه: وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ.

يُسَمِّيهِ جَدَّهُ، كما هو مذكور في التاريخ.

وعلى هذا فإن ما ذكره بعضُ المستشرقين - في معرض الاعتراض - بأنَّ الإنجيل - حسب تصريح القرآن الكريم في سورة الصف الآية ٦ - بشرَّ نبِيَّ اسمه «أحمد» لا «محمَّد» كلامٌ لا أساس له ولا مبرر، لأنَّ القرآن الكريم الَّذِي سَمَّى نَبِيَّنا ب «أحمد» سَمَّاه في عدَّة مواضع ب «محمَّد»، فإذا كان المصدر في تعيين اسم النَّبِيِّ هو:

القرآن الكريم، فإنَّ القرآن سَمَّاه بكلا الاسمين، في موضع باسم «محمَّد»، وفي موضع آخر باسم «أحمد».

«أحمد» كان من أسماء النَّبِيِّ المشهوره

كُلُّ مَنْ كان له أدنى إمام بتاريخ النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عَلِمَ أَنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم كان يُدعى باسمين في الناس منذ صغره أحدهما: «محمَّد» الَّذِي سَمَّاه به جَدُّه «عبدالمطلب»، والآخر «أحمد» الَّذِي سَمَّاه به أُمَّه «آمنه».

وهذه حقيقه من حقائق التاريخ الإسلامي، وقد روى المؤرِّخون هذا الأمر، ويمكن للقارئ الكريم أن يقرأه في السيره الحلبيه. (١)

ولقد أنشأ عُمُّه «أبوطالب»، الَّذِي أُنيطت إليه كفالته بعد وفاه عبدالمطلب، فبقى يقوم بهذه المهمه طوال اثنين وأربعين عاماً بكل حرص ورغبه، ولم يمتنع في هذا السبيل عن بذل كل ما استطاع من غال ورخيص، أنشأ في ابن أخيه أحياناً سَمَّاه في بعضها «محمَّد» وفي بعضها الآخر «أحمد»، وهذا يكشف عن أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان معروفاً آنذاك بكلا الاسمين.

وإليك فيما يأتي بعض هذه الأبيات التي سَمَّى فيها «أبوطالب» النَّبِيَّ باسم أحمد:

ص: ٢٤١

١- . لاحظ: السيره الحلبيه: ١/١٢٨، باب تسميته صلى الله عليه وآله وسلم محمد وأحمد.

١. إِنْ يَكُنْ مَا أَتَى بِهِ أَحْمَدُ الْيَوْمَ سَنَاءً وَكَانَ فِي الْحَشْرِ دِينًا

٢. وَقَالُوا لِأَحْمَدَ أَنْتَ أَمْرٌ خَلُوفُ الْحَدِيثِ ضَعِيفُ النَّسَبِ

٣. أَلَا إِنَّ أَحْمَدَ قَدْ جَاءَهُمْ بِحَقٍّ وَلَمْ يَأْتِهِمْ بِالْكَذِبِ

٤. أَرَادُوا قَتْلَ أَحْمَدِ ظَالِمُوهُ وَوَلَيْسَ لِقَتْلِهِ فِيهِمْ زَعِيمٌ

٥. أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ نَفْسًا وَوَالِدًا إِذَا عَدَّ سَادَاتُ الْبَرِيَةِ أَحْمَدًا

٦. فَلَسْنَا وَبِئْتُ اللَّهَ نَسْلَمَ أَحْمَدًا لِعِزَّاءٍ مِنْ عَضِّ الزَّمَانِ وَلَا كَرْبٍ (١)

وقد سَمِيَ «أبو طالب» النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى بِأَحْمَدَ أَيْضًا قَدْ ذَكَرَهَا كِبَارُ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ وَنَسَبُهَا إِلَى أَبِي طَالِبٍ وَلَكِنَّهَا غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي دِيْوَانِهِ (٢).

ص: ٢٤٢

-
- ١- . لاحظ: ديوان أبي طالب عليه السلام؛ إيمان أبي طالب للمفيد: ٣١؛ مناقب ابن شهر آشوب: ١/٥٨؛ الغدير: ٧/٣٣٢ و ٣٦٤.
 - ٢- . مثل قوله: لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجِيدًا بِأَحْمَدَ وَأَحْبَبْتُهُ حُبَّ الْحَبِيبِ الْمَوَاصِلِ زَعَمْتُ قَرِيْشٌ أَنْ أَحْمَدَ سَاحِرٌ كَذَبَتْ وَرَبُّ الرَاقِصَاتِ إِلَى الْحَرَمِ رَاجِعُ دِيْوَانِ أَبِي طَالِبٍ، وَسِيرُهُ ابْنُ هِشَامٍ: ١/١٨٠؛ وَشَرَحَ النَّهْجُ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ١٤/٧٩ وَغَيْرِهَا.

كما وأنه قد سَيِّمَاهُ غيرُ أبي طالب في آياته بأحمد ممَّا يدلُّ على أنَّه كان مشتهراً بهذا الاسم في ذلك الزمان، وتلك الآيات كثيرة تفوق حدَّ الحصر والإحصاء لكننا ننقل نماذج منها هنا:

قال حسان بن ثابت في رثائه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم:

مفجعه قد شفها فقد أحمد فظلت لآلاء الرسول تُعدُّ

أطالت وقوفاً تذرف العين جُهداً على طلل القبر الذي فيه أحمد (١)

وقال في رثائه أيضاً:

صلى الإلهَ ومن يحف بعرشه والطَّيِّونَ على المبارك أحمد (٢)

وقال في رثاء جعفر بن أبي طالب الطَّيَّار:

فمن كان أو من قد يكون كأحمد نظام الحق أونكال لملحد (٣)

وقال حسان وهو يذكر معجزه من معجز النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

ص: ٢٤٣

١- سيره ابن هشام: ٢/٦٦٦-٦٦٧؛ البدايه والنهايه: ٥/٣٠١.

٢- الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/٣٢٣.

٣- أسد الغابه: ٢/٤؛ إمتاع الأسماع للمقريزي: ٢/١٤٩.

ففى كَفِّ أَحْمَدَ قَدِ فَجَّرَتْ عُيُونَ مَنِ الْمَاءِ يَوْمَ الظُّمَأِ (١)

وقال كَعْبُ بن مالِك:

فهذا نَبِيُّ اللَّهِ أَحْمَدُ سَبَّحَتْ صِغَارُ الْحَصَى فِى كَفِّهِ بِالْتَرْنَمِ (٢)

وقال «ورقه بن نوفل» يومَ أَخْبَرْتُهُ خَدِيجَهُ بِنزولِ الوحيِ على النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَاسْلَمَ:

فإِنْ يَكُ حَقًّا يا خَدِيجَهُ فاعلمي حَدِيثَكَ إِيَّانا فَأَحْمَدُ مُرْسَلٌ (٣)

وقالت عاتِكَةُ بنتُ عَبْدِالمطلبِ تَرثِي النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَاسْلَمَ:

يا عَيْنُ جُودِي ما بَقِيَتْ بَعْبِرِهِ سَحًّا على خَيْرِ البرِيَةِ أَحْمَدِ (٤)

وقال العباسُ فى مَناسِبِهِ تَرْوِيجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَاسْلَمَ بِخَدِيجِهِ:

أَحْمَدُ سَيِّدُ الْوَرَى خَيْرِ ماشٍ وَ رَاكِبِ (٥)

ص: ٢٤٤

١- . بحار الأنوار: ١٦/٤١٣.

٢- . بحار الأنوار: ١٦/٤١٥.

٣- . بحار الأنوار: ١٨/١٩٥؛ إمتاع الأسماع: ٣/٢٠.

٤- . طبقات ابن سعد: ٢/٣٢٦؛ إمتاع الأسماع: ١٤/٥٩٨.

٥- . بحار الأنوار: ١٦/٧٢.

فَتْرَةُ الرِّضَاعِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

لم يرتضع وليدُ قريش المبارك «محمَّد» من أمِّه سوى ثلاثة أيام، ثم حَضِيَّتْ بفخر إرضاعه - بعد ذلك - امرأتان هما:

١. «ثويبه» مولاة «أبي لهب»، وقد أرضعته أربعة أشهر فقط، وكان النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وزوجته الوفية: «خديجة بنت خويلد» يقدران هذا العمل لها حتى آخر لحظات حياتها. (١)

و «ثويبه» هذه كانت قد أرضعت قبل ذلك «حمزه» عمَّ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم و «أبا سلمه بن عبد الأسد المخزومي» أيضاً فكانوا إخوة من الرضاعة. (٢)

وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد مبعثه، من يشتريها من «أبي لهب» ليعتقها فأبى.

وكان النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يكرمها كلما دخلت عليه، وكان يبعث إليها بالصَّيْلَةَ إلى أن بلغه خبر وفاتها عند منصرفه من وقعه «خيبر» فسأل عن ابنها؟ فقيل: مات قبلها، فسأل عن قرابتها؟ فقيل: لم يبق منهم أحد. (٣)

٢. «حليمة السعدية» بنت أبي ذؤيب التي كانت من قبيلة سعد بن بكر بن هوازن، وكان أولادها عباره عن: «عبدالله»، «أنيسة»، «شيماء»، وقد قامت آخر أولادها وهي «الشيماء» بحضانه النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً:

وقد كان من عادة العرب يومذاك هو أن يدفعوا أولادهم الرضعاء إلى المراضع اللاتي كُنَّ يَعِشْنَ فِي الْبَوَادِي لِيَنْشَأُوا فِي تِلْكَ الْبِيئَاتِ الْمَعْرُوفَةِ بِطَيْبِ

ص: ٢٤٥

١- . تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: ١/٢٢٢.

٢- . الكامل في التاريخ: ١/٤٥٩.

٣- . تاريخ الخميس: ١/٢٢٢، نقلاً عن سيره مغلطاي وغيره.

هوائها، وقله رطوبتها، وعذوبه مائها بينه قويه، هذا مضافاً إلى صيانتهم عن خطر الوباء الذي كان يهدد الأطفال في «مكة»، ولأن ذلك كان له مدخلٌ عظيم، وتأثيرٌ بليغ في فصاحه المولود لسلامه لغه أهل القبائل الساكنه في البوادي آنذاك.

وكانت مراضعُ بنى سعد من المشهورات بهذا الأمر بين العرب، فقد كانت نساء هذه القبيله التي كانت تسكن حوالى «مكة» ونواحي الحرم يأتين «مكة» فى كل عام فى موسم خاص يلتمسن الرضعاء ويذهبن بهم إلى بلادهن حتى تتم الرضاعة.

وكان النبى صلى الله عليه و آله و سلم قد تجاوز شهره الرابع لما قدمت نساء من بنى سعد «مكة» يلتمسن الرضعاء فى سنه جذب وقحط، ولهذا كنن بحاجه شديده إلى مساعده أشراف «مكة» وأعيانها.

ويقول بعض المؤرخين: إنه لم تقبل أيه واحده من تلك المراضع أن تأخذ «محمداً» بسبب يتمه، وقد كان أغلبهن يُردن أن يأخذن من يكون له أبٌ حتى حتى يُغدق عليهن بالمساعدات والضيقات، وحتى «حليمه» هى الأخرى أبث أخذة، ولكنها أيضاً لم تحصل على طفل لهزال جسمها، فاضطرت إلى أن تأخذ حفيد «عبدالمطلب» وقالت لزوجها: والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذنه، فقال لها زوجها: لا عليك أن تفعلى، وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

ولقد أصاب الزوجان فى ظنهما هذا، فمنذ أن أبدت «حليمه» استعدادها لخدمه ذلك اليتيم شملت الألفاف الإلهيه كل مجالات حياتها. (١) إن القسم الأول من هذه القصة ليس سوى اسطوره، لأن مكانه البيت الهاشمى الرفيعه، وشخصيه رجل عرف بكمال الجود والإحسان، وبعون

ص: ٢٤٦

١- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١٠٥/١-١٠٦؛ بحار الأنوار: ١٥/٣٦٤.

المحتاجين والمحرومين كانت سبباً في أن لا- تعرض المرضعات عن أخذ «محمد» فحسب، بل يتنازعن على أخذه، ولهذا لا يكون هذا القسم من التاريخ سوى أسطوره تكذيبها الحقائق.

وأما عله عدم إعطائه صلى الله عليه وآله وسلم إلى غير «حليمه» من المرضعات فهي: أنّ وليد قريش لم يقبل أى ثدى من أئداء تلكم المرضعات، ولم يزل كذلك حتى قبل ثدى «حليمه السعديه»، فسّر بذلك «عبدالمطلب» وأهله سروراً عظيماً، بعد أن حزنهم امتناعه عنهنّ قبل ذلك. (١)

قالت «حليمه»: استقبلنى عبدالمطلب فقال: مَن أنت، فقلت: أنا امرأه من بنى سعد، قال: ما اسمك؟ قلت: حليمه، فتبسم «عبدالمطلب» وقال: بخ بخ سعدٌ وحلمٌ، خصلتان فيهما خيرُ الدهر، وعز الأبد. (٢)

نظرة الإسلام في تأثير الرضاع

وهنا ينبغي بالمناسبه أن نشير إلى نظره الإسلام في تأثير الرضاع في شخصيه الإنسان.

فقد سبق الإسلام العلم الحديث في الكشف عن آثار اللبن في تكوين الإنسان الخلقى والنفسى والعضوى سلباً وإيجاباً.

ولهذا حثّ الإسلام على استرضاع الأم، كما حثّ على اختيار المرضعات الصالحات ونهى عن استرضاع اليهوديه والمجوسيه والنصرانيه والمجنونه منعاً من انتقال طباعهنّ إلى الطفل عن طريق اللبن.

ص: ٢٤٧

١- . لاحظ: بحار الأنوار: ١٥/٣٤٢-٣٤٣.

٢- . السيره الحلبيه: ١/١٤٧.

واستكمالاً لهذا البحث نورد جملة من الأحاديث التي تصرّح بهذه الحقيقة العلمية الهامة:

١. قال امير المؤمنين على عليه السلام:

«تَخَيَّرُوا لِلرُّضَاعِ كَمَا تَتَخَيَّرُونَ لِلنِّكَاحِ فَإِنَّ الرُّضَاعَ يُعَيِّرُ الطَّبَاعَ».(١)

٢. وعنه عليه السلام أيضاً:

«أَنْظَرُوا مَنْ تُرَضِعُ أَوْلَادَكُمْ فَإِنَّ الْوَلَدَ يَشْبُ عَلَيْهِ».(٢)

٣ - عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال:

«لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحَمَقَاءَ فَإِنَّ اللَّبْنَ يُعَدِي، وَإِنَّ الْعُلَامَ يَنْزِعُ إِلَى اللَّبَنِ...».(٣)

٤. وعنه عليه السلام أيضاً:

«استرضع لولدك بلبن الحسان وإياك و القبائح فإن اللبن قد يُعدي».(٤)

٥. وعن على عليه السلام أنه قال:

«مَا مِنْ لَبَنٍ يَرْضَعُ بِهِ الصَّبِيُّ أَعْظَمَ بَرَكَهَ عَلَيْهِ مِنْ لَبَنٍ أُمَّه».(٥)

ص: ٢٤٨

١- . قرب الأسناد: ٩٣ ح ٣١٢.

٢- . فروع الكافي: ٦/٣ ح ١٠، باب مَنْ يَكْرَهُ لَبَنَهُ وَهُوَ لَا يَكْرَهُ.

٣- . وسائل الشيعة: ج ٢١، الباب ٧٨ من أبواب أحكام الأولاد، الحديث ٢ (آل البيت).

٤- . التهذيب: ٨/١١٠ ح ٢٥ (٣٧٦).

٥- . الكافي: ٦/٤٠ ح ١، باب الرضاع.

إن صفحات التاريخ تشهد بأن حياه رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم من بدايه طفولته وأوان صباه وإلى يوم بعثه بالرساله كانت مشحونه بسلسله من الحوادث العجيبه التى تعدُّ بأجمعها من كراماته صلى الله عليه وآله وسلم وتدلُّ على أن حياه النبى لم تكن حياه عاديه.

وينقسم المؤلفون فى تفسير هذه الحوادث إلى طائفتين:

١. الماديون، وجماعه من المستشرقين: فإن العلماء الماديين الذين يحصرون الوجود فى نطاق الماده، ويعتبرون جميع الظواهر ظواهر ماديه، وينحتون لكل واحده منها علمه طبيعيه، لا يهتمون بهذه الحوادث ولا يُعبرونها أنه أهميه، لامتناع واستحاله وقوع أمثال هذه الظواهر حسب النظره الماديه، ولهذا فكل ما يصادفونه فى ثنايا التاريخ من هذا الباب يعتبرونه من ولائد الخيال، ومما نسجته أوهام التابعين لذلك الدين، أو الطريقه.

وقد تبعهم فى هذا الموقف جماعه من المستشرقين فرغم أنهم يعتبرون أنفسهم - حسب الظاهر - فى عداد الموحدين، والمؤمنين بالله، وبما بعد الطبيعه من عوالم الغيب، إلا أنهم - لضعف إيمانهم وبسبب غرورهم العلمى، وغلبه النزعه الماديه على أفكارهم وأذهانهم - اتبعوا - لدى تحليلهم لهذه الحوادث - المنهج المادى، فنحن نقرأ فى كتاباتهم مراراً وتكراراً زعمهم بأن النبوه ماهى إلانبوغ بشرى، وأن النبى مجرد نابغه اجتماعى استطاع تغيير مسار الحياه البشريه بأفكاره البيره!!

ولا شك أن مثل هذا التصور ينبع من طريقه التفكير المادى الذى يعتبر

جميع الأديان من ولائد الفكر البشرى وإفرازات الذهن الإنسانى، فى حين أنّ علماء العقيدة أثبتوا فى: مباحث «النبوّه العامه» أنّ النبوّه عطيه إلهيه، وموهبه ربّانيه هى فى الحقيقه منشأ جميع الإلهامات والارتباطات المعنويه، ومصدر لمناهج الأنبياء وبرامجهم، ليست أبداً وليده نبوغهم الإنسانى، ولا- نسيجه فكرهم البشرى، وليس لها مصدر إلّا الإلهام من الغيب، ولكن عندما ينظر المستشرق المسيحى إلى هذه القضايا من زاويه الفكر المادى ويريد تفسير جميع هذه الظواهر بالأسس العلميه التى كشفت عنها التجربهُ ينتقد مثل هذه الحوادث ذات الطابع الإعجازى، وربّما أنكرها من الأساس.

٢. المؤمنون بالله: الذين يعتقدون بأنّ العالم المادى بجميع خصوصياته وخواصّه يخضع لتدبير عالم آخر، وأنّ ذلك العالم (أى عالم التجرد وماوراء الطبيعه) هو المنظم لهذه الطبيعه، وهو المدبّر لهذا الكون المادى.

وبعباره أخرى: إنّ عالم المادّه ليس عالماً مسيئاً، مستقلاً عن غيره، وإنّ جميع الأنظمه والقوانين الطبيعيه والعلميه مسببه عن تأثيرات موجودات عليا، وبخاصّه ناشئه عن إرادته الله الخالق، الذى أعطى للمادّه وجودها، وأوجد القوانين والعلاقات الصحيحه بين أجزائها، وبنى بقاءها على سلسله من النواميس الطبيعيه.

إنّ هذا الفريق من الناس مع احترامهم للقوانين العلميه، وإذعانهم الصادق بما قاله العلماء فى صعيد العلاقات، والروابط القائمه بين القوانين ممّا أثبتته العلم وأكّده، يعتقدون بأنّ مثل هذه القوانين الطبيعيه ليست أموراً لا تقبل التغيير، والتبدّل.

فهم يعتقدون بأنّ العالم الأعلى يمكنه - إذا أراد - أن يُغيّر تلك القوانين لغايات خاصّه، وليس فى مقدوره ذلك فقط، بل فعل ذلك فى جمله من الموارد لأهداف عليا.

وبعباره أخرى: إنّ الافعال الخارقه للعاده ليست ظواهر عاريه عن العلل، بل

إِنَّ عِلَّتَهَا غَيْر طَبِيعِيَّةٍ، وافتقاده العلة الطبيعية (وخاصة العلة الطبيعية غير المعروفة) ليس دليلاً على افتقاده مطلق العلة.

والخلاصة؛ إِنَّ قَوَانِين الخلقه ليست بحيث لا يمكن تبديلها، وتغيرها بإرادته بارئها وخالقها.

إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ جَمِيع خوارق العاده، وجميع أفعال الأنبياء العجيبه التي تتصف بصفه الإعجاز، والخارجة عن إطار القوانين الطبيعية، تتحقق من هذه الزاوية.

إِنَّ هَذَا الفریق من الناس لا- يسمّون لأنفسهم بأن يرفضوا الأعمال الخارقة للعاده، والكرامات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، والأحاديث، أو وردت في المصادر التاريخيه الصحيحه المعتبره، أو يشكّوا فيها بحجّه أنّها لا توافق الموازين الطبيعيه، والقوانين العلميه.

وها نحن نشير إلى قضيتين عجيبتين وقعتا في فتره الطفوله من حياه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، ومع أخذ ما قلناه بنظر الاعتبار لا يبقى أيّ مجال للتريد، أو الاستبعاد:

١. لقد نقلَ المؤرّخون عن «حليمه السعديه» قولها بأنّها لما تكفّلت إرضاع النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم أرادت أن ترضعه، فلما دخلت الدار وسمع عبدالمطلب بمجيئها جاء من ساعته ودخل الدار، ووقف بين يدي حليمه، ففتحت حليمه جيبها وأخرجت ثديها الأيسر، وأخذت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فوضعت في حجرها، ووضعت ثديها في فمه، والنبيّ صلى الله عليه و آله و سلم ترك ثديها الأيسر، واضطرب إلى ثديها الأيمن، فأخذت «حليمه» ثديها الأيمن من يد النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم ووضعت ثديها الأيسر في فمه، وذلك أنّ ثديها الأيمن كان جهاماً (أي خالياً من اللبن ولم يكن يدرباً به) لم يكن فيه لبن، وخافت (حليمه) أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم إذا مصّ الثدي ولم يجد فيه شيئاً لا يأخذ - بعده - الأيسر.

ولكن النبيّ أصرّ على أخذ الثدي الأيمن، فلما مصّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم الأيمن امتلاً فانفتح

حتى ملأ شذقيه بأمر الله تعالى وبركته... (١)

٢. وتقول «حليمه» أيضاً: إنّ البوادي أجذبت وحملنا الجُهد على دخول البلد، فدخلتُ مكّه ونساء بنى سعد قد سبقن إلى مواضعهنّ... فأخذتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعرفنا (به) البركه والزياده فى معاشنا ورياشنا حتى أثرينا، وكثرت مواشينا، وأموالنا. (٢)

إنّ من المسلم أنّ حكم الماديين، أو من يحدو حدوهم ويتبع منهجهم فى هذه المسائل يختلف عن حكم المؤمنين بالله.

فإنّ أتباع المنهج المادى إذ عجزوا عن تفسير هذا النوع من القضايا من زاوية العلوم الطبيعى، نجدهم يبادرون إلى اعتبار هذه الحوادث من نسج الخيال، ومن ولاءد الأوهام، وأما إذا كانوا أكثر تأدباً لقالوا: إنّ رسول الإسلام ليس بحاجة إلى أمثال هذه المعاجز.

ونحن نقول: لا نقاش فى أنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم غنى عن هذه المعاجز، إلّا أنّ عدم الحاجة شىء، والحكم بصحة هذه الأمور أو بطلانها شىء آخر.

وأما المؤمن بالله الذى يرُدّ النظام الطبيعى، إلى مشيئه الله خالق الكون وإرادته العليا، ويعتقد بأنّ كلّ الحركات والظواهر فى العالم الطبيعى من أصغر أجزائه (الذره) إلى أكبر موجوداته (المجرّه) يجرى تحت تدبيره، ونظارته، فإنّه بعد التحقّق من مصادر هذه الحوادث والتأكد من وقوعها ينظر إليها بنظر الاحترام، وأما إذا لم يطمئن إليها لم يرفضها رفضاً قاطعاً.

ولقد ورد فى القرآن الكريم نظائر عديده لهذه القصة حول «مریم» أمّ عيسى، فالقرآن يخبرنا عن تساقط الرطب الجنى من جذع النخلة اليابسه كرامه لوالده

ص: ٢٥٢

١- بحار الأنوار: ١٥/٣٤٥-٣٤٦ بتصرف يسير.

٢- المناقب لابن شهر آشوب: ١/٣٢؛ بحار الأنوار: ١٥/٣٣٢-٣٣٣.

المسيح عندما لجأت إليه مريم عند المخاض إذ يقول:

«... أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهَزَى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا». (١)

إنه وإن كان الفرق بين «مريم» و«حليمه» شاسعاً وكبيراً من حيث الملكات الفاضله والمكانه، والمنزله، إلّا أنّ منزله «مريم» عليها السلام لو استوجبت مثل هذا اللطف الإلهي، ففي المقام استوجب نفس مقام الوليد العظيم، ومكانته عند الله تعالى أن تشمله العناية الإلهيه.

كما أنه قد جاء في القرآن الكريم حول مريم عليها السلام أمور أخرى مشابهه.

إنّ عصمه هذه المرأه الطاهره، وتقاهها وطهرها البالغ كانت بحيث أنّ «زكريا» كلّما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، فإذا سألتها: من أين لك هذا؟ قالت: هو من عند الله؟ (٢).

و على هذا الأساس يجب أن لا نتردد ولا نسمح لأنفسنا بأن نشكّ في مثل هذه الكرامات، أو نستبعدها.

خَمْسَةُ أَعْوَامٍ فِي الصَّخْرَاءِ

أمضى وليد «عبدالمطلب» في قبيله «بنى سعد» مدّه خمسّه أعوام، بلغ فيها أشدّه.

وخلال هذه المدّه أخذته «حليمه» إلى أمّه مرّتين أو ثلاث، وقد سلّمته إلى أمّه في آخر مرّه.

وكانت المرّه الأولى من تلك المرّات عند فطامه، ولهذا السبب أتت به صلى الله عليه وآله وسلم

ص: ٢٥٣

١- مريم: ٢٤ و ٢٥.

٢- «... وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ» (آل عمران: ٣٧).

«حليمه» إلى مكّه ولكنها عادت به إلى الصحراء بإصرار منها، وكان السبب وراء هذا الإصرار على اصطحابه معها إلى البادية هو أنّ هذا الوليد قد أصبح مبعث خير ورخاء، وبركه في منطقتها، وقد دفع شيوعُ الوباء في «مكّه» إلى أن تقبل أمّه الكريمه بهذا الطلب. (١)

وأما المرّة الثانية من تلك المرّات فكانت عندما قدم جماعه من نصارى الحبشه إلى الحجاز، فوقع نظرهم على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في «بنى سعد»، ووجدوا فيه جميع العلامات المذكوره في الكتب السماويه للنبي الذي سيأتي بعد عيسى المسيح عليه السلام، ولهذا عزموا على أخذه غيله إلى بلادهم لما عرفوا أنّ له شأنًا عظيمًا، لينالوا شرف احتضانه ويذهبوا بفخره. (٢)

ولا مجال لاستبعاد هذه القضية لأنّ علامات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذُكرت في الإنجيل حسب تصريح القرآن الكريم، فلا يبعد أنّ علماء النصارى قد تعرّفوا في ذلك الوقت على النبي من العلامات التي قرأوها ودرسوها في كتبهم.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

«وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ». (٣) ثمّ إنّ في هذا الصعيد آياتٌ أخر صرّحت بجلاء بأنّ علامات رسول الإسلام في الكتب السماويه الماضيه في وضوح، ومن غير إبهام، وأنّ الأمم السابقه كانت على علم بهذا الأمر. (٤)

ص: ٢٥٤

١- . لاحظ: بحار الأنوار: ٤٠١/١٥.

٢- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١٠٨/١.

٣- . الصف: ٦.

٤- . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ (الأعراف: ١٥٧).

لقد خَلَقَتْ يدُ القدره الإلهيه كلَّ فرد من أفراد النوع الإنساني لأمر معيّن، فهناك من خلق لاكتساب العلم والمعرفه، وهناك من خُلِقَ للاختراع والاكتشاف، وثالثٌ خلق للسعى والعمل، وبعض للتدبير والسياسه، وفريق للتدريس والتربيه، وهكذا.

وإنّ المرّيين المخلصين الذين يهتمهم تقدم الأفراد أو رقيّ مجتمعهم لا- يعمدون إلى نَصَب أحد في عمل من الأعمال ولا يعهدون إليه مسؤوليه من المسؤوليات إلّا بعد اختبار سليقته ومواهبه، بغيه وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، إذ في غير هذه الحاله يتعرّض المجتمع لضررين كبيرين: أحدهما: أن لا يوكل إلى الفرد ما يستطيع القيام به، والثاني: أن يبقى العمل الذي قام به ناقصاً، مبتوراً.

وقد قيل في المثل: لكلّ إنسان موهبه، والسعيد هو من اكتشف تلكم المواهب، وأصابها.

وقد ذكروا أنّ أستاذاً كان ينصح تلميذاً له كسولاً، ويعدّد له مضارّ الكسل والتواني، ويصف له حال من ترك الاشتغال بالعلم، وضيّع ربيع حياته في البطاله والغفله.

وبينما الأستاذ ينصح تلميذه - وهو يسمع مواعظ أستاذه - رأى تلميذه يرسم بقطعه من الجص صورته على المنضده، فأدرك من فوره أنّ هذا الصبيّ لم يُخلق

للدرس وتحصيل العلم، بل خلقته يد القدره للرسم، فطلب منه أن يصطحب أباه إلى المدرسه فى اليوم القادم، ثم قال لوالد الصبى: إذا كان ولدك هذا كسولاً فى التعلّم، والتحصيل فإنّه يمتلك ذوقاً رفيعاً فى الرسم، ورغبه كبيره فى التصوير.

وقبل الوالد نصيحه المعلم هذه ولم يمض زمانٌ طويل إلّا وبرع الصبى وغدا قمه فى هذا الفن، بعد أن تابع هوايته بشغف وأكثر من ممارستها.

إنّ فتره الطفوله والصباه فى حياه الأشخاص خير فرصه لأولياء الأطفال بأن يختبروا مواهب أبنائهم، ويتعرّفوا عليها من خلال تصرّفاتهم، وأفكارهم وردودهم، لأنّ حركات الطفل وأقواله الجميله والحلوه خير مرآه لما ينطوى عليه من مواهب وقابليات وصفات لو توفرت لها ظروف التريه الصحيحه لأمكن الاستفاده منها على أفضل صورته، وأحسن وجهه.

إنّ مطالعه فاحصه لحياه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأقواله وأفعاله إلى وقت البعثه تُوقفنا على صورته كامله لشخصيته صلى الله عليه وآله وسلم وتوضح لنا أهدافه العليا، على أنّ مطالعه صفحات الطفوله فى حياته صلى الله عليه وآله وسلم فقط لا تكشف لنا عن مستقبله المشرق، بل أنّ دراسه الصوره الإجماليه لحياته وتاريخه إلى يوم مبعثه الشريف، وإعلانه عن نبوّته وقيادته للمجتمع، تخبرنا عن ذلك المستقبل العظيم، وبالتالي عن هذه الحقيقه وهى أنّ هذه الشخصيه خُلقت لأى عمل، وأنّ إدعاء الرساله والقياده له هل ينسجم مع سوابقه التاريخيه أم لا؟ هل تُؤيد تفاصيل حياته خلال أربعين سنه قبل الرساله، وهل تُؤيد أفعاله وأقواله، وبالتالي: سلوكه مع الناس ومعاشرته الطويله مع الآخرين، رسالته أم لا؟

من هنا نعمدُ إلى عرض بعض الصفحات من حياه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى أيامها وسنواتها الأولى.

لقد حافظت مرضعهُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عليه خمس سنوات، وقامت في هذه المدّة برعايه شؤونه خير قيام، وبالغت في كفالتة والعنايه به، وخلال هذه المدّة تعلّم النبيّ لغه العرب على أحسن ما يكون، حتّى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يفتخر بذلك في ما بعد إذ كان يقول:

«أنا أعربكم (أى أفصحكم)... واسترضعت في بني سعد». (١)

ثم إنَّ «حليمه» جاءت به إلى «مكّه»، وبقي عند أمّه الحنون ردحاً من الزمن، وفي كفاله جده العظيم: «عبدالمطلب» ردحاً آخر منه، وكان هو السلوه الوحيد له لأقاربه والبقية الباقية من أبيه: «عبدالله». (٢)

سُفْرُهُ إِلَى يَثْرِبِ

منذ أن فقدت كَنَّة «عبدالمطلب» وعروس ابنه: «آمنه» زوجها الشاب الكريم:

«عبدالله» باتت تتربّب الفرص لتذهب إلى «يثرب» وتزور قبر زوجها الحبيب الفقيّد عن كَثْب، وتزور أقاربها في يثرب في نفس الوقت.

وذاث مرّه فكّرت بأنّ تلك الفرصه قد سنحت، وأنّ ولدها «محمّداً» قد كبر، ويمكنه أن يشاركها في حزنها، فتهيّأت هي وأمّ أيمن للسفر، واتّجهت نحو يثرب برفقه «محمّد»، ولبثت هناك شهراً.

ولقد انطوت (وبالأحرى حملت) هذه السفره على بعض الآلام الروحيه لوليد قريش «محمّد» لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم رأى فيها ولأوّل مرّه البيت الذي توفّي فيه والده

ص: ٢٥٧

١- . السيره الحلبيه: ١/١٤٦.

٢- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١/١٠٩.

العزیز، ودفن (١) وكانت والدته قد حدّثته بأمور عن والده إلى ذلك الحين.

وكانت لا تزال سحابة الحزن تخيم على روحه الشريفه إذ فوجئ بحادثه مفرحه أخرى، وغشيه موج آخر من الحزن لأنّه عند عودته إلى مكّه فقد أمّه العزیزه فى أثناء الطريق فى منطقته تُدعى ب «الأبواء» (٢).

إنّ هذه الحادثة قد عزّزت مكانه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فى عشيرته أكثر فأكثر، وجعلته يتمتع بمحبّه أزيد منهم، فهو الزهره الوحيده من تلك الجنينه المباركه، كما أنّه صار منذ ذلك الحين يتمتع بعنايه أكبر من قبل جدّه «عبدالمطلب» ولهذا كان يحبّه أكثر من أبنائه، بل ويؤثره عليهم جميعاً.

ومن ذلك أنّه كان يُمدّد فى فناء الكعبه المعظمه بساط لزعيم قريش «عبدالمطلب» فيجلس هو عليه ويتحلّق حوله وجوه قريش وساداتها وأولاده، فإذا وقعت عيناه على بقيه عبدالله «محمد» أمر بأن يُفرّج له حتّى يتقدّم نحوه ثم يُجلسه إلى جنبه على ذلك البساط المخصوص به (٣).

إنّ القرآن الكريم يُذكر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بفرته يتمه ويقول: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى» (٤). إنّ الحكمة وراء يتم وليد قريش ليست واضحه لنا تمام الوضوح، ولكننا نعلم إجمالاً بأنّ سبيل هذه الحوادث المؤلمه أحياناً، والمزعجه أحياناً أخرى لم يك خالياً عن حكمه معقوله ومصلحه رشيده، بيد أنّنا مع كلّ هذا يمكن لنا الحدس بأنّ

ص: ٢٥٨

١- . كان البيت الذى يضمّ قبر «عبدالله» عليه السلام لا يزال موجوداً حتّى قبيل توسعه الدائره حول المسجد النبوى الطاهر، ولكنه أُزيل بحجّه إيجاد تلك التوسعه.

٢- . السيره النبويه لابن هشام: ١/١٠٩؛ السيره الحلبيه: ٣/٤٩٧.

٣- . السيره النبويه: ١/١٠٩.

٤- . الضحى: ٦.

اللّٰه تعالى أراد أن يذوق قائد العالم البشرى ومعلمه، وإمام الإنسانيه وهاديها - وقبل أن يتسلّم مهامه، ويزاول مسؤولياته العظمى ويبدأ قيادته - حلو الحياه ومرّها، ويجرّب سراء العيش وضراءه، حتّى تتهيأ لديه تلك الروح الكبرى الصوره الصامده، ويدخر من تلك الحوادث الصعبه تجارب ودروساً، ويعدّ نفسه لمواجهة مسلسل الشدائد والمصاعب، والمشاق والمتاعب التي كانت تنتظره في المستقبل.

و ربّما أراد الله تعالى أن لا تكون في عنق نبيّه طاعه لأحد، ولهذا أنشأ حراً خلياً من كلّ قيد، منذ الأيام الأولى من حياته، يصنع نفسه بنفسه ويقيظ لها موجبات الرشد، وأسباب الرقيّ ليتضح أنّ نوعه ليس نوعاً بشرياً عادياً ومألوفاً، وأنّه لم يكن لوالديه أى دخل فيه وفي مصيره، وبالتالي فإنّ عظمته الباهره نابعه من مصدر الوحي، وليست من العوامل العاديه والأسباب المأنوسه المتعارفه.

وفاه عبدالمطلب

لقد جرت عادته الحياه أن تتعرّض للمرء باستمرار، وتستهدف سفينه حياته كالأموج المتلاحقه موجهه ضرباتها القويه لروحه، ونفسه.

أجل هذه هي طبيعه الحياه وستتّمع مع أفراد النوع الإنساني من دون استثناء.

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمعزل عن هذه السنّه المعروفه وهذه القاعده الحياتيه العامه.

فلم تكن أمواج الحزن تفارق قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لوفاه والديه بعد حتّى فاجأته مصيبه كبرى أخرى.

إنّه لم يكن يمض من عمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من ثمان سنوات إلا- وفقد جدّه العظيم «عبدالمطلب»، وقد اعتصرت وفاه «عبدالمطلب» قلب رسول الله ألماناً وحزناً، وكان لها وقع شديد على نفسه المباركه، حتّى أنّه بكى لفقده بكاء شديداً

وظلت دموعه تجرى من أجله إلى أن ورى في لحدّه، ولم ينس ذكره أبداً!! (١)

كفاله أبي طالب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم

سيكون لنا حديث مفصّل حول شخصيّه أبي طالب في فصل خاص (٢) وستثبت هناك إيمانه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالوثائق والأدلة القاطعه، ولكنّ من المناسب الآن أن نستعرض بعض الحوادث المرتبطه بفترة كفالته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد تكفّل أبوطالب - ولأسباب خاصّه - رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتقبّل تحمّل هذه المسؤوليه بفخر واعتزاز، ولأنّ أباطالب - مضافاً إلى العلل المشار إليها - كان أخاً لوالد النبي من أمّ واحده أيضاً، (٣) كما أنّه كان معروفاً بجوده وكرمه، ومن هنا أوكل «عبدالمطلب» أمر كفاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم حفيده، إليه، وسوف نقصّ عليك تدریجاً سطوراً ذهبيه من تاريخه، تمثّل شاهد صدق على خدماته القيمه، وأياديه الجليله. يقولون: إنّ النبي شارك وهو في العاشره من عمره جنباً إلى جنب مع عمّه في حرب من الحروب، (٤) وحيث إنّ هذه الحرب وقعت في الأشهر الحُرّم لذلك سُمّيت بحرب «الفجار» وقد وردت تفاصيل حروب «الفجار» في التاريخ بشكل مسهب.

ص: ٢٦٠

- ١- . كتب اليعقوبى فى تاريخه: ٢/١٠ و ١١ حول سيره عبدالمطلب، وأنه كان موحداً لاوثنياً، وذكر أنّ الإسلام أمضى الكثير من سننه.
- ٢- . فى حوادث السنه العاشره.
- ٣- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٧١ و ١١٦، وأمّهما هى فاطمه المخزوميه.
- ٤- . لقد كتب اليعقوبى فى تاريخه: ٢/١٥، طبعه النجف، أنّ أبا طالب لم يشترك فى هذه الحرب قط، كما لم يسمح لبنى هاشم بالمشاركه فيها أيضاً، لأنه كان ظلماً وعدواناً وقطيعه رحم واستحلالاً للشهر الحرام.

لقد جرت العاده أن يسافر تجار قريش إلى الشام كل سنة مره واحده.

فعزم «أبو طالب» على أن يشارك في رحله قريش السنويه هذه ذات مره، وعالج مشكله ابن أخيه «محمد» الذي ما كان يقدر على مفارقتة بأنه قرّر أن يتركه في مكّه في حراسه جماعه من الرجال، ولكنّه ساعه الرحيل واجه من ابن أخيه العزيز ما غير بسببه قراره المذكور، فقد شاهد «محمدًا» وقد اغرورقت عيناه بالدموع لفراق كفيله الحميم «أبي طالب»، فأحدثت ملامح «محمد» الكئيبه طوفاناً من المشاعر العاطفيه في قلب «أبي طالب» بحيث اضطرتة إلى أن يرضى بمشقه اصطحاب «محمد» في تلك الرحله (1).

لقد كانت سفره النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه التي قام بها بصحبه عمّه وكافله «أبي طالب» في الثانيه عشره من عمره، من أجمل وأطرف أسفاره صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم عبر فيها على: «مدّين» و «وادي القري» و «ديار ثمود» وأطلع على مشاهد الشام الطبيعيه الجميله.

ولم تكن قافله قريش التجاريه قد وصلت إلى مقصدها حتى حدثت في

ص: ٢٤١

١- . ويذكر «أبو طالب» في أبيات له قصه هذه السفره وما جرى فيها من البدء إلى الختام نقتطف منها بعض الأبيات: إن ابن آمنه النبي محمدًا عندي يفوق منازل الأولاد لما تعلق بالزمام ورحمته والعيس قد قلصن بالأزواد فإرفض من عيني دمع ذارف مثل الجمان مفزق الأفراد راعيت في قرابه موصوله وحفظت فيه وصيه الأجداد وأمرته بالسير بين عمومه بيض الوجوه مصالت أنجاد حتى إذا ما القوم بصرى عاينوا لاقوا على شرك من المرصاد حبراً فأخبرهم حديثاً صادقاً عنه وردّ معاشر الحساد (تاريخ ابن عساكر: ٣/١٢-١٣؛ وديوان أبي طالب: ٣٣-٣٥).

منطقه تُدعى «بصرى» قضيه غيرت برنامج «أبى طالب» وتسببت فى عدوله عن المضى به فى تلك الرحله والقفول إلى مكّه.

وإليك فيما يلى مجمل هذه القضية:

كان يسكن فى «بصرى» من نواحي الشام راهبٌ مسيحي يدعى «بحيرا» يتعبّد فى صومعته، يحترمه النصارى فى تلك الديار.

وكانت القوافل التجاريه إذا مرّت على صومعته توقّفت عندها بعض الوقت وتبرّكت بالحضور عنده.

وقد اتّفق أن التقى هذا الراهبُ قافله قريش التى كان فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلفت نظره شخصيه «محمّد»، وراح يحدّق فى ملامحه، وكانت نظراته هذه تحمل سرّاً عميقاً ينطوى عليه قلبه منذ زمن بعيد وبعد دقائق من النظرات الفاحصه، والتحديق فى وجه النبى صلى الله عليه وآله وسلم خرج عن صمته وانبرى سائلاً: أنشدكم بالله أيكم وليه؟

فأشار جماعه منهم إلى «أبى طالب» وقالوا: هذا وليه.

فقال «أبو طالب»: إنّه ابن أخى، سلنى عمّا بدا لك.

فقال «بحيرا»: إنّه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيمٌ، نجده فى كتبنا وما روينا عن آبائنا، هذا سيّد العالمين، هذا رسول رب العالمين، بيعته رحمه للعالمين. إحدِرْ عليه اليهود لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليقتصدنّ قتله. (1) هذا وقد اتّفق أكثر المؤرّخين على أنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يتعدّ تلك المنطقه، وليس من الواضح أنّ عمّه «أبا طالب» بعثه إلى مكّه مع أحد، (ويستبعد أن يكون عمّه قد رضى بمفارقتة منذ أن سمع تلك التحذيرات من الراهب بحيرا)، أم أنّه

ص: ٢٤٢

١- . روى الطبرى فى تاريخه: ٢/٣٢ و ٣٣؛ وابن هشام فى سيرته: ١/١١٦-١١٩، هذه القصّه بتفصيل أكبر وقد اختصرناها هنا تمشياً مع حجم هذا الكتاب.

اصطحبه بنفسه إلى مكه، وانثنى عن مواصلة سفره إلى الشام.(١)

وربما قيل إنّه تابع - بحذر شديد - سفره إلى الشام مع ابن أخيه «محمد».

أَكْذُوبَةُ الْمُسْتَشْرِقِينَ

لقد آلينا على أنفسنا في هذا الكتاب أن نشير إلى أخطاء المستشرقين بل وربّما أكاذيبهم، وأتّهاماتهم الباطله، وشُبّههم الواهيه ليُتّضح للقراء الكرام الى أى مدى يحاول هذا الفريق إرباك أذهان البُسطاء من الناس، وبلبله عقولهم حول قضايا الإسلام!!

إنّ قضيه اللقاء الذى تمّ - فى بصرى - بين النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم والراهب «بحيرا» لم تكن سوى قضيه بسيطه، وحادثه عابره وقصيره، إلّا أنّها وقعت فى ما بعد ذريعه بأيدي هذه الزمره (المستشرقون) فراحوا يصرّون أشدّ إصرار على أنّ ما أظهره رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم من تعاليم رفيعه ساميه بعد ٢٨ عاماً، واستطاع أن يُحيى بها تلك الأمه الميّته قد تلقّاها من الراهب «بحيرا» فى هذه السفره. ويقولون: إنّ «محمدًا» بما تمتع به من قوّه ذاكره، وصفاء نفس ودقّه فكر، وعظمه روح وهبته إيّاها يد القدر، أخذ من الراهب «بحيرا» فى لقائه به، قصص الأنبياء السالفين والأقوام البائده مثل عاد وثمود، وكثيراً من تعاليمه الحيويه.

ولا- ريب فى أنّ هذا الكلام ليس سوى تصوّر خيالى لا- يتلاءم ولا ينسجم مع حياته صلى الله عليه وآله وسلم بل وتكذّبه الموازين العقليه، واليك بعض الشواهد على هذا:

١. لقد كان «محمد» صلى الله عليه وآله وسلم بإجماع المؤرّخين أمياً، لم يتعلّم القراءه والكتابه، وكان عند سفره إلى الشام، ولقائه ب «بحيرا» لم يتجاوز ربيعه الثانى عشر بعد، فهل يصدق العقل - والحال هذه - أن يستطيع صبى لم يدرس ولم يتعلّم القراءه والكتابه

ص: ٢٤٣

١- . السيره النبويه لابن هشام: ١/١١٨ و ١١٩.

ولم يتجاوز ربيعه الثاني عشر أن يستوعب تلك الحقائق من «التوراه» و «الإنجيل»، ثم يعرضها - في سن الأربعين - على الناس بعنوان الوحي الإلهي والشريعة السماوية؟!

إنّ مثل هذا الأمر خارج عن الموازين العاديه، بل ربّما يكون من الأمور المستحيله لو أخذنا بنظر الاعتبار حجم الإستعداد البشري.

٢. إنّ مدّه هذا اللقاء كان أقل بكثير من أن يستطيع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في مثل تلك الفتره الزمنيه القصيره أن يستوعب «التوراه» و «الانجيل»، لأنّ هذه الرحله كانت رحله تجاريه ولم يستغرق الذهاب وإياب والإقامه أكثر من أربعه أشهر، لأنّ قريشاً كانت تقوم في كل سنه برحلتين، في الصيف إلى «الشام»، وفي الشتاء إلى «اليمن»، ومع هذا لا يُظنّ أن تكون الرحله بزمته قد استغرقت أكثر من أربعه أشهر، ولا يستطيع أكبر علماء العالم وأذكاهم من أن يستوعب في مثل هذه المدّه القصيره جدّاً محتويات دينك الكتابين، فضلاً عن صبيّ لم يدرس، ولم يتعلّم القراءه والكتابه من أحد.

هذا مضافاً إلى أنّه لم يكن صلى الله عليه وآله وسلم مصاحباً لذلك الراهب كلّ تلك الأشهر الأربعه بل أنّ اللقاء الذي وقع إتفاقاً في أحد منازل الطريق لم يستغرق سوى عده ساعات لا أكثر.

٣. إنّ النّص التاريخي يشهد بأنّ «أباطالب» كان ينوي اصطحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى الشام، ولم يكن مقصده الأصلي «بُصرى» بل إنّ «بُصرى» كان منزلاً في أثناء الطريق تستريح عنده القوافل التجاريه أحياناً، ولفتره قصيره جدّاً.

فكيف يمكن في مثل هذه الصوره أن يمكث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تلك المنطقه، ويشتغل بتحصيل علوم «التوراه» و «الإنجيل» ومعارفهما؟ سواء قلنا بأنّ

«أباطال» أخذه معه إلى الشام، أو عاد به من تلك المنطقه إلى مكه أو أعاده بصحبه أحدٍ إلى مكه؟!

وعلى كل حال فإن مقصد القافله ومقصد «أبي طالب» لم يكن «بُصرى» ليقال: إنَّ القافله اشتغلت فيها بتجارتها، بينما اغتم «محمّد» الفرصه واشتغل بتحصيل معارف العهدين.

٤. إذا كان محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قد تلقى أموراً ومعارف من الراهب المذكور إذن لاشتهر ذلك بين قريش حتماً، ولتناقل الجميع خبر ذلك بعد العوده إلى مكه.

هذا مضافاً إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه ما كان يستطيع أن يدعى أمام قومه في ما بعد بأنّه أمّى لم يدرس كتاباً، ولا تلمذ على أحد، في حين أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم افتتح رسالته بهذا العنوان، ولم يقل أحد، يا محمّد كيف تدعى بأنك لم تقرأ ولم تدرس عند أحد وقد درست عند راهب «بصرى» وتلقّيت منه هذه الحقائق الناصعه وأنت في الثانيه عشره من عمرك؟

لقد وجّه مشركو مكه جميع أنواع الإتهام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبالغوا في البحث عن أيه نقطه ضعف في قرآنه يمكن أن يتذرّعوا بها لتفنيد دعوته، حتّى أنّهم عندما شاهدوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ذات مرّة عند «المروه» يجالس غلاماً نصرانياً استغلّوا تلك الفرصه وقالوا: لقد أخذ «محمّد» كلامه من هذا الغلام، ويروى القرآن الكريم مزعمتهم هذه بقوله:

«وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (١).

ولكن القرآن الكريم لم يتعرّض لذكر هذه الفريه قط، كما أنّ مشركى قريش

ص: ٢٤٥

١- النحل: ١٠٣.

المجادلين المعاندين لم يتذرعوا بها أبداً، وهذا هو بعينه دليل قاطع وقوي على أن هذه الفريه من افتراءات المستشرقين فى عصرنا هذا، ومن نسج خيالهم!!

٥ - إن قصص الأنبياء والرسل التى جاءت فى القرآن الكريم على وجه التفصيل تتعارض وتتنافى مع ما جاء فى التوراه والإنجيل.

فقد ذكرت قصص الأنبياء وأحوالهم فى هذين الكتابين بصوره مشينه جداً، وطُرحت بشكل لا يتفق مع المعايير العلميه والعقليه مطلقاً، وأن مقايسه عاجله بين هذين الكتابين من جانب وبين القرآن الكريم من جانب آخر تثبت بأن قضايا القرآن الكريم ومعارفه لم تتخذ من ذينك الكتابين بحال، ولو أن النبى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد اكتسب معارفه ومعلوماته حول الأنبياء والرسل من العهدين لجاء كلامه مزيجاً بالخرافات والأوهام. (١) ٦ - إذا كان راهب «بُصرى» يمتلك كل هذه الكميه من المعلومات الدينيه والعلميه التى عرضها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلماذا لم يحض هو بأى شىء من الشهره، ولماذا ترى لم يُرب غير «محمّد» فى حين أن معبده كان مزار الناس ومقصد القوافل!؟

٧ - يعتبر الكتاب المسيحيون «محمداً» صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً أميناً صادقاً، والآيات القرآنيه تصرّح بأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن على علم مسبق أصلاً بقصص الأنبياء والأمم السابقين، وأن معلوماته فى هذا الصعيد لم تحصل لديه إلا عن طريق الوحى.

فقد جاء فى سوره «القصص» هكذا: «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبَىٰ إِذْ قَضَيْنَا إِلَيْهِ

ص: ٢٦٦

١ - . تتجلى هذه الحقيقه أكثر فأكثر إذا ما قارنا بين مواضيع القرآن الكريم، وبين ما جاء فى نصوص العهدين (التوراه والإنجيل) وقد تصدى بعض الكتاب الإسلاميين لمثل هذه المقارنه، وتعرضنا لها أيضاً فى بعض دراساتنا.

مُوسَى الْأَمْرَ وَ مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (١).

وجاء في سورة «هود» بعد نقل قصه نوح: «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا» (٢).

إنَّ هذه الآيات توضِّح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن على علم أبداً بهذه الحوادث، والوقائع.

وهكذا جاء في سورة «آل عمران»: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلَىٰ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ» (٣).

إنَّ هذه الآيه وغيرها من الآيات العديده تصرِّح بأن هذه الأخبار الغيبية وصلت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق الوحي فقط، وهو لم يكن على علم بها مطلقاً.

نُظْرَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ إِلَى التَّوْرَةِ الْحَاضِرَةِ

إنَّ هذا الكتاب السِّمَاوِيُّ تورَّط في تناقضات عجيبة في بيان قصص الأنبياء والمرسلين لا يمكن نسبتها إلى الوحي مطلقاً، وها نحن نأتى هنا بنماذج في هذا المجال من التوراه ليُتضح لنا أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لو كان قد أخذ قضايا القرآن الكريم من ذلك الراهب فلماذا لا يحتوى هذا الكتاب العظيم على تلك الأضاليل التي انطوت عليها «التوراه» و «الإنجيل».

وإليك بعض ما جاء حول الأنبياء والمرسلين في «التوراه» و «الإنجيل» ونقارن ذلك بما جاء في القرآن الكريم ليُتضح مدى الفرق بين العهدين، والقرآن..

ص: ٢٤٧

١- . القصص: ٤٤.

٢- . هود: ٤٩.

٣- . آل عمران: ٤٤.

جاء في التوراه: «وكان في وقت المساء أنّ داود قام من سريره وتمشّى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح المرأة تستحمّ، وكانت المرأة جميله المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بشبع بنت أليعام امراه أوريا الحثي، فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهره من طمئها ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حُبلي،... وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يواب... وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أورياً في وجه الحرب الشديده(١)، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت... فلما سمعت امراه أورياً أنّه قد مات أورياً رجلها نذبت بعلها، ولما مضت المناحه أرسل داود وضّمها إلى بيته وصارت له إمراه، وولدت له إبناً، وأمّا الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب!!»(٢)

هكذا تصف التوراه النبيّ الكريم داود، وترميه بالزنا، وإكراه امراه محصنه على خيانه زوجها!!

بينما يصف القرآن الكريم النبيّ داود عليه السلام بأفضل الأوصاف إذ يقول سبحانه:

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ... وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ» (٣).

ص: ٢٤٨

١- . أي في مقدّمه الجيش المحارب.

٢- . العهد القديم (التوراه): صموئيل، الثاني، الإصحاح الحادى عشر ٢ إلى ٢٧.

٣- . النمل: ١٥-١٦.

٢. النبي سليمان عليه السلام:

تقول «التوراه» عن النبي العظيم سليمان عليه السلام:

١ - «وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا». (١)

أى أن سليمان النبي الكريم - والعياذ بالله - هو ابن زنا!!

٢ - وَ أَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانَ نِسَاءَ غَرِيبِهِ... مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمْ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ لَا يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ لِأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ، فَالْتَصِقْ سُلَيْمَانُ بِهَؤُلَاءِ بِالْمَحَبَّةِ، وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلَاثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ فَأَمَلَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ وَكَانَ فِي زَمَانٍ شَيْخُوخَهُ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ إِلَهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ، فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَتِ إِلهِهِ الصَّيْدَوِيِّينَ، وَمَلِكُومَ رَجَسِ الْعُمُونِيِّينَ، وَعَمَلَ سُلَيْمَانَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ، وَلَمْ يَتَّبِعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ،... فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لِأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ...!!! (٢)

إن سليمان - حسب هذه التعابير التوراتية - يعشق النساء الأجنبية، ويتقرب إليهن بصنع أصنام لهن. ويعبدها معهن، ويرتكب الشرور التي أغضبت الرب!!

بينما يقول القرآن الكريم عن سليمان عليه السلام «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا». (٣)

ويقول: «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ». (٤)

ص: ٢٦٩

١- . العهد الجديد (إنجيل متى): الاصحاح الأول ٦.

٢- . التوراه: الملوك الأول، الاصحاح: ١١، العبارات ١:١١.

٣- . النمل: ١٥.

٤- . الأنبياء: ٨١.

إنه نبيّ عظيم اختاره الله تعالى لوجيه، وأصطفاه لأداء رسالته.

٣. يعقوب عليه السلام:

إنَّ «التوراه» تصف النبيّ العظيم يعقوب عليه السلام بأنّه رجل كذّاب مخادع، أخذ النبؤه من أبيه بالمكر والخداع، «وحدث لما شاخ إسحاق وكّلت عيناه عن النظر أنّه دعا عيسو ابنه الأكبر، وطلب منه أن يصطاد له صيداً، ويصنع له طعاماً جيّداً حتّى يباركه، ويعطيه النبؤه، ولكن يعقوب (ابن إسحاق من رفقه زوجته الأخرى) بادر إلى صنع طعام لذيذ لأبيه وتظاهر بأنّه عيسو، لابساً ثياب عيسو، وقطعاً من جلود جدّيي المعزى على عنقه، لأنّ عيسو كان مشعراً وكان يعقوب أملس الجسد، فبارك إسحاق ابنه يعقوب ومنحه النبؤه، وبعد ذلك قدم عيسو من الصيد، فعرف إسحاق بأنّه خُدع، وأنّ يعقوب أخذ منه النبؤه بالمكر، فارتعد إسحاق ارتعاداً عظيماً جداً وقال لعيسو متأسفاً: قد جاء أخوك بمكر، وأخذ بركتك!!» (١).

هذا هو حال يعقوب في لسان «التوراه» المحرّفه!!

وأما القرآن الكريم فإنّه يقول عن هذا النبيّ الطاهر:

«وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (٢).

ويقول تعالى أيضاً:

«وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصَيْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ» (٣).

ص: ٢٧٠

١- . لاحظ: العهد القديم: سفر التكوين: الإصحاح السابع والعشرون: ١ إلى ٤٦، وقد ذكرنا هذه القصّه من التوراه بتلخيص.

٢- . الأنعام: ٨٤.

٣- . سوره ص: ٤٥-٤٧.

تقول «التوراه» عن إبراهيم عليه السلام إنه لما أراد أن يدخل مصر قال لزوجته ساره:

إني قد علمت أنك امرأه حسنه المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون:

هذه امرأته، فيقتلونني، ويسبّونك، قولي إنك أختي، ليكون لي خيرٌ بسببك وتحيا نفسي من أجلك.

وكذلك فعلت ساره وأخذت إلى بيت فرعون، فصنع إلى إبرام خيراً بسببها، وصار له غنم، وبقر، وحمير، وعبيد، وإماء، وأتن، وجمال، ولما عرف فرعون - في ما بعد - أن ساره زوجه إبراهيم، وليس أخته عاتبه قائلاً: لماذا لم تخبرني إنها امرأتك، لماذا قلت: هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي والآن هو ذا امرأتك، خذها واذهب».(١)

إن إبراهيم الخليل عليه السلام في وصف التوراه رجلٌ كذابٌ، يكذب ويحتال.

أما القرآن الكريم فيصف هذا النبي الجليل بأعظم الأوصاف، ويعتبره أعظم الأنبياء إذ يقول عنه إنه:

١. حنيف موحّد لله: «وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا».(٢)

٢. إمام الناس: «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».(٣)

٣. مسلمٌ: «وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا».(٤)

٤. حلیمٌ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ».(٥)

ص: ٢٧١

١- . لاحظ: العهد القديم: سفر التكوين: الإصحاح الثاني عشر ١-٢٠. بتلخيص واختصار.

٢- . آل عمران: ٦٧.

٣- . البقره: ١٢٤.

٤- . آل عمران: ٦٧.

٥- . التوبه: ١١٤.

٥. أمّه كامله بمفرده: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً». (١).

٦. أوَاةٌ يَخْشَى اللَّهَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ». (٢).

٧. مصطفى: «لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ». (٣).

٨. ذوق قلبِ سَلِيمٍ: «إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ». (٤).

٥. المسيح عليه السلام:

إِنَّ عَيْسَى: يحتقر أمّه، ويزدرى بها، - حسب روايه الإنجيل - «فجاءت حينئذٍ إخوته وأمّه ووقفوا خارجاً وأرسلوا يدعونهُ، وكان الجمع جالساً حوله، فقالوا له:

هو ذا أمُّكَ وإخوتك خارجاً يطلبونك، فأجابهم قائلاً: من أمِّي وإخوتي؟ ثم نظرَ حوله إلى الجالسين وقال: ها أمِّي وإخوتي، لأنَّ مَنْ يصنع مشيئته الله هو أخي وأختي وأمِّي!!» (٥).

إنّه يقول هذا الكلام عن أمّه التي وصفها القرآن الكريم بأنَّ الله تعالى اصطفاهَا على نساء العالمين. (٦).

إنه يفضّل تلاميذه الذين لم يؤمنوا به في قلوبهم ذره من خردل، والذين خذلوه ليله الهجوم عليه من جانب اليهود (٧) - كما يقول الإنجيل - على أمّه الصديقه.

ص: ٢٧٢

١- . النحل: ١٢٠.

٢- . التوبه: ١١٤.

٣- . ص: ٤٧.

٤- . الصافات: ٨٤.

٥- . إنجيل مرقس: الإصحاح الثالث: ٣١-٣٥.

٦- . آل عمران: ٤٢.

٧- . لاحظ: انجيل متى: الإصحاح السابع والعشرون ١-٦. انظر كيف وافق يهوذا الاسخريوطى وهو أحد الحواريين مع المتآمرين ضدَّ المسيح، وأيضاً راجع نفس السفر: الإصحاح السادس والعشرين: وراجع إنجيل متى: الإصحاح العاشر أيضاً.

كما أنّ الإنجيل يقول: إنّ المسيح حوّل الماء إلى الخمر في عرس (١) بل يقول إنه عليه السلام: شرب الخمر، والحال أنّ الإنجيل يصرّح بحرمة الخمر في مواضع عديدة. (٢)

هذا هو «عيسى» النبيّ الطاهر وحواريوه حسب روايه الإنجيل!! (٣)

أمّا القرآن الكريم فيقول عنه غير ما يقوله: «الإنجيل» وإليك بعض ما جاء في الكتاب العزيز حول «المسيح» عليه السلام.

قال الله تعالى: «وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». (٤)

وقال تعالى أيضاً: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ». (٥)

ويكفي في عظمه المسيح عليه السلام وعلو شأنه أنّه عليه السلام كلّم الناس في المهدي صبيّاً وقال: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيّاً * وَ جَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَ بَرّاً بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَ السَّلَامَ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ». (٦)

هذه هي مواقف القرآن الكريم من الأنبياء الكرام، والرسول العظيم، وتلك هي مواقف «التوراه» و «الإنجيل» المشينه، المسيئه إلى شخصيه سفراء الله مبلغي رسالاته، فكيف يُعقل أن يكون القرآن الكريم مقتبساً من تلك الكتب وبينهما بُعد

ص: ٢٧٣

١- لاحظ: إنجيل يوحنا: الإصحاح الثاني: ١-١١.

٢- لاحظ: إنجيل لوقا: الإصحاح الأوّل ١٥ وغيره.

٣- على أنّ خرافات التوراه والإنجيل لا تنحصر في ما ذكرناه هنا، وللتوسّع راجع: أنيس الأعلام تأليف فخر الإسلام، والهدى إلى دين المصطفى للعلامة البلاغي.

٤- البقره: ٨٧.

٥- النساء: ١٧١.

٦- مريم: ٣٠-٣٤.

ثم لو أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان قد اطّلع على هذه القضايا والقصاص قبل إخباره بنبوّته فلماذا لم يرشح منها شيئاً في أحاديثه قبل الرساله وقد عاش بين قومه طويلاً؟!

قال الله سبحانه في معرض الردّ والجواب على اقتراح المشركين على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأن يأتي لهم بقرآن غير الذي جاء به:

«قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (١). فالآية تؤكّد على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يبتأ في قومه، ولم يكن تالياً لسوره من سور القرآن، أو آياً من آياته، فكلّ ما أخبر به هو ممّا أوحى به الله تعالى إليه بعد أن بعثه بالرساله (٢).

ص: ٢٧٤

١- . يونس: ١٦.

٢- . للتوسّع راجع مفاهيم القرآن: ٣٢١-٣٢٣.

يجب أن يكون قاده المجتمع أقوياء شجعان، لا يرهبون أحداً، ولا يخافون شيئاً، يمتلكون قوه روحيه كبرى، ويتمتعون بصبر عظيم، وإراده قويه، صلبه.

فكيف يستطيع الضعفاء والجنباء والمترددون، وضعاف النفوس قياده المجتمع، والخروج به من المآزق والمشاكل، وكيف يستطيعون أن يقاوموا أعداءهم ويحفظوا كيانهم وشخصيتهم من عدوان هذا أو ذاك؟!

إن لعظمه القائد الروحيه، ولقواه البدنيه والنفسيه تأثيراً عظيماً وعجيباً في أتباعه وأنصاره، فعند ما اختار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أحد أصحابه المخلصين لولايه «مصر» كتب إلى أهل «مصر» المظلومين الذين ذاقوا الأمرين على أيدي ولاتهم السابقين كتاباً ذكر فيه شجاعه هذا الوالي الجديد، وقدرته النفسيه الفائقه، وإليك فيما يلي بعض الفقرات من ذلك الكتاب الذي يعكس الشروط والمواصفات الواقعيه في القائد:

«أما بعدُ فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، أشد على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق، فإنه سيف من سيوف الله، لا كليل الطبه، ولا نابي الضريبه».(١)

ص: ٢٧٥

رسول الله وقدرته الروحيه

لقد كانت آثار الشجاعه، والقوه باديه في جبين عزيز قريش منذ طفولته وصباه، ففي الخامسة عشره من عمره الشريف شارك في حرب هاجت بين قريش من جهه، وقبيله هوازن من جهه أُخرى، وتدعى «حرب الفجار»، وقد كان في هذه الحرب يناول أعمامه النبل.

فها هو «ابن هشام» ينقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «كُنْتُ أُبْلُ عَلَى أَعْمَامِي».(١)

إنّ مشاركته صلى الله عليه وآله وسلم في العمليات الحربيه في مثل هذه السن تكشف عن شجاعته صلى الله عليه وآله وسلم وقدرته الروحيه الكبرى، وتساعدنا على أن ندرك مغزى ما قاله أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام في حق النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «كُنَّا إِذَا أَحْمَرُ الْبَأْسُ إِتَّقَيْنَا بَرَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ».(٢)

وسوف نشير - وبعون الله عند ذكر جهاد المسلمين للكفار والمشركين - إلى نظام العسكريه الإسلاميه وكيفيه جهاد المسلمين وقتالهم لأعدائهم التي تمّت بأجمعها بتوجيه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو في نفسه من الأبحاث الشيقه في تاريخ الإسلام.

حروب الفجار

إنّ الحديث بتفصيل عن هذه الوقائع وعن تكتيكات هذه الحوادث التاريخيه خارج عن إطار هذه الدراسه، بيد أننا - مع ذلك - نعمد إلى بيان أسباب

ص: ٢٧٦

١- السيره النبويه: ١/١٢٠، وقد قال ابن الأثير في النهايه: ٥/١٠، ماده «نبل» بعد نقل هذا الحديث وضبط الكلمه «انبل» مشدده «أُنبِلُ»: «إذا ناولته النبل ليرمي».

٢- نهج البلاغه: فصل من غريب كلامه المحتاج إلى التفسير، الرقم ٩.

هذه الحروب التي شارك في إحداها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بناء على روايه بعض المؤرخين وحوادثها على نحو الإجمال بغيه إطلاع القارئ الكريم.

كانت العرب تقضى عامها كله بالقتال والإغارة، وقد تسبب هذا الوضع في اختلال حياتهم، واضطراب أمورهم، ولأجل هذا كانوا يحرمون القتال ويتوقفون عنه في أربعة أشهر من كل عام (هي شهر رجب، ذوالقعدة، ذوالحججه، محرم) ليتسنى لهم - في هذه المدّة - أن يقيموا أسواقهم، ويستغلّوها بالكسب والتجاره والبيع والشراء.^(١)

ولهذا كانت أسواق «عكاظ» و«مجنّه» و«ذوالمجاز» تشهد طوال هذه الأشهر الحرام اجتماعات كبرى وتجمعات حافله وحاشده، كان يلتقى فيها العدو والصديق جنباً إلى جنب، يتبايعون، ويتفاخرون.

فقد كان شعراء العرب المشهورون يلقون قصائدهم في هذه الاجتماعات الكبرى، كما يلقي كبارُ خطباء العرب وفصحائهم خطاباً قويه، وأحاديث في غايه الفصاحه والبلاغه، وكان اليهود والنصارى والوثنيون يعرضون معتقداتهم في هذه المناسبات من دون خوف أو وجلٍ.

ولكن هذه الحرمة قد هُتكت أربع مرات في تاريخ العرب، وتقاتلت القبائل العربيه فيما بينها في هذه الأشهر الحرم، ولهذا سُمّيت تلك الحروب بحروب «الفجار»، وفي مايلي نشير إليها على نحو الإجمال:

الفِجَارُ الْأُولَى:

ووقعت الحربُ فيها بينَ قبيلتي «كنانه» و«هوازن» وجاء في سبب نشوب

ص: ٢٧٧

١- . يُستفاد من قوله تعالى في الآية ٣٦ من سورة التوبه: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ أَنْ تَحْرِمَ الْقِتَالَ فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ كَانَ ذَا جَنْدُورٍ دِينِيهِ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ الْجَاهِلِيَّةُ تَحْتَرِمُ هَذِهِ الْأَشْهُرَ اتِّبَاعًا لِسُنَّةِ «إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ» عَلَيْهِ السَّلَامُ.

هذه الحرب أن رجلاً يدعى «بدر بن معشر» كان قد أعدّ لنفسه مكاناً في سوق «عكاظ» يحضر فيه، ويذكر للناس مفاخره، فوقف ذات مرّة شاهراً سيفه يقول: أنا والله أعزُّ العرب فمن زعم أنه أعزُّ منّي فليضربها بالسيف.

فقام رجلٌ من قبيله أُخرى فضرب بالسيف ساقه فقطعها، فاختصم الناس وتنازعت القبيلتان، ولكنهما اصطلحتا من دون أن يُقتل أحدهما. (١)

الفِجَارُ الثَّانِيهِ:

وكان سببها أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأه من «بنى عامر» وهى جميله، عليها برقع، فقالوا لها: إسفرى لننظر إلى وجهك، فلم تفعل، فقام غلامٌ منهم، فجمع ذيل ثوبها إلى مافوقه بشوكه، فلمّا قامت انكشف جسّمها، فضحكوا، فصاحت المرأه قومها، فأتاها الناس، واشتجروا حتّى كاد أن يكون قتالٌ، ثم اصطلحوا، وانفضّوا بسلام.

الفِجَارُ الثَّالِثِ:

وسببه أن رجلاً من «كنانه» كان عليه دَيْنٌ لرجل من «بنى عامر»، وكان الكنانى يماطل، فوقع شجارٌ بين الرجل، واستعدى كلّ واحد منهما قبيلته، فاجتمع الناس، وتحاوروا حتّى كاد يكون بينهم القتال، ثم اصطلحوا.

الفِجَارُ الرَّابِعِ:

وهى الحرب التّى - قيل: إنّه - شارك فيها النّبىّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد ادّعى البعض إنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يومذاك فى الخامسة عشره، أو الرابعه عشره من عمره.

ص: ٢٧٨

١- . ولقد كان ممّا أزاله الإسلام ومحاه هذا التفاخر الجاهلى المقيت، وستعرف هذا فى الأبحاث القادمه.

وقال بعضٌ: إنَّه كان في العشرين من عمره وحيث إنَّ هذه الحرب قد استمرَّت أربع سنوات. لهذا يمكن أن تكون جميع هذه الأقوال صحيحة. (١)

وقيل في سببها: إنَّ «النعمان بن المنذر» ملك الحيره كان يبعث إلى سوق «عكاظ» في كلِّ عام بضاعه في جوار رجل شريف من أشراف العرب، يُجيرها له حتَّى تباع هناك ويشتري بثمنها من أقمشه «الطائف» الجميله المزركشه ممَّا يحتاج إليه، فأجارها «عروه الرجال الهوازني» في تلك السنه، ولكن «البراض بن قيس الكناني» انزعج لمبادره «عروه» إلى ذلك، فشكاه عند «النعمان بن المنذر» ولم يجد اعتراضه وشكواه، فحسد على «عروه» حسداً شديداً، فترَبَّص به حتَّى غدر به في أثناء الطريق، وبذلك لَطَّخ يده بدم هوازني.

وكانت قريش يومذاك حليف كنانه، وقد اتَّفَق وقوع هذا الأمر يوم كانت العرب مشغوله بالكسب والتجاره في سوق عكاظ، فأخبر رجل قريشاً بمقتل الهوازني على يد الكناني، ولهذا عرفت قريش وحليفاتها بنو كنانه بالأمر قبل هوازن، وأسرعوا في الخروج من «عكاظ» وتوجَّهوا نحو الحرم (والحرم هو أربعة فراسخ من كلِّ جانب من مكَّه، وكانت العرب تحرِّم القتال في هذه المنطقه) ولكن هوازن علمت بذلك فلا حقت قريش وحليفاتها فوراً، وأدركتهم قبل الدخول في الحرم فوقع بينهم قتال، ولمَّا جنَّ الليل كفَّوا عن الحرب فاغتنمت «قريش» وحليفاتها فرصه الليل، وواصلت حركتها باتجاه الحرم المكي وبذلك نجت من خطر العدو.

ومنذ ذلك اليوم كانت تخرج قريش وحليفاتها من الحرم بين الفينه والأخرى وتقاتل هوازن، وقد شارك النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض تلك الأيام مع أعمامه على النحو الذي مرَّ بيانه.

وقد استمر الأمر على هذه الحال مدَّة أربع سنوات، حتَّى أن وُضعت نهايه

ص: ٢٧٩

١- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١/١١٩ و ١٢٠؛ تاريخ الخميس: ١/٢٥٩.

لهذه الحرب الطويلة بدفع قريش لهوازن ديه القتلى الذين كانوا يزيدون على قتلى قريش على يد هوازن. (١)

وقد أسلفنا أنّ تحريم القتال في الأشهر الحُرْم كانت له جذورٌ دينية، وحيث إنّ حرب «الفجار» استمرّت أربع سنوات فيمكن أن يكون لمشاركه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيها وجهاً وجيهاً وهو الدفاع، خاصة أنه لما سُئِلَ صلى الله عليه وآله وسلم عن مشهده يومئذ فقال: «ما سيّرني أنّي لم أشهده، إنهم تعدّوا على قومي، عرضوا (أى قريش) عليّهم (أى على هوازن) أن يندفعوا إليهم البراض صاحبهم (أى الذى قتل عروه) فأبوا». (٢)

ويحتمل أن تكون مشاركته صلى الله عليه وآله وسلم في غير الأشهر الحُرْم بناء على استمرار هذه الحروب مدّة أربعة أعوام، وإنّما سُميت مع ذلك بالفجار لأنّ بدايتها وافقت الأشهر الحرم لا أنّها وقعت بتمامها في الأشهر الحُرْم.

وبذلك لا يبقى مجال لأن تُستبعد مشاركة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في بعض أيام تلك الحرب.

حَلْفُ الْفُضُول:

لقد كان في ما مضى ميثاقٌ وحلفٌ بين الجرهميين يُدعى بحلف «الْفُضُول»، وكان هذا الحلف يهدف الى الدفاع عن حقوق المظلومين، وكان المؤسّسون لهذا الحلف هم جماعه كانت أسماؤهم برمتها مشتقه من لفظه الفضل، وأسمائهم - كما نقلها المؤرّخ المعروف «عماد الدين ابن كثير» - هي عبارته عن: «فضل بن فضاله»، و

ص: ٢٨٠

١- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١/١١٩؛ الأغاني: ٢٢/٣٠٧-٣٢١.

٢- . الأغاني: ٢٢/٣١٩.

«فضل بن الحارث»، و «فضل بن وداعة»^(١)، وحيث إنّ الحلف الّذى عقده جماعه من قريش فيما بينها كان متّحداً فى الهدف (وهو الدفاع عن حقوق المظلومين) مع حلف «الفضول» لذلك سُمى هذا الاتّفاق وهذا الحلف بحلف «الفضول» أيضاً.

فقبل البعثة النبويه الشريفه بعشرين عاماً دخل رجلٌ من «زبيد» فى مكّه فى شهر ذى القعدة، وعرض بضاعه له للبيع فاشتراها منه «العاص بن وائل»، وحبس عنه حقّه، فاستعدى عليه الزبيدىّ قريشاً، وطلب منهم أن ينصروه على العاص، وقريش آنذاك فى أنديتهم حول الكعبه، فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكّه نائى الدار والنّفر

ومحرّم أشعث لم يقض عُمرته يا للرجال ويّين الحجر والحجر

إنّ الحرام لمن تمّت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر القدر

فأثارت هذه الأبيات العاطفيه مشاعر رجال من قريش، وهيجت غيرتهم، فقام «الزبير بن عبدالمطلب» وعزم على نصرته، وأيده فى ذلك آخرون، فاجتمعوا فى دار «عبدالله بن خديعان» وتحالفوا وتعاهدوا بالله ليكوننّ يداً واحده مع المظلوم على الظالم حتّى يؤدى إليه حقّه ما أمكنهم ذلك، ثمّ مشوا إلى «العاص بن وائل» فانترعوا منه سلعه الزبيدىّ فدفعوها إليه.

وقد أنشد الزبير بن عبدالمطلب فى ذلك شعراً فقال:

ص: ٢٨١

إِنَّ الْفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا أَلَّا يَقِيمَ بَيْطَنَ مَكَّةَ ظَالِمٌ

أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وَتَوَاتَفُوا فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُّ فِيهِمْ سَالِمٌ

وقال أيضاً:

حَلَفْتُ لَنَعْقِدَنَّ حَلْفًا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ

نَسْمِيهِ «الْفُضُولَ» إِذَا عَقَدْنَا يُعَزُّ بِهِ الْغَرِيبُ لِدَى الْجَوَارِ

وَيُعَلِّمُ مَنْ حَوَالَى الْبَيْتِ أَنَا أَبَاهُ الضَّمِيمَ نَمْنَعُ كُلَّ عَارٍ (١)

وقد شارك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في هذا الحلف الذي ضمن حقوق المظلومين وحياتهم، وقد نُقلت عنه صلى الله عليه وآله وسلم عبارات كثيرة يشيد فيها بذلك الحلف ويعتزُّ فيها بمشاركته فيه، وها نحن ننقل حديثين منها في هذا المقام.

قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دُعيتُ به في الإسلام لأجبتُ». (٢)

كما أنَّ ابن هشام نقل في سيرته أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في ما بعد عن هذا

ص: ٢٨٢

١- . البداية والنهاية: ٢/٣٥٥-٣٥٦.

٢- . البداية والنهاية: ٢/٣٥٥.

الحلف: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبُّ أن لي به حُمْرَ النِّعَم ولو أدعى به الإسلام لأجبت». (١)

ولقد بقي هذا الحلف يحظى بمكانه واحترام قويين في المجتمع العربي والإسلامي حتّى أنّ الأجيال القادمة كانت ترى من واجبها الحفاظ عليه والعمل بموجبه، ويدلّ على هذا قضية وقعت في عهد إماره «الوليد بن عتبة» الأموي (٢) على المدينة.

فقد وقعت بين الإمام الحسين بن علي عليه السلام وبين أمير المدينة هذا منازعه في مال متعلّق بالحسين عليه السلام، ويبدو أنّ «الوليد» تحامل على الحسين في حقّه لسلطانه، فقال له الإمام السبط الذي لم يرضخ لحيف قط، ولم يسكت على ظلم أبداً:

«أَحْلِفُ بِاللَّهِ لَتَنْصِبَنِي مِنْ حَقِّي، أَوْ لَأُخَذَنَّ سَيْفِي ثُمَّ لَأَقُومَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ لَأَذْعُونَ بِحَلْفِ الْفُضُولِ». (٣)

فاستجاب للحسين فريق من الناس منهم «عبدالله بن الزبير»، وكثر هذه العبارة وأضاف قائلاً: وأنا أُحْلِفُ بِاللَّهِ لئن دعا به لَأُخَذَنَّ سَيْفِي ثُمَّ لَأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ نَمُوتَ جَمِيعاً. (٤)

وبلغت كلمه الحسين السبط عليه السلام هذه إلى رجال آخرين ك «المسوره بن مخرمه بن نوفل الزُّهري» و «عبدالرحمان بن عثمان» فقالا مثل ما قال «ابن الزبير»، فلمّا بلغ ذلك «الوليد بن عتبة» أنصف الحسين عليه السلام من حقّه حتّى رضى. (٥)

ص: ٢٨٣

١- . السيره النبويه: ١/٨٧.

٢- . من قبل عمّه معاويه.

٣- . السيره الحلبيه: ١/٢١٥.

٤- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٨٨.

٥- . البدايه والنهايه: ٢/٣٥٨ بتصرّف.

يحمل القاده الإلهيون العظماء وأصحاب الرسالات السماويه على كواهلهم مسؤوليات كبرى، ومهام عظمى تلازم - فى الأغلب - التعرض للمتاعب والمصاعب، والعذاب، وتحمل الأذى، بل وربما التعرض للقتل والاعتقال، وكلما كبرت الأهداف، عظمت المشاكل، والمتاعب.

وعلى هذا الأساس، فإن نجاح القاده الرساليين يتوقف على مدى صبرهم واستقامتهم فى وجه الاتهامات والمضايقات، وفى وجه الأذى والعذاب، لأن الصبر والتحمل فى جميع مراحل الجهاد والعمل هو الشرط الأساسى للوصول إلى المقصود، وإلى تحقيق الهدف المنشود والغايه المطلوبه.

من هنا ليس لقائد حقيقى أن يخشى كثرة العدو، وليس له أن ينسحب، أو يضعف لقله الأتباع والمؤيدين وبالتالي ليس له أن يقلق للنوائب فتخور عزمته، أو تضعف إرادته، مهما عظمت حلقة البلاء واشتدت، ومهما تزايدت الأزمات أو تواترت.

إننا نقرأ فى تاريخ الأنبياء وقصصهم أموراً يعسر على الإنسان العادى هضمها، ويصعب تصوورها.

فعن نوح النبى عليه السلام نقرأ أنه دعا قومه تسعمائه وخمسين عاماً، ولم تنتج هذه الدعوه الطويله المضنيه سوى قله من المؤمنين والمؤيدين الذين لم يتجاوز عددهم الواحد والثمانين، وهذا يعنى أنه لم يوفق فى كل اثنى عشر عاماً إلهدايه شخص واحد.

إنَّ إرادته الصبر، وقوَّة التحمُّل، والتصبُّر تظهر لدى الإنسان شيئاً فشيئاً، فلا بدَّ أن تتلاحق حوادثٌ صعبه، ولا بد أن يمرَّ المرء بنوائب مزعجه حتى تأنس روحه بالأُمور الثقيله، والقضايا الصعبه.

لقد قضى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم شطراً من حياته قبل البعثه فى رعى الغنم فى الصحارى والقفار، ليكون بذلك صبوراً فى تربيته الناس الذين سيكلّف بقيادتهم وهدايتهم، وليستسهل كلَّ صعب فى هذا المجال.

إنَّ إداره المجتمع البشرى من أصعب الأمور التى تواجه القاده، ورجال الإصلاح. والمقدره على الإدارة هذه لا تسنح ولا تنهتياً لأحد إلا بعد مزاوله الأمور الصعبه، وممارسه الأعمال الشاقه، وربما يكون قيام النبى صلى الله عليه وآله وسلم برعى الغنم من هذا الباب، ولهذا جاء فى الحديث.

«ما بعث الله نبياً قطَّ حتى يستزعيه الغنم، يُعلِّمه بذلك رعيه الناس» (١).

لقد قضى النبى صلى الله عليه وآله وسلم شطراً من عمره الشريف فى هذا المجال، وينقل كثيرٌ من أرباب السير والمؤرخين هذه العبارة عنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«ما بعث الله نبياً إلا وقد رعى الغنم» فقال له أصحابه: وَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

فقال: «وَأَنَا رَعَيْتُهَا لِأَهْلِ مَكَّةَ بِالْقَرَارِيطِ» (٢).

إنَّ شخصيه عظيمه يُفترضُ فيها أن تواجه - فى المستقبل - أشخاصاً عنودين كأبى جهل وأبى لهب، وأن تصنع ممَّن انحطت أفكارهم حتى أنهم سجدوا لكلِّ حجر ومدّر، أفراداً لا يخضعون لأى شىء سوى إرادته الحقِّ ومشيتته، لا بدَّ أن تتسلَّح قبل ذلك بسلاح الصبر، وتتجهَّز بأداه التحمُّل، وتزوِّد مسبقاً بقدره

ص: ٢٨٥

١- . علل الشرائع: ١/٣٢ ح ٢، الباب ٢٩؛ بحار الأنوار: ١١/٦٥.

٢- . البدايه والنهائيه: ٢/٣٦٠؛ السيره الحلبيه: ١/٢٠٥.

الاستقامه على طريق الهدف، وهذا لا يكون إلا بتعويد النفس على هذه الصفات، وحملها على مشاق الأعمال.

سبب آخر لرعى الغنم

ويمكن أن نذكر هنا سبباً آخر أيضاً وهو أنّ رجلاً حرّ النفس والعقل كرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تجرّى في شرايينه وعروقه دماء غيره والشجاعه كان يشقّ عليه أن يشاهد كلّ ذلك الظلم والحييف العذى كان يمارسه طغاه مكّه، وعتاه قريش وزعمائها الظالمون القساة بحقّ الضعفاء، والمحرومين، وكذا كان يشقّ عليه أن يرى تظاهرهم بالعصيان والفسوق في حرم الله، وعند بيته المعظم.

إنّ إعراض سبب كان مكّه عن عباده الله الواحد الحقّ، وطوافهم حول تلك الأصنام الخاويه هي - بلا ريب - أسوأ وأقبح ما يكون في نظر الرجل الفاهم، والعامل العالم، وأثقل ما يكون عليه.

من هنا رأى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يقضى رداً من الزمن في الصحارى والقفار وعند سفوح الجبال التي كانت يومئذ بعيدة بطبيعته الحال عن تلك المجتمعات الفاسده وأحوالها وأوضاعها، ليستريح (أو يتخلّص) بعض الشيء من آلامه الروحيه الناشئه من رؤيه تلك الأوضاع المزريه، والأحوال المشينه. على أنّ هذا الأمر لا يعنى أنّ للرجل المتقى أن يسكت على الفساد والظلم، ويقرّ عليهما. ويفرّق بين حياته وحياه الآخرين ويعتزل عنهم ويتخذ موقف اللامبالاه تجاه الأوضاع المنحرفه، والأحوال الشاذّه، بل أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لمّا كان مأموراً من جانب الله سبحانه بالسكوت والانتظار، لأنّه لم تكن ظروف «البعثه» والهدايه قد توفّرت وتهيأت بعد، لذلك اتّخذ صلى الله عليه وآله وسلم مثل هذا الموقف.

ولقد كان هذا العمل (أى الاشتغال برعى الأغنام فى البرارى والقفار وعند السهول وسفوح الجبال) فرصه جيده لأن يتمكّن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من النظر فى خلق السماوات والتطلّع فى النجوم والكواكب وأحوالها وأوضاعها، وبالتالى الإمعان فى الآيات الأنفسيه والآفاقه التى هى جميعاً من آيات وجود الله تعالى، ومن مظاهر قدرته وحكمته وعلمه وإرادته.

إنّ قلوب الأنبياء والمرسلين مع أنّها منوّره بمصابيح المعرفة المشرقه ومضاءه بأنوار الإيمان والتوحيد منذ بدء فطرتها، وخلقتها، ولكنهم مع ذلك لا يرون أنفسهم فى غنى عن النظر فى عالم الخلق، والتفكّر فى الآيات الإلهيه، إذ من خلال هذا الطريق يصلون إلى أعلى مراتب الإيمان، ويبلغون أسمى درجات اليقين، وبالتالى يتمكّنون من الوقوف على ملكوت السماوات والأرضين.

إقتراح أبى طالب

لقد دفع وضع (محمّد) المعيشى الصعب «أبا طالب» سيد قريش وزعيمها الذى كان معروفاً بالسخاء وموصوفاً بالشهامه، وعلو الطبع، وإباء النفس إلى أن يفكّر فى عمل لابن أخيه، كيما يخفف عنه وطأه ذلك الوضع.

ومن هنا اقترح على ابن أخيه «محمّد» العمل والتجاره بأموال «خديجه بنت خويلد» التى كانت امرأه تاجره، ذات شرف عظيم، ومال كثير، تستأجر الرجال فى مالها أو تضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه.

فقد قال أبو طالب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم:.... وخديجه بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عيراتها فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها فوضعت

نفسك عليها لأسرعت إليك، وفضلتكم على غيركم، لما يبلغها عنك من طهارتك....

ولكن إباء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلو طبعه، منعه من الإقدام بنفسه على هذا الأمر من دون سابق عهد، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم لعمه: «فلعلها ترسل إلي في ذلك»، لأنها تعرف بأنه المعروف بالأمين بين الناس.

فبلغ «خديجه» بنت خويلد، ما كان من محاوره عمه «أبي طالب»، له، فقالت:

ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: إنني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك وأبعث معك غلامين يأتمران بأمرك في السفر.

ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولقى عمه أبا طالب فذكر له ذلك فقال: «إن هذا لرزق ساقه الله إليك».(1)

هل عمل النبي أجيراً لخديجه؟

وهنا لابد من التذكير بنقطة في هذا المجال وهي:

هل عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أجيراً في أموال خديجه، أم أنه قد عمل في تجارتها بصورة أخرى كالمضاربه، وذلك بأن تعاقد النبي مع خديجه على أن يتاجر بأموالها على أن يشاركها في أرباح تلك التجاره؟

إن مكانه البيت الهاشمي، وإباء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ومناعه طبعه، كل تلك الأمور والخصال توجب أن يكون عمل النبي في أموال خديجه قد تم بالصورة الثانية (أي العمل في تجارتها على نحو المضاربه لا الإجاره)، وتؤيد هذا المطلب أمور هي:

ص: ٢٨٨

١- . لاحظ: السيره الحلبيه: ١/٢١٦.

أولاً: أنه لا- يوجد في اقتراح أبي طالب أنه اشاره ولا أى كلام عن الإجاره، بل قد تحاور أبوطالب مع إخوته (أعمام النبي) في هذه المسأله من قبل وقال:

«امضوا بنا إلى دار خديجه بنت خويلد حتى نسألها أن تُعطي محمّداً مالاً يتجر به». (١)

ثانياً: أن المؤرخ الأقدم المعروف باليعقوبى كتب في تاريخه:... وأنه ما كان ممّا يقول الناس أنها استأجرته بشيء، ولا كان أجيراً لأحد قط. (٢)

ثالثاً: أن الجنازى صرح في كتابه «معالم العتره النبويه» مرفوعاً عن محمد بن إسحاق قال: كانت «خديجه بنت خويلد امرأه تاجر ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه (أى من ذلك المال أو من ربحه). (٣)

رحله النبي صلى الله عليه وآله وسلم التجاريه إلى الشام

تهيأت قافله قريش التجاريه للسفر إلى الشام، وفيها أموال «خديجه» أيضاً، في هذه الأثناء جعلت «خديجه» بعيراً قوياً وشيئاً من البضاعه الثمينه تحت تصرف وكيلها (أى النبي صلى الله عليه وآله وسلم) وأمرت غلاميها (ميسره وناصح) اللّذين قررت أن يرافقا صلى الله عليه وآله وسلم بأن يمثلا أوامراه، ويطيعاه، ويتعاملا معه بأدب طوال تلك الرحله، ولا يخالفاه فى شيء. (٤)

ص: ٢٨٩

- ١- . بحار الأنوار: ١٦/٢٢.
- ٢- . تاريخ اليعقوبى: ٢/٢١.
- ٣- . بحار الأنوار: ١٦/٩ نقلاً عن «معالم العتره النبويه» لأبى محمد بن عبدالعزيز الأخضر الجنازى الحنبلى.
- ٤- . قالت خديجه لهما: إعلما أنّى قد أرسلت إليكما أميناً على أموالى، وأنه أمير قريش وسيدها، فلا يدُ على يده، فإن باع لا يُمنع، وإن ترك لا يؤمر، وليكن كلاكما له بلطف وأدب، ولا يعلو كلامكما على كلامه. (بحار الأنوار: ١٦/٢٩).

وأخيراً وصلت القافلة إلى مقصدها واستفاد الجميع في هذه الرحلة التجاريه أرباحاً، إلا أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ربح أكثر من الجميع، كما أنه ابتاع أشياء من الشام لبيعها في سوق «تهامه».

ثم عادت تلك القافلة التجاريه إلى «مكّه» بعد ذلك المكسب الكبير، والحصول على الربح الوفير.

ولقد تسنى لفتى قريش «محمّد» أن يمرّ - للمرّه الثانيه في هذه السفره - على ديار عاد وثمود.

وقد حمه الصمّت الكبير الّذى كان يخيم على ديار وأطال تلك الجماعه العاصيه المتمرّده في نقله روحانيه إلى العوالم الأخرى أكثر فأكثر، هذا مضافاً إلى أنّ هذه الرحله جدّدت خواطره وذكرياته في السفره الأولى، فقد تذكّر يوم طوى مع عمّه «أبي طالب» هذه الصحارى نفسها وهذه القفار ذاتها، وما كان يحظى فيها من عمّه من الحبّ والعنايه. وعند ما اقتربت قافله قريش إلى «مكّه»، وصارت عند مشارفها، التفت «ميسره» غلامٌ خديجه، إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «يامحمّد لقد جزنا عقبات بليله كُنّا نجوزها بأيام كثيره، وربحنا في هذه السفره ما لم نربح في أربعين سنه ببركتك يا محمد، فاستقبل بخديجه وابشرها بربحنا» فأخذ النبيّ باقتراح ميسره، وسبق القافله العائده في الدخول إلى مكّه، وتوجه نحو بيت «خديجه» بينما كانت خديجه جالسه في غرفتها، فلمّا رأّت النبيّ مقبلاً عليها، نزلت من منظرتها وركضت نحوه واستقبلته، وأدخلته في غرفتها، فخبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما ربحوها، ببيان جميل، وكلام بليغ، فسرت «خديجه» بذلك سروراً عظيماً، ثم قدم «ميسره» في الأثر، ودخل عليها، وأخبرها بكلّ ما رآه وشاهده من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في تلك السفره من الكرامه والخير، والخلق العظيم، والخصال الكريمه، ومن الأمور التي كانت برمّتها

تدلّ على عظمه شخصيته صلى الله عليه وآله وسلم، وسمو خصاله. (١)

ومن جملة ما حدّثها به ميسره هو أنّه لمّا وقع بين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبين رجل تلاح وجدال في بيع قال له ذلك الرجل: إحلف باللّات والعُزى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما حلفتُ بهما قط، وإني أمرُّ فاعرضُ عنهما. (٢)

وحدّثها أيضاً بأنّه لمّا مرّ ببصرى نزلا في ظل شجره ليستريحها فقال راهبٌ كان يعيش هناك لمّا رأى النبيّ يستريح في ظل تلك الشجرة: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلّانبيّ» سأل عن اسمه، فأخبره ميسره باسمه فقال: «هو نبيّ وهو آخر الأنبياء، إنّهُ هو هو ومُنزّل الإنجيل، وقد قرأت عنه بشائر كثيره». (٣)

خديجه زوجته الرسول الأولى

حتّى قبل ذلك اليوم لم تكن حاله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الاقتصاديه ووضعهُ المالي يُحسدُ عليه، فقد كان بحاجة إلى مساعده عمّه «أبي طالب» الماليه، ولم يكن شغله على النحو الّذى يكفي لضمان نفقاته، من جانب، وتمكينه من اختيار زوجته وشريكه حياه وتكوين عائله، من جانب آخر.

ولكن هذه السفره إلى الشام وبخاصه على نحو الوكاله والمضاربه في أموال امرأه جليله، معروفه في قريش (أعنى خديجه) ساعدت وإلى حدّ كبير على تثبيت وضعه الاقتصادي وتقويه بنيته الماليه.

ولقد أعجبت «خديجه» بعظمه فتى قريش وسمو أخلاقه، ومقدرته التجاريه

ص: ٢٩١

- ١- . بحار الأنوار: ١٦/٥ بتصرّف واختصار.
- ٢- . الطبقات الكبرى: ١/١٣٠ وفي بحار الأنوار: ١٦/١٨: أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي ثَكَلْتُكَ أُمَّيْكَ فَمَا تَكَلَّمْتُ الْعَرَبُ بِكَلِمَةٍ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.
- ٣- . بحار الأنوار: ١٦/١٨؛ الطبقات الكبرى: ١/١٣٠.

حتى أنها أرادت أن تعطيه زياده على ما تعاقدنا عليه، تقديراً له، وإعجاباً به، ولكنه اكتفى بأخذ ما تقرّر في البدايه ثم توجه إلى بيت عمه «أبي طالب» وقدم كل ما أخذه من «خديجه» إلى عمه «أبي طالب» ليوسّع به على أهله.

ففرح «أبو طالب» بما عاين من ابن اخيه، وبقيه أبيه «عبدالمطلب»، وأخيه «عبدالله» وأغرورقت عيناه بالدموع، وسرّ بما حقّق من نجاح وما حصل عليه من ربح من تلك التجاره سروراً كبيراً، واستعدّ أن يعطيه بعيرين يسافر عليهما ويتاجر، وراحتين يصلح بهما شأنه، ليتسنى له بأن يحصل على ثروه ومال يعطيه لعمّه ليختار له زوجه.

في مثل هذه الظروف بالذات عزم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عزماً قاطعاً على أن يتخذ لنفسه شريكه حياه ويكون أسره، ولكن كيف وقع الاختيار على «خديجه» التي سبق لها أن رفضت كلّ طلبات الزواج التي تقدّم بها كبار الأثرياء والشخصيات القرشيه مثل «عقبه بن أبي معيط»، و«أبو جهل» و«أبوسفيان» للزواج بها؟! وماذا كانت العلل التي جمعت هذين الشخصين غير المتشابهين، من حيث مستوى الحياه، والثراء؟ وكيف ظهرت تلك الرابطه القويه، وتلك العلاقه المعنويّه العميقه، والألفه والمحبه بينهما إلى درجه أنّ «خديجه» سلام الله عليها وهبت كل ثروتها للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لينفقها في نشر الإسلام، وإعلاء كلمه الحقّ، وإرساء قواعد التوحيد، وبثّ الدين الجديد، وأصبحت تلك الدار الفخمه التي كانت تزيناها الكراسي المرصّعه، والستر المطرّزه، المصنوعه من أغلى الأقمشه الهنديه، والایرانيه، ملجأ للمسلمين، وملتقى لأنصار الرساله!!؟

لابدّ من البحث عن جذور هذه الحوادث في تاريخ حياه «خديجه» نفسها، فإنّ من المسلمّ والبديهيّ أنّ هذا النوع من الفداء، والتفاني والإيثار لم يكن ثابتاً ليتحقّق ما لم يكن لها جذور معنويه وطاهره.

إن صفحات التاريخ لتشهد بأن هذا الزواج كان ناشئاً من إيمان «خديجه» بتقوى عزيز قريش وفتاها الأمين «محمد» وطهره، وحبها الشديد لعفته وكرم أخلاقه، ولهذا قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في حقها:

«أفضل نساء الجنة أربع: خديجه...»^(١).

إنها أول امرأة آمنت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: في خطبته التي يشير فيها إلى غربه الإسلام في مبدأ البعثة النبويه الشريفه:

«وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يُؤْمِنُ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ وَخَدِيَجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا»^(٢).

ويكتب «ابن الأثير»: وقال: عفيف الكندي: كنت امرأً تاجراً فقدمت مكة أيام الحج فأتيت العباس فينما نحن عنده إذ خرج رجل فقام تجاه الكعبه يصلي ثم خرجت امرأه تصلي معه، ثم خرج غلامٌ فقام يصلي معه، فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ فقال:

هذا محمد بن عبد الله ابن أخي زعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجه آمنت به، وهذا الغلام علي بن أبي طالب آمن به، وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة^(٣).

وينبغي هنا أن نعطي لمحة عن مكانه خديجه في الإسلام تكميلاً لهذه الدراسة.

ص: ٢٩٣

١- . خصال الصدوق: ٢٠٦ ح ٢.

٢- . نهج البلاغه: ٣٠٠، الخطبه ١٩٢؛ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي: ١٣/١٩٧ و ٢٠١.

٣- . الكامل في التاريخ: ٢/٥٧.

خديجه في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

لقد اكتسبت «خديجه» بفضل إيمانها العميق بالرسالة المحمدية، وتفانيها في سبيل الإسلام وبسبب حرصها العجيب على حياة صاحب الرسالة وسلامته، وعملها المخلص على إنجاح مهمته، ومشاركتها الفعّالة، في دفع عجله الدعوه إلى الأمام، ومشاطرتها للنبي في أكثر ما تحمّله من محن وأذى بصبر واستقامه وحب ورغبه.

لقد اكتسبت خديجه بفضل كلّ هذا وغيره مكانه ساميه في الإسلام، حتّى أنّ النبي ذكرها في أحاديث كثيرة وأشاد بفضلها، ومكانتها وشرفها على غيرها من النساء المسلمات المؤمنات، وذلك ولا شك ينطوي على أكثر من هدف.

فمن جملة الأهداف التي ربّما توخّأها النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الإشاده بخديجه عليها السلام إلفات نظر المرأه المسلمه إلى القدوه التي ينبغي أن تقتدى بها في حياتها وسلوكها في جميع المجالات والأبعاد، والظروف، والحالات.

هذا مضافاً إلى ما يمكن أن تقدّمه المرأه وهي نصف المجتمع (إن لم تكن أكثره أحياناً) من دعم جدّي للرساله، مادياً كان أو معنوياً.

وفيما يلي نأتى ببعض الأحاديث الشريفه التي تعكس مكانه خديجه، ومقامها، ومدى إسهامها في نصره الإسلام ودعم دعوته، وإرساء قواعده.

١. عن أبي زرعه عن أبي هريره يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أتى جبرئيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله: هذه خديجه قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربّها ومّنّى، وبشّرها بيبي في الجنه من قصب لا صخب فيه ولا نصب» (١).

ص: ٢٩٤

١- صحيح البخارى: ٤/٢٣١، باب تزويج النبي صلى الله عليه وآله وسلم خديجه وفضلها؛ صحيح مسلم: ٧/١٣٣.

٢. عن عائشه قالت: ما غرت على امرأه ما غرت على خديجه، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنت أسمعها يذكرها، ولقد أمره ربه عزوجل أن يبشرها ببيت من قصب في الجنة، وإن كان ليذبح الشاه ثم يهديها إلى خلائها (أى خلائها وصديقاتها). (١)

٣. وعن عائشه أيضاً قالت: ما غرت على نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا على خديجه، وإني لم أدركها، قالت: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذبح الشاه فيقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجه قالت «أى عائشه»: فأغضبته يوماً فقلت: خديجه!! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني قد رزقت حبها». (٢)

٤. ومن هذا القبيل ما كان يقوم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع صاحبات خديجه من الاحترام لهن والاحتفاء بهن: فقد وقف صلى الله عليه وآله وسلم على عجوز فجعل يسألها، ويتحفاها، وقال:

«إن حسن العهد من الإيمان، إنها كانت تأتينا أيام خديجه». (٣)

٥. وروى عن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتى بهديه قال: «إذهبوا بها إلى بيت فلانه فإنها كانت صديقه لخديجه، إنها كانت تحب خديجه». (٤)

٦. روى مجاهد عن الشعبي عن مسروق عن عائشه قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجه فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيره فقلت: هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب حتى اهتزّ مقدّم شعره من الغضب، ثم قال: «لا والله ما أبدلني الله

ص: ٢٩٥

١- . صحيح مسلم: ٧/١٣٣-١٣٤، باب فضائل خديجه عليها السلام.

٢- . صحيح مسلم: ٧/١٣٤.

٣- . شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ١٨/١٠٨. وذكر نحوه الحاكم في مستدركه: ١/١٦.

٤- . الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض: ١/١٢٦.

خيراً منها، آمَنْتَ إِذْ كَفَرَ النَّاسُ، وَصَدَّقْتَنِي وَكَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَأَسْتَنِي فِي مَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ مِنْهَا أَوْلَاداً إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا أَذْكَرُهَا بِسَيِّئِهِ أَبَداً. (١)

٧. عن يعلى بن المغيرة عن ابن أبي رواد قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على خديجه في مرضها الذي ماتت فيه، فقال لها:

«بالكره مني ما أرى منك يا خديجه، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً، أما علمت أن الله تعالى زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران، وكلتم أخت موسى وآسيه امرأة فرعون...». (٢)

٨. عن عكرمه عن ابن عباس قال: خط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربع خطط في الأرض وقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أفضل نساء الجنة أربع: خديجه بنت خويلد، وفاطمه بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسيه بنت مزاحم امرأة فرعون». (٣)

٩. عن أنس قال: أتى جبرئيل عليه الصلاة والسلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعنده خديجه رضى الله عنها فقال: إن الله يقرئ خديجه السلام، فقالت: إن الله هو السلام، وعليك السلام، ورحمه الله وبركاته. (٤)

١٠. عن أبي الحسن الأول (الكاظم) عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

ص: ٢٩٦

١- . أسد الغابه: ٥/٤٣٨؛ الاستيعاب لابن عبد البر: ٤/١٨٢٣؛ ورواه مسلم أيضاً: ٧/١٣٤؛ وكذا البخارى: ٥/٣٩ وقد حذفها آخرها من: فغضب حتى... إلى آخر الروايه.

٢- . أسد الغابه: ٥/٤٣٩؛ البدايه والنهايه: ٢/٧٤.

٣- . الخصال للصدوق: ٢٠٥ ح ٢٢؛ بحار الأنوار: ١٦/٢، ح ٣.

٤- . المستدرک على الصحيحين: ٣/١٨٦.

«إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَرْبَعَةً... وَاخْتَارَ مِنَ النِّسَاءِ أَرْبَعًا: مَرْيَمَ وَآسِيَةَ وَخَدِيجَةَ وَفَاطِمَةَ».(١)

١١. عن أبي اليقظان عمران بن عبد الله عن ربيعة السعدي قال: أتيت حذيفة بن اليمان وهو في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعته يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «آله و سلم فسمعته يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:»

«خديجة بنت خويلد سابقة نساء العالمين إلى الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم».(٢)

١٢. عن عروه قال: قالت عائشة لفاطمة (رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم): ألا أبشرك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«سيدات نساء أهل الجنة أربع: مريم بنت عمران، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخديجة بنت خويلد، وآسيه».(٣)

١٣. عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منزله، فإذا عائشة مقبله على فاطمه تصايحها وهي تقول: والله يا بنت خديجة، ماترين إلا أن لأُمك علينا فضلاً، وأي فضل كان لها علينا؟! ما هي إلا كبعضنا.

فسمع صلى الله عليه وآله وسلم مقالتها لفاطمة، فلما رأت فاطمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكت، فقال: ما يبكيك يا بنت محمد؟! قالت: ذكرت أُمي فتتقصتها فبكيته، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال:

«مَهْ يَا حُمَيْرَاءَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَارَكَ فِي الْوُدُودِ الْوَالِدِ، وَأَنَّ خَدِيجَةَ (رَحِمَهَا اللَّهُ) وَلَدَتْ مِنِّي طَاهِرًا، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ الْمَطْهُرُ وَوَلَدَتْ مِنِّي الْقَاسِمَ، وَفَاطِمَةَ، وَرَقِيَةَ، وَأُمَّ كَلْثُومَ، وَزَيْنَبَ، وَأَنْتَ مَمَّنْ أَعْقَمَ اللَّهُ رَحِمَهُ فَلَمْ تَلِدِي

ص: ٢٩٧

١- . الخصال: ٢٢٥ ح ٥٨؛ بحار الأنوار: ١٦/٢، ح ٥.

٢- . المستدرک علی الصحیحین: ٣/١٨٤.

٣- . مستدرک الحاکم: ٣/١٨٥-١٨٦.

أجل هذه هي «خديجة بنت خويلد» شرفٌ وعقلٌ، وحبٌ عميقٌ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووفاء وإخلاص، وتضحيه بالغالى والنفيس فى سبيل الإسلام الحنيف.

هذه هي «خديجة» أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت محمداً فيما جاء به عن ربه، من النساء، وآزرتة، فكان صلى الله عليه وآله وسلم لا- يسمع من المشركين شيئاً يكرهه من ردّ عليه، وتكذيب له إلا فرّج الله عنه بخديجة التي كانت تخفف عنه (٢)، وتهوّن عليه ما يلقي من قومه، بما تمنحه من لطفها، وعطفها، وعنايتها به صلى الله عليه وآله وسلم، فى غاية الإخلاص والودّ والتفانى.

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحبّها حباً شديداً ويجلّها ويقدرها حقّ قدرها (٣)، ولم يفتأ يذكرها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى رحلت وفاء لها، واحتراماً لشخصها ومشاعرها، وكان يغضب إذا ذكرها أحدٌ بسوء، كيف وهى التي آمنت به إذ كفر به الناس، وصدّقتها إذ كذّبها الناس، وواسته فى مالها إذ حرّمه الناس.

ولهذا أيضاً كانت وفاتها مصيبه عظيمه أحزنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفعتة إلى أن يُسمّى ذلك العام العدى توفى فيه ناصراه وحامياه، ورفيقا آلامه (زوجته هذه):

خديجة بنت خويلد، وعمّه المؤمن الصامد الصابر أبوطالب عليهما السلام) بعام الحداد، أو عام الحزن (٤) وأن يلزم بيته ويقلّ الخروج (٥)، وأن ينزل صلى الله عليه وآله وسلم عند دفنها فى

ص: ٢٩٨

١- الخصال: ٤٠٥ ح ١١٦؛ بحار الأنوار: ١٦/٣ ح ٦.

٢- نهايه الأرب فى فنون الأدب للنويرى: ١٨/١٧١.

٣- أعلام النساء: ١/٣٣٠.

٤- السيره الحلييه: ٣/٤٩٨؛ تاريخ يعقوبى: ٢/٣٥. وقد روى يعقوبى أيضاً عنه عليه السلام أنه قال بهذه المناسبه: «اجتمعت على هذه الأمه مصيبتان لا أدرى بأيهما أنا أشدّ جزعاً».

٥- لاحظ: السيره الحلييه: ٢/٤١؛ المواهب اللدنيه حسب نقل تاريخ الخميس: ١/٣٠٢ وفيه إضافه: ونالت قريش منه ما لم تكن تنال.

حفرتها، ويدخلها القبر بيده، في الحجون.(١)

عن ابن عباس في حديث طويل في زواج فاطمه الزهراء عليها السلام بعلى عليه السلام اجتمعن (نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم) عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان في بيت عائشه (ليسألته أن يُدخَلَ الزهراء على (عليّ) عليه السلام) فأحدقن به وقُلنَ: فديناك بأبائنا وأمّهاتنا يا رسول الله قد اجتمعنا لأمر لو أنّ «خديجه» في الأحياء لقرّث بذلك عيُنّها.

قالت أم سلمة: فلما ذكرنا «خديجه» بكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «خديجه وأين مثل خديجه، صدقتني حين كذّبنى الناس، وآزرتني على دين الله وأعانتني عليه بمالها، إنّ الله عزّوجلّ أمرني أن أبشّر خديجه ببيت في الجنة من قصب (الزمرّد) لا صحبَ فيه ولا نصّب.»(٢)

لقد كانت خديجه من خيره نساء قريش شرفاً، وأكثرهنّ مالاً، وأحسنهنّ جمالاً، وأقواهنّ عقلاً وفهماً، وكانت تُدعى في الجاهليه بالطاهره لشده عفافها وصيانتها^٣؛ ويقال لها: سيده قريش^٤، وكان لها من المكانه والمنزله بحيث كان كل قومها وسيراه أبناء جلدتها حريصين على الاقتران بها^٥، وقد خطبها - كما يحدثنا التاريخ - عظماء قريش وبذلوا لها الأموال، وممن خطبها «عقبه بن أبى معيط» و«الصلت بن أبى يهاب» و«أبوجهل» و«أبوسفيان» فرفضتهم جميعاً، واختارت رسول الله - وهى فى سن الأربعين وهو صلى الله عليه وآله وسلم فى الخامسة والعشرين - وهى تمتلك تكلم الثروه الطائله، وهو صلى الله عليه وآله وسلم لا يمتلك من حطام الدنيا إلّا الشىء اليسير اليسير، رغبه فى الاقتران به ولما عرفت فيه من كرم الأخلاق، وشرف النفس، والسجايا الكريمه والصفات العالیه، وهى ما كانت تبحث عنه فى حياتها وتتمنّاه وإذا بتلك المرأه الغنيه الثريه المتنعمه فى أفضل عيش تصبح فى بيت زوجها

ص: ٢٩٩

١- لاحظ: السيره الحلبيه: ٢/٤٠.

٢- بحار الأنوار: ٤٣/١٣١ نقلاً عن كشف اليقين.

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تلك الزوجه المطيعه الخاضعه، الوفيه المخلصه، وتسارع إلى قبول دعوته، واعتناق دينه بوعى وبصيره وإرادته منها واختيار، وهى تعلم ما ينطوى عليه ذلك من مخاطر ومتاعب، وتجعل كل ثروتها فى خدمه العقيده والمبدأ، وتشاطر زوجها آلامه، ومتاعبه، وترضى بأن تذوق مراره الحصار فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات وفى سنّ الرابعه أو الخامسه والستين. وهى مع ذلك تواجه كل ذلك بصبر وثبات(١)، ودون أن يذكر عنها تبرّم أو توجّع.

هذا مضافاً إلى أنّها كانت تعامل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأدب تامّ يليق بمقام الرساله والنبوه، على العكس من غيرها من بعض نساء النبىّ اللاتى كنّ ربّما يثرن سخطه وغضبه، ويؤذينه فى نفسه وأهله.

وإليك فيما يأتى بعض ما قاله عنها كبار الشخصيات، والمؤرّخين ممّا يكشف عن عظيم مكانتها عند المسلمين أيضاً، قال أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام:

«كنتُ أوّلَ مَنْ أسلمَ، فمكّثنا بذلكَ ثلاثَ حجّج، وما على الأرض خَلْقٌ يُصلّى ويشهد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما أتاه غيرى، وغير ابنه خويلد رحمها الله وقد فعل»(٢).

وقال محمّد بن إسحاق: كانت خديجه أوّلَ مَنْ آمن بالله ورسوله وصدّقت بما جاء من الله، ووازرته على أمره، فخفف الله بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلاّ فرج الله ذلك عن

ص: ٣٠٠

١- . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ١٤/٥٩ قال: خديجه بنت خويلد وهى عند رسول الله صلى الله عليه وآله محاصره فى الشعب.

٢- . بحار الأنوار: ١٦/٢؛ ومثله فى روايات متعدده فى شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ٤/١١٩ و ١٢٠.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بها إذا رجع إليها تبتُّه، وتخفف عنه، وتهوّن عليه أمر الناس حتّى ماتت رحمها الله. (١)

وعنه أيضاً: أنّ «خديجة بنت خويلد» و«أباطالب» ماتا فى عام واحد، فتتابع على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هلاك خديجة وأبى طالب، وكانت خديجة وزيره صدق على الإسلام، وكان رسول الله يسكن إليها. (٢)

وقال أبو أمامه ابن النّقاش: إنّ سبق خديجة وتأثيرها فى أوّل الإسلام ومؤازرتها ونصرتها وقيامها لله بمالها ونفسها لم يشركها فيه أحدٌ لا عائشه ولا غيرها من أمّهات المؤمنين. (٣)

وقد جاء فى «المنتقى»: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ما أمر بأن يصدع بالرسالة صعد على الصفا، وأخبر الناس بما أمره الله به فرماه أبو جهل (قبحة الله) بحجر فشجّ بين عينيه، وتبعه المشركون بالحجارة فهرب حتّى أتى الجبل، فسمع عليّ و خديجةً بذلك فراحا يلتمسانه صلى الله عليه وآله وسلم وهو جائع عطشان مرهق، ومضت خديجة تبحث عنه فى كلّ مكان فى الوادى وهى تناديه بحرقه وألم، وتبكي وتنحب؛ ونظر جبرئيل إلى خديجة تجول فى الوادى فقال: يا رسول الله ألا ترى إلى خديجة قد أبكت لبيكائها ملائكة السماء؟ أدعها إليك فاقريئها منى السلام وقل لها: إنّ الله يقرئك السلام، وبشّرها أنّ لها فى الجنة بيتاً من قصب لا نصب فيه ولا صحب، لؤلؤاً مكلّلاً بالذهب؛ فدعاها النبى صلى الله عليه وآله وسلم والدماء تسيل من وجهه على الأرض وهو يمسحها ويردها،... فلما جنّ عليهم الليل انصرفت خديجة رضى الله عنها ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عليه السلام ودخلت به منزلها، فأقعدته على الموضع الذى فيه الصخره، وأظلتته بصخره من فوق رأسه، وقامت فى وجهه تستره ببردتها، وأقبل المشركون

ص: ٣٠١

١- بحار الأنوار: ١٠/١٦-١٢.

٢- نفس المصدر.

٣- تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس: ١/٢٦٦.

يرمونه بالحجاره، فإذا جاءت من فوق رأسه صخره وقته الصخره، وإذا رموه من تحته وقتة الجدران الحيط، وإذا رمى من بين يديه وقتة خديجه (رضى الله عنها) بنفسها، وجعلت تنادى يا معشر قريش ترمى الحرة في منزلها؟ فلما سمعوا ذلك انصرفوا عنه، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وغدا إلى المسجد يصلى. (١)

ولقد بلغ من خضوعها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحبها له أنها بعد أن تم عقد زواجها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت له صلى الله عليه وآله وسلم: «إلى بيتك، في بيتي بيتك، وأنا جاريتك». (٢) وجاء في السير الدحلانيه بهامش السير الحلييه: ولسبقها إلى الإسلام وحسن المعروف جزاها الله سبحانه، فبعث جبرئيل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بغار حراء وقال له: اقرأ عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب؛ فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبرئيل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمه الله وبركاته، وهذا من وفور فقهها (رضى الله عنها) حيث جعلت مكان رد السلام على الله الثناء عليه ثم غايرت بين ما يليق به وما يليق بغيره، قال ابن هشام: والقصب هنا اللؤلؤ المجوف، وأبدى السهيلي لنفى النصب لطيفه هي أنه صلى الله عليه وآله وسلم لَمَّا دعاها إلى الإيمان أجابت طوعاً ولم تحوجه لرفع صوت ولا - منازعه ولا - نصب بل أزالته عنه كل تعب، وأنسته من كل وحشه، وهونت عليه كل عسير فناسب أن تكون منزلتها التي بشرها بها ربها بالصفه المقابله لفعالها وصوره حالها (رضى الله عنها) وإقراء السلام من ربها خصوصيه لم تكن لسواها، وتميزت أيضاً بأنها لم تسؤه صلى الله عليه وآله وسلم ولم تغاضبه قط، وقد جازاها فلم يتزوج عليها مده حياتها، وبلغت منه ما لم تبلغه امرأه قط من زوجاته. (٣)

ص: ٣٠٢

- ١- بحار الأنوار: ١٨/٢٤٢-٢٤٣. باختصار وتصرف يسير.
- ٢- بحار الأنوار: ١٦/٤ نقلاً عن الخرائج والجرائح: ١/١٤٠.
- ٣- سيره زيني دحلان بهامش السير الحلييه: ١/١٦٩.

افتخار أهل البيت بخديجه عليها السلام

وما يدلّ على سموّ مقامها وعلوّ منزلتها أنّ أهل البيت عليهم السلام طالما افتخروا بأنّ خديجه منهم، وأنهم من خديجه وقد كانوا يعترّون بها، ويشيدون بمكانتها:

فقد خطب معاويه بالكوفه حين دخلها والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر فذكر عليّاً عليه السلام فنال منه ثم نال من الحسن، فقام الحسين عليه السلام ليردّ عليه، فأخذه الحسن بيده وأجلسه ثم قام فقال:

«أَيُّهَا الذَّاكِرُ عَلِيّاً أَنَا الْحَسَنُ وَأَبِي عَلِيٍّ وَأَنْتَ مَعَاوِيَةُ وَأَبُوكَ صَخْرٌ، وَأُمِّي فَاطِمَةُ وَأُمُّكَ هِنْدٌ، وَجَدِّي رَسُولُ اللَّهِ وَجَدُّكَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَجَدَّتِي خَدِيجَةُ وَجَدَّتُكَ قَتِيلَةُ، فَلَعَنَ اللَّهُ أَحْمَلَنَا ذِكْرًا، وَالْأَمْنَا حَسَبًا، وَشَرَّرَنَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَأَقْدَمَنَا كَفْرًا وَنِفَاقًا». فقال طوائف من أهل المسجد: آمين (١).

وقيل: إنّ «الحسين» عليه السلام ساير «أنس بن مالك» فأتى قبر خديجه فبكى، ثم قال: إِذْهَبْ عَنِّي قَالَ «أَنْسٌ»: فَاسْتَخْفِيَتْ عَنْهُ فَلَمَّا طَالَ وَقُوفُهُ فِي الصَّلَاةِ سَمِعْتَهُ يَقُولُ:

يَا رَبِّ يَا رَبِّ أَنْتَ مَوْلَاهُ فَأَرْحَمْ عُيْبِدًا إِلَيْكَ مَلْجَأُ

يَا ذَا الْمَعَالِي عَلَيْكَ مُعْتَمِدِي طُوبَى لِمَنْ كُنْتَ أَنْتَ مَوْلَاهُ

طُوبَى لِمَنْ كَانَ خَادِمًا أَرْقًا يَشْكُو إِلَى ذِي الْجَلَالِ بَلَوَاهُ

إلى آخر الأبيات. (٢)

هكذا كان أهل البيت النبوي - اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - يحترمون خديجه ويكرمونها، لما كان لها من شخصيه عظيمه، ولما أسدته إلى الإسلام وإلى رسول

ص: ٣٠٣

١- شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد المعتزلي: ١٦/٤٦-٤٧.

٢- بحار الأنوار: ٤٤/١٩٣، نقلًا عن عيون المحاسن.

الإسلام من خدمات لا تُنسى على مرّ الدهور.

إنّ بيان ونقل الأحاديث والروايات، وكذا الأقوال التي وردت في شأن خديجه والحديث عن شخصيتها ومكانتها ومدى إسهامها في إنجاح ونصره الدعوه المحمّديه خارج عن إمكانيه هذه الدراسه، ونطاقها، لذلك نكتفي بهذه الإلماعه العابره.

ولنعدّ إلى تبين الأسباب الظاهريه والباطنيه لزواجها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

العلل الظاهريه والحقيقيه وراء زواج خديجه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

إنّ الإنسان المادّي المذني ينظر إلى كلّ ما يحيط به من خلال المنظار المادّي، ويفسّره تفسيراً مادياً قد يتصوّر (وبالأحرى يظن) أنّ «خديجه» كانت امرأه تاجرته تهتمّها تجارتها، وتنميّه ثروتها، ولأنّها كانت بحاجه ماسّه إلى رجل أمين قبل أي شيء، لذلك وجدت ضالّتها في محمّد الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم فتزوّجت منه، بعد أن عرضت نفسها عليه ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم هو الآخر حيث إنّه كان يعلم بغناها وثروتها، قبل بهذا العرض رغم ما كان بينه وبينها من فارق كبير في السن.

ولكنّ التاريخ يثبت أنّ ثمة أسباباً وعللاً معنويّه لا مادّيه هي التي دفعت بخديجه للزواج بأمين قريش وفتاها الصادق الطاهر.

وإليك في ما يأتي شواهدنا على هذا الأمر:

١. عندما سألت «خديجه» ميسره عمّا رآه في رحلته من فتى قريش «محمّد» فخبّرها ميسره بما شاهد ورأى من «محمّد» في تلك السفره، وبما سمعه من راهب الشام حوله أحسّت «خديجه» في نفسها بشوق عظيم ورغبه شديد نحوّه كانت نابعه من إعجابها بمعنويّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وكريم خصاله، وعظيم أخلاقه، فقالت من دون إرادتها: «حسبك يا ميسره؛ لقد زدتنى شوقاً إلى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، إذ هبّ فأنت حرّ

لوجه الله، وزوجتك وأولادك، ولك عندى مائتا درهم وراحتان» وخلعت عليه خلعه سنه (١).

ثم إنَّها ذكرت ما سمعته من «ميسره» لورقه بن نوفل وكان من حكماء العرب: فقال ورقه: «لئن كان هذا حقاً يا خديجه، إنَّ محمداً لنبى هذه الأمه». (٢)

٢. مرَّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم يوماً بمنزل «خديجه بنت خويلد، وهى جالسه فى ملاء من نسائها وجواريهها وخدمها، وكان عندها حبرٌ من أحبار اليهود، فلما مرَّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم نظر إليه ذلك الحبر وقال: يا خديجه اعلمى أنه قد مرَّ الآن ببابك شاب حدث السن، فأمرى من يأتى بهذا، فأرسلت إليه جاريه من جواريهها، وقالت: يا سيدى مولاتى تطلبك، فأقبل ودخل منزل «خديجه»،... فقال له الحبر: إكشِفْ لى عن بطنك، فكشف له، فلما رآه قال: هذا والله خاتم النبوه، فقالت له خديجه: لو رآك عمه وأنت تفتشه لحلت عليك منه نازله البلاء، وإنَّ أعمامه ليحذرون عليه من أحبار اليهود.

فقال الحبر: ومن يقدر على «محمداً» هذا بسوء، هذا وحق الكليم رسول الملك العظيم فى آخر الزمان، فطوبى لمن يكون له بعلاً، وتكون له زوجه وأهلاً فقد حازت شرف الدنيا والآخرة.

فتعجبت «خديجه»، وانصرف «محمداً» وقد اشتغل قلب خديجه بنت خويلد بحبه... فقالت: أيها الحبر بم عرفت محمداً أنه نبى؟

قال: وجدت صفاته فى التوراه أنه المبعوث آخر الزمان، يموت أبوه وأمه، ويكفله جدّه وعمه، وسوف يتزوج بامرأه من قريش سيده قومها وأميره عشيرتها، وأشار بيده إلى خديجه... فلما سمعت «خديجه» ما نطق به الحبر تعلق قلبها بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم، وكنمت أمرها، فلما خرج من عندها قال: إجتهدى أن لا يفوتك

ص: ٣٠٥

١- . بحار الأنوار: ١٦/٥٢.

٢- . السيره النبويه لابن هشام الحميرى: ١/١٢٣.

«محمّد» فهو الشرف في الدنيا والآخرة. (١)

٣. كان لخديجه عم يقال له: ورقه، وكان قد قرأ الكتب كلّها (وكان من كُهان قريش وقد قرأ صحف «شيث» عليه السلام وصحف «إبراهيم» عليه السلام وقرأ التوراه والإنجيل وزبور «داود» عليه السلام) وكان عالماً حبراً، وكان يعرف صفات النبيّ الخارج في آخر الزمان، وكان عند ورقه أنّه يتزوَّج بامرأه سيده من قريش، تسود قومها، وتنفق عليه مالها، وتمكّنه من نفسها، وتساعد على كلّ الأمور، فعلم ورقه أنّه ليس بمكّه أكثر مالاً من خديجه، فرجا ورقه أن تكون ابنه أخيه خديجه، وكان يقول لها: «يا خديجه سوف تتصلين برجل يكون أشرف أهل الأرض والسماء». (٢)

هذه قضايا ذكرها بعض المؤرّخين، وهي منقولة ومثبتة في طائفة كبيره من الكتب التاريخيه، وهي بمجموعها تدلّ على العلل الحقيقيه والباطنيه لرغبه خديجه في الزواج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّ هذه الرغبه كانت ناشئه من إعجاب «خديجه» بأخلاق فتى قريش الأمين، ونبله، وطهارته، وعظيم سجاياه وخصاله وحبها لهذه الأمور، وليس هناك أى أثر في علل هذا الزواج لأمانه «محمّد» وكونه أصلح من غيره لهذا السبب للقيام بتجاره «خديجه».

كيف تمّت خطبه خديجه؟

من المسلّم به أنّ اقتراح الزواج جاء من جانب «خديجه» نفسها أولاً حتّى أنّ ابن هشام (٣) نقل في سيرته: أنّ «خديجه» لما أخبرها ميسره بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت له: «يا ابن عمّ إنّي قد رغبتُ فيك لقرابتك، وسيطتك» (٤)

ص: ٣٠٦

١- بحار الأنوار: ١٦/٢٠-٢١، نقلاً عن كتاب الأنوار لأبي الحسن البكرى.

٢- بحار الأنوار: ١٦/٢١.

٣- السيره النبويه: ١/١٢٢.

٤- يسط في حسبه سطره: حلّ وسطه أى أكرمه. وأصل الكلمه الواو وهو بابها، والهاء فيها عوض

فى قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك» ثم اقترحت عليه أن تتزوج به.

ويعتقد أكثر المؤرخين أن «نفيسه بنت علي» بلغت رساله «خديجه» إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على النحو التالي:

قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا محمد ما يمنعك أن تتزوج... فإن كفيت ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاه ألا تجيب؟»

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فمن هي؟

فقالت: خديجه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وكيف لي بذلك؟ فقالت: عليّ، فذهبت إلى خديجه فأخبرتها، فأرسلت خديجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بوكيلها «عمرو بن أسد»^(١) لتحديد ساعه من أجل مراسم الخطبه فى محضر من الأقارب.^(٢)

فشاور النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعمامه وفى مقدمتهم «أبوطالب»، ثم عقدوا مجلساً فخماً حضره كبار وجوه قريش، ورؤساؤها فخطب «أبوطالب»، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه وصف ابن أخيه محمداً بقوله:

«ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لا يوزن برجل من قريش إلّا رجح، ولا يقاس بأحد منهم إلّا عظم عنه، وإن كان فى المال قل فإنّ المال

ص: ٣٠٧

١- . المعروف أنّ والد خديجه توفى فى حرب الفجار ولهذا قام بالإيجاب من قبلها عمها عمرو بن أسد، ولهذا لا يصح ما ذكره بعض المؤرخين من أنّ خويلد (والد خديجه) امتنع من تزويجها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى بدايه الأمر، ثم رضى بذلك نزولاً عند رغبه خديجه.

٢- . لاحظ: تاريخ الخميس: ١/٢٦٤.

رزق حائل، وظلّ زائل، وَلَهْ فِي خَدِيجِهِ رَغْبَةٌ وَلِهَا فِيهِ رَغْبَةٌ، وَالصَّدَاقُ مَا سَأَلْتُمْ عَاجِلَهُ وَآجِلَهُ مِنْ مَالِي...» (١).

وحيث إنّ «أباطالب» تعرّض في خطبته لذكر قريش، وبنى هاشم وفضيلتهم، ومنزلتهم بين العرب، لذلك تكلم «ورقه بن نوفل بن أسد» الذي كان من أقارب خديجه (٢) وقال في خطبه له: «لا تنكّر العشيره فضلكم، ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبتنا في الإتصال بحبلكم وشرفكم» (٣).

ثم أجرى عقد النكاح ومهرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أربعمائه دينار وقيل أصدقها عشرين بكرة (٤).

عمر خديجه عند زواجها بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

المعروف المشهور أنّ خديجه عليها السلام تزوّجت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي في سنّ الأربعين وأنها وُلدت قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً.

وذكر البعض أقلّ من ذلك أيضاً.

وقيل: إنّها تزوّجت قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم برجلين أولهما «عتيق بن عائذ» ثم من بعده أبوها له التميمي وقد توفي كلاهما بعيد زواجه بخديجه.

وقد شكك بعض العلماء في قضيه زواجها قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برجلين بل

ص: ٣٠٨

١- . بحار الأنوار: ١٦/١٦-١٧.

٢- . المعروف أنّ ورقه كان عمّاً لخديجه ولكن هذا موضع نقاش لأنّ «خديجه بنت خويلد بن أسد» وورقه بن نوفل بن أسد فيكونان أولاد عمومه، أي أنّه ابن عم خديجه وهي بنت عمّه. ولذلك جاء في بعض المصادر وصفه بـ «ابن عمّها» (تاريخ الخميس: ١/٢٨٢) وراجع قبله السيره النبويه لابن هشام: ١/١٥٦.

٣- . بحار الأنوار: ١٦/١٦؛ السيره الحلبيه: ١/٢٢٧؛ تاريخ الخميس: ١/٢٦٤.

٤- . السيره الحلبيه: ١/٢٢٦.

قطع بعضهم بأنّ خديجه لم تتزوج غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد ذكر أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (المتوفى ٣٥٢ هـ) في الاستغاثه حيث يقول: إنّ الإجماع من الخاص والعام من أهل الآثار ونقله الأخبار على أنّه لم يبق من أشرف قريش من ساداتهم وذوى النجده منهم إلّا من خطب خديجه ورام تزويجها فامتنعت على جميعهم من ذلك فلمّا تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غضب عليها نساء قريش وهجرنها وقلن لها خطبك أشرف قريش وأمرأؤهم فلم تتزوجى أحداً منهم وتزوجت محمداً يتيماً أبى طالب فقيراً لا مال له، فكيف يجوز فى نظر أهل الفهم أن تكون خديجه يتزوجها أعرابى من تميم وتمتنع من سادات قريش وأشرفها على ما وصفناه، ألا يعلم ذو التمييز والنظر أنّه من أبين المحال وأفضع المقال، ولما وجب هذا عند ذوى التحصيل ثبت أنّ خديجه لم تتزوج غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم....(١)

وقال ابن شهر آشوب: وروى أحمد البلاذرى، وأبو القاسم الكوفى فى كتابيهما، والمرضى فى الشافى، وأبو جعفر فى التلخيص أنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم تزوج بها وكانت عذراء. يؤكد ذلك ما ذكر فى كتابى الأنوار والبدع: أنّ رقيه وزينب كانتا ابنتى هاله أخت خديجه.(٢)

وقال الإصبهاني فى دلائل النبوه: كانت خديجه امرأه باكرأ.(٣)

كما استدلل المشككون على ذلك باختلاف الروايات وتناقضها حول زواج

ص: ٣٠٩

١- . الاستغاثه: ١/٧٠.

٢- . مناقب ابن شهر آشوب: ١٣٨/١، المكتبة الحيدريه، النجف - ١٣٧٦ هـ؛ بحار الأنوار: ١٩١/٢٢.

٣- . دلائل النبوه: ١٧٨، ط. دار طيبه، الرياض.

خديجه قبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. (١)

وقد روى أنه كانت لخديجه أخت اسمها هاله تزوّجها رجل مخزومي، فولدت له بنتاً اسمها هاله، ثم خلف عليها - هاله الأولى - رجل تميمي يقال له: أبو هند فأولدها ولداً اسمه هند، وكان لهذا التميمي امرأه أخرى قد ولدت له زينب ورقيه فماتت ومات التميمي، فلحق ولده هند بقومه وبقيت هاله أخت خديجه والطفلتان اللتان من التميمي وزوجته الأخرى، وضمتهم خديجه إليها، وبعد أن تزوّجت بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ماتت هاله، فبقيت الطفلتان في حجر خديجه والرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان العرب يزعمون أنّ الربيبه بنت، ولأجل ذلك نسبتا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. (٢)

ونكتفي بهذا المقدار خوف الإطالة. والله العالم.

ص: ٣١٠

١- . مثل اختلافهم في اسم أبي هاله، هل هو التّياش بن زراره أو عكسه، أو هند، أو مالك؟ وهل هو صحابي أو لا؟ وهل تزوجته قبل عتيق، أو تزوّجت عتيق قبله؟ لاحظ: الصحيح من سيره النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: ٢/٢٠٨. ولاحظ أيضاً الإصابه: ٣/٦١١؛ وأسد الغابه: ٥/١٢ و ١٣ و ٧١.

٢- . وللمزيد من التفاصيل راجع الاستغاثه: ١/٦٨-٧٠؛ الصحيح من سيره النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم للسيد جعفر مرتضى العاملی: ٢/٢٠٧-٢١٩.

تُعتبر فترة الشباب من أهم وأخطر الفترات في حياة الإنسان، ففي هذه الفترة تبلغ الغريزه الجنسيه نضجها وكمالها، وتصبح النفس البشريه لعبه في أيدي الأهواء ويغلب طوفان الشهوه على فضاء العقل، ويغطي الظلام سماء التفكير، وتشتد حاكميه الغرائز الماديه، وتتضاءل شعله العقل، وتترأى أمام عيون الشباب بين الحين والآخر، وصباح مساء صروح عظيمه من الآمال الخياليه.

ولو ملك الإنسان - في مثل هذه الفترة - شيئاً من الثروه، لتحوّلت حياته إلى مسأله في غايه الخطوره فالغرائز الحيوانيه، وصحّه المزاج من جهه والإمكانات الماديه والماليه من جهه أخرى تتعاضدان وتغرقان المرء في بحر من الشهوات، والنزوات، وتهيئان له عالماً بعيداً عن التفكير في المستقبل.

ومن هنا يصف علماء التربيه تلك الفترة الحساسه بأنها الحدّ الفاصل بين الشقاء والسعاده، والفترة التي قلما يستطيع شاب أن يرسم لنفسه فيها مساراً معقولاً، ويختار لنفسه طريقاً واضحاً على أمل الحصول على الملكات الفاضله، والنفسيه الرفيعه الطاهره التي تحفظه عن أي خطر متوقع (١). حقاً إنّ كبح جماح النفس،

ص: ٣١١

١- . وإلى هذه الحقيقه أشار الشاعر أبو العتاهيه بقوله: إنّ الفراغ والشباب والجده مفسده للمرء أي مفسده أعيان الشيعة: ٣/٣٩٨.

وزمَّها وحفظها مِنَ الانزلاقِ في مهاوى الشهوات، والنزوات في مثل هذه الفترة لهو أمر عسير جداً، ولو أنَّ الإنسانَ حُرِّمَ من تربيته عائلته صحيحه مستقيمه كان عليه أن ينتظر مصيراً سيئاً، ومستقبلاً في غايه البؤس والشقاء.

فِترَةُ الشَّبَابِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

ليس من شكِّ في أنَّ فتى قريش «محمَّد» صلى الله عليه وآله وسلم كان يتمتع في أيام شبابه بصحَّة جيِّده، وقوَّه بدنيه عاليه، وكان شجاعاً قوياً، لأنَّه صلى الله عليه وآله وسلم قد تربَّى في بيئته حرَّة بعيدة عن ضوضاء الحياه، وفتح عينيه في عائلته أنصف جميع أفرادها وأعضائها بالشجاعه والفروسيه، هذا من جانب، ومن جانب آخر كان يمتلك ثروه «خديجه» الطائله فكانت ظروفُ الترف، والعيش الشهواني متوفِّره له بشكل كامل، ولكن كيف ترى استفاد من هذه الإمكانيات المادِّيّه؟ هل مدَّ موائد العيش واللذّه وشارك في مجالس السهر والسمر واللهو واللعب، وأطلق العنان لشهوته، وفكَّر في إشباع غرائزه الجنسيه كغيره من شباب ذلك العصر، وتلك البيئه الفاسده؟

أم أنَّه اختار لنفسه منهجاً آخر في حياته، واستفاد من كلِّ تلك الإمكانيات في سبيل تحقيق حياه زاخره بالمعنويه، الأمر اللذي تبدو ملامحه بجلاء لمن تتبع تلك الفترة الحساسه من تاريخه؟ إنَّ التاريخ ليشهد بأنَّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعيش كما يعيش أي رجل، رجلٍ عاقلٍ لبيبٍ وفاضلٍ رشيدٍ، وأنَّه طوى تلك السنوات الحساسه من حياته كأحسن ما يكون، بعيداً عن العبث والترف والضياع والانزلاق إلى الشهوات والانسياق وراء التوافه.

بل إنَّ التاريخ ليشهد بأنَّه كان أشدَّ ما يكون نفوراً من اللهو، والعبث، والترف والمجون فقد كانت تلوح على محيَّاه دائماً آثار التفكُّر والتأمُّل، وكثيراً ما كان يلجأ إلى سفوح الجبال أو الكهوف والمغارات للابتعاد عن الجوّ الإجتماعي الموبوء في

مكّه، يلبث هناك أياماً يتأمل فيها في آثار القدره الإلهيه، وفي عظمه الصنع الإلهي، الرائع البديع.

مشاعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإنسانية في فتره الشباب

ولقد وقعت في إحدى أسواق مكّه ذات يوم حادثه هيجت مشاعره الإنسانية وحرّكت عواطفه وأحاسيسه، فقد رأى مقامراً قد خسر بغيره وبيته، بل بلغ الأمر به أن استرقّه منافسه عشره أعوام.

وقد آلمت هذه القصة المأساويه فتى قريش «محمّد» بشده، إلى درجه أنه لم يعد يحتمل البقاء في «مكّه» ذلك اليوم فغادرها من فورهِ وذهب إلى الجبال المحيطه بمكّه ثم عاد بعد هزيع من الليل.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينزعج بشده لهذه المشاهد المحزنه والأوضاع المأساويه، وكان يتعجب من ضعف عقول قومهِ، وانحطاط مداركهم.

ولقد كان بيت «خديجه» قبل زواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها ملاذاً للفقراء وكعبه لآمال المساكين والمحرومين، وبعد أن تزوّج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها لم يطرأ على وضع ذلك البيت أيّ تغيير من جهه الإنفاق والبدل.

ففي سنين الجذب والقحط التي كانت تضرب مكّه وضواحيها بين الحين والآخر ربّما قدمت «حليمه السعديه» مكّه لتزور ولدها الرضاعي «محمّد» فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يكرمها ويحترمها، ويفرش رداءه تحت أقدامها، ويصغى لكلامها بعنايه ولطف، وفاءً لجميلها، وعرفاناً لعواطفها وأمومتها.

فقد روى أنّ «حليمه» قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد تزوّجه خديجه، فشكّت إليه جذب البلاد وهلاك المواشى فكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «خديجه» فأعطتها بغيراً وأربعين شاه، وانصرفت إلى أهلها موفوره، مسروره.

وروى أيضاً أنه استأذنت «حليمه» عليه ذات مره فلما دخلت عليه قال: «أُمِّي أُمِّي» وعمد إلى رداءه فبسطه لها فقعدت عليه. (١)

أولاد خديجه

لا- ريب في أنّ وجودَ الأولاد في الحياه العائليه ممّا يقوّى أواصر الوشيجه الزوجيه، ويعمّق جُذورها، ويمنح الجوّ العائليّ بهاء، ورؤنقاً، وجمالاً خاصّاً.

ولقد أنجبت «خديجه» لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سته من الأولاد اثنين من الذكور، أكبرهما «القاسم» ثم «عبدالله» اللذان كانا يُدعيان ب: «الطاهر» و «الطيب» وأربعاً من الإناث.

كتب ابن هشام يقول في هذا الصدد: أكبر بناته رُفَيّه ثم زَيْنَب ثم أمّ كلثوم، ثم فاطمه.

فأمّا الذكور من أولاده صلى الله عليه وآله وسلم فهلكوا في الجاهليه، وأمّا بناته فكلهن أدركن الإسلام. (٢)

ورغم أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد عُرفَ بصبره وجلده في الحوادث والنوائب فربّما انعكست أحزانه القليله في قطرات دموعه الساخنه المنحدره على خَدَيْهِ الشريفين في موت أولاده.

ولقد بلغ به الحزنُ والغمُّ لموت ولده «إبراهيم» من زوجته ماريّه القبطيه حدّاً لم يحدث لغيره من أولاده، إلّا أنّه رغم ذلك الحزن الآخذ من قلبه مأخذاً لم يفتر

ص: ٣١٤

١- . لاحظ: السيره الحلبيه: ١/١٦٨-١٦٩.

٢- . مناقب ابن شهر آشوب: ١/١٤٠، قرب الأسناد: ٩ برقم ٢٩؛ الخصال: ٤٠٤ برقم ١١٥؛ بحار الأنوار: ٢٢/١٥١-١٥٢. وقد ذكر البعض للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من ولدين، راجع: السيره النبويه: ١/١٢٢-١٢٣؛ تاريخ الطبرى: ٢/٣٥؛ بحار الأنوار: ٢٢/١٦٦.

لسانه عن حمد الله وشكره حتى أن أعرابياً اعترض عليه صلى الله عليه وآله وسلم لما وجدته يبكي على ولده قائلاً: يا رسول الله تنهى عن البكاء وأنت تبكي؟ أجابه بقوله:

«إنما هذا رحمه، ومن لا يرحم لا يرحم» (١).

حَدْسٌ لَا أُسَاسَ لَهُ مِنَ الْوَاقِعِ!!

لقد كتب الدكتور هيكل في كتابه: «حياه محمّد» يقول: «لا ريب أن خديجه عند موت كل واحد منهما (أى ولدى النبى: القاسم وعبدالله) فى الجاهليه توجّهت إلى آلهتها الأصنام تسألها ما بالها لم تشملها برحمتها وبرها» (٢).

إنّ هذا الكلام لا يستند إلى أى دليل تاريخى، وليس هو بالتالى إلّا حَدْسٌ باطل، وادّعاء فارغ ليس له من منشأ إلّا أنّ أغلبه أهل ذلك العصر كانوا عبده أوّثان، فلا بُدّ أنّ خديجه كانت على منوالهم!!

فى حين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يبغض الأصنام والأوثان من بدايه شبابه، وقد اتّضح موقفه منها أكثر فى سفرته إلى الشام فى أموال خديجه يوم قال لمن استحلّفه باللّات والعزى: «إليك عنى، ثكلتك أمك فما تكلمت العرب بكلمه أثقل على من هذه الكلمه» (٣).

مع ذلك كيف يمكن القول بأنّ امراه لبيبه عاقله لم يكن شدّه حبّها وشغفها بزوجها موضع شكّ، أن تتوجّه عند موت ولديها إلى الأصنام التى كانت أبغض الأشياء عند زوجها، وخاصّه أنّ حبّها لزوجها «محمّد»، بل إقدامها على الزواج منه إنّما كان بسبب ما كان يتحلّى به من إيمان ومعنويه، وصفات فاضله، وملكات

ص: ٣١٥

١- . بحار الأنوار: ٢٢/١٥١.

٢- . حياه محمّد: ١٢٨.

٣- . بحار الأنوار: ١٦/١٧.

أخلاقه عالية، فهي قد سمعت عنه بأنه آخر نبي، وأنه خاتم المرسلين، فكيف والحال هذه يمكن أن يحتمل أحد أنها - مع هذا الاعتقاد - بثت شكواها وحرزها إلى الأوثان والأصنام؟؟!

دَعَى رسول الله: زيد بن حارثه

عند الحجر الاسود أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تبنيه له... ذلك هو زيد بن حارثه.

وكان «زيد» ممن سبأ العرب من حدود الشام، وباعوه في أسواق مكة رقيقاً لأحد أقرباء «خديجه» يُدعى «حكيم بن حزام»، ولكن لا يُعرف كيف انتقل إلى «خديجه» في ما بعد؟

يقول هيكل في كتابه «حياه محمّد» في هذا الصدد «لقد ترك موتٌ ولدَى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نفس النبي أثراً عميقاً حتّى إذا جرى زيد بن حارثه يُباع طلب إلى «خديجه» أن تتبناه ففعلت ثم أعتقه وتبّاه».(1)

ولكن أكثر المؤرخين يقولون: إنّ «حكيم بن حزام» قد اشتراه لعمته «خديجه بنت خويلد»، وقد أحبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و سلم لذكائه وطهره، فوهبته «خديجه» له عند زواجه صلى الله عليه وآله وسلم منها. ففتش عنه والدّه «حارثه» حتّى عرف بمكانه في مكة، فقدمها، ودخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فطلب منه أن يأذن لزيد ليرحل معه إلى موطنه، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخيره بين المقام معه صلى الله عليه وآله وسلم والرحيل إلى موطنه مع أبيه، فاختار المقام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما وجد من خلقه، وحنانه، ولطفه العظيم، فلمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك أخرجته إلى الحجر وأعتقه ثم تبّاه على مرأى من الناس ومسمع قائلًا: «يا من

ص: ٣١٦

حضر اشهدوا أنّ زيداً ابني» (١).

بداية الخلاف بين الوثنيين

لقد أوجدت البعثة النبوية خلافاً واختلافاً كبيراً في أوساط قريش وفُرقت صفوفهم، غير أنّ هذا الاختلاف قد وُجدت أسبابه وعوامله، وظهرت بوادره وعلائمه قبل البعثة المباركة.

فقد أبدى جماعة من الناس في الجزيرة العربية استياءهم من دين العرب وأنكروا عقائدهم الباطلة، وطالما كانوا يتحدثون عن قرب ظهور النبي العربي الذي يتم على يديه إحياء التوحيد.

وكان اليهود يتوعدون أهل الأصنام بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون:

ليخرجنّ نبيّ فليكسرن أصنامكم. (٢)

وكتب ابن هشام يقول: كان اليهود يقولون للعرب: إنه قد تقارب زمان نبيّ يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم. (٣)

وكتب يقول أيضاً: وكانت الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، والكهّان من العرب قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل مبعثه. (٤)

هذه الكلمات تُصوّر انقضاء عهد الوثنية في نظرهم إلى درجة أنّ بعض القبائل أجابت النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما بُعث، ودعاهم إلى الله، بينما أحجمت اليهود عن الإيمان به وبرسالته وبقيت على كفرها وجحودها لنبوته التي طالما بشرت بها.

ص: ٣١٧

١- . أسد الغابه: ٢/٢٢٥ و ٢٢٦.

٢- . بحار الأنوار: ١٥/٢٣١.

٣- . السيره النبويه لابن هشام: ١/١٣٧؛ مكتبه محمد علي صبيح، مصر.

٤- . السيره النبويه لابن هشام: ١/١٣٢.

وقد نزل فيهم قوله تعالى:

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (١). (٢)

أعمده الوثنيه تهتز

ولقد شهد أحد أعياد قريش حادثاً غريباً كان في نظر العقلاء وأصحاب الفكر الثاقب منهم بمثابة جرس إنذار إذن باقتراب سقوط دوله الوثنيين، وإنهيار صروح الوثنيه وعباده الأصنام، وانقراضها.

فقد اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، فتنحى أربعة ممن عرفوا بالعلم ناحيه، وأخذوا يتحدّثون سرّاً، وأخذوا ينتقدون عباده الأوثان والأصنام، وما عليه قومهم من فساد العقيدة.

فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم!! ما حجرٌ نطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضُرُّ ولا ينفع! يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً...

وكان هؤلاء الأربعة هم:

١. «ورقه بن نوفل» الذي اختار النصرانيه واستحکم فيها، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب.

٢. «عبيدالله بن جحش» الذي أسلم عند ظهور الإسلام، ثم هاجر مع

ص: ٣١٨

١- . البقره: ٨٩.

٢- . السيره النبويه: ١/١٣٧.

المسلمين إلى الحبشه. ومعه امرأته حبيبه بنت أبي سفيان مسلمه، فلما قدمها تنصّر وفارق الإسلام، حتّى هلك هناك نصرانياً.

٣. «عثمان بن الحويرث» الذى قدم على قيصر ملك الروم، فتنصّر.

٤. «زيد بن عمرو بن نفيل» الذى اعتزل الأوثان، وقال: اعبُد رب إبراهيم. (١)

إنّ ظهور مثل هذا الاستنكار والجحد للأوثان والوثنيه لا يعنى أبداً أنّ دعوه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت تعقياً لدعوه هذه الجماعه، واستمراراً لها!!

كيف يمكن أنّ نعتبر دعوه رسول الله العالميه مع ما انطوت عليه من أهداف كبرى، واستندت إليه من معارف وأحكام لا تُحصى، ردّه فعل لمثل هذا الحادث الصغير وتعبيراً عن مثل هذا الاستنكار المحدود؟!!

إنّ الحنيفيه وهى سُنّه إبراهيم ودينه لم تكن قد مُجّيت كلياً فى الحجاز بعد أيام بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل كان هناك لا يزال بعض الأحناف (وهم الذين كانوا على دين إبراهيم عليه السلام) منتشرين فى أنحاء الجزيره العربيه، إلّا أنّ ذلك لا يعنى أنّهم كانوا قادرين على التظاهر بعقيدتهم بين الناس، أو قياده حركه، أو تريبه أفراد على نهجهم، أو أنّ توجّهاتهم التوحيديه كانت من القوّه بحيث تستطيع أن تكون مصدر إلهام لقيم ومعارف وتعاليم وأحكام لشخصيه مثل رسول الإسلام «محمّد» صلى الله عليه وآله وسلم.

فلم يُنقل عن هؤلاء سوى بعض الإعتقادات المعدوده المحدوده مثل الاعتقاد بالمعاد واليوم الآخر، وشىء بسيط من البرامج الأخلاقيه، وحتّى ما نقل عنهم من إبيات توحيديه لا يمكن تأكيد انتسابها إليهم، وإنّ لم يمكن نفى ذلك أيضاً. (٢)

ص: ٣١٩

١- . لاحظ: السيره النبويه: ١/١٤٧.

٢- . ولقد نقل ابن هشام فى كتابه: السيره النبويه: ١/١٤٨-١٥٢ طائفه من الأبيات والقصائد

فهل يمكن والحال هذه أن نعتبر الثقافه الإسلاميه العظيمة، والمعارف العقلية العاليه، والقوانين والتشريعات المفصّله، والأنظمه الأخلاقية والسياسيه والاقتصاديّه الإسلاميه، الشامله الكامله، كنتيجه لمتابعه أولئك النفر المعدود من «الأحناف» الموحّدين المنتشرين في أنحاء مختلفه من بلاد الحجاز الذين كانت جلّ عقائدهم تتألف من مجرد الاعتقاد بوجود الله، واليوم الآخر وقضيه أو قضيتين من قضايا الأخلاق!؟

نموذج آخر عن ضعف قريش

لم يكن يمض على عُمر فتى قريش أكثر من خمس وثلاثين عاماً يومَ واجه اختلافاً كبيراً بين قريش، فأزال بحكمته ذلك التخاصم، ولقد كشفت هذه الحادثه عن مدى الإحترام الذي كان فتى قريش «محمّد» يحظى به لدى قريش، كما وتكشف عن قوه اعتقادهم بصدقه وأمانته.

واليك تفصيل هذه الحادثه:

انحدر سيلٌ رهيب من جبال مكّه المرتفعه نحو بيت الله المعظم «الكعبه المقدسه» فلم يسلم من هذا السيل بيت في مكّه حتّى الكعبه المعظمه، التي تصدّعتُ جدرانها تصدعاً كبيراً بفعل ذلك السيل.

فغزمت قريشٌ على تجديد تلك البنيه المعظمه، ولكنها تهيبت ذلك، وتردّدت في هدم الكعبه، فأقدم «الوليد بن المغيره» وهدم ركنين منها على شيء

من الخوف، فانتظر أهل مكة أن يحل به أمرٌ، ولكنهم لمّا رأوا «الوليد» لم يصبه غضب من الآلهة، اطمأنوا إلى أنه لم يرتكب قبيحاً، وأنه عمل ما فيه رضى آلهتهم، فأقدموا جميعاً على هدم ما تبقى من الكعبة، واتفق أن تحطمت سفينه قادمه من «مصر» فى تجاره لرومى عند ميناء «جده» بفعل الرياح والعواصف، فعلمت بذلك قريش، وأرسلت رجالاً يبتاعون أخشابها ليستخدموها فى بناء الكعبة المعظمه، وأوكلوا أمر نجارتها إلى نجار قبطى محترف كان يقطن «مكة».

ولمّا ارتفعت جدران الكعبة إلى قامه الرجل، وآن الأوان لوضع الحجر الأسود فى محله من الركن وقع الاختلاف بين زعماء قريش، وتنازعوا فى من يتولى وضع الحجر الأسود فى مكانه.

وتحالفت قبيله «بنى عبدالدار» مع «بنى عدي» على أن يمنعوا من أن ينال هذا الفخار غيرهم، وعمدوا إلى إناء مملوء بالدم فوضعوا أيديهم فيه تأكيداً لذلك الميثاق.

من هنا تأخرت عمليه البناء وتوقفت خمسه أيام بلياليها، وكاد أن تنشب بينهم حربٌ داميه، وربّما طويله، فقد اجتمعت طوائف مختلفه من قريش فى المسجد الحرام وهى تنتظر حادثه خطيره، فعمد - فى الأخير - شيخ من شيوخ قريش يدعى «أبو أميه بن مغيره المخزومى» من زعماء قريش وقال: يا معشر قريش، إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول مَن يدخل من باب هذا المسجد (1) يقضى بينكم فيه، فقبلوا برأيه أجمع، فكان أول داخل عليه فتى قريش «محمد» صلى الله عليه وآله وسلم فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: هلم إلى ثوباً، فأخذ الحجر ووضع فيه ثم قال:

ص: ٣٢١

١- وفى روايه: أول مَن يدخل باب الصفا.

«لَتَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيهِ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ أَرْفَعُوهُ جَمِيعًا»

فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ مِنَ الرُّكْنِ وَضَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هُوَ بِيَدِهِ مَكَانَهُ، وَبِهَذَا حَالٌ دُونَ وَقُوعِ حَوَادِثِ دَامِيهِ كَادَتْ أَنْ تَقَعَّ بِسَبَبِ تَنَازُعِ قَرِيْشٍ، وَاخْتِلَافِهَا، وَحَلِّ الْوِفَاقِ مَحَلِّ الشَّقَاقِ بَعْدَ أَنْ رَضِيَ الْكُلُّ بِحُكْمِهِ (١) وَإِلَى قَضِيَةِ التَّحْكِيمِ هَذِهِ يَشِيرُ «هَبِيرَةُ بْنُ أَبِي وَهَبٍ» فِي أَبِيَاتٍ صَوَّرَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةَ التَّارِيخِيَةَ الْكَبْرَى، إِذْ قَالَ:

تَشَاجَرَتِ الْأَحْيَاءُ فِي فَضْلِ خَطِّهِ جَرَتْ طَيْرُهُمْ بِالنَّحْسِ مِنْ بَعْدِ أَسْعَدِ

فَلَاقُوا لَهَا بِالْبُغْضِ بَعْدَ مَوَدَّةٍ وَأَوْقَدُوا نَارًا بَيْنَهُمْ شَرَّ مَوْقِدِ

فَلَمَّا رَأَيْنَا الْأَمْرَ قَدْ جَدَّ جُدُّهُ وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ غَيْرُ سَلِّ الْمَهْنَدِ

رَضِينَا وَقَلْنَا الْعَدْلَ أَوَّلُ طَالِعٍ يَجِيءُ مِنَ الْبَطْحَاءِ عَلَى غَيْرِ مَوْعِدِ

فَلَمْ يَفْجَأْنَا إِلَّا الْأَمِينُ مُحَمَّدٌ فَقَلْنَا رَضِينَا بِالْأَمِينِ مُحَمَّدٍ

بِخَيْرِ قَرِيْشٍ كُلِّهَا أَمْسَى شِيمُهُ وَفِي الْيَوْمِ مَعَ مَا يُحَدِّثُ اللَّهُ فِي غَدِ

فِجَاءٍ بِأَمْرِ لَمْ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُ أَعَمَّ وَأَرْضِي فِي الْعَوَاقِبِ وَالْبَدِ

فَتَلَكُ يَدٌ مِنْهُ عَلَيْنَا عَظِيمُهُ يَرُوحُ بِهَا رُكْبَ الْعِرَاقِ وَيَغْتَدُ (٢)

ص: ٣٢٢

١- . لاحظ: السير النبوي لابن هشام: ١٢٤/١-١٢٧.

٢- . إمتاع الأسماع: ٤/١٠٨. والجدير بالذكر أنهم قالوا عند تجديد بناء الكعبة: «يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس» (البداية والنهاية: ٢/٣٦٨) ولا شك أن هذه من بقايا تعاليم الأنبياء التي بقيت بينهم ولم تمح بالمره.

أجذبت مكه وضواحيها سنه من السنين، وقلّ فيها الماء، وأصابت الناس أزمه شديده، وكان أبوطالب عليه السلام كثير العيال، فعزم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن يساعد عمه أباطالب، ويخفف عنه عبء العيال، فانطلق إلى عمه العباس وقال له: «إن أخاك أباطالب كثير العيال وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمه، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً».

فكفل العباسُ جعفرًا، وكفل رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم عليًّا عليه السلام.

يقول أبوالفرج الاصفهاني المؤرّخ المعروف في هذا الصدد:

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آخذ «عليًّا» من أبيه وهو صغير في سنه أصابت قريشاً وقحط نالهم، وأخذ حمزه جعفرًا، وأخذ العباس طالباً ليكفوا أباهم مؤوتنهم ويخففوا عنهم ثقلهم، وأخذ هو (أى أبوطالب) عقيلًا لميله كان إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اخترت من اختار الله لي عليكم: عليًّا» (١).

إن هذه الحادثة وإن كانت في ظاهرها تعنى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقدم على هذا الأمر ليساعد عمه أباطالب في تلك الأزمه، لكن الهدف الأعلى والأخير كان أمراً آخر وهو أن: يترتب على عليه السلام في حجر النبي، ويغتدى من مكارم أخلاقه ويتبعه في كريم أفعاله.

ولقد أشار الإمام عليّ عليه السلام نفسه إلى هذا الموضوع بقوله:

«وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعْنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ... وَ

لَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمَّهُ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا، وَيَأْمُرُنِي بِالِإِقْتِدَاءِ بِهِ» (١).

إيمان النبي وآبائه وكفلائه قبل الإسلام

تدلُّ الدلائل التاريخية، القويّة، فضلًا عن الأدلّة العقلية والمنطقية على أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لم يعبد غير الله تعالى منذ وُلِدَ، وإلى أن رحل إلى ربّه، بل وكان كفلاؤه مثل عبدالمطلب وأبي طالب مؤمنون موحدون هم أيضًا:

إيمان جدّه عبدالمطلب

وأما عبدالمطلب كفيل النبيّ الأوّل فلا ننسى أنّه عندما قصد «أبرهه» هدم الكعبة في جيش الفيل، نزل في جوف الليل إلى الكعبة وأخذ بحلقه بابها يدعو الله سبحانه ويناجيه:

«اللّهم أنيس المِسْتَوْحِشِينَ، ولا- وحشه معك، فاليئْت بَيْتِكَ، والحرَم حرمك، والدارُ دارُك، ونحنُ جيرانك، أنك تمنع عنه ما تشاء، وربّ الدار أولى بالدار» (٢).

ثم أنشأ يقول:

يا ربّ لا أرجو لهم سواك يا ربّ فامنع منهم حماكا

إن عدوّ البيت من عاداكا إمغهمو أن يُخربوا فناكا (٣)

وهذا يكشف بوضوح عن إيمان عبدالمطلب بالله تعالى، وتوكله عليه سبحانه، وأنّه كان الرجل الموحّد الذي لا يلتجئ في المصائب والمكاره إلى غير

ص: ٣٢٤

١- نهج البلاغه: الخطبه ١٩٢.

٢- بحار الأنوار: ١٥/٦٦.

٣- الكامل في التاريخ: ١/٤٤٤؛ بحار الأنوار: ١٥/٧٠. ولعبدالمطلب مواقف أخرى مشابهه، وعديده، راجع بصدها مفاهيم القرآن: ١٣٦/٥-١٤٠.

كهف الله، ولا يعرف إلاباب الله على عكس ما كانت الوثنيه عليه فإن قومه كانوا يستغيثون بالأصنام المنصوبه حول الكعبه.

ومِمَّا يدلُّ على إيمانه أيضاً توسُّله لكشف غمِّته بالله سبحانه فقد تتابعت على قريش سنون جذب ذهب بالأموال، وأشرفت الأنفس واجتمعت قريش لعبدالمطلب، وعلّوا جبل أبي قبيس ومعهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم محمَّد وهو غلام فتقدّم عبدالمطلب وقال: لا هم (أى اللهم) هؤلاء عبيدك وإماؤك وبنو إمائك، وقد نزل بنا ماترى، وتتابعت علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف والحافر، - أى الإبل والبقر والخيول والبغال والحمير - فأشرفت على الأنفس - أى أشرفت على ذهابها - فأذهب عنا الجذب، وائتنا بالحياء والخصب، فما برحوا حتّى سالت الأوديه، وفى ذلك تقول رقيقه:

بشبيه الحمد أسقى الله بلدتنا وقد عدمنا الحيا واجلوذ المطر

إلى أن تقول:

مبارك الاسم يستسقى الغمام به ما فى الأنام له عدل ولا خطر(١)

وإلى هذه الواقعة يشير أبوطالب فى قصيده أوّلها:

أبونا شفيح الناس حين سقوا به من الغيث رجاس العشير بكور

ونحن - سنين المحل - قام شفيعنا بمكه يدعو والمياه تغور

وقد نقل الشهرستاني هذه الواقعة فى كتابه «الملل والنحل» قال: ومِمَّا يدلُّ

ص: ٣٢٥

على معرفته (أى عبدالمطلب) بحال الرسالة وشرف النبوه أنّ أهل مكّه لمّا أصابهم ذلك الجذب العظيم، وأمسك السحاب عنهم سنتين أمر أباطالب ابنه، أن يُحضر المصطفى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فأحضره أبوطالب، وهو رضيع فى قماط، فوضعه فى يديه واستقبل الكعبه، ورماه إلى السماء، وقال: يا رب بحقّ هذا الغلام، ورماه ثانياً وثالثاً وكان يقول: بحقّ هذا الغلام أسقنا غيثاً مغيثاً دائماً هطلاً، فلم يلبث ساعه أن طبق السحاب وجه السماء وأمطر، حتّى خافوا على المسجد. (١)

وقال أيضاً: وبركه ذلك النور كان عبدالمطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغى، ويحثّهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيات الأمور. (٢)

وبركه ذلك النور كان يقول فى وصاياه: «إنّه لن يخرج من الدنيا ظلم حتّى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبه»، إلى أن هلك رجل ظلم حتف أنفه لم تصبه عقوبه، فقبل لعبدالمطلب فى ذلك، ففكر وقال: والله إنّ وراء هذا داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب فيها المسيء بإساءته. (٣)

إنّ توسّيل عبدالمطلب بالله سبحانه وتولّيه عن الأصنام والأوثان، والتجاءه إلى ربّ الأرباب آيه توحيد الخالص، وإيمانه بالله وعرفانه بالرساله الخاتمه، وقداسه صاحبها، فلو لم يكن له إلّاهذه الوقائع لكفت فى البرهنه على إيمانه بالله، وتوحيد له.

وقد اعترف المؤرّخون لعبدالمطلب بهذا، فقد قال اليعقوبى: «ورفض (عبدالمطلب) عباده الأصنام، ووحد الله عزّوجلّ، ووفى بالندى، وسنّ سنناً نزل القرآن بأكثرها، وجاءت السنّه الشريفه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بها، وهى: الوفاء

ص: ٣٢٤

١- الملل والنحل: ٢/٢٤٠؛ دار المعرفه، بيروت.

٢- الملل والنحل: ٢/٢٣٩.

٣- الملل والنحل: ٢/٢٣٩-٢٤٠.

بالنذور، ومائه من الإبل فى الديه، وأن لا- تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهى عن قتل المؤءوده، والمباهله، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا، والحدّ عليه، والقرعه، وأن لا يطوف أحد بالبيت عرياناً، وإضافه الضيف، وأن لا ينفقوا إذا حجوا إلآمن طيب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحُرْم، ونفى ذوات الرايات. (١)

هذا وعن أم أيمن «رضى الله عنها» قالت: كنت أحضن النبى صلى الله عليه وآله وسلم (أى أقوم بتربيته وحفظه)، فغفلت عنه يوماً فلم أدر إلآبعبدالمطلب قائماً على رأسى يقول «يا بركه».

قلت: ليبيك.

قال: أتدرين أين وجدت ابنى؟

قلت: لا أدرى.

قال: وجدته مع غلمان قريباً من السدره، لا تغفلى عن ابنى، فإنّ أهل الكتاب يزعمون أنّه نبى هذه الأئمه، وأنا لا آمن عليه منهم.

وكان عبدالمطلب لا يأكل طعاماً إلآيقول علىّ بابنى (أى أحضروه). قال:

وكان عبدالمطلب إذا أتى بطعام أجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جنبه، وربّما أقعده على فخذه، فيؤثره بأطيب طعامه. (٢)

ثم إنّه لما بلغ أجله أوصى إلى أبى طالب برسول الله وقال له: قد خلّفت فى أيديكم الشرف العظيم الذى تطئون به رقاب العرب، وقال لأبى طالب:

أوصيك يا عبد منافٍ بعدى بمفرد بعد أبيه فرد

ص: ٣٢٧

١- . تاريخ اليعقوبى: ١٠/٢-١١، دار صادر بيروت. وفى بعض ما عدّه المؤرّخ المذكور نظر.

٢- . سيره زينى دحلان بهامش السيره الحلييه: ١/١٨٠.

فارقهُ وهو ضجيع المهد فكنت كالأمّ له فى الوجد

تدنيه من أحشائها والكبد فأنت من أرجى بنى بعدى

لدفع ضيم أو لشدّ عقد (١)

هذا هو عبدالمطلب، وتعوّذه بيت الله الحرام، ومواقفه بين قومه، وكلماته فى المبدأ والمعاد، وعطفه وحنانه على رسول الإسلام، واهتمامه برسالة خاتم النبيين، وهى بمجموعها من أقوى الشواهد على توحيده، وإيمانه بالله، واعترافه برسالة الرسول الكريم.

إيمان كفيله وعمه أبى طالب

وهكذا كان حال كفييل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الثانى أبوطالب عليه السلام، فإنّ له مواقف بارزه وكثيره قبل البعثة النبويه، وبعدها تكشف عن عمق إيمان شيخ الأباطح، وتوحيده.

ومن تلك المواقف استسقاؤه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى صباه:

فقد أصاب مكّه قحطٌ شديدٌ فى سنه من السنين فطلبت قريش من «أبى طالب» أن يستسقى لها فخرج ومعه غلامٌ - وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - كأنّه شمسٌ دجن تجلّت عنها سحابه قتماء وحوله أُغيلمه، فأخذه «أبوطالب» فألصق ظهره بالكعبه، ولاذ الغلام بإصبغه (أى أشار بها إلى السماء) وما فى السماء قزعه، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق، واغدودق وانفجر له الوادى، وأخصب البادى والنادى.

ففى ذلك يقول أبوطالب - فى مدح رسول الله -:

وابيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عِصمهٌ للأراملِ

ص: ٣٢٨

يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمِهِ وَفَوَاضِلِ

وَمِيزَانِ عَدْلِ لَا يَخِيْسُ شَعِيرَهُ وَوَزَانِ صِدْقٍ وَزَنُّهُ غَيْرُ هَائِلٍ (١)

وكلّ هذا يعرب عن توحيد كفيلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الخالص، وإيمانهما بالله تعالى، ولو لم يكن لهما إلهذين الموقفين لكفياهما دليلاً وبرهاناً على كونهما مؤمنين موحدين.

كما أنّ ذلك يدل أيضاً على أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم نشأ وترعرع ونما فى بيتٍ كانت الديانه السائده فيه هى توحيد الله، وعبادته وحده ورفض الأصنام والأوثان.

إيمان والدى النبى الأكرم

لقد نقلت عن عبدالله والد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كلمات وأبيات تدلّ على إيمانه ومن ذلك ما نقله أهل السير عندما عرضت فاطمه الخنعميه نفسها عليه لما كانت ترى على وجهه من النور، فأبى وقال:

أما الحرامّ فالمماتُ دونَه والجِلّ لِجِلِّ فاستيْبُهُ

يحمى الكريّم عرضَه وديتَه فكيفَ بالأمر الذى تبغينه (٢)

وقد روى عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «لم أزلُ أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» ولعلّ فيه إيعازاً إلى طهاره آبائه وأُمّهاته من كلّ دنس وشرك. (٣)

وأما الوالده فيكفى فى إثبات إيمانها ما رواه الحفّاظ عنها عند وفاتها فإنّها

ص: ٣٢٩

١- . لاحظ: السيره الحلبيه: ١/١٩٠، وللتوسّع راجع الغدير: ٧/٣٤٥ و ٣٤٦، وقد ذكرنا مواقف أبى طالب الإيمانيه عند البحث عن شخصيته فراجع.

٢- . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ٢/٢٣٥؛ السيره الحلبيه: ١/٦٣.

٣- . سيره زينى دحلان بهامش السيره الحلبيه: ١/٥٨.

(رضى الله عنها) خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن خمس أو ست سنين ونزلت بالمدينة تزور أخوال جدّه وهم بنو عدى بن النجار ومعها أم أيمن «بركه» الحبشيه، فأقامت عندهم، وكان الرسول بعد الهجره يذكر أموراً حدثت في مقامه ويقول: إن أمي نزلت في تلك الدار، وكان قوم من اليهود يختلفون وينظرون إليّ فنظر إليّ رجلٌ من اليهود فقال: يا غلام ما اسمك؟ فقلت: أحمد، فنظر إلى ظهري، وسمعته يقول: هذا نبي هذه الأُمّه، ثم راح إلى إخوانه فأخبرهم، فخافت أمي عليّ فخرجنا من المدينة، فلما كانت بالأبواء توفيت ودُفنت فيها.

وروى أبو نعيم في «دلائل النبوه» عن أسماء بنت رهم قالت: شهدت آمنه أم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في علتها التي ماتت بها، ومحمد عليه السلام غلام يفع (أى يافع) له خمس سنين عند رأسها فنظرت إلى وجهه وخاطبته بقولها:

إن صحّ ما أبصرتُ في المنام فأنت مبعوثٌ إلى الأنام

فالله أنهاك عن الأصنام أن لا تواليها مع الأقوام

ثم قالت: كلّ حيّ ميت، وكلّ جديد بال، وكلّ كبير يفنى، وأنا ميتة وذكري باق وولدتُ طهراً. وقال الزرقاني في شرح المواهب نقلاً عن جلال الدين السيوطي تعليقاً على قولها: وهذا القول منها صريح في أنّها كانت موحدّه إذ ذكرت دين إبراهيم عليه السلام، وبشّرت ابنها بالإسلام من عند الله، وهل التوحيد شيء غير هذا، فإنّ التوحيد هو الاعتراف بالله وأنّه لا شريك له، والبراءة من عباده الأصنام. (1)

ونلفت نظر القارئ الكريم هنا إلى ما قاله المرحوم الشيخ المفيد في كتابه «أوائل المقالات» في هذا الصدد:

ص: ٣٣٠

١- . الإتحاف للشبراوى: ١٤٤؛ سيره زيني دحلان بهامش السيره الحلبيه: ١/٥٧.

اتَّفقت الإماميه على أنّ آباء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لدن آدم إلى عبد الله بن عبدالمطلب مؤمنون بالله عزوجلّ موحّدون له، واحتجّوا في ذلك بالقرآن والأخبار. قال الله عزوجلّ: «الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَ تَقُوبُكَ فِي السَّاجِدِينَ» (١). (٢).

ثمّ إنّ هنا سؤالين هما:

١ - هل كان صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة موحّداً؟

٢ - بماذا وبأى دين كان يتعبّد صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة؟

وإليك الحديث فيهما:

إيمان النبيّ بالله وتوحيده قبل البعثة

إنّ الدلائل التاريخيه - بالإضافة إلى البراهين العقليه والكلاميه - تدلّ على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان قبل أن يبعثه الله بالإسلام، مؤمناً بالله، موحّداً إيّاه، لم يعبد وثناً قط، ولم يسجد لصنم أبداً، وإنّ ذلك من المسلّمات.

وهذا الأمر وإن كان أمراً مسلماً وواضحاً كوضوح الشمس، إلّا أنّنا نذكر بعض ما جاء في التاريخ الثابت الصحيح ليقترن ذلك الاتّفاق بأصحّ الدلائل التاريخيه:

أمّا بغضه للأصنام وتجنّبه للأوثان وما يكون من هذا القبيل، فإليك بعض ما ذكره التاريخ الصحيح في هذا المجال:

١. جاء في حديثٍ طويلٍ عن حليمه السعديه إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لما تمّ له ثلاث

ص: ٣٣١

١- الشعراء: ٢١٨-٢١٩.

٢- أوائل المقالات: ٤٥، دار المفيد، بيروت - ١٤١٤ هـ.

سنين قال لى يوماً: يا أمّاه (مرضعته حليمه السعديه): مالي لا أرى أخويّ بالنهار؟ قلت له: يا بُنَيَّ إنهما يرعيان غنيمات.

قال: فمالي لا- أخرج معهما، قلت له: تحبّ ذلك؟ قال: نعم. فلما أصبح محمد دهنته (تقول حليمه) وكحلته وعلقت في عنقه خيطاً فيه جزع يمانيّ، فنزعها ثم قال لى:

«مَهْلًا يَا أُمَّاهُ فَإِنَّ مَعِيَ مَنْ يَحْفَظُنِي».(١)

٢. روى أنّ «بحيرا» الراهب قال للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في سفرته الأولى مع عمّه أبي طالب إلى الشام: يا غلام أسألك بحقّ اللات والعزى إلّا أخبرتني عمّا أسألك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما» قال (الراهب):

فبالله إلّا أخبرتني عمّا أسألك عنه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: سلني عمّا بدا لك.(٢)

٣. روى أنّه قد وقع بين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبين رجل تلاح في سفرته الثانية إلى الشام للتجاره بأموال خديجه مع غلامها «ميسره» بعد أن باع صلى الله عليه وآله وسلم سلعته، فقال له الرجل: إحلف باللات والعزى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ما حلفت بهما قط، وإنّي أمّر فأعرض عنهما».

وفي روايه أخرى:

«إليك عني ثكلتك أمك فما تكلمت العرب بكلمه أثقل عليّ من هذه الكلمه».

فقال الرجل: القول قولك. ثم قال لميسره: هذا والله نبيّ تجده أحبارنا

ص: ٣٣٢

١- . المنتقى، الباب الثاني من القسم الثاني - للكارزوني كما في البحار: ١٥/٣٩٢.

٢- . الطبقات الكبرى: ١/١٥٤، السيره النبويه: ١/١١٧.

منعوتاً في كتبهم. (١)

وأما عبادته لله تعالى فقد أجمع المؤرخون على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يخلو بحراء كل عام شهراً يعبد فيه الله تعالى.

وقد قال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا المجال:

«وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِزُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي». (٢)

حتى أن جبرئيل وافاه بالرسالة في ذلك المكان، وفي تلك الحال.

وقد صرح بهذا أصحاب الصحاح الستة أيضاً إذ قالوا:

«وَكَانَ يَخْلُو بَغَارَ حَرَاءَ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ». (٣)

كما أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وصف هذا المقطع من حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسِيلُكَ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ
أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ». (٤)

وجاء في الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حج قبل البعثة حجاً عديده وكان يأتي بمناسكها على وجه صحيح بعيداً عن أعين قريش.

قال الإمام الصادق عليه السلام: في حديث ابن أبي يعفور:

«حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ حَجَّاتٍ مُسْتَتِراً فِي كُلِّهَا». (٥)

وفي روايه: عشرين حججه. (٦)

ص: ٣٣٣

١- . الطبقات الكبرى: ١/١٣٠؛ بحار الأنوار: ١٦/١٧-١٨.

٢- . نهج البلاغه: الخطبه ١٩٢.

٣- . صحيح البخارى: ١/٣، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ صحيح مسلم: ١/٩٧، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٤- . نهج البلاغه: الخطبه رقم ١٩٢.

٥- . وسائل الشيعة: ج ٨، الباب ٤٥ من أبواب وجوب الحج وشرايطه، الحديث ٥.

٦- . وسائل الشيعة: ج ٨، الباب ٤٥ من أبواب وجوب الحج وشرايطه، الحديث ٦.

والسبب فى هذا الاستتار هو أنّ قريش كانت قد أسقطت بعض مناسك الحج، والعمرة، فكانت تؤدّى الحج بصورة غير صحيحة وربّما غيرت أشهر الحج أحياناً لبعض الاعتبارات السياسية والمادّية، وهو ما سمّى بالنسيء، وقد مرّ بيانه.

إنّ هذه الوقائع وغيرها - وهى ليست بقليله - أصدق دليل على إيمانه صلى الله عليه وآله وسلم، وتوحيده، إذ كيف يمكن أن يتنكّب مثل هذه الشخصية التى نشأت وترعرعت فى ذلك البيت الطاهر، وقرن الله به ملكاً يتولّاه بالتربية والهداياه عن جاده التوحيد.

ثم إنّ ممّا لا ريب فيه أنّ الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم هو أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين بنصّ القرآن الكريم.

وقد صرح القرآن بأنّ بعض الأنبياء بلغوا درجه النبوه فى الصغر، أو الصبا، ونزلت عليهم الكتب فى تلك الفترات.

فمثلاً يقول القرآن الكريم عن يحيى بن زكريا: «يا يحيى خذ الكتاب بقوة وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». (١)

ثم يقول عن «عيسى بن مريم» عندما كان فى المهد وكان وجوه القوم من بنى اسرائيل قد استنكروا ولادته من غير أب، وطلبوا من «مريم البتول» أن توضح لهم الأمر، وتبيّن لهم كيف حملت بعيسى؟! فأشارت إلى المسيح عليه السلام أن كلموه وهو آنذاك فى المهد لم يمض على ولادته سوى أيام معدودات؛ فنطق المسيح بفصاحه كبيره وقال:

«إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِى نَبِيًّا * وَ جَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا». (٢)

ص: ٣٣٤

١- مريم: ١٢.

٢- مريم: ٣٠-٣١.

لقد بيّن وليد «مريم» للناس أصول دينه وفروعه في فتره الطفولة والرضاعه، وأعلن لهم عن توحيده وإيمانه بالله سبحانه.

فهل يرضى ضميرك أيها القارئ الكريم أن يكون «يحيى» و «المسيح» عليهما السلام مؤمنين معلنين عن توحيدهما، وإيمانهما منذ طفولتهما، وصباهما، ويكون أفضل الأنبياء والمرسلين، وأشرف الخلق أجمعين إلى سنّ الأربعين على غير إيمان، وتوحيد، مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان مشتغلاً بالتعبّد في جبل «حراء» عند نزول الوحي عليه لأوّل مرّه؟

وإليك بعض ما قاله المؤرّخون، والعلماء في هذا المجال استكمالاً لهذا المبحث: قال ابن هشام: فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجاور ذلك الشهر من كلّ سنه يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جواره من شهره ذلك، كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف من جواره، الكعبه، قبل أن يدخل بيته، فيطوفُ به سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته حتّى إذا كان الشهر الحزى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنه التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى «حراء» كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتّى إذا كانت الليله التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبرئيل عليه السلام بأمر الله تعالى. (١)

وقال العلّامة المجلسي: وقد ورد في أخبار كثيره أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يطوف، وأنه كان يعبد الله في حراء، وأنه كان يراعى الآداب المنقوله من التسميه والتحميد عند الأكل وغيره، وكيف يجوّز ذو مسكه من العقل على الله تعالى أن يهمل أفضل أنبيائه أربعين سنه بغير عبادته؟ والمكابره في ذلك سفسطه. (٢)

ص: ٣٣٥

١- السيره النبويه: ١/١٥٥.

٢- بحار الأنوار: ١٨/٢٨٠.

فإيمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتوحيده قبل البعثة، إذن، أمرٌ مسلمٌ لا شبهه فيه، ولا غبار عليه.

ولكن بعض الكتاب من المسيحيين ومن تبعهم، من المستشرقين وغيرهم، أبوا إلا أن ينتقصوا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فادّعوا ضلاله قبل البعثة، وإنه كان على غير إيمان، أو توحيد، واستدلوا لزعمهم الباطل هذا بما توهموا أنه يدل على دعواهم من الآيات القرآنية، وأبرزها الآيات التالية:

١. «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ». (١).

٢. «وَثِيَابَكَ فَطَهَّرَ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرَ». (٢).

٣. «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ». (٣).

٤. «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَلَا تَعْقِلُونَ». (٤) ٥. «وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ». (٥).

شبهات المستشرقين على عدم إيمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة

إشاره

لقد استدلل المستشرقون ومن لف لفهم ومن سبقهم أو لحقهم من المخطئه بهذه الآيات على ضلال النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة، وسلب الإيمان عنه، ولكنها لا تدل على ما يريدون، ولأجل تسليط الضوء على مقاصدهم نبحت عنها واحده واحده.

ص: ٣٣٦

١- الضحى: ٦-٧.

٢- المدثر: ٤-٥.

٣- الشورى: ٥٢.

٤- يونس: ١٦.

٥- القصص: ٨٦.

الآية الأولى: الهداية بعد الضلالة

ذكر المفسِّرون لقوله تعالى: «وَوَجِدَكَ ضَالًّا فَهَيِّدِي» (١) العذى يشعر بهدايه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الضلالة احتمالات عديدة، في معرض الإجابة عن استدلال مَنْ استدللَّ به لإثبات ضلال النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة، ولكن الحقُّ أن يقال: إنَّ الضالَّ يُستعمل في عرف اللغة في موارد:

١. الضالُّ: من الضلالة ضدَّ الهدايه والرشاد.

٢. الضالُّ: من ضلَّ البعير إذا لم يعرف مكانه.

٣. الضالُّ: من ضلَّ الشيء إذا ضؤل وخفى ذكره.

وتفسير الآية بأى واحد من هذه المعانى لا يثبت ما يدَّعيه الذين يتمسِّكون بها لإثبات ضلال النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة.

أما المعنى الأول فهو المقصود في كثير من الآيات قال سبحانه: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ». (٢).

لكن الضلالة على نوعين:

النوع الأول ما تكون الضلالة فيه أمراً وجودياً في النفس يوجب ظلمه النفس ومنقصتها، مثل الكفر والشرك والنفاق، والضلالة بهذا المعنى قابله للزيادة والنقصان قال سبحانه: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ». (٣).

النوع الثانى ما تكون الضلالة فيه أمراً عدمياً، وذلك عندما تكون النفس فاقده للرشاد، وعندئذ يكون الإنسان ضالاً بمعنى أنه غير واجدٍ للهدايه من عند نفسه، وذلك كالطفل الذى أشرف على التمييز وكاد أن يعرف الخير والشر، ويميز

ص: ٣٣٧

١- . الضحى: ٧.

٢- . الفاتحه: ٧.

٣- . التوبه: ٣٧.

بين الصلاح والفساد فهو آنذاك ضالاً بمعنى أنه غير واجد للنور الذي يهتدى به في سبل الحياه، لا بمعنى كينونه ظلمه الكفر والفسق في نفسه وروحه.

والمراد من الضالّ في قوله تعالى «وَوَحَّدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» لو كان ما يضاد الهدايه فهو يهدف إلى النوع الثاني، فيكون المعنى أنك في إبان عمرك كنت غير واجدٍ للهدايه من عند نفسك فهداك الله إلى أسباب السعاده وعرفك عوامل الشقاء، وهو إشاره إلى قانون إلهي عام في حياه البشر أنبياء وأناساً عاديين، وهو أنّ هدايه كلّ إنسان بل كلّ ممكن مكتسبه من الله قال سبحانه: «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى». (١)

وعلى هذا الأساس فالآيه تهدف إلى ذكر النعم التي أنعم الله بها على نبيه الحبيب منذ أن استعدّها لها فأواه بعد ما صار يتيماً، وأفاض عليه الهدايه بعدما كان فاقداً لها بحسب ذاته، وبحكم طبيعته، ويعود زمن هذه العنايه الرئانيه بنبيّه إلى مطلع حياته، وأوليات عمره وأيام صباه بقرينه ذكر ذلك بعد الإيواء الذي تحقّق باليتم، وتمّ بجده عبدالمطلب فوق في كفالته إلى ثمانيه سنين. ويؤيد ذلك قولُ إمام المتقين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَكْبَرًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ». (٢)

وصفوه القول: إنّ المراد بكونه ضالاً هو أنّ لازم كون النبيّ ممكناً بالذات هو كونه فاقداً في ذاته لكلّ كمال وجمال، مفاضاً عليه كلّ جميل من جانب الله تعالى، وهذا هو إشاره إلى مقتضى التوحيد الافرادي، وأين هذا من الضلاله المساوقه

ص: ٣٣٨

١- طه: ٥٠؛ وراجع الآيات: ٢ و ٣ من سوره الأعلى، و ٤٣ من سوره الأعراف، و ٧٨ من سوره الشعراء، وغيرها.

٢- نهج البلاغه: الخطبه ١٩٢.

ثم إنَّ من المحتمل أن تكون الضلاله في الآيه مأخوذه من «ضلَّ الشيء إذا لم يُعرف مكانه» وفي الحديث «الحكمه ضالَّه المؤمن» أى مفقوده، لاضدَّ الهدايه والرشاد، فيكون الضالُّ بهذا المعنى منطبقاً على ما نقله أهل السير والتواريخ عمَّا جرى للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في أيام صباه يوم ضلَّ في شعاب مكَّه، وهو صغير فمنَّ الله عليه إذ ردَّه إلى جدِّه، وقصته معروفه في كتب السير والتاريخ (١)، ولولا رحمه الله سبحانه لأدركه الهلاك ومات عطشاً أو جوعاً فشملتُه العنايه الإلهيه.

أو أن تكون الضلاله في الآيه مأخوذه من «ضلَّ الشيء إذا خفى وغاب عن الأعين» فالإنسان الضال هو الإنسان المخفى ذكره، المنسى اسمُه لا يعرفه إلَّا القليل من الناس، ولا يهتدى كثير منهم إليه.

ولو كان هذا هو المقصود، كان معناه حينئذٍ أنه سبحانه رفع ذكره، وعزَّفه للناس بعدما كان خاملاً ذكره منسياً اسمُه.

ويؤيد هذا الاحتمال قوله سبحانه في سورة الانشراح التي نزلت لتوضيح ما ورد في سورة الضحى قائلاً:

«أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» (٢).

فرفع ذكره في العالم عباره عن هدايه الناس إليه، ورفع الحواجز بينه وبينهم، وعلى هذا فالمقصود من «الهدايه» هو هدايه الناس إليه لا هدايته بعد ضلال، فكأنه

١- . لاحظ السيره الحلبيه: ١/١٨٠. وغيره، وفي هذه القصه يروى عن حيده بن معاويه العامري سمعت شيخاً يطوف بالبيت وهو يقول: ياربِّ ردِّ راكبي محمّداً أردده ربِّي واصطنع عندي يدا

٢- . الإنشراح: ١-٤.

قال: فوجدك ضالاً، أى خاملاً ذكرك، باهتاً اسمك، فهدى الناس إليك، وسير ذكرك فى البلاد.

وإلى ذلك يشير الإمام الرضا عليه السلام على ما فى خبر ابن الجهم بقوله: «قال الله عز وجل لنبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى» يقول «أَلَمْ يَجِدْكَ» وحيداً فأوى إليك الناس «وَوَجَدَكَ ضَالًّا» يعنى عند قومك «فَهَدَى» أى هداهم إلى معرفتك»(١). قال الأستاذ الشيخ محمد عبده فى هذا المجال:

لقد بُعِثَ إليه (أى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) الوثيقه من مبدأ عمره فعاجلته طهاره العقيدة، كما بادره حسن الخلقه، وما جاء فى الكتاب من قوله: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» لا يفهم منه أنه كان على وثنيه قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم حاش لله، إن ذلك لهو الإفك المبين(٢).

الآيه الثانيه: الأمر بهجر الرجز

استدلوا بقول الله تعالى: «وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ» على وجود أرضيه لعباده الصنم والوثن فى شخصيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك بتفسير الرجز بالصنم، والوثن، ويتضح بطلان هذا الادعاء والاستنباط إذا أمعنا فى معانى واستعمالات هذه اللفظه فى الكتاب العزيز.

إن الرجز استعمل فى القرآن الكريم فى معان ثلاثه: العذاب، القذاره، الصنم.

وقد استعمل الرجز (بكسر الراء) فى تسع موارد فى القرآن الكريم، وقد أريد منه فى جميعها العذاب إلفى مورد واحد: وهى: البقره - ٥٩، والأعراف - ١٣٤ (وجاءت اللفظه فيها مرتين) و ١٣٥ و ١٦٢ والأنفال - ١١ وسبأ - ٥ والجنه - ١١

ص: ٣٤٠

١- . بحار الأنوار: ١٦/١٤٢، الحديث ٥.

٢- . رساله التوحيد للشيخ محمد عبده: ١٣٥ و ١٣٦.

وجاء الرُّجْز - بضَمِّ الرَّاءِ - مرّةً واحدةً وهى الآية التى نحن بصددّها هنا. (١)

وهذه الآية لا تدلّ على ما ذهب إليه الذين يزعمون بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان على غير التوحيد قبل البعثة.

وإليك بيان هذا الموضوع مفصّلاً:

١. إنّ الرُّجْز لو كان بمعنى «العذاب» دلّت الآية على هجر ما يستلزم العذاب، فيكون الخطاب حينئذٍ مسوقاً من باب التعليم، ومن باب «إياك أعنى وأسمعى يا جاره»، فيكون ظاهر الأمر هو مخاطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونهيه عمّا يستلزم العذاب، وإرادته تعليم الأئمّة مثل قول الله تعالى فى خطابه للنبي «فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ» (٢)، وقوله تعالى: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» (٣)، فكما لا تدلّ الآية على وجود أرضيه الشرك فى شخصيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كذلك لا تدلّ الآية على وجود أرضيه التعرّض للعذاب فى شخصيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢. إنّ الرُّجْز لو كان بمعنى (القذاره) وهى تنقسم إلى مادّيه ومعنويه فيحتمل أن يكون المراد - بناء على المعنى الأوّل - إشاره إلى ما ورد فى الروايات من أنّ أباجهل جاء بشيءٍ قدر، وأمر رجلاً من قريش بإلقائه على النبي، ففعل، فأمر الله نبيّه بتطهير ثوبه من الدنس.

ويحتمل أن تكون الآية دعوه إلى اجتناب الصفات الذميمة بناء على إرادته المعنى الثانى للفظه الرُّجْز، فتكون الآية تعليماً للناس على النمط السابق، فلا تدلّ على اتّصاف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بها.

٣. الرُّجْز بمعنى الصنم، لنفترض أنّ المقصود منه فى الآية هو الصنم، لكن لا

ص: ٣٤١

١- . المدّثر: ٥.

٢- . القصص: ٨٦.

٣- . الزمر: ٦٥.

بمعنى أنه وضع لذاك المعنى، وإنما وضع اللفظ لمعنى جامع يعُمُّ الصنم والخمر والأزلام لاشتراك الجميع في كونها رجزاً، ولأجل ذلك وصف الجميع في مورد آخر بالرجس فقال تعالى: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ» (١).

ولكن يجاب عن هذا أيضاً بأن النبي يوم نزلت الآيه لم يكن عابداً للوثن بل كان مشمراً عن ساعد الجد لتحطيم الأصنام ومكافحه عبدها، فلا يصح أن يخاطب من هذا شأنه بهجر الأصنام إلأعلى السبيل الذى أشرنا إليه وهو توجيه الخطاب إلى النبي وإرادته الأمه به، لكون هذا النوع من الخطاب أبلغ فى التأثير، لأنه سبحانه إذا خاطب أعز الناس إليه بهذا الخطاب فغيره أولى به.

الآيه الثالثه: عدم علمه بالكتاب والإيمان

اشاره

قوله سبحانه: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٢).

زعم جماعه دلالة هذه الآيه - والعياذ بالله - على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان فاقداً للإيمان قبل الإيحاء إليه.

لكن حياته الشريفه المشرقه بالإيمان، والتوحيد، تفند تلك المقاله، فالتاريخ يشهد على أنه صلى الله عليه وآله وسلم منذ بدايه عمره إلى أن لاقى ربه مؤمناً موحداً، وذلك أمرٌ لا شك فيه، ولا شبهه تعتريه، وقد أجمع على ذلك أهل السير والتاريخ، وحتى أن الأخبار والرهبان كانوا معترفين بأنه نبي هذه الأمه، وخاتم النبيين، وكان يسمع تلك

ص: ٣٤٢

١- المائده: ٩٠.

٢- الشورى: ٥٢.

الشهادات منهم في فترات خاصه في «مكه» و «يثرب» و «بصرى» و «الشام»^(١) وغيرها، فكيف والحال هذه يمكن أن يكون غافلاً عن الكتاب الذى ينزل إليه أو يكون مجاناً للإيمان بوجوده سبحانه، و توحيده، والتاريخ المسلم الصحيح يؤكد على عدم صدق ذلك الاستظهار من الآيه الحاضره.

فلا بدّ إذن من الإمعان في مفاد الآيه كما لا بدّ - في تفسيرها - من الاستعانه بالآيات الوارده في ذلك المساق.

بُعث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لهدايه قومه أولاً، وهدايه جميع الناس ثانياً، بالآيات والبيّنات، ونخصّ بالذكر منها: القرآن الكريم (معجزته الكبرى الخالده) الّذى بفصاحته أحرّسَ فرسان الفصاحه، وقاده الخطابه، وبيلاغته قهر ارباب البلاغه وملوك البيان، وخلق عقولهم، وقد دعاهم إلى التحدّى والمقابله، فلم يكن الجواب منهم إلّا إثارة الشكوك والتهم حوله، وحول ما جاء به، وعدم المعارضه بمثل القرآن قط.

فتاره قالوا: بأنّه يعلمه بشر، وأخرى بأنّه إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، وثالثه: بأنّه أساطير الأولين، قد اكتتبتها فهى تُملى عليه بكره وأصيلاً، قال سبحانه ردّاً على هذه التهم الّتى أشرنا إليها: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ». (٢)

وقال سبحانه «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَ زُورًا * وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ا ك ت ت ب هَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا

ص: ٣٤٣

١- . راجع: السيره النبويه والسيره الحلبيه وبحار الأنوار.

٢- . النحل: ١٠٢-١٠٣.

والآية المبحوثة بصدد بيان هذا الأمر، وأنه وحى سماوي لا إفتك إفتراه، ولهذا بدأ كلامه بعبارة: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ»: أى كما أنه سبحانه أوحى إلى سائر الأنبياء بإحدى الطرق الثلاثة التى بينها فى الآية المتقدمه، أوحى إليك أيضاً روحاً من أمره، وليس هذا كلامك وصنيعك، بل كلام ربك وصنيعه.

هذا مجمل الكلام فى الآية ولأجل رفع النقاب عن مرماها نقدم أموراً تسلط الضوء على الآية:

الأول: أن المراد من الروح فى الآية هو القرآن وسمى روحاً لأنه قوام الحياه الأخرويه، كما أن الروح فى الإنسان قوام الحياه الدنيويه، وتؤيد ذلك أمور:

أ - أن محور البحث الأصلى فى سورة الشورى هو: الوحى والآيات الوارده فيها البالغ عددها (٥٣) آيه تبحث عن ذلك المعنى بالمباشرة أوغيرها.

ب - الآية التى تقدمت على تلك، تبحث عن الطرق التى يكلم بها سبحانه أنبياءه ويقول: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِيَاذِنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». (٢).

ج - أنه سبحانه بدأ كلامه فى هذه الآية بلفظه: «وَكَذَلِكَ»: أى كما أوحينا إلى من تقدم من الأنبياء كذلك أوحينا إليك بإحدى تلك الطرق «رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا» ووجه الاشتراك بينه وبين النبيين هو الوحى المتجلى فى نبينا بالقرآن وفى غيره بوجه آخر. كل ذلك يؤيد أن المراد من الروح فى الآية المبحوثة هو القرآن الملقى إليه.

نعم ورد فى بعض الروايات أن المراد منه هو روح القدس، ولكنه لا ينطبق

ص: ٣٤٤

١- الفرقان: ٤-٦.

٢- الشورى: ٥١.

على ظاهر الآيه، لأنَّ الروح بحكم كونه مفعولاً لـ «أَوْحَيْنَا» يجب أن يكون شيئاً قابلاً للوحي حتّى يكون موحى، وروح القدس ليس موحى بل هو الموحى (بالكسر) فكيف يمكن أن يكون مفعولاً لـ «أَوْحَيْنَا» ، ولأجله يجب تأويل الروايات إن صحّت أسنادها.

الثانى: إن هيئه «ما كُنْتُ» أو «ما كَانَ» تُستعمل فى نفى الإمكان والشأن قال سبحانه: «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» (١)، وقال عزّ اسمه: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً». (٢).

وعلى ضوء هذا الأصل يكون مفاد قوله: «مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ» أنّه لولا الوحي ما كان من شأنك أن تدرى الكتاب ولا الإيمان، فإن وقفتَ عليهما فإنّما هو بفضل الوحي وكرامته.

الثالث: أنّ ظاهر الآيه هو أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان فاقداً للعلم بالكتاب، والدرايه بالكتاب، وإنّما حصلت الدرايه بهما فى ظل الوحي وفضله فيجب إمعان النظر فى الدرايه الّتى كان النبى فاقداً لها قبل الوحي وصار واجداً لها بعده، فما تلك الدرايه وذاك العلم؟

فهل المراد هو العلم بنزول الكتاب إليه إجمالاً والإيمان بوجوده وتوحيده سبحانه، أو المراد العلم بتفاصيل ما فى الكتاب، والإذعان بها كذلك؟

لا شكّ أنّه لا سبيل إلى الأوّل لأنّ علمه - إجمالاً - بأنّه ينزل إليه الكتاب، أو إيمانه بوجود الله سبحانه كانا حاصلين قبل نزول الوحي إليه، ولم يكن العلم بهما ممّا يتوقّف على الوحي، فإنّ الأبحار والرهبان كانوا واقفين على نبوته ورسالته ونزول الكتاب إليه فى المستقبل إجمالاً، وقد سمع النبى صلى الله عليه وآله وسلم منهم فى فترات

ص: ٣٤٥

١- . آل عمران: ١٤٥.

٢- . التوبه: ١٢٢.

مختلفه: أنه النبي الموعود في الكتب السماويه، وأنه خاتم الرسالات والشرائع، فهل يصح أن يقال إن علمه صلى الله عليه وآله وسلم بنزول كتاب عليه إجمالاً كان بعد بعثته وبعد نزول الوحي، أو أنه كان متقدماً عليه وعلى بعثته، ومثله الإيمان بالله سبحانه، وتوحيده، إذ لم يكن الإيمان بالله أمراً مشكلاً متوقفاً على الوحي، وقد كان الأحناف في الجزيره العرييه ومن جملتهم رجال البيت الهاشمي موحدين مؤمنين مع عدم نزول الوحي إليهم.

فيتعين الاحتمال الثاني وهو أن العلم التفصيلي بمضامين الكتاب وما فيه من الأصول والتعاليم ثم الإيمان والإذعان بتلك التفاصيل، كانا متوقفين على نزول الوحي، ولولاه لما كان هناك علمٌ بها، ولا إيمان.

وبعبارة أخرى: إن العلم والإيمان بالأمر السميعه التي لا سبيل للعقل إليها مثل المعارف والأحكام والقصص ومجادلات الأنبياء مع المشركين والكفار، وما نزل بساحه أعدائهم من إهلاك وتدمير، لا يحصلان إلا من طريق الوحي حتى قصص الأمم السالفه وحكاياتهم لتطرق الوضع والدس إلى كتب القصصيين، والصحف السماويه النازله قبل القرآن.

تفسير الآيه بآيه أخرى

إن الرجوع إلى ما ورد في هذا المضممار من الآيات يوضح المراد من عدم درايتة بالكتاب أولاً، والإيمان ثانياً.

أما الأول: فيقول سبحانه: «تلك من أنباء الغيب نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها

أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» (١) فالآية صريحه في أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن عالماً بتفاصيل الأنبياء، وقد وقف عليها من جانب الوحي، فعبر عن عدم وقوفه عليها في هذه الآية بقوله: «ما كُنْتُ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ» وفي تلك الآية بقوله: «ما كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ» والفرق هو أن «الكتاب» أعم من «أنبياء الغيب» والأول يشتمل على الأنبياء وغيرها، وأما «الأنبياء» فإنها مختصة بالقصاص، والكل مشتركان في عدم العلم بهما قبل الوحي والعلم بهما بعده.

وأما الثاني فقوله سبحانه: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» (٢)، فقوله: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ» صريح في أن متعلق الإيمان الحاصل بعد الوحي، هو الإيمان «بما أُنزِلَ إِلَيْهِ»، أعنى: تفاصيل الكتاب في المجالات المختلفة، لا- الإيمان بالله وتوحيده، وعندئذ يرتفع الإبهام في الآية التي تمسكت بها المخطئة ومن ينسبون عدم الإيمان بالله وتوحيده إلى النبي قبل البعث، ويتبين أن متعلق الإيمان المنفي في قوله: «وَلَا الْإِيمَانُ» هو «ما أُنزِلَ» * لا الإيمان بالمبدأ وتوحيده.

والحاصل: إن هُنا شيئاً واحداً هو: «الإيمان بما أُنزل من المعارف والأحكام والأنبياء» فقد نُفي عنه في الآية المبحوث عنها لكونها ناظرة إلى فتره ما قبل البعث، وأثبت له في الآية الأخرى لكونها ناظرة إلى ما بعد البعث.

قال الطبرسي: «ما كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ» ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإيمان. (٣)

ص: ٣٤٧

١- . هود: ٤٩.

٢- . البقرة: ٢٨٥.

٣- . مجمع البيان: ٩/٦٥.

وقال الفخر الرازي: المراد من الإيمان هو الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به، وإنه قبل النبوه ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى، بل إنه كان عارفاً بالله...

ثم قال: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعيه، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصله قبل النبوه. (١)

وقال العلامة الطباطبائي في «الميزان»: إن الآيه مسوقه لبيان أن ما عنده صلى الله عليه وآله وسلم الذي يدعو إليه إنما هو من عند الله سبحانه لا من قبل نفسه، وإنما أُوتى ما أُوتى من ذلك بالوحي بعد النبوه، فالمراد بعدم درايته بالكتاب هو عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقاديه والشرائع العمليه، فإن ذلك هو الهدى أُوتى العلمُ به بعد النبوه والوحي، وبعدم درايته بالإيمان عدم تلبسه بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقه والأعمال الصالحه، وقد سُمي العمل إيماناً في قوله: «وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ» (٢) (والمراد الصلوات التي أُتى بها المؤمنون إلى بيت المقدس قبل النسخ وتحويل القبله). فالمعنى ما كان عندك قبل وحي الروح (علم) الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام التفصيلي الاعتقادي والعملي بمضامينه، وهذا لا ينافي كونه صلى الله عليه وآله وسلم مؤمناً بالله، موخداً قبل البعثه صالحاً في عمله، فإن الذي تنفيه الآيه هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً، ونفى العلم والالتزام التفصيليين لا يلازم نفى العلم والالتزام الإجماليين بالإيمان بالله، والخضوع للحق. (٣)

ص: ٣٤٨

١- . مفاتيح الغيب: ١٩٠/٢٧.

٢- . البقره: ١٤٣.

٣- . الميزان: ٧٧/١٨.

قال تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ» (١).

استدلوا بأن ظاهر الآيه نفى علمه بإلقاء الكتاب إليه، فلم يكن النبي راجياً لذلك، ولا واقفاً عليه.

أقول: إن توضيح مفاد هذه الآيه يتوقف على إمعان النظر في الجملة الاستثنائية - أعني قوله: «إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» - حتى يتضح المقصود، وقد ذكر المفسرون في توضيحها وجوهاً ثلاثة نأتى بها:

١. أن «إلما» استدراكيه، وليست استثنائية فهي بمعنى «لكن» لاستدراك ما بقى من المقصود، وحاصل معنى الآيه: «ما كنت يا محمّد ترجو فيما مضى أن يوحى الله إليك ويشرفك بإنزال القرآن عليك، إلّا أنّ ربك رحيمك، وأنعم به عليك وأراد بك الخير» نظير قوله سبحانه: «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» (٢): أى ولكن رحمه من ربك خصك بها، وهذا هو المنقول عن الفراء (٣).

وعلى هذا لم يكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أى رجاء لإلقاء الكتاب إليه، وإتّما فاجأه الإلقاء لأجل رحمه ربه.

ولكن لا يصار إلى هذا الوجه إلّا إذا امتنع كون الاستثناء متصلاً، لكون الانقطاع على خلاف الظاهر.

٢. أن يكون «إلما» للاستثناء لا للاستدراك وهو متصل لا منقطع، ولكن

ص: ٣٤٩

١- . القصص: ٨٦.

٢- . القصص: ٤٦.

٣- . تفسير الرازى: ٢٥/٢٢.

المستثنى منه جملة محذوفه معلومه من سياق الكلام، وهو كما فى «الكشاف»:

«وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك»^(١): أى لم يكن لإلقائه عليك وجهه إلا رحمة ربك، وعلى هذا الوجه أيضاً لا يُعلم أنه كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم رجاء لإلقاء الكتاب عليه وإن كان الاستثناء متصلًا.

وهذا الوجه بعيد أيضاً لكون المستثنى منه، محذوفاً مفهوماً من الجملة على خلاف الظاهر وإنما يصار إليه إذا لم يصح إرجاعه إلى نفس الجملة الواردة فى نفس الآية كما سيبيّن فى الوجه الثالث.

٣. أن يكون «إلماً» استثناء من الجملة السابقة عليه أعنى قوله: «وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا» ويكون معناه: ما كنت ترجو (إلقاء الكتاب عليك) إلا أن يرحمك الله برحمته فينعم عليك بذلك، (فتكون النتيجة): أى ما كنت ترجو إلا أعلى هذا.^(٢)

فيكون هنا رجاء منفياً، ورجاء مثبتاً؛ أمّا الأول فهو رجاءه بحادثه نزول الكتاب على نسج رجائه بالحوادث العادية، فلم يكن ذاك الرجاء موجوداً.

وأما رجاءه به عن طريق الرحمة الإلهية فكان موجوداً، فنفى أحد الرجاءين لا يستلزم نفى الآخر، بل المنفى هو الأول، والثابت هو الثانى، وهذا الوجه هو الظاهر المتبادر من الآية.

وقد سبق منّا أنّ جملة: «مَا كُنْتَ» وما أشبهه تستعمل فى نفى الإمكان، والشأن، وعلى ذلك يكون معنى الجملة: لم تكن راجياً لأن يلقى إليك الكتاب، وتكون طرفاً للوحى والخطاب إلامن جهه خاصه، وهى أن تقع فى مظله رحمته وموضع عنايته، فيختارك طرفاً لوحيه، ومخاطباً لكلامه، فالنبي بما هو إنسان عادى

ص: ٣٥٠

١- . تفسير الكشاف: ٣/١٩٤.

٢- . تفسير الرازى: ٢٥/٢٢.

لم يكن راجياً لأن ينزل إليه الوحي، ويلقى إليه الكتاب، وبما أنه صار مشمولاً لرحمته وعنايته، وصار إنساناً مثالياً، قابلاً لتحمل المسؤولية، وتربيته الأتمه، كان راجياً به، وعلى ذلك فالنفي والإثبات غير واردین على موضع واحد.

وبهذا خرجنا بفضل هذا البحث الضافي أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان إنساناً مؤمناً، موحّداً، عابداً لله، ساجداً، قائماً بالفرائض العقلية والشرعية، مجتنباً عن المحرّمات، عالماً بالكتاب ومؤمناً به إجمالاً، وراجياً لنزوله إليه إلى أن بُعث لإنقاذ البشرية من الجهل، وسوقها إلى الكمال.

الآية الخامسة: لو لم يشأ ما تلوته

قال سبحانه: «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أ فَلَا تَعْقِلُونَ» (١)، والآية تؤكد أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يشأ في قومه، ولم يكن تالياً لسوره من سور القرآن، أو آية من آياته وليس هذا شيء ينكره القائلون بالعصمه، فقد اتفقت كلمتهم على أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقف على ما وقف عليه من آي الذكر الحكيم من جانب الوحي، ولم يكن قبله عالماً به، وأين هذا من قول المخطئه من نفي الإيمان منه قبلها؟

وإن أردت الإسهاب في تفسيرها فلاحظ الآيه المتقدمه، فترى فيها اقتراحين للمشركين وقد أجاب القرآن عن أحدهما في الآيه المتقدمه وعن الآخر في نفس هذه الآيه، وإليك نصّها: «قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَدَّبَلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحى إِلَيَّ إِنْنِي أَخَافُ

ص: ٣٥١

إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (١).

اقترح المشركون على النبي أحد أمرين:

١. الإتيان بقرآن غير هذا مع المحافظه على فصاحته وبلاغته.

٢. تبديل بعض آياته مما فيه سب لآلهتهم وتنديد بعبادتهم للأوثان والأصنام.

فأجاب عن الثاني في نفس الآيه بأن التبديل عصيان لله، وأنه يخاف من مخالفه ربه، ولا محيص له إلا التبع الوحي من دون أن يزيد فيه أو ينقص عنه.

وأجاب عن الأول في الآيه المبحوث عنها بأن ذلك أمر غير ممكن؛ لأن القرآن ليس من صنعى وكلامى حتى أذهب به وآتى بآخر، بل هو كلام الله سبحانه وقد تعلقت مشيئته بتلاوتى، ولو لم يشأ لما تلوته عليكم ولا أدراككم به، والدليل على ذلك أنى كنت لابثاً فيكم عمراً من قبل فما تكلمت بسوره أو بآيه من آياته، ولو كان القرآن كلامى لبادرت إلى التكلم به، أيام معاشرتى السابقه معكم فى المده الطويله، المديده.

قال العلامة الطباطبائى فى تفسير الآيه: إن الأمر فيه إلى مشيئته الله لا إلى مشيئتى، فإنما أنا رسول، ولو شاء الله أن ينزل قرآناً غير هذا ولم يشأ (تلاوه) هذا القرآن ما تلوته عليكم، ولا أدراككم به فإنى مكثت فيكم عمراً من قبل نزول القرآن...، ولو كان ذلك إلى وبيدى لبادرت إليه قبل ذلك، وبدت من ذلك آثار ولاحت لوائحه. (٢)

ص: ٣٥٢

١- . يونس: ١٥.

٢- . الميزان فى تفسير القرآن: ١٠/٢٨-٢٩؛ ولاحظ: تفسير المنار: ١١/٣٢٠.

فكيف يمكنُ والحال هذه أن يكون مجاناً للإيمان بالله وتوحيده، لاهياً عن عبادته وتقديسه.

هذا وفي هذا المجال حديث واسع اكتفينا منه بهذا القدر، ومن أراد التوسع عليه مراجعه موسوعتنا «مفاهيم القرآن».(١)

وأما الكلام في الجبهه الثانيه وهى: أنه بماذا وبأى دين كان يتعبدُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثه، فقد وقع ذلك محطاً للبحث بين العلماء، وحيث إنه لا ينطوى على فائده كبرى، بعد أن تبين أنه كان قبل البعثه مؤمناً، موخّداً، يعبد الله، فإنه يكفى أن نعرف أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم يلتزم بما ثبت له أنه شرع الله تعالى... وبما يؤدى إليه عقله الفطرى السليم، وأنه بالتالى كان مؤيداً مسدداً، وأنه كان أفضل الخلق وأكملهم خلقاً، وخلقاً، وعقلاً، وأنه كان يعمل حسب ما يُلهم سواء أكان مطابقاً لشرع ما قبله أم مخالفاً، وأن هاديه وقائده منذ صباه إلى أن بُعث هو نفس هاديه بعد البعثه.(٢)

ص: ٣٥٣

١- . لاحظ: مفاهيم القرآن: ٥/٢٦٣-٣٣٥.

٢- . وللتوسع والوقوف على الآراء المختلفه فى هذا المجال راجع: مفاهيم القرآن: ٥/٢٨٣.

إنَّ التاريخَ الإسلاميَّ يبدأ في الحقيقه من يوم بعثه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بالرساله، والتي وقعت على أثره حوادث خاصه.

ويوم بُعثِ النبيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم لهدايه الناس، ودوّى في سمعه الشريف نداء «إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ» الصادر عن ملائكة الوحي أُلقيت على كاهله مسؤوليه كبرى وثقله جدًّا، على نمط الوظيفه الهامه التي أُلقيت على كاهل مَنْ سبقه من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

منذ ذلك اليوم اتّضح هدف أمين قريش، أكثر فأكثر، وتجلّت خطّته أكثر فأكثر.

ونحن نرى من اللازم قبل شرح الحوادث الأولى الواقعه عند البعثه أن نعطي بعض الإيضاحات حول مسألتين:

١. وجوبُ بعثِ الأنبياء.

٢. دورُ الأنبياء في إصلاح المجتمع.

لقد أودعَ اللهُ تعالى في كيان كُملِّ كائن من الكائنات أدوات تكامله، وجّهزه - لسلوك هذا الطريق - بالوسائل المتنوّعه، والأجهزه المختلفه اللازمه.

ولنأخذ مثلاً: نبتة صغيره، فإنّ ثمة عوامل كثيره تتفاعل فيما بينها وتعمل لتحقيق التكامل فيها.

إنّ جذور كلّ نبتة تعمل أكبر قدر ممكن لامتنصاص العناصر الغذائيّه، وتلييه

احتياجات النبتة، وتوصل العروق والقنوات المختلفه، عصاره ما تأخذه من الأرض إلى جميع الأغصان والأوراق.

إننا لو درسنا تركيب الورده لرأينا أكثر مدعاه للإعجاب وأشدّ إثارة للتعجب من تركيب بقيه النباتات.

فللكأس وظيفه توفير الغطاء اللازم للأوراق الناعمه اللطيفه فى الورده.

وهكذا الحال بالنسبه إلى بقيه الأجهزة فى (الورده) ممّا أنيط إليها مسؤوليه الحفاظ على كائن حيّ، وضمان رشده ونموّه، فإنّها جميعاً تقوم بوظائفها المخلوقه لها بأحسن شكل، وأفضل صوره.

ولو أننا خطونا خطوات أكثر وتقدّمنا بعض الشىء لدراسه الأجهزة العجيبه فى عالم الأحياء، لرأينا أنّها جميعاً وبدون استثناء مُزوّده بما يضمن بلوغها إلى مرحله الكمال المطلوب لها.

وإذا أردنا أن نصبّ هذا الموضوع فى قالب علميّ لوجب أن نقول: إنّ الهدايه التكوينيّه، الّتى هى النعمه المتجلّيه فى عالم الطبيعه، تشمل كلّ موجودات هذا العالم من نبات، وحيوان وإنسان.

ويبين القرآن الكريم هذه الهدايه التكوينيّه الشامله بقوله:

«رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» (١).

فإنّه يصرّح بأنّ كلّ شىء فى هذا الكون من الذره إلى المجرّه ينعم بهذا الفيض العامّ، وأنّ الله تعالى بعد أن قدّر كلّ موجود وكائن، يبيّن له طريق تكامله، ورقيّه، وهياً لكلّ كائن من تلك الكائنات ما يحتاج إليه فى تربيتّه ونموّه، وهذه هى

ص: ٣٥٥

(الهدايه التكوينيّه العامّه) السائده على كلّ أرجاء الخليقه دونما استثناء.

ولكن هل تكفي هذه الهدايه الفطريه، التكوينيّه لكائن مثل الإنسان، أشرف الموجودات، وأفضل ما في هذه الخليقه؟!

بكل تأكيد: لا.

لأدّن للإنسان حياه أخرى غير الحياه الماديّه، تشكل أساس حياته الواقعيّه، ولو كان للإنسان حياه ماديّه جافّه فقط مثلما لعالم النباتات، والحيوانات، لكفت العوامل والعناصر الماديّه في تكامله، والحال أنّ للإنسان نوعين من الحياه، يكمن في تكاملهما معاً رمز سعادته الإنسان ورقّيّه.

إنّ الإنسان الأوّل، ونعني به إنسان الكهوف والحياه البسيطه والفطره السليمه التي لم يطرأ على جبلته أيّ إعوجاج لم يكن بحاجه إلى ما يحتاج إليه الإنسان الإجتماعيّ من التربيّه والهدايه.

ولكن عندما خطا الإنسان خطوات أبعد من ذلك، وبدأ الحياه الاجتماعيه، وسادت على حياته فكره التعاون والعمل الجماعي برزت في روحه ونفسيته سلسله من الانحرافات نتيجه للاحتكاك الاجتماعيّ، وغيّرت الخصال القبيحه والأفكار الخاطئه صفاته الفطريّه، وبالتالي أخرج المجتمع من حاله التوازن! إنّ هذه الانحرافات حملت خالق الكون على أن يرسل إلى البشريه رجالاً أفذاذاً صالحين يتولّون تربيّه البشر، وليقوموا بتنظيم برنامج المجتمع، والتخفيف من المفاسد الناشئه - بصوره مباشره - عن النزعه الاجتماعيه لدى الإنسان، وليضيئوا - بمشاعل الوحي المشعّه المنيره - طريق السعاده والخير للإنسانيه في جميع المجالات والأبعاد.

إذ لا نقاش في أنّ الحياه الاجتماعيه والعيش بصوره جماعيه مع كونه مفيداً،

ينطوى على مفسد لا تُنكر، ويجرّ إلى انحرافات كثيره لا تقبل التردد.

ولهذا بعث الله سبحانه رجالاً مصلحين، وهداه مرشدين يعملون - قدر الإمكان - على الحدّ من الانحرافات والمفسد، ويضعون عجله المجتمع - بتنظيم القوانين الواضحه والأنظمه الحكيمه - على الطريق الصحيح، ويضمنون دورانها وحركتها فى المسار المستقيم.

وقد يُستفاد هذا الأمر - بوضوح - من قوله تعالى:

«كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ». (١)

دور الأنبياء فى إصلاح المجتمع:

إنّ الذى يتصوّره الناس عادة هو أنّ الأنبياء مجرد معلّمين إلهيين بُعثوا لتعليم البشريه.

فكما يتعلّم الطفل خلال حركته التعليميه ابتداء من الابتدائيه ومروراً بالمتوسطه وانتهاء بالجامعه، دروساً معيّنه ومواضيع خاصّه على أيدي الأساتذه والمعلمين، كذلك يتعلّم الناس فى مدرسه الأنبياء أموراً خاصّه، ويكتسبون معارف معيّنه، وتتكامل أخلاقهم وصفاتهم وخصالهم الاجتماعيه جنباً إلى جنب مع اكتسابهم المعرفه والعلم على أيدي الأنبياء والمرسلين.

ولكننا نتصوّر أنّ مهمّه الأنبياء ووظيفتهم الأساسيه هى تربيّه المجتمعات البشريه لا تعليمها، وأنّ أساس شريعتهم لا ينطوى على كلام جديد، وأنّه ما لم تنحرف الفطره البشريه عن مسارها الصحيح، وما لم تلتفّها غشاوات الجهل والغفله

ص: ٣٥٧

لعرفت وأدركت خلاصه الدين الآلهى، وعصارتة، من غير إبهام، ولا خفاء.

على أنّ هذه الحقيقة قد أشار إليها قاده الإسلام العظام.

فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام فى «نهج البلاغه» عن هدف الأنبياء:

«أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ (إيمانهم)، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَبَا لَهُمُ الشَّيَاطِينَ عَيْنَ مَعْرِفَتِنَا، وَاقْتَطَعَتْهُمُ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لَيْسَ تَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسَى نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمُ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثَبِّرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ» (١).

مثال واضح فى المقام

إذا قلنا: إنّ وظيفة الأنبياء فى تربية الناس وإصلاح نفوسهم هى وظيفة صاحب البستان فى تربية شجيره من الشجرات، أو قلنا: إنّ مثل الأنبياء فى قياده التوجهات الفطرية البشرية وهدايتها، مثل المهندس الذى يستخرج المعادن الثمينه من بطون الأودية والجبال، لم نكن فى هذا القول مبالغين.

وتوضيح ذلك أنّ النبتة، أو الشجيره الصغيره تحمل من بدايه انعقاد حبتها الأولى كُلاً قابليات النمو، والرشد، فإذا توفّر لها الجو المناسب للنمو، دبّت الحياه والحركه فى كلاً أجزائها، واستطاعت بفعل جذورها القويّه وأجهزتها المتنوعه وفى الهواء الطلق، والضوء اللازم، من أن تقطع أشواطاً كبيره من التكامل، والنمو.

فمسؤوليه البستاني فى هذه الحاله تتركز فى أمرين:

١. توفير الظروف اللازمه لتقويه جذور تلك النبتة لكى تظهر القوى المودعه

ص: ٣٥٨

١- . نهج البلاغه: الخطبه رقم ١.

فى تلك النبتة أو الشجرة، وتخرج من حيز القوه إلى مرحله الفعلية، والتحقق.

٢. الحيلولة دون تعرض تلك الشجرة أو النبتة للانحرافات والآفات، وذلك عندما تتجه القوى الباطنية صوب الوجهه المخالفه لسعادتها، وتسلك طريقاً ينافى تكاملها.

ومن هنا فإنّ مسؤوليه البستاني ووظيفته ليست هى الإنماء بل هى المراقبه وتوفير الظروف اللازمه لتهيئاً لتلك الشجرة والنبتة أن تُبرز كمالها الباطنى.

لقد خلق الله سبحانه البشر وأودع فى كيانه طاقات متنوّعه، وغرائز كثيره، وعجن فطرته وجبلته بالتوحيد، وحبّ معرفه الله، وحبّ الحقّ والخير، والعدل والإنصاف، كما وأودع فيه غريزه السعى والعمل.

وعندما تبدأ خمائر هذه الأمور وبدورها الصالحه المودعه بالعمل والتفاعل فى كيان الإنسان تتعرض فى الجو الاجتماعى لبعض الانحرافات بصوره قهريه، فغريزه العمل والسعى تتخذ شيئاً فشيئاً صفه الحرص والطمع، وغريزه حبّ السعاده والبقاء تتخذ صوره الأنانيه، وحبّ الجاه والمنصب، ويتجلّى نور التوحيد والإيمان فى لباس الوثنيه وعباده الأصنام.

فى هذه الحاله يعمل سفراء الله إلى البشرى: (الأنبياء والرسل) على تهيئه أجواء الرّشد والنموّ الصحيح لتلك الغرائز وتلك القوى والطاقات على ضوء الوحي، والبرامج الصحيحه المستلهمه من ذلك المنبع الإلهى الهادى، ويقومون بالتالى بتعديل انحرافات الغرائز، والوقوف دون تجاوزها حدودها المعقوله المطلوبه.

ولقد قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى مامرّ من كلامه: إن الله أخذ - فى مبدأ الخلق - ميثاقاً يدعى «ميثاق الفطره».

فما هو ترى المقصود من ميثاق الفطره هذا؟

إنَّ المقصود من هذا الميثاق هو: أنَّ الله تعالى بخلقه وإيداعه الغرائز المفيده في الكيان الإنساني، وبمزج الفطره البشريه بعشرات الأخلاق الطيبه والسجايا الصالحه يكون قد أخذ من الإنسان ميثاقاً فطرياً بأن يتبع خصال الخير، ويأخذ بالغرائز الطيبه الصالحه.

فإذا كان منح جهاز البصر (العين) للإنسان هو نوع من أخذ الميثاق من الإنسان بأن يتجنّب المزالق، ولا يقع في البثر، فكذلك إيداع حسّ التدبّر، وغريزه الانجذاب إلى الله، وحبّ العدل، في كيانه هو الآخر نوع من أخذ الميثاق منه بأن يظل مؤمناً بالله، موحداً إياه، عادلاً، منصفاً محباً للخير والحقّ.

وإنّ وظيفه الأنبياء هي أن يحملوا الناس على العمل بمقتضى ميثاق الفطره، وبالتالي فإنّ مهمّتهم الأساسيه الحقيقيه هي تمزيق أغشيه الجهل وتبديد سحب الغفله التي قد تغلب على جوهره الفطره المطعمه بنور الإيمان، فتمنعها من الإشراق على وجود الإنسان، وتحرم الإنسان من هدايتها.

ومن هنا قالوا: إنّ أساس الشرائع الإلهيه يتألف من الأمور الفطريه، التي فُطر الإنسان عليها.

وكأنّ صرح الكيان الإنساني (جَبَلٌ) اختفت بين ثنايا صخوره وفي بطونه أحجار كريمه كثيره ومعادن ذهبيه ثمينه، فالوجود الإنساني هو الآخر قد أودعت فيه فضائل وعلوم، ومعارف وخصال، وأخلاق متنوّعه. فعندما يغورُ الأنبياء والمهندسون الروحانيون في أعماق نفوسنا وذواتنا وهم يعلمون جيّداً أنّ نفوسنا معجونه بطائفه من الصفات والسجايا النبيله والمشاعر والأحاسيس الطيبه، ويعملون على إعادته نفوسنا - بتعاليم الدين وبرامجه - إلى جاده

الفطره المستقيمه السليمه، فإنهم فى الحقيقه يذكروننا بأحكام فطرتنا، ويُسمعوننا نداء ضمائرنا، ويلفتونها إلى الصفات، وإلى الشخصيه المودعه فيها.

تلك هى رساله الأنبياء، وذلك هو عملهم الأساسى، وهذا هو دورهم فى إصلاح النوع الإنسانى، أفراداً وجماعات.

أمين قريش فى غار حراء

يقع جبل «حراء» فى شمال «مكه» ويستغرق الصعود إلى غار حراء مده نصف ساعه تقريباً.

ويتألف ظاهر هذا الجبل من قطع صخريه سوداء، لا يُرى فيها أى أثر للحياه أبداً.

ويوجد فى النقطه الشماليه من هذا الجبل غار يمكن للمرء أن يصل إليه ولكن عبر تلك الصخور، ويرتفع سقف هذا الغار قامه رجل، وبينما تضىء الشمس قسماً منه، تغرق نواح أخرى منه فى ظلمه دائمه.

ولكن هذا الغار يحمل فى رحابه ذكريات كثيره عن صاحب له طالما تردّد عليه، وقضى ساعات بل وأياماً وأشهرات فى رحابه... ذكريات يشتااق الناس - وحتى هذه الساعه - إلى سماعها من ذلك الغار، ولذلك تجدهم يسارعون إلى لقائه كلما زاروا تلك الديار، متحمّلين فى هذا السبيل كلّ عناء، للوصول إلى رحابه، لكى يستفسروا منه عمّا جرى فيه عند وقوع حادثه: «الوحى» العظيمه، وليسألونه عمّا تحتفظ به ذاكرته من تاريخ رسول الإنسانيه الأ-كبر ممّا جرت حوادثه فى ذلك المكان التاريخى، العجيب.

ويتحدّث ذلك الغار هو الآخر إليهم بلسان الحال ويقول: هاهنا المكان الذى كان يتعبّد فيه عزيز قريش وفتاها الصادق الأمين.

وهاهنا قضى ليالى وأياماً عديده وطويله قبل أن يبلغ مرتبه الرساله، فى عباده الله، والتأمل فى الكون، وفى آثار قدره الله وعظمته.

أجل، لقد اختار محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ذلك المكان البعيد عن ضجيج الحياه، للعباده والتحنّث، فكان يمضى جميع الأيام من شهر رمضان فيه، وربّما لجأ إليه فى غير هذا الشهر أحياناً أخرى، إلى درجه أنّ زوجته الوفيه كانت إذا لم يرجع إلى منزلها، تعرف أنّه قد ذهب إلى «غار حراء» وأنّه هناك مشغول بالعباده والتحنّث والاعتكاف، وكانت كلّما أرسلت إليه أحداً وجده فى ذلك المكان مستغرقاً فى التأمل والتفكير، أو مشغولاً بالعباده والتحنّث.

لقد كان صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يبلغ مقام النبوه، ويبيّث بالرساله يفكر - أكثر شىء - فى أمرين:

١ - كان يفكر فى ملكوت السماوات والأرض، ويرى فى ملامح كلّ واحد من الكائنات التى يشاهدها نور الخالق العظيم، وقدرته، وعظمته وعلمه، وقد كانت تفتح عليه من هذا السبيل نوافذ من الغيب تحمل إلى قلبه وعقله النور الإلهى المقدّس. ٢. كان يفكر فى المسؤوليه الثقيله التى ستوضع على كاهله.

إنّ اصلاح المجتمع فى ذلك اليوم على ما كان عليه من فساد عريق وانحطاط عريض، لم يكن فى نظره وتقديره بالأمر المحال الممتنع. ولكن تطبيق مثل هذا البرنامج الإصلاحى لم يكن فى نفس الوقت أمراً خالياً من العناء والمشاكل، من هنا كان يفكر طويلاً فى الفساد فى حياه المجتمع المكى وما يراه من ترف قريش، وكيفيه رفع كلّ ذلك وإصلاحه.

لقد كان صلى الله عليه وآله وسلم حزيناً لما يرى فى قومه من فساد العقيده المتمثّل فى الخضوع للأوثان الجامده، والعباده للأصنام الخاويه الباطله، ولطالما شوهدت آثار ذلك

الحزن على محيِّاه، وملامح وجهه الشريف، ولكن لَمَّا لم يكن مأذوناً بالإفصاح بالحقائق، لذلك كان يتجنَّب ردع الناس عن تلك المفسد، ومنعهم عن تلك الانحرافات.

بدء الوحي

لقد أمر الله ملكاً من ملائكته بأن ينزل على أمين قريش وهو في غار حراء ويتلو على مسمعه بضع آيات كبدايه لكتاب الهدايه والسعاده، معلناً بذلك تتويجه بالنبؤه، ونصبه لمقام الرساله.

كان ذلك المَلَك «جبرئيل»، وكان ذلك اليوم هو يوم المبعث النبوي الشريف الذي سنتحدّث عن تاريخه في المستقبل.

ولا ريب أنّ ملاقاه المَلَك ومواجهته أمرٌ كان يحتاج إلى تهيؤ خاص، ولو لم يكن محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يمتلك روحاً عظيمه، ونفسيه قويه، لم يكن قادراً قط على تحمّل ثقل النبؤه، وملاقاه ذلك الملك العظيم.

أجل لقد كان «أمين قريش» يمتلك تلك الروح الكبرى، وتلك النفس العظيمه وقد اكتسبها عن طريق العبادات الطويله، والتأمل العميق الدائم، إلى جانب العنايه الإلهيه.

ولقد روى أصحاب السير والتاريخ أنه رأى رؤىً عديده قبل البعثه كانت تكشف عن واقع بيّن واضح وضوح النهار(1).

ولقد كانت ألدّ الساعات وأحبها عنده بعد كلّ فتره، تلك الساعات التي يخلو فيها بنفسه، ويتعبّد فيها بعيداً عن الناس.

ص: ٣٦٣

١- . لاحظ: صحيح البخارى: ١/٢٢، كتاب العلم؛ بحار الأنوار: ١٨/١٩٤.

ولقد قضى على هذا الحال مدّه طويله حتّى أتاه - فى يوم معيّن - ملكٌ عظيم بلوح نصّبهُ أمامه وقال له: «إقرأ»، وحيث إنّهُ صلى الله عليه وآله وسلم كان أمياً لم يدرس أجاب الملك بقوله: «ما أنا بقارئ».

وتكرّر هذا العمل مرّات أحسّ بعدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى نفسه أنّه قادر على قراءه ما فى ذلك اللوح، فقرأ ساعتها تلك الآيات الّتى تشكّل - فى الحقيقة - ديباجه كتاب السعاده البشريه، وأساس رقيها.

لقد قرأ صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى:

«إِقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». (١)

وبعد أن انتهى جبرئيل من أداء مهمته الّتى كلّف بها من جانب الله تعالى، وبلغ إلى النّبىّ تلكم الآيات الخمس، انحدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جبل حراء، وتوجّه نحو منزل خديجه. (٢)

ولقد أوضحت الآيات المذكوره برنامج النّبىّ صلى الله عليه وآله وسلم إجمالاً، وبيّنت وبشكل واضح أنّ أساس الدين يقوم على القراءه والكتابه، والعلم والمعرفه، واستخدام القلم.

ظاهره القضايا الغيبية فى رأى الماديين

لقد تسبّب التقدّم العظيم والمتزايد الّذى تحقّق فى ميدان العلوم الطبيعیه فى سلب الكثير من العلماء القدره على فهم وإدراك القضايا المعنويه والخارجيه عن إطار العلوم الطبيعیه، وبالتالي أدى إلى تحديد وتضييق آفاق الفكر عندهم.

ص: ٣٦٤

١- . العلق: ١-٥.

٢- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١/١٥٥.

فإذا بهم أصبحوا يتصوّرون أنّ الوجود يتلخّص في هذا الكون المادّي، وأنّه ليس في الوجود من شيء سوى المادّه، وأنّ كل ما لا يمكن تفسيره وتبريره بالقوانين والقواعد المادّيه فهو أمر باطل، ومن نسج الخيال!!

إنّ هذا الفريق - لتسرّعه في إصدار الحكم في الأمور المتعلّقه بالغيب وقضايا ماوراء الطبيعه، وحصر أدوات المعرفه بالحسّ والتجربه - أنكروا عالم الوحي، بحجّه أنّ الحسّ والتجربه لا يقودانهم إلى ذلك العالم، ولا يخبرانهم عن مثل تلك الموجودات، فلكونها بالتالي لا تخضع لمبضع التشريح، ومجهر الإختبار أنكروها بالمّرّه، وكانت النتيجة أنّ أدوات المعرفه المعروفه (الحسّ والتجربه) حيث إنّها لا تهدي إلى عالم ماوراء المادّه فإذن لا وجود خارجي لذلك العالم ولحقائقه أبداً!

إنّ هذا النمط من التفكير نمط ضيق ومحدود جداً، مضافاً إلى أنّه يتسم بالغرور والغطرسه، فهو من باب «استنتاج عدم الوجود من عدم الوجدان» في خطوه متعجّله فحّه!!

فمادامت هذه الحقائق التي يعتقد بها الإلهيون المؤمنون بالله لا يمكن التوصل إليها عن طريق الأدوات الفعلية المتعارفه بينهم للإدراك والمعرفه فهي إذن لا أساس لها من الواقع!!

إنّ العذّي لا شكّ فيه هو: أنّ الماديين لم يدركوا مقالاه العلماء الإلهيين حتّى في مسأله إثبات الصانع الخالق فكيف بالعوالم الأخرى لما فوق الطبيعه، ولو أنّ الفريقين تحاورا في جوّ علمي مناسب، بعيداً عن الأغراض والعصبيّات، لكان من المتوقّع أن تزول الفواصل بين الماديين والإلهيين في أقرب وقت، وأن يرتفع هذا الاختلاف العذّي قسّم العلماء إلى فريقين على طرفي نقيض!؟

لقد أقام المؤمنون الموحّدون عشرات الأدلّه والبراهين القاطعه على وجود اللّٰه تعالى، وأثبتوا بأنّ هذه العلوم الطبيعيه هي نفسها تقودنا إلى الخالق العالم القادر، وأنّ هذا النظام العجيب السائد في ظواهر الكائنات الطبيعيه وبواطنها لدليل قاطع، وبرهان ساطع على وجود مبدع لهذا النظام، وأنّ جميع أجزاء هذا الكون المادّي، من ذرّاته إلى مجرّاته، يسير وفق قوانين دقيقه متقنه، ولا تستطيع الطبيعه الصمّاء العمياء أبداً أن تكون مبتكره لهذا النظام البديع، ومبدعه لهذا الترتيب الدقيق.

وهذا هو بنفسه برهان «نظام الوجود» أو (برهان النظم) الذي ألف العلماء الإلهيّون الموحّدون حوله عشرات الكتب والدراسات.

وحيث إنّ برهان النظم هذا ممّا يفهمه جميع الناس على مختلف مراتبهم ومداركهم، لذلك ركّزت عليه الكتب الاعتقاديه دون سواه، وسلك كلُّ واحد من العلماء طريقاً معيّناً وخاصّاً لتقريره، وبيانه، كما ودرست الأدلّه والبراهين الأخرى التي لا تتّسم بمثل هذه الشموليّه، في الكتب، والمؤلّفات الفلسفيه والكلاميّه بصوره مفصّله ومبسوطه.

إنّ للعلماء الإلهيّين بيانات وأدلّه في مجال (الروح المجرده)، وعوالم ما وراء الطبيعه (الميتافيزيقيا) نشير إلى بعضها هنا:

الروح المجرّده

إنّ الاعتقاد بالروح من القضايا ذات الطبيعه الشائكه، وقد استقطبت اهتمام العلماء وشغلت بالهم بشده.

فهناك فريق - ممّن اعتاد أن يُخضَع كلُّ شيء لمبضع التشريح - ينكر وجود الروح، ويكتفي بالاعتقاد بالنفس ذات الطابع المادّي، والعامله ضمن نطاق القوانين الطبيعيه فقط.

ووجود «الروح» والنفس غير المادّيه (أى المجزّده المستقلّه عن المادّه) من القضايا التي عُولجت ودُرست من قِبَل المؤمنين بالله، والمعتقدين بالعالم الروحاني، بصورة دقيقة، وعميقه.

فهم أقاموا شواهدَ عديدةً على وجود هذا الكائن (غير المادّي) وهي أدلّه وبراهين لو تمّ التعرّف عليها ومناقشتها في جوّ علمي هادئ مع الأخذ بنظر الاعتبار ما يقوم عليه منطق الإلهيّين - في هذا المجال - من قواعد وأسس، لأدّى ذلك إلى التصديق الكامل بها.

على أنّ ما يقوله الإلهيّون في مجالات أُخرى مشابهه مثل: (الملائكه) و (الوحي) و (الإلهام) يقوم هو الآخر على الأساس العذّي شيدوه ومهدوه وبرهنوا عليه قبل ذلك بالأدلّه المحكمه، المتقنه(1).

ظاهرة الوحي عند الماديين

يُعتبر الاعتقاد بالوحي أساساً لجميع الرسالات، والأديان السماويه، وتقوم هذه الظاهره (ظاهره الوحي) على أنّ العذّي يوحى إليه يمتلك روحاً قويّه تقدر على تلقّي المعارف الإلهيّه من دون واسطه، أو بواسطه ملك من الملائكه.

ويلخّص العلماء المختصّون تعريفهم للوحي على النحو التالي: «الوحيّ تعليمه تعالى من اضيظفاه من عباده كلّ ما أراد اطلّاعه عليه من ألوان الهدايه والعلم ولكن بطريقه خفيّه غير مُعتاده للبشر».

ولكنّ الماديين - كما قلنا - لم يستطيعوا هضم هذه الحقيقه، وإدراك هذه الظاهره على حالها، وصورتها الغيبيه بسبب ما ذكرناه من منهجهم ونظرتهم إلى

ص: ٣٤٧

١- . جاء تفصيل هذه البراهين والأدلّه في الكتب الفلسفيه مثل: «الإشارات» و «الأسفار». وقد أشرنا إلى بعض هذه الأدلّه في كتاب (الله خالق الكون)، فراجع.

الأُمور والكائنات فذهبوا في تفسير ظاهره الوحي - التي هي كما أسلفنا من قضايا الغيب ومن عوالم ما فوق الطبيعه - مذاهب مختلفه ترجع برمتها إلى الرؤيه الماديه للوجود.

وإليك أبرز هذه التفاسير الماديه لظاهره الوحي الغيبه:

أبرز النظريات الماديه لظاهره الوحي

١. قالوا: الوحي هي القدره الفكرية، والنفسيه والعقليه التي تحصل للإنسان بسبب التمرينات والرياضات الروحيه التي على أثرها تنفتح عليه أبواب من الغيب، فيخبر عن أمور طالما تتفق مع الواقع على نحو ما يحصل للمرتاضين الهنود. (١)

فالأنبياء بسبب اعتزالهم للمجتمع - على غرار ما يفعل المرتاضون - وإقبالهم على الرياضات الروحيه تحصل لهم المقدره على الإخبار بالغايبات، والكائنات الخفيه على غيرهم.

والجواب على هذه النظرية هو:

أولاً: أن دراسته حالات المرتاضين تكشف لنا عن أنهم طالما يخطأون في إخباراتهم أخطاء فاضحه، بينما لم يُعَيِّد من نبي أنه أخطأ في إخباراته، وإنباءاته.

وثانياً: أن ما يفعله المرتاضون لا ينطوي على أيه أهداف إصلاحيه عليا للمجتمع البشري، بل غايه همهم هو: عرض الأفعال العجيبه على الناس وربما تسليه المتفرجين، بينما يهدف الأنبياء إلى إصلاح المجتمعات البشريه وقيادتها إلى ذرى الكمال والتقدم.

ص: ٣٤٨

١- . وهم الذين يمارسون رياضه اليوغا.

وثالثاً: أنّ المرتاضين لا يثقون بما يخبرون به، كما لم يُعرَف إلى الآن أنّ أحداً منهم قدّم للمجتمع البشرى برامج كامله وشامله للحياه البشريه الفرديه والاجتماعيه، بينما نجد الأنبياء يخبرون الناس بما أمروا به وهم على إيمان كامل، ويقين ثابت منه، هذا إلى جانب أنّهم يحملون إلى البشريه برامج اجتماعيه وحيويه جامعاه الأطراف، كامله الأبعاد، رفيعه الأهداف، عميقه الغايات، ترجع إليها كلُّ فضيله وكلّ خير عرفته المجتمعات إلى الآن.

ورابعاً: أنّ أعمال المرتاضين وما تحصيلُ لهم من قوى وتفتح عليهم من آفاق، محدوده، بينما لا تقف طاقاتُ الأنبياء وآفاق علومهم، وأبعاد أعمالهم عند حدّ.

فلا يمكن أبداً تفسير وتعليل ظاهره (الوحي) وما يحصل للرسل والأنبياء على أثره من أمور تتخطى حدود العالم المادى المحدود، بالرياضه الروحيه التي يمارسها المرتاضون وما يحصل لهم على إثرها من أمور.

٢ - قالوا: إنّ (الوحي) نوعٌ من النبوغ، أو أنه ناشئ من النبوغ، وأنّ الأنبياء هم نوابغ اجتماعيون لا أكثر.

وقد شرحوا نظريتهم هذه قائلين: بأنّ نظام الخلقه قد ربّى في أحضانه نوابغ صالحين، اهتمدوا بفعل نبوغهم الفكرى الرفيع إلى أفكار وقيم رفيعه ودعوا مجتمعاتهم إلى الأخذ بها، والسير على هديها، لتحقيق الخير والعداله، فكان لهم بذلك أكبر نصيب فى إرشاد البشريه إلى سعادتها، فكلّ ما طرحوه من أفكار، وكلّ ما عرضه على تلك المجتمعات باسم الدين أوالقانون ليست - فى الحقيقه - سوى نتيجه ما تمتّعوا به من نبوغ، وفكر خارق، ولا علاقه له بعالم آخر غير هذا العالم المادى المألوف.

وقالوا: وإن مما يساعد على تقوية هذا النبوغ أمور أبرزها:

الحُبُّ، التعرُّضُ للظلم الطويل، الطفوله وما يكتنفها من ضعف وعجز، الوحده، السكوت، التربية الأولى، والعيش في صورهِ الأقلّيه وما يرافقها من ظروف إجتماعيه غير مؤاتيه.

فإنّ جميع هذه الأمور أو بعضها تدفع بالشخص إلى الإنطوائيه، والتفكير والتأمل، للاهتمام إلى مخرج من المشاكل والصعوبات، ومخلص من الظروف الصعبه، والأحوال الشاقّه.

ويُجاب عن هذه النظرية بأنّ أصحابها حكموا على هذه القضية على أساس موقف اتّخذوه سَلِفاً فهُم حَصَرُوا الأشياء في المادّه والأُمور المادّيه ثم فسّروا ما يرتبط بعالم الغيب بذلك، فجاء تفسيرهم لهذه الظاهره الغيبيه تفسيراً مادّياً، غفله منهم عن أنّ مثل هذا التفسير والتعليل لا- يليق بظاهره (الوحى) الّتي تجسد أعلى قضيه في سلّم الحقائق العلميه والفلسفيه، ويرجع إليها أعظم القوانين والبرامج للسعاده البشريه.

نحن لا- ننكر أنّ لما ذكروه من العوامل تأثيراً في تقويهِ عمليه «التفكير» لدى الإنسان إلى درجه إيجاد ما يُسمّى بظاهره النبوغ لديه، إلّا أنّه لا يمكن أن يوجد مثل هذا الأمر نبياً خضعت جميع النوابع البشريه لعظمه تعاليمه الّتي أتى بها طوال أربعه عشر قرناً.

نبياً لم يزل ما جاء به من معارف عقليه وفلسفيه، وقوانين ترتبط بعالم الطبيعه وبالنظام الاجتماعى وآداب السلوك تحافظ على قوّتها، وعمقها، وأصالتها، ولمعانها كلّ المحافظه رغم كلّ ما أحرزه البشر في ضوء نشاطه الفكرى والعقلى من تقدّم، فى المعارف والعلوم.

هذا مضافاً إلى أن نسبه هؤلاء الأنبياء جميع ما عرضه على المجتمعات البشرية إلى العالم الآخر وإصرارهم على أنها من جانب الله تعالى وليست من نسيج أفكارهم يناقض نظريه هذه الطائفة، التي تفسر النبوه بالنبوغ.

لنقرأ معاً الآيه التي يقول الله تعالى فيها حاكياً عن رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

«إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ». (١)

أو يقول سبحانه:

«إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ». (٢)

٣. يقولون: إن الوحي هو ظهور الشخيه الكامن في النبي وإيحاؤها لما ينفعه وينفع قومه المعاصرين له، إليه.

وربما قالوا: إن معلومات «محمد» وأفكاره وآماله ولدت لديه إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفيه على مخيلته الساميه، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلاً أمامه وهو يتلو على سمعه ما حدث به بعد ذلك.

وتوضيح هذه النظرية هو: أن لكل إنسان شخصيتين:

١. الشخيه الظاهره العاديه وهي التي تخضع للحواس الخمس وتعمل بها.

٢. الشخيه الباطنيه وهي التي تعمل عندما تتعطل الحواس، ويتعطل الشعور الظاهري.

وهذه الشخيه هي التي تحرك جميع أعضاء الجسم الإنساني التي لا تخضع لإرادته كالكبد، والقلب، والمعدة وغيرها، كما أنها هي مصدر الكثير من الإلهامات الطبيه في الظروف الحرجه.

ص: ٣٧١

١- . الأنعام: ٥٠.

٢- . النجم: ٤.

ثم قالوا: وهذه الشخصية الباطنية قد أصبحت مدرّكه بالحس، فإنّ المنوّم مغناطيسياً يظهر بمظهر العقل الراجح، والفكر الثاقب والنظر البعيد، ويقوم بما لا يقوم به في حالته العاديه.

وقد انتهى هؤلاء المادّيون من خلال تحقيقاتهم وتجاربهم إلى: أنّ شخصيه الإنسان الباطنيه أرقى من شخصيته العاديه، وإنّ ما يتوصّل إليه الإنسان من أفكار عاليه رفيه جداً، وما قد يتمتّع به من روح قويه هو من مظاهر هذه الشخصيه وفعاليتها.

فقالوا: وإنّ هذه الشخصيه هي التي تنفث في روح الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله، وقد تظهر لهم متجسده فيحسبونها من ملائكه الله هبطت عليهم من السماء!!!

فالوحي عند هؤلاء الباحثين في الروح على الأسلوب التجريبي لا يكون بنزول ملك من السماء على الرسول فيبلغه كلاماً عن الله، بل يكون في تجلّي روح الإنسان عليه بواسطه شخصيته الباطنه فتعلّمه ما لم يكن يعلم، وتهديه إلى خير الطرق لهدايه نفسه وترقيه أُمته. (1)

ولكنّ هذه النظرية هي الأخرى تنبع من الغرور العلميّ الذي أصاب هذا النمط من العلماء الذين يحاولون تفسير كلّ ظواهر هذا العالم بالتفسير المادّي، وهو لا شكّ ينشأ من علمهم المحدود القاصر عن إدراك حقائق الوجود.

إنّنا لا نشكّ في وجود ما يُسمّى بالشخصيه الباطنيه لدى الإنسان فهو ممّا سبق إلى كشفه والتنويه عليه الفلاسفه الإسلاميون من قبل، ولكن كيف وعلى أيّ أساس حقّ لهؤلاء أن يفسّروا ظاهره (الوحي الإلهي) والنبوّه بهذا الأمر؟

ص: ٣٧٢

١- . دائره معارف القرن العشرين لفريد وجدى: ١٠/٧١٩، مادّه «وحي».

وثانياً: أن تجلّى الشخصيه قَلَمًا يحدث في الأشخاص الأصحاء، بل هو يحدث في الأغلب عند المتعبين القلقين، والسكرارى، والمصابين بالهزيمه والنكسه، لأن نافذه (اللأ وعى) عند غيرهم من الأصحاء تنسد بسبب اشتغالهم الشديد بقضايا الحياه اليوميه وهمومها، ولا- يبقى للشخصيه الباطنيه مجال للنشاط والفعاليه، كما هو العكس عند المتعبين والسكرارى والمرضى الذين يقلّ اهتمامهم بالحياه اليوميه فيتترك (الوعى) مكانه للآوعى، وتترك الشخصيه الظاهريه المعطله مكانها للشخصيه الباطنيه.

ولذلك نجد بين آلاف العلماء والمفكرين مفكراً أو عالماً واحد اتفق له في بدايه عمره أن اهتدى بصوره لا شعوريه إلى فكره خاصه أونظريه معينه من دون سابق تفكير أو استدلال قائم على الشعور.

وخلاصه القول: إن تجلّى الشخصيه الباطنيه فى الحياه الإنسانيه قضيه نادره جداً، وهى لا- تحدث إلأفى ظروف خاصه مثل: المنامات والأحلام وغيرها من التحوّلات الحياتيه التى تقلّل من توجه الإنسان إلى العالم الخارجى وتصرف التفاته وتوجّهه إلى الشخصيه الباطنيه.

ولكن هذه الحاله وهذه الشرائط (أى الغفله عن هموم الحياه اليوميه الخارجيه) لم تحصل للأنبيا قط.

فالنبى الأ-كرم محمّد صلى الله عليه و آله و سلم كان طوال (٢٣ سنه) وهى أعوام الرساله، مشتغلاً كلّ الاشتغال بقضايا الحياه اليوميه، فالنشاطات السياسيه، والتبليغيه وقضايا الدعوه والقياده كانت تهيمن على كلّ توجهه واهتمامه، وتملاً عقله وروحه ونفسه.

فالكثير من آيات الجهاد ترتبط بساحات القتال والجهاد، وهذا يعنى أنه كان

مشدوداً بروحه وعقله كلّه إلى تلك الأمور.

وثالثاً: أنّ هذه النظرية يمكن أن تصدق على نبوّ الأنبياء لو كان هؤلاء الأنبياء أفراداً متعيين، منهزمين، متتكسين، مرضى، معتزلين عن الحياة ليقال حينئذ إنّ هذه الحالات والظروف مهّدت لانقطاعهم عليهم السلام عن هموم الحياة، وقضاياها، وبالتالي مهّدت لفعاليه الشخصيه الباطنيه وعملها.

ولكن تاريخ الأنبياء يشهد بوضوح لا-إبهام فيه، بأنهم كانوا - طيله حياتهم الرساليه - رجالاً مجاهدين، لا يهتمهم إلا إصلاح المجتمعات وقياده الجماعات وحلّ المشكلات الاجتماعيه، ورفع مستويات الناس معنوياً وفكرياً، وكانوا يعملون لتحقيق هذه الأهداف ليل نهار، بلا سأم ولا ملل، ولا تعب ولا نصب.

فكيف يمكن القول والحال هذه بأنّ الشخصيه الباطنيه تجلّت لديهم وأوحت إليهم بحقائق وقيم وأفكار؟

إنّ تفسير (الوحي الإلهي) الذي يُلقى إلى الأنبياء ويكشف لهم عن أدقّ الحقائق وأرفعها، وأعظم المناهج وأكملها، بتجلّي الشخصيه الباطنيه، ناشئ من اعتقاد هذا الفريق من العلماء بأصالة المادّه، أو بعبارة أُخرى: حصر الوجود في المادّه، ومن هنا حاولوا إلباس كلّ شيء - حتّى الأمور المعنويه والغيبيه - اللباس المادّي، وأغلقوا على أنفسهم باب عوالم الغيب، وعمدوا إلى التفتيش عن علّه مادّيه حتّى لظاهره (الوحي) التي لا تُقاس بمقاييس العالم المادّي.

هذا مضافاً إلى أنّ تفسير (الوحي الإلهي) عن طريق نظريه تجلّي الشخصيه الباطنيه، وخاصّه في شأن رسول الإسلام «محمّد» صلى الله عليه وآله وسلم يواجه إشكالات ومؤاخذات أُخرى تجعل هذه النظرية في عداد الأساطير!!

وإنّ أبرز هذه الإشكالات الوارده على هذه النظرية في مجال رسول

الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم هي: أن هذه النظرية ليست رأياً جديداً وتهمه جديده توجه إلى نبوه رسول الإسلام.

فإن نظريه «الشخصيه الباطنيه، والوحي النفسى الذاتى» هي نظريه متبلوره ومتقدمه لتهمه (الجنون والصّرع) التي كان يرمى بها العربُ الجاهليّون رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم!!

فقد كان المشركون فى بدء الدعوه يقولون: إنّ ما يقوله «محمّد» وما يتكلّم به ليس إلّا أفكاره القلقه المضطربه الناشئه عن خياله، وأنّ القرآن هي تلك الأفكار المضطربه التي تسرّبت إلى فضاء عقله من دون إرادته منه ولا اختيار!!

لنستمع إلى القرآن الكريم وهو ينقل عنهم هذا الاتّهام:

«بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ» (١).

ولكنّ القرآن الكريم يردّ على هذه المزعمه الواهيه بقوله:

«وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ» (٢).

إنّ القرآن الكريم يشجب - فى هذه الآيات المنتظمه انتظاماً رائعاً وبديعاً - هذه المزعمه (أى مقوله أنّ القرآن وليد الخيال لدى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم)، ويردّ الأمر إلى الوحي الإلهي، والتوجيه الربانيّ العلويّ.

إنّ نظريه الوحي النفسى وتجلّى الشخصيه الباطنيه التي طلع بها المادّيون فى عصرنا ما هي فى الحقيقه إلّا غطاء لمزعمه المشركين وتهمه الجنون والخيال، التي سبق أن رمى بها أعداء الرساله الإسلاميه ومعارضوها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تلك التهمه التي

ص: ٣٧٥

١- . الأنبياء: ٥.

٢- . النجم: ١-٥.

يذكرها القرآن الكريم بقوله:

«وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» (١).

وهي تهمة كان يوجهها المعارضون دائماً إلى المصلحين وأصحاب الرسالات (٢)، وقد اتخذت هذه التهمة صبغه علميه جديده، وتبلورت في نظريه:

«الوحي النفسى، وتجلّى الشخصيه الباطنيه». إنّ القرآن الكريم يردّ على هذه المزاعم والتصوّرات الباطله حول عمليه الوحي ومسأله النبوه ويرد على نسبه الكهانه وماشابه ذلك كالخبر المنقول عن أهل السير بمحاولة إلقاء النبى نفسه من شاهق فى بدايه الوحي الذى يشبه نسبه الجنون إليه صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقول تعالى:

«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَ مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَ لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ * وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» (٣). بهذا البيان تبين بطلان هذا التفسير وجميع التفاسير الأخرى التى تحاول إعطاء (الوحي) طابعاً مادياً مألوفاً، شأنه شأن غيره من الظواهر الغيبية، ونحن استكمالاً لهذا البحث نشير إلى ما هو الحقُّ فى هذا المجال، ممّا يؤيد الواقع والعقل والدين:

ص: ٣٧٦

- ١- الحجر: ٦، وأيضاً راجع الآيات التاليه: سبأ: ٨، الصافات: ٣٦، الدخان: ١٤، الطور: ٢٩، القلم: ٢، التكوير: ٢٢.
- ٢- إذ يقول القرآن فى هذا الصدد: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَ تَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ» (الذاريات: ٥٢ و ٥٣).
- ٣- التكوير: ٢٠-٢٨.

لا شك أنّ حياه كلّ فرد من أفراد الإنسان تبدأ من «الجهل» ثم يأخذ الإنسان بالدخول في مجال العلم شيئاً فشيئاً، إلى أن تنفتح عليه بالتدرّج نوافذ على الواقع الخارج عن ذهنه.

فيبدأ الإنسان بالتعرّف على الحقائق عن طريق الحواسّ الظاهريه، ثم على أثر التكامل في جهازه العقليّ والفكري يهتدى إلى الحقائق الخارجه عن مجال الحسّ واللمس، فيغدو عقلاً استدلاليّاً، ويقف على طائفه من الحقائق الكليه والقوانين العلميه.

وربّما يظهر بين أفراد النوع الإنساني أصحاب نفوس عاليه يقفون عن طريق الإلهام ومن خلال بصيره خاصّه على حقائق وأُمور لا يُهتدى إليها حتّى عن طريق الاستدلال والبرهنه!

ومن هنا قسّم العلماء إدراك البشر إلى ثلاثه أنواع: «إدراك العامه»، «إدراك المفكرين وأرباب الاستدلال»، «إدراك العرفاء وأصحاب البصائر والنفوس الكبرى».

وكأنّ أصحاب الظاهر يستعينون على اكتشاف الحقيقه بالحسّ، والمفكرين يستعينون بالاستدلال والبرهنه، وأصحاب البصائر والمعرفه بالإلهام والإشراق وبالفيض عليهم من العالم الأعلى.

إنّ النوايح في مجال الأخلاق، وإنّ عقول العلماء الخلاقه، وأفكار الفلاسفه العظيمه كلّها تؤيّد وتشهد بأنّ ما يحصلون عليه، وما يطلعون به على المجتمع البشري ممّا لم يعرفوه من قبل ما هي إلّا شرارات مضيئه وملهمه تخطر لهم، ثم يعمدون إلى تنميتها وبلورتها بالتجربه، أو بالاستدلال والبرهنه والتأمّل.

قنوات المعرفة الثالث

من هذا الكلام نستنتج أنّ أمام بنى البشر ثلاث طرق للوصول إلى مقاصدهم؛ فالطريق الأول يستفيد منه جماهير الناس غالباً، بينما يستفيد طائفة خاصه منهم من الطريق الثانى، ولا يستفيد من الطريق الثالث إلا أفراد معدودون قلة تكاملت عقولهم، وتسامت أرواحهم. وهى كالتالى:

١ - الطريق التجريبي والحسى، والمقصود منه ذلك القسم من الإدراكات والمعلومات الواردة إلى محيط الذهن البشرى عن طريق الحواس الظاهرية كالمرئيات، والمشموحات والمطعمومات وغيرها ممّا يستقرّ فى محيط إدراكنا بواسطة الأجهزة المختصّه بها.

وقد استطاع البشر اليوم، وبفضل اختراع التلسكوبات والميكروسكوبات وأجهزه التلفاز والراديو أن يقدم خدمه كبرى للبشرية فى مجال الإدراكات الحسية ويمهّد لمزيد من سيطرتها على البعيد والقريب.

٢ - الطريقُ التعقلى الإستدلالي: فإنّ المفكرين يتوصّلون إلى كشف طائفه من القوانين الكليّه الخارجه عن الحسّ عن طريق عمليه التفكير والتأمّل وتشغيل جهاز العقل، وإقامه سلسله من المقدمات البديهيه الواضحه، وبذلك يمكن الوصول إلى قمم المعرفة والكمال العلمى.

إنّ انكشاف القوانين العلميه الكليه، والمسائل الفلسفيه، والمعارف المرتبطه بصفات الله وأفعاله سبحانه والقضايا المطروحه فى علم العقيدة والأديان ناشئ برمته من جهاز العقل، وحركته، وناتج من عمليه التفكير، والإستدلال المذكوره.

٣ - طريق الإلهام: وهذا هو الطريق الثالث لمعرفة الحقائق، وهو فوق نطاق

إنّه نوعٌ جديدٌ من المعرفة ونمطٌ متميّزٌ من إدراك الحقائق، ليس محالاً - من وجهه نظر العلم وإن كان يصعبُ على أصحاب الإتجاه المادّي القبول به لكونه طريقاً غير حسّي ولا تعقلي.

وأما من جهه الأصول العلميّه فلا مجال لإنكاره، ولا مبررٍ لعدّه من المحالات.

إنّ طريق التعرّف على حقائق الكون الخارج عن الذهن - في منهج المادّيين، وأصحاب النزعه المادّيه - ينحصر في قناتين لا أكثر، وهما اللّمدان سبق ذكرهما، في حين أنّ هناك - حسبَ نظره الأديان والشرائع الكبرى وحسب نظره الفلاسفه والعرفاء الإلهيّين - قناه ثالثه أيضاً.

بل إنّ هذا الطريق الثالث - كما أسلفنا في مسأله الوحي - أكثر واقعيه، وأقوى أُسُوساً، وأوسع آفاقاً عند من يدّعون الرساله، والنبوه من جانب الله سبحانه، وإن نفوس أولئك الأشخاص لتبدو أكثر صفاء وطلاوةً بفضل هذا الطريق، وفي ضوء هذه القناه.

وكلّما حصل ارتباط بين الله، وبين فرد من أفراد النوع الإنساني على نحو خاص، أُلقيت الحقائق في وجوده من دون توسيط الحواسّ الظاهريه، وإعمال الفكر، واستخدام جهاز العقل.

وهذا النوع من الإلقاء يسمّى حيناً بالإلهام، وبالإشراق حيناً آخر.

ولكن كلّما نتج من ارتباط الإنسان بما وراء الطبيعه سلسله من التعاليم العامه والأنظمه والبرامج الشامله أُطلق على هذا النوع من الإلقاء عنوان (الوحي)، وسمّي الآتي بها (ملك الوحي) والآخذ لها (نبيّاً).

هذا وقد يوجب الإلهام الثقة والاطمئنان للملهم إليه، ولكنّه لا يمكن أن يكون مبعث الإطمئنان والثقة عند الآخرين. (1)

من هنا اعتبر العلماء «الوحي» الطريقَ المطمئنَّه الوحيدَه إلى المعرفة العامّة...

الوحي الذي ينزل على الأنبياء الذين ثبتت نبوتهم بالدلائل القاطعه، من المعجزه وغيرها.

أنواع الوحي وأصنافه

إنّ في مقدور الروح الإنسانيه بسبب ما تملك من كمالات أن تتصل بالعوالم الروحانيه من الطرق المختلفه، ونحن هنا نشير إلى هذه الطرق التي جاء ذكرها في أحاديث قاده الإسلام وأئمته، باختصار:

١. تارة يتلقّى الحقائق السماويه العليا على نحو الإلهام، فيتخذ ما يتمّ إلقاؤه في النفس عبر هذا الطريق حكم (العلوم البديهيّه) التي لا يتطرّق إليها أي ريب وشك.

٢. وقد يسمع عبارات وكلمات من جسم معيّن (كالجبل والشجره) كسماع موسى عليه السلام كلام الله من الشجره.

٣. وربما تنكشف الحقائق له في عالم الرؤيا انكشاف النهار.

٤. وقد ينزل عليه ملكٌ من جانب الله بكلام خاص.

ص: ٣٨٠

١- . وإئما قلنا «قد» أي يمكن أن يوجب الاطمئنان ولم نقطع بذلك لأنّ مصدر هذه الإلهامات ليست معلومه وواضحه، ولا يمكن الاعتماد على مطلق الواردات القلبيه والفجائيه التي لا تستند إلى أصول معلومه. وبعبارة أخرى: يجب الفصل والتمييز بين الإلهامات الرحمانيه والإلقاءات الشيطانيه بواسطه الموازين العقليه والشرعيه.

وقد نزل القرآن الكريم على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الطريق، وقد صرح القرآن الكريم نفسه بهذا عند قوله تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» (١).

أساطير مختلفة

لقد كتب المؤرخون والكتاب عن حياة كثير من الشخصيات العالميه، وضبطوا كل ما جلّ ودقّ في هذا المجال، وربما تحمّلوا عناء الرحلات الطويله والأسفار الشاقه لتكميل دراساتهم، وكتاباتهم.

غير أنّ التاريخ لا يعرف شخصيه مثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضبطت تفاصيل سيرته الدقيقه، واهتم أتباعه وأصحابه ومحبه بكلّ شاره ووارده في حياته الشريفه.

إنّ هذا الولع الشديد بتسجيل كلّ شيء - مهما صغر - من حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته العطره كما ساعد على ضبط جميع الجزئيات والتفاصيل في هذا المجال، تسبّب في بعض الموارد في إصاق بعض الزوائد بحياه النبي الأكرم وشخصيته العظيمه، الطاهره.

ومثل هذا لا يبعد عن المحيّن الجهلاء فكيف بالأعداء الألداء العارفين.

من هنا يتعيّن على كلّ مؤلّف يكتب عن سيره شخصيه من الشخصيات أن لا يغفل عن مبدأ (الحذر والإحتياط) في تحليله لحوادثها، وقضاياها، فلا يغفل عن تقييم كلّ ما جاء حولها من روايات وقصص في ضوء الموازين التاريخيه الدقيقه.

وإليك بقيه ما جرى في واقعه نزول (الوحى) في حراء:

ص: ٣٨١

١- الشعراء: ١٩٣-١٩٥، وقد أُشير في سورة الشورى الآيه ٥١ إلى هذه الطرق الأربع جميعها.

استنارت نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وروحه الكبرى بنور «الوحي» المبارك، وتعلم كل ما ألقى عليه ملك الوحي في ذلك اللقاء العظيم، وانتقشت تلك الآيات الشريفة في صدره حرفاً حرفاً، وكلمه كلمه.

وقد خاطبه نفس ذلك الملك بعد تلاوه تلك الآيات بقوله:

يا محمد... أنت رسول الله... وأنا جبرئيل.

وقيل: إنه صلى الله عليه وآله وسلم سمع هذا النداء عند نزوله من غار حراء وقد اضطرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهذين الحديثين، اضطرب لعظمه المسؤوليه الكبرى التي ألقى على كاهله.

وكان هذا الاضطراب طبيعياً بعض الشيء، وهو لا ينافي بالمرة يقينه صلى الله عليه وآله وسلم وإيمانه بصدق ما أنزل عليه لأن الروح مهما بلغت من العظمه والسمو والقوه والصلابه، ومهما كانت قوه ارتباطها بعالم الغيب، وبالعالم الروحانيه العليا فإنها عندما تواجه لأول مرة ملكاً لم تره من قبل، وذلك في مثل المكان العذى التقى النبي (فوق الجبل) لا بُدَّ أن يحصل لها مثل هذا الاضطراب، ولهذا زال ذلك الاضطراب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ما بعد. ثم إن الاضطراب والتعب الشديد قد تسببا في أن يتوجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت «خديجه» عليها السلام، وعندما دخل بيتها ووجدت على ملامحه آثار الاضطراب والتفكير سألته عن ما جرى له، فحدثها بكل ما سمع ورأى وقصص عليها ما كان من أمر جبرئيل معه، فعظمت «خديجه» عليها السلام أمره، ودعت له، وقالت: إبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً.

ثم إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يشعر بالجهد والتعب قال لزوجته الوفيه

«خديجه»: دثرينى... دثرينى.

فدثرتة، فنام بعض الشىء.

خديجه تذهب إلى ورقه بن نوفل

لقد تحدّثنا فى الصفحات الماضيه عن «ورقه» وقلنا: إنّه كان ممّن تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراه والإنجيل وكان ابن عمّ خديجه.

فعندما سمعت «خديجه» زوجه النّبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ما سمعته منه انطلقت إلى «ورقه» لتخبره بما سمعته من زوجها الكريم، وشرحت له كلّ شىء ممّا جرى له مع جبرئيل.

فقال «ورقه» فى جواب ابنه عمّه: واللّه إنّ ابن عمّك لصادق، وإنّ هذا لبدء نبوّه، وإنّه ليأتيه الناموس الأ-كبر (أى الرساله والنبوّه).^(١)

إنّ ما ذكرناه إلى هنا هو فى الحقيقه ملخّص الروايات التاريخيه المتواتره الّتى وصلت إلينا، والّتى دوّنت فى جميع الكتب.

بيد إنّنا نلاحظ بين ثنايا هذه الحادّثه أموراً لا تتفق مع ما نعرفه عن أنبياء الله ورُسُلِهِ العظام، كما أنّها لا تتفق مع ما قرأناه إلى الآن عن حياه هذا النّبىّ العظيم صلى الله عليه وآله وسلم.

وما سنذكره الآن من هذه الزوائد إمّا يجب اعتباره من قبيل الأساطير التاريخيه، أو أنّ علينا تأويله بنوع من التّأويل.

وإنّا لنعجب قبل كلّ شىء من المفكّر المصرىّ الدكتور «هيكل» كيف سمح لنفسه وهو الّذى تحدّث فى مقدّمه كتابه عن مشكله تسرب الأساطير إلى التاريخ

ص: ٣٨٣

النَّبِيُّ، وَقَالَ: بَأَنَّ هُنَاكَ مِنْ دَسِّ فِي السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، عَنْ عَدَاوَةٍ أَوْ جَهْلِ، بَعْضَ الْأَكَاذِبِ.

ولكنه مع ذلك ينقل هنا أموراً لا أساس لها من الصحة أبداً، في حين أعطى فريق من علماء الشيعة - كالمرحوم الطبرسي - ملاحظات مفيدة في هذا الصعيد.

وإليك في ما يلي بعض هذه الأساطير والقضايا المختلفة، على أنها لم تكن جديده بالإشارة أبداً لولا أن بعض المحبّين الجهلاء، والأعداء الأذكياء ذكروها في كتبهم، وكزروها في دراساتهم:

١. قالوا: إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم عندما دخل منزل خديجه، كان يفكر في نفسه: لعلَّ بصرة خدعه، أو أنه كاهن، أو فيه جنون!!

ولكن لَمَّا قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ بِكَ ذَلِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّكَ تَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، وَتَصِلُ «الرَّحِمَ» اطمأنَّ، وَزَالَ عَنْهُ الشُّكُّ وَالتَّرَدُّدُ، وَأَلْقَى عَلَى «خَدِيجَةَ» نَظْرَ شُكْرٍ وَمُودَةٍ، ثُمَّ طَلَبَ أَنْ يُزَمَّلَ، فَرَمَلَ فَنَامَ!!(١)٢. يقول الطبري وغيره من مؤرّخي السيرة: إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم لَمَّا سَمِعَ نِدَاءَ يَقُولُ: «يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ» أَصَابَهُ خَوْفٌ شَدِيدٌ حَتَّى أَنَّهُ هَمَّ بِأَنْ يَطْرَحَ نَفْسَهُ مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ، فَتَبَدَّى لَهُ (مَلَكُ الْوَحْيِ) وَمَنَعَهُ عَنْ ذَلِكَ!!!

٣ - ثم إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم ذهب ليطوف بالكعبة بعد ذلك اليوم، فرأى «ورقه بن نوفل» وشرح لورقه ما جرى له مع جبرئيل، فقال له ورقه:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكَ لَنَبِيٌّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي جَاءَ مُوسَى وَلْتَكذَّبْتَهُ، وَلْتَوَذَّيْتَهُ وَلْتَخَرَجْتَهُ وَلْتَقَاتَلْتَهُ» فَأَحْسَسَ «مُحَمَّدٌ» بِأَنَّ وَرَقَهُ

ص: ٣٨٤

يصدّقه، فاطمأن. (١).

بُطلان هذه المزاعم

إنّ المدى تتصوّره هو أنّ جميع هذه القصص مختلفه من الأساس، وقد دُسّت في التاريخ والتفسير عن قصدٍ وهدف، أو دخلت فيهما عن غير ذلك.

وذلك:

أولاً: لأننا لتقييم هذه المزاعم يجب أن نلقى نظره فاحصه على تاريخ الأنبياء الماضين وسيرهم.

إنّ القرآن الكريم قصّ علينا قضاياهم، وسيرهم، وقد وردت في هذا المجال روايات وأخبار كثيره.

وإننا لا نجد أيّ أثر لمثل هذه القصص المشينه في حياه أيّ واحدٍ منهم.

إنّ القرآن الكريم يقصّ علينا قصّه بدء نزول (الوحي) على «موسى» بشكلٍ كاملٍ وبيّن جميع التفاصيل في قصته عليه السلام ولا يذكر أيّ شيء من الخوف، والارتعاش، والوحشه والفرع، بحيث يحدث نفسه بالانتحار على أثر سماع الوحي!! مع أنّ أرضيه الخوف والفرع في مجال «موسى» كانت متوفره أكثر، لأنّه سمع في ليله ظلماء وهو في صحراء خاليه نداء من الشجره يخبره بأنّه نبيٌّ مرسلٌ.

ولكن موسى - كما يصرّح القرآن الكريم، بهذه الحقيقه - حافظ على هدوئه، وسكونه، وعندما خاطبه الله تعالى بقوله: «أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ» * ألقاها من فوره، وكان

ص: ٣٨٥

خوفه من ناحيه العصى التى تبدلت إلى ثعبان مخيف، لا من جهه الإيحاء إليه.

فهل يمكن، أو يجوز لنا أن نقول: كان «موسى» لحظه الوحي إليه مطمئناً هادئاً ساكناً، ولكن أفضل الأنبياء والمرسلين اضطرب عند سماع كلام المَلَك، وفتح إلى درجه فُكِّر في إلقاء نفسه من أعلى الجبل؟! هل هذا كلام معقول؟!

لا ريب أن روح محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ما لم تكن مهياًه من جميع الجهات وبصوره كامله لتلقى السرّ الإلهي (النبؤه) لا- يمكن أن يمنّ عليه الربّ الحكيمُ بمنصب النبؤه، ويختاره لمقام الرساله، لأنّ الهدف الجوهرى من ابتعاث الرّسل، وإرسال الأنبياء هو هدايه الناس وإرشادهم.

ومن كان كذلك من حيث ضعف الروح ووهن النفس بهذه المرتبه بحيث يحدث نفسه بالانتحار خوفاً (١) وفتحاً كيف يمكن أن ينفذ إلى نفوس الناس ويؤثر فيهم؟!

ثانياً: كيف يمكن أن يطمئن موسى بمجرد سماعه للنداء الإلهي إلى أنّه صادرٌ من جانب الله، فطلب من ربّه من فوره أن يجعل أخاه هارون وزيراً له لأنّه أفصح منه قولاً (٢)، بينما لا يطمئن سيد المرسلين وخاتمهم؟!

ثالثاً: لقد كان «ورقه» مسيحياً حتماً، ولكنّه عندما أراد أن يزيل عن «محمّد» الشكّ والإضطراب ذكر نبؤه «موسى» عليه السلام وقال: لقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى. (٣)

ص: ٣٨٤

١- . كما نقل هيكلم فى كتابه: «حياه محمّد».

٢- . طه: ٢٩.

٣- . السيره النبويه: ١/١٥٦. وقد نقل المرحوم المجلسى فى بحار الأنوار: ١٨/٢٢٨ هذه العبارة عن المنتقى ولكنّه يضافه لفظه «عيسى» أيضاً ولكن لا وجود لذلك فى صحيح البخارى وسيره ابن هشام اللذين هما الأساس لهذه الأمور.

ألا يدلّ هذا على أنّ ثمة يداً اسرئليّيه وراء هذه الحبكة هي التي صاغت هذه القصه واختلقتها في غفله عما كان يدين به «ورقه» بطلّ القصه؟!

كلّ هذا بغضّ النظر عن أنّ مثل هذه الأمور تتنافى والعظمه التي نعهداها من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولا تنسجم معها أبداً، ويبدو أنّ مؤلّف «حياه محمّد» أدرك إلى درجه ما خرافيه هذه القصه ولذلك نجده ينقل بعض مواضيعها بعد جمله: «كما يقولون».

وقد حارب أئمّه الشيعه هذه الأساطير بكلّ قوه، وأبطلوها برمتها.

فعندما يسأل زواره الإمام الصادق عليه السلام مثلاً: كيف لم يخفّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ممّا ينزغ به الشيطان؟

قال الإمام عليه السلام: «إنّ الله إذا اتخذ عبداً ورسولاً، أنزل عليه السكينه والوقار، فكان يأتيه من قبل الله عزّوجلّ مثل الذي يراه بعينه».(١)

ويقول العلامة الشيعي الكبير المرحوم الطبرسي في تفسيره، في هذا الصدد:

«إنّ الله لا يوحى إلى رسوله إلّا بالبراهين التيره والآيات البينه الداله على أنّ ما يوحى إليه إنّما هو من الله تعالى، فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفزع، ولا يفترق».(٢)

ص: ٣٨٧

١- بحار الأنوار: ١٨/٢٦٢، الحديث ١٦ نقلاً عن تفسير العياشي: ٢/٢٠١، الحديث ١٠٦.

٢- مجمع البيان: ١٠/١٧٤.

لقد تعرّض يوم مبعث رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم للاختلاف من حيث التعيين والتحديد فهو مثل يوم ولادته ويوم وفاته صلى الله عليه وآله وسلم غير مقطوع به، من وجهه نظر المؤرّخين وكتاب السير النبويه.

فلقد اتفق علماء الشيعة على القول بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بُعث بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب، وأن نزول الوحي عليه قد بدأ من ذلك اليوم نفسه.

بينما اشتهر عند علماء السنّه أنّ رسول الإسلام قد أُوتى هذا المقام العظيم في شهر رمضان المبارك.

ففي ذلك الشهر الفضيل كُلف «محمّد» صلى الله عليه وآله وسلم من جانب الله تعالى بهدايه الناس، وُبعث بالرسالة.

ولمّا كانت الشيعة تشايح عتره النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الصادقين، وتعتقد بصحّه ما يرونه ويقولون به أتباعاً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم، في حديث الثقلين:

«إنّهما لن يفترقا» فإنّهم أتبعوا - في تحديد يوم المبعث النبوي الشريف - القول المأثور - بنقل صحيح - عن عتره النبي المطهّرين في هذا المجال.

فقد روى عن أبناء الرسول وعترته الطاهره أنّ عظيم هذا البيت و سيده (أى النبي) قد بُعث في السابع والعشرين من شهر رجب، وهم في ذلك حجّه.

ولهذا لا يمكن الشك والتردد في صحّه هذا القول وثبوته. (١)

نعم غايه ما يمكن الاستدلال به على القول الآخر هو تصريح القرآن الكريم نفسه بأن آيات القرآن نزلت في شهر رمضان، وحيث إنَّ يومَ بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان هو نفسه يوم بدء نزول الوحي، والقرآن عليه، لهذا يجب القول بأنَّ يوم البعثه الشريفه إنَّما كان في نفس الشهر الذي نزل فيه القرآن الكريم: أي شهر رمضان المبارك.

وإليك فيما يأتي الآيات التي تدلُّ على أنَّ القرآن الكريم نزل في شهر رمضان:

١. «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ». (١)

٢. «حم * وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ» (٢) وتلك الليله هي ليله القدر التي قال عنها سبحانه: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ». (٣)

ما أجاب به علماء الشيعة

ولقد أجاب مُحدِّثو الشيعة ومفسِّروهم عن هذا الاستدلال بطرق مختلفه نذكر طائفه منها هنا:

الجوابُ الأوَّل:

إنَّ الآيات المذكوره إنَّما تدلُّ على أنَّ القرآن نزل في شهر رمضان وبالذات في ليله مباركه منه هي «ليله القدر»، ولكنَّها لا تتعرَّض لذكر محلِّ نزول هذه الآيات، وأنَّها أين نزلت؟ وهي بالتالي لا تدلُّ أبداً ومطلقاً على أنَّها نزلت في تلك الليله على قلب رسول الله؟

ص: ٣٨٩

١- . البقره: ١٨٥.

٢- . الدخان: ١-٣.

٣- . القدر: ١ و ٣.

فيحتمل أن يكون للقرآن نزولات متعدده إحداهما نزول القرآن على رسول الله تدريجاً.

والآخر نزوله الدفعي من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور. (١)

وعلى هذا فما المانع من أن تكون بعض آيات القرآن (من سورة العلق) قد نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السابع والعشرين من شهر رجب. ثم نزل القرآن بصورته الجمعيه الكامله في شهر رمضان من مكان معين أسماه القرآن باللوح المحفوظ، إلى موضع آخر عُبر عنه في بعض الروايات بالبيت المعمور.

ويؤيد هذا الرأي قول الله تعالى في سورة الدخان: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ» فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ - بحكم رجوع الضمير فيها إلى الكتاب - تصرّح بأن الكتاب العزيز بأجمعه نزل في ليله مباركه (في شهر رمضان)، ولا بدّ أن يكون هذا النزول غير ذلك النزول الذي تحقّق في يوم المبعث الشريف، لأنّ في يوم المبعث لم تنزل سوى آيات معدوده لا أكثر.

وخلصه الكلام هي أنّ الآيات التي تصرّح بنزول القرآن في شهر رمضان في ليله مباركه (ليه القدر) لا يمكن أن تدلّ على أنّ يوم المبعث الّذي نزلت فيه بضع آيات أيضاً كان في ذلك الشهر نفسه، لأنّ الآيات المذكوره تدلّ على أنّ مجموع القرآن لا بعضه قد نزل في ذلك الشهر، في حين لم تنزل في يوم المبعث سوى آيات معدوده كما نعلم.

وفي هذه الصوره يحتمل أن يكون المراد من النزول الجمعي للقرآن هو نزول مجموع الكتاب العزيز في ذلك الشهر من «اللوحة المحفوظ» إلى «البيت المعمور».

ص: ٣٩٠

١- . للتعرف على معنى اللوح المحفوظ راجع كتب التفسير.

وقد روى علماء الشيعة والسنة روايات وأخباراً بهذا المضمون، وبخاصة الأستاذ الأزهرى محمد عبدالعظيم الزرقانى الذى أورد روايات عديدة فى هذا الصدد فى كتابه (١).

الجواب الثانى:

وهو أمتن الأجوبة والردود على هذا القول.

فقد بذل الأستاذ الطباطبائى جهداً كبيراً لتوضيحه وبيانه فى تفسيره القيم؛ وإليك خلاصته:

إنّ قول الله تعالى إنا أنزلناه فى شهر رمضان، المقصود منه هو نزول حقيقه القرآن على قلب النبى صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ للقرآن مضافاً إلى وجوده التدريجى، واقعيه أطلع الله تعالى نبيه العظيم عليها فى ليله معينه من ليالى شهر رمضان المبارك. (٢)

وحيث إنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان قد عرف من قبل بجميع القرآن الكريم لذلك نزلت الآيه تأمره بأن لا يعجل بقراءته حتى يصدر الأمر بنزول القرآن تدريجاً إذ يقول تعالى: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ». (٣)

وخلاصه هذا الجواب هى: أنّ للقرآن الكريم وجوداً جمعياً علمياً واقعياً وهو الذى نزل على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مرّة واحدة فى شهر رمضان، وآخر وجوداً تدريجياً كان بدء نزوله على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى يوم المبعث، واستمرّ تنزله إلى آخر حياته الشريفه على نحو التدريج.

الجواب الثالث: التفكيك بين نزول القرآن والبعثه

إنّ للوحى - كما أوضحنا ذلك فى مبحث أنواع الوحى إجمالاً - مراتب

ص: ٣٩١

١- لاحظ: مناهل العرفان فى علوم القرآن: ١/٣٧.

٢- لاحظ: الميزان فى تفسير القرآن: ١٤-٢/١٦.

٣- طه: ١١٤.

ومراحل، تتمثل أول مراتبه في الرؤيا الصادقة التي رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والمرتبة الأخرى تمثلت في سماعه للنداء الغيبي الإلهي من دون وساطة ملك.

وآخر تلك المراتب هو أن يسمع النبي كلام الله من ملك يبصره ويراه، ويتعرف عن طريقه على حقائق العوالم الأخرى.

وحيث إن النفس الإنسانية لا تستطيع في الوهلة الأولى تحمّل مراتب (الوحي) جميعها دفعة واحدة بل لابد أن تتحمّلها تدريجاً، لهذا يجب القول بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد سمع يوم المبعث (اليوم السابع والعشرون من شهر رجب) النداء السماوي العذبي يخبره بأنه رسول الله، فقط ولم تنزل في مثل هذا اليوم أي آية قط، وقد استمر الأمر على هذا المنوال مدّة من الزمان. ثم بعد مدّة بدأ نزول القرآن الكريم على نحو التدريج ابتداء من شهر رمضان.

وخلصه هذا الجواب هي أن ابتعاث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة في شهر رجب لا يلازم نزول القرآن في ذلك الشهر حتماً. وعلى هذا الأساس ما المانع من أن يُبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شهر رجب، وينزل القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس ذلك العام؟

إن هذه الإجابة وإن كانت لا توافق كثيراً من النصوص التاريخية (لأن كثيراً من المؤرخين صرحوا بأن الآيات الخمس من سوره العلق نزلت في يوم المبعث نفسه) إلا أن هناك - مع ذلك - روايات ذكرت قصة البعث بسماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للنداء الغيبي، ولم تذكر شيئاً عن نزول قرآن أو آيات، بل هي تشرح الواقعه على النحو التالي إذ تقول:

في ذلك اليوم سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ملكاً يقول له: يا محمد إنك لرسول

اللَّهِ، وجاء في بعض الأخبار أنه سمع هذا النداء، فقط، ولم تذكر شيئاً عن مشاهدته الملك.

وللمزيد من التوضيح، والتوسع يُراجع «بحار الأنوار» في هذا المجال. (١)

على أن هذه الإجابة تختلف عن الإجابة الرابعة التي تقول بأن مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في شهر رجب، وكان نزول القرآن الكريم بعد انقضاء الدعوه السريه التي استغرقت ثلاثه أعوام.

الأنبياء والبشاره برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وينبغي - استكمالاً لهذا الفصل من التاريخ النبوي - أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أن الرساله المحمديه المباركه، مما بشر به جميع الأنبياء المتقدمين زمنياً على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك إذ قال الله تعالى:

«وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَآنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ». (٢)

وهذه الآيه وإن كانت تكشف عن أصل عام وكلّي وهو: وجوب تصديق أتباع النبي السابق للنبي اللاحق، إلّا أنّ المصداق الأتم لها هو رسول الإسلام الكريم.

ص: ٣٩٣

١- لاحظ: بحار الأنوار: ١٨/١٨٤ و ١٩٠ و ١٩٣ و ٢٥٣؛ الكافي: ٢/٤٦٠؛ تفسير العياشي: ٨٠/١. وهذا الجواب لا ينسجم مع ما رواه البخاري من أنّ بعثه النبي رافقت نزول آيات من سوره العلق عليه.

٢- آل عمران: ٨١.

فيظهر من هذه الآيه أنّ الله تعالى أخذ الميثاق المؤكّد من جميع الأنبياء أو من أصحاب الشرائع منهم أن يؤمنوا برسالة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ويدعوا أتباعهم إلى تصديقه وأتباعه ونصرته.

روى الفخر الرازى عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

«إنّ الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم الصلاه والسّلام إلّا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمّد وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنه» (١).

وممّا يؤيّد هذا أنّ القرآن دعا أهل الكتاب إلى بيان ما قرأوه ووجدوه فى كتبهم حول رسول الإسلام للناس من دون كتمان، واليك فيما يأتى طائفه من الآيات المصرّحه بهذا الأمر:

١. قال الله تعالى:

«وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ» (٢).

٢. قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٣).

٣. وقال تعالى:

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ

ص: ٣٩٤

١- . تفسير الرازى: ٨/١٢٣.

٢- . آل عمران: ١٨٧.

٣- . البقره: ١٧٤.

لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (١).

٤. وقال سبحانه:

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِضْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٢).

إن القرآن الكريم يصرح بجلاء أن السيد المسيح عليه السلام أخبر عن رسول الإسلام ورسالته إذ يقول تعالى:

«وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ» (٣).

كما يتحدث القرآن الكريم عن أهل الكتاب الذين تنكروا لرساله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عندما بُعث وقد كانوا من قبل يخبرون عنه ويطلبون النصر به على أعدائهم إذ قال سبحانه:

«وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (٤).

بل ويخبرنا القرآن الكريم بأن إبراهيم عليه السلام يوم أحل زوجته وولده إسماعيل بأرض مكة دعا قائلاً:

ص: ٣٩٥

١- . البقره: ١٤٦.

٢- . الأعراف: ١٥٧.

٣- . الصف: ٦.

٤- . البقره: ٨٩.

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». (١)

وقد انطبقت هذه الأوصاف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ يصفه القرآن الكريم بقوله:

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ». (٢)

محمد خاتم الأنبياء

واستكمالاً لهذا البحث ينبغي أيضاً أن نشير إلى أبرز ناحيه في رساله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونبوته وهي مسأله الخاتميته.

فإن القرآن الكريم صرح في آيات عديده بكون رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين، وشريعته خاتمه الشرائع، فلا نبي بعده، ولا رساله بعد رسالته.

وها نحن ندرج أبرز الآيات الواردة في هذا المجال:

١. قال تعالى:

«مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا». (٣)

٢. قال سبحانه:

«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا». (٤)

٣. وقال سبحانه:

ص: ٣٩٦

١- . البقره: ١٢٩.

٢- . آل عمران: ١٦٤.

٣- . الأحزاب: ٤٠.

٤- . الفرقان: ١.

«وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَن بَلَغَ» (١).

٤. وقال تعالى:

«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (٢).

والآيات الثلاث الأخيره تفيد بأن رساله النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم عامه و عالميه و أبدية لأنه فى غير هذه الحاله وفى غير هذه الصوره لن يكون نبياً للناس كافه، وللعالَمين جميعاً، ولن يكون نذيراً لقومه و لمن بلغه نداؤه.

هذا وقد صرح النبى صلى الله عليه و آله و سلم نفسه فى أحاديث كثيره بهذا الموضوع وهو الصادق المصدّق.

فعن أبى هريره قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:

«أرسلتُ إلى الناس كافه و بى ختم النبىون» (٣).

ص: ٣٩٧

١- . الأنعام: ١٩.

٢- . سبأ: ٢٨.

٣- . الطبقات الكبرى: ١/١٩٢.

أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ

لقد انتشر الإسلام في العالم بصوره تدريجيّ، ويوصّف الذين بادروا إلى الإيمان بالرسالة الإسلاميّة والمساعدته على نشرها قبل غيرهم بـ «السابقين».

وقد كان السبق إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صدر الإسلام معياراً للفضل ولهذا يجب أن ندرس هذا الموضوع في ضوء المصادر الصحيحه، وتعرّف على مَنْ سَبَقَ إلى الإيمان بالرسالة الإسلاميّة من الرجال، ومن النساء.

مِنَ النِّسَاءِ: «خَدِيجَةُ»

إنّ من المسلم به تاريخياً أنّ «خديجة» كانت أول امرأة آمنت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،^(١) ولم يخالف في هذا أحدٌ، ونحن هنا ننقل مستنداً تاريخياً مهمّاً واحداً ذكره المؤرّخون نقلاً عن إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مكتفين به رعاية للاختصار. تقول عائشه: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتّى يذكر «خديجة» فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيره، فقلت: هل كانت إلّاعجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب حتّى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال:

ص: ٣٩٨

١- . لاحظ: مستدرک الحاکم: ٣/١٨٤؛ أسد الغابه: ٥/٤٣٧؛ البدايه والنهايه: ٣/٢٠.

«لا- والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد الناس».(١)

ومما يدل أيضاً على سبق خديجه في الإيمان برسول الله كل نساء العالم جمعاء ما جرى في قضيه بدء الوحي، ونزول القرآن، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما انحدر من غار «حراء» وأخبر زوجته «خديجه» بما جرى له واجهه - رأساً - إيمان زوجته به وقبولها لكلامه، وتصديقها برسالته، تصريحاً وتلويحاً.

هذا مضافاً إلى أنها كانت قد سمعت من قبل أخباراً تتعلق بنبوته ومستقبل رسالته من كهنة العرب وأهل الكتاب، وهذه الأخبار وأمانه فتى قريش وصدقه الذي اشتهر به هي التي دفعت بها إلى أن تتزوج بالفتى الهاشمي (محمد).

أقدم الرجال إسلاماً: «علي» عليه السلام

إن المشهور المقارب للمتفق عليه بين المؤرخين، سنّه وشيعه، هو أنّ «علياً» كان أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الرجال.(٢)

ونرى في مقابل هذا القول المشهور أقوالاً آخر تادده قد نقلناقلوها ما يخالفها أيضاً:

فمثلاً يقال: إنّ زيد بن حارثه ربيب رسول الله وابنه بالتبني، أو أبو بكر كان أول من أسلم، ولكن دلائل عديده (نذكر بعضها هنا على سبيل الاختصار) تشهد على خلاف هذين القولين.

وإليك بعض هذه الدلائل:

ص: ٣٩٩

١- . أسد الغابه لابن الأثير الجزري: ٥/٤٣٨؛ الوافي بالوفيات للصفدي: ١٣/١٨١.

٢- . لاحظ: بحار الأنوار: ٣٨/٢٠١ و ٢٢٨-٢٧٧، الباب ٦٥.

لقد تلقى عليّ عليه السلام تربيته في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونشأ وترعرع في بيته منذ طفولته، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يجتهد في تربيته والعناية به كالوالد الرحيم.

قال عامه المؤرّخين وكتاب السير بالاتفاق: إنّ قريشاً أصابتهم أزمه شديده (قبل بعثه النبيّ) وكان أبوطالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للعباس عمّه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس إنّ أخاك أباطالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمه فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتّى أتيا أباطالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتّى ينكشف عن الناس ما هم فيه (إلى أن قال:). فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفرأ فضمّه إليه، فلم يزل عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً فاتّبعه على رضى الله عنه وآمن به وصدّقه. (١)

في هذا الصورة يجب أن نقول بأنّ عليّاً عليه السلام انتقل إلى بيت النبيّ وهو دون الثامنة، لأنّ الغرض من أخذ النبيّ إياه من أبيه «أبي طالب» هو التخفيف عن كاهل زعيم مكّه (أبي طالب)، ومن الواضح أنّ صبيّاً في مثل هذا السنّ (دون الثامنة) مضافاً إلى أنّ فصله عن والديه أمرٌ في غاية الصعوبة، لن يكون لأخذه وتكفّله أيّ أثر هامّ في وضع أبيه (أبي طالب) المعيشي.

وعلى هذا يجب أن نفترض له عليه السلام عمراً يكون لأخذه فيه من قِبَل النبيّ تأثيراً معتداً به في وضع أبيه الإقتصادي والمعيشي.

فكيف يمكن القول - والحال هذه - أنّ أباعد عن البيت النبويّ مثل «زيد بن

حارثه» وغيره اطلعوا على أسرار الوحي، بينما جهل ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأقرب الناس إليه وألعدى كان معه في أكثر الأوقات بما أتى به صلى الله عليه وآله وسلم وما نزل عليه.

إن غرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تربيته الإمام عليّ وتكفله إياه كان إلى حد كبير هو أداء ما أسدى إليه أبو طالب من خدمات، ولم يكن ثمّة شيء أحبّ إلى رسول الله من أن يهدى أحداً إلى الصراط المستقيم، فكيف يمكن أن يقال - والحال هذه - أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرم ابن عمه الذي كان يتمتع بذكاء باهر وضمير يقظ، من هذه النعمة الكبرى؟!!

إن من الأفضل أن نسمّع هذا الأمر من لسان «علي» نفسه، فقد بين عليه السلام في الخطبة القاصعة منزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقربه إليه هكذا:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصَّةِ يَصِهِ. وَضَعْنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ (وليدٌ) يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمْسِكُنِي بِجَسَدِهِ، وَيُسَمِّنُنِي عَزْفَهُ... وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا، وَيَأْمُرُنِي بِالِإِقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءٍ، فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَخَدِيدِجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ» (١).

وجاء في تاريخ الطبري عن ابن إسحاق قال: كان أول ذكر آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصلى معه وصدقته بما جاءه من عند الله «علي بن أبي طالب» عليه السلام وهو يومئذ ابن عشر سنين، وكان ممّا أنعم الله به على علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه كان في

ص: ٤٠١

١- . نهج البلاغه: الخطبة ١٩٢، وفي الخطبة ١٣١ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنْابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالصَّلَاةِ».

حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الإسلام. (١)

٢. عليٌّ وخديجه يقيمان الصلاة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ينقل ابن كثير والطبرسي وكثير من علماء التاريخ والرجال القصة التاليه عن عفيف الكندي، بأنه قال:

كنت امرأً تاجرًا فقدمتُ «منى» أيام الحج، وكان العباس بن عبدالمطلب امرأً تاجرًا، فأتيته أبتاع منه وأبيعه، قال: فيينا نحن عنده إذ خرج رجلٌ من خباء فقام يصليّ تجاه الكعبه، ثم خرجت امرأه فقامت تصليّ، وخرج غلام يصليّ معه، فقلت: يا عباس ما هذا الدين، إن هذا الدين ما ندرى ما هو؟ فقال: هذا محمّد بن عبدالله يزعم أنّ الله أرسله به، وأنّ كنوز كسرى وقيصر ستُفتح عليه، وهذه امرأته «خديجه بنت خويلد» آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه «علي بن أبي طالب» آمن به قال عفيف: فليتني كنت آمنت يومئذٍ فكنت أكون (رابعاً). (٢)

وهذه الواقعة ينقلها ويرويها حتّى الذين يقصرون في روايه فضائل الإمام عليّ وكتابتها، وفي إمكان القارئ الكريم أن يقف على هذه القصة في المصادر المذكوره على وجه التفصيل.

٣. أنا الصديق الأكبر

تلاحظ هذه العبارة ونظائرها كثيراً، في خطب الإمام عليّ عليه السلام وكلماته فهو يكرّر العبارات التاليه بكثرة:

«أنا عبْدُالله، وأخو رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدى إلّا

ص: ٤٠٢

١- تاريخ الطبري: ٢/٥٧.

٢- البدايه والنهائيه: ٣/٣٥؛ إعلام الوري: ١/١٠٥. ولاحظ: تاريخ الطبري: ٥٦-٢/٥٧؛ الكامل في التاريخ: ٢/٥٧؛ أسد الغابه:

٣/٤١٤

كاذب مفتر، صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ قَبْلَ النَّاسِ بِسَبْعِ سِنِينَ» (١).

٤. أَوْلَكُمْ إِسْلَامًا: عَلِيٌّ

ولقد وردت أحاديث متواتره عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبتعابير متنوّعه قال فيها:

«أَوْلَكُمْ وَإِرَادًا عَلِيٌّ الْحَوْضَ، أَوْلَكُمْ إِسْلَامًا عَلِيٌّ بِنُ أَبِي طَالِبٍ» (٢).

وعند ما يدرس المنصف المحايد هذه الأحاديث، يقطع بأسبقية الإمام علي عليه السلام إلى الإسلام، وتقدمه على غيره في الإيمان بالدعوة المحمّديه، ولا يختار القولين الآخرين اللذين لا يذهب إليهما إلا الأقلية.

فإنّ ما يناهز الستين شخصاً من الصحابه والتابعين يؤيدون القول الأوّل (أى أنّ علياً أوّل القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً) وحتى الطبري نفسه الّذى شكّك في هذا القول، واكتفى بنقله دون اختياره وتأكيد، روى بأنّ «ابن سعد» سأل أباه قائلاً: أكان أبو بكر أوّلكم إسلاماً، فقال: لا ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين (٣).

ومن غريب الأمر أنّ مؤرخاً كبيراً كابن كثير يتنكر لهذه الحقيقه الساطعه فقد ذكر في كتابه «البدايه والنهايه» حديثاً صحيحاً بإسناد الإمام أحمد والترمذي في إسلام أمير المؤمنين وأنّه أوّل من أسلم وصلى ثمّ أردفه بقوله: وهذا لا يصحّ من أيّ وجه كان روى عنه، وقد ورد في أنّه أوّل من أسلم من هذه الأمّه أحاديث كثيرة لا يصحّ منها شيء... إلخ (٤).

وقد تصدّى العلامه المحقق الأمينى رحمه الله للردّ على هذا المقال بالتفصيل

ص: ٤٠٣

١- تاريخ الطبرى: ٢/٥٦؛ سنن ابن ماجه: ١/٤٤ برقم ١٢٠؛ سنن النسائى: ٥/١٠٧؛ مستدرک الحاکم: ٣/١١٢ وغيرها.

٢- يراجع مصادر هذا الحديث فى الغدير: ٣/٢١.

٣- تاريخ الطبرى: ٢/٦٠.

٤- البدايه والنهايه: ٧/٣٧٠.

ونظراً لأهميته ما كتبه العلامة الأميني وما احتوى عليه من نصوص تاريخيه نسرده هنا بكامله مع ما فيه من تكرار بسيط لبعض ما ذكرناه. (١)

يقول العلامة الأميني:

ألا- مسائل هذا الرجل لم لا يصح شيء منها من أي وجه كان؟! والطرق صحيحة، والرجال ثقات، والحفاظ حكما بصحته، وأرباب السير أطبقوا عليه، وكان من المتسالم عليه بين الصحابه الأولين والتابعين لهم بإحسان.

ونحن لو نقتصر على كلمتنا هذه يحسبها القارئ دعوى مجردة لده دعوى ابن كثير (أعاذنا الله عن مثلها) وتخفى عليه جليته الحال فيهمنا ذكر نزر مما يدل على المدعى وإن لم يسعنا إيراد كثير منه روماً للاختصار.

النصوص النبويه:

١. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أولكم وارداً - وروداً - على الحوض أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب».

أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ ص ١٣٦ وصححه م - والخطيب البغدادي في تاريخه ج ٢ ص ٨١ و يوجد في الاستيعاب ٢ ص ٤٥٧. شرح ابن أبي الحديد ٣، ص ٢٥٨.

وفي لفظ: «أول هذه الأمة وروداً على الحوض أولها إسلاماً علي بن أبي طالب، رضى الله عنه». السيره الحلييه ١ ص ٢٨٥. سيره زيني دحلان ١ ص ١٨٨ هامش الحلييه.

وفي لفظ: «أول الناس وروداً على الحوض أولهم إسلاماً علي بن أبي

ص: ٤٠٤

طالب». مناقب الفقيه ابن المغازلي [ص ٣٤ ح ٢٢]. مناقب الخوارزمي [ص ٥٢ ح ١٥].

٢. قال صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمه: «زوّجتك خير أمتي، أعلمهم علماً، وأفضلهم حِلماً، وأولهم سلماً». راجع ما مرّ ص ٩٥.

٣. قال صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمه: «إنّه لأوّل أصحابي: إسلاماً. أو: أقدم أمتي سلماً.

حديث صحيح، راجع ص ٩٥.

٤. أخذ صلى الله عليه وآله وسلم بيد عليّ، فقال: «إنّ هذا أوّل من آمن بي، وهذا أوّل من يُصافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر». راجع الجزء الثاني ص ٣١٣، ٣١٤.

٥. عن أبي أيوب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين لأننا كنّا نصلّي وليس معنا أحدٌ يُصلّي غيرنا».

مناقب الفقيه ابن المغازلي [ص ٣٢ ح ١٧] باسنادين م - أسد الغابه ٤:١٨؛ ومناقب الخوارزمي [ص ٥٣ ح ١٧] وفيه: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: لم يكن معي من الرجال غيره.

كتاب الفردوس للدليمي. شرح ابن أبي الحديد عن رساله الاسكافي ٣ ص ٢٥٨. فرائد السمطين الباب ٤٧.

٦. ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ أوّل من صلّي معي عليّ». فرائد السمطين الباب ٤٧ بأربع طرق.

٧. معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عليّ! أخصمك بالنبوّه ولا نبوّه بعدى، وتخصم الناس بسبع ولا- يُجحدك فيه أحدٌ من قريش، أنت أولهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله». الحديث. (حليه الأولياء: ١ / ٦٦).

ص: ٤٠٥

٨. أبوسعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلى - وضرب بين كتفيه -:

«يا على لك سبع خصال لا يُحاجك فيهنَّ أحدٌ يوم القيامة؛ أنت أول المؤمنين بالله إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله». الحديث. (حليه الأولياء ١ ص ٦٦).

٩. من حديث أبي بكر الهذلى وداود بن أبي هند الشعبى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلى عليه السلام: «هذا أول من آمن بي وصدقتى وصلّى معى». شرح ابن أبى الحديد ٣ ص ٢٥٦.

١٠. إنَّ أبابكر وعمر خطبا فاطمه فردَّهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «لم أؤمر بذلك». فخطبها على فزوجه إياها وقال لها: «زوّجتك أقدم الأمّة إسلاماً». روى هذا الحديث جماعة من الصحابه منهم: أسماء بنت عميس، وأمّ أيمن، وابن عبّاس، وجابر بن عبد الله. شرح ابن أبى الحديد ٣ ص ٢٥٧. (١)

كلمات أمير المؤمنين عليه السلام

١. قال عليه السلام: «أنا عبد الله، وأخو رسول الله، وأنا الصّديق الأكبر، لا يقولها بعدى إلّا كاذبٌ مفترى، ولقد صلّيت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين، وأنا أول من صلّى معهُ».

إسناده من طريق ابن أبى شيبه والنسائى وابن ماجه والحاكم والطبرى صحيح رجاله ثقات، راجع الجزء الثانى من كتابنا ٣١٤.

٢. قال عليه السلام: «أنا أول رجل أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

أخرجه أبو داود بإسناده الصحيح كما فى شرح ابن أبى الحديد ٣، ص ٢٥٨.

٣. قال عليه السلام: «أنا أول من أسلم مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم».

أخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخه ٤، ص ٢٣٣.

ص: ٤٠٦

٤. قال عليه السلام: «أنا أوّل من صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

أخرجه أحمد، والحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رجاله رجال الصحيح غير حَبَّه العرنى وقد وثق. وأخرجه أبو عمرو في الإستيعاب ٢، ص ٤٥٨.

وابن قتيبه في «المعارف» ص ٧٤ من طريق أبي داود عن شعبه عن سلمه بن كهيل عن حَبَّه عنه عليه السلام. والإسناد صحيح رجاله ثقات.

٥. قال عليه السلام: «أسلمت قبل أن يسلم النَّاسُ بسبع سنين». الرِّياض النضرة: ٢ / ١٥٨.

٦. قال عليه السلام: «عبدت الله مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبع سنين قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأُمَّة». مستدرک الحاكم: ٣/١١٢.

٧. قال عليه السلام: عن حكيم مولى زاذان قال: سمعت علياً يقول: «صلّيت قبل النَّاسِ سبع سنين، وكنا نسجد ولا نركع، وأوّل صلاة ركعنا فيها صلاة العصر» شرح ابن أبي الحديد: ٣/٢٥٨.

٨. قال عليه السلام: «عبدت الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأُمَّة خمس سنين».

الإستيعاب: ٢/٤٤٨؛ الرِّياض النضرة: ٢/١٥٨؛ السيره الحليّة: ١/٢٨٨.

٩. قال عليه السلام: «آمنت قبل النَّاسِ سبع سنين». خصائص النسائي: ٣.

١٠. قال عليه السلام: «ما أعرف أحداً من هذه الأُمَّة عَبدَ الله بعد نبينا غيري، عبَدْتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأُمَّة تسع سنين». خصائص النسائي: ٣.

١١. من خطبه له عليه السلام يوم صفين: «وابن عمّ نبيكم معكم بين أظهركم يدعوكم إلى طاعه ربكم، ويعمل بسنّه نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم فلا سواء من صلّى قبل كلِّ ذكّر لم يسبقني بصلاتي مع رسول الله». كتاب نصر (صفين): ٣٥٥؛ شرح ابن أبي الحديد:

١/٥٠٣.

ص: ٤٠٧.

١٢. قال عليه السلام: «اللهم لا أعرف عبداً من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيك».

[قاله ثلاث مرّات] ثمّ قال: لقد صلّيت قبل أن يُصلّي الناس. وفي لفظ: قبل أن يُصلّي أحد. أخرجه أحمد، أبو يعلى، البزار، الطبراني، الهيثمي في المجمع ٩، ص ١٠٢. وقال: إسناده حسن. شيخ الإسلام الحموي في الفرائد الباب ٤٨.

١٣. من كتاب له عليه السلام كتبه إلى معاوية: «إنّ أولى النّاس بأمر هذه الأُمّة قديماً وحديثاً أقربها من رسول الله، وأعلمها بالكتاب، وأفقهها في الدين، وأولها إسلاماً، وأفضلها جهاداً». كتاب صفين لابن مزاحم: ١٦٨، ط. مصر.

١٤. في حديث عنه عليه السلام: «لا والله إن كنت أوّل من صدّق به فلا أكون أوّل من كذب عليه». المحاسن والمساوي ١، ص ٣٦. تاريخ القرمانى هامش الكامل لابن الأثير ١، ص ٢١٨.

١٥. قال عليه السلام: «بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء».

مجمع الزوائد: ٩/١٠٢. تاريخ القرمانى: ١/٢١٥. الصواعق: ٧٢. تاريخ الخلفاء للسيوطى ١١٢. إسعاف الراغبين ١٤٨.

١٦. من كتاب كتبه عليه السلام إلى معاوية: «إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم لَمّا دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد كُنّا أهل البيت أوّل من آمن به؟ وصدّق بما جاء به، فلبثنا أحوالاً مجرّمة (أى كامله) وما يعبد الله فى ربع ساكن من العرب غيرنا». كتاب صفين لابن مزاحم:

١٠٠.

١٧. قال عليه السلام يوم صفين مخاطباً أصحاب معاوية: «ويحكم أنا أوّل من دعا إلى كتاب الله، وأوّل من أجاب إليه». كتاب نصر (صفين): ٥٦١.

١٨. قالت معاذة بنت عبد الله العدويّة: سمعت على بن أبى طالب على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا الصديق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبوبكر، وأسلمت

ص: ٤٠٨

قبل أن يسلم أوبكر». راجع الجزء الثاني ص ٣١٤.

١٩. قال عليه السلام في خطبه خطبها في معسكر صفين: «أتعلمون أنّ الله فضّل في كتابه السابق على المسبوق، وأنّه لم يسبقني الله ورسوله أحدٌ من الأُمّة؟! قالوا:

نعم. راجع الجزء الأوّل (الغدِير) ص ١٩٥.

٢٠. قال عليه السلام: «صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث سنين قبل أن يُصليّ معه أحدٌ من الناس». أخرجه أحمد باسنادين.

٢١. قال عليه السلام: يوم الشورى في حديث أسلفناه: «أمنكم أحدٌ وخذ الله قبلي؟» قالوا: لا. «أمنكم أحدٌ صلى القبلتين غيري؟» قالوا: لا. راجع ج ١ ص ١٥٩-١٦٣، وهذه الفقرة من الحديث عدّها ابن أبي الحديد ممّا استفاضت به الروايات.

٢٢. مرّ في الجزء الثاني ص ٢٥ في أبيات له عليه السلام كتبها إلى معاوية:

سبقتكم إلى الإسلام طرّاً غلاماً ما بلغت أوان حلمي

٢٣. ذكر ابن طلحة الشافعي في مطالب السؤل: ١١ له عليه السلام:

أنا أخو المصطفى لا شكّ في نسبي به زُبيت وسبطاه هما ولدي

صدّفته وجميع الناس في بهم من الضّلاله والإشراك والنكد

قال: قال جابر: سمعت عليّاً يُنشد بهذا ورسول الله يسمع: فتبسّم رسول الله وقال: صدقت يا علي؟ (١)

ص: ٤٠٩

١- . الغدير: ٣/٢٢١-٢٢٤.

كلمه الإمام السبط الحسن عليه السلام:

٢٤. من خطبه للإمام الحسن عليه السلام في مجلس معاويه قوله: «أنشدكم الله أيها الرّهط؟ أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما؟ وأنت يا معاويه بهما كافرٌ، تراها ضلاله، وتعيد اللات والعزى غوايه؛ وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما: بيعه الفتح وبيعه الرضوان؟ وأنت يا معاويه بإحداهما كافرٌ، وبأخرى ناكثٌ. وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أوّل الناس إيماناً؟! وإنك يا معاويه وأباك من المؤلّفه قلوبهم». شرح ابن أبي الحديد: ٢/١٠١.

٢٥. وفي خطبه له عليه السلام مرّت في ج ١، ص ١٩٨: «فلما بعث الله محمّداً للنّبوه، واختاره للرّساله، وأنزل عليه كتابه ثمّ أمره بالدعاء إلى الله، فكان أبو أوّل من استجاب لله ولرسوله، وأوّل من آمن وصدّق الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقد قال الله في كتابه المنزل على نبيّه المرسل: «أفمن كان على بينه من ربّه ويتلوه شاهدٌ منه» فجدى الذي على بينه من ربّه، وأبى الذي يتلوه وهو شاهدٌ منه». (١)

رأى الصحابه والتابعين في أوّل من أسلم

١. أنس بن مالك قال: تُبئى (بُعث) النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين وأسلم علىّ يوم الثلاثاء. وفي لفظ له: بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين وصلى علىّ يوم الثلاثاء.

أخرجه الترمذى في جامعه ٢، ص ٢١٤. الطبرانى. الحاكم فى المستدرک ٣ ص ١١٢. ابن عبد البرّ فى الإستيعاب ٣ ص ٣٢. ابن الأثير فى جامع الأصول كما فى تلخيصه تيسير الوصول ٣ ص ٢٧١. الحموى فى فرائد السمطين الباب ٤٧. وأوعز إليه العراقى فى التقريب ١، ص ٨٥. ويوجد فى شرح ابن أبى الحديد ٣ ص ٢٥٨.

ص: ٤١٠

تذكرة السبط ٦٣. السراج المنير شرح الجامع الصغير ٢ ص ٤٢٤. شرح المواهب ١ ص ٢٤١.

٢. بُريده الأسلمي قال: أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين وصلى على يوم الثلاثاء. أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٢ وصححه هو وأقره الذهبي.

٣. زيد بن أرقم قال: أول من أسلم مع رسول الله على بن أبي طالب.

تاريخ الطبري بإسنادين صحيحين رجالهما ثقات. مسند أحمد ٤، ص ٣٦٨.

مستدرک الحاكم ٤، ص ٣٣٦ وصححه هو وأقره الذهبي. الكامل لابن الأثير ٢، ص ٢٢.

٤. زيد بن أرقم قال: أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على.

أخرجه أحمد والطبراني كما في مجمع الهيثمي ٩ ص ١٠٣ وقال: رجال أحمد رجال الصحيحين. أبو عمرو في الاستيعاب ٢، ص ٤٥٩.

٥. زيد بن أرقم قال: أول من آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بن أبي طالب. الاستيعاب ٢، ص ٤٥٩.

٦. عبدالله بن عباس قال: أول من صلى على.

جامع الترمذي ٢، ص ٢١٥. تاريخ الطبري ٢، ص ٢٤١ بإسناد صحيح.

الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

٧. عبدالله بن عباس قال: لعلني أربع خصال ليست لأحد: هو أول عربي وأعجمي صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. مستدرک الحاكم ٣، ص ١١١، الاستيعاب ٢ ص ٤٥٧.

٨. عبدالله بن عباس قال مجاهد: إنه قال: أول من ركع مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم على بن أبي طالب فنزلت فيه هذه الآية: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ» (١). تذكرة السبط ٨.

ص: ٤١١

٩. عبدالله بن عباس قال فى خطبه له: إِنَّ ابن آكله الأكباد قد وجد من طعام أهل الشام أعواناً على علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله وصهره وأول ذكر صلى معه.

كتاب صفين لابن مزاحم ٣٦٠. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٥٠٤. جمهره الخطب ١ ص ١٧٥.

١٠. عبدالله بن عباس قال: فرض الله تعالى الإستغفار لعلى فى القرآن على كل مسلم بقوله تعالى: «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ» (١) فكل من أسلم بعد على فهو يستغفر لعلى. شرح ابن أبي الحديد: ٣/٢٥٦ (٢).

١١. عبدالله بن عباس قال: أول من أسلم على بن أبي طالب.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٨. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢.

١٢. عبدالله بن عباس قال: كان على من آمن من الناس بعد خديجه رضى الله عنهما.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧ وقال: قال أبو عمرو رضى الله عنه: هذا إسناد لا مطعن فيه لأحد لصحته وثقه نقلته. وصححه الزرقانى فى شرح المواهب ١ ص ٢٤٢.

١٣. كان ابن عباس بمكة يحدث على شفير زمزم ونحن عنده فلما قضى حديثه قام إليه رجل فقال: يا ابن عباس؟ إنى امرؤ من أهل الشام من أهل حمص إنهم يتبرأون من على بن أبي طالب رضوان الله عليه ويلعنونه. فقال: بل لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً. ألبعد قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ وإنه لم يكن أول ذكران العالمين إيماناً بالله ورسوله؟ وأول من صلى وركع وعمل بأعمال البر؟ قال الشامى: إنهم والله ما ينكرون قرابته وسابقته غير أنهم يزعمون أنه قتل

ص: ٤١٢

١- الحشر: ١٠.

٢- الغدير: ٣/٢٢٤-٢٢٦.

١٤. عفيف قال: جئت في الجاهليّة إلى مكّة وأنا أريد أن ابتاع لأهلي من ثيابها وعطرها فأتيت العباس بن عبدالمطلب وكان رجلاً تاجراً فأنا عنده جالسٌ حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس في السّماء فارتفعت وذهبت إذ جاء شابٌ فرمى ببصره إلى السّماء ثمّ قام مستقبل الكعبة، ثمّ لم ألبث إلّا يسيراً حتّى جاء غلامٌ فقام على يمينه، ثمّ لم يلبث إلّا يسيراً حتّى جاءت امرأةٌ فقامت خلفهما، فركع الشابُّ فركع الغلام والمرأة، فرفع الشابُّ فرفع الغلام والمرأة، فسجد الشابُّ فسجد الغلام والمرأة فقلت: يا عباس؟ أمرٌ عظيمٌ. قال العباس: أمرٌ عظيمٌ، أتدرى من هذا الشابُّ؟ قلت: لا. قال: هذا محمّد بن عبدالله ابن أخي. أتدرى من هذا الغلام؟ هذا عليّ ابن أخي. أتدرى من هذه المرأة؟ هذه خديجة بنت خويلد زوجته، أنّ ابن أخي هذا أخبرني أنّ ربّه ربّ السّماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، ولا والله ما على الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

خصائص النسائي ٣. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١. الرّياض النضره ٢ ص ١٥٨.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٩. عيون الأثر ١ ص ٩٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. السيره الحليّه ١ ص ٢٨٨.

١٥. سلمان الفارسي قال: أوّل هذه الأمّه وروداً على نبيّها الحوض أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢ وقال: رجاله ثقاتٌ. وعدّه الإسكافي في رسالته على العثمانيّه. وأبو عمرو في الإستيعاب. والعراقي في شرح التقريب ١ ص ٨٥. والقسطلاني في المواهب ١ ص ٤٥ ممّن روى أنّ عليّاً أوّل من أسلم.

١٦. أبو رافع قال: صلّى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أوّل يوم الاثنين وصلّت خديجه آخره

وصلّى عليّ يوم الثلاثاء من الغد.

أخرجه الطبراني كما في شرح المواهب ١ ص ٢٤٠. عيون الأثر ١ ص ٩٢.

وتجده وسابقه في الرّياض النضره ٢ ص ١٥٨. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

١٧. أبو رافع قال: مكث عليّ يصلّي مستخفياً سبع سنين وأشهرًا قبل أن يصلّي أحدًا. أخرجه الطبراني. والهيثمي في المجمع ٩ ص ١٠٣. والحموئي في الفرائد ب ٤٧.

١٨. أبوذر الغفاري، عدّ ممّن روى أنّ عليّ بن أبي طالب أوّل من أسلم.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. التقريب وشرحه ١ ص ٨٥. المواهب اللدنيّه ١ ص ٤٥.

١٩. خباب بن الأرت قال: رأيت عليًا يصلّي قبل الناس مع النبيّ وهو يومئذ بالغ مستحكم البلوغ. رساله الإسكافي. وعُدّ ممّن روى أنّ عليًا أوّل من أسلم في الاستيعاب ٢ ص ٤٥٦. والمواهب اللدنيّه ١ ص ٤٥.

٢٠. المقداد بن عمرو الكندي، ممّن روى أنّ عليًا أوّل من أسلم كما في الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. والتقريب وشرحه ١ ص ٨٥. والمواهب اللدنيّه ١ ص ٤٥ (١).

٢١. جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: بُعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين وصلّى عليّ يوم الثلاثاء. الطبري ٢ ص ٢١١. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨، وعده أبو عمرو والعراقى والقسطلانى ممّن روى أنّ عليًا أوّل من أسلم.

٢٢. أبو سعيد الخدرى روى أنّ عليّ بن أبي طالب أوّل من أسلم.

ص: ٤١٤

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. شرح التقريب ١ ص ٨٥. المواهب اللدنيّه ١ ص ٤٥.

٢٣. حذيفه بن اليمان قال: كُنّا نعبد الحجاره ونشرب الخمر وعلّيّ من أبناء أربع عشره سنه قائمٌ يصلّي مع النبيّ ليلاً ونهاراً، وقريش يومئذ تسافه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يذبُّ عنه إلّاعليّ. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

٢٤. عمر بن الخطاب، قال عبد الله بن عتيّاس: سمعت عمر وعنده جماعة فتذاكروا السابقين إلى الإسلام فقال عمر: أمّا عليّ فسمعت رسول الله يقول فيه ثلاث خصال، لوددت أن تكون لي واحده منهنّ، وكانت أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو عبيده وأبو بكر وجماعه من أصحابه إذ ضرب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على منكب عليّ رضي الله عنه فقال له: يا عليّ؟ أنت أوّل المؤمنين إيماناً، وأوّل المسلمين إسلاماً، وأنت منّي بمنزله هارون من موسى.

رساله الإسكافي. مناقب الخوارزمي [٥٥ ح ١٩]. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

٢٥. عبد الله بن مسعود قال: أوّل حديث علمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّي قدمت مكّه مع عمومه لي (وذكر مثل حديث عفيف المذكور ص ٢٢٦) رساله الإسكافي.

٢٦. أبو أيوب الأنصاري، أخرج الطبراني عنه أنّه قال: أوّل الناس إسلاماً عليّ بن أبي طالب. شرح التقريب ١ ص ٨٥. شرح الزرقاني ١ ص ٢٤٢.

٢٧. أبو مرزم يعلى بن مرّه، عدّه الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممّن قال: إنّ عليّاً أوّل الناس إسلاماً.

٢٨. هاشم بن عتبة المرقال قال: أنت يا أمير المؤمنين! أقرب الناس من

رسول الله رحماً، وأفضل الناس سابقه وقدماً. كتاب نصر (صفين): ١٢٥. جمهره الخطب ١ ص ١٥١.

٢٩. فى كلام لهاشم بن عتبة يوم صفين: إن صاحبنا هو أول من صلى مع رسول الله، وأفقهه فى دين الله، وأولاه برسول الله.

كتاب نصر (صفين) ٤٠٣. تاريخ الطبرى ٦ ص ٢٤. الكامل لابن الأثير ٣ ص ١٣٥. وقال هاشم يوم صفين:

مع ابن عم أحمد المعلى فيه الرسول بالهدى استهلا

أول من صدقه وصلى فجاهد الكفار حتى أبلى (١)

٣٠. مالك بن الحارث الأشتر قال فى خطبه له: معنا ابن عم نبينا وسيف من سيوف الله على بن أبى طالب، صلى مع رسول الله لم يسبقه إلى الصلاة ذكر، حتى كان شيخاً لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة، فقيه فى دين الله، عالم بحدود الله.

كتاب نصر ٢٦٨. شرح ابن أبى الحديد ١ ص ٤٨٤. جمهره الخطب ١ ص ١٨٣. (٢)

٣١. عدى بن حاتم قال فى خطبه له مخاطباً معاوية: ندعوك إلى أفضل الأمة سابقه، وأحسنها فى الإسلام آثاراً.

كتاب نصر ٢٢١. تاريخ الطبرى ٦ ص ٢. شرح ابن أبى الحديد ١ ص ٣٤٤.

وفى لفظ ابن الأثير فى الكامل ٣ ص ١٢٤: إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقه.

ص: ٤١٦

١- . كتاب صفين لابن مزاحم: ٣٧١، طبعه مصر.

٢- . الغدير: ٢٢٧-٣-٢٢٩.

٣٢. عدى بن حاتم قال فى خطبه أخرى له: إن كان له - لعلّى - عليكم فضلٌ فليس لكم مثله فسلموا وإلّا فنازعوا عليه، والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة؟ إنه لأعلم الناس بهما. ولئن كان إلى الإسلام؟ إنه لأخو نبى الله والرأس فى الإسلام.

الإمامه والسياسه ١ ص ١٠٣.

٣٣. محمّد بن الحنفية قال سالم بن أبى الجعد قلت له: أبوبكر كان أولهم إسلاماً؟ قال: لا. الاستيعاب ٢ ص ٤٥٨. إذا ثبت أنّ أبابكر لم يكن أول الناس إسلاماً فعلى عليه السلام هو المتمعّن سبق إسلامه.

٣٤. طارق بن شهاب الأحمسي فى كلام له: ثمّ قلت: ادع عليّاً وهو أول المؤمنين إيماناً بالله وابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووصيّه، هذا أعظم، الحديث. شرح ابن أبى الحديد ١ ص ٧٦.

٣٥. عبد الله بن هاشم المرقال قال فى خطبه له: يا أيها الناس! إنّ هاشمًا جاهد فى طاعه ابن عمّ رسول الله، وأول من آمن به؛ وأفقههم فى دين الله. كتاب نصر ٤٠٥.

٣٦. عبد الله بن حجل قال: يا أمير المؤمنين! أنت أولنا إيماناً، وآخرنا بنبى الله عهداً. الإمامه والسياسه ١ ص ١٠٣، كتاب نصر.

٣٧. أبو عمره بشير بن محصن قال فى جمع من أصحاب على ومعاويه: إنّ صاحبى أحق البرية كلّها بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقه فى الإسلام والقرايه من رسول الله. كتاب نصر ٢١٠.

٣٨. عبد الله بن خباب بن الأرت قال ابن قتيبه: إنّ الخارجه التى خرجت على علىّ بينما هم يسيرون فإذا هم برجل يسوق امرأته على حمار له فعبروا إليه الفرات فقالوا له: من أنت؟ قال: أنا رجل مؤمن، قالوا: فما تقول فى علىّ بن أبى

ص: ٤١٧

طالب؟ قال: أقول: إنه أمير المؤمنين وأوّل المسلمين إيماناً بالله ورسوله. قالوا: فما اسمك؟ قال: وأنا عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. الإمامه والسياسة ١ ص ١٢٢.

٣٩. عبد الله بن بُريده قال: أوّل الرجال إسلاماً عليّ بن أبي طالب ثمّ الرهط الثلاث: أبوذر وبُريده وابن عمّ لأبي ذرّ. أخرجه محمّد بن إسحاق المدني في الجزء الأوّل من المغازي.

٤٠. محمّد بن أبي بكر كتب إلى معاوية كتاباً منه: فكان أوّل من أجاب وأناب، وصدّق ووافق، وأسلم وسلم أخوه وابن عمّه عليّ بن أبي طالب - إلى أن قال -: أوّل الناس إسلاماً، وأصدق الناس نبيّه - إلى قوله - يالك الويل! تعدل نفسك بعليّ وهو وارث رسول الله ووصيّه وأبو ولده، وأوّل الناس له أتباعاً، وآخرهم به عهداً، يُخبره بسرّه، ويشركه في أمره. نصر في كتاب صفين ١٣٣. (١)

٤١. عمرو بن الحمق قال لعليّ: أحببتك لخصال خمس: إنك ابن عمّ رسول الله، وأوّل من آمن به. وفي لفظ: وأسبق الناس إلى الإسلام، أبوذرّيّه التي بقيت فينا من رسول الله، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد. كتاب صفين ١١٥. جمهره الخطب ١ ص ١٤٩.

٤٢. سعيد بن قيس الهمداني يرتجز في صفين بقوله:

هذا عليّ وابن عمّ المصطفى أوّل من أجابه ممّن دعا (٢)

هذا الإمام لا يُبالي من غوى

٤٣. عبد الله بن أبي سفيان قال مجيباً الوليد:

ص: ٤١٨

١- . الغدير: ٢٢٩/٣-٢٣٠.

٢- . شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣/٢٣٢ وفيه «أوّل من أجابه فيما روى».

وإنَّ وليَّ الأمر بعد محمَّدٍ عليٌّ و في كلِّ المواطن صاحبه

وصيُّ رسول الله حقًّا وصنوه وأوَّل من صلَّى ومن لان جانبه

رساله الإسكافي، وذكرهما الحافظ الكنجي في الكفاية: ٤٨ للفضل بن العباس.

٤٤. خزيمه بن ثابت الأنصاري عدّه العراقي في شرح التقريب ١ ص ٨٥، والزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممّن قال بأنَّ عليًّا أوَّل الناس إسلامًا.

وقالا: أنشد المرزبان له في عليّ:

أليس أوَّل من صلَّى لقبلكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن؟؟

وذكر له الإسكافي في رسالته كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٩:

وصيُّ رسول الله من دون أهله وفارسه مذ كان في سالف الزمن

وأوَّل من صلَّى من الناس كلَّهم سوى خيره النسوان والله ذو المنن

وذكرهما له الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٤، وذكر قبلهما:

إذا نحن بايعنا عليًّا فحسبنا أبو حسن ممّا نخاف من الفتن

وجدناه أولى الناس بالناس أنّه أطبّ قريش بالكتاب وبالسنن (١)

٤٥. كعب بن زهير، ذكر الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ له. من قصيده يمدح بها أمير المؤمنين عليه السلام:

إنَّ عليًّا لميمون نقيته بالصالحات من الأفعال مشهور

صهر النبي وخير الناس كلَّهم فكلّ من رامه بالفخر مفخور

صلَّى الصلاة مع الأميِّ أوَّلهم قبل العباد وربُّ الناس مكفور

ص: ٤١٩

١- . ولهذه الأبيات بقيه توجد في الفصول المختاره: ٢٦٧.

٤٦. ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، ذكر جمع من الأعلام له أبيات وذكرها آخرون لغيره وهى:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرفٌ عن هاشمٍ ثمَّ منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلتهم؟! وأعلم الناس بالآيات والسنن؟!!

وآخر الناس عهداً بالنبىِّ؟ ومن جبريل عون له فى الغسل والكفن؟

من فيه ما فيهم ما تمترن به؟! وليس فى القوم ما فيه من الحسنِ

ماذا الذى ردَّكم عنه؟! فنعلمه ها إنَّ بيعتكم من أول الفتنِ

وذكر الإسكافى فى رسالته البيتين الأولين منها ونسبهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس حين بويع أبوبكر. شرح ابن أبى الحديد ٣ ص ٢٥٩.

٤٧. الفضل بن أبى لهب قال ردّاً على قصيده الوليد بن عقبه:

ألا إنَّ خير الناس بعد محمَّدٍ مهيمنه التالیه فى العرف والنكرِ

وخيرته فى خير ورسوله بنذ عهد الشرك فوق أبى بكر

وأول من صلى صنو نبىِّه وأول من أردى الغواه لدى بدر

فذاك على الخير من ذا يفوقه؟! أبو حسن حلف القرابه والصهر

٤٨. مالك بن عباده الغافقى حليف حمزه بن عبدالمطلب قال:

رأيت علياً لا يلبث قرنه إذا ما دعاه حاسراً أو مسربلاً

فهذا وفى الإسلام أول مسلم وأول من صلى وصام وهللاً

٤٩. أبو الأسود الدؤلى يهدد طلحه والزبير بقوله:

وإنَّ علياً لكم مصحراً يماثله الأسد الأسود

أما إِنَّهُ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ بِمَكَهَ وَاللَّهِ لَا يُعْبَدُ (١)

٥٠. جندب بن زهير كان يرتجز يوم صفين بقوله:

هذا عليٌّ والهدى حقًّا معه يا ربِّ فاحفظه ولا تضيِّعه

فإنَّه يخشاك ربِّي فارفعه نحن نصرناه علي من نازعه

صهر النبيِّ المصطفى قد طاعه أوَّل من بايعه وتابعه (٢)

٥١. زفر بن يزيد (٣) بن حذيفه الأسدي قال:

فحوطوا عليًّا فانصروه فإنَّه وصيُّ وفي الإسلام أوَّل أوَّل

وإن تخذلوه والحوادث جمَّه فليس لكم عن أرضكم متحوِّل (٤)

٥٢. النجاشي بن الحارث بن كعب قال:

فقل للمضلل من وائل ومن جعل الغتَّ يوماً سميئا

جعلت ابن هند وأشياعه نظير عليٍّ أما تستحونا؟!

إلى أوَّل النَّاس بعد الرسول أجاب النبيُّ من العالمينا

وصهر الرّسول ومن مثله إذا كان يوم يشيب القرونا؟! (٥)

٥٣. جرير بن عبدالله البجلي قال:

فصلّى الإله على أحمد رسول المليك تمام النعم

وصلّى على الطهر من بعده خليفتنا القائم المدّعم

عليًّا عنيت وصيَّ النبيِّ يجالده عنه غواه الأمم

ص: ٤٢١

١- . رساله الإسكافي كما شرح ابن أبي الحديد: ١٣/٢٣٢.

٢- . الغدير: ٢٣٠-٣/٢٣٢.

٣- . فى بعض المصادر: زفير بن زيد.

٤- . رساله الإسكافى كما فى شرح ابن أبى الحديد: ١٣/٢٣٢.

٥- . كتاب صفين لنصر بن مزاحم: ٦٦.

له الفضل والسبق والمكرما ت وبيت النبوه لا المهتمم

٥٤. عبدالله بن حكيم التميمي قال:

دعانا الزبير إلى بيعه وطلحه من بعد أن أثقلا

فقلنا: صفقنا بأيماننا فإن شئنا فخذنا الأشملا

نكتنم علياً على بيعه وإسلامه فيكم أولاً

٥٥. عبدالرحمن بن حنبل [جعل] الجمحي حليف بني الجمح قال:

لعمري لئن بايعتم ذا حفيظه على الدين معروف العفاف موقفاً

عفيفاً عن الفحشاء أبيض ماجداً صدوقاً وللبجبار قدماً مصدقاً

أبا حسن فارضوا به وتبايعوا فليس كمن فيه يرى العيب منطلقاً

عليّ وصيّ المصطفى ووزيره وأول من صلى لذي العرش واتقى (١)

٥٦. أبو عمرو عامر الشعبي الكوفي قال: أول من أسلم من الرجال عليّ بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين. رساله الإسكافي كما

في شرح ابن أبي الحديد: ٣ / ٢٦٠.

٥٧. أبو سعيد الحسن البصري قال: عليّ أول من أسلم بعد خديجه. أخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن قتاده عنه. ورواه

الإسكافي في رسالته عن عبد الرزاق كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

وقال الحجاج للحسن وعنده جماعة من التابعين وذكر عليّ بن أبي طالب:

ص: ٤٢٢

١- . كفايه الطالب للحافظ الكنجي: ٤٨.

ما تقول أنت يا حسن؟ فقال: ما أقول؟ هو: أوَّل مَنْ صَلَّى إِلَى الْقِبْلَةِ، وَأَجَابَ دَعْوَةَ رَسُولِ اللَّهِ. وَإِنَّ لِعَلِيِّ مَنْزِلَهُ مِنْ رَبِّهِ وَقَرَابَهُ مِنْ رَسُولِهِ، وَقَدْ سَبَقَتْ لَهُ سَوَابِقٌ لَا يَسْتَطِيعُ رَدَّهَا أَحَدٌ. فَغَضِبَ الْحِجَّاجُ غَضَبًا شَدِيدًا وَقَامَ عَنْ سَرِيرِهِ فَدَخَلَ بَعْضَ الْبُيُوتِ.

وقال رجل للحسن: مالنا لا نراك تشي على عليّ وتقرّظه؟ قال: كيف؟! وسيف الحجاج يقطر دماً، إنّه أوَّل مَنْ أَسْلَمَ، وحسبكم بذلك. رساله الإسكافي كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

٥٨. الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام قال: أوَّل مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

٥٩. قتاده بن دعامة الأكمه البصرى قال: عليّ أوَّل مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ خَدِيجِهِ.

أخرجه أحمد كما سمعت، والقسطلاني عدّه ممّن قال به في المواهب ١ ص ٤٥، وأقرّه الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢.

٦٠. محمّد بن مسلم المعروف بابن شهاب (١) عدّه القسطلاني في المواهب ١ ص ٤٥، وأقرّه الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢ من القائلين بأنّ عليّاً أوَّل مَنْ أَسْلَمَ.

٦١. أبو عبد الله محمّد بن المكندر المدني قال: عليّ أوَّل مَنْ أَسْلَمَ. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٢. أبو حازم سلمه بن دينار المدني قال: عليّ أوَّل مَنْ أَسْلَمَ. تاريخ الطبري ١ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٣. أبو عثمان ربيعه بن أبي عبد الرحمن المدني قال: عليّ أوَّل مَنْ أَسْلَمَ.

ص: ٤٢٣

تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٤. أبو النضر محمد بن السائب الكلبى قال: على أول من أسلم، وهو ابن تسع سنين. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٥. محمد بن إسحاق قال: كان أول ذكر آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصلى معه وصدقته بما جاءه من عند الله على بن أبي طالب وهو يومئذ ابن عشر سنين (١) وكان ممّا أنعم الله به على على بن أبي طالب أنه كان فى حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الإسلام.

وقال: وذكر بعض أهل العلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكّة وخرج معه على بن أبي طالب، مستخفياً من عمّه أبى طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصلّيان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا، ثمّ إنّ أبى طالب عثر عليهما يوماً وهما يصلّيان فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا بن أخى ما هذا الدين؟ الحديث.

تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. سيره ابن هشام ١ ص ٢٦٤، ٢٦٥. سيره ابن سيّد الناس ١ ص ٩٣. الكامل لابن الأثير ٤ ص ٢٢. شرح ابن أبى الحديد ٣ ص ٢٦٠.

السيره الحليّه ١ ص ٢٨٧.

٦٦. جُنيد بن عبد الرّحمن قال: أتيت من حوران إلى دمشق لآخذ عطائى فصلّيت الجمعة ثمّ خرجت من باب الدرج فإذا عليه شيخٌ يقال له: أبو شيبه القاصّ يقصّ على الناس، فرغب فرغبنا، وخوف فبكينا، فلما انقضى حديثه قال: اختموا مجلسنا بلعن أبى تراب. فلعنوا أبى تراب عليه السلام، فالتفت إلى من على يمينى فقلت له:

فمّن أبو تراب؟ فقال: على بن أبى طالب ابن عمّ رسول الله، وزوج ابنته، وأولّ الناس إسلاماً، وأبو الحسن والحسين. فقلت: ما أصاب هذا القاصّ؟! فقلت إليه

ص: ٤٢٤

١- . فى الكامل لابن الأثير: ٢/٣٢: احدى عشره سنه. نقلاً عن ابن اسحاق.

وكان ذا وفره فأخذت وفرته بيدي وجعلت ألطم وجهه وأبطح برأسه الحائط، فصاح فاجتمع أعوان المسجد فوضعوا ردائي في رقبتي وساقوني حتى دخلوني على هشام بن عبد الملك وأبو شيبه يقدمني فصاح: يا أمير المؤمنين؟ قاصِّك وقاصِّ آبائك وأجدادك أتى إليه اليوم أمرٌ عظيمٌ. قال: مَنْ فعل لك؟ فقال: هذا. فالتفت إليَّ هشام وعنده أشراف النَّاس فقال: يا أبا يحيى؟ متى قدمت؟ فقلت: أمس وأنا على المصير إلى أمير المؤمنين فأدر كتنى صلاه الجمعة فصلَّيت وخرجت إلى باب الدرج فإذا هذا الشيخ قائمٌ يقصُّ فجلست إليه فقراً فسمعنا، فرغَّب مَنْ رَغَّب، وخوَّف مَنْ خوَّف؛ ودعا فأمنَّا، وقال في آخر كلامه: اختموا مجلسنا بلعن أبي تراب، فسألت مَنْ أبو تراب؟

ف قيل: عليُّ بن أبي طالب، أوَّل الناس إسلاماً، وابن عم رسول الله، وأبو الحسن والحسين، وزوج بنت رسول الله. فوالله يا أمير المؤمنين؟ لو ذكر هذا قرابه لك بمثل هذا الذكر ولعنه بمثل هذا اللعن لأحلت به الذي أحلت، فكيف لا أغضب لصهر رسول الله وزوج إبتته؟! فقال هشام: بئس ما صنع. تاريخ ابن عساكر ٣ ص ٤٠٧ (١).

هذه جملة من النصوص النبويَّة، والكلم المأثوره عن أمير المؤمنين والصحابه والتابعين في أنَّ علياً أوَّل مَنْ أسلم: وهي تربو على مائه كلمه، أضف إليها ما مرَّ (ج ٢ ص ٢٧٦) من أنَّ أمير المؤمنين سبق هذه الأمه. وأشفع الجميع بما أسلفناه (ج ٢ ص ٣٠٦) من أنَّ صلوات الله عليه صديق هذه الأمه، وهو الصديق الأكبر.

فهل تجد عندئذ مساعاً لمكابره ابن كثير تجاه هذه الحقيقه الراهنه وقوله:

وقد ورد في أنَّه أوَّل من أسلم. إلخ؟! فإذا لا يصحُّ مثل هذه فما الذي يصحُّ؟ وإن كان

ص: ٤٢٥

لا يصحّ شيء منها فما قيمه تلك الكتب المشحونه بها؟! كلاً، إنّها كلمه هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون.

وأنت ترى الرجل يزيّف هذه الكلم والنصوص الكثيره الصحيحه بحكم الحفظ الأثبات بكلمه واحده قارصه، ويعتمد في إثبات أيّ أمر يروقه في تاريخه على المراسيل والمقاطع والآحاد، ونقل المجاهيل وأفناء الناس. انتهى كلام العلامة الأميني قدس سره. (١)

مناظره بين المأمون وإسحاق:

ولقد دار بين المأمون العباسي وإسحاق وهو من العلماء المشهورين حوار طريف في هذا المجال ينقله ابن عبد ربّه في كتابه «العقد الفريد» نذكر هنا خلاصته:

قال المأمون: يا إسحاق أي الأعمال كان أفضل يوم بعث الله رسوله؟

إسحاق: الإخلاص بالشهاده.

المأمون: أليس سبق إلى الإسلام؟

إسحاق: نعم.

المأمون: اقرأ ذلك في كتاب الله يقول: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» (٢) إنّما عني من سبق إلى الإسلام، فهل علمت أحداً سبق علينا إلى الإسلام؟

إسحاق: إنّ علينا أسلم وهو حديث السنّ لا يجوز عليه الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم.

وهنا أمسك المأمون بزمام الكلام وقال:

ص: ٤٢٦

١- . الغدير: ٣/٢١٩-٢٣٦.

٢- . الواقعه: ١٠-١١.

أخبرني عن إسلام عليّ حين أسلم لا يخلو من أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهاماً من الله؟

قال إسحاق: بل دعاه رسول الله إلى الإسلام.

قال المأمون: يا إسحاق هل يخلو رسول الله حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر من الله أو تكلف ذلك من نفسه؟

ثم قال: يا إسحاق لا تنسب رسول الله إلى تكلف فإن الله يقول: «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» (١).

فإذا دعاه بأمر الله وليس من صفه الجبار - جلّ ذكره - أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم، أفتراه في قياس قولك يا إسحاق؟ أن عليّاً أسلم صبيّاً لا- يجوز عليه الحكم قد تكلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من دعاء الصبيان ما لا يطيقون. (٢)

وعلى هذا الأساس يجب اعتبار إيمان عليّ عليه السلام إيماناً صحيحاً ثابتاً لم يقل عن إيمان الآخرين أهمية وقيمة بل هو أفضل مصداق لقوله تعالى:

«وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» ، هو الإمام علي بن أبي طالب.

قضية «انقطاع الوحي»

لقد أضاءت روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونفسه الشريفه واستنارت بنور الوحي، ودفعه ذلك إلى التأمل والتفكير في الوظيفة الكبرى والثقله التي جعلها الله على كاهله، وخاصه عندما خاطبه الله تعالى بقوله: «يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ» (٣).

ص: ٤٢٧

١- . ص: ٨٦.

٢- . العقد الفريد: ٥/٣٥٢، طبعه بيروت، دار الكتب العلميه، و ج ٥/٩٤، طبعه لجنه التأليف، القايره.

٣- . المدثر ١-٣.

وهنا طرح المؤرّخون و بخاصّه الطبريّ الذّي لا يخلو تاريخه من الأساطير الإسرائيليّة قضيه باسم «انقطاع الوحي» فقالوا: إنّ رسول الله بعد أن رأى ذلك المَلَك وسمع منه الآيات الأولى من القرآن الكريم بقي ينتظر نزولَ خطاب آخر من جانب الله تعالى، ولكن دون جدوى، فهو لم يرَ ذلك المَلَك الجميل بعد ذلك، ولا أنّه سمع النداء الغيبيّ مرّه أخرى على غرار ما رأى وسمع في بدء نزول الوحي. ولو كان لانقطاع الوحي في بدايه عهد الرساله (الذي ادّعاء هؤلاء) حقيقه فما هو سوى النزول التدريجي للقرآن ليس إلّا.

وقد تعلّقت المشيئه الإلهيه أساساً بأن ينزل الوحي على رسول الله تدريجاً، لا دفعه واحده وذلك لمصالح معينه، وحيث إنّ الأمر في بدء الوحي كان على أوّله وفي بدايته، لذلك لم ينزل الوحي الإلهي بعد المرّه الأولى فوراً، ولكن حُمِلَ هذا على «انقطاع الوحي» ولم يكن لا انقطاع الوحي ولا أيّه مسأله أخرى من هذا القبيل.

وحيث إنّ هذه المسأله قد تذرّع بها الكتّاب المغرضون لذلك ينبغي أن نعطيها بعض الاهتمام ليتّضح أنّ ما ادّعى من انقطاع الوحي، قضيه فارغه عن الحقيقه ولذلك لا صحه لتطبيق الآيات القرآنيه عليها.

ولتوضيح هذا الأمر ننقل هنا نصّ ما كتبه الطبريّ ونقله في تاريخه، ثم نعمل بعد ذلك إلى نقده.

يكتب الطبري حول بدايه نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما تبعه من أحداث قائلاً: ... ثم أبطأ عليه (على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجزع جزعاً شديداً) جبريل فقالت له خديجه: ما أرى ربك إلّا قد قلاك، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ قوله: «وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَاللَّآخِرَهُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» (١). (٢)

ولقد أوجد نزول هذه الآيات سروراً عظيماً لدى خديجه عليها السلام، وعلمت بأن ما قالته حول رسول الله لا أساس له من الصحه.

أسطوره وليس تاريخاً!

إنّ ذاكرة التاريخ تحفظ وتذكّر جيّداً تاريخ حياه السيده خديجه.

إنّ خديجه التي كانت أخلاق محمّد الفاضله وخصاله المجيده، وأفعاله الحميده ماثله أمام عينيها والتي كانت تؤمن بعدل ربّها، كيف يجوز أن تسيء الظن بالله تعالى وبنبيّه الكريم، العظيم الشأن؟!

إنّ مقام النبوه ومنصب الرساله، والسفاره الإلهيه لا يُعطى إلّا لمن يملك طائفه من الصفات النبيله والخصال الرفيعه، وما لم يتّصف شخصُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الصفات العليا، وما لم تتوفّر فيه مثل هذه الشرائط الخاصه والمواصفات المعينه لم يُمنح له ذلك المنصب قط. وتقع العصمه والسكينه القليه، والاعتماد والتوكل في طليعه هذه الخصال والمواصفات، ومع هذه الأوصاف والخصال يستحيل أن يدور في خلدّه مثل تلك التصوّرات الخاطئه.

ولقد قال العلماء: إنّ المسيره التكاملية عند الأنبياء تبدأ من فتره الطفوله والصباه، فإنّ الغشاوات والحجب تبدأ تتساقط وتنقشع الواحده تلو الأخرى منذ ذلك الوقت، ويستمر ذلك حتّى تصل الإحاطه العلميه لديهم حدّ الكمال فلا يشكّون في شيء يروونه أو يسمعونّه أبداً، ومن حاز هذه المراتب لا يمكن أن يتطرّق الشكّ والحيره والتردد إلى قلبه وعقله مطلقاً.

ص: ٤٢٩

١- الضحى: ١-١١.

٢- تاريخ الطبري: ٢/٤٨.

إِنَّ آيَاتِ سُورَةِ «الضُّحَى» وَخَاصَّةً عِبَارَةَ «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى» (١) تَفِيدُ فَقَطْ بِأَنَّ هُنَاكَ مِنْ قَالِ مِثْلَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ لِلنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّا مَنْ هُوَ قَائِلُهَا؟ وَكَمْ تَرَكْتَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ مِنْ تَأْثِيرِ فِي نَفْسِيهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَرُوحِيَّتِهِ فَهِيَ سَاكِنَةٌ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ؟ وَذَهَبَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَائِلَهَا هُمْ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ، وَلِهَذَا الْإِحْتِمَالُ لَا تَكُونُ جَمِيعَ الْآيَاتِ مُرْتَبِطَةً بِبَدَأِ الْوَحْيِ، لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ غَيْرَ «عَلِيٍّ» وَ «خُدَيْجِهِ» كَانَ يَعْرِفُ فِي بَدَأِ الْبَعْثِ بِنَزُولِ الْوَحْيِ، لَيْتَسَّنَى لَهُ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَيَعْتِيرَهُ بِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّ أَمْرَ الْمَبْعُوثِ وَالرِّسَالَةِ - كَمَا سَنَقُولُ ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ - بَقِيَ خَافِيًا عَلَى أَكْثَرِ الْمُشْرِكِينَ لِمَدَّةِ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ تَمَامًا، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ مَكْلَفًا بِإِبْلَاقِ رِسَالَتِهِ إِلَى عَامَّةِ النَّاسِ، إِلَى أَنْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» (٢) الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ فِيهِ بِالْجَهْرِ بِأَمْرِ رِسَالَتِهِ لِعَامَّةِ النَّاسِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ.

اِخْتِلَافُ الْمُؤَرِّخِينَ فِي مَسْأَلَةِ «انْقِطَاعِ الْوَحْيِ»

لَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أُمَّ ذَكَرَ مُطْلَقًا لِمَسْأَلَةِ (انْقِطَاعِ الْوَحْيِ) بَلْ لَمْ تَرِدْ بِهِ إِشَارَةٌ أَيْضًا، إِنَّمَا نَلَاخِظُهَا فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّفْسِيرِ فَقَطْ، وَيَخْتَلِفُ كُتَّابُ السِّيَرِ وَالمُؤَرِّخُونَ فِي عِلْمِهِ (انْقِطَاعِ الْوَحْيِ) هَذَا، وَمُدَّتُهُ اِخْتِلَافًا كَبِيرًا يَجْعَلُنَا لَا نَعْتَمِدُ عَلَى أُمَّ وَاحِدٍ مِنْهَا، وَهِيَ نَحْنُ نَشِيرُ إِلَيْهَا بِشَكْلِ مَا:

١. أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَعَنْ الرُّوحِ، وَعَنْ قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: سَأُخْبِرُكُمْ غَدًا، وَلَمْ يَسْتَنْ، فَاحْتَبَسَ عَنْهُ الْوَحْيُ. (٣)

ص: ٤٣٠

١- . الضحى: ٣.

٢- . الحجر: ٩٤.

٣- . روح المعاني: ٣٠/١٥٧. ولاحظ: السيرة الحلبية: ١/٤٩٩.

بناء على هذا لا يمكن أن نربط هذه المسألة ببدء الوحي ومطلع عهد الرساله لأن اتصال علماء اليهود وأخبارهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق قريش وسؤالهم إياه حول هذه الأمور الثلاثة، وقع في حدود السنه السابعه من البعثه يوم توجه وفد من قريش إلى المدينه لیسألوا علماء اليهود عن صحه ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاقترح اليهود عليهم أن يسألوا النبي عن تلك الأمور الثلاثة. (١)

٢. قالت خوله - كانت تخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم -: إن جرواً دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم أياماً لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خوله ما حدث في بيتي، ما بجبرئيل لا يأتيني؟ قالت خوله: فقلت لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكمنه تحت السرير فإذا جروٌ ميت فألقيته خلف الجدار... فأنزل الله هذه السوره، ولما نزل جبرئيل سأله النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن التأخر؟ فقال: أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صوره. (٢)

٣. إن المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال:

«وكيف ينزل علي وأنتم لا تنقون رواجبكم، ولا تقصون أظفاركم، ولا تأخذون من شواربكم»؟ فنزل جبرئيل بهذه السوره. (٣)

٤. أهدى عثمان إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنقود عنب وقيل عذق تمر، فجاء سائل فأعطاه ثم اشتراه عثمان بدرهم فقدمه إليه صلى الله عليه وآله وسلم ثانياً ثم عاد السائل فأعطاه، وهكذا ثلاث مرّات، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ملاطفاً لا غضبان: أسألك أنت يا فلان أم تاجر؟ فتأخر الوحي أياماً فاستوحش، فنزلت السوره. (٤)

ص: ٤٣١

١- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١/١٩٦.

٢- . تفسير القرطبي: ٩٣/٢٠.

٣- . تفسير القرطبي: ٩٣/٢٠.

٤- . روح المعاني: ١٥٧/٣٠.

٥. إن جرواً لأحد نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو أحد أقربائه حال دون نزول الوحي عليه. (١)

٦. إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سأل جبرئيل عن تأخر الوحي؟ قال جبرئيل: لا أملك من نفسي شيئاً إنما أنا عبدٌ مأمورٌ. (٢)

ثم إن هناك أقوالاً أخرى يمكن الحصول عليها من مراجعه التفاسير. (٣)

ولكن الطبري نقلَ وجهاً آخر تمسك به المغرضون والمرضى من الكتاب واعتبروه دليلاً على طرود الشك على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو أن الوحي انقطع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد حادثه (حراء) فقالت خديجة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما أرى ربك إلا قد قلاك!!
فأنزل الله:

«وَ الضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى» (٤)

ومما يدل على أهداف هذا النوع من الكتاب، المريضه، أو عدم تتبعهم واستقصائهم، أنهم تمسكوا من بين جميع الأقوال بهذا الاحتمال، واستندوا إليه للحكم على شخصيه كرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي لم ير في حياته أى أثر للشك والحيره مطلقاً.

وإننا مع ملاحظه النقاط التاليه يمكننا أن نقف على بطلان هذا الاحتمال وتفاهته:

١. لقد كانت السيده خديجه من النساء اللواتي أحبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حباً

ص: ٤٣٢

١- غرائب القرآن فى هامش تفسير الطبرى: ٣٠/١٠٨.

٢- تفسير أبوالفتوح الرازى: ١٢/١٠٨.

٣- مجمع البيان: ١٠ / تفسير سوره الضحى.

٤- تفسير الطبرى: ٣٠/٢٩١.

صادقاً وعميقاً، فهي التي وفّت لزوجها حتى النفس الأخير، ووقفت ثروتها الطائلة لتحقيق أهدافه، وكانت في عام البعثة قد قضيت خمسة عشر عاماً من حياتها الزوجية، ولم تر خديجه طوال هذه الفترة من زوجها إلا التقوى والطهر ولم تلمس منه إلا كرم الصفات ونبيل الأخلاق، فقد كانت من المصدقين له صلى الله عليه وآله وسلم من أول يوم وكانت تراعى نهايه الأدب في تكلمها معه وعشرتها إياه صلى الله عليه وآله وسلم فكيف تتكلم مثل هذه المرأة المؤمنه الوفيه، مع زوجها بغليظ القول، وتوجه له مثل هذه الكلمه غير المهذبه، بل والجارحه!!؟

٢. إن آيه: «ما ودّعك ربك وما قلى» لا تدل على أنّ «خديجه» قالت مثل هذا الكلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل غاية ما تفيد هذه الآية هي أنّ مثل هذا الكلام قد وُجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمّا من هو القائل، ولماذا قال هذا الكلام؟ فليس ذلك معلوماً.

٣. إنّ ناقل هذه الروايه يصف «خديجه» تاره بأنّها طمأنّت النبيّ، وسكّنت من روعه إلى درجه أنّها منعتة عن الانتحار، ولكنّه يصفها تاره أخرى بأنّها قالت له بأنّ الله عاداه وقلّاه، ألا ينبغي هنا أن نقول: «كن ذكوراً ثم أكذب»؟!؟

٤. إذا كان الوحيّ قد انقطع بعد حادثه جبل (حراء) ونزول بضع آيات من سوره «العلق» إلى أن نزلت سوره «الضحى»، فذلك يقتضى - في هذه الصوره - أن تكون سوره «الضحى» ثانى سوره من حيث الترتيب التاريخى لنزول السور، في حين أنّ تاريخ نزول الآيات و السور القرآنيه يفيد أنّها السوره الحاديه عشره من سور القرآن الكريم؛ لأنّ فهرس السور القرآنيه حسب نزولها هو كالتالى:

١. العلق.

٢. القلم.

٣. المزمل.

ص: ٤٣٣

٤. المدثر.

٥. تبت (المسد).

٦. التكوير.

٧. الأعلى.

٨. الإنشراح.

٩. والعصر.

١٠. الفجر.

١١. الضحى. (١)

نعم انفراد اليعقوبى من بين المؤلفين باعتبار سورة الضحى - فى تاريخه (٢) - السوره الثالثه من حيث تاريخ النزول، وحتّى هذا الرأى لا ينسجم مع القصة المذكوره «انقطاع الوحى».

الإختلاف فى مدّه انقطاع الوحى

لقد تعرّض تحديد مدّه انقطاع الوحى بشكله المزعوم لإبهام كبير، فقد ذكر ذلك بصور مختلفه فى التفاسير والأقوال التالىه هى:

٤. أيام.

١٢. يوماً.

١٥. يوماً.

١٩. يوماً.

ص: ٤٣٤

١- . تاريخ القرآن للزنجانى: ٥٨.

٢- . تاريخ اليعقوبى: ٢/٣٣.

٢٥. يوماً.

٤٠. يوماً.

ولكن بعد دراسته فلسفه النزول التدريجي للقرآن الكريم سنرى أنّ انقطاع الوحي وتوقفه لم يكن حدثاً إستثنائياً، لأنّ القرآن الكريم أعلن منذ أوّل يوم أنّ المشيئة الإلهية تعلّقت بأن ينزل القرآن بصورة تدريجيه، منجمه إذ يقول تعالى:

«وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ» (١).

ويكشف القرآن النقاب - فى موضع آخر - عن سرّ نزول القرآن تدريجاً إذ قال:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً» (٢).

ومع ملاحظه طريقه نزول الآيات والسور القرآنيه هذه يجب أن لا يتوقع نزول الآيات كلّ يوم وكلّ ساعه، وأن ينزل جبرئيل على النبى على الدوام، ويأتى إليه بالآيات دون انقطاع، بل إنّ الآيات القرآنيه كانت تنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى فواصل زمنيه مختلفه وفقاً للاحتياجات، وبحسب الأسئلة المطروحه على النبى، ولأسرار أخرى فى النزول التدريجي شرحها علماء الإسلام (٣).

وفى الحقيقه لم يكن هناك ما يُسمّى بانقطاع الوحي، بل كلّ ما كان فى الأمر هو أنّه لم يكن ثمه ما يوجب النزول الفورى، والمتلاحق للوحي.

ص: ٤٣٥

١- .الإسراء: ١٠٦.

٢- .الفرقان: ٣٢.

٣- . راجع للوقوف على هذه المسأله: «مفاهيم القرآن»: ٢/١٢٢-١٢٤ معالم الحكومه الإسلاميه.

استمرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو إِلَى دِينِهِ سِرًّا مَدَّةَ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ. وَقَدْ عَمَّيَدَ فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ إِلَى بِنَاءِ الْكُوَادِرِ وَإِعْدَادِهَا بِدَلِّ تَوْجِيهِ الدَّعْوَةِ إِلَى عَامَّةِ النَّاسِ، فَإِنَّ اعْتِبَارَاتٍ مَعَيَّنَةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ تَوْجِبُ أَنْ لَا يَجْهَرُ بِدَعْوَتِهِ وَلَا يُعْلِنَ عَنْ رِسَالَتِهِ، وَيَكْتَفِي بِالْإِتِّصَالَاتِ الْفَرْدِيَّةِ السَّرِّيَّةِ وَيَدْعُو أَشْخَاصًا مَعَيَّنِينَ إِلَى دِينِهِ.

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ السَّرِّيَّةُ هِيَ السَّبَبُ فِي أَنْ يَنْجَذِبَ إِلَى الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ، وَتَوَاجَهَ دَعْوَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ بِالْقَبُولِ، وَقَدْ سَجَّلَ التَّارِيخُ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ مِنْ عَهْدِ الرِّسَالَةِ، وَتَارِيخِ الْإِسْلَامِ، وَالْيَكِّ بَعْضَهُمْ:

١. السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ (زَوْجَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ).

٢. عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٣. زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ.

٤. الزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَامِ.

٥. عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ.

٦. سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ.

٧. طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ.

٨. أَبُو عُبَيْدَةَ الْجَرَّاحِ.

٩. أَبُو سَلْمَةَ.

١٠. الأرقم بن أبي الأرقم.

١١. عثمان بن مظعون.

١٢. قدامه بن مظعون.

١٣. عبدالله بن مظعون.

١٤. عبيده بن الحارث.

١٥. سعيد بن زيد.

١٦. خباب بن الأرت.

١٧. أبوبكر بن أبي قحافه.

١٨. عثمان بن عفان.

وغيرهم من الذين قبلوا دعوه النبي، وآمنوا بنبوته في هذه الفتره. (١)

ولقد كان أقطاب قريش و أسيادها منهمكين - طيله هذه الأعوام الثلاثه - في لهوهم ومجونهم، ومع أنهم كانوا قد عرفوا بعض الشىء عن دعوه النبي السريه إلا أنهم لم يظهرُوا أيه ردّه فعل تجاهها، ولم يقوموا بشىء ضدّها.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه السنوات التي تعتبر فتره صياغه الفرد يخرج مع بعض أتباعه إلى شعاب مكّه للصلاه فيها بعيداً عن أنظار قريش.

واتفق أن رآهم بعض المشركين في ما كانوا يصلّون في شعب من شعاب مكّه، واستنكروا عملهم هذا، وأذى ذلك إلى منازعه عابره بينهم وبين المشركين جرح على أثرها أحد المشركين على يدى «سعد بن أبى وقاص» أحد المسلمين، ومن هنا قرّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتّخاذ بيّت «الأرقم بن أبى الأرقم» محلّاً للعباده بدل

ص: ٤٣٧

شعاب مكه، ليستطيع القيام فيه بالتبليغ والعباده بحريه وأمان، بعيداً عن أعين المشركين. (١) ولقد كان «عمّار بن ياسر» و «صهيب بن سنان» الرومىّ مَمّن آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك البيت. (٢)

دَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ

يبدأ العقلاء من الناس من أصحاب البرامج الواسعه والمشاريع الكبرى، أعمالهم الكبرى - عاده - من بدايات صغيره ونقاط محدده، فإذا حقّقوا نجاحاً في هذه البدايات بادروا إلى توسيع نطاق نشاطهم فوراً، وهكذا جنباً إلى جنب مع النجاحات التي يحقّقونها في كلّ خطوه يوسّعون دائره العمل، ويجتهدون في تحقيق المزيد من النجاح، والتكامل لما هم بصددّه.

ولقد سأل أحد الشخصيات زعيماً في دوله كبيره من الدول الكبرى المعاصره: ما هو سرّ نجاحكم في الأعمال الإجتماعيه، وما هو الأمر الذي يساعدكم على النجاح في مشاريعكم؟

فأجابّه ذلك الزعيم قائلاً: إنّ طريقه عملنا نحن الغربيين تختلف عن طريقكم أنتم أهل الشرق، فنحن دائماً نخطّط لمشاريع كبرى و نبدأ من مكان صغير، وبعد إحراز النجاح نعمل إلى توسيع نطاق العمل، وإذا اكتشفنا في منتصف الطريق خطأ برنامجنا غيرنا أسلوب عملنا، وعدلنا إلى طريقه أخرى، وبدأنا بعمل آخر.

ص: ٤٣٨

- ١- لاحظ: تاريخ الطبري: ٢/٤١.
- ٢- هذا البيت كان عند جبل الصفا، وكان معروفاً إلى مدّه ب «دار الخيزران». أسد الغابه: ٤/٤٤، السيره الدحلانيه بهامش السيره الحلييه: ١/١٩٢؛ السيره الحلييه: ١/٤٥٦.

أمّا أنتم الشريكون فتدخلون ساحه العمل فى برامجكم الكبرى من مكان كبير، وتبدأون من نقطه واسعه، وتحاولون تطبيق مشروعكم جمله واحده، فإذا واجهتم فى خلال العمل طريقاً مسدوده لم يكن فى إمكانكم أن ترجعوا من منتصف الطريق إلّا بتحمل خسائر كبرى فادحه.

هذا مضافاً إلى أنّ أنفسكم كأنّها قد عُجنت بالعجله ولذلك تؤدّون قطفَ ثمار جهودكم ونتيجه عملكم فى الحال دونما صبر وترقّب وانتظار، وهذه هى بنفسها طريقه تفكير إجتماعيه خاطئه، من شأنها أن تجعل الإنسان أمام طرق مسدوده كثيره وغريبه. هذا ما قاله ذلك الغربى.

ولكن الذى نتصوّره ونعتقده نحن هو: أنّ هذه الطريقه من التفكير لا ترتبط لا بالشرق ولا بالغرب، بل هى ميزه العقلاء الأذكياء من الناس، فإنّهم يعتمدون هذا الأسلوب لإنجاح مهامهم، وتحقيق مقاصدهم.

ولقد اتّبع قائد الإسلام الأكبر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم هذه الطريقه فى عمله الرسالى فركّز جهده على الدعوه السريه إلى دينه مدّه ثلاثه أعوام من دون تعجّل، وكان يعرضُ دينه على كلّ من وجدّه أهلاً للدعوه، ومستعدّاً من الناحيه الفكرية للتبليغ.

فرغم أنّه كان يهدف إلى تشكيل دوله عالميه كبرى ينضوى تحت لوائها (لواء التوحيد) جميع أفراد البشريه، إلّا أنّه لم يعمد إلى الدعوه العامه طيله هذه الأعوام الثلاثه، بل لم يوجه الدعوه الخاصه حتّى إلى أقاربه، إنّما اكتفى بالاتصال الشخصى بمن وجدّه مؤهلاً وصالحاً للدعوه، ومستعدّاً لقبول الدين، حتّى أنّه استطاع فى هذه الأعوام الثلاثه أن يكسب فريقاً من الأتباع من الذين اهتدوا إلى دينه وقبّلوا دعوته.

وقد كان زعماء قريش - كما أسلفنا - منهمكين طوال هذه الأعوام الثلاثة في اللذّة والهوى وكان فرعون «مكّه» وطاغيتها: «أبوسفيان» وجماعته كلّما سمِعوا بالدّعوه أطلقوا ضحكهم استهزاء وقالوا لأنفسهم: إنّها أيام وتنطفئ بعدها شعله الدعوه هذه فوراً، تماماً كما انطفأت من قبل دعوه «ورقه» و «أمّيه» (اللّذين أخذوا يحبذان إلى العرب التوجّه نحو المسيحيه ونبذ الوثنيه بعد أن قرءا الإنجيل والتوراه) وبالتالي لن يمرّ زمان حتّى يُنسى هذا الأمر، ويغدو خبراً بعد أثر، بل لا شيء يُذكر.

بهذا التصوّر، وبهذه العقليّه واجهت زعامه «مكّه» دعوه النّبىّ في البدايه، ولهذا لم يقدّم زعماء قريش خلال هذه السنوات الثلاث بأى عمليّ عدائى ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل ظلّوا ينظرون إليه بنظر الإحترام، ويُرَاعون معه قواعد الأدب والسلوك، وكان النّبىّ هو أيضاً لا يتعرّض لأصنامهم وآلهتهم في هذه الأعوام الثلاثة بسوء ولا يتناولها بالنقد والاعتراض بصوره علنيه، بل كان مركزاً جهده على الاتصال الشخصى بذوى البصائر من الأشخاص وهدايتهم إلى دينه الحنيف.

ولكن منذ أن بدأ النّبىّ دعوه الأقربين وأخذ ينتقد وثّيتهم، ويذكر أوّثانهم بسوء ويعترض على تصرّفاتهم اللاإنسانيه أصبح حديث الألسن. ومنذ ذلك اليوم أيضاً بدأت يقظه قريش، وعرفوا أمر محمّد يختلف عن أمر «ورقه» و «أمّيه» اختلافاً بيناً وأنّه ليين الدعوتين فرقاً كبيراً، ولهذا بدأت المعارضه والمخالفه السريّه والعلنيه، لدعوه النّبىّ.

وقد بدأ النّبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بكسر جدار الصمت بدعوه أقربائه إلى دينه ثم شرع بعد ذلك بدعوه الناس أجمعين.

على أنّه ما من شكّ في أنّ الإصلاحات العميقه التى يراد لها أن تترك أثراً في جميع شؤون الناس وكلّ مناحى حياتهم، وتغيّر مسير المجتمع تحتاج قبل أى شيء إلى قوتين:

١. قوّة البيان، بأن يستطيع الداعيه والمصلح بيان الحقائق التي جاء بها من أفكاره الخاصه، أو ما تلقاه عن طريق آخر إلى الناس بأسلوب جذاب، يأسر القلوب، ويسحر العقول.

٢. القوّة الدفاعية التي يستطيع تشكيل خطّ دفاعي منها عند التعرّض لهجوم الأعداء والخصوم، وفي غير هذه الصوره ستنتفيء شعله الدعوه ويفشل المصلح في خطاه الأولى.

ولقد كان البيان لدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى مرتبه من الكمال فكان قادراً كأقوى خطيب على بيان تعاليم دينه للناس في غايه الفصاحه والبلاغه. ولكنّه كان يفتقر في الأيام الأولى من دعوته إلى عنصر (القوّة الثانيه)، أي (القوّة الدفاعيه)، الرادعه الحاميه، لأنه استطاع في السنوات الثلاث الأولى من رسالته أن يضم إلى دعوته قرابه أربعين شخصاً، وذلك في الظروف السريه الشديده، ولا- ريب أنّ تلك القلّه القليله من الأتباع لم تكن قادره على أن تتولّى مسؤوليه الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحمايه رسالته.

من هنا عمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبهدف تحصيل القوّة الدفاعيه المطلوبه وتشكيل النواه المركزيه إلى دعوه أقربائه إلى دينه قبل التوجّه بالدعوه إلى عامه الناس، ليتمكّن من هذا الطريق، أن يزيل النقص من جهه عدم وجود القوه الثانيه، ويكون منهم سياجاً قوياً يحفظه، ويحفظ رسالته من الأخطار المحتمله.

على أنّ فائده هذه الدعوه كانت على الأقل دفع أبناء عشيرته إلى الدفاع عنه بدافع القربى والرحم على فرض أنّهم لم يؤمنوا برسالته، ولم يقبلوا دعوته.

هذا مضافاً إلى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعتقد أنّ أيّ إصلاح وتغيير لابد أن يبدأ من إصلاح الداخل وتغييره، فما لم يستطع الإنسان من إصلاح أبنائه وأقربائه وردعهم

عن قبائح الأفعال لا يمكن لدعوته أبداً أن تؤثر في الأجانب والأبعدين، لأن المناوئين سيعترضون عليه لدعوته في هذه الحالة، ويشيرون إلى أفعال أبنائه وعشيرته.

من هنا أمره الله تعالى بأن يدعو عشيرته الأقربين إذ خاطبه قائلاً:

«وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (١).

كما أنه خاطبه بصدد دعوته الناس عامه بقوله:

«فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» (٢).

كيفية دعوته الأقربين

كانت طريقته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته الأقربين طريقته جميلة وذكيه جداً، فقد تجلّت في ذلك حقيقته أوضحت أسرار هذه الدعوه في ما بعد أكثر فأكثر.

فإنّ المفسرين كتبوا عند قوله تعالى: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (٣) وكذا الأغلبية القريبه للإجماع من المؤرخين أنّ الله أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ ينذر عشيرته الأقربين ويدعوهم إلى دينه ورسالته فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بن أبي طالب الذي كان آنذاك في ربيعه الثالث عشر أو الخامس عشر بأن يُعدّ طعاماً ولبناً، ثم دعا صلى الله عليه وآله وسلم خمساً وأربعين رجلاً - من سراه بنى هاشم ووجوههم، وعزم على أن يبوح لضيوفه ويكشف لهم عن أمر رسالته في خلال تلك الضيافه إلّا أنه - وللأسف - ما أن انتهوا من الطعام حتّى بادر أبو لهب فتكلّم بكلمات سخيفه قبل أن يتحدّث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ممّا جعل الجوّ غير مناسب لأنّ يطرح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم موضوع

ص: ٤٤٢

١- . الشعراء: ٢١٤.

٢- . الحجر: ٩٤ و ٩٥.

٣- . الشعراء: ٢١٤.

رسالته عليهم، فانفضَّ المجلسُ دون تحقيق هذا الغرض.

ولمَّا كان من غد أمر النبيُّ عليًّا عليه السلام بإعداد الطَّعام واللِّبْنِ ثانيه، وكزَّر دعوه تلك الجماعة، إلى ضيافته أُخرى، وبعد أن فرغوا من الطَّعام تكلم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

«يا بني عبْدِ الْمُطَلِّبِ إِنِّي وَ اللهُ ما أَعْلَمُ شابًّا في العَرَبِ جاء قومُهُ بأفْضَلِ ممَّا قد جِئْتُكُمْ به، إِنِّي قد جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنيا والآخِرِه، وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ تَعَالَى أن أَدْعُوكُمْ إِلَيْه، فَأَيْكُمْ يُؤازِرُنِي على هذا الأمرِ على أن يكونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ؟»

قال (على عليه السلام): فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت - وإني لأحدثهم سنأ، وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً -:
أنا يا نبي الله أكونُ وزيرك عليه».

(فأعاد القول، فأمسكوا وأعدت ما قلت)، فأخذ برقبتي ثم قال لهم:

«إِنَّ هذا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ (أو عَلَيْكُمْ) فَاسْمَعُوا لَهُ، وَ أَطِيعُوا».

فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع» (١).

إن ما كتبه هو - في الحقيقة - خلاصةً لحديث مفصَّل رواه أكثر المفسِّرين والمؤرِّخين بعبارات مختلفة، ولم يشكك في صحته أحدٌ، بل اعتبروه من مسلمات التاريخ، إلَّا «ابن تيميه» الذي اتخذ موقفاً خاصاً من أهل بيت النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وأجمعين.

ص: ٤٤٣

١- تاريخ الطبري: ٢/٦٢ و ٦٣؛ الكامل في التاريخ: ٢/٦٢-٦٣؛ مسند أحمد: ١/١١١، وشرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ١٣/٢١٠ و ٢١١.

إِنَّ تَحْرِيفَ الْحَقَائِقِ وَقَلْبَهَا، أَوْ إِخْفَاءَ الْوَقَائِعِ لَهَا حَقًّا مِنْ أَوْضَحِ مَصَادِيقِ الْخِيَانَةِ وَالْجِنَايَةِ.

وَلَقَدْ سَلَكَ فَرِيقٌ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُتَعَصِّبِينَ عِبْرَ التَّارِيخِ لِلْأَسْفِ مِثْلَ هَذَا الطَّرِيقِ الْمَقْبُوحِ، وَأَسْقَطُوا مَوْلَفَاتِهِمُ الْعِلْمِيَّةَ وَالتَّارِيخِيَّةَ بَارْتِكَابِهِمْ خَطِيئَةَ التَّحْرِيفِ فِي جَمَلِهِ مِنَ الْحَقَائِقِ، مِنْ الْإِعْتِبَارِ، وَهُمْ يَخَالُونَ أَنَّ عَمَلَهُمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْقَى الْحَقَائِقُ فِي هَالِهِ الْإِهْمَالِ وَالْغَمُوضِ.

إِلْمًا أَنَّ أَمْرَ هَؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفَ مَعَ انْقِضَاءِ الزَّمَنِ، وَتَكَامُلِ الْعِلْمِ، وَدَفْعِ بَفَرِيقٍ مِنْ أَهْلِ التَّحْقِيقِ وَالْإِنْصَافِ إِلَى أَنْ يَمْزُقُوا بِأَطْرَافِ أَقْلَامِهِمْ حَجَبَ الزَّيْفِ وَالتَّحْرِيفِ وَيُظْهِرُوا الْوَقَائِعَ وَالْحَقَائِقَ عَلَى حَقِيقَتِهَا.

وَإِلَيْكَ فِي مَا يَأْتِي بَعْضَ هَذَا الْخِيَانَاتِ:

١. لَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ (الْمُتَوَفَّى عَامَ ٣١٠ هـ) فِي تَارِيخِهِ حَادِثَهُ دَعَاةِ الْأَقْرَبِينَ بِشَكْلِ مَفْصَّلٍ وَعَلَى النُّحُو الْعَذَى مَرَّ عَلَى الْقَارِيءِ الْكَرِيمِ.

يَبْدُ أَنَّهُ حَرَّفَ فِي تَفْسِيرِهِ (١) وَكَتَمَ، فَهُوَ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» يَذَكِّرُ كُلَّ مَا ذَكَرَهُ فِي تَارِيخِهِ، وَلَكِنَّهُ يَغْيِرُ وَيَبَدِّلُ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ يَقُولُ: «عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي»، فَهُوَ يَكْتُبُ فِي تَفْسِيرِهِ هَكَذَا: «عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَكَذَا وَكَذَا».

وَلَا رَيْبَ أَنَّ فِي تَغْيِيرِ عِبَارَةِ «أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ (أَوْفِيكُمْ) إِلَى:

«كَذَا وَكَذَا» غَرَضًا مَرِيضًا، وَهُوَ بِالتَّالِي خِيَانَةٌ تَارِيخِيَّةٌ فَاضِحَةٌ.

ص: ٤٤٤

على أنّ الطبريّ لم يكتف بهذا القدر من التغيير في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل غير حتّى في الجملة التي تعقبها وهي قوله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن قام عليّ عليه السلام للمرّة الثالثة وأعلن عن استعداده لمؤازره النبيّ بعد إحجام القوم وسكوتهم: «إنّ هذا أخي ووصيّ و خليفتي» حيث أبدلها بعبارة: «إنّ هذا أخي وكذا وكذا»!!!

إنّ على المؤرّخ أن يكون حرّاً وشهماً في كتابه الحقائق وروايتها، فيثبتها ويرويها كما هي، بكلّ شجاعه، وصلابه.

ولا- ريب أنّ المذنب دفع بالطبريّ إلى أن يرتكب مثل ذلك التبديل والتغيير هو تعصّبه المذهبي، فهو لا يعتبر الإمام عليّاً خليفه رسول الله بلا فصل، وحيث إنّ تينك الكلمتين: «خليفتي ووصيّ» تصرّحان بخلافه «عليّ» للنبيّ ووصايته بلا فصل لذلك يغيّر ويبدّل حتّى ينتصر لمذهبه بالتحريف في شأن نزول هذه الآية أيضاً.

٢. ولقد فعل ابن كثير (المتوفّى عام ٧٣٢هـ) نظير هذا في تاريخه وكذا في تفسيره (١) وسلوك نفس الطريق الذي سلكه - من قبل - سلفه الطبريّ ضارباً عرض الجدار مبدأ أمانه النقل!!!

ونحن لا نعذر ابن كثير في عمله هذا أبداً، لأنّه قد اعتمد - في رواياته التاريخيه، في تاريخه وتفسيره معاً - تاريخ الطبريّ، لا تفسيره ولا- شكّ أنّه قد مرّ على هذه القصة في تاريخ الطبريّ، ولكنّه مع ذلك حاد عن الطريق السويّ فأعرض عن نقل روايه التاريخ - في هذه الحادته - وعمد - بصوره غير متوقعه - إلى نقل روايه التفسير!!!

٣. والأغرب من تينك الخيانتين ما ارتكبه - في عصرنا الحاضر - وزير

ص: ٤٤٥

١- . البدايه والنهايه: ٣/٥٣؛ تفسير ابن كثير: ٣/٣٦٤.

المعارف المصريه الأسبق الدكتور «هيكل» فى كتابه «حياه محمّد»، وفتح بعمله باب التحريف فى وجه الجيل الحاضر. والعجب أنّ «هيكل» هاجم - فى مقدّمته - جماعه المستشرقين بشده وانتقدهم بعنف لتحريفهم الحقائق التاريخيه، واختلاقهم لبعض الوقائع فى حين لم يقصر عنهم فى هذا السبيل فهو:

أولاً: نقل الوقاعه المذكوره (دعوه الأقربين المعروفه بحادثه يوم الدار أو حديث بدء الدعوه) فى الطبعة الأولى من كتابه المذكور بصوره مبتوره ومقتضبه جدّاً واكتفى من الجملتين الحساسيتين بذكر واحده منهما فقط وهى قولُ النبىِّ مخاطباً الحضور فى ذلك اليوم: «مَنْ يُؤازرنى يكونُ أخى وَوَصِيَّى وَخَلِيفَتِي» بينما حذف بالمرّه الجمله التى قالها رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلّى بعد أن قام للمرّه الثانيه وأعلن مؤازرته للنبىِّ وهى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيَّى وَخَلِيفَتِي»!!!

ثانياً: أنّه خطأ فى الطبعات الثانيه والثالثه والرابعه، خطوه أبعد حيث حذف كلتا الجملتين معاً وبهذا قد وجه ضربه كبرى إلى قيمته ككاتب، وقيمه كتابه، كدراسه تاريخيه!!

النبوه والإمامه توأمان

إنّ الاعلان عن وصايه علىّ عليه السلام وخلافته فى مطلع عهد الرساله وبدايه أمر النبوه يفيد - بقوه ووضوح - إنّ هذين المنصبين ليسا بأمرين منفصلين، ففى اليوم الذى يعلن فيه رسولُ الله عن رسالته ونبوّته، يعيّن خليفته ووصيّه من بعده، وهذا يشهد - بجلاء - بأنّ النبوه والإمامه يشكّلان قاعده واحده، وأنّ هذين المنصبين إنّهما إلّا كحلفتين متّصلتين لا يفصل بينهما شيء.

كما أنّ هذه الحادثه تكشف - من جانب آخر - عن مدى الشجاعه الروحيه

الَّتِي كَانَ يَتَحَلَّى بِهَا الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَيْثُ قَامَ - فِي مَجْلِسِ أَحْجَمٍ فِيهِ الشُّيُوخُ الدُّهَاهُ وَالسَّادَةُ الْمَجْرَبُونَ عَنْ قَبُولِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَوْفًا وَتَهَيُّبًا - وَأَعْلَنَ بِكُلِّ شَجَاعَةٍ مُؤَاذَرَتَهُ لِلنَّبِيِّ، وَاسْتَعْدَادَهُ لِلتَّضَحُّيَةِ فِي سَبِيلِ دِينِهِ وَرِسَالَتِهِ وَهُوَ آنَذَاكَ غَلَامٌ فِي رِبْعِهِ الثَّلَاثِ أَوْ الْخَامِسِ عَشَرَ، وَمَا حَابَى أَعْدَاءَ الرِّسَالَةِ وَلَا مَا شَاهَمَ كَمَا فَعَلَ الْمَصْلُحُونَ مِنَ السَّاسَةِ وَالزُّعَمَاءِ الْمُتَخَوِّفُونَ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَرَكَزِهِمْ آنَذَاكَ!!!

صَحِيحٌ أَنَّ «عَلِيًّا» عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَصْغَرَ الْحَاضِرِينَ سِنًّا إِلَّا أَنَّ مَعَاشَرَتَهُ الطَّوِيلَةَ لِلنَّبِيِّ قَدْ هَيَّأَتْ قَلْبَهُ لِتَقْبُلِ الْحَقَائِقِ الَّتِي تَرَدَّدَتْ فِي شُيُوخِ الْقَوْمِ فِي قَبُولِهَا، بَلْ عَجَزُوا عَنْ دَرَكِهَا وَفَهْمِهَا!!

وَلَقَدْ أَعْطَى أَبُو جَعْفَرِ الْإِسْكَافِيِّ حَقَّ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَجَالِ إِذْ قَالَ:

فَهَلْ يُكَلِّفُ عَمَلُ الطَّعَامِ، وَدَعَاءُ الْقَوْمِ صَغِيرٌ غَيْرٌ مُمَيِّزٌ، وَغَيْرٌ عَاقِلٌ، وَهَلْ يُؤْتَمَنُ عَلَى سِرِّ النَّبِيِّ طِفْلٌ... وَهَلْ يُدْعَى فِي جَمَلِهِ الشُّيُوخُ وَالْكَهُولُ إِلَّا عَاقِلٌ لَسِيبٌ، وَهَلْ يَضَعُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، وَيُعْطِيهِ صَفْقَةً يَمِينَهُ بِالْأُخُوهِ وَالْوَصِيِّ، وَالْخَلِيفَةِ، إِلَّا وَهُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ، بَالِغٌ حَدِّ التَّكْلِيفِ، مُحْتَمِلٌ لَوْلَايَةِ اللَّهِ، وَعَدَاوَةِ أَعْدَائِهِ، وَمَا بَالُ هَذَا الطِّفْلِ لَمْ يَأْنَسْ بِأَقْرَانِهِ وَلَمْ يَلْصُقْ بِأَشْكَالِهِ، وَلَمْ يُرْمَعْ مَعَ الصَّبِيَّانِ فِي مَلَاعِبِهِمْ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، وَهُوَ كَأَحَدِهِمْ فِي طَبَقَتِهِ، كَبَعْضِهِمْ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَكَيْفَ لَمْ يَنْزِعْ إِلَيْهِمْ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِهِ... بَلْ مَا رَأَيْنَاهُ إِلَّا مَاضِيًّا عَلَى إِسْلَامِهِ، مَصْمَمًا فِي أَمْرِهِ، مُحَقِّقًا لِقَوْلِهِ بِفِعْلِهِ، قَدْ صَدَّقَ إِسْلَامَهُ بِعَفَافِهِ وَزَهْدِهِ، وَلَصِقَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ مَنْ بَحْضَرْتَهُ، فَهُوَ أَمِينُهُ وَأَلْفُهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ. (١)

ص: ٤٤٧

كان قد انقضت ثلاث سنوات على بدء البعثة يوم عمده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى دعوه الناس عامه بعد دعوه عشيرته الأقرين.

فقد استطاع خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الدعوه أن يهدى - من خلال الاتصالات السريه - مجموعه من الأشخاص إلى الإسلام ولكنه دعا هذه المره وبصوت عالٍ عامه الناس إلى دين التوحيد.

فعن ابن عباس قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم على الصفا فقال: يا صباحاه (وهي كلمه كانت العرب تطلقها كلما أحست بخطر، أو بلغها نبأ مُرعب فكانت هذه الكلمه بمثابة جرس الخطر)^(١) فاجتمعت إليه قريش فقالوا: مالك؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أرأيتم إن لو أخبرتم أن العدو مُصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: بلى.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تبا لك ألهذا دعوتنا.^(٢)

وفى روايه أخرى أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو

ص: ٤٤٨

١- . قال الجزرى فى النهايه: ٢/٢٧١: صعد النبى صلى الله عليه وآله وسلم على الصفا وقال: يا صباحاه؛ هذه كلمه يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغاره لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ويسمّون يوم الغاره يوم الصباح، فكأن القائل: يا صباحاه يقول: قد غشنا العدو.

٢- . سنن النسائى: ٦/٢٤٤ برقم ١٠٨١٩.

فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه إلى أهله فجعل يهتف: يا صباحاه. (١)

ولقد كانت قريش تعرف عن دينه بعض الشيء، قبل هذا ولكنها تملكها الخوفُ هذه المرّة، وهي تسمعُ ذلك الإنذار القويّ فبادر أحد قاده الكفر إلى تبديد تلك المخاوف فوراً، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: تباً لك، ألهذا دعوتنا؟، وتفترق على أثرها الناس.

الثباتُ والإستقامه على طريق الهدف

إنّ نجاح أيّ شخص مرهونٌ بأمرين:

الأوّل: الإيمان بالهدف.

والثاني: الاستقامه والثبات والسعي الدائب لتحقيق ذلك.

إنّ الإيمان هو المحرّك الباطني والقوّه الخفيه التي تجر الإنسان - شاء أم لم يشأ - نحو الغايه التي يتوخّاها، وتسهّل عليه الصعاب، وتدعوه إلى العمل الدائب لتحقيق مقصوده، لأنّ شخصاً كهذا يعتقد اعتقاداً قوياً بأنّ سعادته، ومجده يتوقّفان على ذلك.

وبعبارة أخرى: إذا آمن إنسان بأنّ سعادته ومجده يتوقّفان على تحقيق هدف معيّن فإنّه سيندفع بقوّه الإيمان نحو تحقيق ذلك الهدف، متجاوزاً كلّ الصعاب، ومتحدّياً كلّ المشكلات في ذلك السبيل.

فالمريض الذي يرى شفاءه في شرب دواء مرّ مثلاً سيستسهل شربه.

والغوّاص الذي يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ ثمّه درراً غاليه الثمن تحت أمواج البحر سيلقى بنفسه في قلب تلك الأمواج دونما خوف أو وجل، ليخرج منها بعد

ص: ٤٤٩

بينما إذا كان المريض أو الغوّاص يشكُّ في عمله، أو يعتقد بعدم فائدته، فإنّه لن يُقدّم عليه قط، وإذا ما أقدم فإنّ عمله سيكون حينئذٍ مقروناً بالجهد والعناء. فقوه الإيمان إذن هي التي تذلل كل مشكله، وتسهّل كل معضله.

غير أنّه لا- ريب في أنّ الوصول إلى الهدف لا- يخلو من مشاكل وموانع، فلا بدّ من السعي لرفع تلك الموانع، وإزاله تلك المشاكل.

وقد قيل قديماً: إنّ مع كلّ ورده أشواك، فكيف يمكن قطف ورده دون أن تُدمى أنامل القاطف بالأشواك المحيطة بها؟؟

هذا وقد بين القرآن الكريم هذه المسألة (وهي أنّ رمز السعادة هو: الإيمان بالهدف والثبات في طريق تحقيقه) في جملة قصيره إذ قال:

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» (١).

ثبات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصبره

لقد أدت اتصالات النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخاصّة. قبل الدعوه العامّة، وجهوده الكبرى بعد الجهر بالدعوه، إلى ظهور ونشوء صفّ مرصوص من المسلمين في وجه صفوف الكفر، والوثنيه.

فالذين دخلوا سراً في حوزة الإسلام والإيمان قبل الدعوه العامّة تعرّفوا على المسلمين الجدد الذين لبّوا داعي الإسلام بعد إعلان الرساله، وشكّل القدامى والجديد جماعه قويّه متعاطفه متحابيه، وكان ذلك بمثابة إنذار لأوساط الكفر والشرك والوثنيه، أربكها وجعلها تشعر بالخطر.

ص: ٤٥٠

على أن ضرب نهضه ناشئه والقضاء عليها كان أمراً سهلاً لقريش، ولكنّ الذي أربع قريشاً ومنعها من توجيه مثل هذه الضربه هي أن أفراد هذه الجماعه، وعناصر هذه النهضه لم يكونوا من قبيله واحده، ليتمكن مواجهتها وضربها بكلّ قوّه، بل انتمى من كلّ قبيله إلى الإسلام، عددٌ من الأفراد، ومن هنا لم يكن اتّخاذ أيّ قرار حاسم بحقّهم أمراً سهلاً وبسيطاً.

من هنا قُتِر ساده قريش وكبرائها - بعد تداول الأمر في ما بينهم - أن يبدأوا بالقضاء على أساس هذه الجماعه، ومحرك هذا الحزب، والداعى إلى هذه العقيدته بمختلف الوسائل فيحاولوا ثنيه عن دعوته بالإغراء والتطميع تاره، ويمنعوا من انتشار دينه بالتهديد والإيذاء تاره أُخرى.

وقد كان هذا هو برنامج قريش وموقفها من الدعوه طيله عشر سنوات وهي المدّه المتبقيه من سنوات البعثه من الفتره المكيه، إلى أن قررت بالتالى قتله، ولكنّه استطاع أن يبطل مؤامرتهم بالهجره إلى المدينه قبل أن يتمكنوا من القضاء عليه.

ولقد كان «أبوطالب» آنذاك زعيم بنى هاشم ورئيسها المطلق، وكان رجلاً طاهر القلب عالى الهّمه، شجاعاً، كريماً، وكان بيته ملجأً دافئاً للمحرومين والمستضعفين، وملاذاً أميناً للفقراء والأيتام، وكان يتمتع في المجتمع العربى - علاوه على رئاسه مكّه و بعض مناصب الكعبه - بمكانه كبرى و منزله عظيمه، وحيث إنّه كان كفيلاً لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بعد وفاه جدّه «عبدالمطلب»، لذلك حضر ساده قريش بصوره جماعيه (1) عنده وقالوا له:

«يا أباطالب إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا وضللّ آباءنا، فإما أن تكفّه عنّا، وإما أن تحلّى بيننا و بينه».

ص: ٤٥١

١- . أدرج ابن هشام في سيرته: ١٧٠-١٧١ أسماءهم بالتفصيل نذكر منهم: عتبه وشيبه ابنا ربيعه، وأبو سفيان وأبو البخترى وأبو جهل والوليد بن المغيره... وغيرهم.

فقال لهم «أبو طالب» قولاً رقيقاً، وردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه.

بيد أنّ نفوذ الإسلام وانتشاره كان يتزايد باستمرار، وكانت جاذبيته الدّين المحمّدى، وبيان القرآن البليغ يساعدان على ذلك، فيترك أثره فى الناس، وخاصّه فى الأشهر الحرم حيث ينفد الحجيج على مكّه من مختلف أنحاء الجزيرة، وكان النّبى صلى الله عليه وآله وسلم يعرض دينه عليهم، فكانت أحاديثه الجذّابه، وكلماته البليغه، ودينه المحبّب تؤثّر فى قلوب كثير منهم، فيميلون إلى الإسلام ويقبلون دعوه الرسول.

وهنا أدرك طغاه مكّه وفراعنتها أنّ «محمّداً» قد بدأ يفتح له مكاناً فى قلوب جميع القبائل، وأصبح له أنصاراً وأتباع فى كثير منها، ممّا دفعهم مرّه أخرى إلى الحضور عند «أبى طالب» حاميه الوحيد، وتذكيره بالإشارة والتصريح بالأخطار المحدقه باستقلال المكيين وعقائدهم نتيجة نفوذ الإسلام وانتشاره فقالوا له أجمع: يا أبا طالب، إنّ لك سنّاً، وشرفاً، ومنزله فينا، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتّى تكفه عنّا، أو ننازله وإيّاك فى ذلك حتّى يهلك أحد الفريقين.

إنّ قريشاً حين قالوا لأبى طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا بن أخى إنّ قومك قد جاءونى، فقالوا لى كذا وكذا... فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا عيّم، والله لو وضعوا الشّمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته».

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبكى ثم قام، فلمّا ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا بن أخى، قال: فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

«إذْهَبْ يَا ابْنَ أَخِي فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ فَوَاللَّهِ لَا أَسْلَمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا» (١).

قريش تمشي إلى أبي طالب للمرّة الثالثة

ثم إن قريشاً لمّا عرفت أنّ أبا طالب أبي خذلان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم مشوا إليه بعمار بن الوليد بن المغيرة فقالوا له:

يا أبا طالب هذا عمار بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذة فلك عقله ونصره، واتخذة ولدًا فهو لك، وأسلم إنا ابن أخيك هذا، الذي فرق جماعه قومك، وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل!!

فقال (أبو طالب وهو مستاء من هذه المساومه الظالمه):

«والله لبئس ما تسومونني! أتعطوني ابنكم أغدوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون أبدًا».

فقال «المطعم بن عدى بن نوفل»: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنتك قد أجمعت خذلاني، ومظاهره القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك. (٢).

قريش تحاول تطبيع رسول الله!

ولمّا علمت قريش بأنّه لا يمكن إرضاء «أبي طالب» بخذلان ابن أخيه «محمد»، فهو وإن كان لا يتظاهر بالإسلام، إلّا أنّه يكتنّ لابن أخيه، وُدّاً عميقاً، ومحبه

ص: ٤٥٣

١- السيره النبويه لابن هشام: ١/١٧١-١٧٢.

٢- تاريخ الطبري: ٢/٦٧-٦٨؛ السيره النبويه لابن هشام: ١/١٧٢.

كبرى، من هنا قرروا بأن يتركوا مفاوضته، إلّا أنّهم فكروا فى خطه أخرى وهى أن يُحاولوا إثناء النبى عن المضى فى دعوته بتطميعة بالمناصب، والهدايا، والأموال، والفتيات الجميلات، ولهذا مشوا إلى بيت «أبى طالب» ودخلوا عليه ومحمّد جالس إلى جنبه فتكلّم متكلّمهم وقال: يا محمّد إنا بعثنا إليك لِنُكلّمك، فإنّا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعيّيت الدين، وسببت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفزّقت الجماعه، ولم يبق أمر قبيح إلّا أتيته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً- جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنّما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك ونشرفك علينا، وإن كان هذا الذى يأتىك تابعاً من الجن قد غلب عليك بذلنا أموالنا فى طبّك. (١)

فقال أبوطالب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أى ابن أخى ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنّك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول.

وتكلّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا عم إنّى أريدهم على كلمه واحده يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية.

ففرغوا لكلمته، ولقوله فقال القوم: كلمه واحده نعم وأبيك عشراً.

قالوا: فماهى؟ فقال أبوطالب: وأى كلمه هى يا ابن أخى؟

قال: «لا إله إلّا الله».

قال: فقاموا فرعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: «أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ» (٢). (٣)

ص: ٤٥٤

١- . السيره الحلبيه: ١/٤٨٨.

٢- . ص: ٥.

٣- . تاريخ الطبرى: ٢/٦٥-٦٦.

يومَ صدَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بما أُمر، وجَهر بدعوته للناس وأيس سادَه قريش من قبوله لأحَى اقتراح من إقتراحاتهم بعدما سمعوه يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك دونَه ما تركته» بدأت في الحقيقه مرحله من أشدّ مراحل حياته، وأكثرها متاعبَ ومصاعبَ، لأنّ قريشاً كانت لا تزال إلى ذلك الوقت تراعى حرمة وتحرمة، وتسيطر على أعصابها، ولكنها عندما فشلت في خططها لجزءه إلى مساومتها اضطرت إلى تغيير نهجها وأسلوبها معه لتقف دون إنتشار دينه مهما كلف من الثمن مستخدمه في هذا السبيل كلّ الوسائل الممكنه.

من هنا قرّر سادَه قريش بالإجماع أن يتوسّلوا بسلاح الاستهزاء والسخرية، والإيذاء والتهديد، بهدف صرفه عن المضى في دعوته. (١)

ولا يخفى أنّ المصلح الّذى يفكر في هدايه العالم البشرى كلّه يجب أن يتزوّد بقدر كبير من الصبر والتحمّل، أمام جميع المشكلات والمتاعب، والمكاره والشدائد، ليتغلّب عليها شيئاً فشيئاً، كما كان دأب كلّ المصلحين الآخرين.

ونحن هنا نورد طرفاً من أذى قريش لرسول الله وأتباعه ليُتضح مدى صبر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وثباته، واستقامته على طريق الدعوه.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتمتع - مضافاً إلى العامل الروحي والمعنويّ الباطني الّذى كان يساعده من الداخل، أعني: الإيمان والصبر والإستقامه والثبات - بعامل خارجيّ تولّى حراسته وحمايته وذلك حمايه بنى هاشم، وعلى رأسهم أبوطالب له صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّه عندما عرف «أبوطالب» بعزم قريش القاطع على إيذاء ابن

ص: ٤٥٥

١- راجع لمعرفه أبرز من كان يؤذى النبيّ والمسلمين: المحبر: ١٥٧ و ١٦١.

أخيه (محمّد) دعا بنى هاشم عامّه، وطلب منهم جميعاً حمايه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والقيام دونه، فلَبّوا نداء سيّدهم، وأجابوه إلى ما دعاهم من حمايه رسول الله وحراسته بعضُ بدافع الإيمان وآخر بدافع الرّحم، إلّا «أبولهب» ورجلان آخران انضموا إلى أعداء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولكن هذا السياج الدفاعيّ لم يقدر - مع ذلك - على صيانته صلى الله عليه وآله وسلم من بعض الحوادث المرّه، لأنّ قريشاً ألحقت به الأذى، وأنزلت به مكروهاً، كلّما وجدته وحيداً بعيداً عن أعين حُماته. وإليك فيما يأتي بعض النماذج من ذلك الأذى:

١. مرّ «أبوجهل» برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند الصفا، فأذاه وشتمه ونال منه ببعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومولاه لعبدالله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادى قريش عند الكعبه، فجلس معهم، فلم يلبث «حمزه بن عبدالمطلب» رضى الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتّى يطوف بالكعبه، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على ناد من قريش إلّا وقف وسلّم وتحدّث معهم، وكان أعز فتى فى قريش، وأشدّ شكيمه.

فلتياً مرّ بالمولاه، وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيته قالت له: يا أبا عماره (وتلك هى كنيته) لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمّد آنفاً من أبى الحكم بن هشام (وتعنى أبا جهل): وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبّه، وبلغ منه ما يُكرهه، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

فاحتمل «حمزه» الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعدّاً لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به.

فلَمَّا دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتَّى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجَّه شجَّه منكره، ثم قال: «أتشمته وأنا على دينه أقول كما يقول. فردَّ ذلك عليَّ إن استطعت».

فقامت رجالٌ من بنى مخزوم إلى «حمزه» لينصروا «أباجهل» فقال أبو جهل:

دعوا أبا عماره فإنِّي والله قد سبَّتُ ابن أخيه سبًّا قبيحاً^(١). وبهذا منع «أبو جهل» الّذى كان ممّن يدرّك خطوره مثل هذه المواقف من وقوع شجار وقتال.

إنَّ التاريخ الثابت والمسلّم يشهد بأنَّ وجودَ رجال ذوى بأس وقوه بين صفوف المسلمين مثل «حمزه» الّذى أصبح في ما بعد من كبار قادة الإسلام، قد كان له أثرٌ كبيرٌ في حفظ الإسلام، والحفاظ على حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ودعم جماعه المسلمين، وتقويه جناحهم، فهذا ابن الأثير^(٢) يقول عن حمزه: لَمَّا أسلم حمزه عرفت قريش أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد عزَّ وأنَّ حمزه سيمنعه فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

من هنا أخذت قريش تفكّر في إعداد خطط أخرى لمواجهة قضيه الإسلام والمسلمين، سندكرها في المستقبل.

هذا ويرى بعض المؤرّخين مثل ابن كثير الشامي^(٣) على أنّ رُدود فعل إسلام «أبي بكر» و «عمر» وأثرهما لم تكن بأقلّ من تأثير إسلام «حمزه»، وإنَّ الدين قوى جانبه بإسلام هذين الرجلين، وكسبَ المسلمون بذلك القوه والحريه في العمل والتحرّك، والحقيقه أنّه لا شكّ في أنّه لكلّ فرد تأثيره في تقويه ودعم الإسلام، إلّا أنّه لا يمكن القول بحال بأنّ تأثير إسلام الشيخين كان يعدل تأثير إسلام

ص: ٤٥٧

١- . السيره النبويه: ١/١٨٨-١٨٩؛ تاريخ الطبرى: ٢/٧٢.

٢- . الكامل لابن الأثير: ٢/٨٣.

٣- . البدايه والنهايه: ٢/٢٦ و ٣٢.

«حمزه»، فَإِنَّ «حمزه» ما إِنْ سَمِعَ بَأَنَّ قَرِيشاً أَسَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلِمَ إِلَّا وَتَوَجَّهَ، مِنْ دُونَ أَنْ يُعْرَجَ عَلَى أَحَدٍ، إِلَى الْمَسِيءِ وَانْتَقَمَ مِنْهُ فِي الْحَالِ أَشَدَّ انْتِقَامٍ، وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلَى الْوُقُوفِ فِي وَجْهِهِ وَمَنْعَ الْمَسِيءِ مِنْهُ، وَمَنْ غَضِبَهُ وَانْتَقَمَهُ، بَيْنَمَا يَكْتُبُ ابْنُ هِشَامٍ فِي سِيرَتِهِ عَنْ «أَبِي بَكْرٍ» أَمْرًا يَكْشِفُ عَنْ أَنَّ «أَبَا بَكْرٍ» يَوْمَ دَخَلَ فِي صَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى حِمَايَةِ نَفْسِهِ، وَلَا عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلِمَ. وَإِلَيْكَ نَصُّ الْوَاقِعِ:

مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلِمَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ قَرِيشٍ وَهُمْ جُلُوسٌ عِنْدَ الْحَجَرِ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثَبَهُ رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَأَحَاطُوا بِهِ يَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ:

كَذَا وَكَذَا، لَمَا كَانَ يَقُولُ مِنْ عَيْبِ آلِهِتِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلِمَ:

نَعَمْ أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْهُمْ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ (وَهُمْ يَقْصِدُونَ قَتْلَهُ) فَقَامَ «أَبُو بَكْرٍ» دُونَهُ وَهُوَ يَبْكِي وَيَقُولُ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ؟ ثُمَّ انصرفوا عنه (ولم يقتلوه لأمر رأوه)، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى منزله، ورجع «أبو بكر» يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه. (1)

إِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ التَّارِيخِيَّةَ إِذَا دَلَّتْ عَلَى مَشَاعِرِ الْخَلِيفَةِ تَجَاهَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلِمَ إِلَّا أَنَّهَا تَدُلُّ قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ عَلَى عَجْزِهِ وَضَعْفِهِ.

إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَيُّهُ مَقْدَرُهُ بَدَنِيَّةً وَرُوحِيَّةً، وَلَا أَيُّهُ مَكَانُهُ اجْتِمَاعِيَّةً تُرْهَبُ، وَحَيْثُ إِنَّ الْحَاقَّ الْأَذَى بِشَخْصِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلِمَ كَانَ يَنْطَوِي فِي نَظَرِ قَرِيشٍ عَلَى عَوَاقِبِ لَا تَحْمَدُ، لِذَلِكَ تَرَكَوا رَسُولَ اللَّهِ، وَوَجَّهُوا ضَرْبَتَهُمْ إِلَى رَفِيقِهِ وَصَدَعُوا فَرْقَ رَأْسِهِ.

ص: ٤٥٨

١- . السيرة النبوية: ١/١٨٧-١٨٨. وقد ذكر الطبري في تاريخه: ٢/٧٢، قصه صدع رأس أبي بكر بالتفصيل فراجع.

ولو أنك قارنت بين هاتين الحادتين وقايست بين موقف «حمزه» الشجاع وموقف الخليفة الأول هذا لاستطعت أن تقضى بسهولة بأن عزه الإسلام وقوه المسلمين، وتعزيز موقفهم، وخوف الكفار كان يعود إلى إسلام أى واحد من ذينك الرجلين!؟

هذا وستقرأ فى القريب العاجل كيفيه إسلام «عمر». وسترى بأن إسلامه - كإسلام صديقه - لم يزد هو الآخر من قدره المسلمين الدفاعيه، وأنهم بالتالى لم يعتزوا بإسلامه.

فيوم أسلم «عمر» كاذ أن يُقتل لولا «العاص بن وائل السهمي» لأنه هو الذى خاطب الذين قصدوا قتل «عمر» قائلاً: رَجُلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون [منه]؟ أترون بنى عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا، خلوا عن الرجل. (1)

إن هذه العبارة التى قالها «العاص» لإنفاذ الخليفه الثانى من أيدي الذين اجتمعوا على قتله تفيد - بوضوح - أن الخوف من قبيله «عمر» هو الذى كان وراء تركهم إياه وعدم قتله، وقد كان دفاع القبائل عن أبنائها سنّه فطريه وعاده متعارفه يومذاك، وكان يتساوى فيها الكبير والصغير، والشريف والوضيع.

أجل إن بنى هاشم هم كانوا - فى الواقع - الحصن الحقيقى للمسلمين، وقد كان القسط الأكبر من هذا الأمر يتحمّله «أبو طالب» وذووه، وإلا فإنّ الأشخاص الآخرين الذين كانوا ينضمون إلى صفوف المسلمين لم تكن لديهم القدره على الدفاع عن أنفسهم، فكيف بالدفاع عن الإسلام وجماعه المسلمين ليقال: بأن المسلمين اعتزوا بهم؟

ص: ٤٥٩

لقد أغضب تقدّم الإسلام المطرد قريشاً بشدّه فلم يمرّ يوم دون أن يبلغهم نبأ عن انضمام واحد من أفراد قريش إلى صفوف المسلمين ولأجل هذا راح مرّجّل الغضب والحقّ على النّبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يغلى في نفوسهم؛ فهذا فرعون مكّه «أبوجهل» قال لقريش في مجلس من مجالسهم: يا معشر قريش إنّ محمّداً قد أبى إلّما ما ترون: من عيب ديننا، وشتّم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتّم آلهتنا، وإنّي أعاهدُ الله لأجلسنّ له غداً بحجر ما أُطيق حملة - أو كما قال - فإذا سجد في صلاته فضختُ به رأسه.

فلما أصبح «أبوجهل» أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينتظره، وغدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما كان يغدو. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبه بينه وبين الشام، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديةهم ينتظرون ما أبوجهل فاعلّ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احتمل «أبوجهل» الحجر، ثم أقبل نحوه، حتّى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه، مرعوباً قد يبست يده على حجره، حتّى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه... (١)

إنه ليس من شكّ في أنّ قوه غيبية أدركت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله تعالى في تلك اللحظة، وصورت ذلك المنظر الرهيب، وحفظت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما وعده

تعالى وعداً لا خلف فيه إذ قال: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» (١).

وهناك نماذج كثيرة من أذى قريش لشخص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سجّلها التاريخ في صفحاته، وقد عقد «ابن الأثير» (٢) فصلاً خاصاً لهذا الموضوع ذكر فيه أسماء أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الألداء، في مكّة، وبين أنواع ما كانوا يؤذون به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما قد مرّ ذكره في الصفحات السابقة ما هو إلّا نماذج من ذلك، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يواجه في كل يوم نوعاً خاصاً من الأذى، والمضايقة.

فقد رُوي أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يطوف ذات يوم فشمته «عقبه بن أبي معيط» وألقى عمّامته في عنقه، وجرّه من المسجد، فأخذوه من يده، خوفاً من بني هاشم (٣).

أبولهب يؤذى رسول الله

ولقد تعرّض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأذى لا- مثيل له من جانب عمّه «أبي لهب» وزوجته «أم جميل» وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجاورهم، فلم يألوا جهداً في إزعاجه وإيذائه فكم من مرّه ومره ألقيا الرماد والتراب على رأسه الشريف وثيابه.

وكم من مرّه نشرت أم جميل الشوك على طريقه، أو جمعت على باب بيته لتؤذيه عند الخروج.

ولا- شك أنّ معارضه أنساب النبي وأقربائه لدعوته المباركة، وإيذاؤهم إيّاه كان أكثر إيلاًماً لنفسه الشريفه، وأشدّ وقعاً عليها، حتّى أنّنا نجد القرآن يخصّ أبا

ص: ٤٦١

١- . الحجر: ٩٥.

٢- . الكامل في التاريخ: ٢/٧٠ كما وعقد المجلسي رحمه الله في البحار: ١٨/١٤٨-٢٤٣، باباً خاصاً بعنوان: «باب المبعث واطهار الدعوه وما لقي (صلى الله عليه وآله) من القوم.

٣- . مناقب ابن شهر آشوب: ١/٥٢؛ وفي السيره الحلبيه: ١/٢٩٣ نظيره.

لهب باللعن وينزل سوره خاصه به وبزوجته مما يكشف عن هذه الحقيقه إذ يقول:

«تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ
مِّن مَّسَدٍ» (١).

صبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستقامته

ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يواجه كل ذلك الأذى وما شابها من التحججات - التي سنشير إليها - بصبر عظيم، وثبات تتعجب منه الجبال السماء، وذلك إيماناً منه برسالته.

إيذاء المسلمين وتعذيبهم!

إشاره

يرجع تقدّم الإسلام في مطلع عهد رساله إلى عوامل منها: ثبات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، وثبات أتباعه وأنصاره.

ولقد تعرّفنا - في ما سبق - على أمثله ونماذج من ثبات قائد الإسلام الأكبر وصبره، واستقامته في ما لقي من أذى ومضايقه.

على أنّ ثبات أنصاره وأتباعه الذين آمنوا في مكه (مركز الحكومه الوثنيه آنذاك) هو الآخر ممّا يدعو إلى الإعجاب ويستحقّ الاحترام. وسندكر صمودهم وثباتهم في حوادث ما بعد الهجره في محلّه.

وأما هنا فنسلطّ الضوء على حياه عدد من أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القدامى الذين تحمّلوا أشدّ أنواع العذاب وكانوا يعيشون في المحيط المكّي حيث لم يكن ملجأ لهم يلجأون إليه، وهاجروا منه لأغراض الدعوه والتبليغ بعد أن تحمّلوا شيئاً

ص: ٤٤٢

كثيراً من الإيذاء والتعذيب على أيدي المشركين والوثنيين القساة.

١. بلال الحبشى:

كان أبواهُ مَمَّنُ أُسْرُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَجِيءَ بِهِمْ مِنَ الْحَبَشَةِ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ثُمَّ إِلَى مَكَّةَ.

وَأَمَّا بِلَالُ الْهَمْدِيُّ أَصْبَحَ فِي مَا بَعْدَ مَوْذِنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ كَانَ غَلَامًا لِ«أُمِّيَّةِ بْنِ خَلْفٍ» الَّذِي كَانَ مِنْ أَشَدِّ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَحَيْثُ إِنَّ عَشِيرَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَوَلَّتْ الدِّفَاعَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَحِمَايَتَهُ وَلَمْ يَتِمَّكَنْ أُمِّيَّةُ مِنْ إِلْحَاقِ الْأَذَى بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَمْدًا إِلَى تَعْذِيبِ غَلَامِهِ بِلَالِ الْهَمْدِيِّ أَسْلَمَ، أَمَامَ النَّاسِ، بِأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْأَذَى وَالتَّعْذِيبِ انتقاماً، وَتَشْفِئاً.

فَقَدْ كَانَ أُمِّيَّةُ بْنُ خَلْفٍ يُخْرِجُهُ إِذَا حَمِيَتِ الظُّهَيْرَةُ، فَيَطْرَحُهُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِالصَّخْرَةِ الْعَظِيمَةِ فَتَوْضَعُ عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: لَا تَزَالُ هَكَذَا حَتَّى تَمُوتَ، أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، وَتَعْبُدَ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، فَيَقُولُ وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْبَلَاءِ: أَحَدٌ أَحَدٌ. (١)

وَلَقَدْ أَثَارَ ثَبَاتُ هَذَا الْغَلَامِ الْأَسْوَدِ وَجَلْدُهُ وَصَبْرُهُ عَلَى أَذَى سَيِّدِهِ، إِعْجَابَ الْآخِرِينَ، حَتَّى كَانَ «وَرَقَهُ بْنُ نَوْفَلٍ» يَمْرُؤُهُ وَهُوَ يَعْذِبُ بِذَلِكَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحِيدَ أَحِيدٌ، فَيَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ وَاللَّهِ يَا بِلَالُ ثُمَّ يَقْبَلُ عَلَى أُمِّيَّةِ بْنِ خَلْفٍ وَمَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِهِ مِنْ «بَنِي جَمْحٍ» فَيَقُولُ: أَحْلَفَ بِاللَّهِ لَنْ قَتَلْتُمُوهُ عَلَى هَذَا لِأَتَّخِذْتَهُ حَنَانًا (أَيُّ لِأَجْعَلَنَّ قَبْرَهُ مَتَبَرَّكَاً وَمَزَاراً). (٢)

وَرَبِّمَا زَادَ «أُمِّيَّةُ» مِنْ تَعْذِيبِهِ لِبِلَالٍ فَرَبَطَ حَبْلًا بِعُنُقِهِ وَتَرَكَ الصَّبِيَانَ يَدِيرُونَ بِهِ

ص: ٤٤٣

١- . السيرة النبوية لابن هشام: ١/٢١٠.

٢- . السيرة النبوية لابن هشام: ١/٢١٠.

فى الأزقه والسكك. (١) وقد أسِر «أميّه» وابنه فى معركة «بدر» وكانا أوّل من أسرا من المشركين، ولم يوافق بعض المسلمين على قتلها ولكنّ بلالاً قال: «رأس الكفر أميّه بن خلف لا- نجوت إن نجا». وأذى إصرارُ بلال على قتلها إلى قتل أميّه وابنه جزاء أعمالهما الظالمه. (٢)

٢. آل ياسر رمز الصمود والمقاومه!

كان «عمّار» ووالداه من السابقين إلى الإسلام فهم أسلموا يوم كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلتقى بأصحابه ويدعو إلى الإسلام فى بيت «الأرقم بن أبى الأرقم»، وعندما عرف المشركون بانضمامهم إلى صفوف المسلمين عمدوا إلى إيدائهم وتعذيبهم ولم يألوا جهداً فى ذلك أبداً.

فقد كان المشركون يخرجون «عمّاراً» وأباه «ياسر» وأمّه «سُميّه» فى وقت الظهيرة إلى رمضاء مكّه ليقضوا ساعات طويله تحت أشعه الشمس الحارقه، وفوق الزمال الملتهبه والصخور المتقدّه كأنها الجمرات.

وقد تكرر هذا العذاب مرّات عديده حتّى أودى بحياه «ياسر» فقضى نحبّه على تلك الحال.

وقد خاشت زوجته «سُميّه» أباه جهل وكلمته فى زوجها بغليظ القول، فطعنها اللعين برمح فى قلبها فقضت - هى الأخرى - نحبّها، وكانا أوّل شهيدين فى الإسلام. (٣)

وقد آلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما شاهده من حالهما وهما يعدّبان بأشد أنواع

ص: ٤٤٤

١- . لاحظ: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/٢٣٣.

٢- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ٢/١٥٣؛ السيره النبويه لابن هشام: ٢/٤٦١.

٣- . لاحظ: بحار الأنوار: ١٨/٢٤١؛ والسيره الحلييه: ١/٤٨٣.

العذاب فقال لهما ولولدهما «عمّار» وهو يصبرهم، والدموع تنحدر على خديه:

«صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ». (١)

وبعد أن قضى والدا «عمّار» نحبهما تحت التعذيب بالغ المشركون القساة في تعذيب «عمّار» وإيذائه والتنكيل به، وأخذوا يعدّبونه على نحو ما كانوا يعدّبون به بلالاً، وهم يقصدون قتله، وإحاقه بأبويه!! أو يتبرأ من دين النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاضطر إلى أن يعطيهم ما يريدون ويظهر الرجوع عن الإسلام، إبقاء على نفسه، وتقيته منهم فتركوه، وانصرفوا عن قتله، ولكنه سرعان ما ندم على فعله من التظاهر بترك الإسلام وتألّم من ذلك فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبكي، فقال له النبي: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال: إن عادوا فعد، فنزلت الآية التالية في إيمان عمّار: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» (٢). (٣)

هذا وروى أنّ أباجهل حينما قصد تعذيب «آل ياسر» وكانوا أضعف من بمكة أمر بسوط وناز ثم سحبوا عمّاراً وأبويه على الأرض، فكان يكوى بطرف السيف والخنجر المحمى بالنار المشتعلة أبدانهم، ويضربهم بالسوط ضرباً شديداً.

وقد تركز هذا العمل القاسى كثيراً حتى استشهد «ياسر» وزوجته «سمية» بسبب ذلك التعذيب المرير، ولكن دون أن يفتتا حتى النفس الأخير عن مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإشادة بدينه.

ولقد أثار هذا المنظر المؤلم مشاعر فتيان من قريش فأقدموا - رغم عدائهم للإسلام ومشاركتهم لغيرهم من المشركين في بغض الرسول - على تخليص

ص: ٤٦٥

١- السير النبويه لابن هشام: ١/٢١١؛ السير الحلبيه: ١/٤٨٢.

٢- النحل: ١٠٥ و ١٠٦.

٣- الدر المنثور: ٤/١٣٢ عند تفسير الآيتين المذكورتين.

«عمار» الجريح المنهك عذاباً من براثن «أبي جهل» ليتمكن من مواراه أبويه الشهيدين.

٣. عبد الله بن مسعود

تساور المسلمون في ما بينهم في مقرهم السرى في من يجهر بالقرآن على مسامع قريش، في المسجد الحرام لأنها لم تسمع منه شيئاً إذ قالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها قط فمن رجل يسمعهموه؟

فقال عبدالله بن مسعود: أنا.

قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيره يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال: دعوني فإن الله سيمعني.

قال: فغدا «ابن مسعود» حتى أتى المقام في وقت الضحى وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» رافعاً بها صوته، «الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ».

قال: ثم استقبلها يقرأها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ماشاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون على منهنم الآن، ولئن شئت لأغادينهم بمثلها غداً....(١)

ص: ٤٤٤

كان «أبوذر» رابع أو خامس من أسلم (١)، وعلى هذا فهو من الذين أسلموا في الأيام الأولى من بزوغ شمس الإسلام وطلوع فجره، فإذن هو من السابقين إلى الإسلام.

وقد صرح القرآن الكريم بأن للذين سبقوا إلى الإيمان برسول الله في بدء بعثته وبالتالي فإن للسابقين عند الله تعالى مكانه عظيمه، ومقاماً لا يضاهاه إذ قال تعالى: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» (٢)، وقال تعالى فيهم أيضاً:

«وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». (٣)

وقال تعالى كذلك في من آمن قبل فتح مكة وفضلهم، ومكانتهم المعنوية المتفوقة على من أسلم بعد إعتزاز الإسلام، واشتداد أمره، وقيام دولته يعني أنهم ليسوا سواء.

«وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَ قَاتَلُوا...». (٤)

أجل هذه هي مكانه السابقين في الإسلام وكان «أبوذر» منهم.

هذا مضافاً إلى أنه يُعدُّ أول من نادى بالإسلام على رؤوس الأشهاد وفي الملاء من قريش.

ص: ٤٦٧

١- . أسد الغابه: ٥/١٨٦؛ الإصابة: ٧/١٠٧؛ الإستيعاب: ١/٢٥٢ برقم ٣٣٩ و ج ٤/١٦٥٣.

٢- . الواقعه: ١٠-١١.

٣- . التوبه: ١٠٠.

٤- . الحديد: ١٠.

فيوم أسلم «أبوذر» كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الناس إلى الإسلام سرّاً، ولم تنهياً بعد ظروف الجهر بالدعوة إلى هذا الدين، فإن أتباع الإسلام والمؤمنين به لم يتجاوز عددهم في ذلك اليوم عدد الأصابع، هم: النبي صلى الله عليه وآله وسلم وخمسة ممن آمنوا به، وقبلوا دعوته، ومع ملاحظه هذه الإعتبارات والظروف لم يكن بدّ - حسب الظاهر - من أن يُخفى «أبوذر» إسلامه، ويعود إلى قبيلته من دون أن يعرف به أحد في مكّه.

ولكنّ روح «أبي ذر» الطافحه بالإيمان والحماس أبت ذلك، وكأنّه قد خلّق لينهض في كلّ زمان ومكان ضدّ الظلم والطغيان، ويرفع عقيدته في وجه الباطل وأهله، ويكافح الإنحراف والإعوجاج أيّاً كان مصدره، وصاحبه. وأيّ باطل أكبر من أن يُطأطئ الناس أمام أصنام مصنوعه من الحجر، ويخضعوا أمام أوثان منحوتة من الخشب لا تضرب ولا تنفع، ولا تعطى ولا تمنع، ويسجدوا لها ويتخذوها آله دون الله الخالق الكبير المتعال؟؟

إنّه ليس في وسع «أبي ذر» أن يتحمّل هذا المشهد البغيض المقرف!!

من هنا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن مكث في مكّه قليلاً وقرأ شيئاً من القرآن: يا نبيّ الله ما تأمرني؟

قال: ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمرى.

فقال له: والذي نفسي بيده لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام في المسجد.

قال: فدخل المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله.

قال: فقال المشركون: صبأ الرجل صبأ الرجل، فضربوه حتى صيرع، فأتاه العباس بن عبدالمطلب فأكبّ عليه - بطريقه لطيفه -

وقال: قتلتم الرجل يا معشر قريش! أنتم تجار طريقكم على غفار، فتريدون أن يقطع الطريق، فأمسكوا

عنه.

ثم عاد اليوم الثاني فصنع مثل ذلك ثم ضربوه حتى صرع، فأكب عليه العباس وقال لهم مثل ما قال في أول مره، فأمسكوا عنه. (١)

ولا شك في أنه لو لم يكن العباس لما نجا أبوذر من مخالبا المشركين في أغلب الظن، ولكن أباذر لم يكن بذلك الرجل الذي يتراجع عن هدفه بسرعه، ولهذا بدأ جهاده من جديد.

ففي يوم رأى امرأه تطوف بالبيت، وتدعو ساف و نائله (وهما صنمان لقريش) وتسالهما أن يقضيا لها حاجاتها، فانزعج أبوذر من جهل تلك المرأة، ولكي يفهمها بأنها تدعو صنمين لا يضران ولا ينفعان بل ولا يشعران قال: أنكحى أحدهما صاحبه. فتعلقت به وقالت: أنت صابئ، فجاء فتيه من قريش فضربوه، وجاء ناس من بنى بكر فنصروه. (٢)

قبيله غفار تعتق الإسلام

لقد أدرك رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم قابليات تلميذه وناصره الجديد، وصلابته الخارقة في مكافحه الباطل، ولكن حيث إن الوقت لم يكن يحن بعد للدخول في مواجهه ساخنه مع المشركين لهذا أمره رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بأن يلحق بقومه، ويدعوهم إلى الإسلام، قائلاً له: «إلحق بقومك فإذا بلغك ظهورى فأتنى».

فعاد أبوذر إلى قومه، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام ويكلمهم عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم ويدعوهم إلى نبذ الأصنام وعباده الله الواحد، والتخلق بالأخلاق الرغيبه.

ص: ٤٦٩

١- الطبقات الكبرى: ٤/٢٢٥؛ ولاحظ: الاستيعاب: ٤/١٦٥٤؛ الإصابه: ٧/١٠٦؛ الدرجات الرفيعه: ٢٢٨.

٢- الطبقات الكبرى: ٤/٢٢٣.

فأسلم أبواه، أولاً، ثم أسلم نصف رجال قبيلته «غفار» ثم اختار البقية الإسلام بعد هجره النبي إلى المدينة، ثم تبعها قبيله «أسلم» حيث وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واعتنقوا الإسلام.

ثم التحق أبوذر بعد معركة بدر وأحد برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة وأقام فيها. (١)

وربما كان إيذاء المشركين للمسلمين المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتخذ طابع التهديد والترهيب وممارسه الضغط النفسى والاقتصادى والاجتماعى.

فقد كان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعه أنبه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لئس فهن حلمك، ولنفيلن رأيك، ولنضعن شرفك.

وإن كان تاجراً قال له: لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك.

وإن كان ضعيفاً ضربته، وأغرى به. (٢)

وروى أيضاً أن «خباب بن الأرت» صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قيناً بمكة يعمل السيوف وكان قد باع من «العاص بن وائل» سيوفاً عملها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال له: يا خباب أليس يزعم «محمد» صاحبكم هذا العدى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضه أو ثياب أو خدم، قال خباب: بلى، قال: فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار، فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله

ص: ٤٧٠

١- لاحظ: الطبقات الكبرى: ٤/٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٢٦؛ الدرجات الرفيعة: ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٩ و ٢٣٠.

٢- السير النبويه لابن هشام: ١/٢١١. قوله: لنفيلن رأيك: أى نضعفه ونفسده.

أعداء النبي الألداء

إنَّ للتعزّف على أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخصومه الألداء، ومواقفهم دوراً هاماً في تحليل جملة من حوادث التاريخ الإسلامى التى وقعت بعد الهجره النبويه.

ونحن نكتفى هنا بإدراج أسماء طائفه منهم ونذكر شيئاً من خصوصياتهم.

١. «أبولهب»: عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان جاراً له صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذى لم يفتأ لحظه واحده عن تكذيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإيذاء المسلمين.

٢. «الأسود بن عبد يغوث» وكان أحد المستهزئين وهو ابن خال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا رأى المسلمين قال لأصحابه استهزاء: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر!! (٢)

ولم يمهلّه أجله ليرى بأّم عينيه كيف ورث المسلمون أرض كسرى وقيصر، ووطأوا عرشهما.

٣. «الوليد بن المغيرة» شيخ قريش وحكيمها الذى كان يملك ثروه هائله، وسوف نتحدّث عنه وعن موقفه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الفصل القادم.

٤. «أُمَيّه» و«أُبَيّ» ابنا خلف، وقد مشى «أبى» هذا بعظم رميم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم ففتته فى يده ثم نفخه نحو النبيّ وقال: أتزعم أنّ ربك يحيى هذا بعدما ترى (أو بعدما رمّ)؟ فأنزل الله تعالى: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ

ص: ٤٧١

١- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٣٨.

٢- . السيره الحلبيه: ١/٥١١.

وقد قتل ابنا خلف هذان فى بَدْر. ٥. «أبو الحكم بن هشام» الذى سَمَّاه المسلمون لعناده وتعصُّبه الجاهل ضدَّ الإسلام بأبى جهل، وقد قُتِل هو الآخر فى بدر أيضاً.

٦. «العاص بن وائل» وهو والد «عمرو بن العاص»، وهو الذى وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأبتر.

٧. «عقبه بن أبى معيط» الذى كان من ألدِّ أعداء النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وأشدَّ خصومه بغضاً له صلى الله عليه وآله وسلم، وكان لا يَألو جهداً فى مضايقه المسلمين ولا يترك فرصة تمرُّ دون إيدائهم! (٢).

هؤلاء هم بعض أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المبالغين فى معاداته، وهناك غيرهم كأبى سفيان ممَّن ذكر المؤرِّخون خصوصياتهم كامله فى مؤلِّفاتهم، وقد عرضنا عن إدراجهم بأجمعهم هنا رعايه للاختصار.

عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام

لقد كان إسلام كلِّ واحد من الذين أجابوا دعوه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نابغاً من سبب معيَّن.

فربَّما أدَّت حادثه صغيره إلى أن يعتنق فردٌ أو فريق الإسلام، وينضمُّوا إلى صفوف المسلمين.

وقد اتَّسم السَّبَبُ الذى آل إلى إسلام عمر - من بين جميع تلكم الأسباب والعلل - بطرافه تقتضى التوقُّف عنده فى هذه الدراسه التاريخيه التحليليه.

ص: ٤٧٢

١- . لاحظ: بحار الأنوار: ٧/٣٤؛ السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٤٢-٢٤٣.

٢- . الكامل فى التاريخ: ٢/٧٤. وراجع أيضاً أسد الغابه، والإصابه والاستيعاب وغيرها.

على أنّ التسلسل التاريخي، والتنظيم الوقائي لأحداث الإسلام وإن كان يقتضى منا أن نأتي على ذكر هذه الحادثة بعد هجره صحابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحبشه، إلّا أنّ الحديث حيث دار هنا حول صحابه النبي وكيفيه إسلامهم ومواقفهم، ناسب أن نشير هنا إلى كيفيه إسلام الخليفه الثاني.

يقول ابن هشام: كان إسلام عمر - في ما بلغني - أنّ أخته فاطمه بنت الخطاب وكانت عند «سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها «سعيد بن زيد»، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر (وهؤلاء هم كل من أسلم من آل الخطاب) وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمه بنت الخطاب يُقرئها القرآن.

(وكان «عمر» الذي كانت بينه وبين المسلمين علاقات سيئه جداً قد أزعجه ما أصاب المجتمع المكي من تشّت وفرقه، وما لحق بقريش من المتاعب إثر ظهور الإسلام، من هنا عزم على أن يقضى على هذه الأمر باغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والفتك به).

فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورهطاً من أصحابه، وقد ذكروا له أنّهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمه «حمزه» بن عبدالمطلب و «أبوبكر» و «علي بن أبي طالب» في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكّه ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشه، فلقبه «نعيم بن عبدالله» (وقد كان صديقاً حميماً لعمر) فقال له: أين تريد يا عمر؟

فقال: أريد محمداً هذا الصابي، الذي فرّق في أمر قریش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلها، فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أتري بني عبد مناف

تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً!! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأى أهل بيتي؟

قال: ختكت وابن عمك «سعيد بن زيد» وأختك «فاطمه بنت الخطاب» فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما.

(فأغضب هذا النبأ عمر بشده فانصرف عن الهدف الذي كان يرمى إليه) قال:

فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما «خباب بن الأرت» معه صحيفه فيها سوره «طه» يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس «عمر» تغيب «خباب» فى مخدع لهم، أوفى بعض البيت، وأخفت «فاطمه بنت الخطاب» الصحيفه فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع «عمر» حين دنا إلى البيت قراءه «خباب» عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمه (1) التي سمعت؟

قالا له: ما سمعت شيئاً.

قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه.

وبطش بختنه «سعيد بن زيد» فقامت إليه أخته «فاطمه بنت الخطاب» لتكفّه عن زوجها، فضربها فشجّها.

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلما وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى «عمر» ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته:

أعطينى هذه الصحيفه التي سمعتكم تقرأون أنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمداً؟

فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال: لا تخافى وحلف لها

ص: ٤٧٤

١- . الهينمه: صوت كلام لا يفهم.

بآلهته ليردنها إذا قرأها، إليها.

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخى، إنك نجس على شركك وإنه لا يمسه إلا الطاهر، فقام «عمر» فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها (آيات من سوره) «طه» هي:

«طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا - تذكراً لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض و السماوات العلى * الرحمن على العرش استوى * له ما فى السماوات و ما فى الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى * و إن تجهز بالقول فإنه يعلم السر و أفى»
(١).

فقرأها، فلما قرأ منها صدرأ - تركت هذه الآيات المحكمه الفصيحه البليغه تأثيراً شديداً فى نفسه - قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه...؟

(وقرر الرجل، الذى كان قبل ثوان عدو الإسلام الأول، أن يُغير موقفه، فتوجه إلى البيت الذى ذكر له أن فيه رسول صلى الله عليه و آله و جماعه من أصحابه وهو متوشح سيفه)، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وهو فزع فقال: يا رسول الله: هذا عمر متوشحاً بالسيف، فقال حمزه: فاذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بدلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: إئذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حتى لقيه فى الحجره، فأخذ حجزته (وهو موضع شد الإزار) أو بمجمع رداءه ثم جبدهً جبدهً شديدهً، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعه؟!

فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند

ص: ٤٧٥

وهكذا أسلم «عمر» عند رسول اللّٰه وأصحابه وانضوى إلى صفوف المسلمين.

ثم إن ابن هشام روى روايه أخرى فى كيفية إسلام عمر من أراد الوقوف عليها راجعها فى السيره النبويه (٢).

ص: ٤٧٦

١- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٢٩-٢٣١.

٢- . لاحظ: السيره النبويه: ١/٢٣٢.

إنّ البحث حول حقيقه الإعجاز القرآني أمرٌ خارج عن إطار هدفنا في هذا الكتاب، فذلك متروكٌ إلى الكتب الإعتقاديه والكلاميه.

ولكن الأبحاث التاريخيه تهدينا إلى أنّ القرآن الكريم كان من أكبر وأقوى أسلحه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بحيث خضع أمام فصاحته البالغه وحلاوه كلماته وقوه آياته، وعباراته، أساتذه الفصاحه والبلاغه وأمراء البيان والكلام، وعمالقه الكتابه والخطابه، واعترفوا برمتهم، وقضهم وقضيتهم بأنّ القرآن الّذي جاء به محمّد يحتل أعلى مكان في الفصاحه والبلاغه، وأنّ مثل هذا الحديث لم يعرفه البشر ولم يعهد له التاريخ الإنساني نظيراً.

فلقد كانت جاذبيته «القرآن الكريم» وتأثير حديثه بحيث ترتعد عند استماع آياته فرائص أعدى أعدائه، وربّما انهارت قواه، فبقى مده طويله، لا يقوى على حراك، ولا يملك فعل شيء.

وفيما يلي نذكر بعض النماذج في هذا المجال:

رأى الوليد في القرآن:

كان «الوليد بن المغيره» ممن ترجع إليه العرب لحلّ الكثير من مشاكلهم، وكان ذا سنّ، وثروه كبيره فيهم.

وعندما واجهت قريش مشكله ظهور الإسلام وانتشاره في القبائل مشى فريقٌ منهم إلى الوليد يلتمسون منه حلاً لهذا الأمر الّذي بات يهدّد كيان الزعامه

المكيه الجاهليه، وطلبوا منه أن يبين رأيه في القرآن الكريم وقالوا له: يا أبا عبد شمس ما هذا الذي يقول محمد أسحر، أم كهانه، أم خطب؟

فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في الحجر، فقال: يا محمد أنشدني من شعرك.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما هو بشعر، ولكنّه كلام الله الذي به بعث أنبياءه ورسله.

فقال: اتل عليّ منه، فقرأ عليه رسول الله:

«بسم الله الرحمن الرحيم».

فلما سمع: الرحمن، استهزأ منه وقال: تدعو إلى رجل باليمامة يُسمّى الرحمن؟

قال. لا، ولكنّي أدعو إلى الله وهو الرحمن الرحيم ثم افتتح سورة «حم السجده»، فلما بلغ إلى قوله تعالى:

«فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ». (١)

فلما سمعه (الوليد)، اقشعر جلده، وقامت كلّ شعره في رأسه ولحيته، ثم قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقال قريش: يا أبا الحكم صبا أبو عبد شمس إلى دين محمد، أما تراه لم يرجع إلينا وقد قبل قوله، ومضى إلى منزله.

فاغتمت قريش من ذلك غمّاً شديداً، وغدا عليه أبو جهل فقال: يا عم نكست برؤوسنا وفضحتنا.

قال: وما ذاك يا ابن أخي؟

قال: صبوت إلى دين محمد.

ص: ٤٧٨

قال: ما صبوتُ وإني على دين قومي وآبائي، ولكنني سمعتُ كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود، قال أبو جهل: أشعر هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطبُ هي؟

قال: لا وإنَّ الخطبَ كلامٌ متّصل، وهذا كلامٌ منثور، لا يشبه بعضه بعضاً، له طلاؤه.

قال: كهانه هي؟

قال: لا.

قال: فما هو؟

قال: دعني أفكر فيه.

فلما كان من الغد، قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟ قال: قولوا: هو سحر فإنه أخذ بقلوب الناس فأنزل الله تعالى فيه:

«ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً» إلى قوله: «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» (١). (٢)

رأى عتبه بن ربيعة في القرآن

كان «عتبه بن ربيعة» من كبراء قريش وأشرفها، ويوم أسلم «حمزه» وأصبح أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون اغتمت قريش كلها، وخشى زعماء المشركين أن ينتشر الإسلام أكثر من هذا، فقال عتبه يوماً وهو جالس في نادي

ص: ٤٧٩

١- المدثر: ١١-٣٠.

٢- بحار الأنوار: ١٧/٢١١-٢١٢؛ إعلام الوري بأعلام الهدى: ١/١١٠-١١٢.

قريش، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى «محمد» فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء وكيف عنا؟

فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه. فقام إليه «عته» حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا ابن أخي إنك منّا حيث ما قد علمت من الشرف في العشيره، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منّا بعضها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سؤدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً (وهو ما يتراءى للناس من الجن) تراه لا تستطيع ردةً عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه؛ حتى إذا فرغ «عته»، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم قال: فاسمع منّي؛ قال: أفعّل، قال:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ». (١)

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها يقرؤها عليه، فلمّا سمعها منه «عته» أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، (وبقى على هذه مده من

ص: ٤٨٠

الزمن صامتاً وكأنه قد سُلبَ قدره النطق)، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السجده فسجد ثم قال:

«قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ فأنتَ وذاك».

فقام «عتبه» إلى أصحابه (وقد تغيّرت ملامحُه) فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به!! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أنّي قد سمعت قولاً واللّٰه ما سمعت مثله قط، واللّٰه ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانه، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فواللّٰه ليكوننّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإنّ تصبّه العربُ فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرَكَ واللّٰه يا أبا الوليد بلسانه!!

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. (١)

هذان نموذجان من رأى كبار فصحاء العرب في العهد الجاهليّ، في القرآن الكريم.

على أنّ هناك أمثله ونماذج أخرى كثيرة في هذا المجال.

تحجّجات قريش العجيبه:

اجتمع «عتبه بن ربيعه»، و «شيبه بن ربيعه» و «أبوسفيان بن حرب» و «النضر بن الحارث»، و «أبو البختری»، و «الوليد بن المغيرة»، و «أبو جهل»

ص: ٤٨١

و «العاص بن وائل» وغيرهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: إبعثوا إلى «محمد» فكلموه، وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه؛ فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء وأنهم قد غيروا مواقفهم، وكان يحبّ رشدهم وهدايتهم حتى جلس إليهم. فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وأنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة... ومضوا يعددون أموراً من هذا القبيل ثم اقترحوا عليه أموراً ذكرها الله تعالى بتمامها في الآيه ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الإسراء حيث يقول حاكياً عن لسانهم:

«وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى

١. تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَشْوَعًا

٢. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا

٣. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كَسَفًا

٤. أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا

٥. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ

٦. أَوْ تَزُقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ» !!

وحيث إن مضمون هذه الآيات هو عدم تلبيه النبي لمطالب قريش حيث قال: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» قد تدرع به المستشرقون للإيقاع بالرسالة المحمدية لذلك نعمد هنا إلى توضيح مفاد هذه الآيات والعلل المنطقية لعدم تلبيه النبي مطالب قريش ومقترحاتهم.

ص: ٤٨٢

الجواب: إنّ الأنبياء لا- يأتون بالمعجز في كلّ ظرف و زمان، فإنّ للإعجاز شروطاً خاصه لم تتوفّر في هذه الاقتراحات، وهذه الشروط هي:

أولاً: أن لا تكون المعجزه من الأمور المستحيله التي لا يمكن تحقّقها، فإنّ مثل هذه الأمور خارجه عن إطار القدره، ولا تتعلّق بها مشيئه الله تعالى ولا مشيئه أيّ صاحب إرادته مطلقاً.

وعلى هذا الأساس إذا طلب الناس من النبيّ أمراً محالاً، فقبول طلبهم بعدم الاهتمام من قبل النبيّ لم يكن ذلك دليلاً على إنكار صدور المعجزه على أيدي الأنبياء قط.

هذا الشرط لم يكن متوفراً في بعض مقترحات المشركين المذكوره (المقترح الرابع) فإنّهم طلبوا من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتي لهم بالله سبحانه وتعالى ليقابلوه وجهاً لوجه، ويروه جهره ومن قريب، ورؤيه الله تعالى أمر محال، لأنّ رؤيته تستلزم أن يكون سبحانه محدوداً بالزمان والمكان، وأن يكون جسماً وذا لون وصوره وهو تعالى منزّه عن المادّه ولوازم الماديه.

بل حتّى مقترحهم الثالث لو كان المقصود منه أن تسقط السماء عليهم (لا أن تسقط قطعه من الصخر على رؤوسهم و تقتلهم) فإنّ ذلك هو أيضاً من المحالات، إذ أن المشيئه الالهيه تعلّقت بأن يفعل الله هذا في نهايه العالم، والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أخبر المشركين بهذا الأمر أيضاً كما يدلّ عليه قولهم: «كما زعمت».

إنّ إنهدام المنظومه الشمسيه وتبعثر النجوم وتساقطها وإن لم يكن في حد ذاته بالأمر المحال، ولكنّه - حسب المشيئه الالهيه الحكيمه وإرادته النافذه القاضيه بأن يستمر النوع البشري، ويصل إلى مرحله الكمال - يعدّ محالاً، ولا يمكن أن يفعل حكيمٌ خلاف ما يقتضيه هدفه وغايته.

ثانياً: حيث إنّ الغايه المنشوده من اقتراح وطلب الإعجاز هو أن يستدلّ به على صدق دعوى النبى، وصحة انتسابه إلى الله، وبالتالي يكون بدافع تحصيل سند على ارتباطه بعالم ما فوق الطبيعه، لذلك فإنّ أى اقتراح ومطالبه بالمعجزه لا تتوفّر فيها هذه الصفه يعنى على فرض أن يلبى النبى طلبهم ويأتى لهم بالمعجزه لا يكون ذلك دليلاً على ارتباطه بعالم الغيب، فحينئذٍ لا معنى ولا موجب لأن يقوم النبى بما لا يرتبط بشؤونه ولا يخدم هدفه.

وقد كانت بعض مقترحات المشركين المذكوره من هذا النوع، وذلك مثل تفجير ينبوع من الأرض، أو أن تكون له جَنّه من نخيل وعنب، أو أن يكون له بيتٌ من زخرف وذهب، فإنّ مثل هذه الأمور لا- تدلّ على نبوّه من يمتلكها، إذ ما أكثر الذين يمتلكون واحده من هذه الأشياء وليسوا مع ذلك بأنبياء، بل ربّما يملكون أكثر من ذلك، ومع ذلك لا يشم فيهم رائحه الإيمان فضلاً عن النبوه.

فإذا لم ترتبط هذه الأشياء بمقام النبوه، ولا تكون دليلاً على صدق من يدّعيها كان الإتيان بها أمراً لغواً وعبثاً تعالى عنه مقام النبوه، وجلّت عنه منزله الأنبياء.

وقد يقال: إنّ هذه الأشياء (1) لا تدلّ على صدق دعوى النبى إذا حصلت عن طريق الأسباب العاديه، ولكنّها لو حصلت بصوره غير عاديه ولا متعارفه كانت ولا شكّ من المعاجز الإلهيه، ودلّت على صدق النبى وصّحه دعواه.

ولكنّ الظاهر أنّ هذه فكره باطله؛ لأنّ المشركين كانوا يهدفون من اقتراحاتهم هذه أن يكون النبى صاحب مال و ثروه، فقد كانوا يستبعدون أن يكون نبى الله ورسوله فقيراً لا يملك شيئاً من الثروه والمال، وكانوا يعتقدون أنّ الوحي

ص: ٤٨٤

١- . أى الأمور الثلاثة المقترحه: ينبوع والجنه والبيت من ذهب.

الإلهى يجب أن ينزل على رجل غنى ذى طول وحول، ولذلك قالوا مستغربين ومستنكرين:

«وَقَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ» (١)؟!!

أى لماذا لم ينزل هذا القرآن على رجل ثرى من مكة أو الطائف.

ومما يدل على أنّ الهدف كان هو أن يملك النبي مثل هذه الأمور بأى طريق كان، ولو بالطريق العادى أنهم كانوا يريدون هذه الأشياء للنبي نفسه، إذ قالوا:

«أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ» (٢).

وبعبارة أخرى: كانوا يقولون إذا أنت لا تمتلك بستاناً أو بيتاً من ذهب فإنا لن نؤمن لك!!

ولو كان الهدف هو أن يحصل هذان الأمران بواسطة القدره الغيبية لم يكن وجه حينئذٍ لقولهم: ما لم يكن «لمك» بيت من زخرف، فإنا نؤمن بك بل كان يكفي أن يقولوا: إذا لم تحدث وتوجد بيتاً وجّه فإنا لن نؤمن لك.

أما قولهم فى مطلع اقتراحاتهم: «تُفَجِّرْ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يُنبِوعاً» فإنّ مقصودهم لم يكن هو أن يستخرج لهم بالإعجاز ينبوعاً لينتفعوا به، بل يفعل ذلك لكى يؤمنوا به.

ثالثاً: أنّ المقصود من المعجزه هو الاهتداء فى ضوئها إلى صحه دعوى النبي وصدق مقاله، والإيمان بمنصبه، والاعتقاد بمقامه، وعلى هذا إذا كان بين المقترحين للمعجزه من يكون الإتيان له بالإعجاز سبباً لإيمانه بالنبي، فحينئذٍ كان الإتيان بالمعجزه وتلييه اقتراحه أمراً مستحسناً، وغير مقبوح عقلاً.

أما إذا كان المقترحون، يقترحون عناداً ولجاجاً، أو يطلبون ما يطلبونه لهواً

ص: ٤٨٥

١- . الزخرف: ٣١.

٢- . الإسراء: ٩٣.

وتسليته كما يفعل الناس مع السحره والمرتاضين فإن منزله النبي أجل - حينئذ - من أن يلبي مثل هذه المقترحات، ويستجيب لمثل هذه المطالب، وقد كانت بعض اقتراحات المشركين من هذا النمط.

فإن مطالبتهم بأن يصعد النبي إلى السماء، أو أن ينزل من السماء كتاباً يقرأونه لم يكن بهدف إكتشاف الحقيقه لأنهم لو كانوا ممن يهدف الوصول إلى الحقيقه فلماذا لم يكتفوا بمجرد صعوده إلى السماء بل كانوا يصرون على أن يضمّ أمراً آخر إلى عروجه وصعوده (وهو أن ينزل معه كتاباً)!!

ثم إنه يُستفاد من آيات أخرى، غير هاتين الآيتين أيضاً، أنهم كانوا سيعاندون، ويصرون على كفرهم حتى بعد نزول الكتاب عليهم من السماء كما يصرّح بذلك قوله تعالى:

«وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ» (١).

فمن غير المستبعد أن يكون الكتاب المنزل في قرطاس إشارة إلى اقتراح المشركين الذي جاء ضمن آيات سورة الإسراء أى قولهم: «أَوْ تَرْقى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرقِيكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ» (٢) فقال الله سبحانه: حَتَّى لَوْ فَعَلْنَا لَهُمْ ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَأَحْجَمُوا عَنِ الْإِيمَانِ.

رابعاً: أن طلب المعجزه إنما هو لأجل أن يستتبع الإتيان بها الإيمان بالرساله والانضمام إلى صفوف المؤمنين، فإذا كانت نتيجة المعجزه هي إباء المقترحين، استلزم ذلك نقض الغرض المنشود من المعجزه، وانتفاء فائدتها.

فإذا كان المقصود من سقوط السماء عليهم، هو نزول الصخور السماويه

ص: ٤٨٦

١- . الأنعام: ٧.

٢- . الإسراء: ٩٣.

لإبادتهم، فإنّ هذا الطلب لا يتفق أبداً مع هدف الإعجاز وهو من أوضح مصاديق نقض الغرض.

وبالتالى ينبغى أن نذكر بنقطه وهى: أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على خلاف ما تصوّر المستدلون بهذه الآية على نفي آية معجزه لرسول الإسلام، لم يصف نفسه بالعجز وعدم قدره على الإتيان بالمعجزه، بل أفاد بقوله: «سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» (١) أمرين:

١ - تنزيه الله، فهو بقوله: «سُبْحَانَ رَبِّي» نزه الله تعالى عن كلّ عجز ونقص كما نزهه عن الرؤيه ووصفه بالقدرة على كلّ شيء ممكن.

٢. محدودية قدره النبي، إذ بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» أفاد بأنّه امرئ مأمور لا أكثر وأنّه مطيع لأمر الله وإرادته فهو يأتي بما يريد ربّه، والأمر إلى الله كلّه، وليس للنبي أن يُلبى أى طلبٍ واقترح بإرادته.

وبعبارة أخرى: أنّ الآيه ركزت فى مقام الجواب على طلبهم بعد تنزيه الله عن العجز والرؤيه على كلمتى: «البشر والرسول» والهدف هو أنّه: إذا أنتم قد طلبتم هذه الأمور منى من جهه إتنى بشر، كان طلبكم هذا طلباً غير صحيح، لأنّ هذه الأمور تحتاج إلى قدره الهيه.

وإن طلبتموها منى من جهه أنى نبي ورسول فإنّ النبي والرسول ما هو إلّا إمريئ مأمورٌ يفعل ما يأذن به الله، وليس له أن يفعل ما يشاء هو دون إرادته الله تعالى.

وبهذا اتضح أنّ هذه الآيات لا تدلّ على ما استدللّ به النافون لمعاجز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان ممّا تحجّجت به قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّهم قالوا:

ص: ٤٨٧

لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَشَغَلَتْهُ النُّبُوَّةُ عَنِ النَّسَاءِ وَالْمَكْنَهِ جَمِيعَ الْآيَاتِ (أَي لَأَتَتْهُ الْآيَاتُ دَفْعَهُ وَاحِدَهُ) وَالْمَكْنَهَ مَنَعُ الْمَوْتِ عَنِ أَقَارِبِهِ، وَلَمَّا مَاتَ أَبُو طَالِبٍ وَخَدِيجَةُ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَهُ بَأْيُهُ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ * وَ إِنْ مَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ» .

وبذلك ردّ عليهم (١). (٢).

الدوافع وراء معاداة قريش وعنادهم:

إشارة

هذا القسم هو إحدى النقاط الجديرة بالدراسة في تاريخ الإسلام، لأنّ المرء قد يسائل نفسه، لماذا يا ترى كانت قريش تعارض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشدّ المعارضه رغم أنّها كانت تعتبره الصادق الأمين ولم تعهد منه انحرافاً أو خطأ قط وكانت تسمع كلامه الفصيح البليغ الذي يأسر القلوب، وربّما شاهدوا حدوث بعض الخوارق للعاده، الخارجه عن حدود القوانين الطبيعيه على يديه.

إنّ هذا التمرّد والمعارضه يعود إلى علّة أو علل عديده هي:

١. حَسَدُهُمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم:

لقد عارض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخالفه فريقٌ ممّن عارضه بسبب حسدهم له، فقد كانوا يتمنون أن يكونوا هم صاحب هذا المنصب، وصاحب هذه المنزله.

ص: ٤٨٨

١- . الرعد: ٣٨-٤٠.

٢- . بحار الأنوار: ١٩/١٧ عن المناقب لابن شهر آشوب: ١/٥٠.

فقد قال المفسرون عند قوله تعالى: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» (١) أن «الوليد بن المغيرة» قال: أُيُنزَّل على مُحَمَّد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك «أبو مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي» سيد ثقيف، ونحن عظيمي القريتين، فأُنزل الله تعالى فيه الآية. (٢)

وروى أنه قال: والله لو كانت النبوه حقاً لكنتُ أولى بها منك، لأنني أكبر منك سنّاً، وأكثر منك مالاً. (٣)

وكان «أمية بن أبي الصلت» من الذين كانوا يقولون هذا الكلام حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان يتمنى كثيراً أن ينال هو هذا المقام ويحظى بهذا المنصب العظيم، ولم يتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى آخر حياته، وكان يؤلب الناس عليه.

وقد سأل «الأخنس بن شريق» - وهو من أعداء رسول الله - أبا جهل يوماً: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من «محمد»؟

فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. (٤)

هذه النماذج تُظهرُ الحسد العذى كان يحول بين زعماء قريش وساداتها وبين إتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتصديقه، فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً، ولجوا فيما هم عليه من الكفر، وهناك نماذج وأمثله أُخرى سجلتها صفحات التاريخ أعرضنا عن إدراجها هنا.

ص: ٤٨٩

١- . الزخرف: ٣١.

٢- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٤٢.

٣- . بحار الأنوار: ١٨/٢٣٥.

٤- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٠٨.

٢. معارضة الدعوه الإسلاميه لشهواتهم:

وكان لهذا العامل الأثر الأكبر فى عتو قريش و معارضتها لدعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم؛ لأنهم كانوا أصحاب لهو ولعب، وفسق ومجون، ومثل هؤلاء الذين أمضوا سنوات عديده على هذا النحو، دون أن يقيدهم شىء من الحدود والقيود، وحيّدوا دعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم تخالف عاداتهم القديمه، وكان ترك مثل تلك العادات التى تتفق مع أهوائهم وورغباتهم النفسيه أمراً يلازم النصب والعناء والجهد.

٣. الخوف من عقوبات اليوم الآخر:

إن سماع آيات العذاب التى تنذر الفسقه والظالمين وتوعدهم بالعقوبات الثقيله أربع قلوبهم، وأقلق نفوسهم بشده.

فعندما كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يتلو الآيات المتعلقه بيوم القيامه وأوضاعه، وقضاياه فى الاجتماعات والأماكن العامه، كان يحدث بذلك ضجّه كبرى فى أوساطهم، فيهدم مجالس لهوهم، وأنسهم.

إنّ العربى الذى كان يسلّح نفسه بكلّ ما استطاع من سلاح ليدفع عن نفسه أى خطر محتمل، ويعمد إلى ممارسه القرعه ويتعاطى الأنصاب والأزلام ليحصل على لقمه عيشه، ويتفأل بالأحجار، ويتطيّر ويتشاءم بالطيور ويستدلّ بحالاتها على حوادث وقعت أو تقع، لم يكن على استعداد لأن يهدأ من دون ان يحصل على ضمان بعدم التعرّض لما يخبر عنه «محمّد» من عذاب وعقاب!!

من هنا كانوا يحاربون النبى صلى الله عليه و آله و سلم ويخالفونه حتى لا يسمعوا وعده ووعيده.

واليك بعض الآيات التى كانت تقلق بشده نفوس المترفين من قريش:

«فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحَتِهِ

وَبَيْنِهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ». (١).

وبينما كانوا يمدّون موائد اللّهُ والشراب في ظلال الكعبه ويحتسون كؤوس الخمر كانوا فجأه يسمعون هذه الآيه:

«كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ». (٢).

فتلقى في نفوسهم رعباً عجيباً، ويتتابههم الاضطراب الشديد حتّى أنّهم كانوا يلقون بكؤوس الخمر جانباً ويتملّكهم خوف شديد لم يعرفوا له مثيلاً.

٤. الخوف من القبائل العربيه المشركه:

قال «الحارث بن نوفل بن عبد مناف» لرسول اللّهُ صلى الله عليه وآله وسلم: إنّنا لنعلم أنّ قولك حقّ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافه أن يتخطّفنا العرب من أرضنا (إن تركنا الوثنيه التي تدين بها ويعتبروننا سدنه لأوثانها) ولا طاقه لنا بها.

فنزّل (قوله تعالى يرد عليهم):

«وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِيبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا» (٣). (٤).

وهكذا كان تخوف قريش من العرب إن هي تركت ما كان عليه العرب من الوثنيه والشرك أحد الأسباب لعتوهم وإعراضهم عن قبول الدعوه الإسلاميه.

ص: ٤٩١

١- . عبس: ٣٣-٣٧.

٢- . النساء: ٥٦.

٣- . القصص: ٥٧.

٤- . بحار الأنوار: ١٨/٢٣٦.

طائفة من اعتراضات المشركين:

وربما اعترض المشركون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلين: إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء، وإنما أرض الأنبياء الشام، فأت الشام. (١)

وكان أكثر المشركين يقولون - وذلك بوحي من اليهود - لماذا لا ينزل القرآن على «محمد» دفعه واحده كالتوراه والإنجيل، فحكى القرآن الكريم إعتراضهم هذا بنصه إذ قال:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» .

ثم قال تعالى ردّاً على إعتراضهم هذا:

«كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» . (٢)

إن القرآن يهتم بهذا الإعتراض، ويوضح مسأله «النزول التدريجي» للقرآن الكريم و يقطع الطريق على المستشرقين المغرضين ومن حذا حذوهم، بمنطقه المحكم، وبيانه القوي.

وها نحن نعمد هنا إلى إعطاء شيء من التوضيح لهذه المسأله أيضاً:

القرآن والنزول التدريجي:

إن التاريخ القطعي لنزول القرآن وكذا مضامين آيات سورة تشهد بأن آيات القرآن الكريم وسوره نزلت تدريجاً.

فبمراجعه فاحصه لأوضاع مكه، والمدينه يمكن تمييز المكى من هذه الآيات عن مدنيها.

فالآيات التي تتحدث عن مكافحه الشرك والوثنيه ودعوه الناس إلى الله

ص: ٤٩٢

١- . بحار الأنوار: ١٨/١٩٨.

٢- . الفرقان: ٣٢.

الواحد، والإيمان باليوم الآخر مكّيه، بينما تكون الآيات التي تدور حول الأحكام وتحثّ على الجهاد والقتال مدنيّة، ذلك لأنّ الخطاب في البيئه المكّيه كان موجّهاً إلى المشركين عبّده الأوثان الذين كانوا ينكرون توحيد الله، واليوم الآخر، فهنا تكون الآيات التي تتحدّث حول هذا الموضوع قد نزلت في هذه البيئه.

في حين كان الخطاب في المدينه المنوره موجّهاً إلى المؤمنين بالله، وإلى جماعه اليهود والنصارى، وكان الجهاد والقتال في سبيل إعلاء كلمه الله هو الأعمال المهمّه التي بدأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وواصلها في هذه البيئه، من هنا تكون الآيات التي تتضمّن الحديث حول الأحكام والفروع والقوانين، ويدور الحديث فيها أيضاً حول عقائد اليهود والنصارى ومواقفهم وتتضمّن الحثّ - كذلك - على الجهاد والقتال والتضحيه في سبيل إعلاء كلمه الله وإعزاز دينه، آيات مدنيّه.

إنّ كثيراً من الآيات ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه الحوادث هي التي تشكّل ما يسمّى بشأن أو أسباب النزول التي يكون الوقوف عليها موجّباً لفهم مفاد الآيه، وإيضاح مفادها، فإنّ وقوع هذه الحوادث كان سبباً لنزول آيات فيها بالمناسبه.

على أنّ بعض الآيات الأخرى نزلت جواباً على أسئلة الناس، ولرفع حاجاتهم في المجالات المختلفه.

والبعض الآخر منها نزلت لبيان المعارف والأحكام الإلهيه.

ولهذه الأسباب يمكن القول بأنّ القرآن الكريم نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تدريجاً لتدرّج موجبات النزول.

وقد صرّح القرآن الكريم بهذا الأمر أيضاً في بعض المواضع إذ قال:

«وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ» (١).

ص: ٤٩٣

وهنا يطرح هذا السؤال وهو: لماذا لم تنزل آيات القرآن كُلِّها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جملة واحده، ودفعه واحده كما حدث ذلك للتوراه والإنجيل من قبل؟!

إنَّ هذا السؤال لم يكن جديداً بل طرحه أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعارضوه في عصر الرساله في صورته الاعتراض أيضاً حيث كانوا يقولون:

«لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» (١).

ويمكن تقرير و شرح هذا الاعتراض على نحوين:

١. إذا كان الإسلام ديناً إلهياً، وكان القرآن كتاباً سماوياً منزلاً من جانب الله على رسوله، فلا بد أن يكون ديناً كاملاً، ومثل هذا الدين الكامل يجب أن ينزل بواسطة ملائكة الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جملة واحده من دون تدرج ولا توقّف في نزول الآيات، إذ لا- مبرر ولا- داعى لأن ينزل ديناً كاملاً من جميع الجهات، مكتمل من حيث الأصول والفروع والتشريعات والواجبات والسنن، على نحو التدرج في ٢٣ عاماً، ولمناسبات مختلفه.

وحيث إنَّ القرآن نزل منجماً، وبصوره متفرقة متناثره، وعقيب طائفه من الأسئلة، أو وقوع حوادث و طروء حاجات في أزمته مختلفه يمكن الحدس بأنَّ هذا الدين لم يكن كاملاً من حيث الأصول والفروع، وهو يتدرج في التكامل ومثل هذا الدين الناقص الذي يسير نحو كماله خطوه خطوه وبالتدرج لا يصح أن يوصف بالدين الإلهي. ٢. إنَّ آيات القرآن والتاريخ القطعي والمسلم للتوراه والإنجيل والزبور تحكى جميعها عن أن هذه الكتب السماويه أعطيت إلى المرسلين بها في ألواح مكتوبه مدونه، فلم لم ينزل القرآن الكريم على هذا الغرار، كأن ينزل القرآن على

ص: ٤٩٤

١- . الفرقان: ٣٢.

«محمّد» فى لوح مكتوب كما نزلت التوراه فى ألواح مكتوبه؟!

وحيث إنّ المشركين لم يكونوا يعتقدون بهذه الكتب السماويه قط، ولم يكن لهم علم مسبق بكيفيه نزولها، لذا يمكن القول بأنّ مقصودهم من هذا الاعتراض كان هو الشكل الأوّل من هذا التوضيح، والذى يتلخّص فى أنّه لماذا لم ينزل ملائكه الوحي آيات القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمله واحده، بل نزلت هذه الآيات عليه صلى الله عليه وآله وسلم فى فواصل زمنيه متفاوته، وبمناسبات و حسب وقائع مختلفه متدرّجه؟!

الأسرار المنطقيه للنزول التدريجي للقرآن:

ولقد كشف القرآن القناع - فى معرض الردّ على إعتراض المشركين هذا - عن حِكَم وأسرار النزول التدريجي للقرآن الكريم. وإليك توضيح هذا القسم الذى أشار إليه الكتاب العزيز بعباره مقتضبه قصيره:

١. إنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يتحمّل مسؤوليات كبرى، وإنّ شخصيه كهذه من الطبيعى أن يواجه مشاكل ومتاعب باهضه وصعبه، ولا ريب أنّ تلك المشاكل والمتاعب توجب الكلال، وانخفاض مستوى النشاط مهما كانت الروح التى يتمتع بها الشخص عظيمه، وقويّه، فى مثل هذه الحاله يكون تجديد الارتباط بالعالم الأعلى، وتكرّر نزول الملك من جانب الله تعالى باعثاً على تجدد النشاط، وعاملاً قوياً فى بثّ القوه والحماس والمعنويه الفاعله فى نفس النبى وروحه، وبالتالي فإنّ العناية والمحبه الإلهيه الممتدّه لنبىه ورسوله إنّما تتجدد بتكرّر نزول الوحي عليه صلى الله عليه وآله وسلم من جانبه تعالى.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقه النفسيه الكبرى إذ قال:

«كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» (١).

٢. ويمكن أن تكون الجملة المذكورة ناظره إلى جهة أخرى وهي: أنَّ المصالح التربويه والتعليميه تقتضى أن ينتزل القرآن الكريم على نحو التدريج ويلقى إلى الناس على هذا الشكل أيضاً، وذلك لأنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم معلم الأمة، وطبيهاً الروحي الذي يُبعث إلى الناس بالوصفات الإلهيه لتعليمهم، وهدايتهم ومعالجه أمراضهم وأدوائهم الاجتماعيه والخلقيه، والفكريه، وكُلِّفَ بأن يُطبَّق هذه الوصفات في حياتهم العمليه، ومثل هذا يتطلَّب التدرج لينفع الدواء - حينئذٍ - وتنجع المعالجه.

إنَّ أفضل وأنجح أساليب التربيه هو أن يمتزج الجانب العمليّ بالجانب النظريّ في أيّه محاوله تربويه، وأن يطبق كلَّ ما يدرسه الأستاذ بصوره عمليه تطبيقيه، ويعطى لما يليق من معلومات، صبغه تحقيقيه، ويتجنَّب بشده إتصاف أفكاره وآرائه بالطابع النظريّ البحت.

فلو أنَّ الأستاذ المتخصِّص في الطبَّ اكتفى بإلقاء جملة من المعلومات الكليّه والأسس العامه من الطبَّ على طلابه في الصفِّ حُرِّم النتائج المتوخاه والغايات المطلوبه من تعليم الطبَّ، بشكل كامل.

أمّا إذا قرَن الأستاذ درسه النظريّ بالإرشاد العمليّ وطبَّق ما ألقاه وبيّنه من أفكار ومعلومات في هذا المجال على جسم مريض راقداً أمام الطلبة، فإنّه سيحصل على نتائج أحسن، ويساعد الطلبة على فهم أفضل للمواد التي درسوها في هذا المجال.

فلو أنَّ الآيات القرآنيه الكريمه قد نزلت جملهً واحده (والحال أنَّ المجتمع

ص: ٤٩٦

١- الفرقان: ٣٢.

الإسلامى لم يكن يحتاج إلى كثير منها) كان القرآن - حينئذٍ - فاقداً لهذه المزيه التربويه الهامه التى أشرنا إليها قريباً فى مثال تدريس الطب.

إنّ بيان الآيات التى يشعر الناس فى أنفسهم بعدم الحاجة إلى أخذها وتعلّمها، لا يترك التأثيرَ الباهرَ فى القلوب، بينما إذا نزل ملائكه الوحي بآيات القرآن حسب حاجات الناس التى يشعرون فيها بضروره تعلّمها لتضمّنهما الأحكامَ والأصولَ والفروعَ التى يحتاجون إليها، فإنّه لا شكّ يكون لها فى هذه الحاله تأثير أحسن وأقوى فى قلوب الناس. كما سيكون لها ترسيخٌ أكبر فى نفوسهم، وسيظهرُ الناس من أنفسهم استعداداً أكبر لأخذ ألفاظها ومعانيها، وفوق كلّ ذلك سيشعرون بنتائج هذه التعاليم عند تعليم النبي إياها لهم، وعندئذ تتحقّق المقوله التربويه التى أشرنا إليها فى ما سبق وهى اقتران كلام المرّبي بالنتيجه لأن النظريات اتّخذت طابعاً عملياً، ولم تكن مجرد نظريات لا ترتبط بالواقع.

ولكن يبقى هنا سؤالٌ آخر وهو: إذا كان نزولُ القرآن قد تحقّق على نحو التدرّيج وتبعاً للاحتياجات والحوادث المختلفه، فإنّ ذلك يستلزم انفصام العلاقات والروابط بين الآيات والسور، وهذا ينتج أن لا يهتم الفكر البشرى بتعلّم وحفظ معارفها لتبعثها، وتبعد أزميتها وغياب علاقاتها، ولكن لو نزل القرآنُ جملة واحده وتلاه ملائكه الوحي على رسول الله دفعه واحده لرُوعيت الروابطُ والعلاقات بين قضايا الوحي ولتضاعفت رغبه الناس واستعدادهم لأخذها وحفظها؟

ولقد أجاب القرآن الكريم أيضاً على هذا السؤال إذ قال: صحيح أنّ آيات القرآن الكريم نزلت على نحو التدرّيج تبعاً لطائفه من المقتضيات والموجبات إلّا أنّ هذا النزول التدرّيجى لا يمنع أبداً من ترابط مطالبه، وارتباط مواضعه ببعضها ببعض، فإنّ الله تعالى أفاض على هذه الآيات إنسجاماً وترابطاً خاصاً يمكن

الإنسان من تعلّمها وضبطها وحفظها إذا أعطى الموضوعَ قليلاً من الإهتمام، إذ قال تعالى:

«وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً» (١).

أى إنّنا أعطينا آيات القرآن نظاماً معيناً وترتيباً خاصاً.

أسرارُ أخرى لنزول القرآن تدريجاً:

٣. لقد واجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فتره رسالته ونبوّته فئات مختلفة من الناس:

كالوثنيين، واليهود والمسيحيين الذين كان لكلّ فئة منهم ديناً خاصاً، وعقائد وتصوّرات خاصّة حول المبدأ والمعاد، وغيرهما من المعارف العقلية.

وقد كانت اللقاءات المختلفة هذه توجب أن يعمد الوحي الإلهي إلى توضيح وبيان عقائد هذه الفئات (وإن لم يكن مطلوباً ومقترحاً من قبلهم) ويقيم الأدلّة والبراهين على بطلانها، وزيفها، هذا من جانب.

ومن جانب آخر كانت هذه اللقاءات في أزمته متفاوتة، وأوقات مختلفة، لهذا لم يكن بدّ من أن ينزل الوحي الإلهي تدريجاً، وفي الأوقات المختلفة، ويتصدّى لبيان بطلان تلك العقائد والتصوّرات ويجب على شبهات المخالفين واعتراضاتهم.

وربّما كانت توجب هذه المواجهات العقائدية إلى أن يطرحوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعض الأسئلة إمتحاناً واختباراً له وكان على النبي أن يجيب عنها، وحيث إنّ هذه الأسئلة كانت تطرح في أوقات مختلفة، لهذا لم يكن مناص من أن ينزل الوحي الإلهي في الأوقات والأزمته المختلفة، وعلى نحو التدريج.

هذا مضافاً إلى أنّ حياة النبي نفسه كان حياه ثوره، ووقائع، وكان النبي يواجه

ص: ٤٩٨

باستمرار أحداثاً وقضايا يجب توضيح حكمها، وبيان المنهج فيها من جانب الوحي الإلهي.

وربما كان الناس أنفسهم يواجهون في حياتهم اليومية حوادث وأموراً يرجعون فيها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يطلبون منه الحكم الإلهي فيها ويسألونه عما يجب اتخاذه من الموقف الشرعي في تلك الحوادث وما يشابهها.

وحيث إن هذه الحوادث، وما يترتب عليها من تساؤلات كانت تقع في أوقات مختلفه، وبمرور الزمن، لذلك لم يكن بد أيضاً من أن ينزل الوحي الإلهي بالتدرج ليجيب عن هذه الأسئلة أولاً بأول.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النقاط، وإلى نقاط أخرى غيرها في قوله تعالى:

«وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا» (١).

٤. إن للنزول التدريجي للقرآن الكريم وراء كل ذلك سراً آخر، وعله أخرى غفلوا عنها، ألا وهي: هداية الناس وتوجيه أنظارهم إلى منشأ هذا الكتاب، وأن القرآن ليس إلّا كتاباً سماوياً، ووحياً إلهياً لا غير، ولا يمكن أن يكون من نسج العقل البشري، لأن القرآن نزل خلال (٢٣ عاماً) عبر طريق طويل من أنواع الحوادث والوقائع المسره والمخزنه، المقرونه بالنصر والهزيمة، والنجاح والإخفاق، ولا شك أن هذه الحالات المختلفه، والأحاسيس والمشاعر المتنوعه المتباينه، تترك أثراً عميقاً في نفس الإنسان، وروحه وعقله، ولا يمكن لإنسان واحد أن يتكلم بكلام من نوع واحد، وبنبره واحده، في حالتين نفسيّتين متضادتين، فالكلام الصادر في حال الفرح والابتهاج والمسره من اللسان أو القلم، يختلف من حيث الفصاحه

ص: ٤٩٩

١- الفرقان: ٣٣.

والبلاغه و جمال اللفظ وعمق المعنى اختلافاً بارزاً عن الكلام الصادر في حال الحزن والتعب، والإخفاق، والهزيمة.

بينما لا يوجد أى شيء من الاختلاف من حيث الألفاظ والمعاني بين آيات القرآن الكريم مع أنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يمر بحالات مختلفه من الحزن والسرور والإخفاق والانتصار والسراء والضراء، والعسر والرخاء والجهد والنشاط، بل نجد تلك الآيات على نمط ونسق واحد من القوه والفصاحه والبلاغه، وجمال اللفظ وعمق المعنى بحيث يستحيل على أى بشر بلغ ما بلغ أن يعارض آيه من آياته أو سوره من سوره، وكأنّ القرآن الكريم كميّه من الفضه المائعه خرجت من الأتون جملته واحده لا يوجد بين آياتها أى شيء من التفاوت والاختلاف، أو كأنّه جوهره واحده أولها كآخرها وآخرها كأولها.

ولعلّ الآيه التاليه التي تنفى أى نوع من أنواع الاختلاف في القرآن إذ تقول:

«وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (١) إشاره إلى هذا السرّ.

إنّ المفسّرين اعتبروا هذه الآيه ناظره إلى نفى الاختلاف والتناقض بين مفاهيم الآيات ومفاداتها، ومقاصدها، في حين لا تنفى هذه الآيه مجرّد هذا النوع من الاختلاف بل تقدّس القرآن المجيد وتنزهه من جميع أنواع الاختلاف والتناقض الّذى هو من لوازم العمل والانتاج البشرى.

ص: ٥٠٠

تُعتبر هجره فريق من المسلمين إلى أرض الحبشه دليلاً بارزاً على إيمانهم وإخلاصهم العميق لدينهم، ولربهم؛ وذلك لأنّ فريقاً من الرجال والنساء يقرّرون - وبهدف الحفاظ على عقيدتهم والتخلّص من أذى قريش ومضايقتها والحصول على مكان آمن يقيمون فيه شعائرهم بحريه ويعبدون الله الواحد - مغادره (مكّه)، التي ترزح تحت ظلام الوثنيه، فلا يمكن أن يرفعوا نداء التوحيد عالياً في أيّه نقطه من نقاطها، ولا يمكنهم إقامة أحكام الدين الحنيف فيها من دون خوف أو وجل، وبعيداً عن الإرهاب، ويفكّرون، ويفكّرون، وأخيراً يقوّدهم التفكير إلى أن يفاتحوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه المسأله، ويطلبوا في ذلك رأى النبي الذي يقوم دينه على مبدأ: «إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ». (١).

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرف أوضاع المسلمين المؤلمه جيداً، فقد كان هو يحظى بحمايه بنى هاشم، وكان الفتيان الهاشميون يحمونه ويحفظونه من كلّ أذى، ولكنّ - الذين آمنوا به من الإمام والعبيد، ومن ليست لهم حمايه من الأحرار المستضعفين - الذين كانوا يشكّلون عدداً كبيراً من المسلمين السابقين - كانوا يتعرضون لشتى صنوف العذاب والإيذاء والمضايقه من قريش التي لم تأل جهداً، ولم تدخر وسعاً، ولم تفوت فرصه ولا وسيلهً لإلحاق العنت والأذى بالمؤمنين

ص: ٥٠١

برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يستطيع صلى الله عليه وآله وسلم منعهم من ذلك.

وقد كان زعماء كل قبيله يعمدون - للمنع من نشوب أى صدام بين القبائل - إلى تعذيب من أسلم من أبناء قبيلتهم، وإيذائه والتنكيل به، وقد مرّت عليك نماذج وأمثلة من أذى قريش وتعذيبها القاسى للمسلمين.

لهذه الأسباب عند ما طلب أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم رأيه فى الهجره من مكّه قال فى جوابهم:

«لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظَلِّمُ عِنْدَهُ أَحَدًا، وَهِيَ أَرْضٌ صِدْقٍ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ» (١).

أجل أن مجتمعا صالحا يتسلم زمام الأمر فيه رجل صالح عادل نموذج مصغر من جنه عدن بالنسبه إلى المسلمين المضطهدين فى بلدهم بسبب عقيدتهم، وهو ما كان يريده ويتمناه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتمكنوا من القيام بشعائر دينهم فيه فى جو من الطمأنينه والأمن.

ولقد كان لكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أثر قوى فى نفوس تلك الثله المؤمنه الباحثه عن أرض تعبد فيها الله فى أمان، بحيث لم يمض زمان إلا وقد شدّت رحالها وغادرت مكّه ليلاً فى غفله من الأجانب المشركين مشاه وركباناً، متجهه نحو جدّه، للسفر عبر مينائها إلى أرض الحبشه.

وكان هذا الفريق يتألف من عشر أو خمسه عشر شخصاً بينهم أربعة من النسوه المسلمات (٢).

والآن يجب أن نرى لماذا لم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين مناطق أخرى للهجره إليها، وإنما ذكر الحبشه فقط؟

ص: ٥٠٢

١- . السيره النبويه لابن هشام: ٢١٣/١؛ تاريخ الطبرى: ٧٠/٢.

٢- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ٧٠/٢.

إن سر هذا الاختيار يتضح إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية وغيرها من المناطق آنذاك.

إن الهجره إلى المناطق العربية التي كان سكانها من المشركين والوثنيين قاطبه كان أمراً محفوظاً بالخطر، فإنّ المشركين كانوا سيمتنعون عن قبول المسلمين في أرضهم إرضاء لقريش أو وفاء وتعصباً لدين الآباء (الوثنيه).

وكذلك المناطق التي كان يقطنها المسيحيون أو اليهود، من الجزيرة العربية لم تكن تصلح لهجره المسلمين إليها هي الأخرى، لأنّ تينك الطائفتين كانتا تتقاتلان فيما بينهما في صراع مذهبيّ وطائفيّ، فلم تكن الأوضاع لتسمح بأن يدخل طرف ثالث في حلبه الصراع، هذا مضافاً إلى أنّ ذينك الفريقين (اليهود والنصارى) كانا يحتقران العنصر العربيّ أساساً، فكيف يمكن الهجره إلى مناطقهم والتعايش معهم؟!

أمّا «اليمن» فقد كان تحت سيطره الحكم الإيرانيّ الملكيّ، ولم تكن السلطات الإيرانيه آنذاك لتسمح بإقامه المسلمين في ربوع «اليمن»، لما عُرف من نقيمتها فيما بعد على الدعوه الإسلاميه إلى درجه أنّه لما وصلت رساله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى «خسروبروز» كتب إلى عامله على اليمن فوراً «احمل إليّ هذا الذي يذكر أنّه نبيّ، وبدأ باسمه قبل اسمي، ودعاني إلى غير ديني» (١)!!.

وكذلك كانت «الحيره» تحت الاستعمار والنفوذ الإيرانيّ كاليمن.

وأما «الشام» فقد كانت بعيده عن «مكّه المكرمه»، هذا مضافاً إلى أنّ «اليمن» و «الشام» كانتا سوقين لقريش، وكانت تربط قريش بسكان هاتين المنطقتين روابط وعلاقات وثيقه، فإذا كان المسلمون يلجأون إليها أخرجوا منهما بطلبٍ من قريش، تماماً كما طلبت من ملك الحبشه مثل هذا الطلب، ولكنّه رفض طلبهم.

ص: ٥٠٣

وقد كانت الرحلة البحريه - فى تلك الآونه - وبخاصه برفقه النساء والأطفال رحله شاقّه جداً، من هنا كانت هذه الهجره، وترك الحياه والمعيشه فى الوطن دليلاً قوياً على إخلاص أولئك المهاجرين لدينهم وعمق إيمانهم به، وصدقه.

ولقد كان ميناء «جده» آنذاك ميناء تجارياً عامراً كما هو عليه الآن، ومن حسن التوفيق أنّ هذه الثلّه المهاجره قد وصلت إلى هذا الميناء فى الوقت الذى كانت فيه سفينتان تجاريتان على أهبة الإقلاع، والتوجه نحو الحبشه، فبادر المسلمون إلى ركوبها والسفر عليها دون تلكؤ خشيه لحاق قريش بهم والقبض عليهم، لقاء نصف دينار عن كل راكب.

وكان ذلك فى شهر رجب فى السنه الخامسه من مبعث رسول الله. (١)

ولمّا عرف المشركون بهجره بعض المسلمين أمروا جماعه من رجالهم بملاحقه أولئك المهاجرين وإعادتهم إلى مكّه فوراً، ولكن المسلمين المهاجرين كانوا قد غادروا شواطئ «جده» قبل أن يدركهم الطلب. (٢)

ومن الواضح أنّ ملاحقه مثل هذه الثلّه التى لم تلجأ إلى أرض الغير إلّالأجل الحفظ على عقيدتها والفرار من الفتنة لنموذج بارز من عتوّ قريش وعنادها. فأولئك المهاجرون مؤمنون تركوا الأهل والوطن، وأغمضوا الطرف عن المال، والتجاره، وخرجوا يطلبون أرضاً نائيه يمارسون فيها شعائرهم بحريه، ومع ذلك لا يكف عنهم زعماء مكّه وجابرتها وطغاتها!!

أجل أنّ رؤساء «دار الندوه» بمكه وأقطابها كانوا يعلمون جيداً أسرار هذه الهجره وآثارها من خلال بعض القرائن، والمؤشرات ولذلك كانوا يردّدون فيما بينهم أموراً سندكرها فى ما بعد.

ص: ٥٠٤

١- . بحار الأنوار: ١٨/٤١٢ نقلاً عن مجمع البيان للطبرسى: ٣/٤٠٠.

٢- . السيره النبويه: ١/٣٢١-٣٢٣.

هذا والجدير بالذكر أنّ أعضاء هذا الفريق المهاجر لم يكونوا من قبيله واحده، بل كان كلّ واحد من هؤلاء العشره ينتمى إلى قبيله خاصه.

الهجره الثانيه إلى الحبشه:

ثم إنّه وقعت بعد هذه الهجره هجره أُخرى، وكان في مقدّمه المهاجرين هذه المره «جعفر بن أبى طالب». ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد تمّيت الهجره الثانيه فى منتهى الحرّيه، لأنّ المسلمين المهاجرين استطاعوا فى هذه الهجره أن يصطحبوا معهم نساءهم وأولادهم، بحيث بلغ عدد المسلمين فى أرض الحبشه هذه المره (٨٣).

هذا إذا لم نحص من وُلد فى أرض الحبشه لهم، وإلّا كان العددُ أكثر من هذا الرقم.

ولقد وجدَ المسلمون المهاجرون أرضَ الحبشه كما وصفها رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم: منطقه عامره، وبيئه آمنه حرّه، تصلح لأن يُعبد فيها الله تعالى بحريه وأمان.

تقول «أمّ سلمه» التى تشرّفت بالزواج من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى ما بعد، عن تلك الأرض: لَمَّا نزلنا أرضَ الحبشه جاؤنا بها خير جار النجاشى، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه. (١)

كما أنّه يُستفاد ممّا قاله بعض أولئك المهاجرين من الشعر فى الحبشه، إنهم أمنوا بأرض الحبشه، وحمدوا جوار النجاشى، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً.

ص: ٥٥

ونحن نكتفى هنا بإدراج بعض الآيات من قصيده مطوّله أنشأها «عبدالله بن الحارث» في هذا الصدد:

يا ركباً بلغن عني مُغلغله (١) من كان يرجو بلاغ الله والدين

كل امرئ من عباد الله مضطهد يبطن مكره مقهور ومفتون

أنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجي من الذل والمخزاه والهون

فلا تقيموا على ذل الحياه وخزي في الممات وعيب غير مأمون (٢)

ويقول ابن الأثير: وكان مسيرهم (إلى الحبشه) في رجب سنه خمس من النبوه، وهى السنه الثانيه من إظهار الدعوه، فأقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا فى شوال سنه خمس من النبوه، وكان سبب قدومهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه... بلغ الخبر من بالحبشه من المسلمين أن قريشاً أسلمت، فعاد منهم قومٌ وتخلّف قومٌ. (٣)

هذا ويمكن للقارئ الكريم أن يقف على تفاصيل هذا القسم فى السيره النبويه لابن هشام. (٤)

قريش توفد رجالاً لاسترداد المسلمين:

عندما بلغ قريشاً وزعماء «مكة» ما أصبح فيه المسلمون المهاجرون من أمن وحرية، وما حصلوا عليه من حسن الجوار والطمأنينه والراحه فى أرض الحبشه ثارت ثائره الحسد والغيط فى قلوبهم، وتوجسوا خيفه من نفوذ المسلمين فى الحبشه؛ لأن أرض الحبشه قد أصبحت قاعده قويه للمسلمين، وكانت الزعامه

ص: ٥٠٤

١- . المُغلغله: الرساله ترسل من بلد إلى بلد.

٢- . السيره النبويه: ١/٢٢٠.

٣- . الكامل فى التاريخ: ٢/٧٧.

٤- . لاحظ: السيره النبويه: ١/٢٤٥.

المكيه تتخوف من أن يجد أنصار الإسلام وأتباعه منفذاً إلى بلاط النجاشي زعيم الأحباش وملكهم، ويُميلوا قلبه نحو الإسلام، ويكسبوا تأييده للمسلمين، فيؤول الأمر إلى أن يعبئ جيشاً كبيراً للقضاء على حكمه المشركين الوثنيين في شبه الجزيرة العربية، وعندها تكون الكارثة.

فاجتمع أقطاب «دار الندوه» مره أخرى للتشاور في الأمر، فاستقر رأيهم على أن يبعثوا إلى البلاط الحبشي من يقدم إلى النجاشي ووزرائه هدايا مناسبة يستميلونهم بها ليستطيعوا من هذا الطريق التأثير على النجاشي ثم يتسنى لهم بعد ذلك أن يقنعوه بضروره إخراج المسلمين المهاجرين من أرضه أن يتهمونهم عنده بالسفاهه والجهل، وابتداع دين جديد منكر، والإرتداد عن دين الآباء والأجداد!!

ولكى تتحقق خطتهم هذه على أحسن وجه ويصلوا عن طريقها إلى أفضل النتائج اختاروا من بينهم رجلين ماكرين أصبح أحدهما في ما بعد من دهاقنه السياسه وهما: «عمرؤ بن العاص»، و «عبدالله بن أبي ربيعه» وقد روى هذه الحادته ابن هشام في سيرته عن أم سلمه قالت:... ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعه وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما: إدفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا (موفدا قريش) حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار فلم يبق من بطارقتة بطريق إلدافعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي وقالوا لكل بطريق منهم:

إنه قد ضوى(1) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم

ص: ٥٠٧

١- . ضوى أي لجأ وأتى ليلا.

يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُّبْتَدِعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ لِيُرِدَّاهُمْ إِلَيْهِمْ فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكُ فِيهِمْ، فَأُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يَسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا، وَلَا يَكَلِّمَهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ. فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ.

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك إنّه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: فقالت بطارقه حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي (وكان رجلاً حكيماً عادلاً) ثم قال: لاها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادى، واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عمّا يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتُهم إليهما، ورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوا - وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله - سألهم فقال لهم:

ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا (به) فى دينى ولا فى دين أحدٍ من هذه الملل؟

قالت: فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب (رضوان الله عليه) فقال له:

«أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنَسِيءُ الْجَوَارِ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفُ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِّنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرْنَا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصَلَةِ الرَّحْمِ، وَحَسَنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ. وَأَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرْنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ - قَالَتْ: فَعَدَدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَا وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَافْتَتَنُونَا عَنِ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكِ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جَوَارِكِ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نَظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ».

قال: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقراءه عليّ، فقرأ عليه صدرًا من «كهيعص» (قرأ جعفر آيات من مطلع سورة مريم، واستمرّ في قراءته، وبذلك بين نظره الإسلام إلى «مريم» عليها السلام وطهاره جيبتها، وإلى مكانه المسيح عليه السلام، وعظمه شأنه، وجليل مقامه). قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته

بالدموع، وبكت أسقافته (١) حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي:

«إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاه واحده، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون.

قالت: لما خرجا من عنده قال «عمرو بن العاص» - وكان امرأ خداعاً ما كراً -:

والله لآتيه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم (وهو يعنى أنه سيأتي بحيله تقضى على جذور المهاجرين بالمره).

قالت: فقال له عبدالله بن أبي ربيعه: لا تفعل، فإنَّ لهم أرحاماً وإن كانوا خالفونا، قال: والله لأخيرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد. ثم غدا عليه الغد فقال له:

أيها الملك، إنهم يقولون في «عيسى بن مريم» قولاً عظيماً. فأرسل إليهم فسلمهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل النجاشي إليهم ليسألهم عنه، وهو الملك المحنك الذي لا يأخذ الأمور على ظواهرها، ومن غير تحقيق ودراسه، فأدرك المسلمون بفظنتهم أنه سيسألهم هذه المره عن موقفهم من المسيح عليه السلام فاتفقوا أن يكون «جعفر» متكلمهم وخطيبهم وعندما سألوه عما سيجيب به الملك قال: أقول والله ما قال الله، وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن؟

قالت: فلما دخلوا عليه (النجاشي) قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

ص: ٥١٠

١- . الأساقفه؛ جمع أسقف: علماء النصارى.

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: واللّه ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود.

فتناخرت بطارقتة حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم واللّه، اذهبوا فأنتم شيوم (آمنون) في أرضى من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وإني آذيتُ رجلاً منكم. ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجه لي بها، فواللّه ما أخذ اللّه مني الرشوه حين ردّ عليّ ملكي فأخذ الرشوه فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه».

قالت: فخرجا (مبعوثا قريش) من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار. (١)

وينبغي أن نسجل هنا موقفاً آخر من مواقف أبي طالب في تأييد المسلمين، ونصره الدين الحنيف.

فقد أرسل «أبو طالب» أبياتاً للنجاشي يحثه على الدفع عن المهاجرين وحسن جوارهم وتلك الأبيات هي:

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفرٌ وعمروٌ وأعداء العدو: الأقاربُ؟

وهل نالت أفعال (٢) النجاشي جعفرًا وأصحابه أو عاق ذلك شاغِبُ؟

تعلم، أبيت اللعن، أنك ماجدٌ كريمٌ فلا يشقى لديك المجانبُ

تعلم بأنّ الله زادك بسطه وأسبابَ خير كلّها بك لا زب

وأنك فيضٌ ذوسجال غزيره ينالُ الأعادي نفعها والأقارب (٣)

ص: ٥١١

١- السيره النبويه لابن هشام: ٢٢٢/١-٢٢٥ باختلاف يسير.

٢- إحسان.

٣- السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٢٢.

قلنا فى ما مضى أنّ المجموعه الأولى من المهاجرين رجعت من الحبشه إلى مكّه لأنباء بلغتها عن إسلام قريش عامه وانضوائها تحت رايه الإسلام. حتّى إذا دنوا من «مكّه» بلغهم أنّما كانوا تحدّثوا به من إسلام أهل مكّه كان باطلاً، فلم يدخل منهم إلى «مكّه» إلّا قليل دخلوها مستخفين أو فى جوار بعض الشخصيات القرشيه بينما عاد الأكثرون من حيث جاءوا.

وكان ممّن دخل «مكّه» بجوارٍ، «عثمان بن مظعون» الّذى دخلها بجوار «الوليد بن المغيره» ولكّنه كان يشاهد ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من البلاء، والعذاب، وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيره، قال: واللّه إنّ غدوى ورواحى آمنأ بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى، فمشى إلى «الوليد بن المغيره» فقال له: يا أبا عبد شمس وفّت ذمّتك، قد ردّدت إليك جوارك.

فقال له: لِمَ يابن أخى؟ لعلّه آذاك أحد من قومى؟

قال: لا ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره.

قال: فانطلق إلى المسجد فارّد على جوارى علانيه كما أجرّتك علانيه.

قال: فانطلقا فخرجا حتّى أتيا المسجد، فقال «الوليد» مخاطباً من حضر من قريش: هذا عثمان قد جاء يرّد على جوارى.

قال: صدق، قد وجدته وفتياً كريم الجوار، ولكنى قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد ردّدت عليه جواره. (١)

ثم لم يمض شيء من الوقت حتى دخل المسجد «ليبد بن ربيعه» وكان شاعراً متكلماً بارزاً من شعراء العرب ومتكلمياً ووقف في مجلس من قريش ينشدهم و«عثمان بن مظعون» جالس معهم فقال من جملة ما قال شعراً:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان بن مظعون: صدقت فقال: ليبد:

وكل نعيم لا محاله زائل

قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، فاستثقل «ليبد» تكذيب عثمان وتحديده له في ذلك الجمع فقال: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟؟

فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله.

فردّ عليه «عثمان» حتى تفاقم الأمر بينهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فحضرها (وأصابها)، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عمّا أصابها لغتته لقد كنت في ذمه منيعه (وهو يريد أنك لو بقيت في ذمتي وجواري لما أصابك ما أصابك).

فقال عثمان راداً عليه: بل والله إن عيني الصحيحه لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإنني لفي جوار من هو أعز منك، وأقدر يا أبا عبد شمس.

فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي إن شئت فعد إلى جوارك، فقال ابن مظعون:

لا. (١)

وكانت هذه صورة رائعة من صور كثيره لصمود المسلمين، وتفانيهم في

ص: ٥١٣

سبيل العقيدة، وإصرارهم على النهج الذي اختاروه، ومواساه بعضهم لبعض في أشد فتره من فترات التاريخ الإسلامي.

وفد مسيحي لتقضي الحقائق يدخل مكة:

قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بمكة عشرون رجلاً - أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشه، (مبعوثين من قبل أساقفتها لتقضي الحقائق بمكة، والتعرف على الإسلام). فوجدوا رسول الله في المسجد، فجلسوا إليه، وكلموه وسألوه، ورجال من قريش (فيهم «أبوجهل») في أنديةهم حول الكعبة.

فلما فرغوا من مسأله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عتبا أرادوا، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله عزوجل وتلا عليهم (آيات من) القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم (الإنجيل) من أمره.

فلما قاموا عنه، اعترضهم «أبوجهل بن هشام» في نفر من قريش، فقالوا لهم:

خبيكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمنن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحق منكم.

فقالوا لهم: سلام عليكم لا - نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً. (1) وبذلك الكلام الجميل ردوا على فرعون مكة الذي كان يبغى - كسحابه داكنه - حجب أشعه الشمس المشرقة، وحالوا دون وقوع صدام.

ص: ٥١٤

١- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٤٣. وقد نزلت في هذا الشأن الآيات ٥٢ إلى ٥٥ من سوره القصص.

وفد قريش إلى يهود يثرب للتحقيق:

لقد أيقظ وفد نصارى الحبشه إلى مكّه وما نجم عن لقاءهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريشاً ودفعهم إلى تشكيل وفد يتألف من «النضر بن الحارث» و«عقبه بن أبي معيط» وغيرهما وإرسالهم إلى أحبار يهود المدينة ليسألونهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودينه.

فقال أحبار اليهود لمبعوثي قريش: سئلوا محمّداً عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم:

١. سلوه عن فتيه ذهبوا في الدهر الأوّل (يعنون بهم أصحاب الكهف) ما كان أمرهم، فإنّه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ.

٢. وسلوه عن رجل طوّاف (يعنون به ذا القرنين) قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟

٣. وسلوه عن الروح ماهي؟

فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنّه نبيّ، وإن لم يفعل، فهو رجُلٌ متقولٌ فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فعاد وفد قريش إلى «مكّه» ولما قدموها قالوا لقريش ما سمعوه من أحبار اليهود.

فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وطرحوا عليه الأسئلة الثلاثة السالفه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انتظر في ذلك وحيّاً.

ثم نزل الوحيّ يحملُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأجوبه المطلوبه عن تلك

وقد وردَ الجواب عن السؤال عن الروح في الآيه ٨٥ من سورة الإسراء.

وأجيبَ عن السؤالين الآخرين عن أصحاب «الكهف» وذى القرنين بتفصيل في سورة «الكهف» ضمن الآيات ٩-٢٨ و الآيات ٧٣-٩٣.

وقد وردت تفصيلاتُ هذه الإجابات التي أجابَ بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أسئلتهم في كتب التفسير.

ولابدَّ هنا من أن نُذكرَ القارئ الكريم بنقطه مفيدة وهي أن المراد من «الروح» في سؤال القوم ليس هو الرُّوح الإنسانيه، بل كان المراد هو جبرئيل الأمين، (بقرينه أن المقترحين الأصليين لهذه الأُسْئله: هم اليهود وكانوا يكرهون الروح الأمين، ويعادونه)، وهو أمرٌ مبحوثٌ في محلّه من كتب التفسير.

ص: ٥١٤

نظّم أسياذ قريش صفوفهم لمكافحه عقيدته التوحيد، بعد أن أدركوا عقم المواقف المبعثرة من هذا الدين وأهله.

فقد حاولوا فى بدايه الأمر أن يُثبّوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المضىّ فى مواصله دعوته، وذلك بتطميعة بالمال والجاه وماشابه ذلك، ولكن لم يحصلوا من ذلك على شىء، فقد خيب ذلك الرجلُ المجاهدُ ظنونهم فيه، وبدد آمالهم فى إثنائه عن هدفه بكلمته الخالده المدوّيه: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر لما فعلتُ» وهو يعنى أن تملكه العالم كله لا يثنيه عن هدفه ولا يصرفه عن تحقيق ما نُدبَ إليه وأرسل به.

فعمدوا إلى سلاح آخر هو التهديد والأذى، والتنكيل به وبأصحابه وأنصاره، ولكنهم واجهوا صموده وصمود أنصاره وأصحابه، وثباتهم الذى أدى إلى انتصار المؤمنين فى هذا الميدان، وخيبة المشركين وهزيمتهم.

وقد بلغ من ثبات المسلمين على الطريق أنّهم أقدموا على مغادره الوطن، وترك الأهل والعيال، والهجره إلى الحبشه فراراً بدينهم إلى الله، وسعيًا وراء نشره وبثه فى غير الجزيره من الآفاق.

ولكن رغم إخفاق أسياذ قريش المشركين فى جميع هذه الجهات واليادين وعجزهم عن استئصال شجره التوحيد الفتيه، وفشل جميع الأسلحة التى استخدموها للقضاء على الدين الجديد وأهله، لم تنته محاولاتهم الإجهاضيه،

بل عمدوا هذه المرّة إلى استخدام سلاح جديد حسبوه أمضى من سوابقه.

وهذا السلاح هو سلاحُ الدعاية ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّه صحيحٌ أنّ إيذاء وتعذيب جماعه المؤمنين في «مكّه» تمنع غيرهم من سُيُكّان «مكّه» من الانضواء إلى الإسلام إلّا أنّ الحجيج الذين كانوا يسافرون إلى مكّه في الأشهر الحُرْمِ وكانوا يلتقون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جوّ من الأمن والطمأنينه خلال تلك المواسم كانوا يتأثرون بدعوه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويتزعزعُ اعتقادهم بالأوثان على الأقل، إن لم يؤمنوا بدينه، ولم يستجيبوا لدعوته، ثم إنهم كانوا ينقلون رساله الإسلام وأنباء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى مواطنهم، ومناطقهم وكان ينتشر بذلك اسم رسول الله، وأنباء دينه في شتّى مناطق الجزيرة العربيه، وكان هذا هو بنفسه ضربه قويه توجّه إلى صرح الوثنيه في مكّه، وعاملاً قوياً في انتشار عقيدة التوحيد، وسطوع أمره.

من هنا اتّخذ سادهُ قريش أسلوباً آخر، قاصدين بذلك الحيلولة دون انتشار الإسلام، واتّساع رقعته، وقطع علاقه المجتمع العربى به.

وإليك فيما يأتى بيان تفاصيل هذا الأسلوب، وهذه الخطه:

١. الاتّهاماتُ الباطله:

اشاره

يمكن التعرّف على شخصيه أى واحد وتقييمها من خلال ما يرميه به أعداؤه من شتائم وسباب، وما يكيلون له من اتّهامات ونسب، فإنّ العدو يسعى دائماً إلى أن يتّهم خصمه بنوع من أنواع التهم ليُضِلّ الناس، ويصرفهم عنه، وليتمكّن بما يحوِّكه حوله من أراجيف وأباطيل الحط من شأنه في المجتمع وإسقاطه من الأنظار والأعين.

إنّ العدو الذكى يسعى دائماً إلى أن ينسب إلى منافسه ما يُصدِّقه ولو فئه خاصه من الناس على الأقل، ويوجبُ شكّهم في صدقه، ويتجنّب تلك النسب التي

لا تصدّق في شأنه، ولا تناسب أخلاقه وأفعاله المعروفه عنه، ولا تمسّه بشكلٍ من الأشكال، لأنّه سوف لا يجنى في هذه الحالة إلاّ عكس ما يقصد، وخلاف ما يريد.

ومن هنا يستطيع المؤرّخ المحقّق أن يتعرّف على الشخصيه الواقعيه لمن يدرسه، وعلى مكاتته الإجتماعيه، وأخلاقه وسجاياه ولو من خلال ما ينسبّه الأعداء إليه، وما يكيلون له من أكاذيب وإفتراءات، ونسب باطله واتّهامات، لأنّ العدو الذي لا يخاف أحداً لا يقصّر في كيل كلّ تهمه تنفعه وتخدم غرضه إلى الطرف الآخر، ويستخدم هذا السلاح (أى سلاح الدعايه) ما استطاع، وما ساعدته معرفته بالظروف، ودرايته بالفرص.

فإذا لم ينسب إليه أيّ شيء من تلك النسب الباطله، فإنّ ذلك إنّما هو لأجل طهاره جيبه، ونقاء صفحته، وتنزّه شخصيته عن تلك النسب، ولأنّ المجتمع لم يكن ليعبأ بها ولم يصدّقها في شأنه.

ولو أنّنا تصفّحنا أوراق التاريخ الإسلامي لرأينا أنّ قريشاً مع ما كانت تكن من عدا، وتحمل من حقد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت تسعى بكلّ جهدها أن تهدم صرح الإسلام الجديد الظهور، وأن تحطّ من شأن مؤيّدسه وبانيه لم تستطع مع ذلك أن تستفيد من هذا السلاح، وتستخدمه كاملاً.

فقد كانت تفكّر في نفسها: ماذا تقول في حقّ رسول الله؟ وماذا ترى تنسب إليه؟؟

هل تتهمه بالخيانه الماليه وها هم جماعه منهم قد ائتمنوه على أموالهم؟! (1) كما أنّ حياته الشريفه طوال الأربعين سنه الماضيه جسّدت أمانته أمام الجميع، فهو الأمين بلا منازع؟

ص: ٥١٩

١- . لاحظ: بحار الأنوار: ١٩/٦٢.

هل تتهمه بالجرى والانسياق وراء الشهوة واللذّة؟ وكيف تقول فى حقّه مثل هذا الكلام مع أنّه بدأ حياته الشابية بالترويج بزوجه كبيره السنّ إلى درجه ما، وبقي معها حتّى لحظه انعقاد هذه الشورى فى «دار الندوه» بهدف الدعايه ضدّه، ولم يُعهد منه زلّه قدم فى هذا السبيل قط؟!

وبالتالى بماذا تتهم محمّداً الصادق الأمين، الطاهر العفيف، وأيّته تهمة ترى يمكن أن تُصدّق فى حقّه، أو يحتمل الناس صدقها فى شأنه ولو بنسبه واحد فى المائه؟

لقد تحيّر ساده «دار الندوه» وأقطابها فى كيفية استخدام هذا السلاح، سلاح الدعايه ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقرّروا فى نهايه الأمر أن يطرحوا هذا الأمر على صناديد من صناديد قريش ويطلبوا رأيه فيه، وهو «الوليد بن المغيرة» وكان ذا سنّ فيهم، ومكانه، فقال لهم:

يا معشر قريش، إنّه قد حضر هذا الموسم، وإنّ وفود العرب ستقدّم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذبّ بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم قولوا أسمع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّانَ فما هو بزمزمه الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه، ولا تخالجه،

ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر.

فقال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

وهكذا تحيروا في ما ينسبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأخيراً أشار عليهم الوليد أن يقولوا: إنه ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

ويدل عليه ما أوجده من الخلاف والإنشقاق والتفرق بين أهل مكة الذين كان يضرب بهم المثل في الوحده والاتفاق. (١)

وقد ذكر المفسرون في تفسير سورة «المدثر» هذه القصة بنحو آخر فقالوا:

لما أنزل على رسول الله «حم * تنزيل الكتاب...» * قام إلى المسجد و«الوليد بن المغيرة» قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاستماعه لقراءته، أعاد قراءه الآيه، فتركت الآيه في نفس الوليد تأثيراً شديداً فانطلق إلى منزله، ولم يخرج منه أياماً، فسخرت منه قريش وقالت: صبا - والله - الوليد ثم مشى رجال من قريش إليه وسألوه رأيه في قرآن محمد، واقترح كل واحد منهم أمراً، ولكنه رد عليها بالنفي جميعاً، فقالت قريش: إذن ما هو؟ فتفكر «الوليد» في نفسه ثم قال: ما هو إلا ساحرٌ أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله،

ص: ٥٢١

١- السيره النبويه لابن هشام: ١٧٤-١٧٥ بتلخيص.

وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر. (١) ويرى المفسرون أنّ الآيات التالية نزلت في شأنه إذ يقول الله تعالى:

«ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَيَّنَّ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأَرْهَقُهُ ضِعْفًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاطِ * إِذْ يُنَادِيهِمْ لِيُحَيِّتَهُمْ * وَكَانَ مِنَ الْمُنَادِينَ * فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ... (إلى قوله:): فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرِهِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرِهِ». (٢)

الإصرار في نسيب الجنون إليه صلى الله عليه وآله وسلم:

يعتبر اتّصاف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم واشتهاره بين الناس بالصدق والأمانة وغيرها من مكارم الأخلاق منذ شبابه من مسلّمات التاريخ.

وهو بالتالي أمرٌ اعترف به حتّى أعداؤه الألداء، فقد دانوا بفضله، وأفروا بأخلاقه الكريمة و سجاياه النبيلة، دون تلكؤ، ولا إبطاء.

وقد كان من أوصافه الحسنه البارزه أنّ جميع الناس كانوا يدعونه «الصادق» «الأمين» وكانوا يثقون بأمانته ثقة كبرى (٣) حتّى أنّ المشركين كانوا يودعون ما غلا من أموالهم عنده، واستمر هذا الأمر حتّى عشره أعوام بعد دعوته العلنيّة.

وحيث إنّ دعوته صلى الله عليه وآله وسلم قد ثقلت على المعاندين فاجتهدوا في أن يصرفوا

ص: ٥٢٢

١- . لاحظ: مجمع البيان: ١٠/١٧٨.

٢- . المدثر: من ١١-٥١.

٣- . بحار الأنوار: ١٩/٦٢ عن عبيدالله بن أبي رافع قال: كانت قريش تدعو محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم في الجاهلية الأمين، وكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك من يقدم مكّه من العرب في الموسم، وجاءته النبوه والرساله والأمر كذلك.

عنه الناس بما ينسبون إليه من بعض النسب التي توجب سوء الظن به، ومن ثم إفشال دعوته، وحيث إنهم كانوا يعلمون أن النسب الأخرى مميّلا لا يقيم لها المشركون وزناً، لأنها أمور بسيطة في نظرهم، من هنا رأوا بأن يتهمونه بالجنون، والزمع بأن ما يقوله و يقرؤه ما هو إلامن نسج الخيال، ومن أثر الجنون الذي لا يتنافى مع الزهد، والأمانه، وذلك تكديباً لدعوته.

ثم عملت قريش على إشاعه هذه النسبه، واتخذت وسائل عديده وما كره لترويجها وبثها بين الناس.

ومن شدّه مكرهم ومراءاتهم أنهم كانوا يتخذون موقف المتسائل المحايد فيطرحون هذه التهمه فى قالب الشك، والترديد إذ يقولون:

«أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ» (١).

وهذه هى بعينها الحيله الشيطانيه التى يتوسّل بها ويتستر وراءها أعداء الحقيقه دائماً عند ما يريدون تكذيب المصلحين العظام، وإسقاط خطواتهم وأفكارهم من الاعتبار، والخط من شأنها وأهميتها.

ويشير القرآن أيضاً إلى أن هذا الأسلوب الماكر الذميم لم يكن مختصاً بالمعارضين فى عهد الرساله المحمّديه، بل كان المعارضون فى الأعصر الغابره أيضاً يتوسّلون بهذا السلاح لتكذيب الرسل، والأنبياء إذ يقول عنهم:

«كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ» (٢).

وتحدّث الأناجيل الحاضره هى الأخرى عن أن المسيح عليه السلام عندما وعظ

ص: ٥٢٣

١- . سبأ: ٨.

٢- . الذاريات: ٥٢ و ٥٣.

اليهود قالوا: إِنَّ به مَسًّا من الشيطان، فهو يهذى فلماذا تصغون إليه؟! (١).

ومن المسلم والبيدهى أن قريشاً لو كان في مقدورها أن تتهم رسول الله الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم بغير هذا الاتهام وتنسب إليه غير هذه النسبه لما تأخرت عن ذلك، ولكن حياه النبي صلى الله عليه وآله وسلم المشرقه خلال الأربعين سنه الماضيه، وسوابقه اللامعه في المجتمع المكي وغير المكي كانت تحول دون أن ينسبوا إليه شيئاً من تلك النسب القبيحه، الذميه. لقد كانت «قريش» مستعده لأن تستخدم أى شىء - مهما صغر - ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فمثلاً عند ما وجده أعداء الرساله يجلس إلى غلام مسيحي يدعى «جبر» عند المروه، انطلقوا يستخدمون هذا الأمر ضدّه صلى الله عليه وآله وسلم فوراً فقالوا: والله ما يُعلِّمُ محمّداً كثيراً ممّا يأتي به إلّا «جبر» النصراني.

فردّ عليهم القرآن الكريم بقوله:

«وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (٢).

«وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ» (٣).

القرآن يرد على جميع الاتهامات:

وربّما نسبوا إليه صلى الله عليه وآله وسلم الكهانه، والكاهن هو من يتصل بعناصر من الجن (٤).

ص: ٥٢٤

١- . انجيل يوحنا: الفصل ١٠، الفقره: ٢٠.

٢- . النحل: ١٠٣.

٣- . الدخان: ١٣ و ١٤.

٤- . الجن كائن من الكائنات ومخلوق من مخلوقات الله تعالى وقد أخبر به القرآن الكريم في مواضع عديده كما سُميت إحدى السور باسم الجن.

أو الشياطين ويتلقى منهم أخباراً حول الماضى والمستقبل، وكان هذا موجوداً قبل الإسلام كما ترويه كتب السير والتواريخ. (١)

وقد رد القرآن الكريم على هذه المقالة و هذا الزعم إذ قال تعالى:

«وَلَا يَقُولِ كَاهِنٌ قَلِيلاً مَا تَدَّكَّرُونَ». (٢)

كما رد أيضاً تهمة السحر، والكذب والافتراء والشعر، إذ قال تعالى وهو يصف المتهمين تاره بالكفر وأخرى بالظلم:

«وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ». (٣)

وقال تعالى: «وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا». (٤)

وقال سبحانه متعجباً منهم: «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ». (٥)

وقال تعالى: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ». (٦)

وقال سبحانه: «وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ». (٧)

وقال عز وجل: «فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ». (٨)

وقال تعالى: «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». (٩)

وقال تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ». (١٠)

وقال سبحانه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ

ص: ٥٢٥

١- راجع: بلوغ الإرب فى معرفه أحوال العرب: ٣/٢٦٩ باب علم الكهانه والعرافه.

٢- الحاقه: ٤٢.

٣- ص: ٤.

٤- الفرقان: ٨.

٥- الشعراء: ١٥٣.

٦- الحجر: ٦.

٧- التكوير: ٢٢.

٨- الطور: ٢٩.

٩- النحل: ١٠١.

آخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَ زُورًا» (١).

وقال سبحانه: «أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ» (٢).

وقال تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ» (٣) وقال تعالى: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ» (٤).

وربما وصفوا القرآن بأنه أضغاث أحلام فردّهم سبحانه بقوله.

«بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ» (٥).

وهكذا نجدهم ذهبوا في استخدام سلاح الاتهام والتشويش على الشخصية المحمّديه والرساله الإسلاميه كلّ مذهب، فمّرّه وصفوه بأنه كاهن، وأخرى بأنه ساحر، وثالثه بأنه مسحور، ورابعه بأنه مجنون، وخامسه بأنه معلّم، وسادسه بأنه كذاب، وسابعه بأنه مفترٍ، وثامنه بأنه مفترٍ أومجنون على سبيل التريديد، وتاسعه بأنه شاعر، وعاشره بأنّ ما يقوله ما هو إلاّ أضغاث أحلام.

٢. فكره معارضة القرآن:

لم يُجد استخدام سلاح الاتهام ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفعاً، ولم يأت بالثمار التي كان يتوخّاها المشركون منه، لأنّ الناس كانوا يُدركون بفظنتهم و فراستهم أنّ للقرآن جاذبيّه غريبه، وأنّهم لم يسمعوا كلاماً حلواً، وحديثاً عذباً مثله. إنّ لكلماته من العمق والعدوبه بحيث يتقبّلها كلّ قلب، وتسكن إليها كلّ نفس.

ص: ٥٢٤

١- الفرقان: ٤.

٢- سبأ: ٨.

٣- الطور: ٣٠.

٤- يس: ٦٩.

٥- الأنبياء: ٥.

من هنا لم ينفَع اتِّهام قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنون وبأنَّ ما يقوله إن هو إلَّا من نسج الخيال، ونتائج الجنون، شيئاً، فقَرَّرت أن تخطِّط لتدبير آخر ظناً منهم بأنَّ تنفيذه سيصرف الناس عنه، وعن الاستماع إلى كتابه، ألا وهو: معارضه القرآن الكريم.

فعمدت إلى «النضر بن الحارث» وكان من شياطين قريش، وممَّن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وينصب له العداوة، وكان قد قضى شطراً من حياته في الحيره بالعراق وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث «رستم» و«إسفنديار» وقصصهم، وحكاياتهم، وأساطيرهم، وطلبوا منه أن يجمع الناس ويقص عليهم من تلكم الأساطير والحكايات يلهي بها الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويصرفهم عن الإصغاء إلى القرآن الكريم!!

فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجلساً فذكر (الناس) فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله، خلفه «النضر» في مجلسه إذا قام صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلم إليّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه.

ثم يحدثهم عن ملوك الفرس و«رستم» و«إسفنديار» ثم يقول:

بماذا محمَّد أحسن حديثاً مني وما حديثه إلَّا أساطير الأوّلين اكتتبها كما اكتتبها؟

وقد كانت هذه الخُطه حمقاء جداً إلى درجة أنها لم تدم إلَّا عده أيام لا أكثر حتّى أن قريشاً سأمت من أحاديث «النضر» وسرعان ما تفرقت عنه.

وقد نزل في هذا الشأن آيات هي:

«وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي

يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» (١). (٢)

٣. تحججات صيانيه وجاهليه:

وربما جسّدوا معارضتهم للدعوه المحمّديه في صورته تحججات ومجادلات جاهليه وما أخذ سخيّفه أخذوها على رسول الله ورسالته، تنم عن تكبر وجهل، وعناد ولجاج طبعوا عليه.

وها نحن نذكر أبرزها:

أ - لماذا لم ينزل القرآن على ثرى من أثرياء مكّه أو الطائف؟!

قال تعالى حاكياً قولهم: «لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ». (٣)

ب - لماذا لم يرسل إليهم ملائكه ولماذا هو بشر؟!

قال تعالى حاكياً عنهم: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا». (٤)

وقال تعالى حاكياً عنهم أيضاً:

«وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ». (٥)

ج - أنّه يدعو إلى خلاف ما كان عليه الآباء، من الدين والعقيده والسلوك؟

يقول عنهم سبحانه:

ص: ٥٢٨

١- . الفرقان: ٥ و ٦.

٢- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١/١٩٥ و ٢٣٩.

٣- . الزخرف: ٣١.

٤- . الإسراء: ٩٤.

٥- . الفرقان: ٧.

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ». (١).

د - تبديل الآلهه بآله واحد.

قال الله حاكياً عنهم:

«وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ». (٢).

ه - القول بحشر الأجساد وتجدد الحياه فى يوم القيامة.

قال تعالى حاكياً عنهم:

«وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ». (٣).

و - لماذا ليس عنده مثل ما كان لدى موسى من المعجزات كالثعبان المنقلب من العصا، وقد توصل المشركون إلى هذا النمط من الاعتراض بسبب اتصالهم بأخبار اليهود.

يقول الله حاكياً عنهم:

«فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ». (٤).

ز - لماذا ليس معه ملك يرى ويشاهد ويحضر معه فى كل مقام ومشهد.

قال تعالى: «وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ». (٥).

ص: ٥٢٩

١- . المائدة: ١٠٤.

٢- . ص: ٤ و ٥.

٣- . السجده: ١٠.

٤- . القصص: ٤٨.

٥- . الأنعام: ٨.

اشاره

وكان المشركون إذا نفذت تحججاتهم واعتراضاتهم الواهيه، وقبولوا بردود قويه وقاطعه عليها عمدوا إلى طرح مقترحات سخيئه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى سياق معارضتهم لدعوته، ونورد هنا أبرز تلك الاقتراحات ليعرف القارئ الكريم مدى معاناه النبى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من قومه:

لقد اقترحوا عليه:

١. أن يعبد أصنامهم سنه ويعبدوا إلهه سنه أخرى وجعلوا ذلك شرطاً لإيمانهم بدعوته!!

فأنزل الله تعالى فى ردّهم سورة «الكافرون»:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِى دِينِ».

٢. تبديل القرآن، فقد دفع نقد القرآن الكريم للوثنيه، والازدراء على الأصنام، دفعهم إلى أن يطلبوا من النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتى لهم بقرآن آخر لا يحتوى على شجب عباده الأوثان والازدراء بالأصنام، وإبطالها.

قال الله تعالى عن فعلهم هذا: «وَ إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ». (١)

فردّ الله عليهم بقوله: «قُلْ مَا يَكُونُ لى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحى إِلَيَّ إِنْى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمِ عَظِيمٍ». (٢)

ص: ٥٣٠

١- . يونس: ١٥.

٢- . يونس: ١٥.

وقد عمدوا - بسبب عنادهم وعتوهم - إلى المطالبه بأمور لا ترتبط بهدايه الناس، مثل مطالبته بأن يفجر لهم ينابيع، أو يسقط السماء على رؤوسهم قطعاً، أو يصعد إلى السماء، أو يأتى بالله سبحانه وتعالى، أو غير ذلك من الاقتراحات والمطالب التي كانت إما مستحيله في نفسها أو تناقض غرض الدعوه!!

قال الله حاكياً عنهم ذلك: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْدًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ». (١).

صبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستقامته وثباته:

ولقد قابل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل هذه التحججات الإيدائية وما طرح من الاقتراحات المستحيله بصبر عظيم وثبات هائل، إيماناً منه بدعوته، وحرصاً على إبلاغ رسالته.

يقول الله تعالى في هذا الصدد:

١. «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ». (٢).

٢. «وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ». (٣).

٣. «وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ». (٤).

ص: ٥٣١

١- .الإسراء: ٩٠-٩٣.

٢- .الأحقاف: ٣٥.

٣- .يونس: ١٠٩.

٤- .النحل: ١٢٧.

٤. «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاهِ وَالْعَشِيِّ» (١).

٥. «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ» (٢).

٦. «وَ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا» (٣).

معاجز النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تنحصر في القرآن الكريم:

إشاره

وبالمناسبه لآبد أن نذكر أنّ المشركين ومن حذا حذوهم من الكفار والمعارضين للرساله الإسلاميه كانوا يطالبون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمعاجز وديات لا بدافع الرغبه فى الإيمان بدعوته، بل بدافع اللجاج والعناد، وإلا فإنّ معاجز النبي لم تنحصر فى الكتاب العزيز، فقد أتى رسول الله بآيات ومعاجز كثيره أخرى غير القرآن، كان كل واحد منها تكفى للاقتناع برسالته، والإيمان بصحّه دعواه.

فالقرآن نفسه يشير إلى أبرز هذه المعاجز وهى:

١. شق القمر

فقد طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يشق لهم القمر نصفين حتى يؤمنوا به، فلما فعل ذلك لهم بإذن الله كفروا به وقالوا: إنه سحر!!

يقول الله تعالى:

«اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ» (٤).

ص: ٥٣٢

١- . الكهف: ٢٨.

٢- . القلم: ٤٨.

٣- . المزمل: ١٠.

٤- . القمر: ١ و ٢.

٢. الإسراء والمعراج

إنَّ العروج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - والذى سيأتى مفصلاً - هو الآخر معجزه من معجزه القويه، وقد نطق بها القرآن بقوله:

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»
(١).

٣. مباهله أهل الباطل

إنَّ تقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع مَنْ خرج بهم إلى المباهله، وإحجام النصارى عن مباهلتها، معجزه أخرى من معجزه صلى الله عليه وآله وسلم وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه القضية إذ قال:

«فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» (٢).

وستأتى قصّه المباهله على نحو التفصيل فى حوادث السنه العاشره من الهجره.

٤. الإخبار بالمغيبات

أخبر القرآن الكريم بأمر غيبه كثيره، فقد أخبر عن غلبه الروم بعد سنين، قال تعالى:

«الْم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي

ص: ٥٣٣

١- . الإسراء: ١.

٢- . آل عمران: ٦١.

بِضَعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ» (١).

هذا وقد أخبرت الأخبار والأحاديث عن معاجز كثيره لرسول الله غير القرآن الكريم. ومن هذه المعاجز ما ذكره الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كما في نهج البلاغه - حول سؤال المشركين من النبي صلى الله عليه وآله وسلم قلع شجره بعروقها وجذورها ولتميا فعل ذلك وقال: «يا أيتها الشجره إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين أني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفى بين يدي بإذن الله».

فانقلعت بعروقها ولها دوى عجيب ووقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكنهم كذبوا وقالوا: ساحر كذاب، علواً واستكباراً.

وقد صرح الإمام في كلامه هذا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبرهم بأنهم لا يؤمنون وإن ظهرت لهم المعجزه التي طلبوها، وإن فيهم من يطرح في القلب (في معركة بدر) وإن منهم من يحزب الأحزاب (لمعركة الخندق). (٢).

حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هدايه قريش:

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحرص على هدايه قريش وإرشادهم وإيقاظهم. فقد كان زعيم المسلمين وقائدهم يعلم جيداً بأن اعتقاد أغلبيه الناس بالأوثان ما هو إلا أمر نابع من تقليد الآباء، والجدود، أو أتباع أسياد القبيله وكبرائها، وهو بالتالى لا يستند إلى جذور فى أعماق الناس وأسس فى عقولهم ونفوسهم.

ص: ٥٣٤

- ١- . الروم: ١-٤. وقد أشار القرآن الكريم إلى موارد أخرى من هذه القبيل. فقد أخبر عن هلاك أبي لهب قال تعالى: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ...». وأخبر عن هزيمة المشركين فى بدر، قال سبحانه: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» (القمر: ٤٥).
- ٢- . لاحظ: نهج البلاغه: الخطبه ١٩٢.

من هنا فإنَّ أيَّ انقلاب يحصل ويحدث في أوساط الساده والكبراء بأن يؤمن أحدهم مثلاً- كان كفيلاً بأن يحلَّ الكثير من المشاكل.

من هنا كان ثمَّه إصرار كبير على جرَّ «الوليد بن المغيرة» الذي أصبح ابنه «خالد» في ما بعد من قاده الجيش الإسلامي، لأنَّه كان أسنَّ من في قريش وأكثرهم نفوذاً، وأعلاهم مكانه، وأقواهم شخصيه، وكان يُدعى حكيم العرب، وكانت العرب تحترم رأيه إذا اختلفت في أمر.

وقد كلَّمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم في ذلك وقد طمع في إسلامه، فبينما هو في ذلك إذ مرَّ به «ابن أم مكتوم»، فكلَّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل يستقرئه القرآن فشقَّ ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتَّى أضجره، وذلك أنَّه شغله عمَّا كان فيه من أمر «الوليد». وما طمع فيه من إسلامه، فلمَّا أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فنزل قوله تعالى:

«عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَا مِنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَ مَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَ أَمَا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَ هُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ» (١). (٢)

وقد فنَّد علماء الشيعة ومحققوهم هذه الروايه التاريخيه، واستبعدوا صدور مثل هذا السلوك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الهمداني امتدحه ربُّ العالمين بالخلق العظيم، ووصفه بالرافه بالمؤمنين، وقالوا: ليس في الآيات ما يدلُّ على أنَّ الهمداني عبس وتولَّى هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّها نزلت في رجل من بني أميه، كان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء ابن أم مكتوم، فلمَّا رآه تقدَّر منه، وجمع نفسه، وعبس، وأعرض

ص: ٥٣٥

١- . عبس: ١-١١.

٢- . لاحظ السيره النبويه لابن هشام: ٢٤٤/١-٢٤٥.

٥. تحريم المشركين استماع القرآن

إشاره

كانت البرامج الواسعة التي دبرها الوثنيون في «مكة» لمكافحة الإسلام والحيلولة دون انتشاره بين القبائل والجماعات، تُنفذ الواحد تلو الأخرى، ولكن دون جدوى، ودون أن يكسب أصحابها من ورائها أى نجاح، وأية نتائج على المستوى المطلوب، فقد كانت تلك المؤامرات تفشل في كل مره، ولا يجنى المشركون منها سوى الخيبة والفشل، وسوى النتائج المعكوسه في أغلب الأحيان.

فقد مارسوا الدعايه ضد رسول الله فتره من الزمن ولكن لم يحالفهم التوفيق الكامل في ذلك، فقد وجدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر ثباتاً واستقامه في طريقه وأشدّ إصراراً على هدفه، وكانوا يرون بأن أعينهم بأن عقيدته التوحيد في انتشار مستمر ومتزايد، يوماً بعد يوم.

ولهذا قرّر سادة قريش وزعماء «مكة» المشركون أن يمنعوا الناس عن سماع القرآن. ولكي تتحقق خطتهم هذه وتلبس ثوب الوجود بثّوا جواسيسهم في كل أنحاء مكة ومدخلها ليمنعوا من يفتد إليها للحج أو التجاره من الاتصال بمحمد، ومنعه بكل صورته ممكنه، عن الاستماع إلى القرآن، وأعلن مناديتهم ما ذكره القرآن عند قوله تعالى:

ص: ٥٣٦

١- . مجمع البيان: ١٠/٢٦٦. وقد بحثنا هذا الموضوع بالتفصيل في تفسيرنا «منه الطالبين في تفسير القرآن المبين»: ٣٠/٩٨-١٠٦، وأثبتنا أنّ العابس ليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فمن أراد التفصيل فليرجع إلى تفسيرنا المذكور.

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» (١).

لقد كان القرآن أقوى أسلحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ألقى رعباً عجبياً في نفوس الأعداء وأقضى مضاجعهم.

وكان أشرف قريش وأسيادها يرون بأهم أعينهم كيف أن أعدى أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وهو أبو جهل) عندما مشى إليه ليستهزئ به، ويسخر منه، ما أن سمع آيات من القرآن، إلّا وفقد السيطرة على نفسه، ولان قلبه، ولهذا لم يكن أمام أولئك الأسياد إلّا أن يمنعوا من سماع القرآن منعاً باتاً، ويحرموا التحدث إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحريماً قاطعاً.

ولهذا كان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض ما يتلوه من القرآن وهو يصلي إسترق السمع دونهم فرقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع (٢).

واضعو القرار ينقضون قرارهم!!

ولكن من الطريف العجيب أن نفس الذين كانوا يمنعون الناس بشده عن الاستماع إلى القرآن، وكانوا يعدون كل من يتجاهل قرار (تحريم الاستماع إلى القرآن) مخالفاً يتعرض للملاحقه والعقاب، نقضوا بعد أيام من إصدار هذا القرار قرارهم وانضموا إلى صفوف المخالفين له في الخفاء.

فإذا بالذين يمنعون من سماع القرآن في العلن، يستمعون إليه في الخفاء!

واليك بعض ما جرى في هذا الصعيد:

خرج «أبوسفيان» و «أبو جهل» و «الأخنس» ليله ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه،

ص: ٥٣٧

١- . فصلت: ٢٦.

٢- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٠٦.

وكلّ لا- يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتّى إذا طلّع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً، ثم انصرفوا؛ حتّى إذا كانت الليله الثانيه عاد كلُّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتّى إذا طلّع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أوّل مره، ثم انصرفوا، حتّى إذا كانت الليله الثالثه أخذ كلُّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتّى إذا طلّع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتّى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك. ثم تفرّقوا. (١)

٦. منع الأشخاص من الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

اشاره

بعد خطه (تحريم الاستماع إلى القرآن) بدأوا بتنفيذ خطه أخرى وهى منع كل قريب وبعيد ممن رغبوا فى الإسلام وقدموا إلى مكّه ليتعرّفوا على النبى، وعلى ما أتى به من كتاب ودين، من الاتصال بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم.

فبثت قريش جواسيسها فى الطرق المؤدّيه إلى مكّه ليتصلوا بمن يلقونه من هؤلاء ويبادروا إلى منعه من الاتصال برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان برسالته، بثت الحيل والأساليب.

وإليك نموذجين حيين من هذا الأمر.

الأول: الأعشى بن قيس:

وكان من شعراء العهد الجاهلى البارزين، وكانت قصائده تتناولها مجالس

ص: ٥٣٨

١- . السيره النبويه لابن هشام: ٢٠٦-١-٢٠٧.

السَّمَر القرشيه، وتتغنى بها محافل أنسهم.

وقد بلغ «الأعشى» في كبره نبأ ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التوحيد ومن تعاليم الإسلام العظيمة، وكان يعيش في منطقته نائيه عن مكه، حيث لم تصل إليها أشعه الرساله الإسلاميه على وجه التفصيل بعد، ولكن ما قد سمع به من تعاليم الإسلام على نحو الإجمال قد أوجد في نفسه هياجاً خاصاً وحرّك مشاعره فأنشأ قصيده مطوّله يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم خرج إلى مكه ليهديها إليه صلى الله عليه وآله وسلم وهو في نفس الوقت يريد الإسلام.

ورغم أنّ تلکم القصيده لا تتجاوز أبياتها ٢٤ بيتاً، ولكنها تُعدّ من أفضل وأفصح ما قيل من الشعر في الإسلام، وفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العهد النبوي ويوجد نصّها الكامل في «ديوان الأعشى» وقد قال فيها وهو يذكر بعض تعاليم الإسلام:

نبياً يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

فياك والميتات لا تقربنّها ولا تأخذ سهماً حديداً لتفصدا

وذا النصب المنسوب لا تُنسكّنه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

ولا تقربنّ حرّه كان سرّها عليك حراماً فانكحن أو تأبداً

وذا الرحم القربى فلا تقطعنه لعاقبه، ولا الأسير المقيداً

وسبّح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

فلما كان بمكه أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسألوه عن أمره، فأخبرهم بأنّه جاء يريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحيث إنهم كانوا يعرفون بأنّ «الأعشى» رجل يحب النساء والخمر حباً كبيراً لذلك عمدوا إلى الضرب على هذا الوتر لينفروه من الإسلام، فقالوا له: يا أبا بصير (وهي كنيه الأعشى) إنّه يُحرّم

فقال الأعشى: واللّه إنّ ذلك لأمرٌ ما لى فيه من أرب.

فقالوا له: يا أبا بصير فإنّه يحرم الخمر.

فقال الأعشى - وقد صُدِمَ بهذا الخبر -: أمّا هذه فواللّه فى النفس منها لعلالات، ولكنى منصرفٌ فاترّوى منها عامى هذا، ثم آتية فأسلم!! فانصرفَ فمات فى عامه ذلك، ولم يُعَدِّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. (١)

الثانى: الطفيل بن عمرو الدوسى:

وهو الشاعر العربى الحكيم العذب اللسان، صاحب النفوذ والكلمه المسموعه فى قبيلته.

يروى أنه قدم «مكة» ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بها، وكانت قريش تخشى أن يتصل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فيسلم.

ومن البديهي أن إسلام رجل مثله كان ممّا يشقّ على قريش جدّاً، ولهذا مشى إليه رجالٌ منهم وقالوا له - محذرين إياه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -:

يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل المذى بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشئت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإننا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه، ولا تسمعن منه شيئاً.

ففعلت تحذيرات قريش فعلتها فى نفس الطفيل وهم يكرّونها عليه بقوه وإصرار، حتى أنّه قرّر أن لا يسمع من النبى صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً، ولا يكلمه، وحشى أذنه - حين غدا إلى المسجد للطواف - قطناً، خوفاً من أن يبلغه شيء من قول رسول

ص: ٥٤٠

اللّٰه صلی اللّٰه علیہ و آلہ و سلم وهو لا یرید أن یسمعه!!!

یقول الطفیل: فغدوت إلی المسجد فإذا رسول اللّٰه صلی اللّٰه علیہ و آلہ و سلم قائمٌ یصلّی عند الکعبه، فقمْتُ منه قریباً فأبى اللّٰه إلیّما أن یسمعنی بعض قوله، قال: فسمعتُ کلاماً حسناً، فقلت فی نفسی: واثکلُ أُمّی، واللّٰه إنی لرجلٌ لیببُ شاعرٌ ما یخفی علیّ الحسنُ من القبیح، فما یمنعنی أن أسمع من هذا الرجل ما یقول، فإن کان الذی یأتی به حسناً قبلته، وإن کان قبیحاً ترکته؟

فمکثتُ حتّٰی انصرف رسولُ اللّٰه صلی اللّٰه علیہ و آلہ و سلم إلی بیته فاتّبعته حتّٰی إذا دخل بیته دخلت علیه فقلت: یا محمّد إن قومک قد قالوا لی کذا وکذا للذی قالوا، فواللّٰه ما برحوا یخوّفوننی أمرک حتّٰی مددتُ أُذنی بکرسف لئلا أسمع قولک، ثم أبى اللّٰه إلیّ أن یسمعنی قولک فسمعتُهُ قولاً حسناً، فأعرض علیّ أمرک، فعرض علیّ رسول اللّٰه صلی اللّٰه علیہ و آلہ و سلم الإسلام وتلا علیّ القرآن، فلا واللّٰه ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهاده الحق. ثم قلت: یا نبی اللّٰه إنی امرؤ مطاعٌ فی قومی وأنا راجع إلیهم، وداعیهم إلی الإسلام.

ثم یکتب ابن هشام قائلاً: إن الطفیل لم یزل بأرض «دوس» یدعوهم إلی الإسلام حتّٰی هاجر رسول اللّٰه صلی اللّٰه علیہ و آلہ و سلم إلی المدینه ومضى «بدر» و «أحد» و «الخنق» فقدم علی رسول اللّٰه صلی اللّٰه علیہ و آلہ و سلم بمن أسلم معه من قومه وهم سبعون أو ثمانون بیتاً ورسول اللّٰه صلی اللّٰه علیہ و آلہ و سلم بخیر فلحقوا جميعاً برسول اللّٰه صلی اللّٰه علیہ و آلہ و سلم بخیر، وبقى مع النبی حتّٰی قبضَ صلی اللّٰه علیہ و آلہ و سلم ثم سار مع المسلمین - فی زمن الخلفاء - إلی «الیمامه» وشارك فی معرکتها وقُتلَ فیها. (١)

ص: ٥٤١

قد يكون بين القراء من يودّ التعرّف على أسطوره «الغرائق» التي رواها بعض مؤرّخي السنّه ومعرفه جذورها، كما يودّ التعرّف على الأيادي الخفيه التي كانت وراء اختلاق هذه الأسطوره، وأمّثالها من الأكاذيب، والمفتريات.

كان اليهود وبخاصّه أبحارهم ولا يزالون العدو رقم واحد للإسلام.

وقد عمّد فريقٌ منهم - مثل «كعب الأبحار» وغيره - ممّن تظاهروا باعتراف الإسلام إلى تحريف الحقائق باختلاق الأكاذيب وجعل الأخبار المفتراه على لسان الأنبياء. (١)

ولقد أدرج بعضُ المؤلّفين المسلمين بعض هذه المفتريات في مؤلّفاتهم وجعلوها في عداد الحديث والتاريخ الصحيح من دون تمحيصها والتحقيق فيها، ثقّه بكلّ من أظهر الإسلام وتظاهر بالإيمان، وانضم إلى صفوف المسلمين!!

ولكنّ اليوم حيث يجد العلماء فرصه أكبر للتحقيق في هذا النوع من الأحاديث والأخبار، والمنقولات والنصوص، وبخاصّه بعد أن توفّرت لديهم، بفضل جهود طائفه من المحقّقين المسلمين القواعد والضوابط الكفيله بتمييز الحسن عن القبيح، والصحيح عن السقيم، وفرز الحقائق التاريخيه عن القصص الخياليه، والروايات الاسطوريه.

من هنا لا ينبغي لكاتب مسلم ملتزم أن يعتبر كلّ ما يراه في مصنّف تاريخي

ص: ٥٤٢

١- . وهي التي يُطلق عليها الاسرائيليات وقد أُلقت في هذا المجال بعض الكتب.

أو غير تاريخي متقدّم أمراً صحيحاً مقطوعاً بسلامته، ويرويه في كتابه من دون دراسه وتحقيق، وتمحيص وتقييم.

ماهى أسطورة الغرائق!!

يقولون: إنّ «الأَسود بن المطلب» و «الوليد بن المغيرة» و «أميه بن خلف» و «العاص بن وائل» وهم من زعماء قريش وأسيادها قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

يا محمّد هلمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبُد فنشترك نحن وأنت في الأمر!!

وقالوا ذلك رفعا للاختلاف، وتضييقاً لشقه الخلاف، فأنزّل الله سبحانه سورة الكافرين التي أمر فيها نبيّه أن يقول في جوابهم:

«لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» .

ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرغب في أن يساوم قريشاً ويجاريهم وكان يقول في نفسه: ليت نزل في ذلك أمر يقربنا من قريش.

وذات يوم وبينما كان صلى الله عليه وآله وسلم يتلو القرآن عند الكعبه ويقرأ سورة «النجم» فلما بلغ قوله تعالى:

«أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» (١).

أجرى الشيطان على لسانه الجملتين التاليتين:

«تِلْكَ الْغَرَائِقُ الْعُلَى . مِنْهَا الشَّفَاعَةُ تُرْتَجَى».

فقرأهما من دون إختيار، وقرأ ما بعدها من الآيات، ولمّا بلغ آيه السجده سجد هو ومن حضر في المسجد من المسلمين والمشركين أمام الأصنام، إلّا «الوليد» الذي عاقه كبر سنه عن السجود!!

ص: ٥٤٣

وفرح المشركون، وارتفعت نداءاتهم يقولون: لقد ذكر «محمد» آلهتنا بخير.

واتشهر نبا هذه المصالحه والتقارب بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين، المهاجرين إلى الحبشه، فعاد على أثرها جماعه منهم إلى مكه، ولكنهم ما أن كانوا على مشارف «مكه» إلا وعرفوا بأن الأمر تغير ثانية، وأن ملك الوحي نزل على النبي وأمره مره أخرى بمخالفه الأصنام ومجاهده الكفار والمشركين، وأخبره بأن الشيطان هو الذى أجرى تينك الجملتين على لسانه، وأنه لم يقله، وأنه ليس من «الوحي» فى شىء أبداً.

وعندئذ نزلت الآيات (٥٢-٥٤) من سوره «الحج» التى يقول الله تعالى فيها:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .

«لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» .

هذه هى خلاصه أسطوره «الغرائق» التى أوردتها «الطبرى» فى تاريخه (١) ويذكرها ويرددها المستشرقون المغرضون بشىء كبير من التطويل والتفصيل!!

محاسبه بسيطه لهذه الأسطوره

لنفترض أنّ «محمداً» لم يكن نبياً مرسلًا ولكن هل يمكن لأحد أن ينكر ذكاه وحنكته، وفطنته وعقله؟!!

فهل لعاقل فطن، محنك لبيب مثله أن يفعل مثل هذا؟!!

ص: ٥٤٤

إنّ الذكيّ اللبيب الذي يجد أنصاره يتكاثرون ويتزايدون يوماً بعد يوم وتقوى صفوفهم أكثر فأكثر بينما تتفرّق صفوف أعدائه ومناوئيه ويتناقص معارضوه وخصومّه، هل يقدم في مثل هذه الحاله على عمل يوجب أن يسيء الجميع ظنهم به، ويشكّ الصديق والعدو في أمره؟!!

هل تصدّق أنت أيها القارئ الكريم أنّ رجلاً ترك جميع الأموال والمناصب التي عرضتها قريش عليه، في سبيل دينه الحنيف، وعقيدته التوحيد أن يصبح مره أخرى من دعاة الشرك، ومرّوجي الوثنيه؟؟!

إننا لن نصدّق بمثل هذا الاحتمال في حقّ مصلح أو سياسي عادي من الساسه والمصلحين فكيف برسول الله ونبّيه العظيم؟!!

رأى العقل في هذه القصة:

١. إنّ العقل يحكم بأنّ المرشدين الذين يبعثهم الله تعالى إلى البشريه لهدايتها وإرشادها، وتركيتها وتعليمها مصونون عن أى خطأ وزلل بقوه (العصمه) التي أوتوها، إذ لو تعرّض مثل هؤلاء إلى الخطأ والزلل في أمور الدين لزالَتْ ثقه الناس بهم وبكلامهم.

يجب علينا أن نقارن بين أمثال هذه القصص، وبين هذا الأصل العقائدي المنطقي ونعالج بواسطه معتقداتنا القويه المبرهنه متشابهات التاريخ ومعضلاته.

إنّ من المسلم أنّ عصمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت تمنعه وتحفظه من أى نوع من هذه الحوادث في تبليغ رسالته السماويه.

٢. إنّ هذه الأسطوره تقوم أساساً على أنّ النبيّ قد تعب من أداء مهمته التي ألقاها الله سبحانه عليه، وقد شقّ عليه ابتعاد الوثنيين عنه، فكان يبحث عن مخلص من هذا الوضع المتعب، يكون طريقاً - حسب تصوّره - إلى إصلاح وضعهم!!

ولكن العقل يقضى بأن على الأنبياء أن يكونوا صابرين حلماً أكثر ممّا يتصوّر، وأن يكونوا مضرب المثل عند الجميع فى ذلك، فلا يُحدّثوا أنفسهم بالتهرّب من المسؤوليه وترك الساحه مطلقاً، مهما اشتدّت الظروف، وتأزّمت الأحوال. بينما لو صحّت هذه الروايه - الأسطوره - لكانت دليلاً على أن بطلَ حديثنا قد فقدَ عنان الصبر وأفلت منه زمام الثبات والاستقامه وأنه بالتالى تعب وملّ، وضنى وكلّ، وهو أمرٌ لا ينسجم مع ما يحكم به العقل السليم فى حقّ الأنبياء، كما لا يتفق كذلك مع ما عهدناه من سوابق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن مستقبله أبداً.

إنّ مختلق هذه الأسطوره لم يمرّ بخاطره وباله أنّ القرآن الكريم شهد ببطلان هذه القصه، إذ يعدّ الله تعالى نبيه الكريم، بأن لا يتسرّب إلى القرآن أى شىء من الباطل، إذ قال:

«لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ». (١)

كما وعده أيضاً بأن يصونه عبر جميع أدوار البشريه من أى حادث سيّء، إذ قال سبحانه:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ». (٢)

ومع ذلك كيف يستطيع الشيطان الرجيم عدو الله أن ينتصر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويسرّب إلى القرآن شيئاً باطلاً، ويصبح القرآن الذى تقوم معارفه وتعاليمه على أساس معاداه الوثنيه ومحاربتها داعياً إلى الوثنيه؟؟!!

إنّه لأمر عجيبٌ جداً أن يفترى مختلق هذه الأسطوره أمراً ضدّ التوحيد فى موضع قد كذّبه القرآن قبل هذا المكان بقليل، إذ قال الله تعالى:

ص: ٥٤٤

١- . فصلت: ٤٢.

٢- . الحجر: ٩.

«وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» (١).

فكيف يترك الله نبيه - وقد وعده بهذا الوعد - من دون حفيظ، ويسمح للشيطان بأن يتصرف في قلبه وعقله ولسانه؟!

إن هذه الأدلة العقلية إنما تفيد من يكون مؤمناً بنبوه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته.

وأما المستشرقون الذين لا يعتقدون بنبوته، ويعمدون إلى شرح ونقل وترديد أمثال هذه الأساطير للحط من شأن دينه ورسالته فلا تكفيهم هذه الدلائل، فلا بد أن ندخل معهم في البحث من باب آخر.

تكذيب القصة من طريق آخر

إن النص التاريخي يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه السورة، وكبار قريش وأكثرهم من عمالقه الكلام، وأبطال الفصاحة والبلاغة العربيه حضور في المسجد، ومنهم «الوليد بن المغيرة»، متكلم العرب ومنطيقها المفوه المعروف بينهم بالذكاء وحصافه العقل والنباهه، وقد سمعوا جميعاً هذه السورة إلى ختامها حيث سجد الجميع بسجدها.

فكيف اكتفى هذا الجمع المؤسس للفصاحة والبلاغة الذين كانوا ينقدون كل ما يعرض عليهم نقداً دقيقاً؟!

كيف اكتفوا بتينك الجملتين اللتين امتدحتا آلهتهم، وقد تضمنت الآيات السابقة عليهما، واللاحقه لهما على شتم آلهتم وتفنيدها، والازدراء بها بصوره صارخه و صريحه؟!

كيف تصوّر مخلق هذه الأكذوبه الفاضحه، تلك الجماعه أصحاب اللغه العربيه وآباءها ونقاد الكلام المعدودين عند العرب كلها من عمالقه الفصاحه

ص: ٥٤٧

والبلاغه بلا منازع، والذين كانوا أعرف من غيرهم بإشارات تلك اللغة، وكنياتها (فضلاً عن تصريحاتها).

كيف اكتفى هؤلاء بتينك العبارتين في امتداح آلهتهم، وغفلوا عما سبقها ولحقها من الذم لها والظعن الصارخ فيها؟

إنه لا- يمكن قط أن نخدع العاديين من الناس بهاتين الجملتين المحفوفتين بكلام مطوّل يذم عقائدهم وسلوكهم، فكيف بمن عُرف باللب، والحصافه، والحكمه والذكاء؟!

وها نحن ندرج هنا الآيات المتعلّقه بالمقام ونترك أصفاراً (وفراغاً) في مكان الجملتين اللتين ادّعى إضافتهما، ثم نترك للقارئ نفسه أن يقيم بنفسه هل لتينك الجملتين مكانٌ بين هذه الآيات (التي وردت في ذمّ الأصنام والقدح فيها):

وإليك هذه الآيات:

«أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ... ١ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تَلْحَمِكُ إِذَا قَسِيْمَهُ ضَيَّزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ». (١)

ثم هل يسمح إنسانٌ عادى لنفسه أن يكف عن معاداة نبيٍّ هاجم عقائده طيله عشره أعوام، وهدر إستقلاله وكيانه، وجرّ عليه الشقاء بتسفيه أحلامه، وشم آلهته، لعبارات متناقضه وكلام خليط من الذم الكبير والمدح العابر.

دليل لغوي على تفنيد هذه الأسطوره

يقول العلامة الجليل الشيخ محمد عبده: لم يُستعمل لفظ الغرائيق في الآلهه

ص: ٥٤٨

أبدأ لا فى اللغة ولا فى الشعر العربى. (١)

و «غرنوق» و «غرنيق» اللذان جاءا فى اللغة استعمالا فى نوع من طيور الماء أو الشاب الجميل، ولا ينطبق أى واحد من هذه المعانى على الآلهة.

وقد اعتبر «السيروليم مويير» أحد المستشرقين قصة «الغرانيق» هذه من مسلمات التاريخ واستدل لها بقوله: لم يكن يمض على هجره المهاجرين الأول إلى الحبشه أكثر من ثلاثه أشهر يوم صالح محمّد قريشاً فعادوا إلى مكّه.

إنّ المسلمين الذين هاجروا إلى تلك الأرض وكانوا يعيشون فى أمن وطمأنينه فى جوار النجاشى إذا لم يكونوا يبلغهم نبأ مصالحه النبى لقريش لما عادوا إلى مكّه للقاء بذويهم.

فإذن لا بدّ أنّ «محمّداً» قد تدرّع بشيء لمصالحه قريش، والتقرب إليها، وهذا الشىء هو قصة الغرانيق!! (٢)

ولكن يجب أن نسأل هذا المستشرق المحترم:

أولاً: لماذا يجب أن تكون عوده المهاجرين ناشئه عن نبأ صحيح حتماً.

إنّ النفعيين وذوى الأهواء والأغراض يسعون دائماً إلى بثّ عشرات بل مئات الأخبار الكاذبه بين جماعتهم لتحقيق مآرب خاصه لهم، فما الذى يمنع من أن نحتمل أنّ هناك من افتعل خبر مصالحه النبى لقريش بهدف إرجاع المهاجرين من الحبشه إلى «مكّه». وقد صدّق بعض أولئك المهاجرين هذا الخبر الكاذب فعادوا إلى أرض الوطن، بينما لم ينخدع الآخرون بها وبقوا فى الحبشه ولم يعودوا

ص: ٥٤٩

١- . نقله عنه القاسمى فى تفسيره: ١٢/٥٥-٥٦.

٢- . راجع حياه محمّد: ١٦٥ و ١٦٦.

إلى مكة؟

ثانياً: لنفترض أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يريد أن يصلح قريشاً، فهل يكون الطريق إلى السلام والمصالحة منحصراً في افتعال هاتين الجملتين.

ألم يكن إعطاء مجرّد وعد مناسب أو مجرّد السكوت عن عقائدهم كافياً لتهدئته خواطرهم، واجتذاب قلوبهم نحوه؟ وعلى كلّ حال فإنّ عوده المهاجرين لا يكون دليلاً على صحّ هذه الأسطوره، كما أنّ المصالحة والتقارب غير متوقّفين على النطق بهاتين الجملتين.

والأعجب من هذا أنّ البعض تصوّر الآيات (٥٢-٥٤ من سورة الحج) قد نزلت في قصه الغرانيق.

شبهات للمستشرقين والرد عليها

إشاره

وحيث إنّ هذه الآيات قد وقعت ذريعه بأيدي المستشرقين ومرتكبي جريمه التحريف في التاريخ، فإننا نعمد هنا إلى توضيح مفاد هذه الآيات، ونبين للقارئ بأنّها تنظر إلى أمر آخر، ولا ترتبط بهذه القصة بتاتاً.

وها هو نصّ الآيات المشار إليها: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسِيخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». (١)

والآن يجب أن نبيّن مفاد الآيات ولنبدأ بالآيه الأولى:

ص: ٥٥٠

إِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى تَذَكَّرُ بثلاثه أمور هي:

١. أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ يَتَمَنُّونَ.

٢. أَنَّ الشَّيْطَانَ يَتَدَخَّلُ فِي تَمَنِّيَاتِهِمْ.

٣. أَنَّ اللَّهَ يَمْحِي آثَارَ ذَلِكَ التَّدَخُّلِ.

وبتوضيح هذه النقاط الثلاث يتضح مفاد الآيه والمراد منها.

وإليك توضيح تلکم النقاط الثلاث:

١. ما هو المقصود من تمنى الأنبياء والرسل؟

لقد كان الأنبياء والرسل يحبون هدايه أممهم، ونشر دينهم وتعاليمهم فيها، وكانوا يدبرون أموراً ويخططون خططاً لتحقيق أهدافهم هذه، كما كانوا يتحملون في هذا السبيل كل المتاعب والمصاعب، ويثبتون في جميع المشكلات والمحن.

ولم يكن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم مستثنى عن هذه القاعدة، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يخطط لتحقيق أهدافه كثيراً، ويهيئ مقدمات ويبين القرآن هذه الحقيقه بقوله:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى» .

فأتضح إلى هنا المراد من لفظ تمنى ولنشرح الآن النقطه الثانيه.

٢. ما هو المقصود من تدخل الشيطان؟

إِنَّ تَدَخُّلَ الشَّيْطَانِ يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ عَلَى نَحْوَيْنِ:

١. أَنْ يُوْجِدَ الشَّكَّ وَالتَّرْدِيدَ فِي عَزْمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُوْحِي إِلَيْهِمْ بِأَنَّ هُنَاكَ عَوَاقِقَ كَثِيرَةً تَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْدَافِهِمْ، وَلِذَلِكَ لَنْ يَحْرُزُوا نَجَاحاً فِي تَحْقِيقِ تِلْكَ الْأَهْدَافِ.

٢. بأنّ الأنبياء كلّما مهّدوا الأمر وهيأوا له مقدماته، وَ ظهرت منهم أمارات تدلّ على أنّهم مقدّمون على تنفيذهم فعلاً أقام الشيطان ومن تبعه من شياطين الإنس العراقل والموانع في طريقهم، ليمنعوهم من الوصول إلى غاياتهم.

أمّا الاحتمال الأوّل فلا ينسجم لا مع الآيات القرآنية الأخرى ولا مع الآية اللاحقة.

أمّا من جهة الآيات الأخرى فلأنّ القرآن ينفي بصراحه لا صراحه فوقها أنّه لا سلطان للشياطين على أولياء الله وعباده الصالحين (ولو بأن يصوّروا لهم بأنهم لن يقدرُوا على تحقيق آمالهم، وأهدافهم) إذ يقول:

«إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ». (١)

ويقول أيضاً: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». (٢)

إنّ هذه الآيات، والآيات الأخرى التي تنفي سلطان الشيطان على أولياء الله وعباده الصالحين، وتأثيره في قلوبهم ونفوسهم لخيرٍ شاهد وأفضل دليل على أنّ المقصود من تدخّل الشيطان في تمنّيات الأنبياء ليس بمعنى إضعاف عزيمتهم، وإرادتهم وتكبير الموانع والعراقل في نظرهم.

أمّا من جهة الآيات المبحوثة فإنّ الآية الثانية والثالثة تفسّر وتشرح عله التدخّل على النحو الآتي: إنّنا نختبر بهذا العمل فريقين من الناس: الفريق الأوّل: الذين في قلوبهم مرض، والفريق الثانی: الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر.

يعنى أنّ تدخّل الشيطان في أعمال الأنبياء عن طريق تحريك الناس ضدّهم

ص: ٥٥٢

١- . الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥.

٢- . النحل: ٩٩.

وَضَدَّ أهدافهم يوجب مخالفه الفريق الأَوَّل ومعارضتهم للأنبياء، في حين يكون الأمر على العكس من ذلك في الفريق الثاني فإنه يزيد من ثباتهم وضمودهم.

وإنَّ بيان أن لتدخل الشيطان في تمَّيات الأنبياء، مثل هذين الأثرين المختلفين (أى يحمل فريقاً على المخالفه وفريقاً آخر على الثبات والضمود) يفيد أنَّ المراد بالتدخل هنا هو المعنى الثاني، يعنى أنَّ التدخل يحصل عن طريق تحريك الناس ضدَّهم، وإلقاء الوسوس في قلوب أعدائهم، وخلق الموانع والعراقيل في طريقهم لا أنَّهم يتصرَّفون في نفوس الأنبياء وقلوبهم ويضعفون إرادتهم وعزمهم.

إلى هنا اتَّضح معنى تدخل الشيطان في تمَّيات الأنبياء والرسل.

والآن حان الحين لتوضيح المطلب الآخر يعنى محو آثار هذا التدخل.

٣. ما هو المقصود من محو آثار التدخل؟

إذا كان معنى تدخل الشيطان هو تحريك الناس وتأليبهم ضد الأنبياء ليمنعوا الأنبياء والرسل من التقدّم في أهدافهم، فإنَّ محو آثار التدخل الشيطاني من قبل الله - حينئذٍ - يكون بمعنى أنَّ الله يدفع عن أنبيائه ورسله كيد الشيطان ليُتضح الحقُّ للمؤمنين، ويكون اختباراً لمرضى القلوب كما يقول تعالى في آيه أُخرى.

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالدِّينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». (١)

وخلاصه القول: إنَّ القرآن يخبر - في هذه الآيات - عن سنّه لله قديمه في مجال الأنبياء وهى:

إنَّ تَمَنَّى التقدّم في الأهداف وتمنى التوفيق في هدايه الناس هو فعل الأنبياء دائماً. ثم يأتى الدور لتدخل الشيطان وأتباعه من شياطين الإنس والجن، وذلك

ص: ٥٥٣

بإيجاد الموانع والعقبات في طريق الأنبياء والرسول.

ثم يأتي من بعد ذلك حلول المدد الإلهي الغيبي بمحو وفسخ كل التدابير الشيطانية المضادّة لأهداف الأنبياء المعرّقه لتحقيق أمانتهم.

وهذه هي إحدى السنن الإلهية الثابتة التي جرت في جميع الأمم السالفة. إنّ تاريخ الأنبياء والرسول وقصصهم من نوح وإبراهيم وأنبياء بني إسرائيل وبخاصّة موسى وعيسى عليهما السلام، و تاريخ حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم خير شاهد على هذا المطلب.

وينبغي استكمالاً لهذا البحث أن نقول: ولأجل ما ورد على هذه القصة الأسطورية من مؤاخذات رفضها وفنّدها بعض المحقّقين من أهل السنّة إذ قال بعد ذكرها على النحو الذي أدرجها الطبري في تاريخه وأرسله إرسال المسلمات:
وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجّه.

ومن صحّحه قال فيه أقوالاً:

منها: أنّ الشيطان قال ذلك وأذاعه الرسول عليه الصلاة والسّلام لم ينطق به.

(وذكر وجوهاً أخرى ثم قال:) والحديث على ما خيلت غير مقطوع بصحّته. (١)

ص: ٥٥٤

١- . لاحظ: الروض الأنف (في تفسير السيره النبويه لابن هشام) لعبد الرحمن السهيلي (المتوفى ٥٥٨١هـ): ٢/١٢٦.

إنَّ أبسط وسيلة وأسهلها لضرب الأقليات في أي مجتمع، والقضاء عليها هو ما يُسمّى بالمكافحه السلبيه التي تقوم أساساً على اتّحاد الأكثرية واتّفاقها على مقاطعه الأقلّيه المتمرّده.

إنَّ عكس هذا يحتاج إلى أدوات متعدّده مختلفه، لأنّه يتطلب مثلاً أن يحمل جماعه من المقاتلين السلاح، وتتوجّه نحو الأهداف المطلوبه عبر التضحيه بقدر كبير من الأ-نفس والأموال، وإزاله العشرات من الموانع والسواتر، وهو أمر لا- يُقدم عليه القاده المحنّكون إلّا بعد توفّر كلّ مستلزمات المواجهه واتّخاذ جميع التدابير اللازمه، والاستعداد الكامل، وبالتالي لا يقدمون على هذه الخطوه ما لم تدعو الضروره إليها، وتنحصّر الحيله في القتال.

ولكنّ المكافحه السلبيه لا تتوقّف على مثل هذه الأمور، بل تحتاج إلى أمر واحد وهو اتّفاق الأكثرية.

يعنى أن يتفق من يعينهم الأمر ولهم عقيدته واحده ويتحالفوا في ما بينهم بصدق على أن يقطعوا كلّ صلاتهم وعلاقاتهم بالأقلّيه المعارضه، فيحرّموا التعامل التجاريّ معهم ويوقفوا الاتصال العائليّ بهم، ولا يشركونهم في أعمالهم الاجتماعيه ولا يتعاونوا معهم في أمورهم الشخصيه أيضاً. في مثل هذه الحاله تضيق الأرض على الأقلّيه بما رحبت وتغدو الدنيا لهم على سعتها كسجن ضيق وصغير، ويصيرون عُرضه للانهيّار والسقوط بأقلّ قدر ممكن من الضغط عليها.

إنّ الأقلّيه المخالفه المتمرّده ربّما تستسلم - فى هذه الحاله - وتؤوب من منتصف الطريق، وتطيع إراداه الأكثرّيه.

ولكن أقلّيه كهذه لابد أن تكون ممّن لا تعود مخالفتها للأكثرّيه إلى أمر عقائدىّ ولا يكون لانفصالها عن الأكثرّيه طابعاً أصوليّ مبدئى، كما لو كان خلافها مع الأكثرّيه مثلاً على تحصيل ثروه أو منصب مهمّ أو ما شاكل ذلك.

فإنّ مثل هذه الأقلّيه إذا أحستّ بخطر جدّى، أو واجهت العذاب والسجن والحصار ستراجع عن مخالفتها وتعود إلى طاعه الأكثرّيه مؤثره اللّذه العابره المؤقّته على اللّذه الاحتماليه، لأنّها لم تنطلق من دوافع إيمانيه أصيله، ولم يكن المحرّك لها محرّكاً روحياً معنوياً.

ولكن الجماعه الّتى يقوم خلافها للأكثرّيه على أساس الإيمان بهدف مقدّس، لن تنصاع أبداً لمثل هذه الضغوط، ولن تنثنى أمام هذه الرياح والعواصف، ولا يزيدا ضغط الحصار إلّاصلابه وقوه، وإصراراً وعناداً، وتردّد جميع ضربات العدوّ بالصبر والاستقامه.

إنّ صفحات التاريخ البشرىّ تشهد بأنّ أقوى العوامل لثبات كلّ أقلّيه وصمودها فى وجه الأ-كثريه هو: قوه الإيمان، وعامل الاعتقاد، الّذى ربّما يؤدّى رساله الثبات والمقاومه ببذل آخر قطره دم فى ساحه المواجهه.

ولنا على هذا عشرات بل ومئات الأمثله من التاريخ الغابر والحاضر.

قريش تحاصر النبىّ والمسلمين اقتصادياً واجتماعياً

لقد شقّ على قريش انتشار الإسلام المتزايد وأزعجها نفوذ العجيب فى القبائل العربيه فى مده غير طويله بالنسبه إلى عمر الدعوه ولهذا كانت تفكّر باستمرار فى حلّ لهذه المشكله.

فإنَّ إسلام شخصيات ذات أهميه ومكانه كبرى مثل حمزه، وكذا رغبه فتيه قريش المتفتحين في الإسلام، وحرية العمل والتحرّك التي اكتسبها المسلمون على أثر الهجرة إلى أرض الحبشه، كلّ ذلك زاد من حيره، واضطراب الزعامه الجاهليه في مكّه، التي زادها حيره، وانزعاجاً، فشل جميع مخططاتها الإجهاضيه ضد الإسلام والمسلمين، وعدم حصولها على أيّ نتائج تذكر!!

من هنا فكرت في خطه جديده، وهي أن تفرض حصاراً اقتصادياً قوياً على النبيّ والمسلمين تقطع به كلّ الشرايين الحيويه للمسلمين، وبذلك تحدّ من سرعه انتشار الإسلام وتقف دون نفوذه، وبالتالي تخنق بين كماشه هذا الحصار مؤسس هذه العقيدته التوحيديه، وأنصاره.

ولهذا اجتمع زعماء قريش في «دار الندوه» ووقّعوا ميثاقاً كتبه «منصور بن عكرمه» وعلّقه في جوف الكعبه، وتحالفوا بأن تلتزم قريش ببنوده حتّى الموت.

ونصّ هذا العقد على الأمور التاليه:

١. أن لا يبتاعوا من أنصار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولا يبيعوهم شيئاً.

٢. أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم.

٣. أن لا يؤاكلوهم ولا يكلموهم.

٤. أن يكونوا يداً واحده على «محمّد» وأنصاره.

وقد وقّعت على هذه الصحيفه الظالمه القاطعه كلّ الشخصيات البارزه في قريش إلّا «مطعم بن عدى» وأعلنت عن سريان مفعوله بكلّ قوه وإصرار.

فلما علم حامى النبيّ الأكبر أبوطالب عليه السلام بذلك جمع بنى هاشم و بنى المطلب وحملهم مسؤوليه الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والحفاظ على حياته وسلامته، وأمرهم بالخروج من مكّه وبدخول شعب كائن بين جبال مكّه كان

يعرف بشعب أبي طالب فيه بعض البيوت العاديه، والسقائف البسيطة جداً، والسكنى فى ذلك الشعب بعيداً عن المجتمع المكى المشرك.

وعمد إلى بث رجال منهم فى نقاط مرتفعه للمراقبه والحراسه تحسباً لأى هجوم مباغت تقوم به قريش. (١)

وقد استمر هذا الحصار ثلاثه أعوام كامله، وبلغ الجهد بالمحاصرين فى الشعب بحيث ارتفع صراخ الأطفال من الجوع والضر، وبلغت هذه الصرخات مسامع قساه مكه إلا أنها لم تؤثر فيهم قط.

كان الشباب والرجال منهم يعيشون على تمره واحده طوال اليوم، وربما تناصف اثنان تمره واحده، ولم يمكنهم الخروج من الشعب طوال هذه السنوات الثلاث إلا فى الأشهر الحرم حيث يسود الأمن كل أنحاء الجزيره العربيه.

فإذا حلّ الموسم كانت بنو هاشم تخرج من الشعب فيشترون ويبيعون ثم يعودون إلى الشعب إلى الموسم الثانى.

وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يستغل هو أيضاً تلك المواسم فى نشر دينه، والدعوه إلى ما أتى به. وكانت عناصر قريش تحاول مضايقه النبى وأنصاره وتمارس الحصار الاقتصادى عليهم بشكل من الأشكال حتى فى هذه المواسم، فكانوا يحضرون عند مواقع البيع والشراء، فإذا وجدوا مسلماً يريد أن يتاع شيئاً اشتروه بثمن أعلى ليمنعوا المسلم منه!!

ص: ٥٥٨

١- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٣٤؛ تاريخ الطبرى: ٢/٧٨، وقد كتبت هذه الصحيفه الظالمه فى الليله الأولى من السنه السابعه للبعثه وعندما عرف أبوطالب بأمرها أنشد قصيده فى ذمهم مطلعها: ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطاً فى أول الكتب

وكان «أبو لهب» أكثر الناس إصراراً على هذا العمل، فقد كان ينادى فى الأسواق: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمّد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم فى السلعه قيمتها أضعافاً، حتى يرجع الرجل المسلم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبى لهب فيربّحهم فيما اشترؤا من الطعام واللباس!!^(١)

وكان «الوليد بن المغيرة» ينادى: أيما رجل منهم وجدتموه عند طعام يشترىه فزيدوا عليه.^(٢)

وضع بنى هاشم المأساوى فى الشعب

لقد بلغ الجهد والجوع بالمحاصرين فى الشعب حدّاً جعلهم يأكلون كلّ ما تقع عليه أيديهم من الخبط وورق السمر حتى أن «سعد بن أبى وقاص» يقول: لقد جعت حتى أنى وطئت ذات ليله على شيء رطب فوضعتة فى فمى وبلعته، وما أدرى ما هو إلى الآن.^(٣)

هذا وقد بثّ قريش جواسيسها على الطرق المؤدّيه إلى الشعب ليمنعوا من إيصال الطعام إلى من فيه، فلا يصل إليهم شيء إلا سراً و مستخفى به ممّن أراد صلتهم من قريش.

فقد روى أن «حكيم بن حزام» (ابن أخ خديجه) و «أبو العاص بن الربيع» و «هشام بن عمرو» كانوا يسرّبون إلى «بنى هاشم» فى الشعب سراً وفى أواسط

ص: ٥٥٩

١- .الروض الأنف فى تفسير السيره النبويه: ٢/١٢٧.

٢- . سيره ابن إسحاق (السير والمغازى): ٢/١٤٠.

٣- .الروض الأنف: ٢/١٢٧.

الليل تحت جناح الظلام، فكان الواحد منهم يحمل قمحاً وتمرّاً على بعير ويأتي به إلى باب الشعب ثم يصيحُ بها فتدخلُ الشعب ويأخذه بنو هاشم.

وربّما صادفهم بعض جواسيس قريش، فهُمّوا بقتله، أو سبّوا له بعض المتاعب.

فقد روى أنّ أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد، ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمّته خديجه بنت خويلد، وهي عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه في الشعب، فتعلّق به وقال: تذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتّى أفضحك بمكة. فجاءه أبو البختری فقال: مالك وله؟

فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم.

فقال له أبو البخترى - وكان من أعداء الإسلام هو أيضاً -: طعام كان لعمّته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل.

فأبى «أبوجهل» حتّى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ له «أبوالبخترى» لحي بعير فضربه به فشجّه ووطأه ووطأ شديداً. (١)

وخلصه القول؛ إنّ قريشاً بالغت في تضيق الحصار على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن تبعه حتّى أنّ من كان يدخل «مكة» من العرب. كان لا يجسر على أن يبيع من بني هاشم شيئاً، ومن باع منهم شيئاً انتهبوا ماله، وكان «أبوجهل»، و«العاص بن وائل» و«النضر بن الحارث بن كلده»، و«عقبه بن أبي معيط» يخرجون إلى الطرقات التي تدخل «مكة» فمّن رأوه معه ميرته وطعام نهوه أن يبيع من بني هاشم شيئاً، ويحذرونه إن باع شيئاً منهم نهبوا ماله.

ص: ٥٦٠

١- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٣٦، هذا ويشكك أحد المحققين في نوايا حكيم بن حزام في هذا العمل، وفي أن يكون قد حصل بدافع الوفاء لوشيجه القربى، بل كان بدافع الربح الأكثر لما ثبت - حسب قوله - من أنّه كان يحتكر الطعام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما وعدوا على مَنْ أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتدَّ البلاء عليهم، وأبدت قريش لبني عبدالمطلب الجفاء.

ولكن لم يستطع كلُّ ذلك أن يفتَّ في عضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقلل من إصراره وثباته على الطريق، ولا من إصرار أتباعه وثباتهم وإيمانهم.

وأخيراً تركت صرخاتُ أطفال بني هاشم في الشعب من الجوع والعري والجهد والضرر، وأوضاعهم المأساوية أثرها في نفوس بعض المشركين الموقعين على تلك الصحيفة الظالمه، وذلك الميثاق المشؤوم، فندموا على إمضائهم لتلك المقاطعه بشده وصاروا يفكرون في نقضها بشكل من الأشكال.

فمشى «هشام بن عمرو» إلى «زهير بن أبي أميه» (وكان من أحفاد عبدالمطلب من جانب بناته) وقال له وهو يحثه على نقض الصحيفة: يا زهير أقدر رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يُنكحون ولا يُنكح إليهم؟

أما إنني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم (أي أبي جهل) ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً؟ فقال زهير: ويحك يا هشام فماذا أصنع؟ إنما أنا رجلٌ واحدٌ، والله لو كان معي رجلٌ آخر لقمْتُ في نقضها حتى أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً.

قال: فمن هو؟ قال: أنا.

قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً. فذهب إلى «المطعم بن عدى» فقال له: يا مطعم أقدر رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهدٌ على ذلك، موافقٌ لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراغاً؟

قال: ويحك! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجلٌ واحدٌ.

ص: ٥٦١

قال: قد وجدتُ ثانياً.

قال: من هو؟ قال: أنا.

قال: أبغنا ثالثاً.

قال: قد فعلتُ.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أمية.

قال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى «البخترى بن هشام» فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدى، فقال: وهل من يُعين على هذا؟

قال: نعم.

قال: من هو؟

قال: «زهير بن أبي أمية» و «المطعم بن عدى» وأنا معك.

قال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى «زمعه بن الأسود بن المطلب» فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له: وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد؟

قال: نعم... ثم سَمى له القوم (الذين وعدوه بالمساعدة على نقض تلك الصحيفة القاطعه الظالمه).

فاتفقوا على أن يحضروا فى أنديه قريش فى المسجد ويُعلِنوا مخالفتهم لتلك الصحيفة.

فلما أصبحوا غَدوا إلى أنديتهم... ثم أقبل «زهير بن أبي أمية» على الناس

ص: ٥٦٢

وقال:

يا أهل مكّه أنأكل الطعام ونبسّ الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباعون ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتّى تشقّ هذه الصحيفه القاطعه الظالمه.

فقال أبو جهل، وكان فى ناحيه المسجد: كذبت والله لا تُشقّ.

فانتصر زمعه لزهير وردّ على أبى جهل قائلاً: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت.

وقال أبوالبخترى من ناحيه مؤيداً موقف زميله: صدق زمعه لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقرب به.

وقال المطعم بن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فأحسّ أبو جهل بأنّ ذلك كان أمراً مبيّناً مدبراً من قبل فقال:

هذا أمرٌ قُصِيَ بليل، تُشور فيه بغير هذا المكان.

وكان أبوطالب - حسب بعض الروايات التاريخيه - جالساً ذلك اليوم فى ناحيه المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفه ليشقّها فوجد (الإرضه)^(١) قد أكلتها، إلّا «باسمك اللهم» (التي صُدرت بها تلك الصحيفه وهى جمله كانت قريش تبدأ بها عهدّها ورسائلها).^(٢)

فلما رأى «أبوطالب» ذلك رجع إلى الشعب وأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما

ص: ٥٤٣

١- وهى دوده بيضاء شبه النمله، وهى آفه كلّ شىء من خشب ونبات. راجع لسان العرب: ٧/١١٣، ماده «ارض».

٢- السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٥٢-٢٥٣.

جری، وعاد المحاصرون فی الشعب إلى منازلهم مره أخرى بعد المشوره مع «أبی طالب».

ویروی طائفه من المؤرخین أنّ «خدیجه» و «أبا طالب» أنفقا أموالهما برمتها خلال سنوات المحاصره.

وذكر بعض أهل العلم: أنّ رسول الله صلی الله علیه و آله و سلم قال لأبی طالب: یا عمّ إنّ ربی الله قد سلط «الإرضه» علی صحیفه قریش فلم تدع فیها اسماً هو لله إلا أثبتته فیها، ونفت منها الظلم والقطيعه والبهتان.

فقال أبو طالب: أربک أخبرک بهذا؟ قال: نعم، قال: فوالله ما یدخل علیک أحدٌ. (١)

ثم قام ولبس ثیابه، ومشى هو ورسول الله وشخص آخر حتى دخلوا المسجد علی قریش وهم مجتمعون فیهِ، فلما دنا أبو طالب منهم قاموا إلیه وعظّموه، وتباشروا وظنوا أنّ الحصر والبلاء حمل أبا طالب علی التخلی عن موقفه، فقالوا له: قد آن لک أن تطیب نفسک عن قتل رجل فی قتله صلاحکم وجماعتکم (أو قد آن لک أن تسلّم إلینا ابن أخیک).

فقال أبو طالب: والله ما جئت لهذا، ولكنّ ابن أخی أخبرنی ولم یکذبنی أنّ الله تعالی أخبره أنّه بعث علی صحیفتکم القاطعه دابّه فلحست جمیع ما فیها من قطيعه رحم وظلم وجور وترك اسم الله، فهلم صحیفتکم، فإن کان حقاً فاتقوا الله وارجعوا عما أنتم علیه من الظلم والجور وقطيعه الرّحم.

وإن کان باطلاً دفعته إلیکم فإن شئتم قتلتموه، وإن شئتم استحييتموه.

ص: ٥٦٤

١- . وإنما اتخذ مثل هذا الإجراء حتى لا یفشو ذلك الخبر فیبلغ المشرکین فیحتالوا للصحیفه ویکذبوا بذلك خبر النبى صلی الله علیه و آله و سلم.

فقالوا: رضينا، وتعاقدوا على ذلك.

ثم بعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبه، وعليها أربعون خاتماً.

فلَمَّا أتوا بها نظر كلُّ رجلٍ منهم إلى خاتمه، ثم فكوها فإذا ليس فيها حرفٌ واحدٌ إلَّا «باسمك اللهم»، كما أخبرهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

غير أن هذا لم يوجب هدايتهم بل زادهم شراً وعناداً، ورجع بنو هاشم مرّة أخرى إلى الشعب وبقوا محاصرين فيه مدّة من الزمن، ولم يمكنهم الرجوع إلى منازلهم بمكة إلّا بعد أن نقضها هشام. (١)

وقد قال «أبو طالب» في مدح هذا (أى نقض الصحيفة القاطعه والنفر الذين قاموا بنقضها) قصيده مطوّله جاء في مطلعها.

ألا هل أتى بحرّينا (٢) صنع ربّنا على نأيهم والله بالناس أروؤد (٣)

فيخبرهم أنّ الصحيفة مُرّقت وأنّ كلُّ ما لم يرضه الله مُفسد (٤)

هذه أمثلة ونماذج من ردود الفعل الظالمة والمواقف المناوئه التي اتخذتها قريش تجاه الدعوه المحمديه.

على أنه لا يمكن الادعاء القطعيّ بأن جميع هذه الردود قد وقعت على الترتيب الّذى ذكرناه تماماً، ولكن يمكن بمراجعته النصوص التاريخيّة تحصيل مثل هذا الترتيب وخاصّه أنّ مسأله انتهاء المحاصره الاقتصاديّه قد وقعت في منتصف شهر رجب من السنه العاشره للبعثه الشريفه.

ص: ٥٦٥

١- . لاحظ: السيره النبويه: ١/٢٥٣.

٢- . يقصد من هاجر من المسلمين إلى الحبشه في البحر.

٣- . أى أرفق.

٤- . السيره النبويه: ١/٢٥٣-٢٥٥. وقد أدرج ابن هشام القصيده بتمامها، فراجع.

كما أن أذى قريش وردود فعلها ضد الإسلام والمسلمين وضد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصه لم تنحصر في ما ذكرناه في هذه الفصول بل كانت هناك أساليب أخرى سلكتها قريش لتحطيم شخصيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإضعاف عزيمته مثل وصفهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأبتر.

فقد كان «العاص بن وائل السهمي» إذا ذكر رسول الله قال: دعوه، فإئما هو رجل أبتر لا عقب له، لومات لا- نقطع ذكره واسترحم منه.

فأنزل الله تعالى في ذلك سورة الكوثر التي يقول فيها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

وقد أخبر بها الله نبيه بأنه سيهتبه ذريه كثيره. (١)

ولقد كتب العلامة الفخر الرازي في تفسيره لهذه السوره: المعنى أنه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت؟ ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بنى أميه في الدنيا أحد يُعبأ به. (٢)

ووجه المناسبه أن الكافر شمت بالنبي حين مات أحد أولاده وقال: إن محمداً أبتر فإن مات مات ذكره، فأنزل الله هذه السوره على نبيه تسليه له كأنه تعالى يقول: إن كان ابنك قد مات فإنما أعطيناك فاطمه، وهي وإن كانت واحده وقليله، ولكن الله سيجعل هذا الواحد كثيراً.

ص: ٥٦٦

١- السيره النبويه: ١/٢٦٥. وجميع التفاسير.

٢- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): ٣٢/١٢٤، تفسير سوره الكوثر.

فى الوقت الذى كُنَّا نسطر فيه مواضع هذا الفصل كان سجن «القطيف» يضم بين جدرانہ رجلاً حر الضمير شجاعاً مقداماً لم يكن له من ذنب إلا أنه ألف كتاباً باسم «أبو طالب مؤمن قريش» يتناول إسلام «أبى طالب» وإيمانه وإخلاصه مثبتاً كل ذلك من مصادر أهل السنه (١).

فطلبت منه السلطات القضائيه فى الحجاز - وفى عصر يتسم بحريه التفكير والبيان والإعتقاد - بأن يتراجع عن كلامه، وحيث إنه لم يكن ليريد أن ينكر حقيقه اعتقد بها عن قناعه ويقين، حكمت عليه تلك السلطات بالإعدام!!

وقد نجا هذا المؤمن الشجاع والكاتب الحرّ من الإعدام اثر جهود إسلاميه واسعه وخُفّضت عقوبته إلى الحبس المؤبد، ومن ثم خُفّضت إلى عقوبه الجلد ثمانين جلده!!.

وقد أطلق سراحه بفضل الجهود المتضافره لعلماء الشيعة ومفكرهم.

لقد سقطت مؤامره الحصار الاقتصادى ضدّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم بفعل جهود ثله من ذوى المروءه وأيضاً بفضل صمود النبى صلى الله عليه وآله وسلم وثباتهم العظيم. وخرج النبى وأنصاره من «شعب أبى طالب» بعد ثلاث سنوات من النفى والعذاب وعادوا إلى منازلهم ظافرين مرفوعى الرؤوس.

ص: ٥٦٧

١- . والكتاب يقع فى ٣٤٠ صفحه طبع بالحجم الوزيرى وطُبع فى بيروت مراراً وقدم له الأديب اللبنانى المعروف «بولس سلامه» صاحب ملحمة الغدير وملاحم أخرى.

وعاد التعامل الاقتصادي مع المسلمين إلى ما كان عليه قبل الحصار، وكانت أوضاع المسلمين تسير نحو الانتعاش والانفراج شيئاً فشيئاً، وإذا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُفاجأ بحادث مؤلم مرّ ذلك هو وفاه شخصيه كبرى أحدث فقدانها أثراً سيئاً في نفوس المسلمين وبخاصّه المستضعفين منهم.

ولقد كان هذا الأثر عظيماً جداً بحيث لا يمكن قياسه بشيءٍ بالنظر إلى تلك الظروف الحساسه، وذلك لأنّ نمو أيه عقيدته وفكره إنّما يكون في ظل عاملين أساسيين: أحدهما: حريه التعبير، والآخر: القوه الدفاعيه التي تحمي أصحاب تلك العقيدته والفكره ضدّ حملات الخصوم التي لا ترحم.

ولقد كان المسلمون - آنذاك - يتمتعون بحريه البيان والتعبير، ولكنهم افتقدوا بسبب الحادث المفاجئ المذكور العامل الجوهري والمصيري الثاني يعنى: حامى الإسلام والمدافع الوحيد عنه الذي وافته المنيه في تلك الأيام الحساسه وحُرم المسلمون بوفاته من حمايته ودفاعه، ووقايته.

أجل لقد فقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حاميه العظيم الذي تولى مهمه كفالته والدفاع عنه، والمحافظة على حياته بصدق وإخلاص وجدّ و رغبه، وكان يقيه بنفسه وذويه ويؤثره على نفسه وأولاده وينفق عليه من ماله حتّى كَبُرَ وصار له مال وطول منذ أن كان صلى الله عليه وآله وسلم في السنه الثامنه من عمره وحتّى يوم وفاه ذلك الحامى العظيم، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الخمسين من عمره.

لقد فقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شخصيه خاطبها عبدالمطلب عند وفاته بالشعر قائلاً:

أَوْصِيكَ يَا عَبْدَ مَنْفٍ بَعْدِي بِمَوْحِدٍ بَعْدَ أَبِيهِ فَرِدِ

ص: ٥٦٨

فأجابه أبو طالب قائلاً: يا أبه لا توصني بمحمد فإنه ابني وابن أخي. (١)

ولعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تذكّر في اللحظة التي ظهر فيها على جبين أبي طالب عرق الموت جميع الحوادث الحلوه والمرّه وقال في نفسه:

١. إن هذا الشخص المسجى على فراش الموت هو عمّه الرؤوف الذي ظلّ يحرسه بالليل والنهار طيله سنوات الحصار في الشعب، فاذا جاء الليل قام عند رأسه بالسيف يحرسه. ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مضطجع ثم يقيمه من فراشه إذا مضى شطرًا من الليل ويضعه في موضع آخر ويضع مكانه ولده «علي بن أبي طالب» حتى لا تغتاله قريش بعد أن رصّ يدوا مكانه، وكمنوا له، وكان يفعل أبو طالب ذلك طوال الليل كلّ فيفديني بولده «علي» ويقيني به حتى إذا قال له «علي» ليله: «يا أبتاه إنني مقتول ذات ليله».

فأجابه أبو طالب بنبره المتحمّس الصبور:

إصبرن يا بنتي فالصبر أحجى كلّ حيّ مصيره لشعوب

قد بلوناك و البلاء شديد لفداء النجيب وابن النجيب

فأجابه «علي» بكلام أكثر حلاوة وعمقًا قائلاً:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد؟ والله ما قلت الذي قلت جازعاً

ولكنني أحببت أن تر نصرتي وتعلم أنني لم أزل لك طائعاً (٢)

٢. إن هذا الجثمان الذي فارقت الروح هو جثمان عمي العطوف الذي شرّد هو وذووه، وعرض نفسه وأهله للبلاء والمحنة بسبب الحصار لأجلي، وأمر بأن

ص: ٥٦٩

١- مناقب ابن شهر آشوب: ٣٤-١/٣٥؛ بحار الأنوار: ٣٥/٨٦ ح ٣٠.

٢- مناقب ابن شهر آشوب: ١/٥٨؛ بحار الأنوار: ٣٥/٩٣.

يحرسونني ليلَ نهار، تاركاً زعامته وسيادته، وكلَّ شؤونه للحفاظ علىَّ والإبقاء على رسالتي، وأرسل إلى قريش رسالته قويه أعلن فيها عن وقوفه إلى جانبي وأنه لن يسلمني ويخذلني مادام حيّاً إذ قال:

فَلَا تَحْسَبُونَا خَاذِلِينَ مُحَمَّدًا لَدَى عِزِّهِ مِنَّا وَلَا مَتَعِزِّبٍ

سَتَمْنَعُهُ مِنَّا يَدُ هَاشِمِيَّةٍ وَ مَرَكَبَهَا فِي النَّاسِ أَحْسَنَ مَرَكَبٍ (١)

بعد أن تحقّق موت «أبي طالب» ارتفع الصراخ والنحيب من منازل بيوته، واجتمع حول بيته العدوُّ والصديقُ، والقريبُ والبعيدُ، واشترك الجميعُ في مراسيم دفنه بقلوب آلمتها الفجيعة به، وقزحها الحزنُ عليه.

وهل ترى تنتهي آثار وردود فعل وفاه شخصيه عظيمه الشأن مثل «أبي طالب» العذى كان زعيم قريش، وسيد عشيرته بمثل هذه السرعة، والبساطه؟

كلّا بل سيكون لفقدانه أكبر الأثر على مسيره الدعوه كما ستعرف ذلك مستقبلاً.

نماذج من مشاعر أبي طالب ومودته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم

إن التاريخ البشرى يحتفظ في صفحاته بأمثله كثيره عن مشاعر تبادلها الأشخاص وعواطف وديّه قويه أبداها البعض تجاه بعض تدورُ أكثرها حول محور الدوافع الماديه كالتى تدور حول معيار الجمال أو المال، ولهذا سرعان ما يذهب الحماس وتنطفئ شعله الحبّ، ويتضاءل لهيبُ العاطفه في كيانهم حتى تزول بالمرّه ولا يبقى منها شيء أبداً لعدم ثبات هذه الدوافع.

ولكنّ المشاعرَ والعواطفَ التي تنبع من أواصر الإيمان بفضائل شخص ما

ص: ٥٧٠

١- . بحار الأنوار: ١٩/٤ و ٢٠ و ج ٣٥/٩٣، وفيه: لدى غربه منا ولا متقرب.

وكمالاته الروحيه والمعنويه لا تمنحى ولا تتلاشى بسرعه.

وقد كانت موده «أبى طالب» لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وحبّه الشديد له تنبع من كلا هذين الدافعين.

فقد كان «أبو طالب» يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ويرى فيه من جانب الإنسان الكامل، بل يعتبره فى قمه الكمال الانسانى، ومن جانب آخر كان «محمد» ابن أخيه، وقد أحله ذلك من قلبه محلّ الابن والأخ.

لقد كانت لصفات «محمد» وخصاله المعنويه والأخلاقية، وطهره مكانه كبرى فى قلب عمه «أبى طالب» إلى درجه أنه كان يصطحبه معه إلى المصلّى، ويستسقى به أى أنه يقسم على الله بمقامه أن يدفع عن الناس القحط والجذب وينزل عليهم الغيث، فكانت دعوته تستجاب من دون تأخير.

فقد نقل كثير من المؤرخين الحادثة التاليه:

قحط الناس فى «مكه» وحواليها سنه من السنين، ومنعت السماء والأرض بركاتهما عنهم بشكل عجيب، فمشت قريش بعيون باكيه إلى «أبى طالب» تطلب منه بالراح أن يستسقى لهم، وأن يذهب إلى المصلّى ويدعو ربّه لينزل عليهم المطر وينقذهم من تلك المحنه الصعبه.

فخرج «أبو طالب» وقد أخذ بيد غلام كأنه شمس دجن (دجنه) تجلت عنها غمامه، فأسند ظهره إلى الكعبه ورفع وجهه نحو السماء وقال: يا رب هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً، دائماً هاطلاً.

ويكتب المؤرخون أنّ السماء كانت صافيه لا غيم فيها أبداً ساعه استسقى «أبو طالب» برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن ما أن فرغ «أبو طالب» من دعائه إلّا وأقبلت السحاب فى الحال، وغطت سماء «مكه» وما حولها من المناطق القريبه إليها،

وأرعدت السماء وأبرقت ثم جرى غيث عظيم سالت به الأودية، وروت القريب والبعيد، وسرّ به الجميع ورضوا. (١)

وقد أشار «أبو طالب» في لاميته المعروفه إلى هذه الحادثه.

وقد أنشأ «أبو طالب» تلك القصيده في أحلك الظروف وأشدّها، يوم زادت قريش من ضغوطها على حامى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليسلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليها.

وقد ذكّر فيها «أبو طالب» قريشاً بحادثه الاستسقاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الإسلام وكيف أنها أمطرت ببركته، بعد قحط طويل، وجذب مهلك، كاد يبيد الحرث والضرع، وذلك عندما يقول:

وابيض يُستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمه للأرامل

تلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمه وفواضل

وقد نقل «ابن هشام» في سيرته (٢) أربعة وتسعين بيتاً من هذه القصيده، فيما أورد «ابن كثير» الشامى في تاريخه (٣) اثنين وتسعين بيتاً فقط.

وهى قصيده فى منتهى الروعه والعذوبه، وفى غايه القوه والجمال، وتفوق فى هذه الجهات كلّ المعلقات السبع التى كان عرب الجاهليه يفتخرون بها، ويعدونها من أرقى ما قيل فى مجال الشعر والنظم.

وقد أورد «أبو هفان العبدى» الجامع لديوان «أبى طالب» مائه وواحد وعشرين بيتاً من هذه القصيده فى ذلك الديوان، ويمكن أن تكون كلّ تلك القصيده وتامها.

ص: ٥٧٢

١- . لاحظ: بحار الأنوار: ١٨/٢ و ٣؛ السيره الحلبيه: ١/١٩٠.

٢- . السيره النبويه: ١/١٧٦-١٨٠.

٣- . البدايه والنهايه: ٣/٧٠-٧٤.

ونحن نورد هنا أبياتاً متفرقة من هذه القصيدة مما يتصل منها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصورة صريحه.

كَذِبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ نَبَزِي مُحَمَّدًا وَلَمَا نَطَاعِنَ دُونَهُ وَنَنَاضِلَ (١)

وَنُسَلِمُهُ حَتَّى نُصَرِّعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَن أُنْبَائِنَا وَالْحَلَالِئِلِ

لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجِدًا بِأَحْمَدٍ وَإِخْوَتَهُ دَأْبَ الْمَحَبِّ الْمَوَاصِلِ

فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا وَزَيْنًا لِمَن وَالَاهُ رَبُّ الْمَشَاكِلِ (٢)

فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤَمِّلٍ إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضِلِ

حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ يُوَالِي الْإِهَاءَ لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلٍ

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ إِبْنَنَا لَا مَكْذِبَ لَدِينَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبْطَلِ

فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدٌ فِي أُرُومِهِ تَقْصُرُ عَنْهُ سُورَةُ الْمَتَطَاوِلِ (٣)

حَدِبْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتَهُ وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذُّرَا وَالْكَلاَكِلِ (٤)

فَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ وَأَظْهَرَ دِينًا حَقُّهُ غَيْرَ بَاطِلِ (٥)

التغيير في برنامج السفر

لم يكن يمض أكثر من اثني عشر ربيعاً من عُمر «محمد» بعد، عندما أراد «أبو طالب» التوجه إلى الشام مع قافلة قريش التجاربه.

وعندما استعدت القافلة لمغادره مكه ودق جرس الرحيل، أخذ «محمد»

ص: ٥٧٣

١- . أَي نُغَلَبَ عَلَيْهِ.

٢- . الْمَشَاكِلُ: الْعَظِيمَاتُ مِنَ الْأُمُورِ.

٣- . السُّورَةُ: الشَّدَّةُ وَالْبَطْشُ.

٤- . الذُّرَا: جَمْعُ ذُرْوَةٍ وَهِيَ أَعْلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ.

٥- . رَاجِعِ السِّيَرَةَ النَّبَوِيَّةَ: ١٧٧-١٨٠.

فجأه بزمام الناقه التي كان يركبها عمه وكافله «أبو طالب» بينما اغرورقت عيناه صلى الله عليه وآله وسلم بالدموع وقال:

«يا عم إلى من تكلني، لا- أب لى ولا- أم»؟. هذا المشهد المؤثر وبخاصة عند ما رأى «أبو طالب» عيني محمداً وقد اغرورقت بالدموع، فعل فعلته في نفس العم الكافل الحنون، فأنحدرت عبرات العطف من عينيه وقزرت من فوره ومن دون سابق تفكير في الموضوع أن يصطحب ابن أخيه «محمداً» معه في هذا الرحله، ومع أنه لم يحسب لهذا الأمر - من قبل - أى حساب، فإن «أبو طالب» قبل بأن يتحمل كل ما يترتب على قراره هذا، فحمله معه على ناقته، وبقي يفكر في أمره، ويدبر شأنه، ويحافظ عليه طوال تلك الرحله، وشهد منه أثناء الطريق كرامات وخوارق، وقد أنشأ في ذلك قصيدة موجودة في ديوان أبي طالب، ومطلع هذه القصيده هو:

إن ابن آمنه النبي محمداً عندي يفوق منازل الأولاد(1)

أبو طالب والدفاع عن حوزة العقيدة والإيمان

ليست هناك قوة تساعد على الثبات والمقاومه، والصمود والاستقامه، مثل قوه الإيمان، فالإيمان بالهدف هو العامل القوي وراء تقدم الإنسان في ميدان الحياه، فهو الذي يهضم في نفسه كل الآلام والمتاعب، ويدفع بالمرء إلى المضي قدماً في طريق الوصول إلى أهدافه المقدسه، حتى ولو كلفه ذلك التعرض للموت.

إن الجندى المسلح بقوه الإيمان منتصر لا محاله.

ص: ٥٧٤

١- . لاحظ: إيمان أبي طالب للشيخ المفيد: ٣٦؛ ديوان أبي طالب: ٣٣-٣٥؛ تاريخ ابن عساكر: ١٠/١.

إنَّ الجندىَّ الذى يعتقد بأنَّ الموت فى طريق العقيدة هو عين السعادة لا بدَّ أن يحرز النصر.

إنَّ على الجندى - قبل أن يسلِّح نفسه بسلاح العصر - أن يتزوَّد فى قلبه من طاقه الإيمان بالهدف، ويضئ قلبه بمصباح الاعتقاد بالحقيقه، وحبِّها، ويجب أن يكون جهادُه وصلحُه من أجل العقيدة والدفاع عن حوزتها، وكيانها.

إنَّ أفكارنا وعقائدنا نابعه من روحنا، وفى الحقيقه أنَّ فكر الإنسان وليد عقله، فكما أنَّ الإنسان يحبُّ ولده حباً شديداً كذلك يحب أفكاره التى هى ولاءد عقله وروحه، بل إن حبَّ الإنسان لعقيدته أكثر من حبِّه لأولاده، ولهذا فهو يدافع عن عقائده حتَّى الموت، ويغضى - فى سبيل الدفاع عن حوزة العقيدة والحفاظ عليها - عن كلِّ شئء بينما هو غير مستعدَّ لأن يضحى بنفسه فى سبيل الحفاظ على أولاده.

إنَّ حب المرء للمال والمنصب حبُّ محدود، فهو ينساق مع هذا الحبِّ مادام لم يهدد حياته خطرُ الموت الحقيقى، ولكنَّه مستعد لأن يمضى - فى سبيل الدفاع عن حياض العقيدة - إلى حدِّ الموت، ويؤثر الموت الشريف فى سبيل العقيدة على الحياه، ويرى الحياه الحقيقه والواقعيه فى وجود الرجال المجاهدين، وهو يردد:

«إنَّما الحياه عقيدته و جهاد».(1)

ولنلق نظره فاحصه على حياه بطل حديثنا (ونعنى به المدافع الوحيد عن الإسلام وحامى الرسول الأوحد فى بدايات عهد الرساله) فماذا كان دافعه إلى هذا

ص: ٥٧٥

١- . المراد من العقيدته المقدَّسه هو بطبيعته الحال ما تذوب «الأنا» فيها فى التوحيد والإيمان بالله إذ هنا يصدِّق قوله: قف عند رأيك واجتهد إنَّ الحياه عقيدته و جهاد

الأمر، وما العذى كان يحركه فى هذا السبيل؟ وأى شىء كان وراء مضيئه فى هذا الطريق إلى حافه العدم، والغض عن النفس والنفس، والمقام، والقبيله وغير ذلك والتضحيه بكل ذلك فى سبيل «محمد» صلى الله عليه وآله وسلم.

إن من المتيقن أن دافعه إلى ذلك لم يكن المحرك المادى، وبالتالى لم يقصد من وراء الدفاع عن ابن أخيه، وحمائته، والحدب عليه، كسب أمر مادي كتحصيل مال وثروه، لأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له يومئذ مال، ولا ثروه.

وكما أن مقصود «أبى طالب» لم يكن أيضاً تحصيل مقام، وإحراز مكانه اجتماعيه؛ لأنه كان يملك فى ذلك المجتمع أعلى المناصب وأهمها، فقد كانت له رئاسه «مكه» والبطحاء، بل هو فقد منصبه وشخصيته الممتازه و مكانته المنقوله بسبب دفاعه عن «محمد»، وعدم الاستجابه لقومه فى تسليمه إليهم، والتخلّى عنه؛ لأن دفاعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد استوجب سخط زعماء قريش عليه واستياءهم من موقفه، وخرجهم عن طاعته، ودفعهم إلى التمادى فى معاداه «بنى هاشم» و «أبى طالب» والثوره عليهم!!

تصوّر باطل

ربما يتصور بعض ضعفاء البصيره أن عله حدب «أبى طالب» على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتضحيه فى سبيله بالنفس والنفس كانت هى: علاقه القربى، وشيجه الرّحم، أو بتعبير آخر: إن التعصب القبلى، والعصبيه القوميه هو العذى دفع بأبى طالب إلى أن يعرض نفسه لكل ذلك المكروه فى سبيل ابن أخيه.

ولكنّ هذا ليس سوى مجرد تصوّر باطل لا غير، ويتضح بطلانه بدراسه مختصره؛ لأنه لا تستطيع أياه وشيجه قربى على أن تدفع أحداً إلى أن يضحي بنفسه فى أحد أقربائه إلى هذه الدرجه من التضحيه والمفاداه، بحيث يقى مثلاً

ابن أخيه عليه، ويكون مستعداً لأن يتقطع ولده بالسيوف إرباً إرباً دون ابن أخيه.

إنَّ العصبِيَّاتِ القبليه والعائليه وإن كانت تدفع بالإنسان حَتَّى إلى حافه الموت، ولكن لا معنى لأن تختصَّ، هذه الحمايه الناشئه عن العصبيه العائليه والقبليه الشديده بفرد واحدٍ، وشخص خاص معيّن من أفراد العائله والقبيله، فى حين نجد «أبا طالب» قد قام بكلّ هذه التضحيه فى سبيل شخص واحد، وفرد معين (أى النبىؐ)، ولا يفعل مثل هذه فى سبيل غيره من أبناء «عبدالمطلب» و «هاشم» وأحفادهما ومَن ينتمى إليهم بوشيجه القربى وربطه الرحم.

الدافع الحقيقى لأبى طالب

وعلى هذا الأساس فإنَّ المحرّك والدافع الحقيقى لأبى طالب لم يكن أمراً مادياً ولا- الجاه والمنصب، أو التعصب القومى، والعائلى، بل كان أمراً معنوياً، وأنَّ ضغوط العدو وقوته كانت تدفعه إلى الاستعداد للقيام بأى نوع من أنواع التضحيه وذلك الأمر المعنوى هو اعتقاده الراسخ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعتبر «محمّداً» مظهراً كاملاً للفضيله والإنسانيه، ويعتبر دينه أفضل برنامج للسعاده، وحيث إنّه كان يحبُّ الحقيقه، ويعشق الكمال والحقّ، لذلك كان من الطبيعى أن يدافع عن الحقّ والحقيقه، وينصرهما بكلّ وجوده، وبكلّ قواه.

وهذا المعنى هو المستفاد من قصائد «أبى طالب» وأشعاره، فهو يصرّح بأنَّ «محمّداً» رسولٌ كموسى وعيسى إذ يقول:

لِيَعْلَمَ خِيَارُ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا وَزِيرَ لِمُوسَى وَ الْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ

أَتَانَا يَهْدِي مِثْلَ مَا أَتَى بِهِ فَكَلَّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِي وَ يَعْصِمُ (١)

ويقول في قصيده أُخرى:

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا نَبِيًّا كَمُوسَى خَطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ (٢)

هذا وتعتبر أبياته التي سبق أن أشرنا إليها والكثير من أمثالها ممّا جاء ذكره في ديوان أبي طالب، وفي ثنايا التاريخ والتفسير والحديث شواهد حيّة وقوية على أنّ محرّك «أبي طالب» الواقعي ودافعه الحقيقي إلى الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان هو اعتقاده الخالص، وإسلامه الواقعي ولم يكن له أي دافع آخر سوى الإيمان والعقيدة.

ونحن هنا نكشف النقاب عن بعض مواقفه في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحمايته بعد اضطلاله بعبء الرسالة، ونترك لك أيها القارئ بأن تدقّق في مثل هذه المواقف الفدائية ثم تقضى بنفسك: هل تنبع مثل هذه التضحية، ومثل هذا التفاني، والفداء إلّا من الإيمان والاعتقاد؟

لمحات من تضحيات أبي طالب

اجتمع أسياد قريش وأشرفها في بيت أبي طالب والنبى صلى الله عليه وآله وسلم حاضر، وتبدلت بين الجانبين أحاديث حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودينه وما خلق من مشكلات في مكّ، وحاول القرشيتون إثناء النبى عن دعوته وعمله ولكن دون

ص: ٥٧٨

- ١- مجمع البيان: ٤/٣٢؛ مستدرک الحاكم: ٢/٦٢٣ و ٦٢٤. وفي أعيان الشيعة: ٤/١٢١: (نظير) بدل (وزير).
- ٢- مجمع البيان: ٤/٣١. وقد نقل ابن هشام في السيرة النبوية: ١/٢٣٥-٢٣٦ خمسة عشر بيتاً من هذه القصيدة.

جدوى، فلما يسوا من الحصول على النتيجة التي كانوا يريدونها نهضوا من مكانهم ليركوا بيت «أبي طالب» قال «عقبه ابن أبي معيط» غاضباً مهدداً: لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن نغتال محمداً!!

فلما كان مساء تلك الليلة فقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجاء «أبو طالب» وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع فتياً من بني هاشم وبني المطلب، ثم قال - وهو يظن أن قريشاً كادت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليأخذ كل واحد منكم حديده صارمه ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم، فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية - يعنى أبا جهل - فإنه لم يغب عن شر إن كان محمداً قد قتل، فقال الفتيان: نفعل فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال فقال: يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال: نعم كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه.

فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في بيت عند الصفا ومع أصحابه يتحدثون فأخبره الخبر، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي طالب فقال: يا ابن أخي: أين كنت؟ أكنت في خير؟ قال: نعم، قال: أدخل بيتك، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أصبح أبو طالب غداً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ بيده فوقف على أنديه قريش ومع الفتيان الهاشميون والمطلبيون فقال: يا معشر قريش هل تدرن ما هممتُ به؟

قالوا: لا، فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان اكشفوا عما في أيديكم، فكشفوا، فإذا كل رجل منهم معه حديده صارمه. فقال: والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم، فانكسر القوم، وكان أشدهم انكساراً أبو جهل. (1)

ص: ٥٧٩

لو لاحظت أيها القارئ الكريم هذه الصفحات وغيرها من تاريخ «أبي طالب»، ودرست حياته لرأيت كيف أن «أبا طالب» ظلّ طوال اثنين وأربعين سنة بأيامها ولياليها يحدث على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويدافع عنه، ويحامي، وبخاصه في السنوات العشر الأخيرة من حياته التي صادفت بعثته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته، فقد أظهر من الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والحرص على حياته، وحمايه هدفه أكثر ممّا يُتصوّر. ولقد كان العامل الوحيد الذي دفعه إلى مثل هذا الموقف الراسخ العظيم في هذا السبيل هو: عمق الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقوه الاعتقاد الخالص برسالته.

ولو أننا ضممنا إلى تضحياته الشخصية تضحيات ولده العزيز «عليّ» لأدر كنا مغزى البيتين اللذين أنشدهما «ابن أبي الحديد» المعتزلي الشافعي إذ قال:

ولولا أبوطالب وابنه لما مثل الدين شخصاً وقاما

فذاك بمكّه آوى و حامى و هذا ييثرَب جَسَّ الحماما(١)

تكفير أبي طالب قضيه ذات بواعث سياسيّه:

ليس من ريب في أنّه لو ثبت عشر هذا القدر من الشواهد الدالّة على إسلام «أبي طالب» وإيمانه بالرسالة المحمّديه، لغيره ممّن هو بعيدٌ عن قضايا السياسه، وخارج عن دائره الحقد والبغض لاتفق الجميع سنّه وشيعه على إسلامه وإيمانه، ولكن كيف ذهب فريقٌ إلى تكفير «أبي طالب» مع كلّ هذه الشواهد القويّه القاطعه على إيمانه، حتّى أنّ فريقاً من الكتّاب ذهب إلى أنّ بعض الآيات المشعره بالعذاب

ص: ٥٨٠

١- . شرح نهج البلاغه: ١٤/٨٤ يقول ابن أبي الحديد: صنّف بعض الطالبين في هذا العصر كتاباً في إسلام أبي طالب، وبعثه إليّ، وسألني أن أكتب عليه بخطي نظماً أو نثراً أشهد فيه بصحّه ذلك، وبوثاقه الأدلّه عليه (إلى أن قال): فكتبت على ظاهر المجلد هذه الأبيات.

نزلت في شأنه؟!

بينما توقّف في هذا الأمر، وذهب أفراد معدودون من علماء السنّة إلى الحكم بإسلامه وإيمانه، ومنهم «زيني دحلان» مفتي مكّة المتوفّي سنة ١٣٠٤ من الهجره.

ولكن الإنصاف هو أن يقال: إنّ الهدف من طرح هذه المسأله والتوقّف في إيمان «أبي طالب» أو تكفيره لم يكن إلّا الطعن في أبنائه، وبخاصّه أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام.

ولقد جرّ بعض كتّاب السنّة - لتبرير تكفير أبي طالب - هذه المسأله إلى غير أبي طالب ووسع دائره التكفير هذه حتّى شملت آباء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً حيث ذهب إلى أنّ أبوي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ماتا كافرين أيضاً.

ونحن لا يهمننا هنا أن نعلم بأنّ تكفير والدي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مخالفتُ لإجماع الإماميه والزيديه، وكذا جماعه من علماء السنّة، ومحقّقهم، إنّما الكلام هو حول من اتّهموا ببساطه متناهيه حامى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الوحيد والمدافع عنه بلا منازع.

الأدلة على إيمان أبي طالب

إشاره

إنّ التعرّف على عقيدته أحد، ومعرفه نمط تفكيره، يمكن عن ثلاث طرق هي:

١. دراسه ما ترك من آثار علميه وأدبيه.

٢. أسلوب عمله، وتصرفاته في المجتمع.

٣. رأى أقربائه، وأصدقائه غير المغرضين فيه.

ونحن نستطيع أن نتعرّف على إيمان «أبي طالب» وعقيدته من خلال هذه الطرق.

ص: ٥٨١

فإن أشعار «أبي طالب» تدلّ بجلاء لا لبس فيه على إيمانه وإخلاصه، وكذا تكون خدماته القيمه في السنوات العشر الأخيره من عمره شاهداً قوياً على إيمانه العميق.

كما وأن رأى أقربائه المنصفين متفق على أنّ «أبا طالب» كان مسلماً مؤمناً ولم يقل أحد من أقربائه، في حقه بغير هذا أبداً.

وإليك إثبات هذا الموضوع عن هذه الطرق الثلاث على وجه التفصيل:

الطريق الأول: آثار أبي طالب العلميه والأدبيه

نحن نختار هنا من بين قصائد «أبي طالب» المطوّله، بعض الأبيات التي تثبت إيمانه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واعتقاده بالإسلام، من غير إبهام.

١. لِيَعْلَمَ خِيَارُ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا وَزِيرَ لِمُوسَى وَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ

أَنَا بَهْدِي مِثْلَ مَا أَتَى بِهِ فَكُلُّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِي وَيَعْصِمُ (١)

٢. تَمَنَيْتُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُ وَإِنَّمَا أَمَاثِكُمْ هَذِي كَأَحْلَامِ نَائِمٍ

نَبِيٌّ أَتَاهُ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ وَمَنْ قَالَ لَا يَقْرَعُ بِهَا سِنَّ نَادِمٍ (٢)

٣. أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا نَبِيًّا كَمُوسَى خُطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ

وَ أَنَّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةً وَ لَا حَيْفَ فِي مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْحُبِّ (٣)

ص: ٥٨٢

١- مجمع البيان: ٤/٣٢؛ مستدرک الحاكم: ٢/٦٢٣؛ أعيان الشيعة: ٤/١٢١، وفيه (نظير) بدل (وزير).

٢- ديوان أبي طالب: ٣٢؛ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ١٤/٧٣.

٣- ديوان أبي طالب: ٣٢؛ بحار الأنوار: ٣٥/١٥٩؛ السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٣٤.

٤. وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أُوَسِّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا

فَأَمْضَى لِأَمْرِكَ مَا عَلَيْنِكَ غَضَاضُهُ وَابْشِرْ وَقَرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيُونَا

وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحٌ وَلَقَدْ دَعَوْتُ وَكُنْتُ ثُمَّ أَمِينَا

وعرضت ديناً قد عرفت بأنه من خير أديان البرية ديناً (١)

٥. أَوْتُومِنُوا بِكِتَابِ مَنْزِلِ عَجَبٍ عَلَى نَبِيِّ كُمُوسَى أَوْ كَذَى النُّونِ (٢)

٦. لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذِّبٌ لَدِينَا وَلَا يَعْنِي بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

فَأَيْدِهِ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ وَأَظْهَرَ دِينًا حَقَّهُ غَيْرُ بَاطِلٍ (٣)

إِنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقْطُوعَاتِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي تَشَكَّلُ قِسْمًا صَغِيرًا مِنْ قِصَائِدِ مَفْصَلِهِ لِأَبِي طَالِبٍ، تَشْهَدُ بِإِيمَانِهِ بِدِينِ ابْنِ أَخِيهِ «مُحَمَّدٍ» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وخلاصه القول: إِنَّ بَيْنًا وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ كَافٍ فِي إِثْبَاتِ إِيْمَانِ صَاحِبِهَا وَقَائِلِهَا، وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا قَالَهَا وَهُوَ خَارِجٌ عَنِ فَلَكَ الصَّرَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، وَبَعِيدٌ عَنِ دَوَائِرِ التَّعَصُّبَاتِ وَالْأَغْرَاضِ لِحُكْمِ الْجَمِيعِ - بِالِاتِّفَاقِ - بِإِسْلَامِ قَائِلِهِ وَإِيْمَانِهِ الْخَالِصِ الْعَمِيقِ.

ولكن لما كان «أبو طالب» هو قائلها، وكانت الأجهزة الدعائية في الحكومات الأموية والعباسية تعمل بكل جهدها ضد آل «أبي طالب» من هنا أبي فريق من الناس أن يُثبتوا مثل هذه الفضيلة الكبرى لأبي طالب عليه السلام. هذا من جانب.

ص: ٥٨٣

١- . البدايه والنهايه: ٣/٥٦.

٢- . شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ١٤/٧٤؛ ديوان أبي طالب: ١٧٣.

٣- . السيره النبويه لابن هشام: ١/١٨٠.

ومن جانب آخر فإنّ أبا طالب والد «علي» الذي كانت سلطات الخلفاء تعمل ضده على الدوام، وتستغل كل الوسائل للحط من شأنه، كان إسلام أبيه وإيمانه بالرسالة المحمدية يُعدُّ فضيله بارزه من فضائله عليه السلام في حين أنّ كفر آباء الخلفاء وشركهم يعدُّ مثله توجب الحط من شأنهم، وقيمتهم.

وعلى كلّ حال قام جماعه بتكفير أبي طالب رغم كلّ هذه الأشعار والأقوال، والمواقف الصادقه، بل لم يكتفوا بذلك، فادّعوا نزول آيات من القرآن تدلّ على كفره، وشركه!!!

الطريق الثاني: دفاع أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحمایته له

إشارة

إنّ الطريق الثاني للبرهنه والتدليل على إيمان «أبي طالب» هو مواقفه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكيفيه دفاعه وذبه عنه وحمایته له، وحده به عليه صلى الله عليه وآله وسلم وما قام به من خدمات جليله في هذا الطريق.

إنّ كلّ واحده من هذه الخدمات تستطيع بمفردها أن تكون المرآه الصادقه التي تعكس فكر «أبي طالب» وعقيدته وما كان يحمله بين جوانحه من إيمان بالرسالة والرسول، وإخلاص لله تعالى.

لقد كان «أبو طالب» هو ذلكم الشخصيه التي لم يرض لنفسه بأن ينكسر قلب ابن أخيه لتركه في مكه، واصطحبه معه إلى الشام في الرحله التجاريه التي سبق ذكرها، رغم الموانع الكثيره، وفقدان الوسائل اللانزمه، ورغم ما ترتّب على اصطحابه معه من متاعب.

إنّ إيمانه بابن أخيه كان عميقاً إلى درجه أنّه أخذه إلى المصلّى واستسقى به، مقسماً به على الله تعالى أن يكشف العذاب عن قومه، ويرسل رحمته عليهم، فيستجيب الله دعاءه، وينزل عليهم غيثاً وافراً ممرعاً، بقيت قصته في ذاكره التاريخ.

إنه ذلك الرجل العذى لم يفتأ عن الحفاظ على حياه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحظه واحده، فهو العذى تحمّل في سبيله ثلاثه أعوام عجاف من الحصار الاقتصادي والاجتماعى الصعب، مؤثراً العيش في الشعب وفي شغاف الجبال والوديان القاحله على زعامه قريش، وراثسه مكّه إلى أن أعيته تلك المحن والمتاعب ففقد بذلك صحته، وانحرف بذلك مزاجه، وتوفّى متأثراً بتلك المتاعب والمصاعب، والمشاق والمحن بعد نقض الصحيفه، وانتهاء الحصار، والعوده إلى المنازل بأيام معدوده!!

لقد كان إيمان «أبى طالب» برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوياً وراسخاً إلى درجه أنه رضى بأن يتعرّض كل أبنائه لخطر القتل والاعتقال ليقى «محمّد» ولا يمسه من أعدائه أى سوء، فكان يضحج ولده علياً فى موضعه، حتّى إذا أرادوا إغتياله لا يصيبه شىء، وهذا يعنى أنه كان يقيه بنفسه وبأولاده.

وفوق هذا كلّه استعدّ فى يوم من الأيام لأن يقتل كلّ زعماء قريش وأسيادها انتقاماً لمحمّد، وكان من الطبيعى أن يقتل فى هذا العمله بنو هاشم كلّهم أيضاً. (١)

وصيه أبى طالب عند وفاته

وعند وفاته قال لأولاده:

«أوصيكم بمحمّد خيراً فإنه الأمين فى قريش، وهو الجامع لكلّ ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافه الشنثان، وأيم الله لكأنى انظر إلى صعاليك العرب، وأهل البرّ فى الأطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدّقوا كلمته، وعظّموا أمره فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش و صناديدها أذناً، ودورها خراباً، وضّعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه

ص: ٥٨٥

أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده...».

ثم ختم وصيته هذه بقوله:

يا معشر قريش كونوا له ولاءً، ولحزبه حماةً، والله لا يسلك أحدٌ منكم سبيله إلّا رشد، ولا يأخذ أحدٌ بهديه إلّا سعد. (١)

نحن لا نشكّك في أنّ «أبا طالب» كان صادقاً في أمّيته هذه لأنّ خدماته الكبرى وتضحياته المتواصله خلال عشر سنوات من بدايه عهد الرساله شاهده على صدق مقاله، كما كان صادقاً في الوعد الذي قطعه على نفسه لابن أخيه (محمد) في مبدأ البعثه عندما جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعمامه وعشيرته الأقربين ودعاهم إلى الإسلام فقال له أبوطالب:

«أخرج يا ابن أخي فإنّك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً، والأعلى أباً.

والله لا يسليقك لسانٌ إلّا سلقته ألسن حداد، واجتذبتة سيوف حداد.

والله لتذللنّ لك العرب ذلّ البهيم لحاضنها». (٢)

الطريق الثالث: رأى أقربائه وأصدقائه

ويحسن بنا أخيراً أن نسأل عن أبي طالب وعن إيمانه وإخلاصه، أقاربه غير المغرضين لأنّ «أهل البيت أدرى بما في البيت».

١ - لَمَّا مات أبوطالب جاء عليّ عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأذنه بموته، فتوجّع

ص: ٥٨٦

١- . السيره الحلبيه: ٢/٤٩-٥٠.

٢- . الطرائف تأليف السيد ابن طاووس: ٣٠٢ برقم ٣٨٨، نقلاً عن كتاب «نهايه الطلب وغايه السؤل في مناقب آل الرسول» تأليف إبراهيم بن عليّ الدينوري الحنبلي.

توجَّعاً عظيماً، وحزن حزناً شديداً، ثم قال له: امض فتولَّ غسله فإذا رفعته على سريريه فأعلمني، ففعل، فاعترضه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو محمول على رؤوس الرجال: قال: «وصلتك رحم يا عم، وجزيت خيراً فلقد ربَّيت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً».

ثم تبعه إلى حفرتة، فوقف عليه فقال:

«أما والله لأستغفرنَّ لك، ولأشفعنَّ فيك شفاعَةً يعجبُ لها الثقلان».(١)

٢. روى أن علي بن الحسين عليهما السلام سئل عن إيمان أبي طالب؟ فقال:

«واعجباً! إنَّ الله تعالى نهى رسوله أن يقرَّ مسلمه على نكاح كافر، وقد كانت فاطمه بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات».(٢)

٣. روى عن محمد بن علي الباقر عليهما السلام أنه قال:

«لو وُضِعَ إيمان أبي طالب في كفه ميزان، وإيمان هذا الخلق في الكفه الأخرى لرجح إيمانه».

ثم قال:

«ألم تعلموا أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يأمر أن يُحجَّ عن عبد الله وأبيه أبي طالب في حياته، ثم أوصى في وصيته بالحج عنهم».(٣)

٤. قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام:

«إنَّ أصحاب الكهف أسروا الإيمان، وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم

ص: ٥٨٧

١- . شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ١٤/٧٦.

٢- . شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ١٤/٦٩.

٣- . شرح نهج البلاغه: ١٤/٦٨.

مرّتين، وإنّ أبا طالب أسرّ الإيمان، وأظهر الشرك، فأتاه الله أجره مرّتين». (١)

رأى علماء الشيعة فى أبى طالب

ولقد اتّفق علماء الإماميّة والزبيديّ تبعاً لأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على: أنّ «أبا طالب» كان من أبرز المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يخرج من الدنيا إلّا بقلب يفيض إيماناً بالإسلام، وإخلاصاً لله تعالى، وحبّاً للمسلمين، وقد أُلّفَت فى هذا المجال كتب ورسائل، ودراسات عديدة، يمكن الوقوف عليها لمن أراد. (٢)

نظرة إلى حديث «الضحاح»

إشاره

واستكمالاً لهذا الحديث ينبغي أن نلقى نظره إلى روايه تشكّك فى إيمان أبى طالب، فقد روى بعض الكتّاب مثل البخارى، ومسلم عن رواه نظير سفيان بن سعيد الثورى، عبدالملك بن عمير، عبدالعزيز بن محمّد الدراوردي حديثاً نسبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال عن أبى طالب رحمه الله:

«وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضحاح» (٣)

«لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحاح من النار يبلغ كعبه، يغلى منه دماغه» (٤)

إنّ هذه الروايه وإن كانت تكذبها عشرات الأحاديث والروايات الإسلاميه، والدلائل القاطعه الساطعه، وثبتت بطلانها وتفاهتها، ولكننا بهدف الوصول إلى

ص: ٥٨٨

١- شرح نهج البلاغه: ١٤/٧٠؛ بحار الأنوار: ٣٥/١١١.

٢- راجع: الغدير: ٧/٣٣٠-٤٠٩، طبعه دار الكتاب العربى، بيروت؛ وص ٤٠٢-٤٠٤ طبعه النجف الأشرف.

٣- صحيح مسلم: ١/١٣٥، باب أهون أهل النار عذاباً، كتاب الإيمان.

٤- صحيح البخارى: ٤/٢٤٧، باب قصه أبى طالب.

مزید من التوضیح نعملد إلی دراسه أمرین مرتبطین بهذا الحدیث.

١. ضعف أسناد هذه الروایه

إن رواه هذه الروایه - كما أسلفنا - هم عباره عن سفیان بن سعید الثوری و عبد الملك بن عمیر و عبد العزيز بن محمد الدراوردی الذین سندرس أحوالهم واحداً واحداً على ضوء أقوال علماء الرجال المعترف بهم عند أهل السنّه، حیث قالوا:

ألف. سفیان بن سعید الثوری

قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - وهو من علماء الرجال البارزين عند أهل السنّه - فی سفیان الثوری: كان يدلّس عن الضعفاء. (١)

إنّ هذا الكلام شاهد قوى على وجود التدلّيس عند الثوری، وعلى روايته عن الضعفاء أو المجهولين، وهو وصف يُسقطه عن درجه الاعتبار.

ب. عبد الملك بن عمیر

قال عنه الذهبيّ: طال عُمره وساء حفظه، قال أبو حاتم: ليس بحافظ، تغيّر حفظه، وقال أحمد: ضعيف يغلط، وقال ابن معين: مخلط، وقال ابن خراش: كان شعبه لا يرضاه، وذكر الكوسج عن أحمد بن حنبل: أنّه ضعيف جداً. (٢)

فمن مجموع هذه العبارات نعرف أنّ عبد الملك كان يتّصف بصفات عديده هي أنّه:

١. سيّئ الحفظ.

ص: ٥٨٩

١- . ميزان الاعتدال: ٢/١٦٩.

٢- . ميزان الاعتدال: ٢/٦٦٠.

٢. ضعيف.

٣. كثير الغلط.

٤. مخلط.

ومن الواضح أنّ كلّ واحده من الصفات والحالات المذكوره كافيّه لأن تبطل الأحاديث التي يرويها عبدالمملك بن عمير، والحال أنّه قد اجتمعت جميع نقاط الضعف هذه في هذا الرجل. ج. عبدالعزيز بن محمد الدراوردي

ولقد وصفه علماء الرجال عند أهل السنّه بالنسيان، وقله الحفظ فلا يمكن الاستناد إلى مروياته.

فقد قال أحمد بن حنبل عنه: إذا حدّث من حفظه جاء بأباطيل.

وقال أبو حاتم عنه: لا يُحْتَجُّ به.

وقال أبو زرعه أيضاً: سيئ الحفظ. (١) ومن مجموعه هذه العبارات يتضح بجلاء أنّ الرواه الأصليين لحديث الضحضاح ضعفاء في غايه الضعف، إلى درجه لا يمكن الاعتماد على مروياتهم.

٢. نصّ حديث الضحضاح يخالف الكتاب والسنّه

لقد نُسب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الروايه أنّه أخرج أبا طالب من نار جهنم إلى ضحضاح وبهذا خفّف عنه العذاب، أو أنّه صلى الله عليه وآله وسلم تمنّى أن يشفع له، فيخفّف الله عنه العذاب، على حين نفى القرآن الكريم والسنّه النبويه الشريفه تخفيف العذاب عن الكفّار كما ونفيا شفاعه أحد في حقّهم.

ص: ٥٩٠

وعلى هذا الأساس فلو كان أبوطالب كافراً، لم يجز للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخفف عنه العذاب، أو يتمنى له الشفاعة في يوم الجزاء.

وبهذا يظهر بطلان محتوى حديث الضحاح.

وإليك فيما يأتي أدلّه ما قلناه من الكتاب والسنة:

ألف: القرآن الكريم

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد:

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ» (١).

ب: السنة النبويه

إنّ السنة النبويه الطاهره تنفى أيضاً الشفاعة للكفار، ونذكر من باب النموذج بعض تلك الأحاديث:

١. روى أبوذر الغفاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال:

«أُعْطِيتِ الشَّفَاعَةَ وَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا» (٢).

٢. روى أبو هريره عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال:

«وَشَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَصَدِّقُ لِسَانُهُ قَلْبَهُ، وَقَلْبُهُ لِسَانَهُ» (٣).

إنّ الآيات والروايات المذكوره تثبت بوضوح بطلان نصّ حديث

ص: ٥٩١

١- فاطر: ٣٦.

٢- مسند أحمد: ٥/١٦٢؛ الترغيب والترهيب: ٤/٤٣٣.

٣- مسند أحمد: ٢/٣٠٧؛ الترغيب والترهيب: ٤/٤٣٧.

الضحضاح عند مَنْ يقول بأنّ أبا طالب مات كافراً.

ونتيجة البحث: أنّه تبين ممّا ذكر أنّ حديث الضحضاح لا أساس له من الصّحّة لا من جهة السند والطريق، ولا من جهة المتن والنصّ، ولا يمكن الاستدلال به.

وبهذا ينهار أقوى حصن يتمسكُ به البعض للخدشه في إيمان أبي طالب الثابت المسلم.

ص: ٥٩٢

المعراج في نظر القرآن والسنة والتاريخ

كان الليل يخيم على الأفق، ويسود الظلام على كل مكان.

فقد حان الأوان لأن ترقد جميع الأحياء في مساكنها، وتستريح في جحورها وأعشاشها، وتغمض الأجفان لبعض الساعات عن مظاهر الطبيعة، لتستعيد نشاطها من أجل العمل في يوم جديد حافل بالنشاط والحركة والسعي.

فذلك قانون الطبيعة في كل ليل ونهار.

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمستثنى عن هذا الناموس الطبيعي.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم مضى ليستريح بعد أن صلى صلاة العتمه أيضاً.

ولكنه فجأة سمع صوتاً مألوفاً مأنوساً له، وكان ذلك هو صوت أمين الوحي «جبرئيل» وهو يخبره بأن أمامه الليلة سفراً بعيداً ورحله طويلاً، وأنه سيرافقه في هذا الرحلة إلى مختلف نقاط الكون، وسيسافر على متن دابه فضائية تدعى «البراق».

لقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رحلته الفضائية العظيمة من بيت أخت علي بن أبي طالب (١) «أم هاني»، وتوجه على متن تلك الدابة إلى «بيت المقدس» في الأردن

ص: ٥٩٣

وفلسطين والذى يُسمّى «المسجد الأقصى» أيضاً، وهبط في تلك النقطة بعد مده قصيره جداً، وزار مواضع عديده من ذلك المسجد، وتفقد «بيت لحم» مسقط رأس «السيد المسيح» ومنازل الأنبياء وآثارهم ومحاريبهم، وصلى عند كل محراب من بعض تلك المحاريب ركعتين.

ثم بدأ بعد ذلك القسم الثانى من رحلته، حيث عرج من ذلك المكان إلى السماوات العلى، وشاهد النجوم والكواكب، واطلع على نظام العالم العلوى، وتحدث مع أرواح الأنبياء، والملائكة السماويين، واطلع على مراكز الرحمه والعذاب (الجنة والنار) (1) ورأى درجات أهل الجنة، وأشباح أهل النار عن كتب، وبالتالي تعرف على أسرار الوجود، ورموز الطبيعه، ووقف على سعه الكون، وآثار القدره الإلهيه المطلقه، ثم واصل رحلته حتى بلغ إلى سدره المنتهى (2)، فوجدها مسربله بالعظمه المتناهيه والجلال العظيم وعندها انتهى برنامج رحلته صلى الله عليه وآله وسلم، فأمر بأن يعود من حيث أتى فعاد صلى الله عليه وآله وسلم في عودته على بيت المقدس ثانيه، ثم توجه منه إلى «مكه»، ومرّ خلال الطريق على قافله تجاريه لقريش وقد ضلّ بعير لهم في البيداء وكانوا يبحثون عنه، ثم وجد في رحلهم قعباً مملوء من الماء فشرب منه وصبّ بقيته على الأرض أو غطاه كما كان بناء على روايه. وترجّل عن مركبته الفضائيه العجيبه في بيت «أمّ هانئ» قبيل طلوع الفجر، وأخبرها بالخبر قبل أى أحد، ثم كشف عن هذا الحادث في أنديه قريش صباح نفس تلك الليله.

فاستبعد السامعون قصه المعراج والحركه السريعه هذه، واعتبروه أمراً محالاً وأنكروه، وفشا هذا الخبر في جميع الأوساط وغضب بسببه أشراف قريش وساداتهم أكثر من غيرهم.

ص: ٥٩٤

- ١- . لاحظ: مجمع البيان: سورة الإسراء: ٦/٢١٥.
- ٢- . لتوضيح معنى سدره المنتهى راجع كتب التفسير.

وكعادتها بادرت قريش إلى تكذيب هذه القصه وقالوا: هذا والله الأمر البين (العجيب المنكر) والله إن العير لتطرد شهراً من مكه إلى الشام مدبره، وشهراً مقبله، أفذهب ذلك «محمداً» في ليله واحده؟

وقالوا: إن صدقت فصف لنا بيت المقدس، فإن فينا من شاهده.

فلم يصف لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيت المقدس فحسب بل أخبرهم بكل ما مر به وفعله ورآه في طريق عودته من بيت المقدس إلى «مكه» وقال: وآيه ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا، وقد ضل لهم بعير وقد هموا في طلبه، وشربت من ماء في آنيه لهم مغطاه بغطاء ثم غطيت عليها كما كان، ثم مررت بعير بنى فلان وقد نفرت لهم ناقه وانكسرت يدها.

فقال قريش: أخبرنا عن عير قريش.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنها الآن في التنعيم (وهو مبدأ الحرم) يتقدمها جمل أورق (أبيض مائل إلى السواد) عليه غرارتان وستدخل الآن مكه.

فغضبت قريش من هذه الأخبار القاطعه وقالت: سنعلمن الآن صدقه أو كذبه.

ثم لم تمض لحظات إلما وطلعت العير عليهم، وحدتهم أبوسفیان بكل ما أخبرهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ضياع بعير لهم في الطريق وهمهم في طلبه، وأنهم وضعوا ماء مملوء فغطوه ولما رجعوا وجدوه مغطى كما غطوه ولكن لم يجدوا فيه ماء.

هذه هي خلاصه ما جاء في كتب التفسير، والتاريخ، والحديث حول المعراج.

وإذا أراد القارئ الكريم أن يقف على تفاصيل أكثر في هذا المجال فما عليه

إلّا أن يراجع بحار الأنوار باب «المعراج». (١)

هل للمعراج جذور قرآنيه؟

لقد جاء ذكر «المعراج» وسير الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم العجيب في العالم العلوى، والفضاء غير المتناهى فى سورتين من القرآن الكريم بشكل واضح وصريح كما وأشير إليه فى سور أُخرى أيضاً. ونحن نكتفى هنا باستعراض الآيات التى ذكرت هذه القضيّه بصوره واضحه، ونقف عند بعض النقاط الجديره بالدراسه فيها:

يقول الله تعالى فى سورة الإسراء:

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (٢).

ويستفاد من ظاهر هذه الآيه أمور:

١. لكى نعلم بأنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يطو تلك المسافات، ولم يقم برحلته إلى تلك العوالم بقوه بشريه، بل تسنى له كل ذلك بقوه غيبية، فيها استطاع أن يطوى تلك المسافات البعيده فى زمن قصير جداً بدأ الله تعالى حديثه عن الإسراء بقوله:

«سُبْحَانَ الَّذِي» وهو إشاره إلى تنزيه الله عن كل نقص وعيب.

ولم يكتف بذلك بل وصف نفسه بوضوح بأنّه هو تعالى سبب هذه الرحله والمسير فيها إذ قال: «أَسْرَى»: أى إنّ الله تعالى هو الذى سرى برسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخذه إلى تلك الرحله.

وهذه العناية لأجل أن لا يتصور الناس بأنّ هذه الرحله تحققت بالوسائل

ص: ٥٩٦

١- . لاحظ: بحار الأنوار: ١٨/٢٨٣-٤١٠؛ السيره النبويه: ٢/٢٧٣-٢٧٦.

٢- . الإسراء: ١.

العاديه، وحسب القوانين الطبيعیه ليتسنى لهم إنكارها، إنما تحققت بقدره الله وعنايته الربوبيه الخاصه.

٢. إن هذه الرحله تحققت برمتها خلال الليل، ويستفاد هذا المطلب - علاوه على كلمه ليلاً - من كلمه «أشرى» أيضاً؛ لأن العرب كانت تستعمل اللفظه المذكوره فى السير ليلاً.

٣. مع أن هذه الرحله بدأت من بيت «أم هانى» ابنه أبى طالب، فإن الآيه صرحت بأنها تَمَّت من المسجد الحرام، ولعل هذا لأن العرب كانت تعتبر كل مكه حرماً إلهياً، ومن هنا كان كل مكان من مكه يتمتع عندهم بحكم الحرم والمسجد الحرام، فيكون المراد بالمسجد الحرام هنا مكه، ومكّه والحرم كلها مسجد، فصَحَّ أن يقول: «مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

وتذهب بعض الروايات إلى أن المعراج كان من نفس المسجد الحرام.

ثم إن هذه الآيه وإن كانت تصرح بأن المعراج بدأ من «المسجد الحرام» وانتهى ب: «المجسد الأقصى» إلا أن ذلك لا ينافى أن يكون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم رحله أخرى إلى العالم العلوى؛ لأن هذه الآيه تبين فقط قسماً من هذه الرحله، وأما القسم الآخر من برنامج هذه الرحله فتعرض لذكره آيات فى مطلع سوره «النجم».

٤. إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عرج بجسمه وروحه معاً، لا بالروح فقط.

ويدل على ذلك قوله تعالى «بِعَبْدِهِ» الذى يُسْتَعْمَل فى «الجسم والروح معاً» ولو كان المعراج بالروح فقط لزم أن يقول: «بروحه».

٥. إن الغرض من هذا السير العظيم وهذه الرحله العجيبه هو إيقاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مراتب الوجود، وإطّاعه على الكون العظيم، وهذا ما سنشرحه فيما بعد.

وأما السوره الأخرى التى تعرض لبيان حادثه المعراج بوضوح و صراحه

هي سورة «النجم».

والآيات التي سندرجها هنا من هذه السورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما قال لقريش: «رأيت جبرئيلَ أول ما أوحى إلي على صورته التي خُلِقَ عليها» جادلته قريش في ذلك، فنزلت الآيات التالية تجيب على اعتراضهم:

«أَفْتَمَارُوهُ عَلَى مَا يَرَى * وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزَلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرِهِ الْمُنتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى». (١)

أحاديث المعراج:

روى المفسِّرون والمحدِّثون أخباراً وروايات كثيرة حول معراج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما شاهده في هذه الرحلة العظيمة، ليست برمتها صحيحه مُسلَّمه مقطوعاً بها.

ولقد قسَّم المفسِّر الشيعيُّ الكبير المرحوم «العلامة الطبرسي» هذه الأخبار إلى أصناف أربعة إذ قال: وتنقسم جملتها إلى أربعة أوجه:

أحدها: ما يقطع على صحته لتواتر الأخبار به، وإحاطه العلم بصحته (مثل أصل المعراج).

وثانيها: ما ورد في ذلك ممَّا تجوَّزه العقول ولا تأباه الأصول (مثل طوافه في السماء ورؤيته أرواح الأنبياء وتحديثه معهم ورؤيته للجنة والنار)، فنحن نجوِّزه ثم نقطع على أنَّ ذلك كان في يقظته، دون منامه.

وثالثها: ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأصول، إلَّا أنَّه يمكن تأويلها على

ص: ٥٩٨

وجه يوافق المعقول، فالأولى أن نؤوِّله على ما يطابق الحقَّ والدليل. (مثل أنه رأى أهل الجنة وأهل النار وتحدّث معهما الذي يجب أن يؤوَّل فيحتمل على أنه: رأى أشباحهم وصورهم و صفاتهم).

ورابعها: ما لا يصحّ ظاهره ولا يمكن تأويله إلّا على التعسف البعيد، (وهي ما أُلصِق وأُلحق بهذه الحادثة من الأساطير والخرافات، مثل ما روى من أنه صلى الله عليه وآله وسلم كَلَّمَ الله سبحانه جهراً وراه وقعد معه على سريره أو سمع صرير قلمه، ونحو ذلك ممّا يوجب ظاهره التشبيه والتجسيم والله سبحانه يتقدّس عن ذلك كلّهُ)، فالأولى أن لا نقبله. (١)

متى وَقَعَت هذه الحادثة؟

مع أنّ أهميّة هذه الحادثة العجيبة كانت تستوجب أن تكون مضبوطة التفاصيل من جميع الجهات، إلّا أنّها تعرّضت للاختلاف - مع ذلك - من بعض الجهات و منها تحديد تاريخ وقوعها.

فقد ادّعى كاتب السيرة المعروفان: «ابن إسحاق» و «ابن هشام» أنّها وقعت في السنة العاشرة من البعثة الشريفه.

وذهب المؤرّخ الكبير «البيهقي» إلى أنّها وقعت في السنة الثانية عشره من البعثة.

وذهب آخرون إلى أنّها وقعت في أوائل البعثة، بينما قال فريق رابع: إنّها وقعت في أواسطها.

وربّما يقال في الجمع بين هذه الأقوال: إنّ كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معارج

ص: ٥٩٩

ولكننا نعتقد أنّ المعراج الذي فُرِضت فيه الصلاة وقع بعد وفاه أبي طالب عليه السلام في السنه العاشره قطعاً.

لأنّ من مسلمات الحديث والتاريخ أنّ الله تعالى أمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم في ليله المعراج أن تصلّي أمّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلّ يوم وليله خمس صلوات.

كما أنّه يُستفاد من ثنايا التاريخ أيضاً أنّ الصلاة لم تُفرض مادام أبوطالب عليه السلام على قيد الحياه، بل فُرِضت بعد وفاته، لأنّه حضر عنده - ساعه وفاته - سراه قريش وأسيادها، وطلبوا منه أن يبت لهم في أمر ابن أخيه «محمّد» ويمنعه من فعله، فيعطونه - في قبال ذلك - ما يريد فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك المجلس: نعم كلمه واحده تعطونيها: «تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه».(1)

لقد طلب منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الأمر ولم يطلب منهم شيئاً آخر كالصلاه وغيرها من الفروع أبداً، وهذا هو بنفسه يدلّ على أنّه لم تجب الصلاة حتّى ذلك اليوم، وإلّا كان الإيمان المجرد عن العمل، والصلاه مفروضه، لا فائده فيه.

وأما أنّه لم يذكر شيئاً عن نبوّته ورسالته فلأنّ الإعتراف بوحدانيه الله بأمره وطلبه صلى الله عليه وآله وسلم إعتراف ضمّني برسالته ونبوّته، وفي الحقيقه أنّ التلفظ بهذه العبارات بأمره يتضمّن شهادتين وإقرارين: الإقرار بالله الواحد، والإقرار بنبوّه رسول الإسلام.

هذا مضافاً إلى أن كُتاب السيره ذكروا كيفيه إسلام جماعه مثل «الطفيل بن عمرو الدوسى» الذى أسلم قبل الهجره (2) بأعوام اكتفى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالشهادتين،

١- . السيره النبويه لابن هشام: ٢/٢٨٣.

٢- . السيره النبويه: ١/٢٥٦.

ولم يجر أى حديث عن الصلاة أبداً.

إنّ هذه الأمثله تكشف عن أنّ هذه الحادته (المعراج) الّتى فرضت فيها الصلاة وقعت قبل الهجره بسنوات.

والذين تصوّروا أنّ المعراج وقع قبل السنه العاشره مخطئون خطأ كبيراً، لأنّ النّبى صلى الله عليه وآله وسلم كان محصوراً فى شعب أبى طالب منذ السنه الثامنه وحتّى السنه العاشره، ولم يكن وضع المسلمين ليسمح بفرض تكليف زائد (مثل الصلاة) عليهم.

وأما سنوات ما قبل الحصار فعلاوه على ضغوط قريش على المسلمين والّتى كانت هى بنفسها مانعاً من فرض الصلاة على المسلمين، كان المسلمون قلّة معدودين، ولم يكن نور الإيمان، وأصول الإسلام قد ترسّخت فى قلوب ذلك العدد القليل بشكل قوى بعد، ولذلك يكون من المستبعد أن يكلفوا بأمر زائد مثل الصلاة فى مثل ذلك الظرف.

وأما ما ورد فى بعض الأخبار والروايات من أنّ الإمام علياً عليه السلام صلّى مع رسول الله قبل البعته بثلاث سنوات، واستمر على ذلك بعدها أيضاً فليس المراد منها الصلوات المحدوده المؤقته بوقت، المشروطه بشروط خاصّه، بل كانت تلك الصلوات عباره من عباده خاصه غير محدوده⁽¹⁾، أو كان المراد منها الصلوات المندوبه والعبادات غير الواجبه.

ص: ٦٠١

١- . للمزيد من التحقيق فى تاريخ وجوب الوضوء والصلاه والأذان يراجع الكافى: ٣/٤٨٢-٤٨٩.

لقد وقع النقاش والكلام فى كيفية معراج النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأنه هل كان روحانياً، أو جسمانياً وروحانياً معاً؟ وقيل فى ذلك كلام كثير.

ومع أنّ القرآن الكريم والأحاديث تشهد بجلاء لا- غموض فيه بأن معراجه صلى الله عليه وآله وسلم كان جسمانياً(1)، فقد أُوردت فى المقام بعض الإشكالات والاعتراضات التى منعت البعض عن قبول هذه الحقيقة، وبالتالى دفعتهم إلى ارتكاب التأويل، والزعم بأنّ معراج النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان روحانياً، أى بالروح لا بالجسم.

لقد قال هؤلاء: إنّ روح النبى صلى الله عليه وآله وسلم هى التى طافت فى تلك العوالم ثم عادت إلى جسد النبى صلى الله عليه وآله وسلم مره أخرى!! وذهب جماعه إلى أبعد من ذلك إذ ادّعوا بأنّ جميع هذه المشاهدات والقضايا تمت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى عالم الرؤيا، فكلّ ما رآه النبى صلى الله عليه وآله وسلم أو فعله من الطواف واللقاء والصلاه كانت رؤيا، ورؤيا الأنبياء صادقاه!!

على أنّ أقوال الفريق الأ-خير من البعد عن الواقع بحيث لا- يمكن ذكره فى عداد الأقوال والنظريات أبداً، لأنّ قريش بعد أن سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ادّعاءه بأنّه سار كلّ تلك المسافه الطويله البعيده، وطاف على كلّ تلك الأماكن المتباعده العديده فى ليله واحده انزعجت بشده وهبت لتكذيبه حقيقه، إلى درجه أنّ خبر المعراج أصبح حديث الساعه فى نوادى قريش وأوساطها آنذاك.

ولو كان كلّ ذلك تحقّق للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام والرؤيا لما كان لتكذيب قريش وانزعاجها واستنكارها معنى، إذ لا- موجب للنزاع لو كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إننى فعلت تلك الأمور، ورأيت تلك المشاهد فى الرؤيا والمنام، إذ هو على كلّ حال رؤيا،

ص: ٦٠٢

١- . لقد نقل الفقيه الجليل العلامه الشيعى المرحوم الطبرسى فى تفسيره «مجمع البيان» إجماع علماء الشيعة على جسمانيه المعراج فراجع: ٦/٢١٥.

وكلّ شيء - حتّى الأمور المحاله أو المستبعده جداً - ممكن فى عالم الرؤيا.

ومن هنا لا قيمه للقول الأخير أصلاً فلا يستحقّ المتابعه أصلاً.

ولكن مع الأسف استحسن بعض العلماء المصرّيين (مثل فريد وجدى) هذا الرأى وسعى فى تقويته وتبريره، ونحن نحبذ أن نتركه، وأن لا نناقش فيه. (١)

ما هو المراد من المعراج الروحانى؟

لقد عمد فريق ممّن عجز عن دفع وحلّ بعض الاعتراضات والإشكالات الواردة على المعراج الجسمانى، إلى تأويل الآيات والأحاديث، واعتبر المعراج النبوى معراجاً روحانياً، لا غير.

والمقصود من المعراج الروحانى هو التدبّر فى مخلوقات الله ومصنوعاته، ومشاهده جلاله وجماله والاستغراق فى ذكر الحقّ، والتفكّر فيه، وبالتالى التخلّص من القيود والأغلال الماديه، والعلائق الدنيويه، والعبور من المراتب الإمكانيه فى المراحل الباطنيه والقلبيه التى يحصل بعد طيها نوع من القرب الخاص الذى لا يمكن وصفه.

فإذا كان المراد من (المعراج الروحانى) هو التفكّر فى عظمه الحقّ وسعه الخلق و.. و.. فلا شك أنّ هذا ليس من مختصّيات رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بل كان أكثر الأنبياء، وكثير من الأولياء من ذوى البصائر القويّه الطاهره يمتلكون هذه المرتبه، على حين أنّ القرآن الكريم يعتبر (المعراج) من خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويذكره على أنّه نوع من الامتياز الخاص به صلى الله عليه وآله وسلم.

هذا مضافاً إلى أنّ مثل هذه الحاله (أعنى: التفكّر فى عظمه الخالق

ص: ٦٠٣

١- . يلاحظ: دائره معارف القرن العشرين: ٦/٣٢٩، ماده «عرج».

والاستغراق في التوجه إلى الحق) كانت تتكرر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل ليلة (1)، والحال أن (المعراج) الذي هو محط الكلام قد وقع في ليلة معينة.

إن ما دفع بهذا الفريق إلى اتخاذ مثل هذا الموقف من (المعراج)، وآل بهم اختيار هذا الرأي هو فرضيه الفلكي اليوناني المعروف «بطلميوس» التي كانت سائده في الأوساط العلمية في الشرق والغرب طيله ألفى سنة بالكامل، والتي أُلّف حولها مئات الكتب، وكانت تعدّ حتى حين من المسلّمات في مجال العلوم الطبيعيه وهي على نحو الإجمال كالتالي:

إنّ الأجسام في هذا العالم على نوعين: أجسام عنصريه، وأجسام فلكيه.

والجسم العنصرى هي العناصر الأربعة المعروفه: «الماء، والتراب، والهواء، والنار».

وأول كره تبدو لنا هي كره التراب وهي مركز العالم، ثم تليها كره الماء ثم كره الهواء، وتأتى بعد كل هذه الثلاثه كره النار، وكل من هذه الكرات محيطه بالأخرى، وهنا (أى وعند كره النار) تنتهى الكرات، وتبدأ الأجسام الفلكيه.

والمقصود من الأجسام الفلكيه هي الأفلاك التسعه التي تقع الواحده فوق الأخرى وتحيط الواحده بالأخرى على هيئه قشور البصل، وهي متّصله بعضها ببعض من دون فاصله بينها وهي غير قابله للاختراق والالتئام (أى الشق والالتحام) والفصل والوصل ولا يستطيع أى شىء من اختراقها والتحرّك فيها بصوره مستقيمه؛ لأن ذلك يستلزم انفصام أجزاء الفلك.

من هنا يكون المعراج الجسمانى مستلزماً لأن ينطلق النبى صلى الله عليه وآله وسلم من مركز العالم ويصعد بصوره مستقيمه إلى الأعلى عابراً الكرات العنصريه الأربع، ومخترقاً

ص: ٦٠٤

١- . راجع وسائل الشيعة: ج ٧، الباب ٤ من أبواب الصوم المحرّم والمكروه، الحديث ٤. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لست كأحدكم، أنى أظل عند ربى فيطعمنى ويسقيني».

الأفلاك التسعه الواحد تلو الآخر، بينما يستحيل خرق هذه الأفلاك ثم التحامها حسب نظريه بطلميوس وفرضيته الفلكيه.

وعلى هذا لا- مناص من أن نعتقد بأن المعراج النبوي كان معراجاً روحانياً، أى أنّ روحه صلى الله عليه وآله وسلم هي التي عرجت حتى لا يمنع أي جسم من عبورها وسيرها وصعودها إلى النقطة المطلوبه والغايه المرسومه.

الجواب:

إنّ هذا الكلام كان مقبولاً وذا قيمه عند ما كانت هيئه بطلميوس وفرضيته الفلكيه لم تكن بعد قد فقدت قيمتها في الأوساط العلميه وكان هناك من يعتقد بها من صميم فؤاده.

ففي مثل تلك البيئه كان من الممكن التلاعب بالحقائق القرآنيه، وتأويل صريح القرآن ونصوص الروايات.

أمّا الآن فقد فقدت أمثال هذه الفرضيات قيمتها، وظهر للجميع بطلانها، ولم يعد أحد يتحدث عنها، إلّا من باب ما يُسمّى بتاريخ العلوم.

فاليوم وبالنظر إلى كلّ هذه الأ-جهزه الفلكيه والآلات الفضائيه الدقيقه، والتلسكوبات العملاقه، وهبوط المركبات الفضائيه المتعدده على سطح القمر والمريخ، لم يعد مجال لهذه الفرضيات الخياليه.

فاليوم لا يعتبر العلماء المحققون فكره العناصر الأربعة والفلك المتصل كقشره البصل إلّا جزءاً من الأساطير.

فإنّ العلماء لم يستطيعوا بالآلات العلميه وأجهزه الرصد الدقيقه والعيون المسلّحه من رؤيه، تلك العوالم التي حاكها وصنعها بطلميوس بقوه خياله، من هنا فإنّ أيه نظريه تقوم على هذا الأساس غير الصحيح تكون عاريه عن أيه قيمه، واعتبار.

ص: ٦٠٥

ولقد طلع مؤسس الفرقه الشيخيه «الشيخ أحمد الأحسائي» في «الرساله القطيفيه» بنغمه شاذه في هذا الصعيد حيث أراد بإراءه طرحه جديده أن يرضى كلا الطرفين (القائلين بروحانيه المعراج النبوي والقائلين بجسمانيته) حيث قال: إن النبي صلى الله عليه و آله و سلم عرج بيدنه البرزخي (الهورقليائي)(١) ثم استدلّ لذلك بقوله:

إن الصاعد كلما صعد ألقى في كل رتبه من المراتب المذكوره ما فيها، فمثلاً إذا تجاوز كره الهواء ألقى ما فيه من الهواء، وإذا تجاوز كره النار ألقى ما فيها، وإذا رجع أخذ ما له من كره النار، وإذا وصل إلى كره الهواء أخذ ما له من الهواء.

ومن هنا فإن النبي صلى الله عليه و آله و سلم عندما عرج إلى السماء ألقى في كل كره واحداً من تلك العناصر الأربعة في كرته، وعرج ببدن فاقد لهذه العناصر.

ومثل هذا البدن لا يمكن أن يكون بدنًا عنصرياً، فليس هو إلا البدن البرزخي (الذي أسماه الهورقليائي) لا غير.(٢)

وبهذا - حسب تصوّره - أرضى من نفسه كلا الطرفين المذكورين، لأنه من جانب اعتقد بالمعاد الجسماني، وفي نفس الوقت تخلّص من إشكال «خرق الأفلاك والتحامها» لأن نفوذ الجسم البرزخي لا يستوجب أي خرق وانفصال في جدار الفلك.

ص: ٦٠٦

١- وهو البدن البرزخي الذي يشبه البدن المادي يفعل به الإنسان الأفعال المختلفه في عالم النوم والرؤيا ويقوم بكلّ نوع من أنواع النشاط.

٢- تقع الرساله القطيفيه ضمن مجموعه تحتوى على ٩٢ رساله باسم جوامع الكلم التي طبعت عام ١٢٧٣. ومع هذا التصريح يدعى البعض - للتستر على خطأ الشيخ وزلته هذه - بأن الشيخ يعتقد بأن المعراج كان جسمانياً عنصرياً، وأنه موافق لرأى المشهور في هذا المجال.

ولكن هذه النظرية - كما هو واضح لكلِّ عالمٍ متحرٍِّ للحقيقه، بعيد عن العصبية - واضحة البطلان كسابقتها (نظريه المعراج الروحاني)، فمضافاً إلى أنَّها مخالفة للقرآن وظاهر الأحاديث، لأنَّه - كما أسلفنا - لو عرضنا آيه المعراج (من سورة الإسراء) على أيِّ عارف باللغه، مهما كان، وطلبنا منه رأيه في هذا الصدد لقال: إنَّ مراد القائل هو البدن الدنيوي العنصري المذى عبَّر عنه القرآن بلفظ العبد، في قوله تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» (١)، وليس الهورقلياني المذى لم يكن يعرفه المجتمع العربي، ولا يعرف أمثاله في ذلك اليوم أساساً، في حين أنَّهم كانوا هم المخاطبون في آيه المعراج في سورة الإسراء لا غيرهم.

هذا مضافاً إلى أنَّ ما دفع بالشيخ إلى ارتكاب هذا التأويل البارد هو الأسطوره اليونانيه المذكوره حول الفلك، حيث تصوَّرها كحقيقه ثابتة من حقائق اللوح المحفوظ، وقد كذبها وفندها كلُّ فلكيِّ العالم التيوم، وأعلنوا عن بطلانها.

فلا يجوز لنا أن نقلد تلك الفرضيه تقليداً أعمى.

وإذا ما رأينا بعضَ القدماء من المشايخ قال بمثل هذا محسناً الظن بتلك الفرضيه الفلكيه القديمه وأمثالها أمكن إعدارهم، لعدم قيام أدلِّه علميه قويه على خلافها آنذاك.

أمَّا اليوم فلا ينبغي لنا أن نتجاهل الحقائق القرآنيه لفرضيه ثبت بطلانها في الأوساط العلميه.

المعراج وقوانين العلم الحديث:

قد يتصوَّر فريقٌ من الناس أنَّ القوانين الطبيعيه والعلميه الحاضره لا تتلاءم

ص: ٦٠٧

مع معراج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك لأنه:

١. يقول العلم الحديث: إنَّ الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلص من جاذبيه الأرض، وبعبارة أخرى إبطال مفعولها.

فإنَّ (الكره) التي نقذفها إلى الأعلى تعود مرّة ثانية إلى الأرض بفعل الجاذبيه، وكلّما كزّرنا قذف الكره إلى الأعلى فإنها تعود وترجع إلى الأرض أيضاً.

فإذا أردنا أن نبطل مفعول جاذبيه الأرض إبطالاً كاملاً بحيث لا تعود الكره المقذوفه إلى الأعلى إلى الأرض ثانية بل تواصل مسيرها إلى الأعلى فإننا نحتاج لتحقيق هذا الهدف إلى جعل سرعه الكره باتجاه معاكس للأرض تعادل ٠٠٠/٢٥ ميل في الساعه.

وعلى هذا فإنَّ معنى المعراج هو أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد خرج من محيط جاذبيه الأرض، وأصبح في حاله انعدام الوزن.

ولكن يُطرح هنا سؤال وهو: كيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يطوى - بدون وسائل - هذه المسافه بمثل هذه السرعه، وهل البدن الطبيعي يتحمّل مثل هذه السرعه مع عدم توفّر الغطاء الواقى والوسائل اللازمه، التي تصون الجسم من التبعر والذوبان بفعل السرعه الفائقه؟

٢. أنّ الهواء القابل للاستنشاق غير موجود فوق عدد من الكيلومترات بعيداً عن سطح الأرض، بمعنى أنّنا كلما ذهبنا صعوداً إلى الطبقات العليا وابتعدنا عن الأرض أصبح الهواء أرقّ، حتّى يغدو غير قابل للاستنشاق، وربّما نصل إذا واصلنا الصعود إلى الأعلى إلى منطقه ينعدم فيها الهواء اللازم للتنفس بالمرّه، فكيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد طى تلك المسافه الطويله والبعيده في أعالي الجو أن يعيش بدون وجود الاوكسيجين؟!

٣. أن الأشعة الفضائية، والأحجار السماوية والشهب الكثيره المتطايره إذا اصطدمت بأى جسم أرضى أبادته، وأفتته، ولكنها عندما تصطدم بالغلاف الغازى المحيط بالأرض تتلاشى وتصيح كالغبار ولا- تصل إلى الأرض، فيكون الغلاف الغازى فى الحقيقه بمثابة درع يقى سُكَّان الأرض من خطر تلك القذائف المهلكه.

ومع هذه الحاله كيف تهيأ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصون نفسه من تلك الأشعه الفضائيه، والأحجار السماويه؟!

٤. إذا تغيّر ضغطُ الهواء على جسم الإنسان فزاد أو نقص اختلت حياته الطبيعیه، فهو يمكنه أن يعيش تحت ضغط معين من الهواء، لا يوجد في الطبقات العليا من الجوّ، فكيف استطاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحال هذه أن يحافظ على حياته فى أعالي الفضاء؟!

٥. أن سرعه الحركه التى سار بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا ريب كانت تفوق سرعه الحركه التى يسير بها النور ومع العلم بأن سرعه النور هى ٣٠٠/٠٠٠ كيلومتر فى الثانيه، مع العلم أيضاً أنه ثبت فى العلم الحديث أنه لا- يستطيع أى جسم أن يتحرك بسرعه تفوق سرعه النور، فكيف استطاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يسير بسرعه تفوق سرعه النور، ومع ذلك يرجع إلى الأرض سالم الجسم كامله؟؟!

جوابنا:

وجوابنا هو: أننا إذا أردنا أن نناقش هذه المسأله على ضوء القوانين العلميه الطبيعیه لتجاوز عدد الاعتراضات والإشكالات ما ذكرناه آنفاً.

ولكننا نقول فى جواب هذا الفريق متساءلين: ما هو مقصودكم من توضيح هذه النواميس الطبيعیه؟

هل تريدون القول بأن السير فى العوالم العليا أمرٌ غير ممكن، وممتنع ذاتاً وبالتالي أنه أمر محال؟!

ص: ٦٠٩

فإننا نقول - حينئذ - في الجواب على ذلك بأن الجهود والتحقيقات العلميه التي بذلها علماء الفضاء في الشرق والغرب قد جعلت هذا الأمر - ولحسن الحظ - أمراً ممكناً، وعادياً، لأنّ مع إطلاق أوّل قمر اصطناعي عام (١٩٥٧ م) إلى السماء والذي أسماه علماء الفضاء ب «اسپوتنيك» اتّضح أنّه يمكن إبطال مفعول جاذبيه الأرض بواسطة الصاروخ، كما أنّ إرسال السفن الفضائيه الحامله لرواد الفضاء من البشر بواسطة الصاروخ أوضح أنّ ما كان يُعده البشر مانعاً من الصعود إلى الأعلى في الفضاء قد أصبح قابلاً لرفعه وإزالته، والتخلّص منه بفضل العلم والتكنولوجيا.

إنّ البشر استطاع بأدواته وآلاته العلميه والتكنولوجيه أن يعالج مشكلات عديده في مجال ارتياد الفضاء مثل مشكله الشهب والنيازك المتطايره في الجوّ ومشكله الأشعه الفضائيه، ومشكله انعدام الغاز اللازم للتنفس و.. و.. وهاهو علم ارتياد الفضاء في حال توسع مستمرّ وأنّ العلماء أصبحوا الآن يثقون بأنهم سرعان ما يتمكّنون من مدّ بساط الحياه والعيش في إحدى الكرات السماويه والسفر إلى إحدى الكواكب كالقمر والمريخ بسهولة كبرى!^(١)

إنّ هذه الأحداث العلميه وهذا التقدّم التكنولوجي في مجال ارتياد الفضاء

ص: ٦١٠

١- . بعد إطلاق الأقمار والسفن الاصطناعيه لأوّل مره يوم الأربعاء أبريل عام ١٩٦١ م بدأ الضابط الروسي جاجارين (٢٧ سنه) رحلته الفضائيه في سفينه فضائيه، وكان أوّل إنسان أقدم على هذه الرحله الفضائيه، وابتعدت سفينته ٣٠٢ كيلومتراً عن سطح الأرض، ودارت دوره واحده حول الكره الأرضيه في ساعه ونصف. وبعد ذلك أقدمت أمريكا والاتحاد السوفيتي على إرسال السفن الفضائيه إلى الفضاء في محاوله لغزو القمر حتّى حطّت السفينه الفضائيه «أپولو» الحامله لعدد من رواد الفضاء على سطح القمر لأوّل مرّه، وكان هذا أوّل مره يحط فيها إنسان قدمه على أرض القمر. وقد تكرّرت تجربه هذا البرنامج الفضائي فيما بعد مرّات ومرّات وكانت ناجحه على الأغلب. وكلّ هذه الجهود والنتائج تكشف عن أنّ هبوط الإنسان على سطح الكرات والكواكب أمراً ممكناً، وما يستطيع البشر فعله عن طريق العلم يقدر الله خالق البشر على فعله بإرادته النافذه.

شاهدٌ قويٌّ على أنّ هذا العمل أمر ممكنٌ مئةً بالمئة، وليس من الأمور المستحيله.

وإذا كان مقصود المعترضين على المعراج هو أنه لا يمكن القيام بمثل هذه الرحلة من دون أجهزه علميه وتكنولوجيه، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يملك في تلك الليله مثل هذه الأجهزه، فكيف طوى تلك المسافات وطاف على جميع تلك العوالم من دون أدنى وسيله نقلٍ من هذا القبيل؟!!

فإننا نقول في معرض الإجابة عن اعتراضهم هذا بأنّ جواب هذا الاعتراض يتّضح من الأبحاث التي سبقت منّا حول معجز الأنبياء وخصوصاً بحثنا المفصّل حول حادثه عام الفيل وهلاك جيش أبرهه العظيم بالأحجار الصغيره، لأنّه من المسلّم أنّ ما يستطيع البشر فعله عن طريق الأدوات والآلات العلميه الصناعيه يستطيع الأنبياء فعله بعنايه الله تعالى، وإقداره وبدون الأسباب الظاهرية والخارجيه.

لقد عرج رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء بعنايه وإقدار الله الذي خلق الوجود كلّه، وأقام هذا النظام البديع برمته، فهو الذي أعطى للأرض جاذبيتها، وأعطى للشمس أشعتها وأوجد مختلف طبقات الهواء، وأنواع الغازات في الجوّ، ومتى أراد أخذها وانتزعها منها، أو كبح جماحها، وردّ عاديتها.

فإذا تحقّق معراج النبيّ الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في ظلّ العنايه الإلهيه فإنّ من المسلّم أن جميع النواميس تخضع أمام قدرته القاهره، وإرادته الغالبه، وهي طوع وإرادته، والسموات والأرض مطويات بيمينه والجميع في قبضته ورهن إشارته دائماً وأبداً، وفي كلّ حين وأوان.

وعلى هذا فماذا يمنع من أن يعمل الله المّدى منح للأرض جاذبيتها، وللأجرام السماويه أشعتها، على إخراج عبده المصطفى بقدرته المطلقه ومن دون

الأسباب الظاهرية، من مركز الجاذبية الأرضية، ويصونه من أخطار الأشعة الكونية، وأن يعمد خالق كل هذا القدر الهائل من الأوكسجين إلى إيجاد الهواء اللازم لنيته في الطبقات التي ينعدم فيها الهواء، وهذا هو معنى قولهم: «إنَّ الله مسبَّب الأسباب ومعتلُّ الأسباب». إنَّ أمر المعجزه يختلف ويفترق أساساً عن أمر العلل الطبيعيه والقدره البشريه.

ونحن يجب أن لا نقيس قدره الله المطلقه بقدرتنا المحدوده، فإذا كُنَّا لا نقدر على شيء من دون الأسباب لم يصح أن نقول: إن القادر المطلق لا يقدر على مثله من دون الأسباب الطبيعيه أيضاً.

إنَّ إحياء الموتى، وقلب العصا إلى ثعبان، وإبقاء يونس حيّاً في بطن الحوت، في قعر البحار، ممّا صدّقته جميع الكتب السماويه ونقلته إلينا، لا تقلّ إشكالاً ولا تختلف جواباً عن قصه المعراج النبوي

وخلاصه القول: إنَّ جميع العلل الطبيعيه والموانع الخارجيه مسخّرة لله تعالى خاضعه لإرادته، مطيعه لأمره وإرادته يمكن تعلّقها بكلّ شيء إلّا بالأمر المحال، وأمّا غير ذلك أى ما يكون ممكناً بالذات مهما كان، فإنّه قابلٌ لأن يتحقّق في ظل إرادته الله ومشيتته، سواء يقدر البشر عليه أم لا يقدر.

على أنّ حديثنا هذا موجّهٌ إلى مَنْ آمن بالله، وعرف ربّه بصفاته الخاصّه به تعالى، وبالتالي آمن بالله الأزليّ على أنّه القادر على كلّ شيء.

ما هو الهدف من المعراج؟

لقد بينت الأحاديث - بعد الآيات - الغرض من المعراج وإليك طائفه من هذه الأحاديث.

١. يقول ثابت بن دينار سألت الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام عن الله جلّ جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: «تعالى الله عن ذلك».

قلت: فلم أسرى بنبيه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء؟

قال: «لِيرِيَهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِهِ وَبِدَائِعِ خَلْقِهِ». (١)

٢. وقال يونس بن عبدالرحمن قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام:

لَأُعَيِّ عَلَيْهِ عَرَجَ اللَّهِ بَنِيهِ إِلَى السَّمَاءِ وَمِنْهَا إِلَى «سَدْرِهِ الْمُنْتَهَى»، وَمِنْهَا إِلَى «حُجْبِ النُّورِ» وَخَاطَبَهُ وَنَاجَاهُ هُنَاكَ وَاللَّهُ لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ؟.

فقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَكِنَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَرَادَ أَنْ يُشَرِّفَ بِهِ مَلَائِكَتَهُ، وَسَكَّانَ سَمَاوَاتِهِ، وَيَكْرَمَهُمْ بِمَشَاهِدَتِهِ، وَيُرِيَهُ مِنْ عَجَائِبِ عَظَمَتِهِ مَا يَخْبِرُ بِهِ بَعْدَ هُبُوطِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى مَا يَقُولُهُ الْمَشْبَهُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ». (٢)

أجل يجب أن يكون لرسول الإسلام وخاتم الأنبياء مثل هذا المقام العظيم ومثل هذه المنزلة السامقة، ليقول للبشرية العائشه في القرن العشرين، والتي أصبحت تفكر في الهبوط على «المريخ» و «الزهرة» وغيرها من الأنجم البعيدة:

بأنتى قد فعلت هذا من دون أية وسيلة، وإنّ ربّي قد منّ عليّ وعزّفتني على نظام السماوات والأرض، وأطلعتني بقدرته وبعنايته على أسرار الوجود، ورموز الكون.

ص: ٦١٣

١- . علل الشرائع: ١/١٣١ ح ١؛ بحار الأنوار: ١٨/٣٤٧ ح ٥٧؛ التوحيد للصدوق: ١٧٥.

٢- . علل الشرائع: ١/١٣٢ ح ٢؛ بحار الأنوار: ١٨/٣٤٨ ح ٥٩.

انقضت السنه العاشره بكلّ حوادثها الحلوه والمرّه، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد في هذا العام حاميه الكبيرين المتفانيين في سبيله، ففي البدايه فقد كبير بنى عبدالمطلب وسيدهم، والمدافع الوحيد عن حوزة الرساله الإسلاميه والذات بالإخلاص عن حياض الشريعه المحمديه، والشخصيه الأولى في قريش، أعنى:

«أبا طالب» عليه السلام.

ولم تمنح آثار هذه المصيبه المرّه عن خاطر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد إلاوفاجأته مصيبه وفاه زوجته الوفيه العزيزه، السيده خديجه الكبرى التي جدّدت برحيلها عنه أحزان النبي وآلامه الروحيه. (١)

لقد حامى أبوطالب ودافع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحافظ على حياته وسلامته ومكانته، وبينما ساعدت خديجه بثروتها الطائله في نشر الإسلام وقدمت في هذا السبيل خدمات عظيمه لا تنسى.

من هنا سمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلك السنه بعام الحداد، أو الحزن. (٢)

ومنذ أن توفى الله الحاميين العظميين والمدافعين القويين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم واجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظروفًا صعبه جدًّا قلما واجهها من قبل.

ص: ٦١٤

١- . جاء في تاريخ الخميس: ١/٣٠١ أنه قيل بأن «خديجه» توفيت بعد «أبي طالب» بشهرٍ وخمسه أيام، بينما ذهب آخرون مثل ابن الأثير في الكامل: ٢/٩٠ إلى أن السيده خديجه توفيت قبل أبي طالب، لا بعده.

٢- . تاريخ الخميس: ١/٣٠١، السيره الحليه: ١/٣٤٧.

فقد واجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ حلول السنه الحاديه عشره جَوْاً مفعماً بالعداء له، والحقده عليه، وصارت الأخطار تهدد حياته الشريفه فى كل لحظه، وقد فقد كل الفرص لتبليغ الرساله وكل إمكانات الدعوه إلى دينه.

يقول ابن هشام فى هذا الصدد: إنّ «خديجه بنت خويلد» و «أبا طالب» هلكا (أى توفياً) فى عام واحد فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المصائب بهلك خديجه وكانت له وزيره صدق على الإسلام، وكان يسكن إليها، وبهلك عمه أبى طالب وكان له عضداً، وحرزاً فى أمره، ومنعه وناصرأ على قومه، وذلك قبل هجرته الى المدينه بثلاث سنين. فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياه أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً.

ولما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك التراب، دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لها:

«لا تبكى يا بُنَيَّ فَإِنَّ اللَّهَ مانع أباك».

ويقول بين ذلك:

«ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبوطالب».(1)

ولأجل تزايد الضغط والكبت هذا قرر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن ينتقل من المحيط المكى إلى محيط آخر يتسنى له تبليغ رسالته.

وحيث إنّ الطائف كانت تعتبر آنذاك مركزاً هاماً، لذلك رأى رسول

ص: ٦١٥

١- . السيره النبويه: ١/٢٨٢-٢٨٣؛ بحار الأنوار: ١٩/٥ عن إعلام الورى: ١/١٣١ عن محمد بن إسحاق بن يسار.

اللّٰهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسَافِرَ لَوْحَدِهِ إِلَى الطَّائِفِ، وَيَجْرَى بَعْضُ الْإِتِّصَالَاتِ مَعَ زَعَمَاءِ قَبِيلِهِ ثَقِيفٍ وَسَادَاتِهَا، وَيَعْرَضُ دِينَهُ عَلَيْهِمْ عَلَيْهِ يَحْرُزُ نَجَاحًا وَيَكْسِبُ أَنْصَارًا جَدِيدًا لِرِسَالَتِهِ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ.

وَلَمَّا انْتَهَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الطَّائِفِ عَمِدَ إِلَى نَفَرٍ مِنْ قَبِيلِهِ «ثَقِيفٍ» هُمْ يَوْمئِذٍ سَادَةُ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ، وَجَلَسَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَلَمْ يُوَثِّرْ فِيهِمْ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا لَهُ: لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنَ اللَّهِ كَمَا تَقُولُ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطْرًا مِنْ أَنْ أَرَدَّ عَلَيْكَ الْكَلَامَ، وَلَئِنْ كُنْتَ تَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَكَلِّمَكَ!!

فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ رَدِّهِمُ الصَّبِيَانِي أَنَّهُمْ يَحَاوِلُونَ التَّمَلُّصَ مِنْ قَبُولِ الدَّعْوَةِ وَاعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ، فَقَامَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِهِمْ بَعْدَ أَنْ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَكْتُمُوا مَا جَرَى فِي هَذَا اللَّقَاءِ خَشِيهِ أَنْ يَعْرِفَ سَفَهَاءُ ثَقِيفٍ فَيَتَجَرَّأُوا عَلَيْهِ وَيَتَّخِذُوا ذَلِكَ ذَرِيعَةً لِاسْتِغْلَالِ غَرَبَتِهِ وَوَحْدَتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ إِيْذَانُهُ، فَوَعَدُوهُ بِالْكَتْمَانِ، وَلَكِنَّهُمْ - وَلِلْأَسْفِ - لَمْ يَحْتَرَمُوا وَعَدَهُمْ هَذَا الَّذِي أَعْطَاهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَغْرَوْا بِهِ سَفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ، وَفَجَأَهُ وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَفْسَهُ مُحَاطًا بِجَمْعٍ كَبِيرٍ مِنْ أَوْلِيَاكِ السَّفَهَاءِ يَسْتَبُونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ حَتَّى اجْتَمَعَ النَّاسُ، وَأَلْجَأُوهُ إِلَى بَسْتَانَ لَعْتَبَةَ وَشَبِيهَ ابْنِ رَبِيعَةَ وَهَمَا فِيهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، وَرَجَعَ عَنْهُ مِنْ سَفَهَاءِ ثَقِيفٍ مَنْ كَانَ يَتَّبِعُهُ، فَعَمِدَ إِلَى ظِلِّ فَجَلَسَ فِيهِ وَهُوَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا، وَقَدْ أَحَقُّوا الْأَذَى بِمَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ مِنْ بَدَنِهِ الشَّرِيفِ وَرَجُلَاهُ تَسِيلَانِ مِنَ الدَّمَاءِ، وَابْنَا رَبِيعَةَ يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَرِيَانِ مَا لَقِيَ مِنْ سَفَهَاءِ أَهْلِ الطَّائِفِ، وَقَدْ كَانَا مِنْ أَثْرِيَاءِ قَرِيْشٍ، يَوْمئِذٍ.

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَوَجَّهَ إِلَى رَبِّهِ وَنَاجَاهُ قَائِلًا:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقَلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّمْتَنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوِّ مَلِكْتَهُ أَمْرِي؟»

إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي.

أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ.

لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» (١).

هذه الكلمات وهذا الدعاء هي استغاثته شخصيه عاش خمسين سنه عزيزاً مكرماً في ظلّ حمايه من دافعوا عنه بصدق وإخلاص ودفعوا عنه كلّ أذى ولكنّه الآن يضيق عليه رحب الحياه حتّى يلجأ إلى حائط عدوّ من أعدائه، ويجلس في ظلّ شجره، مكروباً موجعاً ينتظر مصيره.

فلَمَّا رآه ابنا ربيعه «عتبه وشييه» (وكانا من الوثنيين ومن أعداء الإسلام) وشاهدوا ما لقي من الأذى والعذاب، رَقَا لَهُ فدعوا غلاماً لهما نصرانياً من أهل نينوى يقال له «عداس» فقالا له: خذ قطعاً من العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى هذا الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل بالعنب حتّى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال له: كل، فلَمَّا وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه يده قال:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

فتعجب عداس من ذلك بشده وقال: واللّه إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس وما دينك؟

قال: أنا نصرانى، من أهل نينوى.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: من مدينه الرجل الصالح يونس بن متى.

فقال له عداس: وما يدريك ما (من) يونس بن متى؟

ص: ٦١٧

فقال صلى الله عليه وآله وسلم (١): ذاك أخى كان نبياً وأنا نبيّ، أنا رسول الله، والله تعالى أخبرنى خبر يونس بن متى.

فأكبَّ عداس على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد رأى فى كلماته علائم الصدق وآيات الحق، وجعل يقبل رأسه ويديه، وقدميه، وهما تسيلان من الدماء وآمن به، ثم عاد بعد الاستئذان منه صلى الله عليه وآله وسلم إلى صاحبيه فى البستان. فتعجب ابنا ربيعه لما رأياه فى غلامهما عداس من الانقلاب الروحى العجيب، وسألاه قائلين: ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل، ويديه وقدميه وماذا قال لك؟!

فأجابهما الغلام قائلاً: يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا، هذا رجل صالح لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه الأنبيى.

فشقَّ كلامُ عداس على ابني ربيعه، وقالوا له بنبره الناصح له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك فإنَّ دينك خير من دينه!! (٢)

النبى صلى الله عليه وآله وسلم يعود إلى مكّه:

انتهت ملاحظته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلجوئه إلى حائط ابني ربيعه، وكان عليه الآن، وبعد أن يئس من خير ثقيف أن يعود إلى مكّه، ولكنَّ عودته إلى مكّه لم تكن لتخلو عن مشاكل، لأنّه قد فقد نصيره وحاميه ومدافعه الأكبر والأوحد فكان من المحتمل جداً أن يقبض عليه المشركون ويسفكوا دمه.

فقرر صلى الله عليه وآله وسلم أن يبقى فى منطقته «نخله» (وهى واد بين الطائف ومكّه) بعض الوقت.

ص: ٦١٨

١- وفى روايه البحار: ١٩/٦ جملة اعتراضيه هنا: - وكان لا يحقر أحداً أن يبلغه رساله ربه -.

٢- السيره النبويه لابن هشام: ٢/٢٨٧؛ بحار الأنوار: ١٩/٦ و ٧ و ٢٢ مع اختلاف يسير.

لقد كان يريد أن يرسل أحداً إلى شخصيه من شخصيات قريش يطلب منها أن تجيره حتى يدخل مكة بجوار، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يجد من يقوم له بهذه المهمه.

فترك «نخله» إلى حراء، وهناك التقى رجلاً خزاعياً وطلب منه أن يأتي «المطعم بن عدى» بمكة، وكان من الشخصيات المكيه البارزه و يسأله أن يجير رسول الله ليدخل مكة في أمان من أذى قريش وكيدها.

فدخل الخزاعي مكة، وأبلغ المطعم ما طلبه منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقبل المطعم - رغم كونه وثنياً مشركاً - أن يجير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال للخزاعي: ائته فقل له: إنني قد أجرتك فتعال.

فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة ليلاً ونزل في بيت مطعم مباشره، وبات ليلته هناك، ولما طلعت الشمس من صبيحه غد قال مطعم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لتعلمن قريش بأنك في جوارنا، فأصبحنا إلى البيت، ليروا جوارنا.

فاستحسن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأيه فأخذ المطعم وأهل بيته السلاح ودخلوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد الحرام، وكان ورودهم في المسجد بهيئه رائعه.

وكان أبو سفيان قد كمن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليكيد به، فلما رأى هذا المشهد المهيب غضب غضباً شديداً، وانصرف عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجلس المطعم وولده وأختانه وأخوه، وطاف رسول الله بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله. (١)

ص: ٦١٩

١- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٥٥؛ طبقات ابن سعد: ١/٢١٠-٢١٢؛ بحار الأنوار: ١٩/٧ و ٨. ويستبعد بعض المحققين أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد طلب الجوار من مشرك أو دخل في جوار مشرك، على غرار عدم قبوله الهديه من المشرك، وذكر لذلك أدله ووجوها. ولكن يمكن الإجابة عن هذا بأن الإجاره كانت أمراً عادياً في ذلك العصر، ولم يكن فيها ما يوجب شيئاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم تستلزم منه عليه. ثم ما المانع في مثل هذا الجوار لو ترتبت عليه مصالح عليا، كتمكين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الدخول بسلام إلى مكة، وتمكنه من القيام بمهامه الرساليه، خاصه أن هذا الجوار لم يستغرق إلأ يوماً أو

ولم يمض على هذه الحادثة زمان طويل حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة، وتوفى المطعم في أوائل الهجرة في مكة، ولما بلغ رسول الله نأ موته تذكّر صلى الله عليه وآله وسلم إحسانه وجواره، وأنشأ حسان بن ثابت شاعر الإسلام شعراً يمدحُه فيه تقديراً لخدمته.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتذكّره كثيراً، حتى أنه تذكّره في واقعه «بدر» التي انهزمت فيها قريش وعادت منكسره إلى مكة بعد أن خسرت كثيراً من رجالها وأسر منها عدد كبير، فتذكّر مطعم بن عدى ثمه وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«لو كان مطعم بن عدى حياً لوهبت له هؤلاء».(١)

نقطه هامه:

إنّ سفر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف يكشف عن إصراره في أداء رسالته واستقامته وصبره صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّ تذكّره لإحسان مطعم في المواقع المناسبة يقودنا إلى خصاله الحميده وسجاياه الفاضله، وخلقه العظيم.

ولكن الأهمّ من هذا وذاك هو أنّنا نستطيع من خلال هذا تقييم خدمات أبي طالب القيمه، ومعرفة أهميتها الكبرى عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بمقايستها مع ما فعله مطعم.

فإن مطعم لم يفعل شيئاً إلّا أن أجاز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحماه يوماً أو بعض يوم.

ص: ٦٢٠

١- . المغازي للواقدي: ١/١١٠ ثم قال الواقدي: وكانت لمطعم بن عدى عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم إجاره حين رجع من الطائف.

بينما حذب أبو طالب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودافع عنه وخدمه عمراً كاملاً ولقى في سبيله من المحن والمتاعب ما لم يلق مطعم منها ولا شيئاً ضئيلاً.

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلن عن استعدادة للإفراج عن جميع الأسرى في «بدر» تقديراً لما قام به مطعم من إجاره بسيطه قصيره، فماذا عساه أن يقوم به تجاه ما أسداه إليه عمُّه وحاميه وكافله الأكبر والأوحد أبوطالب من خدمات طوال أكثر من أربعين عاماً، أنه يجب أن يكون لمثل هذا الشخص العظيم - الذي كفل صاحب الرسالة وقام بشؤونه مدة أربعين عاماً بأيامها ولياليها ودافع عنه في السنوات العشر الأخيرة وهي جلُّ عمر الرسالة الإسلامية في الفترة المكيه إلى درجه أن عرّض راحته وسلامته بل حياته وحياه أبنائه لخطر الموت دفاعاً عن حياض الرسالة، وحمايه لصرح النبوه - مقاماً عظيماً ومنزله كبرى عند قائد البشريه، ومعلم الإنسانيه، وهاديها العظيم.

كيف لاء والفرق بين هذين الشخصين كبير، والبون شاسع، فمطعم رجل وثني مشرّك، بينما يعتبر أبوطالب واحداً من كبار الشخصيات الإسلامية العظيمه بلا جدال.

الدعوه في أسواق العرب:

كانت العرب تجتمع - في مواسم الحج - في نقاط مختلفه مثل: «عكاظ» و «المجنه» و «ذى المجاز»، وكان الشعراء والخطباء العرب البارعون يقفون في هذه المناطق على أماكن مرتفعه ويلهون فريقاً من الناس بما يلقونه عليهم من خطب وقصائد تدور في الأغلب حول الحرب والقتال، والتفاخر، والعشق.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شأنه شأن كلّ الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه يستغلّ هذه الفرصه - كغيرها - للإبلاغ رساله ربه إلى الناس، ولم يكن لأحدٍ منعه أو الكيد به

لحرمة القتال والجدال فى الأشهر الحرم.

من هنا كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا حلَّ الموسم وقف على مكان مرتفع وخاطب الناس قائلاً:

«يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذلل لكم العجم، وإذا آمنتكم كُنتم مُلوَكاً فى الجَنَّة».(١)

دعوته رؤساء القبائل فى مواسم الحج:

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلتقى فى مواسم الحج فى هذه النقاط برؤساء القبائل العربيه وأشرفها، ويقف على منازلهم منزلاً منزلاً، ويعرض دينه عليهم، ويدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبيُّ مرسل.(٢)

وربما مشى خلفه عمه «أبو لهب» فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله وما دعا به، قال أبو لهب فوراً للناس: يا بنى فلان إنما يدعوكم هذا إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم...، إلى ما جاء به من البدعه والضلاله، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له.(٣)

وقد قدمت جماعه من بنى عامر إلى مكه فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام وعرض عليهم نفسه، فقبلوا أن يعتنقوا الإسلام إلماً أنهم اشترطوا عليه أن يكون إليهم خلافته من بعده إذ قالوا: رأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

ص: ٦٢٢

١- الطبقات الكبرى: ١/٢١٦.

٢- قال ابن هشام: كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يسمع بقادم يقدم مكه من العرب له اسم وشرف إلتصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده. السيره النبويه: ٢/٢٨٩.

٣- الكامل فى التاريخ: ٢/٩٤.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الأمْرُ إِلَى اللَّهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ».

فرفضوا اعتناق الإسلام والإيمان بالله ورسوله.

ثم لما عادوا إلى أوطانهم رَجَعُوا إِلَى شَيْخٍ لَهُمْ طَاعِنٌ فِي السِّنِّ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَحْجَّ مَعَهُمْ وَكَانَ ذَا بَصِيرَةٍ وَفَهُمْ فَحَدَّثُوهُ بِمَا جَرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: جَاءَنَا فَتَى مِنْ قَرِيْشٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يُزْعِمُ أَنَّ نَبِيَّ يَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَمْنَعَهُ (١) وَنَقُومَ مَعَهُ.

فوضع الشيخ يديه على رأسه ووبَّخَهُمْ عَلَى رَفْضِهِمْ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ وَقَالَ:

يَا بَنِي عَامِرٍ وَالَّذِي نَفْسُ فُلَانٍ بِيَدِهِ مَا تَقَوْلُهَا إِسْمَاعِيلِيُّ قَطُّ (٢)، وَإِنَّهَا لِحَقٌّ، فَأَيْنَ رَأْيِكُمْ كَانَ عَنْكُمْ؟! (٣)

إِنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ التَّارِيخِيَّةَ تَفِيدُ - فِي مَا تَفِيدُ - بِأَنَّ مَسْأَلَةَ الْخِلَافَةِ وَالْإِمَامَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَمْرٌ تَنْصِيصِيٌّ، تَعْيِينِيٌّ، لَا ائْتِخَابِيٌّ، أَيْ أَنَّ تَعْيِينَ الْخَلِيفَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَعُودُ إِلَى اللَّهِ، وَلَا خِيَارَ لِلنَّاسِ فِيهِ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِمُ الطَّاعَةُ وَالرِّضَا.

ص: ٦٢٣

١- . أي نحميه.

٢- . أي ما ادَّعى النبوه كاذباً أحدٌ من بنى إسماعيل.

٣- . لاحظ: السيره النبويه: ٢/٢٨٩.

كان (وادي القرى) في ما مضى من الزمن طريق التجاره من اليمن إلى الشام، فكانت القوافل التجاريه القادمه من اليمن تدخل وادياً طويلاً يُدعى بوادي القرى بعد العبور بالقرب من مكّه، وكانت المناطق الواقعه على طول هذا الوادي مناطق خضراء، ومن هذه المناطق مدينه قديمه كانت تُدعى ب: يثرب والتي عرفت فيما بعد بمدينه الرسول.

وقد سكن في هذه المدينه منذ أوائل القرن الرابع الميلادي قبيلتا: «الأوس والخزرج» اللتان كانتا من مهاجري عرب اليمن (من القحطانيين).

وكان يعيش إلى جانبهم الطوائف اليهوديه الثلاث المعروفه: «بنو قريظه» و «بنو النضير» و «بنو قينقاع» الذين كانوا قد هاجروا إليها من شمال شبه الجزيره العربيه واستوطنوها.

وكان يقدم إلى مكّه كلّ عام جماعه من عرب يثرب للاشتراك في مراسيم الحج، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يلتقى بهم في تلك المواسم، ويجرى معهم اتّصالات.

على أنّ كثيراً من تلك الاتصالات وإن لم تثمر ولم تنطو على أيّه فائده فعليه إلّا أنّها تسببت في أن يحمل حجّاج يثرب - لدى عودتهم - أبناء ظهور النبيّ الجديد وينشروه في أوساط المدينه كأهم نبأ من أبناء الساعه، ويلفتوا نظر الناس في تلك الديار إلى مثل هذا الأمر المهم والخطير.

ولهذا ننقل هنا بعض اللقاءات والاتّصالات التي تمّت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجماعات من أهل هذه المدينه في السنه الحاديه عشره والثانيه عشره والثالثه

عشره من البعثه لتتضح بدراسه هذه المطالب عله هجره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من مكه إلى يثرب، وتمركز قوى المسلمين فى تلك المنطقه.

١. كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلما سمع بقادم يقدم مكه من العرب له اسم وشرف تصدى له، ودعاه إلى الإسلام وعرض عليه ما عنده.

قدم «سويد بن الصامت» أخو بنى عمرو بن عوف، مكه حاجاً أو معتمراً، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له سويد: فلعل الذى معك مثل الذى معى.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وما الذى معك؟

قال: مجله لقمان، يعنى حكمه لقمان.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إعرضها علىّ، فعرضها عليه. فقال له: إنّ هذا الكلام حسن، والذى معى أفضل من هذا. قرآن أنزلهُ اللهُ تعالى علىّ هو هدى ونور. فتلا عليه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال سويد: إنّ هذا قولٌ حسن (وآمنَ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج، فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم، وكان قتله قبل يوم بعث(١). (٢)

٢. لما قدم «أنس بن رافع» مكه ومعه فتية من بنى عبد الأشهل، فيهم «إياس بن معاذ»، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتاهم وجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم فى خير ممّا جئتم له؟

فقالوا له: وما ذاك؟

قال: «أنا رسول الله بعثنى إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا

ص: ٦٢٥

١- . بعث موضع كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج.

٢- . السيره النبويه لابن هشام: ٢/٢٨٩-٢٩١.

به شيئاً، وأنزل على الكتاب» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً شهماً: أى قوم هذا والله خير مما جئتم له. فقد أدركك جديداً أنّ دين التوحيد يكفل كل حاجاتهم فهو دين شامل مبارك؛ لأنه سيصهر الجميع فى بوتقه الأخوة الواحدة فتزول عندئذ أسباب العداة والقتال، وبذلك ينهى كل مظاهر الحرب والتنازع، وكل مظاهر الفساد والتخريب فهو أفضل من طلب المساعدة العسكرية من قريش التى جاءوا من أجلها إلى مكة، فأمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من دون أن يكسب رضا رئيس قبيلته «أنس بن رافع» واستدانه.

ولهذا غضب أنس بن رافع وأخذ حفنه من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعث بين الأوس والخزرج.

ثم يلبث إياس أن هلك، وقد سمعه من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعون يهمل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما سمع. (1)

وقعة بُعث:

كانت وقعة بُعث من الحروب التاريخية بين الأوس والخزرج، فى هذه الوقعة انتصر الأوسيون على منافسيهم، وأحرقوا نخيل الخزرجيين، ثم وقعت بعد ذلك حروب ومصالحات بينهم.

ولم يشترك «عبدالله بن أبي» وهو من أشراف الخزرج فى هذه الوقعة من

ص: ٦٢٦

هنا كان موضع احترام من القبيلتين، وكاد الطرفان يفقدان مقاومتهما بسبب تكرار الحروب، وتحمل الخسائر الثقيله، ولهذا رغب الطرفان فى عقد صلح بينهما يضع حدًا لجميع أشكال العمليات العسكريه، والغزو والاقتتال، والثأر والانتقام، وأصرت القبيلتان على «عبدالله بن أبى» بأن يقبل بقياده عمليه المصالحه هذه، بل وأعدوا له تاجاً يتوجونه به، حتى يصبح أميراً فى وقتٍ معيّن، ولكن هذا المشروع تعرض للانهيـار والسقوط وواجه الفشل على أثر اعتناق جماعه من الخزرج الإسلام، ففى هذا الوقت بالذات التقى رسول الله بمكه بسته أشخاص من رجال الخزرج ودعاهم إلى الإسلام فأمنوا به، ولّبوا دعوته.

تفصيل الحادث:

خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه نفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كل موسم، فبينما هو عند العقبه لقي رهطاً من الخزرج وكانوا سته أنفار أراد الله بهم خيراً. فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمن موالى اليهود؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلّمكم؟

قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّوجلّ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن وكان ممّا صنع الله بهم فى الإسلام، أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكان اليهود قد غزّوهم ببلادهم، فكانوا إذا وقع بينهم شىء قال اليهود لهم: إنّ نبياً مبعوث الآن، قد أظلم (أو أطل) زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

ص: ٦٢٧

فَلَمَّا كَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْلِيَّكَ النَّفْرَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ يَا قَوْمِ: تَعْلَمُوا وَاللَّهِ إِنَّهُ لِلنَّبِيِّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ الْيَهُودُ فَلَا يَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ.

فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِأَنْ صَدَّقُوهُ وَقَبَلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَقَالُوا: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مِثْلَ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ بِكَ، فَسَنَقْدُمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أُجْبِنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَا رَجُلَ أَعَزَّ مِنْكَ. (١)

بيعه العقبة الأولى:

لَقَدْ أَثَّرَتْ دَعْوَةُ هَؤُلَاءِ السَّتَّةِ، الْجَادَةِ فِي يَثْرِبٍ تَأْثِيرًا حَسَنًا حَيْثُ سَبَّبتْ فِي إِسْلَامِ فَرِيقٍ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبٍ وَاعْتِنَاقِهِمْ عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ. فَلَمَّا كَانَ الْعَامَ الْمُقْبِلَ (أَيَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْبَعْثَةِ) قَدِمَ مَكَّةَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ يَثْرِبٍ، فَلَقُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْعَقْبَةِ، وَانْعَقَدَتْ هُنَاكَ أَوَّلُ بَيْعِهِ إِسْلَامِيَّةً.

وَأَبْرَزَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ هُمْ: أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَعَبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَكَانَ نَصُّ هَذِهِ الْبَيْعَةِ - بَعْدَ الْإِعْتِرَافِ بِالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ - هُوَ كَمَا نَقَلَ عَنْ عَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: كُنْتُ فِي مَنْ حَضَرَ الْعَقْبَةَ الْأُولَى، وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَبَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادِنَا، وَلَا نَأْتِيَ بِبَهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلَا نَعْصِيهِ فِي مَعْرُوفٍ.

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): فَإِنْ وَفَيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَشَيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِنْ شَاءَ عَذَّبَ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ. (٢)

ص: ٦٢٨

١- . تاريخ الطبري: ٢/٨٦؛ والسيره النبويه لابن هشام: ٢/٢٩٢؛ بحار الأنوار: ١٩/٢٥.

٢- . السيره النبويه لابن هشام: ٢/٢٩٥.

وهذه البيعه اصطلاح على تسميتها المؤرخون وكتّابُ السيره ببيعه النساء، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أخذ البيعه من النساء في فتح مكّه على هذا النحو(١).

وعاد هؤلاء النفر إلى يثرب بقلوب مفعمه بالآيمان، مترعه بمحبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعمدوا إلى نشر الإسلام وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبعث لهم من يعلمهم الإسلام والقرآن، فبعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لهم «مصعب بن عمير» وأمره بأن يقرّئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يُسمّى المقرئ بالمدينه. واستطاع هذا المبلّغ القدير، وهذا الداعيه النشيط أن يجمع المسلمين بفضل عمله الدؤوب والحكيم وتبليغه الصحيح في غياب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويؤمّمهم، ويصلّي بهم.(٢)

بيعه العقبه الثانيه:

لقد أحدث تقدّم الإسلام في يثرب هيجاناً كبيراً وشوقاً عجبياً في نفوس المسلمين من أهلها، فكانوا ينتظرون بفارغ الصبر حلول موسم الحجّ، ليقدموا مكّه، ويلتقوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كثب، ويُظهروا له عن استعدادهم لتقديم ما يطلب منهم من خدمه وعملٍ، وليستطيعوا توسيع نطاق البيعه من حيث الكمّ ومن حيث الكيف.

وأخيراً حلّ موسم الحجّ فخرجت قافلته كبيرة من أهل يثرب للحجّ تضمّ خمسمائه نفر فيهم ثلاث وسبعون من المسلمين من بينهم امرأتان، والباقي إمّا راغبون في الإسلام، وإمّا غير مكترث به، حتّى قدموا مكّه، والتقوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فواعدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالعقبه للبيعه إذ قال: «موعدكم العقبه في الليله الوسطى

ص: ٦٢٩

١- . والتي جاء ذكرها في الآيه ١٢ من سوره الممتحنه.

٢- . لاحظ: بحار الأنوار: ١٩/٢٥.

فلما كانت الليلة الثالثة عشره من شهر ذى الحجة وهى التى واعدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها باللقاء، ونام الناس حضر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع عمه «العباس بن عبدالمطلب» قبل الجميع، وخرج المسلمون من رحالهم يتسللون تسلل القطا مستخفين بعد أن ناموا مع قومهم فى رحالهم، ومضى ثلث الليل لكيلا يحسوا بخروجهم، حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة، ولما استقر المجلس بالجميع، كان أول متكلم هو: العباس بن عبدالمطلب فقال واصفاً منزله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسيتها - إنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا... فهو فى عزٍّ من قومه، ومنعه فى بلده، وإنه قد أبى إلّا الإنحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه فإنَّه فى عزٍّ ومنعه من قومه وبلده. فقال الحضور: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم قال:

أبايُعمكم على أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

فأخذ البراء بن معرور بيد النبى صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك ممَّا نمنع منه أُرُونا(١)، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل

ص: ٦٣٠

١- . الملاحظ فى هذه البيعة أنَّها كانت بيعه للدفاع عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وليس بيعه للجهاد فى سبيل الله، ولهذا فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقدم على القتال فى بدر إلّا بعد أن كسب موافقه الأنصار ورضاهم.

الحلقه (أى السلاح) ورثاها كابرأ عن كابر.

(فدبّ فى الحضور حماس وسرور عظيم وتعالت الأصوات والنداءات من الخزرجيين والتي كانت تعبيراً عن شدة حماسهم، وسرورهم لهذا الأمر، فقام العباس وهو آخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفى هذه الأثناء نهض «البراء بن معرور» و «أبو الهيثم بن التيهان» و «أسعد بن زراره» من مواضعهم وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم بايعه بقيه القوم جميعاً).

وقد قال ابن التيهان عند مبايعته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله إنّ بيننا وبين الرجال (أى اليهود) حبلاً (وعلاقات) وإنّا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «بل الدّم الدّم، والهّدم الهّدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتهم، وأسالم من سالمتم» يعنى أنّه سيبقى على العهد، ولا- يتركهم وكانت العرب تقول عند عقد الحلف: دمي دميّك، وهديمي هديمك، وهى كناية عن البقاء على العهد واحترام الميثاق والحلف.

ثم إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أخرجوا إليّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم. (١)

فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً، تسعه من الخزرج، وثلاثة من الأوس. (٢)

وروى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال للنقباء أنتم على قومكم بما فيهم كُفلاء، ككفاله الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيلٌ على

ص: ٦٣١

١- . راجع: المحبر: ٢٦٨-٢٧٤.

٢- . السيره النبويه لابن هشام: ٢/٣٠٢-٣٠٣، بتصرّف.

قومي (يعنى: المسلمين) قالوا: نعم. (١).

وفى روايه أُخرى: أبايعكم كبيعه عيسى بن مريم للحواريين كفلاء على قومهم بما فيهم، وعلى أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فبايعوه على ذلك. وبعد أن تمت مراسم البيعه وعدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يهاجر إليهم فى الوقت المناسب، ثم ارفض الجمع وعاد القوم إلى رحالهم. (٢).

أوضاع المسلمين بعد بيعه العقبه:

والآن ينبغى أن نجيب بالتفصيل على السؤال الذى يطرح نفسه هنا وهو: ما الذى دعا أهل يثرب الذين كانوا بعيدين عن مركز ظهور الإسلام إلى أن يستجيبوا لنداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويأخذوا بتعاليمه أسرع من المكين مع ما كان بين المكين وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القرابه القريبه؟!

وكيف تركت تلك اللقاءات المعدوده القصيره بأهل يثرب آثاراً تفوق الآثار التى تركتها الدعوة المحمديه خلال ثلاثه عشر عاماً فى مكه؟!

إنّ علّه هذا التقدّم يمكن اختصارها وحصرها فى أمرين:

أولاً: أنّ اليربيين جاوروا اليهود سنيناً عديده وطويله قبل الإسلام وكثيراً ما

ص: ٦٣٢

١- . السيره النبويه: ٢/٣٠٥.

٢- . بحار الأنوار: ١٩/٢٥ و ٢٦؛ السيره النبويه لابن هشام: ٢/٣٠٢-٣٠٥؛ الطبقات الكبرى: ١/٢٢١-٢٢٣. وفى روايه أُخرى فى البحار: ١٩/٤٧، كما أخذ موسى من بنى إسرائيل اثني عشر نقيباً. وقد كان هذا العمل النبوى حكيماً جداً لأنّ عامه الناس لا يمكن التعويل والاتكال على التزاماتهم بل لابد من الاعتماد - ضمناً - على رموز المجتمع ومفاتيحه وهم وجوه القوم وسراتهم.

كانوا يتحدثون في مجالسهم وأنديتهم عن النبي العربي الذي يظهر، ويأتي بدين جديد.

حتى أن اليهود كانوا يقولون: للوثنيين إن هذا النبي سيقم دين اليهود وينشره، ويمحى الوثنيه ويقضى عليها بالمره.

فتركت هذه الكلمات أثراً عجبياً في نفوس أهل يثرب، وهيات قلوبهم لقبول الدين الذي كان يخبر عنه يهود و ينتظرونه، بحيث عندما التقى الأنفار الستة من أهل المدينة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأول مره، بادروا إلى الإيمان به من غير إبطاء ولا تأخير بعد أن قال بعضهم لبعض: والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه.

ومن هنا فإن مما يأخذه القرآن على اليهود هو: أنكم كنتم تهددون الوثنيين بالنبي العربي، وتبشرون الناس بأنه سيظهر، وأنكم قرأتم أوصافه وعلائمه في التوراه فلماذا رفضتم الإيمان به لما جاء صلى الله عليه وآله وسلم؟

يقول تعالى:

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (١).

ثانياً: أن العامل الآخر الذي يمكن اعتباره دخلياً في التأثير في نفوس اليثريين وسرعه إقبالهم على الإسلام وتقبلهم لدعوه النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو التعب والإرهاق الذي كان أهل يثرب قد أصيبوا به من جزاء الحروب الطويله الداميه فيما بينهم والتي استمرت مائه وعشرين عاماً والتي أنهكتهم وكادت أن تذهب بما تبقى من رمقهم، وجعلتهم يملون الحياه، ويفقدون كل أمل في تحسن الأحوال والأوضاع.

ص: ٦٣٣

وإنّ مطالعه وقعه «بُعَاث» وهى - حرب وقعت بين الأوس والخزرج - وحدها كفيّله بأن تجسّد لنا الوجّه الواقعى المذى كان عليه سكان تلك الديار. ففى هذه الوقعه انهزم الأوسيون على يد الخزرجيين، فهربوا إلى «نجد»، فعيرهم الخزرجيون بذلك، فغضب «الحضير» سيد الأوس، لذلك غضباً شديداً، فطعن فخذة برمحه لشده انزعاجه وغضبه، وترجّل عن فرسه وصاح بقومه قائلاً:

والله لا أقوم من مكاني هذا حتّى أقتل!! فأوقد صمود «الحضير» ونباته نار الحميه والغيره وأشعل روح الشهامه والبساله فى قومه، فقرّروا الدفاع عن حقّهم مهما كلفهم الأمر، فقاتلوا أعداءهم مستميتين، والمستميت منتصر لا محاله، فانصر الأوسيون المغلوبون، هذه المره، وهزموا الخزرج هزيمة نكراء وأحرقت مزارعهم ونزل بهم ما نزل على يد الأوسيين!! (١)

ثم تتابعت الحروب والمصالحات بعد ذلك، وكانت القبيلتان تتحملان فى كلّ مره خسائر كبرى، جعلتهم يواجهون عشرات المشاكل الّتى حوّلت حياتهم إلى حياه مضنيه متعبه جداً.

من هنا لم تكن كلتا القبيلتين راضيتين على أوضاعهما، وكانتا تبحثان عن مخلص ممّا هما فيه، من الحاله السيئه، وتفتشان عن نافذه أمل، ومخرج من تلك المشاكل.

ولهذا وجد الخزرجيون الستة ضالّتهم المنشوده عندما التقوا - ولأوّل مرّه - رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسمعوا منه ما سمعوا، فتمنّوا أن يضعوا به حدّاً لأوضاعهم المتردّيه إذ قالوا له: عسى أن يجمعهم الله بك فإن جمعهم الله بك فلا رجلاً أعزّ منك.

ص: ٦٣٤

١- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ١/٦٨٠.

كانت هذه هي بعض الأسباب التي دعت اليثريين إلى تقبل الإسلام بشوقٍ ورغبةٍ وحماسٍ.

ردود فعل قريش تجاه بيعه العقبة:

كانت قريش تغطّ في نوم عميق وكانت تتصوّر بأنّها قد حدّت من تقدّم الإسلام في مكّة وأنّه قد بدأ يتقهقر ويسير باتجاه السقوط والاندحار، وأنّه لن ينقضى زمانٌ إلّا وتنطفئ جذوه الإسلام وتخمد شعلته، وتمحى آثاره.

وفجأه استيقظت على دوىّ بيعه العقبة الثانيه التي كانت بمثابة انفجار قلبت كلّ المعادلات، وأسقطت كلّ تصوّرات قريش الساذجه، وذلك عند ما عرف زعماء الوثنيين بأنّ ثلاثاً وسبعين شخصاً من اليثريين عقدوا ليله أمس وتحت جناح الظلام بيعه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن يدافعوا عنه كما يدافعون عن أبنائهم وأهلهم.

فأحدث هذا النبأ خوفاً عجبياً في قلوب قادة قريش وساده مكّة المشركين المتغطرسين، لأنّهم أخذوا يقولون مع أنفسهم: لقد وجد المسلمون الآن قاعده قويه في قلب الجزيرة العربية، وأنّه يُخشى أن يجمع المسلمون كلّ طاقتهم المبعثره فيها. ويعملون معاً على نشر دينهم، وبث عقيدتهم، وحينئذ ستواجه الوثنيه في مكّة خطراً جدياً، يهدّدها في الصميم.

ولهذا بادرت قريش إلى الاتّصال بالخزرجيين صبيحه تلك الليله وقالوا لهم:

يا معشر الخزرج إنّه قد بلغنا أنّكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنّه والله ما من حيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحربُ بينا وبينهم، منكم.

فحلفَ المشركون من أهل يثرب لقريش أنّه ما كان من هذا شيء، وما علموه، وقد صدقوا لأنّهم لم يعلموا بما جرى في العقبة. فإنّ قافله اليثريين كانت

تضمُّ خمسمائه شخص، تسلَّل منهم ثلاث وسبعون فقط إلى العقبه وبقية الناس نيام لا يعلمون بشيء.

فأتت قريش إلى «عبدالله بن أبي بن سلول» فسألوه عمّا جرى في ليله العقبه، فأنكر ذلك وقال: إنَّ هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا (أى يعملوه من دون مشورتى) وما علمته كان فانصرفوا عنه. (١)

فعرف المسلمون الذين حضروا ذلك المجلس وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بفشوق أمرهم، وانكشاف سرهم، ولهذا قال بعضهم لبعض: مادمنّا لم نعرّف بعدُ فلنخرج من مكّه فوراً قبل أن يظفر المشركون بنا، ولهذا أسرعوا في الخروج من مكّه والتوجه إلى المدينه، فزاد ذلك من سوء ظن قريش وعزّزت شكوكهم حول البيعه، وعرفوا بأنّه قد كان، فخرجوا في طلب جميع الثريين، ولكنهم لم يتبّهوا لذلك إلّا بعد خروج قافلته الثريين من حدود مكّه، والمكيين، ولم تظفر قريش إلّا بسعد بن عباده. غير أنّ ابن هشام يرى بأنهم ظفروا بنفرين هما: «سعد بن عباده» و«المنذر بن عمر»، وكان كلاهما من النقباء الاثني عشر.

أمّا «المنذر» فاستطاع أن يخلّص نفسه منهم.

وأمّا «سعد» فقد أخذوه، وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتّى أدخلوه مكّه يضربونه، ويجذبونه بجمّته (٢) وكان ذا شعرٍ كثيرٍ.

قال سعد: فوالله إنّي لفي أيديهم إذ طلع عليّ نفرٌ من قريش فيهم رجلٌ وضىء أبيض، طويل القامه، فقلت في نفسي: إن يك عند أحدٍ من القوم خير فعند

ص: ٦٣٦

١- السيره النبويه لابن هشام: ٢/٣٠٧.

٢- مجتمع شعر الرأس.

هذا.

قال: فلما دنا منّي رفع يده فلكنني لكمه شديدهً.

فقلتُ في نفسي: لا والله، ما عندهم بعد هذا من خير.

قال: فوالله إنني لفي أيديهم يسحبونني إذ رُقّ عليّ رجلٌ ممن كان معهم:

فقال: ويحك أما بينك وبين أحدٍ من قريش جوارٌّ ولا عهدٌ؟

قلت: بلى كنتُ أُجير لجبير بن مُطعم بن عدى تجارهً، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن حرب، قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما، ففعل. وخرج ذلك الرجل إليهما... فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً، قالوا: ومن هو؟ قال: سعد بن عباد.

فقال مُطعم: صدق والله إنّه كان ليجير لنا تجارنا، ويمنعهم أن يُظلموا ببلده، فجاء فخلّصا سعداً من أيديهم. (1)

تأثير الإسلام ونفوذه المعنوي:

يصرُّ المستشرقون على أنّ انتشار الإسلام ونفوذه في المجتمعات تمّ بواسطة السيف وفي ظلّ استخدام القوّه.

أمّا بطلان هذا الكلام فسيثبت من خلال الحوادث القادمة.

ونحن نذكر هنا للمثال حادثه وقعت قبل الهجرة، ونلفت إليها نظر القارئ الكريم، فإنّ دراستها والتعمّق فيها يثبت بجلاء أنّ انتشار الإسلام ونفوذه في أوساط الناس كان في بدايه الأمر تابعاً من جاذبيته التي كانت تجذب كلّ إنسان بمجرد

ص: ٦٣٧

إعطاء شرح مختصر عنه وعن تعاليمه المحببه إليه.

وإليك الحادّته بنصّها:

قرّر مصعب بن عمير المبلّغ والداعيه الإسلامى المعروف الذى بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينه بطلب من أسعد بن زراره، ذات يوم أن يدعو هو وأسعد أشراف المدينه وساداتها إلى الإسلام بالمنطق والدليل، فدخلا حائطاً (1) من حوائط المدينه فجلسا هناك واجتمع إليهما رجال ممّن أسلم، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما من سادات بنى الأشهل موجودين هناك أيضاً.

فقال سعد لأسيد: جرّد حربتك وقل لهذين (يعنى مصعباً وأسعد) ماذا جاء بهما إلى ديارنا يسفهان ضعفاءنا، ولولا أنّ سعد بن زراره ابن خالتي، لكفيتك ذلك.

ففعل أسيد ذلك وقال لمصعب ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا وراح يشتمهما فقال له مصعب داعيه الإسلام الحكيم، والمتكلم البليغ الذى تعلّم أسلوب الدعوه المؤثر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟

قال: أنصفت ثم ركّز حربته وجلس إليهما يستمع لقولهما فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه شيئاً من القرآن فأثرت آيات القرآن وما قاله مصعب من المواعظ البليغه فى نفسه حتّى عرّف ذلك فى إشراق وجهه، وانفراج أساريه، وشوقه فقال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله؟! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ فقال مصعب وسعد له: تغتسل فتطهر وتغسل ثوبيك ثم تشهد شهاده الحق ثم تصلّى.

فقام أسيد بن حضير الذى حضر لقتل مصعب وسعد من عندهما مبتهجاً

ص: ٦٣٨

مسوراً فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهاده الحق ثم قام فرقع ركعتين.

ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد بن معاذ الذي كان ينتظر عودته على أحر من الجمر، فلما نظر إليه سعد وقومه وهم جالسون في ناديهم قال:

أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، فغضب سعد لذلك غضباً شديداً، وأخذ الحربه من أسيد، ثم خرج إلى مصعب وأسعد ليقتلها، فلما رآهما سعد مطمئنين وقف عليهما متشتماً مهدداً إياهما، ولكن مصعباً وزميله قابلاً به بمثل ما قابلاً به سابقه أسيد، وجرى له ما جرى له، فقد فعلت كلمات مصعب في نفسه فعلتها، وخضع لمنطقه القوى، وبيانه الساحر، وندم على ما قصد فعله، وقال لمصعب نفس ما قاله أسيد واعتنق الإسلام واغتسل وتطهر وصلى ثم رجع إلى قومه وقال لهم: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيباً.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله، فالحمد لله الذي أكرمنا بذلك.

فلم يمس في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، وهكذا أسلم كل قبيله بني الأشهل قبل أن يروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصبحوا من الدعاه إلى الإسلام والمدافعين عن عقيدته التوحيد، لا بمنطق القوه إنما بقوه المنطق. (١)

إن في التاريخ الإسلامي نماذج كثيرة من هذا القبيل تدل على بطلان وتفاهه

ص: ٦٣٩

١- . لاحظ: إعلام الوری: ١/١٣٩-١٤١؛ بحار الأنوار: ١٩/١٠ و ١١؛ السيره النبويه: ٢/٢٩٧.

ما قاله أو روجه المستشرقون حول أسباب تقدّم الإسلام وانتشاره، فإنّ العامل المعتمد في جميع هذه الموارد لم يكن المال والتطميع، ولا- السلاح والتهديد، كما ادّعى المستشرقون، وإنّ الذين أسلموا في هذه الحوادث والوقائع لا هم رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أنّهم التقوا أو اتّصلوا به بنحوٍ من الأنحاء، إنّما كان السبب الوحيد هو: منطق الداعية الإسلامي القويّ وبيانه الساحر الجذّاب، فهو المذّي كان يفعل في النفوس فعله العجيب، خلال دقائق معدوده، لا في نفس شخص واحد فحسب، بل ربّما في نفوس قبيله بكاملها. أجل إنّ المنطق القوي والكلام المبرهن والحججه البالغه لا سواها.

مخاوف قريش المتزايدة:

لقد أيقظت حمايه اليتريين للمسلمين قريشاً من غفلتها ونومها العميق مره أخرى، وكانت بيعه العقبه الثانيه بمثابة ناقوس خطر لها فبدأت أذاها واضطهادها ومضايقتها لهم من جديد، وتهيأت للعمل على الحيلولة دون انتشار الإسلام ونفوذته وتقدّمه في الجزيره العربيه، وبلغ ذلك الأذى مبلغاً عظيماً.

فشكا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليه ما يلقونه على أيدي المشركين من ضغوط وأذى، واستأذنوه في الهجره إلى مكان فاستمهلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال:

«قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها» (١).

وبعد الإذن بالهجره من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ المسلمون يخرجون من مكّه، ويتوجّهون إلى المدينه شيئاً فشيئاً وبحجج مختلفه لكي لا تمنعهم قريش من الهجره.

ص: ٦٤٠

ولم يكن قد مضى على بدايه هجره المسلمين التدريجيه هذه زمان طويل إلّا وفطن زعماء قريش لسرّها، وخطرها عليهم فأخذوا يمنعون من أى تنقل وسفر يقوم به المسلمون، وقَرروا أن يعيدوا إلى مكّه كلّ مَنْ وجدوه في أثناء الطريق، كما قرروا أن يحبسوا زوجه كلّ مسلم يريد الهجره وله زوجه قرشيه ويمنعوها عنه، ولكنهم كانوا يتجنّبون إراقه الدماء في هذا السبيل، بل وكان يقتصر أذاهم على الحبس والتعذيب ولا يتعدّاهما.

ولكن هذه المحاولات التي قام بها زعماء قريش لوقف الهجره إلى المدينه لم تثمر لحسن الحظ.

فقد استطاعت مجاميع كبيره من المسلمين النجاه بنفسها من أيدي قريش واللحاق بزملائهم وإخوانهم في يثرب حتّى أنّه لم يبق في مكّه من المسلمين إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عليه السلام وعدد قليل من المسجونين، أو المرضى من المسلمين.

وقد زاد اجتماع المسلمين في يثرب من مخاوف قريش، وضاعف من قلقها، ولهذا اجتمع كلّ رؤساء القبائل المكيه في «دار الندوه» أكثر من مرّه للتشاور في كيفية القضاء على الإسلام وطُرحت في ذلك المجلس خطط متنوّعه، واقتُرحت أمور كثيره لتحقيق هذه الغايه ولكنها فشلت برمتها بتدبير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحكمته، وسياسته الدقيقه.

وأخيراً هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من «مكّه» إلى «المدينه» في شهر ربيع الأوّل سنة ١٢ من البعته.

أجل لقد تضاعف قلق قريش منذ أن حصل محمّد على قاعده ثانيه خارجه عن نطاق هيمنه المكيين وسيطرتهم وأصبحوا حيارى لا يدرون ماذا يفعلون، لأنّ جميع خططهم لمنع من انتشار الإسلام واتّساع رقعته، قد باءت بالفشل.

لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بالهجرة إلى المدينة والالتحاق بالأنصار وقال لهم: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ دَاراً وَإِخْوَاناً تَأْمُنُونَ بِهَا» (١). (٢)

ص: ٦٤٢

١- . بحار الأنوار: ١٩/٢٦.

٢- . لقد انتهينا من تسجيل حوادث السنوات الثلاث عشره من البعثه، وقد حاولنا ذكر كل ما كان معلوماً مشهوراً من تواريخها، ولكن لا يمكن اعتبار تواريخ كل تلك الحوادث أموراً مقطوعاً بها من هنا ذكرنا الحوادث المثبتة في الفصل ٢٥ من دون إدراج تواريخ لها في الأغلب ولكن حيث إن الوقائع الحادته بعد الهجرة وقعت في أوقات معينه معلومه لذلك فاننا سنرفق ذكر كل حادته بتاريخ وقوعها في الفصول القادمه.

كان زعماء قريش و رؤساؤها يجتمعون عند كل نائبه تنوبهم فى «دار الندوه» لحلّ المشاكل ومعالجه ما عرض لهم من نائبه من خلال التشاور حولها وتداول الرأى فيها، ومن خلال تضافر الجهود على حلّها، ورفعها أو دفعها.

وفى السنوات الثانيه عشره، والثالثه عشره من البعثه واجه أهل مكّه خطراً كبيراً جدياً، فقد حصل المسلمون على مركز هام، وقاعده صلبه فى يثرب، وتعهد اليتريون الشجعان بحمايه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والدفاع عنه، وكلّ هذا كان من علامات ومظاهر ذلك التهديد الخطير، الذى بات يهدّد كيان المشركين والوثنيين والزعامه القرشيه.

وفى شهر ربيع الأوّل من السنه الثالثه عشره من البعثه التى وقعت فيه هجره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبينما لم يكن قد بقى من المسلمين فى مكّه إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى وأبوبكر وجماعه قليله من المسلمين المحبوسين، أو المرضى، أو العجزه، وكان هؤلاء على أبواب الهجره ومغادره مكّه إلى المدينه اتّخذت قريش فجأه قراراً قاطعاً وحاسماً وخطيراً جداً فى هذا المجال.

فقد انعقدت جلسه هامه للتشاور فى «دار الندوه» حضرها رؤساء قريش وزعماؤها وبدأ متكلّمهم(١) يتحدّث عن تجّمع القوى والعناصر الإسلاميه

وتمرکزها فی المدینہ والبیعہ الّتی تمّت بین الخزرجیین والأوسیین و بین رسول اللّٰہ صلی اللّٰہ علیہ و آلہ و سلم ثم أضاف قائلاً:

یا معشر قریش إنّہ لم یکن أحدٌ من العرب أعزَّ مِنّا، نحن أهل اللّٰہ تفد إلینا العرب فی السنہ مرتین، ویکرموننا، ونحن فی حرم اللّٰہ لا یطمع فینا طامعٌ، فلم نزل كذلك حتّٰی نشأ فینا «محمّد بن عبد اللّٰہ» فکنا نسّمیہ (الأمین) لصلاحہ، وسکونہ، وصدق لهجّتہ، حتّٰی إذا بلغ ما بلغ وأکرمناه ادّعی أنّہ رسول اللّٰہ، وأنّ أخبار السماء تأتیہ، فسفّہ أحلامنا، وسبّ آلہتنا، وأفسد شباننا، وفرّق جماعتنا، فلم یرد علینا شیء أعظم من هذا، وقد رأیت فیہ رأياً قالوا: وما رأیت؟ قال: رأیت أن ندسّ إلیہ رجلاً مِنّا لیقتلہ، فإن طلبت بنو ہاشم بدمہ (۱) أعطیناہم عشر دیات.

فقال رجلٌ مجهول (۲) حضر ذلك المجلس وعزّف نفسه بأنّہ شیخ من أهل نجد: هذا رأی خبیث، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: لأنّ قاتل محمّد مقتول لا محالہ، فمن هذا الذی یبذل نفسه للقتل منكم؟ فإنّہ إذا قُتل محمّد تعصّب بنو ہاشم وحلفاؤہم من خزاعہ، وإنّ بنی ہاشم لا ترضی أن یمشی قاتل محمّد علی وجه الأرض فیقع بینكم الحروب وتفتانوا.

فقال أبو البختری: نلقیہ فی بیت ونلقی إلیہ قوتہ حتّٰی یأتیہ ربّ المنون.

فقال الشیخ النجدیّ مرّہ أُخری: وهذا رأیٌ أخبث من الآخر، قال: وكيف ذاك؟ قال: لأنّ بنی ہاشم لا ترضی بذلك، فإذا جاء موسمٌ من مواسم العرب استغاثوا بهم، واجتمعوا علیکم فأخرجوه.

فقال ثالث: نُخرجه من بلادنا ونتفرّغ نحن لعبادہ آلہتنا. وفي روایہ أُخری قال: نرخل بعیراً صعباً ونوثق محمّداً علیہ كتافاً، ثم نضرب البعیر بأطراف الرماح

ص: ۶۴۴

۱- . وفي روایہ: بدیتہ.

۲- . فی بعض المصادر: وجاء إبليس فی صورہ شیخ كبير.

فيوشك أن يقطع بين الصخور والجبال إرباً إرباً.

فانبرى ذلك الشيخ النجدي يخطئ هذا الرأي أيضاً قائلاً: أرأيتم إن خلص به البعير سالماً إلى بعض الناس فأخذ بقلوبهم بسحر بيانه وطلاقه لسانه، فصباً(١) القوم إليه واستجابت القبائل له قبيله فقبيله، فليسيرن حينئذ إليكم الكتائب والجيش فلتهلكن كما هلكت أياد ومن كان قبلكم.

فتحبروا وساد الصمت ذلك المجلس، وفجأه قال أبو جهل (وعلى روايه:

قال ذلك الشيخ النجدي): ليس هناك من رأى إلماً أن تعمدوا إلى قبائلكم فتختاروا من كل قبيله منها رجلاً قوياً ثم تسلحوه حساماً غضباً وليهجموا عليه معاً بالليل ويقطعوه إرباً إرباً فيتفرق دمه في قبائل قريش جميعاً فلا تستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضه قبائل قريش كلها في صاحبهم فيرضون حينئذ بالديه منهم!!

فاستحسن الجميع هذا الرأي، واتفقوا عليه، ثم اختاروا القتل وتقرر أن يقوموا بمهمتهم اذا جن الليل وساد الظلام كل مكان.(٢)

الإمدادات الغيبية والعنايات الإلهية:

لقد كان أولئك العتاه الجهله يتصورون أن رساله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم المدعومه من قبل الله تعالى والمؤيده من جانبه سبحانه يمكن أن يقضى عليها بواسطه هذه الحيل والمكائيد، والخطط والمؤامرات، ولم يكونوا يدركون أن هذا النبي - كغيره من الأنبياء - يتمتع بالمدد الإلهي الغيبي، وأن اليد التي حفظت مشعل الإسلام طوال ثلاثه عشر عاماً في وجه الأعاصير والرياح، قادره على إفشال هذه الخطة الأثيمه،

ص: ٦٤٥

١- . صبأ فلان: أى خرج من دينٍ إلى دينٍ غيره، وكانت العرب تُسمي النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام، وتُسمي المسلمين: الصباه.. وهو جمع الصابئ.

٢- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ١/٢٢٧ و ٢٢٨؛ السيره النبويه لابن هشام: ١/٣٣١-٣٣٢؛ بحار الأنوار: ١٩/٤٩-٥٠، و ٥٧-٥٩ باختلاف في الألفاظ.

وتعطيل هذه المؤامره أيضاً.

يقول المفسِّرون: بعد أن دبر الكفار ما دبّروا نزل ملك الوحي «جبرئيل»، على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بما حاكَّ ضده المشركون من مؤامره، إذ قرأ عليه قول الله تعالى: «وَ إِذِ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْتُوكَ أَوْ يِقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» (١).

وعندئذ أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرة من مكه إلى المدينة، ولكنَّ التخلُّص من أيدي القساة المكلفين بقتله من قبل زعماء الوثنيين وبالنظر إلى المراقبه الدقيقه التي كانوا يقومون بها لجميع التحركات، لم يكن بالأمر السهل وخاصه بالنظر إلى بُعد المسافه بين مكه والمدينه.

فإذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخرج من مكه وفق خطه دقيقه صحيحه كان من المحتمل جداً أن يدركه المكيون في أثناء الطريق ويقبضوا عليه ويسفكوا دمه الشريف قبل أن يصل إلى أتباعه وأصحابه.

ولقد ذكر المفسِّرون والمؤرِّخون صوراً مختلفه لكيفيه خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهجرته والاختلاف الذي نلاحظه بين هؤلاء المفسِّرين والمؤرِّخين في خصوصيات وتفصيل هذه الوقعه ممَّا يقل نظيره في غيره من الوقائع.

وقد استطاع مؤلّف «السيره الحلبيه» (٢) أن يوفِّق إلى درجهٍ ميا، بين المنقولات والمرويات المختلفه ببيان خاص، ولكنّه لم يوفِّق لإزاله التناقض والاختلاف في بعض الموارد في هذا الصعيد.

ص: ٦٤٦

١- . الأنفال: ٣٠. ليشتوك أي ليسجنوك.

٢- . لاحظ: السيره الحلبيه: ٢/١٩١ وما بعدها.

على أنّ الموضوع الجدير بالاهتمام هو أنّ أكثر المؤرّخين الشيعة والسنة نقل كيفية هجره النبيّ، وخروجه من منزله، ثم من مكّه بنحو مؤداه إسناد نجاه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وخلصه إلى عامل الإعجاز، وبالتالي فقد أسبغوا عليه صبغه الكرامه، والمعجزه.

في حين أنّ الإمعان في تفاصيل هذه القصة يكشف عن أنّ نجاه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كانت نتيجة سلسله من الإجراءات الاحترازيه، والتحسّيات، والتدابير الحكيمه، وإنّ إرادته الله تعالى تعلّقت بأن ينجى نبيه الكريم، عن طريق الأسباب العاديه المألوفه، وليس عن طريق التدخّل الغيبيّ وإعمال قدرته تعالى الغيبيه.

ويدلّ على هذا المطلب أنّ النبيّ توسّل بالعلل الطبيعيه، والوسائل والأسباب العاديه (كمبيت شخص في فراش النبيّ، واختفاء رسول الله في الغار، وغير ذلك ممّا سيأتى ذكره)، وبهذا الطريق نجّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، وتخلّص من أيدي أعدائه، العازمين على إراقه دمه.

ملك الوحي يخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخطه قريش لاغتياله

لقد أخبر ملك الوحي «جبرئيل» رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخطه قريش المشؤومه لاغتياله وأمره بالهجره، وتقرّر - بغيه إفشال عمليه الملاحقه - أن يبيت شخص في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتصوّر المشركون أنّ النبيّ لا يزال في منزله، ولم يخرج بعد، وبالتالي يركّزوا كلّ إهتمامهم على محاصره البيت، وينصرفوا عن مراقبه طرقات مكّه، ونواحيها.

ولقد كانت فائده هذا العمل أي حصر اهتمام المراقبين ببيت النبيّ أنّه تسنّى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اغتنام الفرصه والخروج من مكّه، والاختفاء في مكان ما من دون أن يحسّ به أحد من الذين باتوا يراقبون بيته، ويبغون قتله.

والآن يجب أن نرى مَنْ الَّذِي تَطَوَّعَ للمبيت في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفدى النبي نفسه، ووقاه بحياته؟

ستقولون حتماً: إنّ الَّذِي سبق جميع المسلمين إلى الايمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبقي من بدء بعثته وإلى ذلك الحين يذب عنه، هو الَّذِي يتعيّن أن يضخّي نفسه في هذا السبيل، ويقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحياته في هذه اللحظة الخطيره، وهذا المضخّي بحياته ونفسه، هو «عليّ» ليس سواه أحد، أنّه تقدير صحيح، وحس مصيب. فليس غير «عليّ» يصلح لهذه المهمه الخطيره.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام:

يا عليّ إنّ قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي، وإنّه أوحى إليّ عن ربّي أن أهجر دار قومي، فُمن عليّ فراشي والتحف ببردي الحضرمي لتُخفي بمبيتك عليهم أثرى، فما أنت قائل وصانع؟

فقال عليّ عليه السلام: أو تسلّمن بمبيتي هناك يا نبيّ الله؟

قال: نعم، فتبسّم عليّ عليه السلام ضاحكاً مسروراً وأهوى إلى الأرض ساجداً، شكراً لما أنبأه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سلامته، فلما رفع رأسه قال للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

إمض لما أمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي، ومُرني بما شئت أكن فيه كمسرتك، واقع منه بحيث مرادك، وإن توفيقى إلّابالله.

ثم رقد عليّ عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واشتمل ببرده الحضرمي الأخضر، ولما مضى شطرٌ من الليل حاصر رصداً قريش - وهم أربعون رجلاً - بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد جرّدوا سيوفهم، ينتظرون لحظه الهجوم على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويتطلّعون إلى داخل البيت من فرجه الباب بين الحين والآخر ليتأكدوا من بقاء

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مضجعه، فيظنون أنّ النائم في الفراش هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وهنا أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخرج من بيته.

فمن جانب يحاصر الأعداء بيته صلى الله عليه وآله وسلم من كل جانب، ويراقبون كل شيء، ومن جانب آخر تعلقت مشيئة الله تعالى وإرادته القاهره الغالبه أن ينجو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أيدي تلك الزمره المنحطه، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سورة (يس) لمناسبه مطلعها لظروفه حتى بلغ إلى قوله تعالى: «فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» (١) وخرج من باب البيت دون أن يشعر به رصد قريش المكلفون بقتله، وذهب إلى المكان الذي كان من المقرر أن يختبئ فيه على النحو الذي سيأتي تفصيله. (٢)

وأما كيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يخترق الحصار البشري المشدد الذي ضرب على بيته، ويتجاوز رصد قريش من غير أن يشعروا به فذلك غير معلوم جيداً.

إلا أنه يستفاد من روايه نقلها المفسر الشيعي المعروف علي بن إبراهيم في تفسيره (٣): قول الله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» إنّ رجال قريش كانوا نياماً ينتظرون الفجر عند خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكونوا يتصوّرون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد عرف بتدبيرهم ومؤامرتهم.

ولكن يصرح غيره من المؤرخين وكتاب السير (٤) بأنّ المحاصرين لمنزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقظين حتى لحظه الهجوم على بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج من البيت عن طريق الإعجاز والكرامه من دون أن يروه ويحسوا به.

ص: ٦٤٩

١- . يس: ٩.

٢- . لاحظ: بحار الأنوار: ١٩/٦٠.

٣- . لاحظ: تفسير القمي: ١/٢٧٦.

٤- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ١/٢٢٨؛ تاريخ الطبري: ٢/١٠٠.

إنَّ إمكان وقوع مثل هذه الكرامه ليس موضع شكّ، ولكن هل كان هناك ما يوجب ذلك؟! إنَّ دراسه قصه الهجره بصوره كامله تجعل هذه المسأله أمراً قطعياً وهي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم كان عارفاً بمؤامره القوم قبل محاصره بيته، وكان قد دبر ورسم لنجاته خطهً طبيعياً عاديهً، ولم يكن فى الأمر أى إعجاز.

لقد كان يريد صلى الله عليه وآله وسلم بإضجاع على عليه السلام فى فراشه أن ينجو بنفسه من أيدي المشركين من الطرق العاديه والقنوات الطبيعيه من غير الاستعانه بالإعجاز والكرامه.

وعلى هذا كان فى مقدور النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يتحسب لمسأله المحاصره والطوق الذى كان سيُضرب على بيته من أوائل الليل، وذلك بمغادره بيته قبل المحاصره وقبل الغروب.

ولكن يمكن أن يكون لتوقف النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فى البيت حتى ساعه المحاصره عله لا نعرفها الآن.

من هنا يكون ادعاء هذا الموضوع (وهو خروج النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم من البيت فى الليل) غير مقطوع به لدى الجميع لاعتقاد البعض بأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غادر منزله قبل فرض الحصار عليه، وقبل غروب الشمس.

إقتحام الأعداء لبيت الوحي:

طوّقت قوى الكفر مهبط الوحي وبيت الرساله وباتت تنتظر لحظه الإيذن فى اقتحامه، والهجوم على النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فى فراشه وضربه وتقطيعه بالسيوف إرباً إرباً!

وقد أصرّ جماعه منهم أن ينفذوا خطتهم المشؤومه هذه فى منتصف الليل وقبل الفجر، فمنعهم أبو لهب من ذلك وقال: لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل، فإنَّ

فى الدار صبياناً ونساءً من بنى هاشم، ولا نأمن أن تقع يدُ خاطئه، فنحرسه الليله، فإذا أصبحنا دخلنا عليه.

وربّما يقال أنّ علّه التأخير هى أنّهم أرادوا أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند الصباح أمام أعين بنى هاشم حتّى يروا أنّ قاتله جماعه وليس واحداً.

وانقشع الظلام شيئاً فشيئاً، وانفجر الصبح، ودبّ فى المشركين شوقٌ غريبٌ، مع اقتراب ساعه الصفر، فقد كانوا يتصوّرون بأنّهم سينالون ما يريدون قريباً، وبينما هم ينتصون سيوفهم دخلوا حجره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبينما هم يهّمون بأخذ من كان راقداً فى الفراش بسيوفهم، إذا بهم يواجهون علياً عليه السلام يثب فى وجوههم وهو يكشف عن نفسه برد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأخضر، وقال لهم فى منتهى الطمأنينه والشجاعه: ما شأنكم؟ وماذا تريدون؟

فقالوا له بغضب: أين محمّد؟

فقال عليه السلام: أجمعلتمونى عليه رقيباً؟!

فغضب القوم غضباً شديداً، وكاد الغيظ يخنقهم، فقد ندموا على انتظارهم انفجار الصبح وحملوا أبا لهب الذى منعهم من تنفيذ الهجوم على النبى فى منتصف الليل فشل الخطه وتفويت الفرصه، فأقبلوا عليه يلومونه ويوبّخونه!!

أجل لقد انزعجت قريش بشده لفشل هذه المؤامره، ووجدوا أنفسهم أمام هزيمه نكراء بددت كلّ أحلامهم، وحيث إنّهم كانوا يتصوّرون بأنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا يستطيع الخروج عن حدود مكّه فى مثل تلك المده القصيره، فهو إما مختبئ فى مكّه، أو أنّه لا يزال فى طريق المدينه، لذلك أقدموا فوراً على العمل على ترتيب أمر ملاحظته والقبض عليه. (1)

ص: ٦٥١

١- . لاحظ: بحار الأنوار: ١٩/٥٠-٥١.

النبي في غار ثور:

إن ما هو مسلم به هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمضى هو وأبو بكر ليلة الهجره وليلتين أخريين بعدها في غار ثور الذي يقع في جنوب مكة في النقطة المحاذيه للمدينه المنوره. (١)

وليس من الواضح كيف تمت هذه المصاحبه والمرافقه ولماذا، فإن هذه المسأله من القضايا التاريخيه الغامضه.

فإن البعض يعتقد بأن هذه المصاحبه كانت بالصدفه، فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر في الطريق، فاصطحبه معه إلى غار ثور.

وروى فريق آخر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذهب في نفس الليله إلى بيت أبي بكر، ثم خرجا معاً في منتصف الليل إلى غار ثور. (٢)

وقال فريق ثالث: إن أبا بكر جاء هو بنفسه يريد النبي وكان صلى الله عليه وآله وسلم قد خرج من قبل فأرشده «علي» إلى مخبأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى كل حال فإن كثيراً من المؤرخين يعدّون هذه المصاحبه من مفاخر الخليفه ومناقبه، ويذكرون هذه الفضيله ويتحدّثون عنها بكثير من الإسهاب والإطناب، وبمزيد من الإكبار والإعجاب.

قريش تفتش عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

لقد تسبّب فشل قريش في تغيير خطتها، فقد بادرت إلى بثّ العيون والجواسيس في طرقات مكة، ومراقبه مداخلها ومخارجها مراقبه شديده، وبعثت

ص: ٦٥٢

١- . حيث إن الطريق المؤدّي إلى المدينه تقع في شمال مكة، فاخْتبأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم في منطقه مقابله، أي في أسفل مكة، ليعمى بذلك على قريش فلا يتبعوا أثره.

٢- . تاريخ الطبري: ١٠٠/٢-١٠١.

القافه تقتص أثره في كل مكان، وفي طريق مكه - المدينه خاصه.

ومن جانب آخر جعلت مائه ابل لمن يأخذ نبي الله، ويرده عليهم أو يأتي عنه بخبر صحيح.

وعمد جماعة من قريش إلى ملاحقه رسول الله والتفتيش عنه في شمال مكه، حيث الطريق المؤدى إلى المدينه، على حين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قد اختبأ - كما قلنا - في نقطه بجنوب مكه لإفشال عمليه الملاحقه.

وتصدت مجموعه أخرى لتتبع أثر قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورفيقه!!

وكان الذي يقفوا لهم الأثر يُدعى أبا مكرز فوقف بهم على باب حجره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: هذه قدم محمد، فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار فانقطع عنه الأثر فقال: ما جاوز محمد ومن معه هذا المكان، إما أن يكونا صعدا إلى السماء أو دخلا- تحت الأرض، فإن باب هذا الغار - كما ترون عليه - نسج العنكبوت والقبحه حاضنه على بيضها باب الغار(1)، فلم يدخلوا الغار.

ولقد استمرت هذه المحاولات بحثاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أيام بلياليها ولكن دون جدوى، فلما يئس القوم بعد ثلاثة أيام من السعي تركوا التفتيش وكفوا عن الملاحقه.

الإمام علي عليه السلام والتفاني في سبيل الحق:

إن النقطه المهمه في هذه الصفحه من التاريخ هي ما قام به علي عليه السلام من تفانٍ في سبيل الحق، والحقيقه.

ص: ٦٥٣

١- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ١/٢٢٩؛ تاريخ الخميس: ١/٣٢٧-٣٢٨؛ بحار الأنوار: ١٩/٧٣ وغيرها. ولقد ذكر عامه المؤرخين هذه الكرامه هنا، ولا ينبغي، نظراً لما ذكرناه في قصه الفيل وهلاك إبراهيم وجنده بواسطه الأبايل، تأويل مثل هذا الكرامات.

إِنَّ التَّفَانِي فِي سَبِيلِ الْحَقِّ مِنْ شِيَمَةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ أَحَبُّوا الْحَقَّ وَعَشَقُوهُ بِكُلِّ وَجُودِهِمْ وَكَيَانِهِمْ.

إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ نَظْرَهُمْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَشْيَاءِ الدُّنْيَا وَيَضْحُكُونَ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالشَّخْصِيَّةِ، وَيَسْتَعْمِدُونَ كُلَّ طَاقَاتِهِمْ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ فِي سَبِيلِ خِدْمَةِ الْحَقِّ، وَإِحْيَائِهِ، وَإِقَامَتِهِ هُمْ وَلَا شَكَّ مِنْ عَشَاقِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ الصَّادِقِينَ. إِنَّهُمْ يَرُونَ كَمَالَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ فِي هَدْفِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَدْفَعُهُمْ إِلَى أَنْ يَصْرِفُوا النَّظْرَ عَنِ الْحَيَاةِ الْعَابِرَةِ، وَالْعَيْشِ الْمُؤَقَّتِ، وَيَلْتَحِقُوا بِرُكْبِ الْحَيَاةِ الْوَاقِعِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ.

إِنَّ مَبِيَّتَ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلِمَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الرَّهِيْبَةِ لِنُموذَجٍ بَارِزٍ مِنْ هَذَا الْحَبِّ الْحَقِيقِيِّ لِلْحَقِّ، وَالْعَشْقِ الصَّادِقِ لِلْحَقِيقَةِ، فَإِنَّ الدَّفَاعَ وَرَاءَ التَّنَطُّوعِ لِمِثْلِ هَذِهِ الْمَهْمَةِ الْخَطِيرَةِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْحَبِّ «عَلِيٌّ» لِبَقَاءِ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَكْفُلُ سَعَادَةَ الْمَجْتَمَعِ، وَيُضْمِنُ ازْدَهَارَ الْحَيَاةِ، لَا غَيْرَ.

إِنَّ لِهَذِهِ التَّضَحِّيَّةِ وَالتَّفَانِي مِنَ الْقِيَمَةِ الْعَظْمَى بِحَيْثُ مَدَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَوَصَفَهَا بِأَنَّهَا كَانَتْ تَضَحِّيَّةً صَادِقَةً لِكَسْبِ مَرْضَاهُ اللَّهُ، فَإِنَّ الْآيَةَ التَّالِيَةَ نَزَلَتْ - حَسَبَ رَوَايَةِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ - فِي هَذَا الْمَوْرَدِ:

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ». (١)

إِنَّ عَظْمَةَ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ وَأَهْمِيَّةَ هَذَا الْعَمَلِ التَّضَحُّوِيِّ الْعَظِيمِ دَفَعَتْ بِكِبَارِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ إِلَى اعْتِبَارِهَا وَاحِدَةً مِنْ أَكْبَرِ فَضَائِلِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَإِلَى أَنْ يَصِفُوهَا بِهَا عَلِيًّا بِالْفِدَاءِ وَالْبَذْلِ وَالْإِثَارِ، وَإِلَى أَنْ يَعْتَبِرُوا نَزُولَ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي شَأْنِهِ مِنْ

ص: ٦٥٤

المسلّمات كلّما بلغ الحديث في التفسير والتاريخ إليها. (١)

إنّ هذه الحقيقه لا يمكن كتمانها أبداً فإنّه من الممكن إخفاء وجه الواقع والتعتيم عليه بعض الوقت إلّا أنّه سرعان ما تمزّق أشعه الحقيقه الساطعه حجب الأوهام، وتخرج شمس الحقيقه من وراء الغيوم.

إنّ معاداه معاويه لأهل بيت النبوه وبخاصّه للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ممّا لا يمكن النقاش فيه.

فقد أراد هذا الطاغيه من خلال تطميع بعض صحابه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يلوّث صفحات التاريخ اللامعه ويخفي حقائقه بوضع الأكاذيب، ولكنّه لم يحرز في هذا السبيل نجاحاً.

فقد عمد «سمره بن جندب» (٢) الذي أدرك عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم انضمّ بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم إلى بلاط معاويه بالشام، عمد إلى تحريف الحقائق لقاء أموال أخذها من الجهاز الأموي، الحاقداً على أهل البيت.

ص: ٦٥٥

١- . لاحظ: مسند أحمد: ١/٨٧؛ وكنز العمال: ٦/٤٠٧، وقد نقل كتاب الغدير: ٢/٤٧-٤٩ طبعه لبنان مصادر نزول هذه الآيه في شأن علي عليه السلام على نحو التفصيل، فراجع.

٢- . سمره بن جندب من العناصر المجرمه في الحكومه الأمويه، ولم يكتف سمره بتحريف الحقائق وقلبها بما ذكرناه، بل أضاف إلى ذلك - حسب روايه ابن أبي الحديد - أمراً آخر أيضاً إذ قال: ونزل في شأن «علي» قول الله: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (البقره: ٢٠٤). ومن جرائم هذا الرجل أنّه قتل يوم ولىّ البصره على عهد زياد بن أبيه العراق ثمانيه آلاف ممّن كانوا يحبون أهل البيت ويوالونهم، وعندما سأله معاويه: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ أجاب قائلاً: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت!! هذا ومخازي هذا الرجل أكثر من أن تستوعبه هذه الصفحات القلائل. وسمره هذا هو ذلك الرجل الصلف الجاف الذي رد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلبه بأن يراعى حقّ جاره في قضيه النخله مراراً فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّك رجل مضارّ ولا ضرر ولا ضرار في الإسلام» ولمزيد التوضيح راجع كتب الحديث والتراجم والتاريخ.

فقد طلب منه معاويه بإصرار أن يرقى المنبر ويكذب نزول هذه الآية في شأن علي عليه السلام، ويقول للناس إنها نزلت في حق قاتل علي (أي عبدالرحمن بن ملجم المرادي)، يأخذ في مقابل هذه الأكذوبه الكبرى، وهذا الاختلاق الفضيع الذي أهلك به دينه مائه ألف درهم.

فلم يقبل «سمره» بهذا العرض ولكن معاويه زاد له في المبلغ حتى بلغ أربعمائه ألف درهم، فقبل الرجل بذلك فقام بتحريف الحقائق الثابته، مسوداً بذلك صفحته السوداء أكثر من ذي قبل وذلك عند ما رقى المنبر وفعل ما طلب منه معاويه. (1) وقبل السامعون البسطاء قوله، ولم يخطر ببال أحد منهم أبداً أن (عبدالرحمن بن ملجم) اليمنى لم يكن يوم نزول الآية في الحجاز بل لعله لم يكن قد وُلد بعد آنذاك. فكيف يصح؟!

ولكن الحقيقة لا يمكن أن تخفى بمثل هذه الحجب الواهيه، ولا يمكن أن تنسى بمثل هذه المحاولات العنكبوتيه الرخيصه.

فقد تعرّضت حكومه معاويه وتعرّض أهلها وأنصارها للحوادث، واندثرت آثار الاختلاق والافتعال الذي وقع في عهده المشؤوم، وطلعت شمس الحقيقة والواقع من وراء حجب الجهل والافتراء مره أخرى، واعترف أغلب المفسرين الأجله والمحدثين الأفاضل - في العصور والأدوار المختلفه - بأن الآية المذكوره نزلت في «ليله المبيت» في بذل علي عليه السلام ومفاداته النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه. (2)

ص: ٦٥٦

١- . لاحظ: شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ٤/٧٣.

٢- . لاحظ: شرح نهج البلاغه: ١٣/٢٦٢، ولقد أعطى ابن أبي الحديد حقّ الكلام حول هذه الفضيله.

أحمد بن عبدالحليم الحرّاني الحنبليّ الذي مات في سجن بدمشق عام ٧٢٨ هـ من علماء السنّه، تعود إليه أكثر معتقدات الوهابيين، وأفكارهم.

ولابن تيميه هذا آراء ومواقف خاصّه من النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين، وعامّه أهل بيت النبوه، وقد صرّح بأكثر آرائه ومعتقداته هذه في كتابه «منهاج السنّه».

وقد دفعت عقائده المنحرفه وآراؤه الضالّه الكثير من علماء عصره إلى تكفيره، والتبرّي منه.

ومن المؤسف أن يكون قد تأثر بآرائه بعض السدّج والجاهلين، فنجدهم يشيعون آراءه في المجتمع من دون تحقيق فيما قال، ومن دون مراجعه ذوى الاختصاص لمعرفة رأيهم في أفكاره ومعتقداته، وهم غافلون عن أن مثل هذه الآراء قد صدرت من منحرف، وكذّبه بل وكفّره بسببها أهل مذهبه.

ولابن تيميه رأى عجيب حول هذه الفضيله (مبيت على في فراش النّبى صلى الله عليه وآله وسلم) نذكره للقارئ الكريم مع تصرّف بسيط في الألفاظ. (١)

يقول: إنّ مبيت «على» في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تعدّ فضيله، لأنّ عليّاً عرف من طريقين بأنّه لن يصيبه شيء في تلك الليلة:

الأول: إخبار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصادق المصدّق نفسه إياه بذلك، إذ قال له في نفس تلك الليلة: «نم في فراشي فإنّه لن يخلّص إليك شيء تكرهه منهم»!!

الثاني: أنّ النّبى صلى الله عليه وآله وسلم كلّفه بردّ الودائع وأداء الأمانات التي أودعها أهل مكّه

ص: ٦٥٧

١- . لاحظ: منهاج السنّه النبويه: ٧/١١٠، فصل (قال الرافضى: البرهان الثامن: قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ). تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى - ١٤٠٦ هـ.

عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلى أصحابها.

فعلم - من ذلك - أنه لن يُقتل وإلا لكلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الآخرين بها.

فعرف «عليّ» من هذا التكليف أنه لن يلحقه أذى في هذه العمليته وأنه سيوفّق لأداء ما كلفه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الجواب:

وقبل أن نجيب عن هذا الكلام على نحو التفصيل نقول إجمالاً: إنّ ابن تيمية بإنكاره هذه الفضيله أثبت فضيله أعلى لعلّي عليه السلام؛ لأنه إما أن يكون إيمان عليّ بصدق مقاله الرسول كان إيماناً عادياً، وإما أن يكون إيماناً قوياً جداً، وكانت جميع أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإخباراته لديه - في ضوء إيمانه - كالنهار في وضوحه. وعلى الفرض الأوّل لم يكن لعلّي يقين بنجاته من تلك الواقعة، لأنه لا يحصل لمثل هذه الطبقة من الناس (ولا شك أنّ عليّاً ليس منهم حتماً) يقين من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحتى لو قبلوا به في الظاهر، فإنهم سيساورهم القلق، ولا يفارقهم الاضطراب، وإذا هم باتوا في فراشه في لحظات الخطر، فإنهم سيقفون فريسه الخوف والوجل وستمّر في نفوسهم احتمالات كثيرة حول مآل الأمر ومصيره، وسيتمثل أمامهم شبح الموت المرعب في كلّ لحظة وآن.

وعلى هذا الفرض لا بد أن يقال: بأنّ عليّاً عليه السلام لم يقدم على هذا الأمر الخطير إلا وهو يحتمل الهلاك على أيدي المشركين، لا أنه بات وهو يتيقن النجاة والسلامه.

وأما بناءً على الفرض الثاني فإنه ثبت لعلّي عليه السلام فضيله أعلى وأعظم، لأنّ إيمان الرجل يجب أن يبلغ من القوه والكمال بحيث لا يفرّق بين صدق كلام النبي وبين وضوح النهار، أي أنّهما يكونان عنده بمنزله سواء.

ص: ٦٥٨

ولا شك أنّ أهميه مثل هذا الإيمان لا يمكن أن يعادلها شيء.

ونتيجه هذا الإيمان هي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عند ما قال له: ثمّ في فراشى فلن يصيبك من هجوم الأعداء الحاقدين مكروه، أن ينام في فراش النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بقلبٍ واثقٍ بالسلامه، ونفس مطمئنّه إلى النجاه، ومن دون أن يخالجه نفسه أقل احتمال للخطر.

ولو كان مراد ابن تيميه من قوله: إنّ عليّاً كان واثقاً من سلامته، لأنّ الصادق المصدّق أخبره بذلك، هو: إثبات أعلى درجات الإيمان لعلّي عليه السلام، فقد أثبت له عليه السلام من حيث لا يشعر أكبر فضيله، وأعلى منقبه، وهي كمال الايمان والثقه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإخباره.

هذا هو الجواب الإجمالي وإليك الجواب التفصيلي:

الجواب التفصيلي:

فنقول عن الدليل الأوّل: إنّ عبارته «لا يخلص إليك شيء تكرهه» لم ينقلها بعض أرباب السيره ورجال علم التاريخ الذين لهم سابقه لا تنكر في هذا الصعيد. (١)

نعم روى ابن الأثير (المتوفى عام ٦٣٠هـ) (٢)، والطبري (المتوفى عام ٣١٠هـ) (٣) هذه العبارة وكأنّما قد أخذها عن ابن هشام في سيرته (٤) التي نقل فيها

ص: ٦٥٩

١- . مثل ابن سعد (المولود عام ١٦٨ والمتوفى عام ٢٣٠هـ) في الطبقات الكبرى: ١/٢٢٧ و ٢٢٨، وكذا المقرئ في أمتاع الإسماع، عند ذكرهم لتفاصيل قضيه المبيت.

٢- . الكامل في التاريخ: ٢/١٠٣.

٣- . تاريخ الطبري: ٢/٩٩.

٤- . السيره النبويه: ١/٣٣٣.

تلك العبارة بالصورة المتقدّمة الذكر، خاصة أنّ عبارته ذينك المؤلفين (الطبرى وابن الأثير) تطابق عبارته ابن هشام فى هذا المجال تماماً.

هذا مضافاً إلى أنّ القضية لا توجد بهذه الصورة فى مؤلفات علماء الشيعة على ما نعلم. ولقد نقل شيخ الطائفة الإمامية محمد بن الحسن الطوسى (المتوفى عام ٤٦٠هـ) فى أماليه قصة الهجرة بشكل أكثر تفصيلاً ودقّه، وذكر العبارة المذكورة مع تغيير بسيط، إلّا أنّه تختلف صورته القضية مع ذلك عمّا هى عليه فى كتب أهل السنّه، فإنّه رحمه الله يصرّح بأنّ عليّاً عليه السلام انطلق هو و «هند بن أبى هاله» ابن خديجه وريب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى منتصف الليل بعد ليلتين من الهجرة حتّى دخلا على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال صلى الله عليه وآله وسلم لعلّى:

«إِنَّهُمْ لَنْ يَصِلُوا مِنْ الْآنَ إِلَيْكَ يَا عَلِيٌّ بِأَمْرِ تَكْرَهُهُ حَتَّى تَقْدَمَ عَلَيَّ» (١).

وهذه الجملة تشبه الجملة التى ذكرها ابن هشام والطبرى وابن الأثير، ولكن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قالها لعلّى عليه السلام مطمئناً إياه بعد ليلتين من المبيت فى الفراش، وليس ليله المبيت كما يروى الثلاثة المذكورون.

هذا علاوه على أنّ كلام على نفسه خير شاهد على ما نقول:

فلقد عدّ عليّ عليه السلام عمله هذا (أى المبيت فى فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى تلك الليلة الرهيبة) نموذجاً من بذله وتفانيه فى سبيل الحقّ كما يتّضح ذلك بجلاء من أشعاره حيث يقول:

وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحِصَا وَمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْحِجْرِ

مُحَمَّدٌ لَمَّا خَافَ أَنْ يَمْكُرُوا بِهِ فَوْقَاهُ رَبِّي ذُو الْجَلَالِ مِنَ الْمَكْرِ

ص: ٦٦٠

وَبِتُّ أَرَاعِيهِمْ مَتَى يَنْشُرُونَنِي وَقَدْ وَطَّئْتُ نَفْسِي عَلَى الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ

وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْغَارِ آمِنًا هُنَاكَ وَفِي حِفْظِ الْإِلَهِ وَفِي سِتْرِ (١)

ومع هذه العبارات الصّريحة لا مجال للاعتماد على قول ابن هشام الذي تدل قرائن كثيرة على خطئه، ويُحتمل، احتمالاً قوياً، بأنّ اشتباهه وخطأه قد نشأ من تلخيصه لسيره ابن إسحاق، وحيث إنّ (ونعني ابن هشام) قد بنى في سيرته على الاختصار لذلك اكتفى بنقل أصل العبارة، مهملاً ظرف النطق بها لعدم أهميه زمن النطق بها وأنها قيلت في الليلة الثانية أو الثالثة، في نظره، وروى الموضوع بنحو يوهّم بأنّ جميع هذه الأمور وقعت في ليلةٍ واحدة!!

ويؤيّد رأينا هذا أيضاً الحديث المعروف العذّي رواه كثيرٌ من علماء السنّة والشيعة وهو: أن الله أوحى إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام أنّي قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر صاحبه فأيكما يؤثر صاحبه بحياته؟

فاختار كلّ منهما الحياه وأحباها، فأوحى الله تعالى إليهما: عبدای أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب، آخيت بينه وبين «محمّد» فبات علي فراشه يفديه بنفسه.

ثم أمرهما بالهبوط إلى الأرض وحراسه عليّ وحفظه من عدوه. (٢)

الخطيب وقضيه المبيت:

وينبغي أن نختم هذا الفصل بما كتبه الأستاذ عبدالكريم الخطيب حول مبيت علي عليه السلام في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: لقد دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً ليلة الهجرة، وطلب إليه أن يبيت في المكان العذّي اعتاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يبيت فيه، وأن

ص: ٦٦١

١- . أمالي الطوسي: ٤٦٩ ح ٣٧. هذا مضافاً إلى أنّ الإمام عليه السلام قد استشهد المسلمين مراراً بهذه القضية مستدلّاً بها على تفانيه في سبيل الإسلام.

٢- . بحار الأنوار: ١٩/٣٩ نقلاً عن إحياء العلوم للغزالي.

يتغطى بالبرد الحزرمي العذى كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتغطى به حتى إذا نظر ناظر من قريش إلى الدار رأى كأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نائم في مكانه مغطى بالبرد الذي يتغطى به، وهذا الذي كان من علي في ليلة الهجره إذا نظر إليه في مجرى الأحداث التي عرضت للإمام علي في حياته بعد تلك الليله فإنه يرفع لعيني الناظر أمارات واضحة وإشارات داله على أن هذا التدبير الذي كان في تلك الليله لم يكن أمراً عارضاً، بل هو عن حكمه لها آثارها - إلى أن قال: - إنه إذا غاب شخص الرسول كان علي هو الشخصيه المهية لأن تخلفه وتمثل شخصه وتقوم مقامه، حين نظرنا إلى علي وهو في برد الرسول وفي مثنوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه فقلنا: هذا خلف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والقائم مقامه (١) وأما الدليل الثاني الذي يستفيد منه ابن تيميه أن علياً كان يعلم بمصيره هو توصيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم له بأداء الأمانات والودائع إلى أهلها، التي كانت تكشف عن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم بأنه لن يصل إليه مكروه، ولهذا أمره برد الودائع والأمانات إلى أصحابها؛ فيمكن الإجابة عنه إذا استعرضنا بقيه قصه الهجره بشكل صريح وكامل.

وإليك بقيه قصه الهجره.

بقيه قصه هجره النبي:

انتهت المراحل الأولى لنجاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفق تخطيط صحيح، بنجاح، فقد لجأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منتصف الليل إلى غار ثور، واختبأ فيه، وبذلك أفضل محاوله المتأمرين عليه.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طوال هذا الوقت مطمئناً لا يحس في نفسه بأي

ص: ٦٦٢

١- . راجع كتاب علي بن أبي طالب بقيه النبوه وخاتم الخلافه: ١٠٣-١٠٥ ملخصاً.

قلق أو إضطراب، حتى أنه طمأن رفيق سفره عندما وجده مضطرباً في تلك اللحظات الحساسة بقوله:

«لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا». (١)

وبقى هناك ثلاث ليال محروساً بعين الله تعالى و مشمولاً بعنايته ولطفه، وكان يتردد عليه صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الأثناء على عليه السلام وهند ابن أبي هاله (ابن خديجه) على روايه الشيخ الطوسى فى أماليه، وعبدالله بن أبى بكر وعامر بن فهيره راعى أغنام أبى بكر (بناء على روايه كثير من المؤرخين).

يقول ابن الأثير: كان عبدالله بن أبى بكر يتسمع لهما بمكه نهاره ثم يأتيهما ليلاً، وأمر عامر بن فهيره مولاه أن يرعى غنمه نهاره على مقربه من الغار، وكان عبدالله بن أبى بكر إذا غدا من عندهما أتبع عامر بن فهيره أثره بالغنم حتى يعفى أثره. (٢)

يقول الشيخ الطوسى فى أماليه: انطلق (على) هو وهند بن أبى هاله حتى دخلا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الغار (بعد ليله الهجره)، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بعيرين، فقال أبوبكر: قد كنت أعددت لى ولك يا نبى الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن. قال: فهى لك بذلك، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام فأقبضه الثمن. (٣)

وكان من جملة وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام فى الغار فى تلك الليله أن يؤدى أمانته على أعين الناس ظاهراً، وذلك بأن يقيم صارخاً يهتف بالأبطح غدوه

ص: ٦٦٣

١- . التوبه: ٤٠.

٢- . الكامل فى التاريخ: ٢/١٠٤.

٣- . أمالى الطوسى: ٤٦٧ ح ٣٧.

وعشياً: ألا- مَنْ كان له قبل محمّد أمانه أو وديعه فليأت فلتؤدّ إليه أمانته. (١) ثم أوصاه صلى الله عليه وآله وسلم بالفواطم (والفواطم هن: فاطمه الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحبيبه لديه والأثيره عنده، وفاطمه بنت أسد أمّ عليّ عليه السلام، وفاطمه بنت الزبير، ومن يريد الهجرة معه من بنى هاشم)، وأمره بترتيب أمر ترحيلهم معه إلى يثرب وتهيئه ما يحتاجون إليه من زاد وراحله. (٢)

وهنا قال صلى الله عليه وآله وسلم عبارته التي تدرّع بها ابن تيميه في دليله الأول: «أنهم لن يصلوا من الآن إليك يا عليّ بأمرٍ تكرهه حتّى تقدم عليّ».

فالملاحظ للقارئ هو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنّما قال هذه العبارة عندما أمره بأداء أمانته، وذلك بعد انقضاء قضيه ليله المبيت.

أى أنّه أمر علياً بذلك، وقال له تلك العبارة وهو يتهيأ للخروج من غار ثور.

يقول الحلبي في سيرته: وصّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إحدى الليالي وهو بالغار علياً رضي الله عنه بحفظ ذمّته وأداء أمانته ظاهراً على أعين الناس.

وتم ينقل عن مؤلّف كتاب «الدر» ما يقتضى أنّه اجتمع به عند خروجه من الغار. (٣)

وخلاصه القول: إنّ مع روايه شيخ جليل من مشايخ الشيعة الإماميه كالشيخ الطوسي بالاسناد الصحيحه أنّ الأمر بردّ الودائع والأمانات صدر من جانب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى عليّ عليه السلام بعد ليله المبيت لا يحقّ لنا أن نعارض هذا النقل الصحيح، ونعمد إلى إلهاء العامّة بالتوافه، وأمّا روايه مؤرّخى أهل السنّه هذا المطلب بشكل آخر يوحى ظاهره بأنّ جميع وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ تمت في ليله واحده هي ليله

ص: ٦٦٤

١- . السيره الحلبيه: ٢/٢٠٥؛ أمالي الطوسي: ٤٦٨ ح ٣٧.

٢- . لاحظ: أمالي الطوسي: ٤٧٠.

٣- . لاحظ: السيره الحلبيه: ٢/٢٠٤-٢٠٥.

الهجرة (ليه المبيت) فقابل للفسير والتوجيه، لأنه لا يبعد أن عنايتهم كانت مركزة على روايه أصل الموضوع، ولم يكن لظرف صدور هذه الوصايا والأوامر ووقت بيانها أهميه عندهم.

الخروج من الغار:

هتياً على عليه السلام بأمر النبي: ثلاث رواحل ودليلاً أميناً يُدعى أريقط، ليترحلوها إلى المدينة، ويدلّهم الدليل على طريقها، وأرسل كل ذلك إلى الغار.

ولما سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم رغاء البعير أو نداء الدليل نزل هو وصاحبه من الغار وركبا البعيرين وتوجّها من أسفل مكّه إلى «يثرب» سالكين إلى ذلك الخط الساحلي، وقد جاء ذكر المنازل التي مرّ بها في السير النبويه لابن هشام. (١)

صفحة التاريخ الأولى:

أجل لقد حلّ الظلام في كلّ مكان، ولملمت الشمس أشعتها الذهبية من هذا الوجه من الكره الأرضيه لتوجّها إلى الوجه الآخر منها.

وعاد جماعه من رجال قريش الذين سلكوا كلّ طريق في مكّه وضواحيها بحثاً عن النبي، ثلاثه أيام، بلياليها، إلى بيوتهم ومنازلهم متعبين مرهقين، وقد يئسوا من الظفر بالجائزه (وهي مائه من الإبل) التي وضعتها ساده قريش لمن يأخذ محمّداً أو يدلّ على مكانه، وأعيد فتح طريق مكّه - المدينة التي أُغلقت لهذه الغايه بعد اليأس من الظفر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. (٢)

وفي هذه اللحظات بالذات بلغ نداء الدليل الذي كان يصطحب معه ثلاث

ص: ٦٦٥

١- السير النبويه لابن هشام: ٢/٣٤٠.

٢- لاحظ: تاريخ الطبري: ٢/١٠٤.

رواحل ومقداراً من الطعام، إلى مسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورفيقه وهما في الغار وقد كان يقول بصوت خافت: لا بد أن نتخذ من ظلام هذا الليل سترًا، ونسرع في الخروج من حدود المكين، ونختار طريقاً يقلّ سالكوه ولا يهتدى إليه أحد.

ويبدأ تاريخ المسلمين من العام الذي تضمّن تلك الليلة بالضبط، وجعل المسلمون يقيسون كلّ ما يقع من الحوادث بذلك العام وبذلك يحدّدون تاريخه وزمان حدوثه.

لماذا أصبح العام الهجريّ مبدأً للتاريخ؟

إنّ الإسلام أكمل الشرائع السماويه قاطبه، وقد جاء إلى البشريه بما تتضمّن شريعته موسى وعيسى عليهما السلام ولكن بصوره أكمل وبصيغه تطابق وتتمشّى مع جميع الظروف والأوضاع.

ومع أنّ السيد المسيح عليه السلام وميلاده المبارك يحظى بالاحترام عند المسلمين إلّا أنّ ميلاده عليه السلام لم يتخذ لديهم مبدأً للتاريخ، والتوقيت.

وكانت العرب قد جعلت عام الفيل (1) مبدأً لتاريخها، وكانت تقيس حوادثها وأمورها إليه فتره من الزمن، ومع أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قد وُلِدَ في ذلك العام نفسه، إلّا أنّ المسلمين لم يتخذوه مع ذلك مبدأً للتاريخ، لأنّه لم يكن ينطوى على ما يتّصل بقضيه الإيمان والإسلام.

ولأجل هذا أيضاً لم يتخذوا عام البعثة مبدأً لتاريخ المسلمين أيضاً؛ لأنّ عدد المسلمين لم يكن يتجاوز في ذلك اليوم ثلاثه أشخاص، إذن فلم يكن في أي واحد من تلك الحوادث ما يعطى مبرراً قوياً لاتّخاذها مبدأً للتوقيت والتاريخ، إذ لا بد أن يكون ما يتّخذ لذلك قضيه مصيريه بالغه الأهميه.

ص: ٦٦٦

١- وهو العام الذي سِير فيه أبرهه جيشاً لهدم الكعبه تقدّمه الفيله. راجع المحرّر: ص ٥-٨.

ولكنه في السنه الأولى من الأعوام الهجرية حَقَّق المسلمون انتصاراً عظيماً وباهراً، وقد أسست فيه حكومه مستقلة وتخلص المسلمون من التشرذم والتبعثر، وتمركزت قواهم وعناصرهم في نقطه واحده، وبيئه حره لا أثر فيها للكبت والاضطهاد، من هنا جعلوا ذلك العام (أى العام المذى تحققت فيه هجره النبى العظيم) مبدأً لتاريخهم، وأخذوا يقيسون إليه - وحتى الآن - كل ما يحدث ويقع من خير وشر، لتحديد تاريخ وقوعه.

الهجره النبويه مبدأً لتاريخ المسلمين كافه:

ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التاريخ الهجرى بنفسه.

وإنَّ أئى إعراض وتجاهل لهذا التاريخ، واختيار تاريخ آخر مكانه إعراض عن سنه رسول الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ومخالفه لما رسمه للمسلمين فى هذا المجال.

إنَّ وجود تاريخ معين ثابت (مؤلف من السنه والشهر واليوم) فى الحياه الإجتماعيه البشريه، من الأمور الضروريه الحيويه بل هو فى غايه الضروره والحيويه، من أجل أن لا تتوقف عجله الحياه الإجتماعيه البشريه عن الدوران والحركه بسبب فقدان مقياس زمنى ثابت ومعلوم للأُمور والحوادث.

وتلك حقيقه لا حاجه إلى إقامه البرهان عليها؛ لأنَّ الاستدلال عليها يكون مثل الاستدلال على الأمور البديهيه.

فهل يكون تنظيم المعاهدات، والمواثيق السياسيه والعسكريه، والاتفاقيات، والعقود الاقتصاديه وتحويل وتسديد السندات والحوالات التجاريه ودفع الديون وكتابه الرسائل العائليه من دون ذكر تاريخ معين فيها أمراً مفيداً؟ كلاً حتماً، ودون ريب.

فَعِنْدَمَا سَأَلَ بَعْضَ الصَّحَابَةِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ عِلَّةِ اخْتِلَافِ أَشْكَالِ الْقَمَرِ، وَأَنَّهُ لِمَاذَا يَكُونُ هَلَالًا تَارَهُ ثُمَّ بَدْرًا أُخْرَى. ثُمَّ يَعُودُ إِلَى سِيرَتِهِ الْأُولَى هَلَالًا، نَزَلَ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ، يَبَيِّنُ بَعْضَ حُكْمِهِ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ الطَّبِيعِيَّةَ إِذْ قَالَ تَعَالَى:

«قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ» (١).

أَيُّ أَنَّ اخْتِلَافَ أَشْكَالِ الْقَمَرِ وَهَيْئَاتِهِ إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ بِهِ الْوَقْتَ وَالتَّارِيخَ فَيَعْرِفُوا فِي أَيِّ يَوْمٍ مِنَ الشَّهْرِ هُمْ، فِي مَبْدِئِهِ أَوْ مُنْتَصَفِهِ، أَوْ مُنْتَهَاهُ، وَلِكَيْ يَعْرِفُوا بِوَسْطِهِ ذَلِكَ مَوَاعِيدَ وَاجِبَاتِهِمُ الشَّرْعِيَّةَ وَالاجْتِمَاعِيَّةَ، وَيَعْرِفَ الدُّيَّانَ مَوْعِدَ تَسَلُّمِ دِيُونِهِمْ، وَيَعْمَدُ الْمَيِّدِينَ إِلَى دَفْعِ مَا عَلَيْهِمْ فِي وَقْتِهِ، وَيَقُومَ الْمُؤْمِنُونَ بِفَرَائِضِهِمْ الْمَقِيَّدَةَ بِالْأَزْمَنِ وَالْأَوْقَاتِ كَالصُّومِ وَالْحَجِّ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ. مِنْ هُنَا لَا مَجَالَ لِلنَّقَاشِ فِي احْتِيَاجِ كُلِّ أُمَّةٍ إِلَى تَارِيخٍ مُعَيَّنٍ ثَابِتٍ مُحَدَّدٍ تَجْعَلُهُ مَلَكَاً لِلتَّوْقِيتِ، وَمَدَاراً لِتَحْدِيدَاتِهَا الزَّمْنِيَّةِ.

إِنَّمَا الْكَلَامُ هُوَ فِي مَا يَنْبَغِي اتِّبَاعَهُ وَالْجُرَى عَلَيْهِ مِنَ التَّوَارِيخِ، وَتَنْظِيمِ الْمُسْتَنْدَاتِ وَالْمَكَاتِبَاتِ وَالْمَوَاعِيدِ وَفَقاً لَهُ.

وَبِعِبَارِهِ أُخْرَى: إِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا هُوَ فِي مَا يَنْبَغِي جَعْلَهُ مَبْدَأً لِلتَّارِيخِ يَقَاسُ بِهِ كُلَّ الْعُقُودِ وَالْإِتِّفَاقَاتِ مِنْ حَيْثُ الزَّمَانُ، وَالتَّوْقِيتِ.

فَمَا الَّذِي يَصْلِحُ أَوْ يَنْبَغِي اتِّخَاذَهُ مَبْدَأً لِلتَّارِيخِ لِلأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؟

الجواب:

إِنَّ الْإِجَابَةَ عَنْ هَذَا السُّؤَالَ وَاضِحَةٌ جَدًّا، وَهِيَ:

إِذَا كَانَتْ لِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَّمِ حَوَادِثٌ لِامْعَةِ وَسَوَاقٍ مُشْرِقَةٍ فِي حَيَاتِهَا، وَثِقَافَةٍ خَاصَّةٍ بِهَا، وَدِينًا وَمَسْلَكًا مُسْتَقْلَلًا وَشَخْصِيَّاتٍ عِلْمِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ بَارِزَةٍ، وَأَحْدَاثٍ

ص: ٦٦٨

١- . البقره: ١٨٩ ومطلعها: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ...».

ووقائع عظيمه مثيره، تبعث على الفخر والاعتزاز، ولم تكن كنيته وحشيه نبتت عفواً واعتباطاً من غير قانون ولا- جذور كبعض الجماعات والشعوب الجديده الظهور التي لا تركز إلى أصول ثابتة معلومه.

فإن على مثل هذه الأمة أن تتخذ من أعظم حوادثها الاجتماعيه والدينيه مبدأً لتاريخها العدى تقيس، وتنظم عليه بقيه حوادثها وأعمالها التي سبقت تلکم الحادثه العظمى، أو التي وقعت أو تقع بعدها.

ومن هنا تكون قد أكسبت شخصيتها وكيانها قوة أكبر، وصانت نفسها من التبعية للشعوب والأمم الأخرى، والميعان والفناء فيها.

وإذ لم يكن فى تاريخ الأمة الإسلاميه شخصيه أعلى شأنًا من شخصيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما لم يكن هناك حادثه أعظم، وأنفع من حادثه الهجره النبويه المباركه، لأن هجره النبى صلى الله عليه وآله وسلم فتحت - فى الحقيقه - صفحہ جديده فى حياه البشريه، فقد خرج رسول الإسلام وأتباعه من بيته مكه الرازحه تحت الكبت، إلى بيته مناسبه حره مكنتهم من إحداث انطلاقيه كبرى لم يشهد التاريخ البشرى برمته لها مثيلاً.

فقد استقبل أهل المدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن هاجر معه من المسلمين إلى يثرب استقبالا حاراً، ووضعوا تحت تصرفه كل ما توفر لديهم من الإمكانيات والقوى، فلم يمض زمن إلا وتمتع الإسلام بفضل هذه الهجره المباركه بتشكيلات سياسيه وعسكريه، واتخذ صورته وشكل حكومه قويه لها وزنها، وشأنها، وجانبها المرهوب فى شبه الجزيره العربيه، وسرعان ما نشر رايته على البسيطة كلها تقريباً، وأسس حضارة عظمى لم تر البشريه لها نظيراً.

فإذا لم تحدث تلك الهجره المباركه المعطاء لقضى على الإسلام فى محيط

مكّه، وحُرّم العالم الإنسانى من هذا الفيض العظيم. من هنا، ولأجل هذا اتّخذ المسلمون هجره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مبدأً لتاريخهم، ودأبوا على ذلك إلى الآن حيث ينقضى أكثر من ألف وأربعمائه عام، أى أنّ هذه الأُمَّه الكبرى تركت وراءها إلى هذا اليوم أربعه عشر قرناً من الأمجاد والمفاخر، وهى الآن تدخل فى القرن الخامس عشر؟

مَن الذى جعل الهجره مبدأً للتاريخ؟

على العكس ممّا هو مشهور بين المؤرّخين من أنّ الخليفه الثانى جعل هجره النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم مبدأً للتاريخ باقتراح وتأييد من الإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام وأمر بأن تؤرّخ الدواوين، والرسائل والعهود وما شابه ذلك بذلك التاريخ، فإنّ الإمعان فى مراسلات النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ومكاتباته الّتى هى مدرجه فى كتب التاريخ والسيره والحديث والسّنّه، وكذا غير ذلك من الأدلّه الّتى سوف نذكرها فى هذه الصفحات يثبت أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم هو نفسه أوّل مَن اعتمد تلك الحادته الكبرى كمبدأً للتاريخ، وكان يؤرّخ رسائله، وكتبه إلى أمراء العرب، وزعماء القبائل وغيرهم من الشخصيات البارزه بذلك التاريخ (أى التاريخ الهجرى).

وها نحن ندرج هنا نماذج من تلك الرسائل النبويه المؤرّخه بهذا التاريخ، ثم نعمد بعد ذلك إلى استعراض الدلائل الأخرى على هذا الأمر، ونحن نحتمل أن تكون هناك أدلّه أخرى غير ما سنذكره هنا - أيضاً - لم نقف عليها.

نماذج من رسائل النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم والصحابه المؤرّخه:

١. طلب سلمان من النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يكتب له ولأخيه (ماه بنداذ) ولأهله وصيه مفيده ينتفع بها، فاستدعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً وأملى عليه أموراً، وكتبها على عليه السلام

ثم جاء في آخر تلك الوصيه:

«وكتب على بن أبى طالب بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى رجب سنة تسع من الهجره».(١)

٢. أدرج المؤرّخ الشهير «البلاذرى» فى كتابه «فتوح البلدان» نصّ معاهده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع يهود «المقنا» وذكر أنّ مصرىاً رأى نصّ هذه المعاهده فى جلدٍ أحمر اللون عتيقٍ وكان قد استنسخها، فقرأها لى.

ثم نقل البلاذرى نصّ تلك المعاهده وقد جاء فى نهايتها:

«وليس عليكم أمير إلّا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكتب على بن أبوطالب فى سنة تسع»(٢) ومع أنّ «أبا طالب» يجب أن يكتب حسب القواعد الأدبيه فى المقام «أبى طالب» لكونه مضافاً إليه فقد كتب: «على بن أبوطالب» ولكن مع ذلك ذكر المحققون أنّ قبيله قريش كانت تتلفظ لفظه أب فى جميع الموارد (أى فى حاله النصب والرفع والجرّ) ب «أبو» وتكتبها كذلك أيضاً، وقد صرح الأصمعى بهذا من بين الأدباء.

ويقول البروفيسور «محمد حميد الله» مؤلف كتاب «الوثائق السياسيه»: «إنى لما كنت فى المدينه المنوره فى شهر محرم سنة ١٣٥٨ وجدت فى الكتابه القديمه التى فى جنوبى جبل سلع فى المدينه المنوره «أنا على بن أبوطالب».(٣)

٣. أنّ كتاب الصلح الذى كتبه الإمام على عليه السلام بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنصارى

ص: ٦٧١

١- . طبقات المحدثين بأصبهان لعبدالله بن حبان (المتوفى ٣٦٩ هـ): ١/٢٣٤؛ ذكر أخبار أصبهان لأبى نعيم الحافظ الاصبهانى (المتوفى ٤٣٠ هـ): ١/٥٣.

٢- . فتوح البلدان: ٧٢.

٣- . مكاتيب الرسول: ٢٨٩، نقلًا عن شرح ملا على القارى لشفاء القاضى عياض، وكذا الوثائق السياسيه.

نجران مؤرّخ بالسنه الهجرية الخامسة.

فقد جاء في هذه الرسالة:

«وأمر علياً أن يكتب فيه حين كتب عنه أنه كتب لخمس من الهجره».(١)

إنّ هذه الجملة تفيد بوضوح أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو واضع التاريخ الهجرى ومؤسسه الأول، وهو الذى أمر علياً عليه السلام بأن يؤرّخ ذلك الكتاب بالتاريخ الهجرى فى ذيله. ٤. جاء فى مقدّمه الصحيفه السجديه: قال جبرئيل وهو يفسّر رؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تدور رحى الإسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشرًا، ثم تدور رحى الإسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك فتلبث بذلك خمسًا، ثم لا بد من رحى ضلاله هى قائمه على قطبها».(٢)

٥. يروى المحدّثون الإسلاميون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأُمّ سلمه:

«يُقْتَلُ الحسين بن علي على رأس ستين من مهاجرى».(٣)

٦. قال أنس بن مالك: «حدثنا أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا تأتى مائه سنه من الهجره و منكم عين تطرف».(٤)

٧. أرّخ أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى أيام حياته الحوادث الإسلاميه بهجرته فقالوا: وقع كذا فى الشهر كذا من الهجره، مثلاً كانوا يقولون: حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبه فى شهر شعبان وقيل فى رجب، وكان عليه السلام يصلّى إلى بيت

ص: ٦٧٢

١- . التراتيب الإداريه (نظام الحكومه النبويه) للشيخ عبدالحى الإدريسي الفاسى: ١/١٨١.

٢- . الصحيفه السجديه (طبع الأبطحى): ٦٢٢.

٣- . مجمع الزوائد: ٩/١٩٠.

٤- . مجمع الزوائد: ١/١٩٧.

المقدس بالمدينه ستة عشر شهراً، وقيل: سبعة عشر شهراً، وقيل: ثمانية عشر شهراً. (١)

على رأس ثمانية عشر شهراً فرض صوم شهر رمضان. (٢)

وقال عبدالله بن أنيس أمير الوفد الذي بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

خرجت من المدينه يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس أربعه وخمسين شهراً. (٣)

وقال محمد بن سلمه عن غزوه القرطاء: خرجت في عشر ليال خلون من المحرم فغبت تسع عشره وقدمت ليله بقيت من المحرم

على رأس خمسه وخمسين شهراً. (٤)

إن هذا النوع من تاريخ الحوادث والوقائع يكشف عن أن المسلمين كانوا إلى السنه الخامسه من الهجره يقيسون الحوادث بهجره النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويؤرخون بها عن طريق عد الأشهر، حتى إذا كانت السنه الخامسه من الهجره أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإحلال السنه الهجرية مكان الشهر الهجرى (كما مر في رساله رقم ٤) حيث أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يؤرخ الكتاب الذي كتبه لنصارى نجران بالعام الهجرى.

٨. نقل المحدثون الإسلاميون عن الزهرى قوله: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما قدم المدينه مهاجراً أمر بالتاريخ

فكتب في ربيع الأول (أى شهر قدومه المدينه). (٥)

٩. روى «الحاكم» عن «ابن عباس» قال: كان التاريخ الهجرى فى السنه التى

ص: ٦٧٣

١- . تاريخ الخميس: ١/٣٦٧.

٢- . المغازى: ٢/٥٣١ تحقيق الدكتور مارسدن جونز.

٣- . المغازى: ٢/٥٣١.

٤- . المغازى: ٢/٥٣٤.

٥- . فتح البارى: ٧/٢٠٨.

قدم فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة. (١)

إنّ هذه النصوص تحكى عن أنّ قائد الإسلام الأكبر قد أوضح مسأله التاريخ من اليوم الأوّل. وأنّه جعل هجرته مبدأً لذلك التاريخ. غايه ما هنالك أنّ هذا التاريخ كان إلى فتره من الزمن يعدُّ بالأشهر ثم حلّ العدُّ بالأعوام منذ حلول السنه الخامسه من الهجره محل العدّ بالأشهر.

١٠. جاء في معاهده الصلح التي نظمها «خالد بن الوليد» لأهل دمشق، ونصّ فيها على احترام دمائهم، وأموالهم وكنائسهم: «وكتب سنه ثلاث عشره» (٢).

وكلنا نعلم أنّ دمشق فتحت في أواخر حياه الخليفه الأوّل.

فما يدعيه البعض من أنّ التاريخ الهجرى قد اتّخذ في عهد الخليفه الثانى بإرشاد وتأيد من الإمام على عليه السلام غير صحيح فإنّ تاريخ ذلك يرتبط بالسنه السادسه عشره أو السابعه عشره من الهجره، والحال أنّ هذه المعاهده قد نظّمت ودوّنت وأرخت بالتاريخ الهجرى قبل ذلك بأربع سنوات.

سؤال:

ويمكن أن يسأل سائل: إذا كان حقاً أنّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو مؤسس التاريخ الهجرى وواضعه الأوّل فماذا نفعل بالخبر الذى رواه كثيرٌ من المحدثين والمؤرخين؟

فإنهم يقولون: رفع رجل إلى عمر صكاً مكتوباً على آخره بدين يحلّ عليه فى شعبان، فقال عمر: أى شعبان؟ أمن هذه السنه، أم التي قبلها، أم التي بعدها؟

ثم جمع الناس (أى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: ضعوا للناس شيئاً

ص: ٦٧٤

١- . مستدرک الحاكم: ١٣/٣-١٤ وقد صحّحه على شرط مسلم، وص ٥٤٨.

٢- . الأموال: ٢٩٧، طبعه مصر.

يعرفون فيه حلول ديونهم. فيقال: إنَّ بعضهم أراد أن يؤرّخوا كما تؤرّخ الفرس بملوكهم، كلّما هلك ملك أرخوا من تاريخ ولايه الذي بعده فكرهوا ذلك.

ومنهم من قال: أرخوا بتاريخ الروم من زمان اسكندر، فكرهوا ذلك، ولطوله أيضاً.

وقال آخرون: أرخوا من مولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال آخرون: أرخوا من مبعثه. وأشار على بن أبي طالب عليه السلام أن يؤرّخ من هجرته من مكّة إلى المدينة لظهوره على كلّ أحد، فإنّه أظهر من المولد والمبعث، فاستحسن ذلك عمر والصحابة، فأمر عمر أن يؤرّخ من هجره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. (١)

الجواب:

إنّ هذا القسم من التاريخ لا يمكن الاستناد إليه في مقابل النصوص الكثيرة التي وصفت الرسول العظيم صلى الله عليه وآله وسلم بكونه واضع التاريخ الهجرى ومؤسسه الأوّل.

هذا مضافاً إلى أنّه من الممكن أن يكون التاريخ الهجرى الذي وضعه النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قد تعرّض للترك، وفقد رسميته بمرور الزمن وقلة الحاجه إلى التاريخ ولكن جُيّد في زمن الخليفة الثاني، بسبب اتّساع نطاق العلاقات وأعيد الاهتمام به لاشتداد الحاجه إليه في هذا العهد.

التذكير بنقطتين:

١. لا نجد في الاقتراحات التي عرضت على الخليفة في مجال التاريخ أي ذكر للتاريخ المسيحي الذي يجعل ميلاد السيد المسيح عليه السلام مبدأً للتاريخ.

ص: ٦٧٥

١- . البدايه والنهايه: ٧/٨٥. ولاحظ: شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ١٢/٧٤. الكامل لابن الأثير: ١/١٠.

والعلّه هي: أنّ التاريخ الميلادى ظهر فى القرن الرابع الهجرى الإسلامى بين المسيحيين بعد سلسله من المحاسبات التخمينيه، فهو لم يكن رائجاً قبل ذلك.

٢. أنّ البلاد والأقطار الإسلاميه بحاجة اليوم إلى الوحده والاتفاق أكثر من أى زمن مضى.

ومن مظاهر تلك الوحده هو السعى للحفاظ على التاريخ الإسلامى الهجرى. ومن هنا يتوجب على الأقطار الإسلاميه أن تقيم كلّ روابطها، وعلاقتها على أساس التاريخ الهجرى، شمسياً^(١) كان أو قمرياً.

وإنّ هذا الأمر بحاجة إلى مؤتمر إسلامى كبير يشترك فيه كبار الشخصيات الفكرية الإسلاميه من أجل توحيد التاريخ، ودراسه السبل الكفيله بالوصول إلى هذا الأمر، والتخلّص من التبعية الغربيه فى التاريخ. إنّ من المؤسف جداً أن تتجاهل بعض الدول الإسلاميه والعربيه التاريخ الهجرى وتعتمد التاريخ الميلادى المسيحى، حتّى أنّ شيخ الجامع الأزهر الذى يشكّل قمّه القياده الدينيه فى المجتمع السنّى يؤرّخ رسائله بالتاريخ الميلادى، ولا يذكر إلى جانبه التاريخ الهجرى على الأقل!!^(٢)

ص: ٦٧٦

١- . التاريخ الهجرى الشمسى يؤرّخ لهجره الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حسب أشهر السنه الإيرانيه - الخاصه بها - المرتبه حسب الفصول الأربعة حيث تبدأ السنه الإيرانيه بفصل الربيع وتنتهى بفصل الشتاء وعدد أيامها ٣٦٥ يوماً. والسنه الكبيسه ٣٦٦ يوماً كالسنه الميلاديه.

٢- . وقد رأيت أنا شخصياً رسالته من شيخ الجامع الأزهر الأسبق هو الشيخ محمود عبدالحليم وعليها التاريخ الميلادى فحسب!!

وكانت إيران من الأقطار الإسلامية التي حافظت بشده على التاريخ الهجري، واعتمدته في أعمالها، ولكن في المؤامره التي نفذت بواسطة الطاغية المقبور في عام ١٣٩٩ هـ، استبدلت التاريخ الهجري بالتاريخ الشاهنشاهي، وأُعلن في وسائل الإعلام عن وجوب اعتماد هذا التاريخ المختلق بدل التاريخ الهجري الأصيل!!

ولقد تصوّر الطاغوتُ الأرعن أنّه يستطيع بحذف التاريخ الهجري، واستبداله بالتاريخ الشاهنشاهي المشؤوم تثبيت قواعد حكومته المهزوزه، وسلطانه المنخور، ونظامه الظالم المتهرئ، مده أطول، ولكن العناية الإلهيه، وهمة الشعب الإيراني المسلم العاليه، وقياده الأستاذ الأكبر آيه الله العظمى الإمام الخميني قدس سره الشريف أفضلت هذه المحاوله النكراء، وآل الأمر إلى إسقاط النظام الشاهنشاهي بثوره الشعب المجيده وإقامه حكومه الجمهوريه الإسلاميه على أنقاض الحكم الملكي المباد، وإحلال التاريخ الهجري الإسلامي المبارك محلّ التاريخ الشاهنشاهي المختلق. والحمدلله.

الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يبدأ رحلته إلى يثرب

لقد كان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقطع - للوصول إلى المدينة - ما يقرب من أربعمائه كيلومتراً، ولا شك أن طي هذه المسافه الطويله تحت تلك الحراره العاليه الدرجه بحاجه إلى خطّه صحيحه، لضمان السلامه، خاصّه وأنهم كانوا يخافون من أن يقوم الأعراب الذين كانوا ربّما يصادفونهم في أثناء الطريق بإخبار قريش بهم، ولهذا كانوا يسيرون ليلاً ويستريحون نهاراً.

ويبدو أنّ شخصاً شاهد النبيّ ومن معه في أثناء الطريق فرجع إلى مكّه وأخبر قريشاً بذلك فخرج «سراقة بن مالك بن جُعشم» يطلبهم طمعاً في جائزه

قريش الكبرى فلهحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد صرف قريشاً عن ملاحقه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل ذلك ليتفرد بها.

يقول ابن الأثير: وكانت قريش قد جعلت لمن يأتي بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ديه فتبعهم سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي فلحقهم فقال أبو بكر: يا رسول الله أدر كنا الطلب، فقال (رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم): «لا تحزن إنَّ الله معنا».

ودعا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فارتطمت فرسه إلى بطنها وثار من تحتها مثل الدخان، فقال: ادع لي يا محمد ليخلصني الله ولك علي أن أرد عنك الطلب، فدعا له فتخلص، فعاد يتبعهم، فدعا عليه الثانية فساخت قوائم فرسه في الأرض أشد من الأولى فقال: يا محمد قد علمت أن هذا من دعائك علي فادع لي ولك عهد الله أن أرد عنك الطلب، فدعا له فخلص، وقرب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يا رسول الله خذ سهماً من كنانتي وإن إبلي بمكان كذا فخذ منها ما أحببت.

فقال (رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم): لا حاجة لي في إبلك. (١)

وروى المجلسي أن سراقه قال: فسئلني حاجه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: رُدَّ عَنَّا مَنْ يَطْلُبُنَا مِنْ قَرِيشٍ.

فانصيرف سراقه فاستقبله جماعه من قريش في الطلب فقال لهم: انصرفوا عن هذا الطريق، فلم يمر فيه أحد، وأنا أكفيكم هذا الطريق، فعليكم بطريق اليمن والطائف. (٢)

وهكذا ما كان يمر بأحد إلا وصرفه عن البحث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا

ص: ٦٧٨

١- . الكامل في التاريخ: ٢/١٠٥.

٢- . بحار الأنوار: ١٩/٧٥. يذكر كثير من المؤرخين القصة كما نقلناها هنا، ولكن مؤلف حياه محمّد يقول: إنَّ سراقه تطير لما كبا به فرسه وألقى في روعه أن الآلهه مانعه منه ضالته.

الطريق بمثل هذا الكلام.

ثم إنّ كُتّاب السير من الشيعة والسنة يذكرون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كرامات كثيرة في طريق مكّه - المدينة ونحن ندرج واحده منها:

مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أثناء الطريق على خيمه أمّ معبد الخزاعيه وكانت امرأه برزه تحتبى وتجلس في فناء الخيمه فسألوا تمرّاً أو لحماً ليشتروه، فلم يصيبوا عندها شيئاً...

فقلت: لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كسر خيمتها فقال (صلى الله عليه وآله وسلم لها): ما هذه الشاه يا أمّ معبد؟ قالت: شاهٌ خلفها الجهدُ عن الغنم فقال: هل بها من لبن؟.

قالت: هي أجهدُ من ذلك، قال: أتأذنين في أن أحلبها؟.

قالت: نعم بأبى أنت وأمى إنّ رأيت بها حلباً فاحلبها.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشاه فمسح ضرعها، وذكر اسم الله، وقال: «اللهم بارك في شاتها» فتفاجت ودرّت، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإناء لها يربض الرهط فحلب فيه ثجاً حتّى علتة الشمال فسقاها فشربت حتّى رويت، ثم سقى أصحابه فشربوا حتّى رووا، فشرب آخرهم، وقال:

«ساقى القوم آخرهم شرباً».

ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء فغادره عندها، ثم ارتحلوا عنها (إلى المدينة). (1)

وقد ذكرت هذه الكرامه في كثير من كتب السير والتاريخ، وهو أمر ممكن في رؤية المؤمن بالله، لأنّ الدعاء أحد الأسباب التي تستطيع أن تؤثر في الطبيعة،

ص: ٦٧٩

وشأنها شأن غيرها من الكرامات التي ورد ذكرها في الكتب الدينية وصدقته التجربة. (١)

النزول في قرية قباء:

تقع قرية قباء على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة وكانت مساكن «بنى عمرو بن عوف» ومركزهم.

ولقد وصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه إلى قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول يوم الاثنين، ونزل على «كلثوم بن الهرم» وهو شيخ من بنى عمرو وكان ثمة جمع كبير من المهاجرين والأنصار ينتظرون قدومه، ويستخبرون وروده.

ولقد لبث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قباء إلى آخر أيام الأسبوع، وقد خط في هذه الفترة مسجداً لقبيله «بنى عمرو بن عوف»، ونصب قبلته. (٢)

وكان البعض ممن رافق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصبر عليه أن يسارع في المدخول إلى المدينة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ينتظر ابن عمه علياً.

ويقول: ما أنا بداخلها حتى يقدم ابن عمي، وابنتي (يعني علياً وفاطمة عليهما السلام). (٣)

وأقام عليّ عليه السلام بمكة ثلاث ليال بأيامها، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الودائع التي كانت عنده للناس فقد وقف عليه السلام على مكان مرتفع في مكة ونادى قائلاً:

ص: ٦٨٠

١- لاحظ: بحار الأنوار: ١٨/٤٣ و ج ١٩/٩٩-١٠٣؛ الطبقات الكبرى: ١/٢٣٠ و ٢٣١؛ تاريخ الخميس: ١/٣٣٣؛ أسد الغابه: ١/٣٧٧.

٢- لاحظ: تاريخ الخميس: ١/٣٣٨.

٣- الفصول المهمة لابن صباغ المالكي: ١/٣٠٢ دون أن يذكر اسماً؛ كشف الغمة: ٢/٣٢؛ أمالي الشيخ الطوسي: ٤٦٩ ح ٣٧.

«مَنْ كَانَ لَهُ قَبِيلٌ مُحَمَّدٌ أَمَانُهُ أَوْ وَدِيعَةٌ فَلْيَأْتِ فَلْنُوذِّ إِلَيْهِ أَمَانَتُهُ».

فكان يأتيه من له أمانته أو وديعه عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويذكر علامتها ويأخذها، فلما فرغ عليه السلام من أداء الأمانات والودائع خرج بفاطمه بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمه فاطمه بنت أسد، وفاطمه بنت الزبير وآخرين ممن لم يكن قد هاجر مكة حتى تلك الساعة، وتوجه بهم نحو المدينة ليلاً سالكاً بها طريقاً في «ذى طوى».

روى الشيخ الطوسي في أماليه أن جواسيس قريش عرفت بسفر علي مع تلك الجماعة، فخرجوا لملاحقتهم، لغرض إعادتهم إلى مكة، فأدركوهم في منطقه «ضجنان».

ووقع بين رجال قريش وبين علي عليه السلام تلاح وتناوش، وأخذ ورد، ودنا الرجال من النسوة، والمطايا ليثورها، فحال علي عليه السلام بينهم، وبينها، ولم يجد عليه السلام طريقاً إلا أن يدافع عن حرم الإسلام والمسلمين، فشد عليهم بسيفه شدة الأسد الغضب والليث الغيور وهو يقول مرتجزاً:

خَلُّوا سَبِيلَ الْجَاهِدِ الْمَجَاهِدِ آلَيْتُ لَا أَعْبُدُ غَيْرَ الْوَاحِدِ

فتصدع عنه القوم وقالوا له: إغن عنا نفسك يا ابن أبي طالب، فقال عليه السلام:

«فإني مُنْطَلِقٌ إِلَى ابْنِ عَمِّي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِيَثْرِبَ، فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ أُفْرِيَ لِحْمِهِ وَأُرِيقَ دَمِهِ فَلْيَتَعَقِبْنِي أَوْ فَلْيَدْنِ مِنِّي».

فتركه القوم وعادوا من حيث أتوا، وواصل الركب رحلته باتجاه المدينة. (١)

يقول ابن الأثير: قدم «علي» المدينة وقد تفتّرت قدماه، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

ادعوا لي علياً، قيل: لا يقدر أن يمشي، فأناه النبي صلى الله عليه وآله وسلم واعتنقه وبكى رحمه لما

ص: ٦٨١

١- . لاحظ: أمالي الطوسي: ٤٧٠.

بقدميه من الورم. (١) ولقد قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، والتحق به عليُّ عليه السلام في منتصف ذلك الشهر نفسه. (٢) ويؤيد هذا القول ما ذكره الطبري في تاريخه إذ كتب يقول: وأقام علي بن أبي طالب رضى الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أذى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الودائع التي كانت عنده إلى الناس. (٣)

المدينة تهبُّ لقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

ولقد كان يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً عظيماً جداً، ومشهوداً.

فكم ترى ستكون عظيمه فرحه الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ ثلاث سنوات، وظلوا طوال هذه الأعوام يبعثون برسلمهم ووكلائهم إليه، ويذكرون اسمه المقدس، ويصلون عليه في صلواتهم كل يوم، إذا سمعوا أن قائدهم ذلك الذي طال انتظارهم إياه، واشتد تشوقهم إليه كائن عند ميلين من مدينتهم قد نزل في قبا أياماً، وسيقدم إليهم ويدخل مدينتهم بعد أيام؟ وكم سيكون مبلغ ابتهاجهم، وأى ابتهاج ترى سيعم كل صغير وكبير؟

إنه حقاً لأمر يعجزُ القلم عن بيانه، ويكلُّ اللسان عن وصفه.

ولقد كان لفتيه الأنصار وشبابهم الضامنين إلى الإسلام الحنيف برنامج رائع وعظيم، فقد كانوا عمدوا بغية تطهير جو المدينة من أدران الوثنية إلى كل صنم في

ص: ٦٨٢

١- .الكامل في التاريخ: ٢/١٠٦.

٢- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ١/٦٤ و ٦٨. وعلى هذا تكون محاصره بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تمت ثلاث ليال قبل شهر ربيع الأول من السنه الأولى من الهجرة، وقد خرج النبي من داره ليله الاثنين ودخل غار ثور وبقي ماكتاً فيه ثلاثه أيام، وخرج منه ليله الخميس أول ربيع الأول وتوجه نحو المدينة ووصل قباء في الثاني عشر منه. راجع تاريخ الخميس: ١/٣٣٧-٣٣٨.

٣- . تاريخ الطبري: ٢/١٠٦.

المدينة كان يقدّس ويعبد فأحرقوه وكسّروه، وقد كان كلّ شريف في بيته صنمٌ يمسحه ويطيّبه، ولكلّ بطن من الأوس والخزرج صنمٌ في بيت لجماعه يكرّمونه، ويجعلون عليه منديلاً ويذبحون له. (١)

ولا بأس في أن نذكر نموذجاً من هذا العمل الجليل الذي قام به الأنصار في التخلص من الوثنية:

لمّا قدم من بايع من الأنصار في العقبة الثانية إلى المدينة أظهروا الإسلام بها وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك، منهم «عمرو بن الجموح» وكان سيداً من سادات بني سلمه وشريفاً من أشرافهم وكان ابنه «معاذ» بن عمرو قد شهد بيعه العقبة، وبايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان عمرو قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له: مناه، كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذها إلهاً يعظّمه ويطهره، فلما أسلم فتیان بني سلمة: معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو بن الجموح فيحملونه ويطرحونه في بعض حُفَر بني سلمه، وفيها عذر الناس، منكساً على رأسه!!

فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟

ثم يغدو يلتمسه حتّى إذا وجده غسله وطرّبه وطيّبه. ثم قال للصنم: أما والله لو أعلم من فعلَ هذا بك لأُخزيتَه!

فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ثانية ففعلوا به مثل ما فعلوا به أوّلاً.

فيغدو فيجدُه في مثل ما كان فيه من الأذى والوسخ، فيغسله ويطهره ويطيّبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك.

ص: ٦٨٣

فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ماتري، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبلٍ، ثم ألقوه في بئرٍ من آبار بني سلمه فيها عذر من عذر الناس وفضلاتهم. ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به. فخرج يتبعه حتى وجدته في تلك البئر منكساً مقروناً بـكلبٍ ميت، فلما رآه وأبصر شأنه وكلمه من أسلم من رجال قومه، فأسلم برحمه الله وحسن إسلامه. فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وکلبٌ وسطَ بئرٍ في قرنٍ

أفُّ لملاقك إلهاً مستدن الآن فتشناك عن سوء الغبن

فالحمد لله العلي ذي المنن الواهب الرزاق ديان الدين

هو الذي أنقذني من قبل أن أكون في ظلمة قبرٍ مرتهن

بأحمد المهدي النبي المرتهن (١)

النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدخل المدينة:

بعد أن التحق على عليه السلام ومن معه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قباء توجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ولما انحدر من ثنية الوداع (وهي منطقتهم قريه من المدينة) وحط قدمه على تراب يثرب استقبله الناس رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، استقبالاً

ص: ٦٨٤

عظيماً ورحبوا به أعظم ترحيب، وردد المرحوبون أناشيد الترحيب التالية:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثِيَابِ الْوَدَاعِ

وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعٍ

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ

وكانت بنو عمرو بن عوف قد اجتمعت عنده وأصرت عليه بأن ينزل في قباء وقالوا: أقم عندنا يا رسول الله فإننا أهل الجدد والجلد، والحلقة (أى السلاح) والمنعه، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقبل.

وبلغ الأوس والخزرج خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقرب نزوله المدينة فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته لا- يمر بحى من أحياء الأنصار إلّا وثبوا في وجهه وأخذوا بزمام ناقته، وأصروا عليه بأن ينزل عليهم، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: خلوا سبيلها فإنها مأموره.

وأخيراً لما انتهت ناقته - وكان صلى الله عليه وآله وسلم قد أرخى زمامها - إلى باب المسجد الذى هو اليوم، ولم يكن مسجداً إنما كان أرضاً واسعاً وليتيمين من الخزرج يقال لهما: سهل وسهيل وكانا فى حجر أسعد بن زراره فبركت الناقه على باب «أبى أيوب» خالد بن زيد(1) الأنصارى الذى كان على مقربة من تلك الأرض.

فاغتنمت أم أبى أيوب الفرصه فبادرت إلى رحل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحلته وأدخلته منزلها، بينما اجتمع عليه الناس ويسألونه أن ينزل عليهم.

فلما أكثروا عليه، وتنازعوا فى أخذه قال صلى الله عليه وآله وسلم أين الرحل؟

فقالوا: أم أبى أيوب قد أدخلته بيتها.

ص: ٦٨٥

١- . بحار الأنوار: ١٩/١٠٨ ولكن ذهب البعض (كصاحب الكامل فى التاريخ: ٢/١٠٩) إلى أنهما كانا فى حجر معاذ بن عفراء.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «المرء مع رحله» وأخذ أسعدُ بن زراره بزمام الناقة فحوّلها إلى منزله. (١)

أصل النفاق ومنشؤه:

كانت الأوس والخزرج قد اتّفتتا على أن تملّكك عبد الله بن أبي بن سلول (رئيس المنافقين وكبيرهم) عليهم، وذلك قبل أن تباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العقبة وتؤمن به وتعتنق الإسلام، ولكن هذا القرار ألغى بعد اتّصال الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من هنا حنق عبد الله بن أبي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأضمر له العداوة منذ ذلك الحين، ولم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى آخر حياته، بل كان ينافق بإسلامه.

ولمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وشاهد عبد الله بن أبي ذلك الاستقبال والترحيب العظيمين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الّمدى قام بهما الأوس والخزرج، شقّ عليه ذلك جداً، ولم يستطع إخفاء حنقه وغضبه، وحقده وعداوته للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم! فعندما انتهى صلى الله عليه وآله وسلم إلى عبد الله بن أبي وقد أرخى صلى الله عليه وآله وسلم زمام ناقته لتبرك حيث تريد، أخذ عبد الله كتمه ووضع على أنفه، وقد ثارت الغبرة بسبب الزحام وقال للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بنبره الحانق الغاضب: يا هذا إذهب إلى الّذين غرّوك وخذعوك وأتوا بك، فأنزل عليهم، ولا تُغشنا في ديارنا!!

فقام سعدُ بن عباد - وقد خشى أن يسوء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الموقف الوقح الشّرير - فقال: يا رسول الله لا يعرض في قلبك من قول هذا شيء، فإنّا كنّا اجتمعنا على أن نملكه علينا، وهو يرى الآن أنّك قد سلّبتُه أمراً قد كان أشرفَ

ص: ٦٨٦

هذا ويتفق عامه المؤرخين وكتاب السيره أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل يثرب يوم الجمعة، وصلى صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، وكانت هذه أول جمعه جمّعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الإسلام، فخطب في هذه الجمعة وهي أول خطبه خطبها في المدينة، وقد تركت هذه الخطبه البديعه البليغه التي لم يسمع أهل المدينة مثلها لفظاً ومعنى من قبل، أثراً عميقاً وطيباً في قلوبهم ونفوسهم.

وقد أدرج ابن هشام نصّ الخطبه في سيرته (٢)، كما أدرجها المجلسي في بحاره (٣) أيضاً.

غير أنّ عبارات ومضامين الخطبه التي نقلها ابن هشام وأثبتها في سيرته تختلف عمّا رواها وأثبتها المجلسي، وللإطلاع على ذلك يراجع المصدران المذكوران.

انتهى الجزء الأول من كتابنا

«سيد المرسلين»

والحمد لله رب العالمين

ص: ٦٨٧

١- . بحار الأنوار: ١٩/١٠٨.

٢- . لاحظ: السيره النبويه: ٢/٣٤٧-٣٤٨.

٣- . لاحظ: بحار الأنوار: ١٩/١٢٦.

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

السيره المحمديه مدرسه الأجيال... ٧

مقدمه المحاضر: التاريخ في أعظم ملاحمه... ١١

عندما يلتقى العالم الحاضر بالعالم الغابر... ١٢

حياه العظماء والخالدين... ١٥

الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و حياه حافله بالأحداث... ١٥

مزايا هذا الكتاب... ١٩

١. سيد المرسلين في ضوء القرآن الكريم... ٢١

٢. شبه الجزيره العربيه أو مهّد الحضاره الإسلاميه... ٣٤

مكّه المعظمه... ٣٦

تاريخ مكّه... ٣٧

المدينه المنوره... ٣٧

٣. العرب قبل الإسلام... ٤٢

أخلاق العرب و تقاليدهم العامه... ٤٤

هل كان للعرب حضاره قبل الإسلام؟... ٤٦

ملامح المجتمع الجاهلى العربى من منظار القرآن الكريم... ٤٩

١. الشرك في العباده... ٥١

الموضوع... الصفحة

٢. إنكارُ المعاد... ٥١

٣. هَيْمَنَةُ الخرافات... ٥٢

٤. الفساد الأخلاقي... ٥٤

٥. وَأَدُّ البُناات وإِقْبَارُهُن... ٥٥

٦. تصوّراتهم الخرافية حول الملائكة... ٥٦

٧. كيفية الانتفاع من الأنعام... ٥٦

٨. الاستقسام بالأزلام... ٥٧

٩. النسيء... ٥٧

١٠. الربا... ٥٨

صوّرُ من الوضع الجاهلي... ٥٩

العقيدة والدين في الجزيرة العربية... ٦١

عقيدة العرب حول حاله الإنسان بعد الموت... ٦٥

الآداب مرآة أخلاق الشعوب ونفسياتها... ٦٧

مكانه المرأة عند العرب الجاهلية... ٦٨

المرأة ومكانتها الاجتماعيّة عند العرب... ٧١

مقارنه بسيطه... ٧٤

العربُ والرُّوح القتاليّه... ٧٥

الأخلاق العامّة في المجتمع الجاهلي العربي... ٧٧

النزوع إلى الخرافة والأساطير في المجتمع الجاهلي... ٧٩

الخرافات في عقائد العرب في الجاهليه... ٨٢

نماذج من الخرافات في المجتمع الجاهلي... ٨٣

١. الاستسقاء يا شعاع النيران... ٨٤

ص: ٦٩٠

٢. ضرب الثور إذا عافت البقر الماء... ٨٤
٣. كى صحيح الإبل ليبراً السقيم... ٨٥
٤. حبس ناقه عند القبر إذا مات كريماً... ٨٦
٥. عقر الإبل على القبور... ٨٦
٦. التعشير... ٨٧
٧. تصفيق الضال في الصحراء ليتهدى... ٨٧
٨. الرتم... ٨٨
٩. وطئ المرأة القليل الشريف لبقاء ولدها... ٨٨
١٠. طرُح السن نحو الشمس إذا سقطت... ٨٩
١١. تعليق شيء نجس على الرجل وقاياه من الجنون... ٨٩
١٢. الاستشفاء بدم الرئيس... ٩٠
١٣. شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل... ٩٠
١٤. معالجه المرضى بالأمر العجيبه... ٩٠
١٥. خرافات حول الغائب منهم... ٩٢
١٦. عقائدهم العجيبه فى الجن وتأثيره... ٩٣
١٧. تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والأشياء... ٩٣
- مكافحه الإسلام لهذه الخرافات... ٩٤
- أوضاع العرب الاجتماعيه قبيل ظهور الإسلام... ٩٧
- دول الحيره وغسان... ١٠١

الدين فى أرض الحجاز... ١٠٤

العلم والثقافة فى الحجاز... ١٠٤

الإمام على عليه السلام يصف العهد الجاهلى... ١٠٤

ص: ٤٩١

فاطمه الزهراء عليها السلام تصف الوضع الجاهلي... ١١١

جعفر بن أبي طالب يصف العهد الجاهلي... ١١٢

٤. إمبراطوريتا الروم وإيران إبان عهد الرّسالة... ١١٤

أوضاع الروم إبان عهد الرّسالة... ١١٤

ظاهرة الجدل العقيم في المجتمع الرومي... ١١٦

أوضاع إيران إبان عهد الرّسالة... ١١٩

البدخ والتّرف في البلاط الساساني... ١٢٠

الوضع الاجتماعي في إيران... ١٢١

حقّ التعلّم خاصّ بالطبقات العليا!!!... ١٢٣

صفحة سوداء من جرائم خسروبرويز... ١٢٧

حكم التاريخ في الملوك الساسانيين... ١٢٨

الفوضى في الحكومه الساسانيه... ١٢٩

الفوضى الدينيه في إيران الساسانيين... ١٣١

الحروب الإيرانيه الروميه... ١٣٥

٥. أسلاف رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم... ١٣٨

١. بطل التوحيد: إبراهيم الخليل عليه السلام... ١٣٨

مولد إبراهيم عليه السلام... ١٣٩

إبراهيم ومكافحته للوثنيه... ١٤٣

حوار إبراهيم الخليل عليه السلام مع عبده الكواكب... ١٤٤

طريقه الأنبياء فى الحوار والجدال ... ١٤٩

هل كان آزر والد إبراهيم؟ ... ١٥١

القرآن ينفى أبوه «آزر» لإبراهيم عليه السلام... ١٥٢

ص: ٦٩٢

الموضوع... الصفحة

إبراهيم محطّم الأصنام... ١٥٤

العبر القيمه فى هذه القصة... ١٥٨

هجره الخليل عليه السلام... ١٦٢

كيف ظهرت عين زمزم؟... ١٦٤

تجديد اللقاء... ١٦٦

٢. قُصِيُّ بْنُ كَلَابٍ... ١٦٨

٣. عبدمناف... ١٧٠

٤. هاشم... ١٧٠

أُمَيْتُهُ بْنُ عَبْدِشَمْسٍ يَحْسُدُ هَاشِمًا... ١٧٣

هاشم يتزوج... ١٧٤

٥. عبدالمطلب... ١٧٥

حَفْرُ زَمْرَمٍ... ١٧٧

التفانى فى سبيل الوفاء بالعهد والندى... ١٨٠

حادثة عام الفيل... ١٨٢

ماهى أسباب هذه الحادثة؟... ١٨٣

عَبْدُ الْمَطَّلِبِ يَذْهَبُ إِلَى مُعَسْكَرِ أَبِيهِ... ١٨٧

إنتظار قريش... ١٨٨

كلمه حول المعجزه... ١٩٠

نقاطٌ تقتضى التأمل فى تفسير «فى ظلال القرآن»... ١٩٤

نقطتان هامتان... ١٩٦

بحث علمي حول المعجزة... ١٩٧

١. ماهي المعجزة وما هو تعريفها؟... ١٩٨

ص: ٦٩٣

٢. هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلّمه؟ ... ٢٠٠

٣. هل المعجزه تصدر عن علل ماديه غير معروفه فقط؟ ... ٢٠٣

٤. كيف تدلّ المعجزه على صحّه ادّعاء النبوه؟ ... ٢٠٥

٥. بماذا نميّز المعاجز عن غيرها من الخوارق؟ ... ٢٠٦

ماذا بَعْدَ هزيمه الأحباش؟ ... ٢١٣

أوهام قريش تتفاقم!! ... ٢١٤

٦. عَبْدُ اللَّهِ وَالِدُ النَّبِيِّ ... ٢١٦

دَوْرُ الْأَيَادِي الْمَشْبُوهَةِ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ... ٢١٨

قِصَّةُ فَاطِمَةَ الْخَتَمِيَّةِ ... ٢١٩

علائم الاختلاق في هذه القصة! ... ٢٢١

٢٢٣ طهاره النبي من دنس الآباء وعهر الأمهات ... ٢٢٣

وفاء عَبْدُ اللَّهِ فِي «يَثْرِبَ» ... ٢٢٤

٦. مَوْلِدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ... ٢٢٦

فتره الطفوله في حياه العُظماء ... ٢٢٦

في أيّ يوم وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ ... ٢٣١

أيّ القولين هو الصحيح؟ ... ٢٣١

فتره الحمل ... ٢٣٢

مؤاخذات وإشكالات على هذا البيان ... ٢٣٥

الإحتفال بذكرى المولد النبوي ... ٢٣٦

مَراسِمُ تسميه النبي صلى الله عليه وآله وسلم... ٢٣٩

خَطَا المُسْتَشْرِقِينَ... ٢٤٠

«أحمد» كَانِ مِنْ أَسْمَاءِ النبي المشهوره... ٢٤١

ص: ٦٩٤

فَتْرَةُ الرَّضَاعِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ... ٢٤٥

نَظَرُهُ الْإِسْلَامَ فِي تَأْثِيرِ الرِّضَاعِ... ٢٤٧

٧. فَتْرَةُ الطُّفُولَةِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ... ٢٤٩

خَمْسَةُ أَعْوَامٍ فِي الصَّخْرَاءِ... ٢٥٣

٨. الْعَوْدَةُ إِلَى أَحْضَانِ الْعَائِلَةِ... ٢٥٥

سَفَرُهُ إِلَى يَثْرِبَ... ٢٥٧

وَفَاةُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ... ٢٥٩

كِفَالَةُ أَبِي طَالِبٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ... ٢٦٠

سَفَرُهُ إِلَى الشَّامِ... ٢٦١

أَكْذُوبُهُ الْمُسْتَشْرِقِينَ... ٢٦٣

نَظَرُهُ إِجْمَالِيَّتَهُ إِلَى التَّوْرَةِ الْحَاضِرَةِ... ٢٦٧

١. دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ... ٢٦٨

٢. النَّبِيُّ سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ... ٢٦٩

٣. يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ... ٢٧٠

٤. إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ... ٢٧١

٥. الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ... ٢٧٢

٩. فَتْرَةُ الشَّبَابِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ... ٢٧٥

رَسُولُ اللَّهِ وَقَدْرَتُهُ الرُّوحِيَّةُ... ٢٧٦

حُرُوبُ الْفِجَارِ... ٢٧٦

حَلْفُ الْفُضُولِ ... ٢٨٠

١٠. من فتره الشباب إلى مزاوله التجاره... ٢٨٤

سبب آخر لرعى الغنم... ٢٨٦

ص: ٦٩٥

الموضوع... الصفحة

إقتراح أبي طالب... ٢٨٧

هل عمِلَ النبيُّ أجيراً لخديجه؟... ٢٨٨

رحله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم التجاريه إلى الشام... ٢٨٩

خديجه زوجته الرسول الأولى... ٢٩١

خديجه في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم... ٢٩٤

افتخار أهل البيت بخديجه عليها السلام... ٣٠٣

العلل الظاهرية والحقيقية وراء زواج خديجه بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم... ٣٠٤

كيف تمّت خطبته خديجه؟... ٣٠٦

عمر خديجه عند زواجها بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم... ٣٠٨

١١. من الزواج إلى البعثة... ٣١١

فترة الشباب في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... ٣١٢

مشاعر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الإنسانية في فترة الشباب... ٣١٣

أولاد خديجه... ٣١٤

حدس لا أساس له من الواقع!!... ٣١٥

دعوى رسول الله: زيد بن حارثة... ٣١٦

بداية الخلاف بين الوثنيين... ٣١٧

أعمده الوثنية تهترت... ٣١٨

نموذج آخر عن ضعف قريش... ٣٢٠

أمين قريش يكفل علياً... ٣٢٣

إيمان النبي وآبائه وكفلائه قبل الإسلام... ٣٢٤

إيمان جدّه عبدالمطلب... ٣٢٤

إيمان كفيّله وعمه أبي طالب... ٣٢٨

ص: ٦٩٦

إيمان والدَى النبى الأكرم... ٣٢٩

إيمان النبى بالله وتوحيده قبل البعثة... ٣٣١

شبهات المستشرقين على عدم إيمان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة... ٣٣٦

الآية الأولى: الهداية بعد الضلاله... ٣٣٧

الآية الثانية: الأمر بهجر الرجز... ٣٤٠

الآية الثالثة: عدم علمه بالكتاب والإيمان... ٣٤٢

تفسير الآيه بآيه أخرى... ٣٤٦

الآيه الرابعه: عدم رجائه إلقاء الكتاب اليه... ٣٤٩

الآيه الخامسه: لو لم يشأ ما تلوته... ٣٥١

١٢. بدء الوحى... ٣٥٤

دور الأنبياء فى إصلاح المجتمع... ٣٥٧

مثال واضح فى المقام... ٣٥٨

أمين قريش فى غار حراء... ٣٦١

بدء الوحى... ٣٦٣

ظاهرة القضايا الغيبية فى رأى الماديين... ٣٦٤

الروح المجزده... ٣٦٦

ظاهرة الوحى عند الماديين... ٣٦٧

أبرز النظريات المادية لظاهرة الوحى... ٣٦٨

ظاهرة الوحى فى منظار العقل والدين... ٣٧٧

قنواتُ المعرفة الثلاث... ٣٧٨

أنواع الوحي وأصنافه... ٣٨٠

أساطيرُ مختلفه... ٣٨١

ص: ٦٩٧

الموضوع... الصفحة

بقيه حادثه نزول الوحي... ٣٨٢

خديجه تذهب إلى ورقه بن نوفل... ٣٨٣

بُطلانُ هذه المزاعم... ٣٨٥

١٣. متى نزل الوحي أولاً؟... ٣٨٨

ما أجاب به علماء الشيعة... ٣٨٩

الأنبياء والبشاره برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... ٣٩٣

محمد خاتم الأنبياء... ٣٩٦

١٤. ما سببني أحد... ٣٩٨

أول من آمن بالنبي من الرجال والنساء... ٣٩٨

من النساء: «خديجه»... ٣٩٨

أقدم الرجال إسلاماً: «علي» عليه السلام... ٣٩٩

النصوص النبويه... ٤٠٤

كلمات أمير المؤمنين عليه السلام... ٤٠٦

كلمه الإمام السبط الحسن عليه السلام... ٤١٠

رأى الصحابه والتابعين في أول من أسلم... ٤١٠

مناظره بين المأمون وإسحاق... ٤٢٦

قضيه «انقطاع الوحي»... ٤٢٧

أسطوره وليس تاريخاً!... ٤٢٩

اختلاف المؤرخين في مسأله «انقطاع الوحي»... ٤٣٠

الإختلاف فى مده انقطاع الوحى ... ٤٣٤

١٥. الدَعْوَةُ السِّرِّيَّةُ وَدَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ ... ٤٣٦

دَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ ... ٤٣٨

ص: ٤٩٨

الموضوع... الصفحة

كيفية دَعْوِه الأقرين... ٤٤٢

خِيَانَةُ تَارِيخِيَّةٍ وَجِنَايَةِ أَدْبِيَّةٍ!!... ٤٤٤

النَّبَوَّةُ وَالْإِمَامَةُ تَوْأَمَانٌ... ٤٤٦

١٦. الدَعْوَةُ الْعَامَّةُ... ٤٤٨

الثَّبَاتُ وَالْإِسْتِقَامَةُ عَلَى طَرِيقِ الْهَدْفِ... ٤٤٩

ثَبَاتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَصَبْرُهُ... ٤٥٠

قَرِيشٌ تَمْشِي إِلَى أَبِي طَالِبٍ لِمَرَّةٍ الثَّلَاثَةَ... ٤٥٣

قَرِيشٌ تَحَاوَلُ تَطْمِيعَ رَسُولِ اللَّهِ!... ٤٥٣

نَمَازِجٌ مِنْ إِيْذَاءِ قَرِيشٍ وَتَعْذِيبِهَا لِلْمُسْلِمِينَ... ٤٥٥

أَبُو جَهْلٍ يَكْمُنُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ... ٤٦٠

أَبُولَهَبٌ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ... ٤٦١

صَبْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَاسْتِقَامَتُهُ... ٤٦٢

إِيْذَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَتَعْذِيبُهُمْ!... ٤٦٢

١. بَلَالُ الْحَبَشِيُّ... ٤٦٣

٢. آلُ يَاسِرٍ رَمَزَ الصُّمُودَ وَالْمَقَاوِمَةَ!... ٤٦٤

٣. عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ... ٤٦٦

٤. أَبُو ذَرٍّ: أَوَّلُ الْمَجَاهِرِينَ بِالْإِسْلَامِ... ٤٦٧

قَبِيلَةُ غِفَّارٍ تَعْتَنُقُ الْإِسْلَامَ... ٤٦٩

أَعْدَاءُ النَّبِيِّ الْأَلْدَاءِ... ٤٧١

عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام... ٤٧٢

١٧. رأى قريش في القرآن... ٤٧٧

رأى الوليد في القرآن... ٤٧٧

ص: ٤٩٩

رأى عتبه بن ربيعه فى القرآن... ٤٧٩

تحججات قريش العجيبه... ٤٨١

الدوافع وراء معاداه قريش وعنادهم... ٤٨٨

١. حسدُهُمُ للنَّبِيِّ صلى الله عليه و آله و سلم... ٤٨٨

٢. معارضه الدعوه الإسلاميه لشهواتهم... ٤٩٠

٣. الخَوْفُ مِنْ عُقُوبَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ... ٤٩٠

٤. الخَوْفُ مِنْ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَةِ الْمَشْرَكَةِ... ٤٩١

طائفه من اعتراضات المشركين... ٤٩٢

القرآن والتزول التدريجى... ٤٩٢

الأسرار المنطقيه للتزول التدريجى للقرآن... ٤٩٥

أسرار أخرى لتزول القرآن تدريجاً... ٤٩٨

١٨. إلى الحبشه... ٥٠١

الهجره الأولى... ٥٠١

الهجره الثانيه إلى الحبشه... ٥٠٥

قريش توفد رجالاً لاسترداد المسلمين... ٥٠٦

العودة من الحبشه... ٥١٢

وفد مسيحي لتقصي الحقائق يدخل مكه... ٥١٤

وفد قريش إلى يهود يثرب للتحقيق... ٥١٥

١٩. الأسلحة الفاشله والأساليب الباطله... ٥١٧

١. الاتِّهَامَاتُ الباطِله... ٥١٨

الإصرار في نسبه الجنون إليه صلى الله عليه وآله وسلم... ٥٢٢

القرآن يرد على جميع الاتِّهَامَات... ٥٢٤

ص: ٧٠٠

الموضوع... الصفحة

٢. فكرة معارضة القرآن... ٥٢٦

٣. تحججات صبيانيه وجاهليته... ٥٢٨

٤. مقترحات عجيبة ومطالب غريبه... ٥٣٠

صبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستقامته وثباته... ٥٣١

معاجز النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تنحصر في القرآن الكريم... ٥٣٢

١. شق القمر... ٥٣٢

٢. الإسراء والمعراج... ٥٣٣

٣. مباهله أهل الباطل... ٥٣٣

٤. الإخبار بالمغيبات... ٥٣٣

حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هدايه قريش... ٥٣٤

٥. تحريم المشركين استماع القرآن... ٥٣٤

واضعو القرار ينقضون قرارهم!!... ٥٣٧

٦. منع الأشخاص من الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... ٥٣٨

الأول: الأعشى بن قيس... ٥٣٨

الثاني: الطفيل بن عمرو الدوسي... ٥٤٠

٢٠. أسطوره الغرائق... ٥٤٢

ماهى أسطوره الغرائق؟!... ٥٤٣

محاسبه بسيطه لهذه الأسطوره... ٥٤٤

رأى العقل فى هذه القصة... ٥٤٥

تكذيب القِصَّة من طريق آخر... ٥٤٧

دليلٌ لَعَوَى على تفنيد هذه الأسطوره... ٥٤٨

شبهات للمستشرقين والرد عليها... ٥٥٠

١. ما هو المقصود من تمنى الأنبياء والرسل؟... ٥٥١

ص: ٧٠١

٢. ما هو المقصود من تدخّل الشيطان؟... ٥٥١
٣. ما هو المقصود من محو آثار التدخّل؟... ٥٥٣
٢١. الحصار الاقتصادي والاجتماعي... ٥٥٥
- قريش تحاصر النبيّ والمسلمين اقتصادياً واجتماعياً... ٥٥٦
- وضع بني هاشم المأساوي في الشعب... ٥٥٩
٢٢. أبو طالب رجل الإيمان والتضحيات... ٥٦٧
- نماذج من مشاعر أبي طالب ومودّته للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم... ٥٧٠
- التغيير في برنامج السفر... ٥٧٣
- أبو طالب والدفاع عن حوزة العقيدة والإيمان... ٥٧٤
- تصوّر باطل... ٥٧٦
- الدافع الحقيقي لأبي طالب في دفاعه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم... ٥٧٧
- لمحات من تضحيات أبي طالب... ٥٧٨
- تكفير أبي طالب قضيه ذات بواعث سياسيّه... ٥٨٠
- الأدله على إيمان أبي طالب، وفيها ثلاث طرق... ٥٨١
- الطريق الأوّل: آثار أبي طالب العلميّه والأدبيّه... ٥٨٢
- الطريق الثاني: دفاع أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحمایته له... ٥٨٤
- وصيه أبي طالب عند وفاته... ٥٨٥
- الطريق الثالث: رأى أقربائه وأصدقائه... ٥٨٦
- رأى علماء الشيعة في أبي طالب... ٥٨٨

نظره إلى حديث «الضحاح»... ٥٨٨

١. ضعف أسناد هذه الرواية... ٥٨٩

٢. نصّ حديث الضحاح يخالف الكتاب والسنة... ٥٩٠

٢٣. المعراج... ٥٩٣

ص: ٧٠٢

المعراج في نظر القرآن والسنة والتاريخ... ٥٩٣

هل للمعراج جذور قرآنية؟... ٥٩٦

أحاديث المعراج... ٥٩٨

متى وقعت هذه الحادثة؟... ٥٩٩

هل كان المعراج جسمانياً؟... ٦٠٢

ما هو المراد من المعراج الروحاني؟... ٦٠٣

نغمه شاذة: هل كان المعراج بالبدن البرزخي؟... ٦٠٦

المعراج وقوانين العلم الحديث... ٦٠٧

ما هو الهدف من المعراج؟... ٦١٢

٢٤. سفره صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف... ٦١٤

النبى صلى الله عليه وآله وسلم يعود إلى مكة... ٦١٨

الدعوة في أسواق العرب... ٦٢١

دعوه رؤساء القبائل في مواسم الحج... ٦٢٢

٢٥. بيعه العقبة... ٦٢٤

وقعه بُعث... ٦٢٦

تفصيل الحادث... ٦٢٧

بيعه العقبة الأولى... ٦٢٨

بيعه العقبة الثانية... ٦٢٩

أوضاع المسلمين بعد بيعه العقبة... ٦٣٢

ردود فعل قريش تجاه بيعه العقبه... ٦٣٥

تأثير الإسلام ونفوذه المعنوى... ٦٣٧

مخاوف قريش المتزايدة... ٦٤٠

حوادث السنه الأولى من الهجره... ٦٤٣

٢٦. قصه الهجره... ٦٤٣

ص: ٧٠٣

الموضوع... الصفحة

الإمدادات الغيبية والعنايات الإلهية... ٦٤٥

ملك الوحي يخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخطه قريش لاغتياله... ٦٤٧

إقتحام الأعداء لبيت الوحي... ٦٥٠

النبي في غار ثور... ٦٥٢

قريش تفتش عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم... ٦٥٢

الإمام على عليه السلام والتفاني في سبيل الحق... ٦٥٣

كلام من ابن تيمية حول مبيت الإمام على عليه السلام في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم... ٦٥٧

الجواب التفصيلي... ٦٥٩

الخطيب وقضية المبيت... ٦٦١

بقية قصه هجره النبي... ٦٦٢

الخروج من الغار... ٦٦٥

صفحة التاريخ الأولى... ٦٦٥

لماذا أصبح العام الهجري مبدأ للتاريخ؟... ٦٦٦

الهجرة النبوية مبدأ لتاريخ المسلمين كافة... ٦٦٧

من الذي جعل الهجره مبدأ للتاريخ؟... ٦٧٠

نماذج من رسائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة المؤرخه... ٦٧٠

مؤامره الطاغوت... ٦٧٧

الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يبدأ رحلته إلى يثرب... ٦٧٧

النزول في قريه قباء... ٦٨٠

المدينه تهبُ لقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم... ٦٨٢

النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدخلُ المدينه... ٦٨٤

أصل النفاق ومنشؤه... ٦٨٦

فهرس المحتويات... ٦٨٩

ص: ٧٠٤

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع :: www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

